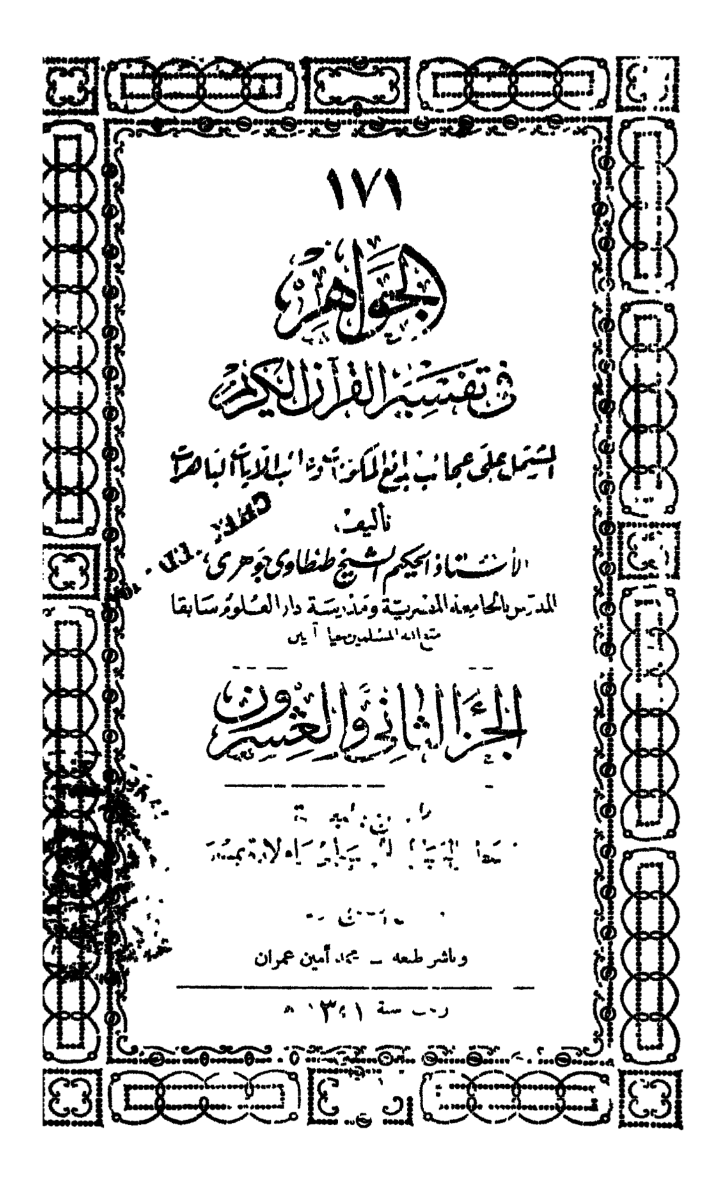


الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

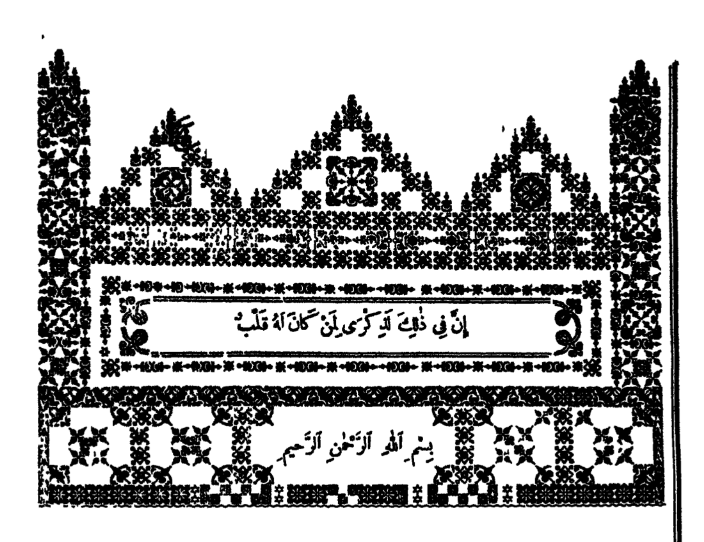
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الثاني والعشرون

وناشر طبعه ــ محمد أمين عمران

سنة ١٣[illegible]١ هـ



تفسير سورة الفتح

(هى مدنية)

نزلت فى الطريق عند الانصراف من الحديبية

آياتها ٢٩ — نزلت بعد الجمعة

(بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَيَنْصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً * هُوَ ٱلَّذِى أَنْزَلَ
السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذٰلِكَ عِنْدَ ٱللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً * وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ
وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ

اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ
اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ
فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا
فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ
أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ
يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ
وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا * وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا *
وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *
سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ
اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ
إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ
أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا * لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ
يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا *
لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ
السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *
وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ
وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ
أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا * وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ
ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

* وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا * لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا * مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُ فَـَٔازَرَهُ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *

هذه السورة أربعة أقسام

﴿ القسم الأوّل ﴾ فى تفسير البسملة

﴿ القسم الثانى ﴾ فيما بشرالله به نبيه بالفتح ، واعزازدينه ، ووعدالمؤمنين ، ووعيدالكافرين والمنافقين من أوّل السورة إلى قوله « فسيؤتيه أجرا عظيما » .

﴿ القسم الثالث ﴾ فى ذمّ المخلفين من عرب أسلم وجهينة ، ومزينة ، وغفار ، وزجرهم ، وفى رضوان الله على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ ووعدهم بالنصر فى الدنيا ، وبالجنة فى الآخرة ، من قوله تعالى : « سيقول لك المخلفون من الأعراب » إلى قوله : « وكان الله بكل شىء عليما » .

﴿ القسم الرابع ﴾ فى البشرى بتحقيق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، وأن ذلك يكون ، وقد تمّ ذلك الخبر فى العام القابل ، وفى وصف النبىّ صلى الله عليه وسلم والذين معه بالرحمة والشدة ، وأنهم كزرع يعجب الزرّاع ، من قوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » الى آخر السورة .

القسم الأول فى تفسير البسملة

اعلم أيها الذكىّ أن الرحمة على قسمين : رحمة عامّة ، ورحمة خاصة . فالعوالم العلوية والسفلية والهواء والماء والأثير والنور رحمة عامة ، فأما الصحة والعقل والملك وما أشبه ذلك فهى رحمات خاصة ، ولقد جعل الله لكل امرئ فى أرضنا سرّا خاصا بينه و بين ربه ، فانه يجعل لكل انسان مطالب خاصة توافق مزاجه ، ومتى قضاها الله له فانه يحمده عليها حمدا كثيرا ، وهذه المطالب عددها بعدد الأشخاص الانسانية فى الأرض ، وكل امرئ مطلبه على مقدار همته ، ضعة ورفعة ، ونقصا وشرفا ، فهل أحدثك عما فتح الله به علىّ وعلى أممنا الاسلامية ، وكيف كان ذلك سرّا بينى و بينه تعالى ؟ وكيف اتجهت همتى نحو ذلك الأمر ؟ وكيف أجاب الله دعائى ، أنا أعترف وأقرّ وأشهد المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، أننى دعوت الله بما سأذكره ، وأن الله أجاب دعائى وحققه فعلا ، وذلك الدعاء كان موجها للنعم الخاصة كما هو شأن الناس جميعا ، تعلمت القرآن فى مكتب صغير لاعلم فيه ولا فهم ، وانما هو الحفظ المجرّد ، نظرت أبناء عمى يسافرون إلى الجامع الأزهر ، أحببت أن أتعلم ، احترق فؤادى على العلم ، أحسّ والدى بذلك ، أرسلنى إلى الازهر ، درست العلوم اللسانية والفقهية ونحوها ، لم يشف ذلك غلتى ، كنت فى أثناء عطلتى أفكر وأنا فى مزرعتنا فى القمح والقطن والخشخاش نهارا ، والنجم والسماء ليلا ، وفى آثار الاول التى خلفها قدماء المصريين ، أصوم نهارا ، أصلى ليلا ، أضرع إلى الله أن يعلمنى ، أنا جاهل جدّ جاهل ، حضرت دروس التفسير ، ولكن يشتدّ دعائى دائما ، أطلب من صاحب هذه النجوم والشمس والقمر أن يعلمنى عجائب هذه الدنيا ، وحركات أفلاكها ، ونظام زرعها ، وكيف يكون ارتقاء أمم الاسلام .

هذا دأبى ، وهذا هو السرّ الخاص بينى و بين الله عزّ وجل ، وهو الذى كان يهمنى ، يهمنى أن أقف على نظام هذا الوجود ، وعلى سرّ تأخر المسلمين ، وعلى حقائق دين الاسلام ، وكيف يرتقى المسلمون ؟ وما السبيل لذلك ؟ إنّ هذا المقام واضح فى كتابى « التاج المرصع » وهذا إجمال ماهناك . لم يكفنى ظواهر العلوم ، ولاسبيل لدىّ إلا الدعاء ، فأخذت أدعو الله كل حين أن أعرف ماتقدم ، فانتظمت فى سلك طلبة دار العلوم وهنا كانت دهشتى ، فانّ ما كنت أدرسه بنفسى مجملا من النظر فى الكواكب ليلا ، وفى المزارع والهواء والضوء نهارا هو عينه الذى يدرس فى المدارس النظامية : حساب وهندسة وجبر وفلك وطبيعة وكيمياء ، وكنت واضعا نصب عينىّ دائما رقىّ أمم الاسلام ومعرفة الله تعالى بعقولنا معاشر بنى آدم ، وكنت لا أبالى بالعلوّ والعظمة ، بل كانت كل أمنيتى المعرفة وأن أكون مجهولا لايعبأ بى ، فان نفسى تقرّر فيها أن سعادتها فى العلم ، أما الاعظام و بعد الصيت فانها لاتعبأ به . وقد كنت أرى أننى أجهل الناس وأضعف الطلبة .

كان مدرّس الانشاء هو المرحوم الشيخ أحمد مفتاح وقد عرضت أوراق امتحان الانشاء على المرحوم الشيخ محمود العالم الذى عين ممتحنا لنا من الوزارة آخر سنة من سنى الدراسة ، ولقد كانت دهشتى عظيمة عند ما قابلنى المرحوم الاستاذ الشيخ أحمد مفتاح وقال لى : إن الشيخ محمود العالم لما قرأ موضوعك (وهو اكتب خطاب تهنئة وتعزية) قال : إن هذا الموضوع منقول من الكتب القديمة : فليس فى مصر الآن من يكتب هذا . قال : فأحضرت له ما كنت تكتبه أنت طول السنة من الانشاء فاقتنع بذلك وأعطاك نمرة ١٩ من عشرين ، وقد كنت أنا لا أزيدك عن ١٨ فقلت له : عجبا ! أنا كنت أظن أن هذه النمرة أنت تعطيها لى لمجرّد شهرتى فى اللغة العربية ، لا للانشاء ، لأنى لا أعتقده انشاء ، فعجب ! وقال : كلا . أنا أعطيك النمرة على نفس الانشاء .

وانما ذكرت هذه الحادثة لأبين مقدار اتهامى لنفسى وعدم ثقتى بها ، وأنا لست أقول ان هذه صفة

محمودة . كلا . بل هي مذمومة لانها تكون سببا فى تعطيل المواهب الإلهية ، ولكنى أقرّر الحقيقة فى ذاتها . ولقد ذكرت فى هذا التفسير وفى غيره مرارا وتكرارا أنى قبل أن أعرف هذه العلوم عاهدت الله أنه اذا علمنى الحقائق على مقدار طاقتى لأؤلفنّ كتبا ينتفع بها الشبان الذين يشتاقون لما أشتاق إليه ، ولا يعذبون كما عذبت فى الوصول إلى الحقائق .

فلما أن وظفت فى الحكومة بعد الخروج من المدرسة ، وصرت مدرّسا ، أخذت نفسى تطالبنى بالوفاء بعهدها ، ولقد عرفت فأين التأليف ؟ فألفت كتاب « جواهر العلوم » و « ميزان الجواهر » بادئ ذى بدء وهنالك كانت حوادث منزلية أزعجتنى ولكن لم يكن ليؤثر شيء على نفسى من حيث التأليف ، ثم توالى التأليف والنشر فألفت « جمال العالم » و « النظام والاسلام » و « نظام العالم والأمم » و « التاج المرصع » وغيرها من الكتب والرسائل ، وها أنا ذا الآن أكتب فى تفسير القرآن الذى انتشر فى أقطار الاسلام ، وترد علىّ الرسائل من تلك الأقطار النائية . ولقد قرأه وقرأ الكتب قبله اخواننا المسلمون فى شمالى افريقيا والسودان والشام وبلاد اليمن وحضرموت وايران وبلاد جاوه وما حولها وعموم (اندونسيا) ويدخل فيها سومطره وغيرها وهكذا بلاد التركستان الروسية والتركستان الشرقية التى عاصمتها كاشغر . ولعمر الله لم يكن ليدور بخلدى ، أو يخطر لى ، وأنا على شاطئ نهر أبى الأخضر بالقرب من قريتنا كفر عوض الله حجازى بالشرقية وانا أبحث عن حشرة ودويبة صغيرة تكون ذات خطوط منتظمة تعرّفنى أن فى العالم نظاما وجمالا وبهجة ، وقد عثرت فعلا على حشرة عليها خطان : أبيض ناصع ، وأحمر قان ، وقد انتظما بهيئة هندسية ، ودهشت للنظام والجمال وقلت ههنا مبدأ نظام . أقول ما كان ليخطر لى أن ماقطع فؤادى ، وأقض مضجعى ، وأطار نومى ، وأسهر جفنى ، وأطال ليلى ولأجله سامرت النجوم ، وحالفت الوجوم ، وباينت العموم . سيصل يوما ما الى الشبان فى أقطار الأرض ، ويدرسه العربى والأندنوسى والهندى والصينى ، ويقدم من نفس « كاشغر » أحد شبانها ويقول لى فى هذا الشهر وهو شهر يونيو سنة ١٩٣١ م مانصه : « لقد أقض الفكر مضجعى ، وأطار نومى ، وصرت أغدو وأروح بين الاشجار المزهرة والحدائق النضرة المحيطة بقرانا إلى امتداد ثلاثة أيام ، وفيها الروح والريحان والازهار والأثمار . كل ذلك نهارا ، فاذا جنّ الليل علىّ وأرخى سدوله ، أخذت أسامر النجوم ، وأطارد الهموم ، فلا النجوم تحادثنى ، ولا الهموم تزايلنى . وأسأل الله . أقول له : رباه : ماهذه النجوم الثواقب ؟ وماهذه العجائب ؟ ألسيرها نظام ؟ ومابراهينها ؟ وماهذه البدائع .

« رباه : أنا جاهل جدّ جاهل . أنا مستغيث بك فأغثنى . وجاهل فعلمنى . واذا طلع النهار أخذت أسامر الازهار على الاشجار ، وأقول : أيتها الازهار : ما أخبارك ؟ وماجمالك ؟ وماعجائبك ؟ ثم أقول : أيتها الاشجار كلمينى كيف نظامك ؟ وماعناصرك ؟ وكيف كان نموّك ؟ وما هذا الترتيب الذى أراه فى أوراقك ؟ فلا أسمع جوابا ، وأنشد :

لقد أسمعت إذ ناديت حيا * ولكن لاحياة لمن تنادى

« ولما اشتدّ علىّ الوجد ، وزاد الهيام ، طفقت اذا جنّ الليل أربط جسمى بحبل فى وتد نافذ فى حائط وأبكى حتى الصباح ، ودمت على ذلك ليالى ، وذلك من شدّة اليأس من أساتذتى إذ كنت أسأل أحدهم هذه الأسئلة فيقول : هذا فعل الله ، ولما أكثرت السؤال طفقوا يشيعون أنى مجنون ، فلم يكن لى محيص من ذلك البكاء والعويل فى خلوتى والتظاهر بالسلوى أمام الناس . قال : وبعد ازدياد اليأس وقع كتاب « التاج المرصع » فى يدى ، أعاره لى أحد الأصدقاء ، فوجدت أسلوبا لم أعهده ، وأخذت أقرؤه : فألفيته يصف حالا هى نفس حالى ، ونفسا كانت محترقة كنفسى ومحرومة ، مما يشفى غليلها ، فطالعته بلهف مدة ثلاثة أشهر ، فزالت حيرتى ، وحرّك وجدى للسفر خارج بلادى ، كما حرّك وجدان ثلاثين شابا مثلى ، فسافرنا إلى

(كابل) وقد استصحبت « التاج المرصع » معى ولم أخبر بسفرى من أعاره لى ، فلما وصلت إلى (كابل) بلاد الأفغان وجدت فيها نسخا كثيرة منه ، فأرسلت الكتاب لمعيره لى وأعلمته بسفرى ، وهاأناذا اليوم قد تعلمت فى مدارس تركيا ، ونلت شهادة ، وقرأت اللغة الفرنسية ، وقد سافرت بعثتان أخريان إلى الأقطار الشرقية الغربية بعد أن عرفوا هذه الحقائق وقرءوا كتب المصريين ، ومنها كتاب «الجواهر» فى تفسير القرآن الكريم المنتشر حديثا ، فسألته : أقرأته باللغة العربية ؟ فقال نعم . فقلت : هو مترجم بلغتكم التركية فأطلعته عليها فدهش وقال : هـذه لغة راقيـة ولكنى لم أطلع عليها لأن قيصر الروس ما كان ليجعل بيننا وبين اخواننا فى القازان وغيرها مواصلة .

ثم قال : « اننا بكتبك قد أصبحنا نوقن أن ما كان كفرا عند أسلافنا هو نفس الواجب المقرّب إلى الله تعالى » انتهى

هذه هى الرحمة التى أردت أن أذكرها فى تفسير البسملة فى أوّل سورة الفتح ، أوليس من العجب أنى لم أوفق الى تمام هـذا الموضوع فأعرف خبر آخر بلاد الاسلام إلا عند تفسير سورة الفتح ، وأرى كتابى « القرآن والعلوم العصرية » بعينىّ مترجما إلى لغة الملايو ، أوليس مما يوجب علىّ اعلان شكرى لله وحده وتقديسه ، والهيام به ، وافراغ الجهد فى طاعتـه أن يكون انتشار هذه الفكرة هو غاية مطلبى ، ثم يتمّ ذلك المطلب وأنا حىّ وأعلم به ، وهو هو الفتوح الخاص الاسلامى ، هـذا هو النصر والفتح المبين فى زماننا ، وقد قدّمنا أن الرحمة عامة وخاصة ، فالعامة تفصلها جميع العلوم ، والخاصة بنا وبالأمم الاسلامية هى ما ذكرته الآن وقد قدّمت أن كل امرئ بينه وبين ربه أمر خاص ، فهذا هو الامر الخاص الذى اشتد طلبى عليه ، وقد نلته ، وهل لى بعده مطلب ؟ هو آخر مطالبى ، هو نهاية مقصدى ، الحمد لله فلأقرأ ما جاء فى الذكر الحكيم على لسان ابراهيم عليه السلام : « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحق إنّ ربى لسميع الدعاء »

كتب صباح يوم الأحد ٥ يوليو سنة ١٩٣١ م

تذكرة

لقد تقدم فى سورة محمد ﷺ فى تفسير البسملة أن قتال الكافرين المذكور فيها توطئة لفتح البلاد ونشر العلوم ، فأمم الاسلام لم يكن الفتح لهم خاصا بمكة ، إن الاسلام انتشر فى أقاصى المعمورة ولا يزال ينتشر بل هو الآن ينتشر فى أمريكا وفى أوروبا ، إنما المهمّ المدهش أن الفتح يشمل الفتح العلمى ، والعلم المنتشر فى الكرة الأرضيـة الآن باجماع علماء العالم قاطبـة سببه دين الاسلام ، فالمسلمون حركوا الأمم وان كان المحركون لهم قد ناموا قبل هذه الأيام .

إن أوروبا هجمت على الشرق فحملوا دين المسيح بدل الوثنيـة عندهـم ، وبعد قرون جاء الاسلام فأقصاهم وأرجعهم إلى بلادهـم ، فهجموا على الشرق كرة أخرى بالحروب الصليبية ، فحملوا معهم المدنية الاسلامية والعلوم المنشورة فيها ، ثم هاهـم أولاء يهجمون على الشرق كرة أخرى اليوم ، وها هو ذا الشرق أخذ يعدّ عدّته ، وستكون نهضة الأمم كلها بسبب الشرق والعقول المخزونة فيه التى ستساعد على الرقىّ المنتظر فالنظام الحالى سببه فتح الاسلام المبـين ، والنظام المستقبل سيكون بمساعدة المسلمين . أفلاأسمعك ما جاء فى مقال جاء فى جريدة الاهرام بتاريخ ٢٤ مارس سنة ١٩٣١ م فقد جاء فيها تحت العنوان التالى ما نصه :

العالم بعد خمسين سنة

العلماء يتنبئون

نيويورك فى ١٥ مارس (المراسل الاهرام الخاص) : العلماء هم أنبياء هذا الزمان ، وأنا أعنى العلماء العاملين ، لاأولئك الذين يسطرون للقرّاء أقوالا لاهم يفهمونها ولاالذين يقرءونها ، يعرف المطلع على تاريخ تدرّج العمران ، ورقىّ الانسان ، كيف فتح الناس الكرة ، وذللوا صعابها ، ومهدوا عقباتها ، وأخضعوا وحوشها ، وحوّلوا آجامها إلى جنات غناء ، واستأصلوا معظم ما كان ينتابها من الأوبئة ، وكيف تغلب العقل البشرى على القوى الطبيعية فأرغمها على خدمته ، والعمل باشارته ، وألجم البخار والبرق والغاز وقام بأعمال كثيرة كانت معدودة من المستحيلات ، فما الذى بقى وراء ستائر الغيب من مدهشات العلم وعجائبه ؟ وما الذى سيقدم عليه النبوغ البشرى من الغرائب الشبيهة بالعجائب . لنسمع جواب أنبياء العلم فان فيما ألخصه من أقوالهم مايبرد غلة التائق إلى معرفة ماسيكون ، إنهم يستنيرون بالماضى لاختراق ظلمات المستقبل ومعرفة ماسيتمّ فيه من نتاج الأدمغة المفكرة .

يقول قائلهم : إن الملايين منا يتذكرون الخمسين سنة الماضية ، وآباؤهم بدورهم يتذكرون الخمسين سنة التى قبلها ، فالمائة عام التى وراءنا قد كانت مسرحا لانقلاب كبير فى حالة العالم وطرائق المعيشة فيه ، فانقضت أيام المركبة الخشبية التى تجرّها الجياد ، وجاء زمان القطرات الحديدية ، والسفن البخارية ، واخترع التلفون فقرّب الأبعاد والمسافات ، وتلا ذلك التليفون والتلغراف اللاسلكيان ، ورفعت الطيارات أهل هذا الزمان من الغبراء إلى الأجواء ، فقهرت ناموس الجاذبية ، وحلت السيارة محل الجواد فى شوارع المدن والطرقات ، وخففت الكهرباء أعباء أعمال النساء ، فتولت عنهنّ الكنس والغسل ، وادارة آلة الحياطة ، وتنظيف المنازل وأوجدت الحرارة للدفء ، وبرّدت الهواء الحارّ بمراوحها ، وأنارت المنازل والشوارع والطرق المؤدّية إلى البلدان ، ونابت عن الناس فى فتح الابواب للزائرين ، وأدارت الآلات على اختلافها ، وجرت القطارات والمركبات العمومية ، وتولت فوق هذا كله قتل المحكوم عليهم بالموت .

وفى المائة سنة التى انقضت نالت النساء حقّ الاقتراع والمشاركة فى إدارة الحكومة ، وتدانت الأمم بعضها من بعض ، فتسنى لها الاجتماع معا بسهولة للتفاهم بشأن الاعمال والمتاجر والشؤون السياسية كما كان يفعل الأفراد فى البلد الواحد ، وكان الناس من مضىّ خمسين سنة ينظرون الى الغنىّ صاحب المليون ريال بعين الاعجاب ، أما اليوم فالذى يبلغ دخله السنوى مليونا واحدا لايعدّ من الاغنياء ، ففى أمريكا اليوم رجل له دخل أسبوعى يزيد على مليون ريال ، وهنرى فورد صانع السيارات المعروفة باسمه يدفع للحكومة ضريبة على دخله السنوى تزيد على العشرين مليون ريال ، كان الناس من قبل يتعاملون بالملايين واليوم يتعاملون بالبلايين ، وبعد أن تنتهى حكومة الولايات المتحدة من منح الهبات المالية للجنود الذين شوّهوا فى الحرب الأخيرة تكون قد أنفقت خمسة وسبعين بليون ريال ، والدول الاوروبية مدينة لها بمبالغ أحد عشر بليون ريال ، مما يؤيد ماقلناه من أن مقادير الغنى قد تغيرت وتعاظم أمر الثروات بحيث ان الذين كانوا يحسبون ثروتهم بالملايين أصبحوا فى هذا الزمان يعدّونها بالبلايين ، وصار البليون المقياس المعوّل عليه فى المعاملات الدولية

كانت الخمسون سنة الماضية أعوام أعمال كبيرة أنشأها طوائف من الناس متحدون معا . ولكن الفرد من الناس لم يكبر عما كان عليه ، ولاصار أهنأ عيشا وأسعد حالا ، فهو من هذا القبيل كالقطرة من الاوقيانوس العظيم لاتزيد فى الكبر على أية قطرة ماء فى أصغر وعاء ، وهكذا الناس فانهم لايزالون كائنات بشرية صغيرة ، قطرات فى أوقيانوس المجموع المدرك الحساس المعروف باسم الجنس البشرى ، الاوقيانوس يكبر ويتعاظم فى

الاتساع والقوّة ، إلا أن القطرات التى تؤلفه لايطرأ عليها تغيير فى ذاتها ، فكيف يتمكن الفرد من أن يكون أعظم مما هو وأن تكون حياته كاملة من كل وجه ؟ ذلك هو السؤال الذى لم يستطع الخمسون سنة الماضية بل الالوف من الأجيال الذاهبة الاجابة عليه : كشف الانسان الراديوم فى الأرض والعناصر والمعادن المختلفة والقوّات الطبيعية التى لم يكن لأسلافه بها علم ، ولكنه من حيث اصلاح نفسه لم يأت بسوى القليل ، وقد يكون ماقيل صحيحا من أن متوسط الذكاء بين الاجناس العليا من المتمدينين هو اليوم أقلّ منه بين أهل أثينا منذ ألفين وخمسمائة عام مضت ، فمن الوجهة العلمية والوجهة الفنية الآلية من حيث الحذق والابداع والاحاطة بما يحيط بنا من الأشياء المنظورة الكائنة عند اقدامنا إلى المجرّة فى السماء قد ارتقينا وأحسنا عملا ولكننا كأفراد لم تتقدّم إلا قليلا ، ولا أحرزنا من التحسن إلا اليسير التافه .

فما الذى يجىء فى الخمسين سنة التالية سيتكلمون أيامئذ عن الفحم الحجرى الذى نفد ، وعن آبار الزيت التى نضب معينها . وهكذا قبل أن ينفد الفحم والزيت يكون الناس قد تمكنوا من تقييد المدّ والجزر أوقوّة الشمس وكشفوا نيرانا مخبوءة فى جوف الارض على مسافة أميال من مواطئ أقدامنا ، وعندئذ يهزءون بما كان يفعله أسلافهم .

والعلماء على يقين من أنه قبل أن يبلغ أحداث اليوم الشيخوخة تكون الأسفار الطويلة عبر الأوقيانوس وحول العالم فى الطيارات ، فيتناول الراكب فيها طعام العشاء فى باريس ، وطعام الغداء فى نيويورك ، ولقد كان من غرائب الأيام التى انقضت أن يناجى الشخص الموجود فى أعلى طبقات المخزن مع آخر فى أسفله بواسطة الأنبوب الذى ابتدع لذلك القصد ، ثم جاء التليفون فتناجى الناس به بين البنايات والمدن والبلدان المختلفة على مسافات سحيقة .

والناس اليوم يستخدمون اللاسلكى لنقل الاصوات إلى الأبعاد الشاسعة ، فتسمع أوبرا نيويورك فى لندن وباريس والصين ، وفى الهند والعراق بوضوح وجلاء كما يسمعها أهل نيويورك ، ويقل اندهاش الفكر البشرى بتلك الاكتشافات والاختراعات بعد انقضاء الاسبوع الواحد على وجودها ، فلايعبأ أحد بها بل يوجه اهتمامه لشىء جديد يكون أعجب وأغرب ، جاريا فى ذلك على الاعتقاد الذى أصبح جزءا من طبيعته بأن كل شىء ممكن ، وفى الأعوام القليلة المقبلة ستضع آلة على صندوق الراديو فى منزلك فتريك الممثلين فى الملاعب والخطباء على المنابر وتسمعك أصواتهم .

ذلك ماستقوم به الكهرباء التى لانفهمها إلا بما يبدو منها ، فهى قد قامت مقام الانسان فى أعمال كثيرة تطبخ ، وتكنس المنازل ، وتكوى الملابس ، وتدفئ الحجرات فى الشتاء ، وتبرّدها بالمراوح فى القيظ ، وتصنع لك الجليد والمركبات المختلفة ، وتسيرها ، وتدفئها فى الشتاء ، وتبرّد هواءها فى الصيف ، وتفتح أبوابها للخارجين والداخلين الذى أغنى الشركات عن ملايين العمال . ومثل ذلك تفعل فى المعامل على اختلافها ، وتبعث بالرسائل إلى أقاصى المعمورة ، وهى التى تمكنك من مخاطبة البعيد عنك بالتليفون السلكى واللاسلكى . وسيقلّ اهتمام الناس فى المستقبل بنفقات الفحم لاتقاء البرد لأن نور الشمس الذى يلجمه العلم يجعل الهواء معتدل البرودة ، أوحارا مقبولا ، وذلك بواسطة مراكز للقوّة تبقى معدل الحرارة عند نقطة معلومة محتملة من البرد والحر السنة بطولها .

ويقول أحد العلماء فى كتاب عنوانه « المستقبل » مانصه : « إن هذه السنوات ليست أضغاث أحلام بل هى مبنية على درس الثورة التى يسير عليها التمدّن الذى لايلين حاملا معه الجنس البشرى إلى حيث يكون كما خلق ليكون ، فمن مضىّ ثلاثين عاما كان التلغراف اللاسلكى مقتصرا على أذرع معدودة ، أما اليوم فانه يساعدنا على إيصال هزات الكهرباء إلى أقاصى الأرض ، والى القمر أيضا ، فما الذى نقوله إذن

عن الغد » .

و بعد دورة قصيرة من الزمان تعصّ أرجاء السماء بمواكب هوائية ضخمة ، وتكون سريعة الطيران فتجتاز الاوقيانوس بنحو الساعة من الوقت ، ولا يكون ثم خطر من الاصطدام ، لأن العلم سيبتدع مايساعد المركب الهوائى على الشعور بدنوّه من مركب أخرى ولوفى الظلام الدامس أوالضباب الكثيف ، وقد يصل بنا العلم الى عهد نستغنى فيه عن مولدات القوّة فى مراكب الهواء ، فتستمدّ قوّتها من الهواء الذى تسيرفيه

وتساعد الأشعة الكهربائية الانسان فى مستقبل الأيام على تحويل الأمطار إلى الصحارى والبلدان القليلة أوالعديمة المطر ، فتحوّلها إلى جنات نضرة عظيمة الاقبال ، زاهرة بمحصولات لاتخطر لنا اليوم ببال .

وتكون الكهرباء العامل الأكبر على إنماء المزروعات بحرارتها ، ويرتقى فنّ الجراحة إلى أرفع الدرجات ، بحيث يتمكن الجرّاح من جعل الوجه الشنيع جيلا ، وتكون الاعمال الجراحية فى المستقبل قبل الولادة ، فتجعل تقاسيم وجه الطفل كما يراد أن تكون ، لأنه من الظلم أن يكون قبح صورة أحد الناس عثرة فى سبيل نجاحه ، فأمثال هذه المشوّهات يستأصل فى أوّل العمر أوقبل الولادة ، ويصير أمر تحديد النسل من الامور الضرورية ومن لزوميات التمدّن ، فلايسمح يومئذ إلا لعدد معلوم من الناس فى الاكثار من البنين ، هؤلاء تختارهم الحكومات بالطرق العلمية ، وتساعدهم ماليا ، وذلك لأن الارض تصبح مكتظة بالسكان بحيث يصير من الضرورى تحديد عدد المواليد بخلاف ماهى الحال الآن ، يلد الفرد مايشاء من الأولاد سواء قدر على تربيتهم واعالتهم أوقصر فى ذلك ، وتصبح الامومة وظيفة شريفة تسيطرعليها الحكومة وتقوم بالنفقات .

ولكن هذه الحالة لاتطول كثيرا ، فقد يعمدون يومئذ إلى توليد الاطفال فى معامل الكيمياء بطريقة علمية بحتة وعلى قدر الحاجة لسدّ الفراغ الذى يحدثه الموت ، ولايزال أمامنا حسبما يعتقد عظماء العلم مائة مليون سنة للقيام بأعمال أخرى عديدة تعجزعقولنا القاصرة عن الاحاطة بها ، فسوف نتمكن من مناجاة السيارات العليا المنتشرة فى ذلك الفضاء الذى لاحدّ له لأن الكثير منها مأهول بأناس عاملين مفكرين .

فالأثيرالذى يشمل كل فضاء هوالذى يحمل رسائلنا إليها كما يحملها فى أرضنا من قارّة إلى أخرى ، فلو تنبأ انسان من مضىّ خمس وعشرين سنة عن امكان ابتداع الطيارة والتحليق بها فى الجوّ من مكان إلى آخر ، أوعن البرق اللاسلكى ، وقال : إنّ الخطيب أوالمنشد الذى يتكلم ، أو يغنى فى نيويورك يكون مسموعا بوضوح فى أقاصى الأرض لزجوه فى مأوى المجانين ، ولكن ما الفائدة من التخمين أوالتنبؤ ؟ انه لم يعط لنا أن نعرف ماذا سيكون ؟ انتهى الكلام على القسم الأوّل فى تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين .

القسم الثانى من السورة

التفسير اللفظى للسورة كلها

بسم الله الرحمن الرحيم

فى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير فى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب كان يسيرمعه ليلا ، فسأله عمر عن شئ فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه . فقال عمر : ثكلتك أمك ياعمر ، كرّرت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرّات ، كل ذلك لايجيبك ، قال عمر : فحركت بعيرى حتى تقدّمت أمام الناس ، وخشيت أن ينزل فىّ القرآن ، فما لبثت أن سمعت صارخا يصرخ بى ، فقلت : لقد خشيت أن يكون نزل فىّ قرآن ، فجئت رسول الله ﷺ ، فسلمت عليه ، فقال : لقدأنزل علىّ الليلة سورة لهى أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » .

وروى الترمذى أن ذلك كان وهو راجع من الحديبية ، قوله عزّوجل (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) أى إنا قضينا وحكمنا لك فتحا مبينا ظاهرا ، أى فتح مكة وماقبلها كفتح خيبر وفدك وصلح الحديبية ومابعدها كفتح فارس والروم وسائر البلاد . وهذا التفسير جمع سائر الأقوال ، فاذا قال البراء تعدّون أنتم الفتح فتح مكة ، ولقد كان فتح مكة فتحا ، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، وذكر أن الحديبية بئر قد نزحوها ولم يتركوا فيها قطرة ، وكانوا أربع عشرة مائة ، فلما توضأ ﷺ وتمضمض ودعا وصبه فيها سقتهم وسقت ركابهم وماشيتهم ، واذا قال مجاهد انه فتح خيبر ، واذا قال غيرهما هوفتح فارس والروم وسائرالبلاد فهذا كله داخل فيما قلناه ، ويكون فتح مكة أظهرها وأشهرها ، وماقبله مقدمة له ، ومابعده تابع له ، مرتب عليه . واعلم أن لكل عامل فى عمله نهاية يبتغيها ، وثمرة يجتنيها ، فنهاية الزرع إدراكه ، ونهاية الشجر أثماره ونضجه ، وثمرة ذلك الانتفاع بحب الزرع وثمرالشجر ، هكذا النبوّة لها نهاية مطلوبة فى الحياة الدنيا وثمرة تتبع هذه النهاية ، فنهاية أمر النبوّة أن تلتئم وحدة أمة من الأمم ، ويجتمع شملها ، ويتمّ نظامها ، ولن يكون ذلك إلا بعد دعوة مستفيضة وجهاد علمىّ وعملىّ وقتال ، وجمع المجاهدين على العدوّ ، ومتى أتموا عملهم ، وأنقذوا المستضعفين ، وحموا البيضة ، وأدخلوا رجالا فى الدين كرها ، ثم بالتدريج يدخلون طوعا . فاذا تمّ ذلك فقد انتظم أمرالنبوّة وأدّى واجبها ، وهذا نهاية ماعلى الرسل ، واذن يستوجبون ثمراتها وهى :

(١) معفرة مافرط منهم مما يعدّ ذنوبا بالنسبة لمقامهم .

(٢) واجتماع الملك مع النبوّة بعد أن كانت النبوّة وحدها .

(٣) والهداية إلى الصراط المستقيم فى تبليغ الرسالة ، واقامة مراسم الرياسة .

(٤) والنصر الذى فيه عزّ ومنعة .

فهذه الثمرات الأربعة مرتبة على تمام أمر النبوّة والجهاد فيها ، وهكذا كل مجاهد بعد اتمام جهاده ينال الثمر على مقتضى المقدّمات ، فالفتح المذكور المترتب عليه ماذكر رمز إلى الأعمال التى استوجبته من أوّل مانزل الوحى إلى تمام الأمر ، فهذه ترتب عليها هذه الأربعة ، كأن الله يقول : يامحمد ، لقد بلغت الرسالة ونصبت فى العمل ، وجاهدت بلسانك ، وبسيفك ، وجمعت الرجال والكراع والسلاح ، وتلطفت وأغلظت وأحلمت فى عملك ، وفعلت كل ماقدرت عليه حتى تمّ الأمر الذى ندبناك له فلتنل ثمرات ذلك العمل ، فقوله (ليغفر لك الله) متعلق بفتحنا ، وقوله (ماتقدّم من ذنبك وماتأخر) أى جميع مافرط منك مما يصح أن يسمى ذنبا من طبقتك وان كان عند غيرك لايسمى ذنبا لأن حسنات الأبرار سيئات المقرّبين ، أوماتقدّم قبل النبوّة وماتأخر عنها (ويتمّ نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما * وينصرك الله نصرا عزيزا) قد عرفت معناها وأنها مرتبة على الفتح ، لأن من دانت له الرقاب ، وخضعت له النفوس ، وعزّ فقد تمت له النعمة . ولما كان ذلك فى رضا الله هدى صراط الرئاسة ، ونصر نصرا فيه عزّ ومنعة ، لأن أسبابه حاضرة . ولما كان فتح البلاد والنصر على الأعداء بالنبىّ صلى الله عليه وسلم وبجهاد المؤمنين معه وقد فرغ من الكلام عليه شرع يذكر ما للمؤمنين من مزية ، فقال : (هوالذى أنزل السكينة) الثبات والطمأنينة والوقار (فى قلوب المؤمنين) ويلزم من ذلك ثبات الأقدام عند اللقاء ، وكما كان الفتح للأمور الاربعة المنعم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هكذا كانت الطمأنينة فى قلوب المؤمنين (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) أى يقينا مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنان النفس عليها ، ولاجرم أن الله عزّوجل هو الذى دبرأمر العالم فسلط الاجناد فى الأمم المقاتلة والمجاهدة ، فهوالذى دبرها بعلمه ونظمها بحكمته ، فهؤلاء يجاهدون للحقّ ، وهؤلاء يقاتلون للباطل ، وانما دبر ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله ويشكروها فيدخلوا الجنة ، ويعذّب الكفار والمنافقين لما ثبتوا على الباطل ، فينال كلّ نتيجة ماجناه ، وهذا هو قوله تعالى (ولله جنود السموات والأرض) يسلط بعضها على

بعض كما سلط كلا من المؤمنين والكافرين على الآخر (وكان الله عليما) بالمصالح واستعداد النفوس (حكيما) فيما قضاه ودبره (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ويكفرعنهم سيئاتهم) يغطيها ولايظهرها (وكان ذلك) الادخال والتكفير (عند الله فوزا عظيما) لانه منتهى مايراد من منفعة مجلوبة ومضرّة مدفوعة (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) عطف على يدخل (الظانين بالله ظنّ السوء) ظن الامر السوء فيقولون فى أنفسهم : لاينصرالله رسوله ولا المؤمنين (عليهم دائرة السوء) أى دائرة مايظنون ويتربصونه بالمؤمنين لايتخطاهم (وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيرا) أى جهنم ، واعلم أنه كما كان الفتح قد ترتب عليه أمور أربعة للنبىّ ﷺ هكذا فاز المؤمنون بأمور أربعة : الوقار ، وازدياد الايمان ، ودخول الجنات ، وتكفير السيئات . وهكذا الكفار لهم أربعة : العذاب ، والغضب ، واللعنة ، وجهنم . وقوله (ولله جنود السموات والارض وكان الله عزيزا حكيما) يشير إلى أن من هؤلاء الأجناد من هم فى جهنم ليلازموا الكفار لتعذيبهم وهم خزنة النار كما أن ذكر الأجناد فيما تقدّم يشير للملائكة الرحمة الذين يكونون مع المؤمنين لادخالهم الجنة ، ولما كان المقام مقام قهر ذكر العزة والغلبة ، ولما كان سبحانه لايفعل إلا على مقتضى الاستعداد ذكر الحكمة ، ولما أتمّ الكلام على مالكل من الاعمال والثمرات المرتبات عليها أعقبه بما يعمّ النبىّ ﷺ والمؤمنين فقال (إنا أرسلناك شاهدا) على أمتك (ومبشرا ونذيرا) لأجل الطاعة والمعصية ، ولما كان خطابه صلى الله عليه وسلم منزلا منزلة خطابهم خاطبهم قائلا (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزّروه) وتقوّوه بتقوية دينه ورسوله (وتوقروه) وتعظموه (وتسبحوه) وتنزهوه أوتصلوا له (بكرة وأصيلا) غدوة وعشيا ، والمعنى دائما ، ثم ذكر بيعة الحديبية وهى قرية صغيرة بينها وبين مكة أقلّ من مرحلة ، سميت ببئر هنالك كما تقدم ذكرها ، وكان المبايعون ألفا وأربعمائة ، بايعوه على أن لايفرّوا ، ومنهم من بايع على الموت . فقال : (إنّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) لأنه المقصود بالبيعة حال كونهم (يدالله فوق أيديهم) أى نصرته إياهم أعلى وأقوى من نصرتهم إياه ، يقال اليد لفلان ، أى الغلبة والنصرة والقوّة ، أويد الرسول صلى الله عليه وسلم التى هى فوق أيديهم كأنها يد الله ، والله منزّه عن الاجسام وصفاتها ، أى ان عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله عزّوجل من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (فمن نكث فانما ينكث على نفسه) يعنى فمن نقض العهد الذى عقده مع النبىّ ﷺ ونكث البيعة فان وبال ذلك وضرره يرجع إليه ولايضرّ إلا نفسه (ومن أوفى بما عاهد عليه الله) أى من البيعة (فسيؤتيه أجرا عظيما) أى فى الآخرة وهو الجنة ، وهذه البيعة بيعة الرضوان . انتهى القسم الثانى من السورة والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث من السورة

قال تعالى (سيقول لك المخلفون من الأعراب) وهم أسلم وجهينة ومزينة وغفار، فهؤلاء لما استنفرّهم رسول الله ﷺ عام الحديبية تخلفوا واعتلوا بالشغل بأموالهم وأهليهم ، وفى الحقيقة هم ضعاف العقيدة خائفون من مقاتلة قريش ان صدّوهم ، ومقول القول (شغلتنا أموالنا وأهلونا) إذ لم يكن لنا من يقوم بأشغالهم (فاستغفرلنا) من الله على التخلف (يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم) أى هم كاذبون فى اعتذارهم غير جادّين فى طلب الاستغفار (قل فمن يملك لكم من الله شيئا) أى فمن يمنعكم من قضائه (إن أراد بكم ضرّا) أى سوءا (أوأراد بكم نفعا) ذلك أن القوم ظنوا أن التخلف يدفع عنهم الضرّ ، أويجلب لهم النفع بالسلامة لهم فى أنفسهم وأموالهم ، فأخبرهم الله أنه إن أراد شيئا من ذلك لم يقدرأحد على دفعه (بل كان الله بما تعملون خبيرا) فيعلم اظهاركم الاعتذار ، وطلب الاستغفار ، واخفاءكم النفاق (بل ظننتم

أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا) أى ظننتم أن العدوّ يهلكهم فلايرجعون إلى أهليهم (وزين ذلك فى قلوبكم) فتمكن فيها ، أى زين الشيطان ذلك فيها (وظننتم ظنّ السوء) أى وظننتم أن الله يخلف وعده إذ قالوا : ان محمدا وأصحابه أكلة (١) رأس . يريدون بذلك قلتهم فلايرجعون فأين تذهبون معهم ؟ انظروا مايكون من أمرهم ؟ (وكنتم قوما بورا) يعنى وصرتم بسبب ذلك الظن الفاسد قوما بائرين هالكين (ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا أعتدنا للكافرين سعيرا) أى فانا أعتدنا لهم ففيه وضع الظاهر موضع المضمر لتسجيل الكفر على من لم يجمع بين الايمان بالله والايمان بالرسول (ولله ملك السموات والأرض) يدبره كيف يشاء (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما) وذلك لأن رحمته سبقت غضبه ، فالمغفرة والرحمة من الله بالاصالة ، أما التعذيب كادخال الكافرين السعير فذلك لأحوال طرأت على النفوس البشرية ، وهنا لامجال للاطالة ، فى المقام مالايجوز أن يقال (سيقول المخلفون) وهم المذكورون (إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها) أى مغانم خيبر ، وذلك أنه ﷺ رجع من الحديبية فى ذى الحجة من سنة ست ، وقيل سنة خمس رهو الأصحّ ، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرّم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها ، وغنم أموالا كثيرة خصها بهم ، ومقول القول (ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدّلوا كلام الله) أى أن يغيروه لأنه وعد أهل الحديبية أن يعوّضهم عن مغانم مكة مغانم خيبر (قل لن تتبعونا) معنى النفى هنا النهى (كذلكم قال الله من قبل) من قبل تهيئتهم للخروج إلى خيبر (فسيقولون بل تحسدوننا) أن نشارككم فى الغنائم (بل كانوا لايفقهون) لايفهمون (إلا قليلا) إلا فهما قليلا وهو فطنتهم لامور الدنيا والاضراب الأوّل ردّ منهم ، والثانى ردّ الله لاثباتهم الحسد واثباته جهلهم بامور الدين (قل للمخلفين من الأعراب) وهم المتقدمون (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وهل هم بنو حنيفة ؟ أوهم أهل اليمامة أصحاب مسيلمة الكذاب الذين دعا إلى قتالهم أبو بكر ، أوهم أهل فارس إذ دعا عمر إلى قتالهم ، أو غيرهم ، فاذا كان الاوّل كان أحد الامرين : إما المقاتلة ، واما الاسلام ، ولاتقبل الجزية من بنى حنيفة ، ولامن جميع أهل الردّة ، وان كان الثانى يكون المراد بالاسلام مايشمل الانقياد بقبول الجزية منهم ، وهذا دليل على صحة امامة الشيخين ، ألاترى إلى قوله تعالى (فان تطيعوا) من دعاكم إلى القتال المذكور (يؤتكم الله أجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما) فى الآخرة ، أى وان تتولوا عن التوحيد والتوبة والاجابة إلى قتال مسيلمة الكذاب أوالفرس الخ ، ولما كان هذا الوعيد الشديد على المتخلفين يشمل من هم معذورون حقيقة أردفه بقوله (ليس على الأعمى حرج ولاعلى الأعرج حرج ولاعلى المريض حرج) فهؤلاء لاحرج عليهم فى التخلف عن الغزو ، فهم مستثنون من المتخلفين لعذرهم بعاهاتهم (ومن يطع الله ورسوله) فى الجهاد وغيره (يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتولّ يعذبه عذابا أليما) فى الآخرة .

بيعة الرضوان وهى بيعة الشجرة

سبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعى حين نزل الحديبية فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على جمل يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ماجاء له ، فعقروا جمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرادوا قتله فمنعتهم الأحابيش ، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فذكر له أنه ليس من قومه أحد بمكة يدافع عنه ، فأرسل عثمان بن عفان ، وأرسله إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وانما جاء زائرا

(١) بفتح الكاف واللام

لهذا البيت معظما لحرمته ، فخرج عثمان إلى مكة ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة ، فجعله فى جواره حتى فرغ من رسالته لعظماء قريش ، ثم احتبسوه عندهم ، فشاع بين المسلمين أن عثمان بن عفان قتل ، فقال رسول الله ﷺ : لانبرح حتى تناجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وهى سمرة ، فبايعه القوم إلا جدّ ابن قيس الأنصارى ، اختفى تحت بطن بعيره ، وهذه الشجرة لما أراد أصحاب رسول الله ﷺ أن يعلموها بعد ذلك كثر اختلافهم ، فلما اشتبهت عليهم وصار كل واحد يشير إلى شجرة ، قال عمر : « سيروا ذهبت الشجرة » ، وقال ابن عمر : ما اجتمع منا اثنان على الشجرة التى بايعنا تحتها وكانت رحمة من الله تعالى ، وهذا قوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم) من الاخلاص (فأنزل السكينة عليهم) الطمأنينة وسكون النفس (وأثابهم فتحا قريبا) فتح خيبر غب انصرافهم (ومغانم كثيرة يأخذونها) هى مغانم خيبر وهى أرض ذات عقار وأموال ، فقسمها عليهم (وكان الله عزيزا) منيعا فلايغالب (حكيما) فيما يحكم به فلا يعارض (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها) هى ما أصابوه مع النبىّ صلى الله عليه وسلم و بعده إلى يوم القيامة (فعجل لكم هذه) المغانم أى مغانم خيبر (وكف أيدى الناس عنكم) يعنى أيدى أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان حين جاءوا لنصرتهم ، فقذف الله الرعب فى قلوبهم فانصرفوا ، يقول الله : نعجل لكم هذه المغانم لتنتفعوا بها (ولتكون) هذه الكفة أوالغنيمة (آية للمؤمنين) أمارة يعرفون بها ﴿ ثلاثة أمور : الأوّل ﴾ صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ الثانى ﴾ أنهم فى حياطة الله وحراسته فى مشهدهم ومغيبهم ﴿ الثالث ﴾ أن يعرف المؤمنون الذين بعد العصر الأوّل أن ماوهب الله للصحابة من حراستهم وحفظهم وعطائهم يكون لهم مثله (ويهديكم صراطا مستقيما) وهوالثقة بفضل الله والتوكل عليه بعد اتقان العمل ، ثم عطف على لفظ هذه قوله (وأخرى لم تقدروا عليها) أى وعدكم الله فتح بلدة أخرى لم تقدروا عليها (قد أحاط الله بها) أى حفظها لكم حتى تفتحوها ، ومنعها من غيركم حتى تأخذوها ، وسيفتحها الله لكم كفارس والروم الذين كان العرب خولا لهم ، ثم أقدرهم عليها بعزّ الاسلام وغيرهما من كل فتوح فى الاسلام (وكان الله على كل شىء قديرا) فقدرته شاملة للممكنات جميعها (ولوقاتلكم الذين كفروا) من أهل مكة ولم يصالحوا ، أومن حلفاء أهل خيبر وهم أسد وغطفان (لولوا الأدبار) أى لانهزموا (ثم لايجدون وليا) يحرسهم (ولا نصيرا) ينصرهم من الله (سنة الله التى قد خلت من قبل) أى سنّ الله غلبة أنبيائه سنة ، وهوقوله : « لأغلبنّ أنا ورسلى » (ولن تجد لسنة الله تبديلا) تغييرا (وهوالذى كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم) ذلك أن عكرمة بن أبى جهل خرج فى خمسمائة إلى الحديبية ، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد ، فهذا معنى قوله (ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) وقوله (وكان الله بما تعملون) من مقاتلتهم والكفّ عنهم (بصيرا) فيجازيهم عليه (هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهدى) أى مايهدى إلى الكعبة ، أى صدّوكم وصدّوا الهدى (معكوفا أن يبلغ محله) أى حال كونه محبوسا أن يبلغ مكانه الذى يحلّ فيه نحره وهومنى مكانه المعهود . وقال الحنفية : مكانه الذى يحلّ فيه نحره أى يجب ، فالمحصر محل هديه الحرم عندهم فى منى . ويقول غيرهم : ينحر حيث أحصر ، وقد نحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أحصر (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم) لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين (أن تطئوهم) أى توقعوا بهم وتبيدوهم بالقتل (فتصيبكم منهم معرّة بغير علم) أى إثم وذنب وعتب عليكم فيقول المشركون : قتلوا أهل دينهم ، يقول الله : لولا أن تقتلوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لاعلم لكم بهم فيلزمكم العار والاثم لأذنا لكم فى دخول مكة ، ولكن حال بينكم و بين دخولها ذلك السبب

دين الاسلام من يشاء من أهل مكة بعد الصلح وقبل دخولها ، وليصون المؤمنين منهم عن الأذى (لو تزيلوا) لو تفرّقوا وتميز بعضهم من بعض بحيث انفصل المؤمنون فى مكة عن الكافرين (لعذّبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) بالقتل والسبى (إذ جعل) أى حين جعل ، ظرف لعذّبنا (الذين كفروا فى قلوبهم الحمية) الأنفة (حمية الجاهلية) التى تمنع إذعان الحق (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) أى الثبات والوقار ، وذلك ماروى أنه عليه الصلاة والسلام لما همّ بقتالهم بعثوا سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزّى ، ومكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع فى عامه على أن تخلى له قريش مكة من القابل ثلاثة أيام . فأجابهم وكتبوا بينهم كتابا ، فقال عليه الصلاة والسلام لعلىّ رضى الله عنه : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم ، فقالوا لانعرف هذا اكتب باسمك اللهم ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : اكتب هذا ماصالح رسول الله أهل مكة . فقالوا : لوكنا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت وما قاتلناك ، اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبدالله أهل مكة ، فقال ﷺ : اكتب مايريدون ، فهمّ المؤمنون أن يأبوا ذلك و يبطشوا بهم ، فأنزل الله السكينة عليهم ، فتوقروا وتحلموا (وألزمهم كلمة التقوى) أى الثبات والوفاء بالعهد (وكانوا أحقّ بها) من غيرهم (وأهلها) أى كانوا أهلها فى علم الله ، إذ اختارهم لدينه ، وصحبة نبيه ، وهم أهل الخير والصلاح (وكان الله بكل شىء عليما) من أمر الكفار والمؤمنين فيجازى كلا بعمله . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السوره والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذا القسم

(١) فى قوله تعالى : قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد .

(٢) فى قوله تعالى : ليس على الأعمى حرج الخ .

(٣) فى قوله تعالى : ولتكون آية للمؤمنين .

(٤) فى قوله تعالى : سنة الله التى قد خلت من قبل الخ

اللطيفة الأولى

فى قوله تعالى : قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد الخ

اعلم أن هؤلاء المخلفين قد حرموا من الغزوة التى فيها غنائم بعد ماتخلفوا ، وقيل لهم تربصوا حربا مع قوم شداد ، جارية على القاعدة العامة فى سنن الله تعالى طبا وتهذيبا .

انظر إلى علماء الطب ، فانهم اذا رأوا مريضا قد اشتدّت به الآلام الناجة من البرد ألزموه تعاطى الأغذية الحارّة ، أومن الحرّ ألزموه تعاطى ماهو بارد ، وكذا فى الرطوبة واليبوسة ، و يقولون لمن هوكثير النسيان : اجلس فى حمام حار ، وخذ فى الحفظ والقراءة ، فان رأيت أنك قد أسرع حفظك ، فاعلم أن النسيان من البرودة ، واذا رأيت أن الحفظ قد أبطأ فاعلم أن النسيان من الحرارة ، فتى عرفت السبب فاستعمل مايضاده فان كان السبب الحرارة فكل الأغذية الباردة ، وان كان السبب البرودة فكل الأغذية الحارّة ، وهكذا يقول علماء الأخلاق : «فمن رأى نفسه كثير الغضب فليلزم نفسه الجلوس مع من يؤذيه مرة بعد أخرى ، وليتعلم الصبر على أذاه ، فان لم يجد من يؤذيه فليسلط هو انسانا بأجر من عنده أن يقوم بشتمه فى ملأ من الناس ، ثم ليتصبر على ذلك حتى يتعلم التحمل و يتحلم ، واذا رأى انه قد أصبح بليدا بحيث لايؤثر فيه قول من يغضبه ، ولامن يؤذيه فليثر الحمية فى نفسه بالأشعار وقراءة كتب الحماسة حتى تقف النفس فى الوسط بين التهوّر والبلادة ، وهكذا من رأى نفسه كثير الكلام فليتعوّد الصمت مرارا حتى يعرف أن نفسه لاتنطق

إلا عند الحاجة » .

وبالاجمال هذا هوالسنن الذى سنه الله أن يداوى المرض بضده حتى يرجع المريض للاعتدال فى الجسم وفى العقل ، وذلك عينه هو الذى نراه فى الشمس ، فانها تلقى علينا أشعة الصيف فتكون حرارة ، وأشعة الشتاء فتكون برودة ، وأشعة الربيع والخريف فتكون متوسطة ، فيرجع الأمر إلى الاعتدال ، لأن الحار والبارد يتساقطان ولايبقى إلا الاعتدال . كل هذا يؤخذ من هذه القصة ، إذ أنهم لما تخلفوا عن السفر وحرموا من الغنيمة فى غزوة خيبر ، وألزموا أن يكونوا فى غزوة فيها قوم أولو بأس شديد ، والقتال شاق ، فهم كالمبرودين يلزمون الطعام الحار ، وكالبليد تستثار فيه الهمة والنشاط والحية . انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : ليس على الأعمى حرج الخ

اعلم أن هذه الآية لايراد بها أن تكون قاصرة الحكم على مسألة أصحاب العاهات ، إذ يستثنون من المتخلفين المذمومين ، إن هذا المقام مقام الاستعداد : فلينظر المسلمون فى أمر الأمة جميعها ، وليجعلوا كلا فيما استعد له ، جعل الله فى زمن النبوّة الأمة ثلاثة أقسام : النساء لأعمال المنازل ونحوها ، والأقوياء من الرجال للحرب ، وأصحاب العاهات عفا عنهم فلايجاهدون ، لماذا ؟ لأنهم لايصلحون لذلك ، ولعمرى إن هذا فتح باب لاشعال نار الرقى والاسعاد فى الأمة ، فليفتح الباب على مصراعيه ، وليقل إن الله أنزل فى القرآن هذا لننظر نظرة عامة ، ولنقل الأمة كلها فى جهاد دائما ، ليس الجهاد قاصرا على ضرب السيوف ، واعداد الجنود ، ورفع البنود . كلا . ثم كلا . فلكل فرد من الأمة منزلة لابدّ أن يوضع فيها ، فالزارع فى مزرعته يجاهد ، لأنه يرسل الحنطة لصفوف المجاهدين ، والتاجر ، وصانع الأسلحة ، والحاكم والقاضى والشرطى والخفير ، كل هؤلاء أعوان المحاربين ، وسائق قطار السكة الحديدية ، وحارس المسرّة (التلفون) ، وصانع الطيارات ، فكل هؤلاء مجاهدون ، فليجعل كلّ فيما هو أهل له ، واذا نفى الله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض فليس معنى هذا أنهم يعافون من كل شىء . كلا . انهم لم يقدروا على دخول الصف ومقابلة العدوّ ولكن الأعمى اذا كان من القادرين على الخطابة والحثّ على الجهاد فليلزم بذلك ، والأعرج اذا كان قادرا على عمل كأن يكون عند آلة البرق (التلغراف) فليلزم بذلك ، والمريض يجب على الحكومة معالجته ، ومتى شفى يوجه إلى ماخلق له ، والمقصود أن هذه الآية تفتح الباب لوضع كل امرئ فيما استعدّ له ولا يكون ذلك إلا بتعليم الأمة كلها تعليما عاما وادخال بعض الصناعات فى المدارس الابتدائية حتى تظهر مواهب الاطفال فيوضعوا فيما خلقوا له ، كما نقلته لك فى ﴿ آل عمران ﴾ عن أهل أمريكا ، وهذا المعنى يؤخذ من قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وقوله : « لاتكلف نفس إلا وسعها » فارجع إلى التفصيل فى ﴿سورة البقرة﴾ وقل للأمة لاتعطلوا مواهب الأمة ، بل نبهوا جميع الشعب ، وأيقظوا فيه المواهب الكامنة حتى تستخرجوا منها الآثار النافعة ، ولاسعادة للأمة إلا بهذا ، والله هو الولىّ الحميد . انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : ولتكون آية للمؤمنين

اعلم أن هذا سرّ مصون ، وجوهر مكنون ، وحكمة عالية ، ومنهج شريف ، وكبريت أحمر ، وماس بهيج ، ودرّ نضيد ، وكنز مدفون ، أراد الله اظهاره لأمة الاسلام ، حتى تستيقظ من رقدتها ، وتقوم من غفلتها ، وترجع عن حوبتها ، وتنفض غبار الكسل ، وتحيي ما مات من الأمل ، وتجنى ثمار الحكمة التى حفظها

الله

الله لهم فى الكتاب ليفهمها أولو الألباب بعدنا فيقولون : ياليت شعرى : أى آية للمؤمنين هنا فى هذا الزمان اذا كان الله كف أيدى أهل مكة عن المؤمنين ، وكف أيدى المؤمنين عن أهل مكة ، وعجل لهم مغانم فى خيبر ، فأى آية لنا الآن نحن فى هذا الزمان ؟ ذلك زمان مضى وانقضى ، وأمر طواه الزمان فى سجل النسيان فكيف يكون آية لنا ؟ اللهم إلا ما يكون آية على صدق النبوة وصدق النبوة عندنا لا يحتاج لبرهان ، لأنا أخذناه جيلا عن جيل ، وقوما عن قوم ، فلسنا نحتاج إلى براهين جديدة ، على أن صدق النبوة ليس هو كل شىء عندنا فى الدين ، بل المهم نتائجه ، فمن صدق بالانبياء وبالقرآن وبقى ساكنا لا يحرك ساكنا فأى فرق بينه وبين الكافر إلا الاعتقاد ، والاعتقاد بلا عمل شجر بلا ثمر ، وأرض بلا زرع .

اذا سمعت هذا من أهل زمانك ، أوقرأته فى هذا المقام ، فأجب عنه وقل : إن الله عز وجل جعل أهم خواص الانسان أمرين : الأول العلم والشوق إليه ، وحب الحكمة والغرام بها والولوع ، والثانى نفع الناس وارشادهم ، فهاتان هما الخلتان الشريفتان اللتان تخلق الله بهما ، فهو عليم ، وهو رحيم وحكيم ، ومن تخلق بأخلاق الله فان الله فى عونه ، ومتى اتصف رجل بهاتين الصفتين فأحب العلم وعشقه ، ومال للحكمة وأغرم بها ، فان الله عز وجل يكون معه ، ولذا كان مغرما بمنفعة الناس ، وأحب رقيهم وسعادتهم على شريطة أن يكون أهلا لذلك ، فان الله وملائكته يكونون معه ، ويرى العون من الله فى غدوه ورواحه ، وبالتفطن يرى من العناية والمساعدة مالا يحيط به بيان .

أقول هذا وأذكرك بحديث : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع » وبما يروى « إن طالب العلم يستغفر له كل شىء حتى الحيتان فى البحر » أو ما معناه ، وبآية : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » ، فالجهاد يشمل الجهاد العلمى ، والجهاد العملى ؛ والاحسان يشملهما ، فهو احسان بالعلم واحسان بالعمل .

واعجب أيها الذكى كيف تقول بعض الارواح لما أحضرت وسألوها فى أوروبا : أى شىء يرقينا اذا امتنا ؟ فأجابت : أمران هما المحبوبان : الأول الفلسفة ، أى حب العلم والحكمة ، والثانى حب الناس ، فمن اتصف بهذين الوصفين كان محل نظر الله وملائكته ، وكان الله معه ، وازداد علما على مدى الزمان ، وخزائن الله العلمية لا تنفد . كل هذا من سر هذه الآية : « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » وهو الثقة بفضل الله تعالى ، انظر كيف جعل الله هذه الغنائم الخيبرية التى وعد الله المؤمنين بها آية لنا ، وثباتا على الأعمال والعلوم . انظر كيف نام المسلمون ، وجهلوا هذه العلوم . انظر كيف كان العالم كالجاهل فى تناسى هذه العلوم القرآنية . انظر كيف ملأ الله الأرض بالعلم وأخلى منه أمة الاسلام الحاضرة إلا قليلا . انظر رعاك الله وقل لى غنائم خيبر يخبرنا الله بها ويقول انها آية لكم ، وهداية للثبات على الأعمال ، ثم يصم المسلمون آذانهم وينامون نوما عميقا ، حتى قل من بينهم من يحب المجموع ، وقل من يحب العلم لذات العلم ، فأما بعد هذا الزمان فسيكثر فيهم العاشقون للعلوم ، ويكثر المحبون لأمة الاسلام ، بل لجميع العالم الانسانى الذى نحن جعلنا رحمة له ، بل رحمة لكل حى من انسان وحيوان ، لأننا قائمون مقام نبينا المرسل رحمة للعالمين من الانسان والحيوان والجن الذين لم يتخلقوا بالأخلاق الجيدة فيقلدون الصالحين منا والعلماء فينا .

جهاد الفرد وجهاد الجيش

لعلك تقول : أى الآيات نراها اليوم فى هذا الزمان اذا نحن أخلصنا فى أعمالنا فيساعدنا الله كما ساعد المؤمنين بغنائم خيبر ، إن ذلك كان ورسول الله ﷺ بينهم ورحمة الله تنزلت عليهم ، وأخبر النبى بذلك ، وتم ما أخبر به ، وصدق الله وعده فعلا ، فأى غزوات الآن نكون فيها ؟ وأى منح نعطاها ، وعطايا نلقاها ؟

ولا نبيّ بيننا اليوم . والكرامة للأنبياء ومن مع الأنبياء ، أما نحن فلسنا أهلا لذلك .

أقول : إن هذه الآراء هي السبب الأكبر في موت المسلمين موتا أدبيا وحربيا وماليا واقتصاديا وسياسيا وهي الدلالة على الجهل بالله ، ونظامه ، ورحمته ، وحكمته الشاملة ، وآياته الواصلة ، وعجائبه المدهشة .

إنّ الله دائم الجود ، واسع العطاء ، لم يخصّ العلماء ، ولا الأنبياء ، ولا الحكماء ، ولا الانسان ، بل عمم العطاء حتى لأحقر ذرّة من الحيوان المسماة ميكروبا ، فأعطاها أشرف الأجسام ، وهي أجسام الانسان ، تأكل فيه لحما طريا ، وتشرب شرابا أحمر شهيا ، وترتع وتلعب وهي آمنة مطمئنة ، فاذا أعطى الله أجسام أشرف المخلوقات وهو الانسان لأقلّ الحيوانات قدرا ، وقال لها كلي واشربي وقرّي عينا في أشرف مخلوق على الارض ، فما بالك بالانسان وهو أشرف حيوان على الارض ، فهل يذره الله يتخبط في الدنيا لايفرق بين من يريد نفع العموم ومن يريد شهوة نفسه . كلا والله . فلقد جرّبنا مانقول فرأينا العجب العجاب !

ولتعلم أن جهاد الفرد في الحياة العلمية والعملية أشقّ من جهاد الجيش الكبير ، والمعاونة الإلهية تكون على العمل الفردي أقوى من المعاونة التي تعطى للجيش الكبير الصادق ، وبرهانه أن نقول : إن الفرد منا وهو يجدّ في العلم مخلصا فيه ، وفي منافع النوع الانساني اذا كان أهلا لذلك ، يلاقي مشاق لايلاقيها الجيش في غزواته ، أي انه اذا كانت الصعاب التي يلاقيها الجيش توازي في صعوبتها مايلاقيه الفرد المجدّ مضاعفة بعدد أفراده كان الجيش في مشقة لاتطاق ، فاذا رأيت الله عزّوجل يساعد أصحاب النبيّ ﷺ ويعطيهم غنائم خيبر ، لأنه يعلم أن هذا الجهاد سيعقبه نشر العلم ، وحفظ الأمن ، وأن مايفعلونه مع الكفار أشبه بالكيّ في جسم الانسانية ، وبعد هذا الكيّ سيكون الشفاء التام . وعلموا هذا كله من طريق النبوّة ، فاعلم أن الفرد الواحد المجاهد يقع في مشقات لاعدد لها اذا كان مجاهدا للمجموع ، وتكون المعاونة له من الله على مقدار مايصيبه من المشقات ، فيكون العالم في علمه ، والمنظم للأمة الساعي في رقيها ، واقعين في مصاعب ومشاق عظيمة ، ويكون عون الله لهم مضاعفا على مقدار مشاقهم ، إن شئت فاقرأ قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إنّ الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم » .

وأنت تعلم أن نصره وهو في الغار أعجب من نصره وهو في بدر ، أو أحد ، أو حنين ، يقود جيشا عظيما ، اذا عرفت ذلك فاعلم أن حالك أنت اليوم وأنت تتعلم العلم ، أو تحرص على رقيّ امتك الاسلامية لاتخرج عن هذه الحال لأن الله معنا أينما كنا ، وما أرسل الأنبياء إلا ليكونوا قدوة لنا ونورا ، فاذا نصر نبيه وهو وحيد ليس معه إلا أبو بكر ، فجرّب أنت كما اتفق لي ، لاسيما أثناء هذا التفسير ، فقد رأيت العجائب في هذه الحياة ، ووقعت في مشاكل مدلهمة ، ولكن جاءت ألطاف الله أسرع من البرق ، فأوقفت الشرّ بل أزالته ، وتكرر ذلك مرارا أثناء هذا التفسير ، سواء أكان ذلك في الامور الدنيوية أو المسائل العلمية . ومن عجب أن بعض المسائل أكون في حاجة إليها ، والآية تتطلبها ، فلاتمضي دقائق حتى أعثر في الطريق على مايفهمني المطلوب ، وأذكر مرّة أني كنت سائرا في شارع خيرت بالقاهرة بالقرب من مشهد السيدة زينب رضي الله عنها وأنا أفكر في آية : « إن في خلق السموات والأرض » إلى آخره ، ووجدت أن الملاح والبحار لابدّ من استيفاء الكلام عليها ، فالذي يسيرها إما الهواء واما البخار ، فخطر ببالي أن الكهرباء أيضا لابدّ من أن يكون لها في ذلك عمل ، ولكن لايمكن أن أكتب ذلك إلا اذا اطلعت عليه ، فحدّثتني نفسي أن عادة الله لابدّ أن تتم معي ، واني قريبا أجد فهمها ، فما سرت بضع دقائق حتى وصلت إلى ميدان السيدة زينب ، فوجدت رجلا معه مجلة لا أتذكر اسمها . فقلت أرنيها ؟ ففتحتها فرأيت في الصفحة التي وقعت تحت نظري في سطر من أوسطها هذه المسألة بنصها ، بحيث أن نظري لم يقع إلا عليها ، ولم تفتح إلا هذه الصفحة أوّل ماتناولتها ،

فاشتريتها

فاشتريتها منه ونقلت الجملة التى فى الجملة الخاصة بالكهرباء التى بها تسير السفن ، فانظرها فى سورة البقرة ، فانك تجدها فى تفسير الآية ، وتجد الجملة منقولة بحروفها ، لأنى لست من علماء هذا الفن ، هذه مسألة واحدة وواقعة من وقائع كثيرة أثناء تأليف هذا الكتاب ، وانما ذكرت لك هذا لتعلم انى أكتب عن يقين ، وأن النور الفائض من الله محيط بنا من كل جانب ، وانما نحن الذين نحرم أنفسنا منه فيشقى الجاهل به ، فاذا أعان الله رسوله وهو فى الغار جادّ فى رقىّ أمته فليس معنى هذا أنه يتركك وأنت مقتف أثره . كلا والله ، بل لم ينزل هذا القرآن إلا لأجل هدايتك ، بمثل هذا تعرف النبوّة وصدقها ، وبمثل هذا فليرتق المسلمون .

فليجدّ العلماء فى تفهيم الناس هذه الحقائق ، فلعمرى كيف يقول الله « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » . أليس ذلك ليكون نبراسا لنا فنعلم أن الله مؤيد للعاملين فى أعمالهم الجزئية ونفكر فى تلك الالهامات السرّية التى يحسّ بها الانسان فى نفسه ، وتلك المساعدات الوقتية التى تحصل لنا عند جدّنا فى المناحى العامّة ، وحينئذ لامحيص لنا عن الثبات فى أعمالنا والمثابرة فنفوز كما فاز الأوّلون ، ونحظى بما حظى به المتقدمون ، والله لايضيع أجر المحسنين .

تذكرة

فى موازنة آيات الأحكام بآيات الأعمال الاخرى

فاذا سمعت السادة الحنفية ، والسادة الشافعية ، يدققون النظر ، ويحققون الفكر ، فى آية : « حتى يبلغ الهدى محله » فيقول قوم ان الحرم هوالذى يذبح فيه الهدى ، ويقول قوم . كلا . فلينحر المحصرحيث أحصر كما تقدّم مع أن الخطب فيه سهل ، فمابالك بمثل هذا المقام الذى يقول الله فيه : « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » . بجعل الله غنائم خيبر آية لنا ، وهداية لسبلنا ، وطريقا لوصولنا ، ولم يقل فى الهدى شيئا من ذلك ، بل قال : « لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم » . فانظر كيف أرجع الأمر فى الذبائح سواء أكانت فى منى ، أم فى الحديبية ، أم فى غيرهما لأمر واحد وهوالتقوى ، وانما هذه وسائل لها ، فان بذل المال معناه التبرّى من المال لئلا يعلق بالقلوب فيوقعها فى شرك هذه الحياة الدنيا . فاذا كان علماؤنا هكذا يدققون فى الوسائل فما بالك بالمقاصد مثل مانحن فيه . لقدكان أئمة الفقه كمالك ، والشافعى ، وأبى حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، وزيد رضى الله عنهم وأمثالهم يدققون فى الأحوال النفسية عملا ، ولم يكن عندهم الزمن الكافى ليكتبوا هذا للناس ، فتركوه للأجيال المقبلة ، وكأنهم يقولون : هانحن أولاء دققنا فى مقدّمات الأعمال ، فعليكم النظر فيما لايحتاج إلى بحث شديد كبحثنا وهى المقاصد ، وليتمّ الآخرون ماتركه الأوّلون ، فاذا نحن أبهمنا كم دقيقات الامور فعلموا الناس أتم الامورالتى هى أوضح كقوله تعالى : « إنّ الله يدافع عن الذين آمنوا إنّ الله لايحب كل خوّان كفور » وكقوله : « ولينصرنّ الله من ينصره انّ الله لقوىّ عزيز » وكقوله « وان الله لمع المحسنين » وكقوله « إنّ الله مع الصابرين » وكقوله هنا « ولتكون آية للمؤمنين » .

إنّ الله يساعد المؤمن المجاهد فى نفسه أكثر مما يساعد الجيوش فى الجهاد ، ألم تر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الجهاد الأكبر جهاد النفس » ، فجهاد النفس جعل أشدّ من جهاد العدو فيكون العون فيه أعظم ، لأن الجندى فى الجيش معه اخوانه ، وليس مع الفرد فى نفسه إلا الله كما تقدّم فى آية الغار : « إذ يقول لصاحبه لاتحزن إنّ الله معنا » .

دفع وهم

إياك أن يمرّ بخاطرك أن هذا القول ونحوه معناه أنه لن يصيبك همّ فى الحياة . كلا . اذا جاء هذا الخاطر فاعلم أنه خاطر كاذب . يقول المسلم اذا حزنه أمر : كيف أقع فى هــذه الشدائد ؟ ألست مسلما ! « أليس الله بكاف عبده » ! أليس الله يساعدنى ! لاسيما وأنا أجاهــد فى تهذيب نفسى ، ورقىّ أمتى ، وأنا أهل لذلك ، وأنا مخلص ، فلمثل هذا يقال : اذا ظننت أنه لن يصيبك أذى ، فأنت واهم ، بل هذه الطبقة يكون همها أعظم ، وحملها أثقل ، وعملها أشقّ ، ويكون العون على قدر المشقة ، ولن يرتقى امرؤ قط إلا بما زاول من الأعمــال ، وما قاسى من المشاق . وهــذه الفــكرة فى الاسلام هى التى قعدت بالهمم ، وأورثتهم الخمول ، فيقول الرجــل : ألسنا مسلمين ؟ فلماذا سلط الله الفرنجة علينا ؟ أليس النبىّ شفيع لنا ؟ أليس الله مع الصابرين ؟ أليس الله ينصر من ينصره ؟ ونحن ننصر الله فلماذا لاينصرنا ؟ وهذا كله كلام لم ينطبق على حقيقة الواقع الذى تتيه المسلمون ؟ فلنجادل بالتى هى أحسن فى نقطة الشفاعة ونقول : أيها المسلم : أليس النبىّ شفيعا ؟ فيقول بلى فنقول أليس العالم شفيعا ؟ يقول بلى ، نقول أليس الشهيد شفيعا ؟ يقول بلى ، نقول : النبىّ والعالم والشهيد اذا ظهروا فى بلد أيكونون سبب كسلها ، أم يكونون سبب نشاطها ؟ فيقول بل سبب نشاطها للأعمال . نقول لماذا ؟ فيقول لأن العلوم الدينيــة وعلوم العلماء وتقــديم الشهيد نفسه لله كل ذلك يحدث فى الناس استعدادا للعمل ، نقول فاذا رأينا الذين مع العالم ومع الشهيد ومع النبىّ قد كسلوا فما شأنهم ؟ فليس له إلا أن يجيب : ليس لهــم حظ من السعادة ، بل هم أكثر عذابا ممن لم يكن عندهم عالم ولانبىّ ولاشهيد لأنهم رأوا طريق الرشد فلم يتبعوه ، وعرفوا الحق ولم ينهجوه .

نقول : هذا المثل منطبق على بعض المسلمين ، يرون نبينا ﷺ وأصحابه يتجشمون المشاق فى الحرّ والبرد ، ويلاقون الأعداء فى الجبال ، ويقدّمون رقابهم للقتل . كل ذلك والمسلمون نائمون ، ثم يظنون أن الشفاعة معناها أن يكسل الانسان ويعطى الخبز مجانا ، فاذن الشفاعة لها معنى غير هذا ، فليعملوا كما رأوا فى السلف الصالح ، واذن يلحقون بهم ، فأما كونهم يلحقون بهم وهم نائمون فهذا غــير معقول ولامقبول ، إذ يصــير هكذا : كل عالم فى بلده يكون سببا لكسلها ، وكل نبىّ يكون سببا لكسل أمته ، فتكون الآية منكوسة ، والعقول مقلوبة ضائعة . ومعلوم أن الله لم يخلقنا إلا ليرقينا ويرقينا بالجهاد والعمل لا بكسل ، فاذا قال : « ولينصرنّ الله من ينصره » فليكن المسلم ناصرا للفضــيلة ، مفكرا مطلعا ، حريصا على العلم ، وليكن المسلمون جادّين مفكرين .

فرحم الله امرأ أهدى إلى الناس ما كتبناه فى هذا التفسير ، وأطلعهم مايقبلون منه . ورحم الله امرأ نشر هذه الاقوال بين المسلمين . ورحم الله المؤمن النافع للمسلمين . انتهت اللطيفة الثالثة .

اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى : سنة الله التى قد خلت من قبل

هذا المعنى يقوّى المعنى الذى سبق فى اللطيفة الثالثة ، وملخصه تقوية قلبك أن تكون مرقيا لنفسك علميا ، ولأمتك ماديا وأدبيا ، والله يكون معك ، وأن هــذه سنة قديمة فى الأنبياء وأتباعهم العلماء ، والله ولىّ المؤمنين .

فصل فى إيضاح الـكلام على بيعة الرضوان

روى أن مكرز بن حفص لما أشرف على النبىّ ﷺ وصحبه كما تقدّم قال ﷺ هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبىّ ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال ﷺ قد سهل لكم من أمركم ،

ولما قال ﷺ لعلىّ امح رسول الله قال لا والله لا أمحوك أبدا قال فأرنيه فأراه إياه فمحاه النبىّ صلى الله عليه وسلم بيده وكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله على ثلاثة أشياء : على أن من أتاه من المشركين ردّه إليهم ، ومن أتاهم من المسلمين لم يردّوه ، وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم ثلاثة أيام ولا يدخلها بجلبان السلاح السيف والقوس ونحوه ، فقالوا يارسول الله أنكتب هذا ؟ قال نعم ، انه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا . انتهى القسم الثالث من السورة .

القسم الرابع من السورة

رأى عليه الصلاة والسلام فى المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين ويحلقون رءوسهم ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك ، فلما انصرفوا ولم يدخلوا شقّ عليهم ذلك ، وقال المنافقون : أين رؤياه التى رآها ؟ فأنزل الله هذه الآية ودخلوا فى العام المقبل . وقد روى أن عمر بن الخطاب . قال : أتيت النبىّ ﷺ فقلت ألست نبىّ الله حقا ؟ قال بلى . قلت ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل ؟ قال بلى . قلت أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال بلى . قلت فلم نعطى الدنية فى ديننا إذن . قال انى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى ، قلت أولست كنت تحدّثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ؟ قال بلى ، أفأخبرتك انك تأتيه العام ؟ قلت لا . قال فانك آتيه وتطوف به . قال فأتيت أبا بكر ، فقلت يا أبابكر : أليس هذا نبىّ الله حقا ؟ قال بلى . قلت ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل ؟ قال بلى . قلت فلم نعطى الدنية فى ديننا . قال أيها الرجل : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه ، فوالله انه على الحق ، قلت : أليس كان يحدّثنا انه سيأتى البيت ويطوف به ؟ قال بلى ، أفأخبرك انه آتيه العام . قلت لا . قال فانك آتيه وتطوف به ، وهذا قوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) أى صدقه فيما رأى وفى كونه وحصوله صدقا ملتبسا بالحقّ أى بالحكمة البالغة لأن فيه ابتلاء ليتميز المؤمن الخالص من المنافق ، والله (لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله) حال كونكم (آمنين) علق بالمشيئة تعليما العباد أن يلزموا الأدب فلا يحكموا على مستقبل لا علم لهم به (محلقين رءوسكم ومقصرين) أى محلقا بعضكم ومقصرا آخرون (لاتخافون) جملة حالية مؤكدة (فعلم مالم تعلموا) من الحكمة فى تأخيرذلك (فجعل من دون ذلك) أى من دون دخولكم المسجد أوفتح مكة (فتحا قريبا) هوفتح خيبر ، لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الموعود ، وقد تقدّم شرح ذلك شرحا وافيا (هوالذى أرسل رسوله بالهدى) أى ملتبسا به (ودين الحقّ) أى وبدين الاسلام (ليظهره على الدين كله) ليعليه على جنس الدين كله بنسخ الديانات واظهارفساد العقائد الزائغات وبتسليط المسلمين على أهل الأديان فى الأزمان الغابرة ، وبالقيام بأمر الكرة الأرضية والمحافظة على نظام الأمم ، والقيام بأمر الموازنة بينهم ، وتعليم الناشئين فى الأزمان المستقبلة إذ تصبح الأرض كلها كأسرة واحدة ، ويكون المسلمون هم الآخذون بيد الأمم ، وذلك فى أيام عيسى التى هى رمز للسلام العام فى الأمم ، ويكون المسلمون بيدهم مفتاح هذا السلام كما أشرنا إليه فى السورة السابقة إذ ينضمّ العرب بعضهم مع بعض وهم والترك وبقية الأمم الاسلامية المتاخمة الديار كما أوضحته فى ﴿ سورة آل عمران ﴾ عند قوله تعالى « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب » وذلك بأن يتعلم أبناء العرب فى شمال افريقيا والشام والعراق والحجاز العلوم الابتدائية والثانوية والعالية ، وبذلك يعرفون قدرأمتهم ولغتهم ودينهم وعوائدهم فيتحدون ولوطال الزمان ، ثم يتحدون مع الترك وغيرهم لجامعة الدين والجوار ، واتهم أمم شرقية ، ثم يأخذون بيد المسلمين فى سائر الأقطار ، ثم

يعلنون الدول انهم يريدون السلام العام بين الأمم بعد أن يكون جيشهم أقوى الجيوش ، وكلمتهم أعلى الكلم ، ثم هناك هناك يقال انهم « خير أمة أخرجت للناس » . وهناك هناك يقال « ليظهره على الدين كله » وهناك هناك يقال : إن المسلمين رحمة للعالمين تحقيقا لقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

فإياك أن يقول لك فقيه أين الجهاد ؟ فلتجبه بما فى السورة السابقة عند الكلام على آية : « حتى تضع الحرب أوزارها » وقل له : فليكن جيش المسلمين أقوى الجيوش وهم الآن فى وسط الكرة الأرضية ، واذن يحفظون الموازنة ، ولا يكون فى الأرض إلا مسلم أومسالم ، فالأمم كلها تسالمهم وربما أصبحت الأرض كلها حكومات متحدة والمسلمون يكونون هم القائمين بأمر هذا الاتحاد وهذا زمانه ، وليس يكون نزول المسيح إلا بعد هذه المقدمات ، فلو أنه نزل بغير ذلك لم يمكن تغيير طباع الناس فى عدّ الأصابع من السنين ، فنزول المسيح إنما يكون لأمم قد أشرقت أنوارها ، وحسنت طباعها ، ويدوم ذلك النظام آلافا وآلافا من السنين ، ويقال لأهل الأرض إذن انهم على منهج المسيح ، والقائم بأمرهم أمة الاسلام ، وهاأناذا قد بينت هذا فى سور كثيرة . ولما كان هذا وعدا لا بدّ من تحققه أعقبه بقوله (وكفى بالله شهيدا) على أن ماوعده كائن ، وعلى أنه رسول الله ﷺ ثم أخذ يبين ذلك فقال (محمد رسول الله والذين معه) أى أصحابه المؤمنون ، والمعطوف والمعطوف عليه مبتدأ خبرهما (أشدّاء على الكفار رحماء بينهم) أى يغلظون على من خالف دينهم ويتراحمون فيما بينهم كقوله : « أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين » ، (تراهم ركعا سجدا) لأنهم مشتغلون بالصلاة فى أكثر أوقاتهم (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) الثواب والرضا (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) أى السمة التى تحدث فى جباههم من كثرة السجود ، يقال سامه اذا أعلمه ، وكما أن المنافقين يعرفون بسيماهم كما جاء فى السورة السابقة : « فلتعرفنهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول » هكذا هنا ، فللأشقياء علامات تظهر فى وجوههم وسحنتهم وهيئاتهم . كما أوضحه العلامة ابن خلدون فى مقدمته ، هكذا الفضلاء ، ولكن العقول التى تفهم ذلك نادرة أوقليلة . واعلم أن كل مايفعله الانسان أويتصوره يؤثر فى ظاهر جسمه أثرا ، ولكن الفطن تتفاوت فى تعرّف ذلك تفاوتا كثيرا ، وسيماهم التى فى وجوههم هو السمت الحسن والخشوع والتواضع والسجية (ذلك) أى المذكور (مثلهم) صفتهم (فى التوراة) وعليه وقف (ومثلهم فى الانجيل) مبتدأ خبره (كزرع أخرج شطأه) فراخه ، يقال أشطأ الزرع اذا أفرخ (فآزره) فأعانه وشدّ أزره وقوّاه ، ومنه تقوية أبى بكر للنبىّ ﷺ فهو أوّل من آمن به وخرج معه على الأعداء الله (فاستغلظ) فتقوّى ، هكذا تقوّى رسول الله ﷺ بمال عثمان مثلا على الغزو والجهاد ونحوه (فاستوى على سوقه) جمع ساق : أى على أصوله ، ومثاله اظهار أمر النبىّ ﷺ فى قريش بنحو علىّ بن أبى طالب وعمر (يعجب الزرّاع) بكثافته وقوّته . يقال : « مكتوب فى الانجيل انه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، ومعنى يعجب الزرّاع هنا : أى جميع المؤمنين ، ولقد نماهم الله وأكثرهم واستووا وغلبوا (ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) وقوله « منهم » بيان للذين آمنوا . واعلم أن مثل التوراة الذى تضمن الرحمة على الأولياء والشدّة على الأعداء يستلزم كثرة العدد والرقىّ لأن المتراحمين متحابون فيعظم شأنهم ، فاذا تحدوا لاجتماعهم على العبادات من ركوع وسجود واتصافهم بأوصاف الرحمة والشدة فى مواضعها فذلك يدعو إلى رقيهم تدريجا كالزرع ، وكأنّ هذه المعانى التى تضمنها المثلان متلاحقة متسلسلة ، فكأنّ التوراة لما كان أقدم من الانجيل وأساسا له ذكر فيه مبدأ مابه القوّة والكمال ، وكأن الانجيل لما كان بعد التوراة ذكر فيه مايترتب على ذلك الأسّ وهو النماء والقوّة والعزة وظهور الثمرات . ولما كان التوراة كتاب أحكام وشرائع نسب إليه المثل الذى هو من جنس شرائعه كالسجود والركوع والاعمال الخلقية فى مواضعها ، ولما كان الانجيل كتاب ارتقاء

للعواطف

للعواطف ، وبثّ الفضائل ، واستخراج القوى الكامنة فى النفوس ناسب أن يذكر فى مثله الزرع ونماؤه .
ويروى فى حديث وصف المؤمنين مامعناه : « ان أناجيلهم قلوبهم »

هـذه أوصاف الأمة الاسلامية ، فانظرها الآن وتأمّل فى تخاذلها وجهلها الفاضح ، حتى أصبحت مثلا مضروبا للخمول والجهالة الجهلاء ، وسيبدل الحال ، ويحسن المآل ، ويخضر الزرع ، ولما كان هـذا المثـل المضروب بالزرع فى هذه السورة يحدث فى نفوسنا يأسا من ارتقاء المسلمين ، لانه يقال : هانحن أولاء اليوم أبناء أمة الاسلام وهذا المثل ينطبق على آبائنا الاوّلين ، أما نحن فاننا أصبحنا زرعا هشيما تذروه الرياح فكيف يجتمع عصفه وتبنه ، وقد مضى زمانه ، وذهب اباته ، ويستدل القائل بما هوحاصـل اليوم ونقرؤه فى الجرائد من التخاذل والتنابذ والتباعد بين المسلمين ، حتى أصبحوا عند الفرنجة كالخدم والعبيد ، ألم تر إلى ماجاء فى الجرائد أثناء تأليف هذا التفسير يوم الثلاثاء ٢٣ يونيو سنة ١٩٢٥ م أى قبل كتابة هذه الأسطر بيوم واحد مانصه :

« باريس فى ٢٢ يونيو — تلقت جريدة الطان تلغرافا من مراسلها فى مدينة فاس قال فيه ان مولاى يوسف سلطان المغرب الأقصى أعرب للمرشال ليوتى عن رغبته فى إصدار منشور ينكر فيه أعمال عبدالكريم الماسة بالوحدة الدينية ويقول ان عبد الكريم لايملك الصفات اللازمة لحكم المسلمين ، وبالنظر إلى تحرش الأمير عبد الكريم الذى أعلن انه يريد الاحتفال بعيد الأضحى فى فاس قرّر مولاى يوسف ردا على ذلك أن يبقى فى فاس ليحتفل بالعيد احتفالا عظيما » اه

هذا هو التلغراف المرسل المذاع عن مولاى يوسف ، فانظر أيها الذكىّ كيف أصبح المسلمون ألعوبة فى أيدى الفرنجة ، وانظر هـذه المخزيات ، الأمير عبـدالكريم قام لتحرير بلاد مراكش وطرد الفرنجة منها ، والفرنجة يصطادون أناسا يجعلونهم ملوكا ثم يأمرونهم فيذيعون أوامر لأولئك الذين يناوئون الفرنجة ، هذا المثل الذى يتصف به بعض المسلمين اليوم وان كان فريق عظيم منهم قد استيقظ كالترك والفرس والأفغان

هذا هو المثـل السوء الذى يمثله المسلمون اليوم ، لاسيما اخواننا أبناء العرب ، وذلك للجهالة العمياء ، والنوم والعمى ، فاذا تبدّى لك هذا فاعلم أن الله قد علم ذلك قبل أن يخلقك ، وقال : « ولا تكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون * اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها » فتعقيب آية قسوة القلب والفسق باحياء الأرض بعـد موتها إشارة إلى ماهو مقرّر فى سنة الله أن الشىء متى وصل إلى نهايته انقلب إلى ضده ، فالأمة الاسلامية اليوم وصلت إلى مانراه ، وبعد هذا الموت الحياة ، فاذا كان المسلمون صاروا اليوم هشيما تذروه الرياح فالله يقول : « اعلموا أنّ الله يحيى الارض بعد موتها » فلئن مات بعض المسلمين اليوم فان الحياة بعد الموت ، وسيظهرهم الله على الأمم ويدرسون علومها ويقومون بأمر ربهم ، هذا هو الذى سيكون ، والله هو الأوّل والآخر والى الله ترجع الامور .

اللطائف العامة للسورة كلها

اعلم أيها الأخ الذكىّ أن هذه اللطائف لم ترد بخاطرى إلا عند الطبع ، واللطائف المتقدمة إنما كانت أيام التأليف منذ بضع سنين ، وهاك بيانها :

(١) فى قوله تعالى : إنا فتحنا لك فتحا مبينا .

(٢) فى قوله تعالى : هوالذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم .

(٣) فى قوله تعالى : ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما .

(٤) فى قوله تعالى : هوالذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق الآية .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً

هذا مافتح الله به علىّ يوم الثلاثاء ١٤ يوليو سنة ١٩٣١ م : —

(١) اعلم أن الأرض ثلاثة أقسام : أرض سبخة ، وأرض حجرية ، وأرض طيبة صالحة للزراعة . فالأولى يقع عليها المطرفلاتحفظ الماء ولاتنبت ماينفع الناس ، والثانية تحفظ الماء لغيرها ولكن لاتنتفع به ، والثالثة ينبت فيها النبات وينتفع به الناس . فهذه الثالثة انتفعت بالماء ونفعت الناس بثمراتها ، فكان منها الحقول والنبات والاشجار والأثمار والازهار والجمال .

الله أكبر : إن عقول أهل الارض مقسمة أقساما تضارع هذه الثلاثة (وترى أصول هذا الموضوع فى حديث البخارى : إنما مثل مابعثنى الله به من الهدى والعلم الخ) إذن من شرط النفوس المتنفعة بالعلم النافعة لغيرها أن لاتشبه الأرض الحجرية ، ولاالأرض السبخة . واعلم أن جميع الذنوب والآثام التى تقترفها النفوس الانسانيــة لن يتمّ لها ذلك إلا اذا كانت فيها هى أنفسها جراثيم الفساد وأصول سوء الأخلاق ، فكما أن الأرض التى ليست سبخة وليست حجرية ، بل هى أرض طيبة ينبت فيها الشجر والكلأ ويعمّ نفعها ، لأنه ليس هناك من مانع يمنع ظهور تلك الأشجار والنباتات فيها ، هكذا النفوس الانسانية النيرة المضيئة التى لم تدنس أصل فطرتها بنقص تقبل العلم ، فهى أشبه بشموس والعلوم فيها كنوزها ، وما الاستعداد للذنوب إلا النقائص التى تفطر عليها النفوس فى مبدأ أمرها .

(٢) إن هذه الأرض الطيبة التى ظهرت فيها الحدائق والحقول يأتى إليها الناس من كل حدب لينتفعوا بثمرها ، ويوالون الخدمة فيها .

(٣) ثم يأخــذون ثمراتها ويطوفون بها فى البرّ والبحر للبيع بعد أن يكونوا قد انتفعوا بما يسدّ حاجاتهم منها .

(٤) ولاجرم أن هــذه الأرض تختصّ باقبال الناس عليها والانصراف عن الأرض الحجرية والأرض السبخة إذ لاثمرة فيهما .

اذا فهمت هذا فانظر فى آيتنا التى نحن بصددها واعلم أن الفتوح فى حقيقته إنما هو فتوح العلم وكشف الحقائق ، فهذا هو الفتح الحقيقى ، فان الارض ومن عليها والسموات والارض كلها فانية . وكل ما فى الارض لاقيمــة له بالنسبة للعلم لان العـلم باق والعوالم فانية ، والنفوس الشريفة لن تفرح قط إلا بانكشاف الحقائق والوقوف على الأسرار ، أما ماعدا ذلك فانما هى ظواهر ، والظواهر يجتزئ بها الجهال .

ولاجرم أن الفتح العلمى وانكشاف الحقائق للنبىّ صلى الله عليه وسلم له أصل واحد وثلاث نتائج ، أما الأصل الذى لابدّ منه فهوصفاء النفس وخلوصها من الجراثيم الموجبة للذنوب ، إن صفاء النفوس وخلوصها من تلك الجراثيم المؤهلة للذنوب هوالأهــم الأتمّ والأولى بالعناية الإلهية من التجافى عن اقتراف الذنوب ، فما مثل النفوس فى الذنوب إلا كمثل الأجسام فى الأمراض ، وأن خير الأطباء من يأمرون المرضى بالمحافظة على الصحة حتى لايقعوا فى الأمراض ، فهؤلاء هم الاطباء الحقيقيون .

ولقد تقــدّم هــذا فى ﴿ سورة الشعراء ﴾ وفى ﴿ سورة فاطر ﴾ وفى ﴿ سورة الحجر ﴾ وفى ﴿ سورة الأعراف ﴾ فقد بينت هناك الطريقة المثلى التى بها يكون الجسم صحيحا لايعتوره مرض إلا قليلا ، فأما أكثر الاطباء فى هذه الارض فانهم فى شغل بمعالجة الأمراض ، وليس من عملهم أن يقولوا للأصحاء احترسوا من الأمراض بالابتعاد عما يضركم ، فهذا ليس من أعمالهم إلا قليـلا ، إن خير الطب ما كان راجعا إلى أصل البنية لحفظ صحتها حتى لايعتورها المرض ، وأكثر الأطباء يعالجون ظواهر الأمراض ، ولايصلون إلى أصــل

الجراثيم والاحوال التى كانت سبب المرض ، هكذا النفوس الانسانيـة لها ذنوب باستعداد لها . وخير ماتعالج به هـذه النفوس أن تصفى من أصـل فطرتها من جراثيم الذنوب ، لا أنها تعالج ذنبا ذنبا ، وكلما وقع ذنب يغفر لها كما يفعل أكثر الاطباء فى أرضنا ، إذ يعالجون كل ذنب على حدته ويذرون وراءهم أصـل الجسم فلايعلمون عنه شيئا .

ولاجرم أن الله عزّوجل لايعامل نبيه فى اصلاح نفسه معاملة أكثرالاطباء فى أرضنا ، بل يعامله معاملة الطبيب الحقيقى الذى يخلص الجسم من جراثيم الامراض ، فهاهنا تجلى لنا وظهرظهورالشمس فى رابعة النهار، إن غفران الذنوب ليس معناه انها تقع ثم تمحى ، فهذا ليس كمالا إنما الكمال أن نفسه صـلى الله عليه وسلم خلقت كاخلقت الكواكب والنجوم مشرقة لا أنها كالطين يعتريها الظلام ، وهذا الصفاء يجعلها قابلة لانكشاف الحقائق ، فاذا سمعنا الله عزّوجل يقول : « ليغفرلك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر » عرفنا أن هذا معناه استئصال الذنوب بأصل الفطرة كالجوهرة فى صدفتها لا يعتريها قذى .

هذا هوالذى فتح الله به علىّ فى معنى : « ليغفر لك الله ماتقدّم من ذنبك وماتأخر » فلخص المعنى لما كشفنا لك الحقائق كشفا مبينا لتتصف بأربعة أمور : —

(١) أمر مبدئىّ وهوصفاء نفسك وجمالها بحيث لاتستعدّ لذنب متقدّم ولالذنب متأخر ، وكيف تستعدّ له وهى كالجوهرة ، أوكالشمس لايقبلان الظلام .

(٣) وثلاثة أمور تكون نتائج ﴿ الأوّل منها ﴾ أن تتمّ النعمة عليك فى الدنيا والآخرة ، وذلك بأن تدرن نفسك راضية مرضية فى الدنيا والآخرة ، وتلقى الله وترا، ، وتقرّ عينك باسعاد من اتبعك فى الدنيا والآخرة ﴿ الثانى منها ﴾ أن ينتشر نورنبوّتك فى الأرض فى أيامك وبعد مفارقتك الأرض ، وهذه النعمة مغايرة للأولى ، فالأولى راجعة لرضا نفسه وبهجتها ولقاء ربها ، وابتهاجها فى الدنيا والآخرة ، وهـذه الثانية راجعة لاسعاد الأمم وهدايتهم لأقوم طريق مستمدين من هدايته ﷺ فهذه راجعة للعمل وماقبلها راجعة لبهجة النفس ﴿ الثالث ﴾ علوّ هذا الدين على غيره وظهور حقائقه لمن درسه بحيث تطمئن له القلوب ، وهذا هوالنصر العزيز .

واعلم أن فتح مكة ، أوصلح الحديبية ، أوفتوح بلاد الاسلام بعده ﷺ أوغيره كل ذلك آثار للفتح العلمى والكشف الإلهى ، فكشف العلوم له صـلى الله عليه وسلم أشبه بنهر ولهذا النهر آثاركثيرة ، هكذا آثار انكشاف الحقائق له صـلى الله عليه وسلم ، فمنها فتح مكة لأنها من نتائج التعاليم ، والتعاليم الدينية أثر من آثار انكشاف الحقائق له ، وهكذا صلح الحديبية وهكذا فتح بلاد الاسلام شرقا وغربا ، كل ذلك فروع لأصل واحد ، والأصل الواحد هوانكشاف الحقائق له صلى الله عليه وسلم الذى هوالنعمة الكبرى والكوثر الفائض ، وعين الحقيقة ، وماسوى ذلك نتائج له ، وهـذا الرأى الذى اطلعت على مبادئه من كلام الشيخ الدباغ أصل جميع الأقوال كلها .

آثارالفتح النبوى فى زماننا هذا

هـل لك أن أحدثك أيها الأخ بما جاشت به النفس اليوم بما اطلعت عليـه مما فتح الله به على أممنا الاسلامية فتحا مبينا ، وذلك لفتح من آثارالفتح النبوى .

اعلم أن أمم الاسلام أيام النبوّة وبعدها بقليـل فتحت البلاد شرقا وغربا ، وملأت الدنيا نورا وعلما ، ثم أخذت تضمحل وتنزوى ، ذلك أنها أولا كان أمرهم شورى بينهم ، ولكن لما اتبعوا أهواءهم ، وجعلوا الملك بحسب الوراثة لابمقتضى الاستعداد نامت الأمم الاسلامية مئات من السنين نوما عميقا عقابا لهم وزجرا

فلما جاء جيلنا الحاضر وعرف الحقائق ، وأخذ يتأدّب بما أدّبه الله ، رجع عما فعله الآباء من الغرور والجهالة والظلم شيئا فشيئا ، وأخذ الاسلام يظهر قليلا قليلا حتى أقرّت أم الفرنجة بذلك ، فهاك أن تسمع ماقاله الاستاذ (لوثروب استودارد) الامريكي مؤلف كتاب « حاضر العالم الاسلامى » فقد جاء فى الجزء الثانى منه تحت العنوان الآتى مانصه :

سيطرة الغرب على الشرق

سيطرة الغرب على الشرق هى القوّة الهائلة الشاغلة مكانا خطيرا فى تطوّر الشرق فى هذا العصر ، و بسبب هذه السيطرة مابرحت لواقح المؤثرات الغربية تنبث وتنتشر ، لابل تتدفق على كل بلاد ، وتطمو على كل رقعة ، حتى غدا التغرّب (١) من أكبر عوامل التبدّل والانقلاب فى العالم الاسلامى ، حتى وفى الشعوب الاسيوية والافريقية غير المسلمة ، وسنبسط الكلام فى موضع قريب من هذا الكتاب على مبلغ ما كان للسيطرة الاوروبية من التأثير الشديد فى تطوّر مختلف الشعوب الهندية غير المسلمة ، ولكن الاحتراز ، الاحتراز أن يؤخذ من هذا أن السيطرة الاوروبية هى السبب والعامل فى جميع هذه الاستحالات والانقلابات الحديثة فى العالم الاسلامى ، فقد سبق لنا الكلام مبسوطا . مبينا فيه كيف ان عناصر المزاج الاسلامى ما انفكت طيلة القرن الأخير ينفعل بعضها ببعض انفعالا شديدا ، فيدثر منها مايدثر ، و يستجدّ فيها مايستجدّ ، وتتلاشى قوى وتتولد أخرى ، وذلك جميعه على ماتقيم من الوزن لما هو متدفق من العوامل الغربية الطارئة من خارج . إنما هو بحد ذاته تجدّد تمّ فى الباطن ، فعله بالغ كل البلوغ من طبائع ذلك المزاج وعناصره مما لامندوحة لسنة النشوء والتجدّد عنه ، وعلى ذلك فما هو واقع مشهود فى العالم الاسلامى اليوم من التبدّل والتحوّل والتطوّر يجب أن لايعتبر مجرّد محاكاة للغرب وتشبه به فحسب ، بل إنما ذلك هو نتيجة تفاعل العناصر تفاعلا مكوّنا لشىء جديد ، وهو الأخذ عن الغرب أخذا مفرغا فى بوتقة شرقية وفى قالب اسلامى ، و يجب فوق ذلك أن لايغيب عن الأذهان أن الشعوب الأسيويه التى يتألف منها سواد المسلمين ليست كما يقول بعضهم شعوبا متدلية منحطة كزنوج افريقيه والجزائر الاسترالية ، بل إنها لذات حضارة بديعة حية منذ القرون الخوالى ، حضارة هى نتاج اسلامى صرف ، متكوّن من نسج المسلمين وثمرات جهودهم ، ومتى ما أخذنا نعتبر ماقد استطاعته هذه الشعوب الاسلامية من تشييد المعالى وفروع ذروات المجد فيما مضى أمنا الخطل فى قولنا الآن انا نترقب خلال هذا الغليان الهائل فى العالم الاسلامى تجددا حقيقيا صحيحا رائعا ، ولاغرابة فى ذلك ان عاد الاسلام يستعيد من عزّه الغابر وعلاه السالف ، وهذا تاريخه المجيد شاهد له على ما كان عليه المسلمون قبلا من الحضارة والعمران .

إن سيطرة الغرب الحاضرة على الشرق لامثيل لها فى التاريخ من حيث العظامة والخطورة والمدى والمجال فما كان لليونان والرومية من قبل من السيطرة المحدودة النطاق على بعض من العالم لايعدّ بالاضافة إلى سيطرة الغرب اليوم شيئا مذكورا ، والغريب فى حديث هذه السيطرة الغربية أنها بنت خمسة عقود من السنين لا أكثر ، بدأ سيلها يتدفق على الشرق منذ نحو منتصف القرن التاسع عشر ، ومنذ ذلك الحين لم تزل

(١) مرادنا بالتغرّب التخلق بأخلاق الغربيين ، والتشبه بهم ، وأخذ أخذهم ، فى طراز المعيشة وأساليب الحياة ، و بشتى مالها من خصوص ، كاستعمال صنوف الأدوات والمستحدثات ، والمعنى كاقتباس الافكار والآراء الاجتماعية والسياسيه ، و تغرّب خير كلمة عربية رأيناها لتعريب اللفظة الانكليزية المذكورة — (المعرّب)

وسائلها وأسبابها تنتشر وتعم ، ذلك كالطرق والمسالك الحديدية والبرد والبرق والكتب والصحف والمجلات ، وكشيوع جديد الآراء والأفكار المتوالية الازدياد في كل مصر شرقي ، وباتت السفن التجارية تمخر عباب بحور الشرق ، وترسو في كل ثغر من ثغوره ، وطفقت التجارة تمتد ناشرة وفر البضاعات والأرزاق الغربية في كل بقعة من بقاع الشرق ، فتلا ذلك تغير الحال تغيرا سريعا ، فالأمم والشعوب التي ظلت حتى منتصف القرن الحالي تحيا حياة الثلاثين قرنا التي كرّت من قبل ، غدت اليوم تقرأ الصحف ، وتركب القطار الكهربائي في مغداها ومراحها ، وانفسخت العادات والأفكار والتقاليد الشرقية القديمة انفساخا كاد يكون تاما ، وتبدلت صور الحياة وأساليبها تبدلا كبيرا ، وسنفصل الكلام في الفصول التالية على ماهية سيطرة الغرب على العالم الاسلامي من جميع وجوهها ، جاعلين الكلام في هذا الفصل تمهيدا لما سيجيء .

إلى أن قال : « ظلت روح العداء للغرب طيلة القرن الماضي تشتد في مكان ومكان على تفاوت ، ولما كانت عوامل التعصب ورد الفعل كائنة على الدوام ، فما برح الكره للغرب شائعا عميا . بيد أنه (على توالي الأيام) صار موقف بعض الطبقات من الأمم الشرقية يتبدل ويتغير على مقتضى الزمان والمكان ، وقد كان الأحرار المسلمون في بادئ الأمر يتقبلون المؤثرات الغربية أحسن قبول ، وقد أسلفنا الكلام في الفصل الأول من هذا الكتاب : كيف اعتزم المسلمون الأحرار اتخاذ القواعد التي جرى عليها الغرب في تقدمه وارتقائه ، وجعلها أساسا للقيام بما أنشؤوه من الاصلاح الاسلامي باعتبار جهتيه : الدينية ، والمدنية . فقد جهد ساسة تركية الأحرار الذين كانوا يدبرون شؤون المملكة في الربع الأخير من القرن الماضي جهدا كبيرا للقيام بالاصلاح في السلطنة العثمانية ، وجهد أحرار غيرهم مثل جهدهم في الأقطار الاسلامية الأخرى في سبيل الغاية عينها ، وخير مثال لنا على هذا هو مابذله القائد خير الدين باشا في سبيل اصلاح تونس ، والى القارئ الكريم لباب الخبر : إن هذا القائد المقدام ، الجركسي الأصل قد استطاع أن يكسب ثقة مولاه الباي ، ويتمكن عنده تمكنا كبيرا ، فاستوزره وألقى إليه مقاليد الامور ، وفي سنة ١٨٦٠ قام خير الدين باشا بسياحة إلى أوروبا ، وطاف في ممالكها ، وشاهد دور عمرانها وحضارتها ، وعاد شديد التأثر من بواهر الغرب وعجائبه وإذ اقتنع بتفوق أوروبا وسيادتها شاء من صميم قلبه أن ينقل إلى تونس من الغرب الخطط والمناهج والأساليب والآراء مستعينا بها لانهاض البلاد وإسعادها ، واعتقد أن هذا العمل سهل القيام به قياما يتلوه تجدد تونس في عهد قريب ، ولم يكن خير الدين بغيضا للغرب ، غير أنه قد أيقن كل الايقان بالخطر المقبل النازل الذي سيحيق بالعالم الاسلامي ، خطر السيطرة والاستعمار متدفقين من الغرب اذا توانت الممالك الاسلامية في الاصلاح الصحيح ، فراح خير الدين بتقى شديد الابتغاء ، وملء صدره الوطنية الصادقة ، وكله عزم أكيد أن يسوق أهل بلاده ، و بني قومه في طريق التجدد والعلا والارتقاء ، ليبلغوا من ذلك مستوى تستطيع عنده تونس أن تحمي كيانها ، وتقوم بالذياد عن حياض حريتها واستقلالها ، واقتنع الباي كل الاقتناع بآراء خير الدين وخطط مشروعاته ، ففوض إليه تنظيم شؤون البلاد ، وأطلق يده لاتعلوها يد في القيام بضروب الاصلاح ، فظل خير الدين حقبة من الزمن يجهد ما استطاع في هذا السبيل ، مذللا جميع مالقيه من المقاومة من قبل الموظفين الرجعيين ، غير أن منيته عاجلته باكرا ، فانتقل إلى جوار ربه ، تاركا مشروعاته الكبرى دون الانجاز ، فلم يمض على وفاته أكثر من عشرين سنة حتى جاءت فرنسا فبسطت سيطرتها على تونس ، وكانت خدمة خير الدين لبلاده على كل حال عظيمة جليلة ، منها أنه ألف كتابا قيما موسوما « بأقرب المسالك في معرفة أحوال الأمم والممالك » (١) ستنهض فيه همم أبناء بلاده ، واستفزهم إلى التجدد والترقي ،

(١) يوجد شيء من النقص في تاريخ المرحوم خير الدين باشا التونسي الذي كان من أوائل المصلحين

وحذرهم من سوء عقبى التوانى ، فكان لكتابه هذا أعظم تأثير فى نفوس الاحوار ورجال الاحزاب الوطنية فى الشرق الأدنى عامة ، وافريقية الشمالية خاصة ، حيث كاد الكتاب يقدّس عند أهل تونس والجزائر ، إذ كان باعثا قويا على استيقاظ العصبية الجنسية ، ففيه استصرخ خيرالدين بنى قومه لتحطيم الأغلال القديمة ، وبسط لهم ضرورة الاقلاع عن الافتخار الفارغ بمجد الماضى ، افتخارا بالغا حد القعود بهم عن استئناف طلب العلا طريفا ، ودعاهم للوقوف على ماق العالم الغربى من وسائل التقدم وذرائع العمران . ومما أكده فى كتابه هـذا أن ارتقاء أوروبا وحضارتها فى هذا العصر ليسا نازلين عليها عفوا بلانصب ، ولاهما منحة جادت بها الطبيعة لأسباب دينية ، بل هما ثمرة التقـدم فى الفنون والعلوم ، واكتناه أسرارها اكتناها توفرت معه وسائل الثراء باستخراج كنوز الارض ، واحياء الصناعة والزراعة والتجارة . وجميع هـذا إنما هونتيجة استقرار أمرين وسيادتهما فى آفاق الممالك الغربية لاثالث لهما : العدل والحرية . وقد كان العالم الاسلامى فى الاجيال الماضية عالم التقدم والفلاح والعمران ، لأنه كان فى بحبوحة من الحرية ، سالكا سبل الترقى والنجاح ، ثم أفلت شموسه فأخـذ يتخبط فى الدجنات . وما زال هكذا حتى أخذ الآن يستعيد من روحه التى كانت فيه من قبل ، روح الحرية والعمل والارتقاء .

ثم قال : « وقد اشتدت روح العـداء للغرب واشتعلت نارها أيما اشتعال منـذ أول القرن الحالى . قال أحد عظماء المسلمين قبيـل الحرب العامة فى هذا الصـدد : « إن هذه الدواهى التى دهتنا ، والنوازل التى نزلت بالعالم الاسلامى خلال العشر السنوات الأخيرة ، قد جددت فى أعماق جميع المسلمين عواطف التآخى والتوائق الاسلامى ، من حيث أشعلت صدورنا مقتا وكرها وعداء للبغاة المعتدين علينا » .

إلى أن قال : « بقيت الحقيقة الثابتة ، يجب أن تقال : إن سيطرة الغرب السياسية على الشرق وان طال أمدها ماطال ، وتبدلت صورها وأشكالها ماتبدلت هى قائمة على أساس متداعى الاركان ، متضعضع الجوانب سريع التقوض والتزلزل ، وما دام المتسلطون الغربيون فى الشرق فهـم فيه أجانب غرباء ، قد يلقون من الشعوب الشرقيـة شيئا من الاحتمال والاحترام الآخذين بالتناقص ، ولكنهم لن يلقوا شيئا من الود والمحبـة والاخلاص ، ولاغرابة فى الأمر ماظلت منزلتهم أبدا منزلة الدخيل الغريب ، الممقوت المكروه ، زد على هذا يجب بالضرورة أن يأخـذ الحكم الغربى والسيطرة الغربية يتناقصان ويتقلصان ظلا ، ويخفان وطأة بازدياد تقدم الشعوب الشرقيـة واتساع نطاقها فى الارتقاء . ولايعزبن عن البال أن الذى كان عنـد أهل جيـل سلف داعية للرضا والارتياح قد غدا عنـد أهل الجيـل التالى سببا للتجهم والنقمة والاضطراب فيبتغون تبديله والانتقال إلى ماهو خير منه وأفضل ، هذا هو من أسباب الانقلاب السريع فى الشرق .

الاسلاميين فى القرن الماضى ، وكتابه «أقوم المسالك» هو من خيرة ماألف لكسر قيود الجمود الضار القاتل ، وحطم سلاسل التقليد الأعمى المنهى عنه فى الشرع ، وايقاظ المسلمين إلى أنهم ان لم يبادروا إلى التسلح بالعلوم والصناعات العصرية دهمهم خطر السقوط العاجـل ، فجاءت دعوة خيرالدين متأخرة ، إذ كان تكالب أوروبا شديدا ، وضربها وحيا ، وسبات الاسلام لايزال عميقا ، فتم جميع ماتكهن به خيرالدين ، ولما استولت فرنسا على تونس رحل خير الدين إلى الاستانة ، وولاه السلطان عبـد الحميد الصدارة العظمى ، منتدبا إياه لاصلاح المملكة ولكن لم يعمل برأيه ، فانتهى الامر بعزله ، وبقى فى الاستانة إلى أن توفى وذلك فى نحو سنة ١٨٩٠ وخلف طاهر بك ، وهو من الأدباء الافاضل ، وصالح باشا الداماد الذى شنقه الاتحاديون بتهمة انه دبر مؤامرة لقتل المرحوم شوكت باشا ، وتشفع به السلطان ساكن الجنان محمد الخامس لديهم ، لكونه زوج ابنة أخيه أى صهر الأسرة المالكة ، فلم تقبل شفاعته . ولخير الدين باشا أيضا ولد اسمه محمد بك ، وهو وأخوه طاهر الآن بتونس اهـ

(شكيب أرسلان)

« على أن السيطرة السياسية الأوروبية على الشرقين قد شرعت تهى ، وأخذت أوصالها تتفكك ، و بناؤها يتداعى ، وضعفها الكامن فيها يبدو متزادا ، وفسادها يظهر . جميع ذلك منذ الحرب الروسية اليابانية ، فقد كان لتلك الحرب فى نفوس المشارقة قاطبة من التأثير المعنوى الشديد مالايستطاع وصفه ، ولا يعلم حدّه ، وقد ظلّ الشرق حتى ذلك اليوم لاحول له ولاقوة حيال أوروبا المعتدية عليه ، وكان كثير من الشرقيين حتى عهد تلك الحرب يقولون بأن لامناص لبنى أوطانهم من الخضوع لسيطرة الغرب المسلحة خضوعا مشئوما ، غير انه لما دمرت دولة أسيوية دولة أوروبية من الطراز الأوّل ، وخضدت شوكتها ، ودقت عنقها دقا ، كان لذلك دوىّ هائل ووقع عظيم فى كل جانب من جوانب المشارق ، ورقعة من رقاعها ، فمادت آسيا وأفريقيا من أقصاهما إلى أقصاهما طربا ، وجرت فى عروقهما نشوة الظفر وحيا النصر ، وعدّوا الانتصار اليابانى الحجيبة العظمى ، والآية الكبرى : وصف مبشر اسكتلندى ما كان لهذا النصر المبين من شديد التأثير فى نفوس سكان الهند الشمالية حيث كان مقامه فقال : « قد اهتزّت الهند الشمالية فرحا وابتهاجا ، وترنحت ترنح الثمل الجذلان ، وبات القرويون فضلا عن أهل المدن والحواضر يردّدون أحاديث النصر اليابانى فى حلقات مجالسهم ومجتمعاتهم و يرتلونها ترتيلا ، طوّافين الليل كله حول المعابد والهيا كل ، وقد قال لى أحد شيوخهم فى تلك الغضون : « لم تتلق الهند نبأ طابت له نفسها مثل هذا النبأ اليابانى منذ الثورة الهندية ، وأخبرنى قنصل عثمانى أقام طويلا فى آسيا الغربية أن الأهالى فى داخل البلاد تركوا جميع أعمالهم ، وجعلوا لايهتمون بأمر سوى ارتقاب الأنباء اليابانية وتلقيها والتهليل واقامة محافل الأفراح لها ، أجل : مادت آسيا من أقصاها إلى أقصاها ، وانقلبت هجعة القرون استيقاظا ، فاستيقظت الحياة ثانية فى الشرق توّاقة لمغامرة الأهوال فى سبيل بقائها ، وهبت آسيا هبة أخرى لتسطر لها فى التاريخ ذكرا جديدا ونبأ حديثا » .

ومما لايحتاج إلى برهان أن الحرب الروسية اليابانية لم تكن الخالقة المبدعة لهذه الروح الجديدة فى الشرق ، الروح الممتدّة أصولها إلى أبعد الأزمنة الخالية ، والمصاحبة لجميع الأدوار والعصور حتى اليوم ، بل ان الحرب هذه إنما كانت وسيلة عارضة لاعلة فى تنبه آسيا وافريقيا تنبه الاعتزاز ، فراحتا منذ سنة ١٩٠٤ تجدّان جد الواثق بنفسه ، الساعى فى مطلب أمر لايلوى على شىء دونه ، و بسبب هذه الحرب طفقت الأفكار التى كانت تمخض فى أدمغة الملايين من أهل الشرق تمخضا لم يشعر به من قبل تمام الشعور ، تخرج من عالم القوة إلى عالم الفعل ، فدلّ جميع ذلك دلالة واضحة لايسع مكابرا انكارها على اختمار الأسباب والعوامل ، وتهيؤ العلل لانبثاق قوى جديدة فى الشرق ، هى حركات التجدّد الكبير والانقلاب العظيم .

أضف إلى ماتقدّم أن هذا الشعور والاستيقاظ قد أثرا تأثيرا عميقا فى قضية الشرق وتطوّرها إزاء سلسلة حملات الاعتداء الأوروبى التى استؤنفت منذ ذلك الحين استئنافا شديدا ، ومن الغريب العجيب أنه بعيد أن ظفر الشرق الأقصى فى رد عادية الاعتداء الاوروبى عليه ذلك الظفر الكبير ، لسرعان ما أخذت حملات الاعتداء الاوروبى تتوالى على الشرقين الأدنى والأوسط تمزّقهما بمخالب الوحشية والبربرية شرّ ممزّق ، وقد وصفنا مما تقدم من الكلام تلك الزأرة الهائلة التى زأرها العالم الاسلامى متماسك الوحدة المعنوية ، مترابط العروة الأدبية الفريدة المثال ، عند ما أنشأت السياسة الاوروبية الحديثة تنقلب غاية فى الجشع والنهم فلذلك جدير بنا الآن أن نعلم علما صحيحا مبلغ ماكان لظفر اليابان من عظيم التأثير فى هذه الحالة الحديثة الظهور العجيبة فى جميع الأقطار الشرقية ، من المعلوم أن الشأن الخطير الذى مثله الساسة الغربيون الغلاة أصحاب مذهب الفتح والتوسع الاستعمارى بين سنة ١٩٠٤ و ١٩١٤ م إنما كان فى دور عصيب . قال أرمينيوس ڤامبارى بعد غزوة ايطالية لطرابلس الغرب قولا سديدا : « كلما اتسع نطاق قوة متسلطة الغرب

فى العالم القديم (الشرق) ازدادت رابطة الوحـدة وثاقة ، وعروة التضامن والمصالح المتبادلة إحكاما بين الأمم والشعوب الاسيوية على اختلافها ، ورسخت روح التعصب على أوروبا والبغضاء لها ، وتوغلت عوامل ذلك فى قرارات صدور المشارقة أيما توغل ، أمن العـدل والحصافة فى شىء ، يا ترى أن نرى نار العداء تزداد تأريثا وإيقادا بسبب هذه الحملات العدوانية المحضة التى ما أنزل الله بها من سلطان ، وأن نستعجل العالمين الشرقى والغربى للاشتباك فى نضال هائل ، ومعمعان رائع ، وأن ننفث سما زعافا فى برعم الحضارة الاسيوية الجديدة ، هذا البرعم الذى أخذ يتفتح عن أكمامه فى أقطار المشرق كافة ؟ » .

وقال فى صفحة ٥١ وما بعدها ما نصه : « وقد سبق لنا فى مواضع تقدمت فأبنا كيف ظهر العرب يشتعلون بنار الاسلام فأنشأوا خلافة منيعة الجوانب قائمة فى عهـدها الأول على أساس الشوروية والشريعة الدينية ، وأوضحنا أيضا كيف طرأ الاستبداد على الدول ، ثم أخذ ينتشر حتى طبق غالب العالم الاسلامى ، وكيف انقلبت الخلافة الشرعيـة الشوروية ملـكا عضوضا ، وسلطنة استبدادية مطلقة ، وكيف أخذ العرب (عشاق الحرّية والاستقلال) يعودون أدراجهـم إلى الصحراء غضابا متجهمين ، وكيف تلاشت الحرّية السياسية والدينية ، وعفت آثارها ، غير أنه على كل هذا بقى معظم ذكريات خـلافة الراشدين والمعتزلة الحرّة ، حية فى زوايا الأدمغـة ، وألواح الذاكرة ، مستعدّة استعدادا طبيعيا غريزيا للظهور ثانيا . بسبب ذلك ظلت بلاد العرب حوض حرّية يذود عنه كل عربى ذياد قرّح الأبطال بالسلاح والأرواح والدماء ، وهناك فى شبه الجزيرة لم يبرح العرب عربا والاسلام اسلاما ، فمن ترى يستطيع أن يتعامى عن القول الذى قاله صاحب الرسالة : « إنما المؤمنون اخوة » و « المسلمون أحرار » وعما هو مدوّن فى صحف التاريخ الاسلامى فى غرر أنباء صـدر الاسلام العجيب المعروف « بزمن السـعادة » . أولم يظلّ المسلمون الأحرار ، النازعون نزعة الاسـتقلال ، حتى فى أشد الليالى حلـكا ، يردّدون عاليا خطبة الخليفة الأول أبى بكر رضى الله عنه التى خطبها فى العرب بعد مبايعته بالخلافة : « قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فاذا استقمت فأعينونى ، واذا زغت فقوّمونى » . فالاسلام فى عهده الأوّل إنما كان شمس الحرّية مشرقة وهاجة ، ودينا تجلت فيه المنازع الحرّة الشريفة ، وليس ما طرأ على العالم الاسلامى فيما بعد من الوهن والتدلى بحاجب عن المنصف جوهر الاسلام وحقيقة صفاته ، فالشريعة الاسلامية كما قال العلامة لبسار : « إنما هى ديموقراطية شوروية ، جوهرا وأصلا ، وعدوّ شديد للاستبداد » . وقد أجمل قامبارى هـذه الحقيقة فى شأن الاسلام بقوله : « ليس الاسلام ولا تعاليمه السبب المفضى بآسيا العربية إلى هـذه الحالة المشهودة من التضعضع واختلال الشؤون ، ولـكن السبب كل السبب فى ذلك إنما هو اسـتبداد أمراء المسلمين وحكامهم الذين التووا عن الصراط المستقيم والسـبيل السوىّ ، وتنكبوا عن طريق صاحب الرسالة وخلفائه الراشدين ، فأخذوا فى انتحال التأويل القرآنية انتحالا منطبقا على أغراضهم الاستبدادية . وتشددوا فى الدين تشددا باطلا برىء منه الاسلام (١) ، وناصبوا المذاهب الشوروية

(١) من أكبر المسئولين عن انحطاط الاسلام أمام الله والناس هـم هذه الطبقة التى يقال لها العلماء ، فانهم إلا النادر منهم اتخذوا الدين مصيدة للدنيا ، وجعلوا دينهم التزلف إلى الأمراء بتسويغ جميع موبقاتهم بالأدلة الشرعية والافتاء عنها من الدين ، وقلما أتى أحـد الملوك أو الامراء المستبدين عملا منـكرا إلا أتوا له من الآيات والأحاديث بما يثبتون له به مشروعية ذلك العمل بصرف الآيات الكريمة عن معناها ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، ورواية الضعيف والموضوعات إلى غير ذلك من الاستشهادات التى يتوخون بها الزلفى والجائزة ، ومن أجل ذلك يتمادون فى غيهم هذا (والمسلمون غاضون الطرف عن لعبهم هـذا) حتى صاروا ينقرّبون بهذه الأشياء نفسها إلى الحكومات غير الاسلامية فى المسائل التى فيها خراب الاسلام وهلاكه ، فـكلما سقطت مملـكة اسلامية فى يد دولة أجنبية ، أو وجدت حكومة اسلامية لدفع دولة عادية عليها من الأجانب ، وجدت الدولة

والاصول الحرّة العداء ، فقضوا على جميع ذلك قضاء ، فحالوا دون بزوغ فجر النهضة الاسلامية (١) » .

وقد أبنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب كيف ظهر الاستبداد الشرقى ، ثم أخذ يتعاظم حتى بلغ منتهاه فى القرن التاسع عشر ، و بسطنا الكلام على أن اليقظة الاسلامية لم يكن أمرها مقصورا على الاصلاح الدينى فحسب ، بل تناولت الاصلاح السياسى أيضا ورامت تخليص العالم الاسلامى بأسره من استبداد أمرائه وملوكه وسلاطينه العسفة الظلمة ، ونقول الآن : انه بينما كان الاصلاح السياسى الحرّ سائرا مسيره على اتساع فى الحركة والانتشار . فاذا بتيار سياسى جديد قد هبّ عليه من جوّ أوروبا ، فاعترض سبيله وقام فى وجهه ، وكان أهل الفكر والرأى من المسلمين وقد أيقنوا بحال تضعضع الشرق الاسلامى وتشتت أمره حيال تقدّم أوروبا وشدّة حولها و بأسها ، طفقوا يسعون وراء الاصلاح ، متذرّعين بأنجز الذرائع للوصول اليه ، واذا راموا صدق المسعى ، وابتغوا التجدّد الحقيق فلم يغرب عن بالهم أن بلوى الشرق الاسلامى إنما غالبها مستقرّ فى حكوماته المنحطة التاعسة لواهنة العظم ، وشارك الأمراء الحكام أهل الفكر وطلاب الاصلاح فى هذا ، وكلهم أجمعوا على وجوب انتهاج المناهج والأساليب السياسية الغربية ، واكتناه أساليبها ، والوقوف على جميع أسرارها ، هذا اذا كان مرادهم حقا انتشال الممالك الاسلامية من وهدة انحطاطها ، وتنجيتها من شرّ المهالك ، ثم سوقها فى سبيل التقدّم والارتقاء ، وقد كان السلطان العثمانى محمود الثانى فى تركيا ومحمد على فى مصر خير مثالين ظهرا بالطراز الجديد من سلاطين الشرق وأمرائه ، وكلاهما كان حكمه فى أوائل القرن التاسع عشر .

غير أنه ليس منهما من أراد أن يمنح رعيته الحرّية الدستورية ، أوأن يربأ بنفسه عن امتطاء الحكم المطلق فيخرج عنه إلى الحكم المقيد ، بل عوّل كل منهما على أن يظلّ الحاكم المطلق بحيث يكون فيه وسطا بين حالة المستبدين العادلين الاوروبيين ، والمستبدين الشرقيين ، وكان قصد هذين الحاكمين الكبيرين طالبى التقدّم والنهوض ، تنظيم الحكومة فى الجيش والخدمة المدنية والقضاء وغير ذلك ، تنظيما صحيحا خاليا من المفسدة والعيب : كيما يتسنى لحكومة هذه أن تسير (بنفسها وفى نظامها) سيرا مطردا كسير الحكومات العربية ، لا أن تظل كناية عن طوائف من الموظفين والعمال لا يعرفون شيئا من رقابة النظام ، ولا يقومون بواجب إلا خشية العقاب .

وثابر محمود الثانى ، ومحمد على ، ومن عاونهما على ذلك من الأمراء على انتهاج منهج هذه السياسة

الاجنبية من هؤلاء العلماء أسرع الخادمين لأغراضها المفتين من الكتاب والسنة بزعمهم على مقتضى أهوائها ، وحسبك أن عددا عديدا من علماء سورية أفتوا أثناء الحرب العامّة ببغى الشريف حسين أمير مكة تقرّبا إلى جمال باشا قائد سورية يومئذ ، فلما غارت دول الحلفاء فى الحرب ، واحتلوا سورية ، بايعت هذه الفئة نفسها الشريف حسينا الذى كان عندها من قبل باغيا خارجا على الخليفة ، ثم لما دخل الفرنسيس الشام نفضت أيديها ثانية من صاحب الحجاز ، وجعلت تدنى بحسب هوى فرنسا ، وعدّت الملك حسينا أجنبيا . أكثر هؤلاء العلماء برز منهم هذا التلوّن ، وكلما اتهم الانسان على هذا التذبذب أجابوه : « إنما هذه تقية نبتغى بها النجاة من الظلام » ، والصحيح أن عذرهم غير مقبول ، وأن عملهم هذا مخالف للشرع مناف للكتاب والسنة ، وأن دعواهم مداراة الظلام هى باطلة ، بل هم بنية ضمائر ، ورواد سفاسف وطلاب وظائف . هذا يريد أن يكون قاضيا ، وذاك مفتيا ، وذاك رئيس علماء ، ومنهم من يقبض أجرة امضائه نقدا دراهم معدودة ، ولا نعلم إلى متى يصبر أهل سورية عن تأديب هؤلاء الجهلاء المعممين ، وينظرون إلى العزائم لا إلى العمائم اهـ

(١) سنة ١٩٠٦ (شكيب أرسلان)

الرشيدة الحديثة ، غير انه على الجملة كانت ثمرات هذا الاصلاح الذي بدئ بعاليه وظاهره قبل أساسه وباطنه غير مرضية ولا داعية للارتياح ، ولاجرم فانه قدكان فى استطاعة السلطان أوالأمير ابقاء القلاع ، وانشاء الدوائر والخطط الحكومية على الطراز الأوروبى ، وحشدها بالجند ورجال الوظائف والأحكام المتزيين بأزياء غربية ، غيرانه لم يكن بالمستطاع الاتيان بنتيجة مثل تلك التى تأتى بها الحكومات الغربية ، لأن معظم هؤلاء الموظفين المتظاهرين بصفة أبناء الغرب يكادون فى الواقع لايعلمون شيئا من أسرار تقدم الغرب وارتقائه ، وأسباب حضارته وعمرانه ، فلذلك كانوا عجزة عن القيام بالأعمال على الطريقة الغربية الصحيحة لأنه ليس فيهم الكثير الكافى من روح الاقدام والمضى فى العمل ، ولاهم يقبلون من أنفسهم على اتباع نظم وأساليب عملية لم يفقهوها ، ولا ألفوها ، بل كانوا يحملون نفوسهم على مؤالفة الأعمال الاصلاحية عن فتور وتراخ ؛ وخير ما كانوا يعرفونه ويقومون به هو الطاعة العمياء لأمر مولاهم وسلطانهم ، هكذا كانت الحالة فى بدء الأمر . بيد انه على توالى الأيام أخذت القوى العسكرية تنتظم معنى ومادة على تدرج مستمر حتى غدت بعد مدة من الزمان على جانب من الكفاية والجدارة الحديثتين ، وأما الخدمة المدنية فكان نصيبها من الاصلاح الحديث قليلا ، فظل أمرها مقصورا على اكتساب المظاهر الغربية من خارج لانها لم تنل كثيرا من أسرار المعاصرة والجدة التى هى شرط لازم فى حال كل حكومة منظمة راقية .

أضف إلى هذا أنه فى غضون ذلك طفق المصلحون الجدد الذين يختلفون مذهبا وطرازا عمن سبق ذكرهم يقومون أحزابا مؤلفة ، وغايتهم إنما هى اقتباس جميع المبتكرات السياسية الغربية كالنظم الدستورية وحكم الشورى ومجالس النواب وغير ذلك مما بات تتطلبه الحياة السياسية الحديثة بطبيعة الحال ، وكان عدد هؤلاء يزداد ازديادا متواليا من المتهذبة الأحرار المتشبعين أفكارا وآراء غربية ، اقتبسوا بعضها بمطالعة الكتب والنشرات والصحف والمجلات المتزايدة الانتشار ، و بعضها الآخر تلقوه بأسباب التعلم والتهذيب فى المعاهد العلمية المنشأة على الطراز الغربى ، وما كاد يكون الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى نشأت الاحزاب السياسية فى تركيا نشوءا محسوسا ، وفى سنة ١٨٧٦ هبت الأحزاب الحرة هذه ورفعت صوتها عاليا ، وأكرهت السلطان الضعيف على منح الدستور . انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامى »

هذا أيها الذكى ماوقر فى صدرى فى تفسير قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » وهذه صورة ملخص هذا المقام : —

(أولا) ويتم نعمته عليك ، وهى : رضى الله عنهم ورضوا عنه

(ثانيا) الطلعة العلية النبوية التى استخلفت منها الأئمة إلى هذا الآن ، وهى قوله «ويهديك صراطا مستقيما»

(ثالثا) النصر وعلو هذا الدين بالحجة على سائر الأديان ، وهو : « وينصرك الله نصرا عزيزا »

انكشاف الحقائق ويتفرع عليه

«ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» ينتج منها اشراق النفس وهو انكشاف الحقائق

بهجة هذا المقال

مسامرة النجوم ، في عجائب العلوم

استيقظت قبيل الفجر ليلة الثلاثاء العاشرة من شهر نوفبر سنة ١٩٣١ م — الموافقة سنة ١٣٥٠ ﻫ وقد قدّمت « سورة الفتح » للطبع ، وأنا مفكر فى عجائبها ، دهش من بدائعها ، إذ سنحت لى سانحة ، من نظرات النجوم ، فى حالك الليل البهيم ، فأشرقت نفسى إشراقها ، وأخذ الخاطر يبدو بعد الخاطر ، ونما الفكر حتى صار قويا ، و يستمرّ ينمو حتى تخيلت أمامى بشرا سويا ، جسمه من النور ، وأنا إذ ذاك بين اليقظة والنوم ، إذ صرت فى عالم الخيال ، بعيدا عن الحسّ ، مصروفا عن عالم الأجسام ، فأخذ يحاورنى وهو يقول : لقد لمحتك تنظر الكواكب الآن ، وأنت تفسر القرآن ، فحضرت لمعونتك ، ومثلت لافادتك . لقد فسرت الفتح بالكشف العلمى ، وجعلت ذلك أشبه بشجرة ذات أغصان ، جذورها المغفرة والبراءة من الذنوب ، وصفاء النفوس ، وساقها انكشاف الحقائق ، وفروعها الاستقامة بالأخلاق ، والنصر المبين والرضوان أفلا أحدثك الساعة فى هذا المقام حديثا ، تكميلا لمقالك ، وتدليا للقرّاء : إن هذا المثل الذى ضربته وهى الشجرة ينقصه تبيان أتمّ ، وتعليم أهمّ . فقلت فى نفسى متعجبا ! من أين أقبل هذا الخيال ؟ ولعلّ خواطرنا اذا نمت وعظمت تجسمت أمامنا ، والا فهذه الخواطر لاتخرج عن تفكيرى ، ولاتحود عن تقديرى ، فما كاد الخاطر يتردّد فى نفسى حتى أخذ يقول : إنى أتيت إليك من الثريا فى السماء ، لأنك فى أكثر الليالى تنظر إلى النجوم ، وتعجب من محاسنها ، فصار ذلك من أسباب اقترابى منك ، واسعادى لك ، وحديثى معك ، إن انكشاف الحقائق الذى ذكرته ومارتب عليه من الفروع المذكورة يعوزه من العلم نوعان : أوّلا تطبيق آراء الأمم الحاضرة عليه ، ليكون تفسير القرآن فى زمانكم ملائما لعلوم أممكم حتى تقبل على علومهم الموافقة للاسلام نفوس الأمم الاسلامية ، وحتى يكون من المعجزات والآيات البينات فى زمانكم ، وكم قال علماؤكم « ان القرآن لاتفنى عجائبه ، ولاتنقضى غرائبه ، وتبدو له فى كل زمان حكم طريفة ، وبدائع حديثة ، لتزداد معجزاته ، ويزداد أنس العلماء به » — (ثانيا) تطبيق أحوال الأمم الاسلامية الماضية بعد العصر الأوّل ، وكيف حصل اختلالها ، وازداد اختباطها ، وأقبل هرمها ، وأدبر شبابها ، وحلك ليلها ، لما عميت عن اكتناه السرّ المكنون ، واتباع طريقه المرسوم .

فقلت : أيها السيد الجليل الجليل : إن فى قولك لنورا ، وفى حديثك لنبا ، فأفدنى رحمك الله عما وصفت ، وأخبرنى عما أفدت . فقال : أما تطبيق آراء الأمم حولكم فأنا أنقله لك مترجما بالحرف مما كتبه الغربيون فى التعاليم لتلاميذهم ، إذ يصطفون من العلم زبده ، ويجعلون تلك الخلاصات فى كتب المطالعة ، وهاهى ذه قطعة تخص فيها القوم مقاصد التعليم فى جميع الأمم ، وفى كل زمان ومكان ، والكتاب الآن بين يديك وهو من الكتب التى يدرسها التلاميذ فى المدارس الثانوية ، فهك قطعة من الكتاب منقولة من كتاب (مان ذى ماستر پيس) تأليف الاستاذ (كلوج) وهذه القطعة من مختارات الترجمة ، فهأنا ذا أترجمها لك

مقاصد التعليم

« إن مقاصد التعليم لاتعدو أن تكون معدّة المرء أن يستخرج جميع مواهبه فى الحياة : يجب أن يكون تعليم الانسان الذى يزاول الأعمال الجسمية معدّا له أن يكون كفئا لها جديرا باستثمار ماهو بصدده من الأعمال الانسانية ومرافق الحياة خير استثمار . إن نظام التعليم يقوم على ثلاث دعائم وهى : دعامة العقل ،

ودعامة الأدب ، ودعامة الجسم . وكل نظام تعليمى خلا من أحد هذه الدعائم الثلاث فانه لامحالة مضمحل لا بقاء له ولا نفع فيه لنوع الانسان ﴿ مثال ذلك ﴾ : اذا علمنا الصبىّ صناعة كالتجارة ، أو علما كالهندسة ولكننا لم نتمّ فيه قوّة حبّ الخير العام ، فيحب الصدق ، والاخلاص ، وطهارة الضمير ، والصلاح ، والعدل وصدق القول ، وحب المنفعة للناس ، ومعاشرتهم بالحسنى ، فاننا إذ ذاك نكون قد أعطيناه سلاحا ماضيا به يصبح ماهرا فى إحداث الشغب ، ويكون خطرا على المجتمع الذى تربى فيه ، وهكذا اذا برع فى العلوم ، وتهذبت نفسه وملكها ، وصار من البررة الأخيار ، فان كان فى العلم فهو من أعاظم الحكماء ، وان كان فى الأخلاق فهو على سنن الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين ، ولكننا أغفلنا تربية جسمه ، ولم نقو عضلاته ، ولم نحسن تغذيته بما يناسبه ، ولم نحمه مما يكون ضررا عليه ، فان هذا يعوزه قوّة طبيعية ، وأخرى حيوية ، ليتوصل بهما إلى منافع الحياة والتمتع بها ، ويعوزه جسم حديدى هو بلا مراء فى أشدّ الحاجة إليه ليخاطر به ويجاهد فى معترك الحياة » انتهى

ثم قال : فهل لك أن أحدثك عن تطبيقها على الآية . فقلت : إنى إلى ذلك وامق . فقال : أنت حينما كتبت الجدول الذى رسمته فى ملخص الآية وجدت أنه هو نفسه هذه المقالة ، لذلك حضرت إليك ، فالقوّة العلمية من القوى الثلاث يشار إليها بانكشاف الحقائق فى الآية ، والقوّة البدنية يشار إليها بالنصر على الأعداء : « وينصرك الله نصرا عزيزا » إذ لا يكون إلا بقوّة البدن (فى الغزوات) ، والقوّة الأدبية الأخلاقية يشار إليها بقوله : « ويهديك صراطا مستقيما » . إذن خلاصة تعليم الأمم المحيطة بكم اليوم هى نفس هذه الآية ، فقوّة الجسم ، وقوّة العلم ، وقوّة الأدب ، هى المعوّل عليها فى زمانكم .

ثم ضرب مثلا ، فقال : إن الأمم الاسلامية أشبه بجسم واحد رأسه فى زمن النبوّة ، ورجلاه فى الأزمان المتأخرة ، فهذا الجسم الاسلامى قد أعطى القوّة الجسمية بدليل غزواتهم ، وأعطى القوّة الأدبية بدليل نظام ممالكهم ، وأعطى القوّة العلمية وهى الدين والعلوم فعاشوا إلى حين . ثم أخذ هذا الجسم يضعف شيئا فشيئا ، وأخلاقه تنحط ، وعلمه ينقص . وههنا آن أن أذكر :

تطبيق الآية الثانى على الأمم الاسلامية

إن هذا الجسم الاسلامى أخذ يرجع القهقرى شيئا فشيئا ، فانظر كيف يقول ابن خلدون فى مقدّمته ما خلاصته : « ان هنا أصلا أصليا وله فروع ، أما الأصل فهو الدين ، فاذا رأيت أمة أو أسرة تحبّ أهل الصلاح والتقوى والدين ، وتغرم بذلك ، فان هذه الخصلة يتبعها فروعها ، وهى الأخلاق الفاضلة من العطف والشفقة ومساعدة العجزة الضعاف ، والفقراء ، والعدل . ويتبع ذلك سياسة الأمم ، وحفظ الدولة ، ونظام البلاد ، وهذا قانون لا ناقض له ، فاذا رأيت قبيلا أخذ يرجع القهقرى فى سياسته ، فابحث فى أخلاقه ، فانك تجد العطف والشفقة والرحمة والعدل قد أفل نجمها ، ثم ارجع وراء ذلك تجد العقيدة الدينية أخذت فى الانحلال ، وأصبح القوم ينظرون إلى الدين نظرهم إلى أمور غير مجدية ، فلا يحبون الصالحين ، ولا هم لهم يعظمون .

اذا علمت هذا فانظر كيف يقول : « إن المسلمين لما قاموا فاتحين بالدين ، واستمسكوا به ، بقى ملكهم ، فلما خلعوا ربقته ، تقلص ملكهم ، وذهبت ريحهم ، وأصبحوا حصيدا خامدين » ، فالكلام على الدين ، ومعه العلم طبعا هو القوّة العلمية ، والكلام على رحمة الضعفاء والعدل إلى آخر ماتقدّم هو القوّة الأدبية ، فأما القوّة الجسمية فان لها شأنا آخر ، وهو كلام النبوّة ، وذكرته أنت فى ﴿ سورة النمل ﴾ عند الكلام على آية : « إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلة » مع آية : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » إلى آخره .

فهناك أوّلا حديث : « إن أخوف ماأخاف عليكم مايفتح عليكم من زينة الدنيا » الخ وذكرت هناك أن بقية الحديث فى ﴿ سورة الأنفال ﴾ إذ صرّح ﷺ بأن الغنائم وفتوح البلدان وان كان خيرا للنفوس الصالحة فانه يكون شرّا للنفوس الفاسقة الجاهلة ، فان نفس الغنائم تكون سببا للترف والنعيم ، ثم يعقبه القلّ ﴿ ثانيا ﴾ قال ﷺ : « كيف بكم اذا غدا أحدكم فى حلة وراح فى أخرى ، ووضعت بين يديه الصفحة ورفعت الأخرى ، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ، قالوا يارسول الله : نحن يومئذ خير منا اليوم نكفى المؤونة ونتفرّغ للعبادة ، فقال بل أنتم خير منكم يومئذ » اهـ

إذن الترف والنعيم الحاصلان من فتوح البلدان يضعفان الأبدان ، والأبدان هى الدعامة الثالثة .
إذن الدعائم الثلاث للتعاليم فى كلام علماء أوروبا نظير الدعائم الثلاث فى آية الفتح ، وصدق تطبيقها فعلا على الأمم الاسلامية ، فهم أوّلا كانوا أقوياء علما وأدبا وجسما ، فدام ملكهم ، فلما وقعوا فى الترف ضعفت الأجسام وذهبت الآداب ، وقلّ الدين ، فذهب الملك .

إذن ظهور هذه المعانى اليوم معجزة القرآن فى هذا الزمان ، وقبل أن أختم حديثى معك أيها الجوهرىّ أقول لك : إن قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » الخ نضرب له مثلا بقول القائل : « يافلان : إن الله ألهمك الصلاة لتنظف بدنك ، وتناجى ربك ، ولينشرح صدرك » ، فالوضوء من شروط الصلاة يتقدّمها ، والآخران فى نفس الصلاة وبعدها ، هكذا هنا المغفرة أى عدم وقوع الذنب متقدّم على الفتح كالوضوء ، والبقية مصاحبة أومتأخرة عن الفتح كمسألة الصلاة المتقدمة ، فان المناجاة فيها ، وانشراح الصدر فيها وبعدها ، ثم ان الاستقامة ، والنصر ، وانكشاف الحقائق المقابلات لأعمدة العلم الثلاثة فى كلام الأمم المعاصرة لكى تكون نتيجتها السعادة فى الدنيا والآخرة ، وهو المعبر عنه فى الآية بقوله : « وليتمّ نعمته عليكم » وهى الرضوان ، والرضا هو تمام السعادة اهـ

فما كاد يتمّ حديثه حتى أفقت من غشيتى ، واستيقظت من سنتى ، وفتحت عينىّ اذا نور الفجر مشرق والمؤذن يقول : « حىّ على الصلاة ، حىّ على الفلاح » ، فكتبت ماوعيت ، وقلت : الحمد لله رب العالمين .
كتب صباح يوم الثلاثاء ١٠ نوفمبر ١٩٣١ م .

تذكرة

ثم بعد ما كتبت ماتقدّم ، واسترحت قليلا ، أجلت فيه النظر ، وأخذت أقرأ القطعة الانجليزية ، إذا بالترجمة هى عينها ، غاية الأمر انها أوضح من الأصل الانجليزى بضرب بعض الأمثال ، ثم أخذت أفكر فى الأعمدة الثلاثة المتقدّمة ، وجال فكرى فى مبانى الاسلام الخمس ، فماذا وجدت ؟ وجدت أن الصلاة أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم ، ووجدت أن هذه الأفعال وما ماثلها من السبق والرمى ، المشروعين فى الاسلام ، المقويين للأبدان وعضلاتها ، المتروكين منذ قرون ، لجهل الأمم العجمية (التى قامت بدين الاسلام بعد العرب) بمقاصد هذا الدين ، حتى إنا أيام دراستنا بالأزهر كنا نقرأ « السبق والرمى » ولا نعمل بهما اتباعا لأسلافنا ، وجهلا بديننا ، وجدت الحج والصيام كلاهما من مقويات الأبدان كالصلاة ، فالحج فيه كثير من الحركات ، والصيام فيه تصفية الجسم من العفونات ، اقرأ هذا المقام فى أوّل ﴿ سورة العنكبوت ﴾ تجد ما للصيام الطبى من الفوائد ، وهو الذى شرع مايقرب منه دين الاسلام ، وقد قال رئيس أطبائنا بمصر فى خطبته السنوية فى الثقافة العلمية فى هذه السنة : « ان الحيوانات لها أيام تصوم فيها اذا مرضت » والناس غفلوا عن ذلك ، انظر ذلك فى الكتاب السنوى الثانى الذى أصدره المجمع المصرى للثقافة العلمية سنة ١٩٣١ م أى هذه السنة .

المسلمون يصلون ، ويصومون ، ويحجون ، ولكن اذا عرفوا فوائدتلك الحركات لم يحصل تهاون فيها ولم نر كثيرا من أهل العلم فى بلادنا تاركين للصلاة جهلا بمقاصدها ، وغفلة عن حقائقها .

فهذه مجامع التربية الجسمية فى ديننا ، وهى إحدى الدعامات . يقول علماء التربية حديثا : « ليس المدار فى حركات الجسم على رفع الأثقال ، بل المدار على مقدار الحركات ، ويجب تحريك كل عضو مرات كافية ليحصل المقصود » ولقد جعلوا خير الرياضات رياضة المشى ، لأنها تحرك جميع الأعضاء ، ولما طبقها بعض علماء التربية المسلمين على حركات الصلاة دهشوا وقالوا : قيام ، فرفع يدين عند الاحرام ، فركوع مع رفع اليدين ، فرفع الرأس مع تحريك اليدين ، فسجود ، فجلوس ، فسجود آخر ، فقيام ، ثم جلوس للتشهد ، ثم تعاد الحركات فتكرر .

هذا أعظم نموذج للتمرينات الجسمية ، هذا ما سمعته من علماء التربية فى زماننا ، ولكنى ليس أمامى نص الكتاب ، ومتى وقع فى يدى الكتاب بهذا النص أثبته إن طالت الحياة .

مسامرتان : المسامرة الأولى

حدثنى تاجر يبيع الخشب بالمرج ، كنا نشتريه منه لسواقى مزرعتنا بتلك الجهة . قال : لقد جاءتنى سيدة ألمانية لبعض الأعمال التجارية ، فرأتنى أتوضأ وأصلى ، فسألتنى ماهذا ؟ فقلت صلاتنا ، وشرحت لها ذلك شرحا كافيا فى الصلوات الخمس ، فأظهرت الدهش وقالت : إذن أنتم لاتمرضون . فلما قص على القصص . قل : وما السر فى قولها ؟ قلت : هذه سيدة متعلمة فى بلادها ، وهم يدرسون علم التربية البدنية والحركات المصلحة للأجسام ، فهى متشبعة بذلك ، وبأن غسل الأعضاء فى أكثر أوقات النهار ضرورية لازالة ماعلق بالجسم من الذرات المؤذيات الموجبات للأمراض . فلما رأت ذلك أدهشها اننا قوم جهلاء ، نفعل هذا ونحن عنه غافلون ، وبهذا لاتقربنا الأمراض . انتهت المسامرة الأولى .

المسامرة الثانية

كنت جالسا فى بلدة المرج أيضا عند الضابط الذى هناك ، وكان هناك بعض أعيان البلاد ، وقد دارالحديث بينهم على امرأة ألمانية أيضا ، لأن لها بعض المشاكل القضائية التى أوجبت معرفتهم بها . فهاك حديثها : « قالوا إن فلانا (سموه باسمه) من بلدة كذا فى مديرية القليوبية ، وقدسافر إلى ألمانيا ، وتزوج هذه الفتاة ، وحضرت معه ، فلمارأت أباه وأمه العجوزين يتوضئون ويصلون . قالت لهما : ما الخبر؟ فقصا عليها قصص الاسلام وقواعده ، فأسلمت حالا ، وداومت على الصلاة ، وقالت : هذا خير دين ، هذا دين عجيب ! فأما زوجها فانه بقى على حاله أى هومسلم لايصلى .

نظرتى فى أمم الاسلام المستقبلة

إن أمم الاسلام المستقبلة سيقرءون هذا وأمثاله ، وحتما سيسارعون إلى قراءة تلك العلوم ، وستكون صلاتهم غير صلاة آبائهم فى العصور الأخيرة ، فهم لايدخلون فيمن قل الله فيهم : « واذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى » وانما لايكسلون لأنه فتح لهم باب المعرفة ، فأدركوا سر الحركات ، فهم إذ ذاك يصلون بمحض المحبة لا بالخوف ، كما يفعل أكثر المسلمين فى الأعصر الأخيرة ، ويقولون إذ ذاك : اذا كنا نحن المسلمين نستعمل حركات الجسم المشابهة لحركات الصلاة ، اختيارا منا لاخوفا ، وذلك لأجل صحتنا ، فليكن ذلك الاختيار والقيام بالحركات المذكورة فى الصلاة أولى ، لأن فيها تقوية الجسم ، وهذه إحدى الدعائم الثلاث فى التربية العمة ، وفيها تذكر علم الأخلاق والمحبة العامة (بطلب الهداية والاستقامة) فى الفاتحة ، وفيها

الدعامة الثالثة ، وهى ذكرى تثقيف العقول بالحمد لله رب العالمين ، وبذكر المصلى فى سجوده وركوعه السمع والبصر وعجائبهما ، وفى ذكره السموات والأرض فى أوّل افتتاح الصلاة وهكذا .

وسيقولون أيضا : إن العلم سيجعل عبادتنا لله مبنية على المحبة لاعلى الخوف ، والعبادة على سبيل المحبة هى المجدية النافعة ، أما عبادة الخوف فانها أدنى منها مراتب ودرجات . إن الانسان اذا أكل الطعام وهو مقتنع بفوائده ازداد صحة ، وكل عمل يعمله المرء وهو راغب فيه يكون أكمل وأعظم وأدوم ، وهذه هى الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر .

يقول المسلمون بعدنا : إن آباءنا لما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ونسوا ماذكروا به أخذوا يدرسون القرآن بلاعقل ، فلا علم ، ولاتهذيب ، ولاقوة جسمية ، لذلك ذهب ملكهم ، وزال سلطانهم ، وهانحن الآن فى مبدأ حياة اسلامية جديدة تجدّد ماهدمه الأوّلون ، فمن ذلك هذه المسامرة الثالثة :

المسامرة الثالثة

لما اطلع على ماتقدم صاحبى الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . قال : لقد عوّلت على أن أصل الفتح انما هو الفتح العلمى ، وجعلت الفتح العملى بالسيف تابعا ، وهذا حسن : فأرجو أن تزيد المقام أيضا بمثال معروف تهنأ به النفوس وتهش له . فقلت : ألم يكفك أفعال رسول الله ﷺ كما تقدم . ألم يكن قوله وتعليمه قبل نشر سلطان الاسلام ؟ قال بلى : قلت : كفاك ذلك . فقال : ولكن أريد مثالا يكون قريب المتناول : لان النبى ﷺ ينظر اليه الناس نظرة يشتمّ منها أنهم يقولون نحن لسنا مثله : فهو مؤيد بالوحى والقوّة : أما نحن فلا ، فاذا أتيت بمثال غيره يكون ذلك أقوم قيلا ، وأهدى سبيلا ، وأحسن منالا ، وأقرب مثلا ، فقلت : ان أمم الاسلام ماحفظت ملكها الا بالعلم : فلما زاد علمهم زاد ملكهم . فقال : هذا كلام عام . فقلت : ان مسلمى الهند كانوا هم أصحاب الأمر والنهى فى البلاد الى نحو القرن الثامن عشر ، ولكنهم كانوا جهلاء : فلما احتل الانجليز البلاد وحاربوهم غلبوهم فأصبحوا ضعفاء فى البلاد لاحول لهم ولا قوة : فلو كان عندهم علم لم يسلب منهم الملك : فعدم الفتوح العلمى هوالذى أورث زوال ملكهم . قال : وهذا أيضا كلام اجمالى . فقلت : إذن فلأسمعك ماجاء فى تاريخ تأسيس كلية عليكره ، فان ذلك يكفيك . فقال : حدثنى رعاك الله حديثها . فقلت : ان السيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكرة أخذ يقدم الفتح العلمى لينتقل منه الى الفتح العملى كما فعل ﷺ . فقال : أرجو إيضاح المقام . فقلت :

جامعة عليكره ، وعملها العظيم فى الهند

ألقى الاستاذ فخر الدين أحمد مسجل جامعة عليكره محاضرة نفيسة فى هذا الموضوع على جمع كبير فى جمعية الشبان المسلمين ونحن نترجمها (١) فيماياتى :

حضرة الرئيس ، حضرات الاعضاء ، أيها السادة ،

إنى أشكر الله على أن أتاح لى فرصة التكلم الليلة الى رجال الحاضر وسادة المستقبل . وآسف إذ لا أستطيع الكلام بلغتكم العربية التى هى أيضا لغتى : لكن لوكنتم مكاننا فى الهند ، وكنت أنا مكانكم لاعتذرتم الىّ كما أعتذراليكم . على أنه لاداعى لأن أعتذر عن موضوع المحاضرة فقد اخترت موضوعا يحبه المسلمون فى الهند ، وأرجو أن تكونوا ممن يحبونه . ذلك الموضوع هو عليكره . وهو اسم أرجو أن يكون معروفا لكم فاننا فى الهند نعرف الأزهر ، وقد كدت أقبل الأزهر حين ذهبت لزيارته . وفى الهند من

(١) مبنية على مذكرات أخذت أثناء الالقاء :

يقبل عليكره :

ان عظمة عليكره تقوم على شيئين : الأول أنها أعطت الهند المثل العليا فى التربية التى لابد منها لمن يريد أن يعيش ، والثانى وهو أهمها أنه لولا عليكره لما كان فى الهند اليوم مسلمون تسمعون عنهم ، ويسمع لهم . كان يكون هناك مسلمون : لكن مسلمون لايأبه أحد بهم ولايقام لهم فى شئون الهند وزن . أما اليوم فان المسلمين ـ وان فقدوا فى الهند حكاما ، وان كانوا أقلية فى الهند ـ فان لهم منزلة فيها لايستحيي مسلم أن يذكرهم أويذكرها . ذلك بفضل جامعة عليكرة التى هى أهم مايملك المسلمون فى الهند بعد أن فقدوا الحكم . وستكونون أقدر على تبين صدق هذا القول اذا عرفتم شيئا عن حال التربية فى الهند قبل عليكرة :

كان المسلمون حكام الهند قبل أن يذهب الانجليز هناك ، وكانوا حكام الهند لما ذهب الانجليز هناك للتجارة . وقد مكث الانجليز فى الهند تجارا نحو ٤٠٠ سنة انتشرت فيها التربية الحديثة ، ولكن بين غير المسلمين ، لأن المسلمين اتكلوا على أنهم هم الحكام وظنوا أن لاحاجة بهم الى تعلم العلوم التى تنفع التاجر والصانع وما اليهما من طلاب الرزق أوطلاب القوة : لأن القوة كانت بأيديهم والحكم كان لهم . هذا طبعا خطأ كبير لكنه خطأ وقع فيه المسلمون : فلما فقدوا حكم الهند فى القرن الثامن عشر ونزلوا الى مرتبة المحكوم الذى لابد له من الجهاد فى الحياة ، وجدوا أنفسهم لايحسنون من طرق الجهاد فى الحياة شيئا . كانوا يحسنون طريقا واحدا هو طريق الحرب : فلما غلبوا فى الحرب وزال الملك عنهم وجدوا أثر ذلك فى أنفسهم ، ولاعجب ، وانسدت فى وجوههم السبل ، ونزلوا الى درك من الذلة سحيق ، لكن كان لايزال بأيديهم بقية من ثروة ورثوها من أيام الحكم فعاشوا عليها وان لم يحسنوا تنميتها : حتى قامت فتنة الهند فى القرن التاسع عشر ، وهى فتنة كبيرة كان غرضها التخلص من حكم الأجنبى فى الهند : لكنها لم تنجح لان الذين أقاموا بها لم يكونوا أكفاء لها ، وكان عاقبة الفشل فيها أن أنزل العقاب بكل من كان له فيها يد ، ولم تكن هناك أسرة مسلمة الا وكان لها فى تلك الفتنة يد ، فكانت النتيجة أنه لم يبق أسرة مسلمة الا ونكبت فى نفسها أوفى مالها ، وزال عن كثير من المسلمين حتى تلك البقية من الثروة التى كانوا من قبل يعيشون بها فأصبحوا فى حالة من الذلة والضعف والجهل بأمور الحياة لايدرون معها كيف يعيشون وصاروا مهددين بالفناء الاجتماعى ، عندئذ قيض الله لهم رجلا من أكرمهم بيتا وأكبرهم قلبا وأوسعهم عقلا وأبعدهم همة : هو السيد أحمد خان جاء من بيت مجد ، فقد كان أبوه رئيس وزراء ، وكان جده رئيس وزراء : لكن تلك الاحداث قد نزلت به كما نزلت بغيره ، واضطرته الى العمل فلم يفت ذلك فى عضده ولم يذهله عن أن ينظر لنفسه ولقومه :

نظر السيد أحمد خان فوجد أن الداء هو أن المسلمين لم يعلموا أنفسهم حين كانوا حكاما ، واذن فالدواء هو أن يتعلموا الآن إذ صاروا سوقة :

شعر السيد أحمد فى سنة ١٨٦٥ أن لابد للمسلمين من أن يسلكوا طريق التربية العلمية ان كانوا يريدون أن يحتفظوا بوجودهم وألا يفنوا فى غيرهم ، ولاتكفى التربية العلمية وحدها : بل لابد من أن يحافظوا مع ذلك على ثقافتهم الاسلامية وآدابهم ، ومن أين لهم الجمع بين التربية العلمية والثقافة الاسلامية ، ومعاهد التربية الحديثة فى الهند كلها معاهد غير اسلامية : عندئذ أيقن أن لا بد للمسلمين من جامعة علمية اسلامية . وأجمع العزم على أن يؤسسها لهم ، لكن كيف والصعوبات فى سبيله كثيرة ؟ هناك مثلا صعوبة المال فان الجامعة لاتقوم الا على مال كثير ، وهناك صعوبة اللغة ، فان اللغة الأردية لغة المسلمين لم تكن لغة علم بالمعنى الذى ذكرت لكم ، وكان الوقت أضيق من أن يتسع للتفكير فى ترجمة أوفى مصطلحات :

لان

لان الخطر كان عظيما قريبا ، وكان لابد للنجاة منه من عمل حاسم سريع . قلب السيد أحمدخان الامر على وجوهه فرأى أن ليس لمشكلة المال حل الا التدرج ، يبدأ بمدرسة ولو فى كوخ ويترقى بها كلما ترقت وسائله حتى تصير كلية ، ويترقى بهذه حتى تصير جامعة . أما مشكلة اللغة فلم يكن لها حل الا أن يتخذ اللغة الأوروبية العامة فى الهند لغة لمدرسته أيضا ، ولكليته بعد اذا صارت المدرسة كلية ، ولجامعته اذا صارت الكلية جامعة ، اذ عندئذ يمكن أن تتفرغ الجهود لاكتساب العلوم والفنون الميسورة فى تلك اللغة ، لكن اتخاذه اللغة الانجليزية لغة للتعليم فى مدرسته يعرضه لسخط طائفة الملا بين المسلمين ، وعامة المسلمين هم طوع هذه الطائفة : أى طائفة شيوخ الدين بين المسلمين فى الهند . ومن الطبيعى أن يكره المسلمون شيوخا وغير شيوخ ، لغة الذين أذلوهم وسلبوهم الملك وصيروهم الى ماصاروا اليه ، وأن يسخطوا على من يريد ادخال تلك اللغة فى أى معهد أسلامى ، فضلا عن جعلها لغة التعليم فيه ، لكن لابد مما ليس منه بد ، فقد كان ذلك هو الطريق الوحيد للنجاة من الفناء ، واذا سخط الشيوخ فى الأول فسيدركون اذا تبينت لهم حقيقة الموقف أن الداء عضال يحتاج الى دواء قد يكون الكى ، وسيحمدون فى الآخر من أعد لهم الدواء وان سخطوا عليه فى الأول ، هكذا فكر ذلك الرجل الفذ السيد أحمد خان ، وهكذا قرر ، فأسس مدرسة فى بضعة أكواخ عدد طلبتها نحو اثنى عشر ، وميزانيتها حوالى ٤٠٠ جنيه ، ولغتها الانجليزية ، وثارت عليه ثائرة الشيوخ ، ثائرة كثير منهم ، فان هناك شيوخا وشيوخا . فنى الشيوخ رجال تعنو لهم الجباه إجلالا عن استحقاق ، ولكن فيهم أيضا من لايتجاوز نظرهم حاضرهم ، ولايحكمون الاعاطفتهم مع غلو فى هذا التحكيم ، وهؤلاء لقى منهم السيد أحمد خان أذى كثيرا ، ولكنه كان متوقعا ذلك ، وموطنا النفس على تحمله ، لانه كان يعلم أن خيره وخيرهم ، ومستقبله ومستقبلهم ، بل مستقبل الاسلام نفسه متوقف على المضى فيما استخار الله فيه وعزم عليه :

هكذا ياحضرات الاخوان : بدأت جامعة عليكره ، والآن هى من أكبر الجامعات فى الهند ميزانيتها ٦٠٠٠٠ جنيه ، وطلبتها ٢٢٠٠ طالب :

أسس السيد أحمد خان جامعة عليكرة سنة ١٨٧٥ وفى سنة ١٨٨٢ أى بعد سبع سنوات فقط من من تأسيس عليكرة ، ألفت حكومة الهند لجنة تبحث مسألة التربية فى الهند ، فكان رأيها الوارد فى تقريرها أنه «اذا اتبع فى الهند مثل عليكرة فستحل مشكلة التربية الوطنية فى الهند» . فعليكرة كانت الرائد الذى شق للهند طريق التربية الوطنية ، والذى أعطى الهند فكرتها عن التربية القومية : قال السيد أحمد خان ، ان مناهج التعليم والسياسة العامة فى التعليم والتربية ، يجب أن تكون بيد جامعة أوجامعات أهلية لابيد الحكومة ، لكن لابد لمثل جامعة عليكرة الأهلية الاسلامية من الانتفاع بتجارب الجامعات التى سبقتها ان كانت تريد أن تحقق الغرض الذى أسست له . وغيرالمسلمين انتفعوا بتجارب الجامعات الأوروبية فلماذا لاينتفع المسلمون بذلك أيضا فى تحقيق أغراضهم الاسلامية ؟ عندئذ رأى السيد أحمد خان أن يسافر ليزور جامعتى كمبردج واكسفورد ليرى نظامهما بعينه ويختار منه الصالح . ذهب ومعه ابنه القاضى الكبير السيد محمود ، وهو أول من تولى القضاء من الهنود ، ودرس المسألة هناك عن كثب فوجد بعد الدرس والتفكير : أن مجرد مرور الامتحانات لايستحق أن يكون مثلا أعلى للطالب ، وان مجرد منح الدرجات لايصح أن يكون غاية عليا للجامعة : لكن تربية الخلق ، تربية الشخصية . تكوين الرجال هو الذى ينبغى أن يكون العرض والغاية . وقرر رأيه إذن على أن يجعل غاية جامعة عليكرة تكوين الرجال وتخريج القادة : أى تربية النشء الصالح من المسلمين وتحويلهم الى رجال ينهضون بأعباء الأمة الاسلامية فى الهند ، ثم تخريج قادة يستطيعون أن يحسنوا قيادة الهنود المسلمين . هذا كان أهم ما ينقص المسلمين فى الهند ،

وقرّ رأى السيد أحمد خان على أن يجعل غاية جامعة عليكرة سد هذا النقص . لكن تكوين الرجال القادة يصعب جدا اذا كان الطالب يفقد خارج الجامعة ما يكسب داخلها ، أو بالأحرى اذا كانت جامعة تلك هى غايتها لاتشرف على الناشىء الا فى جزء من يومه وتترك الباقى للظروف والمصادفات ، فقر الرأى على أن تكون الجامعة داخلية يعيش الطالب فيها كما يعيش فى بيته ، ويعيش بين أساتذتها كما يعيش بين أهله ، واقتبس السيد أحمد من كمبردج واكسفورد نظامهما فى ذلك ، واستعان بطائفة من كبار أهل العلم والتربية أمثال السير رالى (١) والمستر توماس أرنولد (٢) من الأفرنج ، والدكتور نظير أحمد (٣) ، وشبلى النعمانى (٤) وخوجه ألطاف حسين حالى (٥) جاء بهم الى عليكره ، وأسس فيها الحياة التعاونية التى يعيش الطالب فيها بين أساتذته فى الجامعة كما يعيش بين ذويه يعلمونه فى ساعات العمل ويهذبونه فى ساعات اللعب وينصحونه من قريب ويلحظونه من بعيد قاصدين فى ذلك كله الى أن يجعلوا منه رجلا يحسن الجهاد فى الحياة . ومن الطبيعى أن لايقدر على نفقات هذه التربية اجالا الا أبناء الخواص من المسلمين أى أبناء الطبقة الوسطى على الاقل ، أما الفقراء فالنابغ منهم يستطيع دائما أن يحصل من الجوائز المالية على مايمكنه من القيام بنفقة تلك التربية . وليست نفقتها من الفداحة على ماقد يسبق الى النفس أول الأمر فانها تبلغ خمسة جنيهات فى الشهر وهو مبلغ ليس فى الحقيقة بكبير اذا قيس بمثله فى مثلها من الجامعات

والحياة الرياضية الجامعية كانت أيضا مما اقتبسه مؤسس جامعة عليكرة من الحياة الجامعية فى أوروبا . فالألعاب الرياضية المختلفة تلعب فيها . ولاتنسوا ان ذلك كان شيئا جديدا فى حياة الجامعات فى الهند فى القرن التاسع عشر ، وقد تفوقت عليكرة على الخصوص فى لعبة الكريكت وظل فريقها خير فريق فى الهند لمدة طويلة

فأنتم ترون ياحضرات السادة أن جامعة عليكره لم تهمل ركنا واحدا من أركان التربية ، فهى تقوم على التربية العقلية فى أوقات العمل ، وعلى التربية البدنية فى أوقات اللعب ، وعلى التربية الخلقية فى جميع الاوقات . ترون انها بذلك كله قد أعطت الهند مثلا عاليا فى التربية القومية ، ونجت المسلمين من الاندثار المحقق الذى كان يهددهم بما بصرتهم به من أمور الحياة وبما خرجت لهم من قادة وكونت لهم من رجال . وليس من رجل مسلم له مقام أوكلمة مسموعة فى الهند الاوكان طالبا فى عليكره أومتصلا بها بطريق ما . فالمرحوم مولانا محمد على كان من طلبتها ومولانا شوكت على من طلبتها ، وهذا المحاضر الفقير من طلبتها وهى لاتجد بين المسلمين رجلا ذا مواهب الاوتعهدته وانتفعت بمواهبه بأن تختاره رفيقا لها مثلا أوتنتخبه عضوا فى مجلس شيوخها الذى هو مجلس ادارتها أومشرفا على ماليتها ، فالقاضى السيد محمود ابن السيد أحمد خان ، أو بالأحرى ابن السير السيد أحمد خان ، قد منح لقب سير اعترافا بخدماته للعلم بتأسيسه تلك الجامعة ، هو من شيوخها والسيد حسين بلجرمى عماد الملك هو من المشرفين عليها فبفضل الله ، وبحسن الاخلاص فى سبيله نجح ذلك العمل العظيم ولعلكم الآن أقدر على ادراك صدق ماقلت لكم فى أول كلامى

(١) كان أستاذ اللغة الانجليزية فى اكسفورد (٢) المستشرق المشهور صاحب تاريخ انتشار الاسلام وقد صار بعد سير توماس ارنولد وقد زار مصر منذ عام وألقى فيها محاضراته فى الفن الاسلامى ثم توفى بعدها بقليل

(٣) كان رحمه الله من أكبر الكتاب فى الهند ومن أول من جاهد فى سبيل تربية الفتاة الهندية المسلمة كتب كثيرا من الروايات بالأردية

(٤) كان رحمه الله أكبر عمدة فى تاريخ المسلمين فى الهند ، وهو مؤسس دار المصنفين فى الهند وما يتبعها من دور التعليم والثقافة :

(٥) كان رحمه الله أكبر شاعر قوى فى القرن التاسع عشر

من انه لولا عليكرة لما كان اليوم فى الهند مسلمون . انكم خارج الهند لاتدركون كيف كان يشعر المسلمون بعد أن خرج حكم الهند من أيديهم . ونحن الآن نعرف أن المسلمين كانوا يكونون اليوم فى الهند خداما أذلة لولم يقيض الله لهم ذلك الرجل الذى أسس تلك الا كواخ التى صارت بعد كليات (١) ثم صارت بعد جامعة (٢) ان المسلمين أقل عددا من الهندوس لكنهم استطاعوا بفضل الله وحسن توفيقه أن يحتفظوا بوجودهم وأن يكون لهم قول مسموع فى شئون الهند وفى شئون التربية فى الهند

لكن السير سيد أحمد كان يرمى بتلك الجامعة الى ماهو أبعد من ذلك . كان يرجو أن تصير يوما ما منار العلم والتربية فى الشرق الاسلامى كله . كان يرجو أن يكون مثلها كمثل الشجرة الطيبة المذكورة فى القرآن « أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها » وكان يرمى الى أن تكون رسول العلم والمعرفة والتسامح فى الشرق تسيرفيه وباحدى يديها الفلسفة وبالاخرى العلم الحديث وعلى رأسها تاج لا إله الاالله محمد رسول الله ، تدعو المسلمين الى المجد وتشق لهم طريق العز وتبصرهم بالحياة ، فقد كان رحمه الله كما ذكرت من قبل لايرى أن الجامعة بعدد طلبتها ولابما تمنح من درجات ولكن بما توسع من دائرة لعلم وتقص من دائرة الجهل بما تقوم به من أبحاث وما تنشر من ثقافة حقة فذلك الرجل الذى لقبته صحيفة لندن لما توفى سنة ١٨٩٨ بنبى التربية كان يريد بتلك الجامعة أن يؤسس مركزا عاما تنتشر منه الثقافة العلمية الاسلامية فى الشرق الاسلامى كله . وقد تحقق من حلم السير سيد أحمد شىء كثير ، فان الكوخ قد صار الآن جامعة ثابتة لكن بقيت مسألة التوسع أى التوسع فى الجامعة حتى تصيرذلك المركز الثقافى الاسلامى العام ، والعقبة القائمة اليوم فى سبيل هذا التوسع هى المال ، فقد كانت جامعة عليكرة فى صميمها جامعة فنون الى الآن يدرس فيها من العلوم مالايحتاج الى مال كثير مثل الرياضة . وليس معنى ذلك أن العلوم لاتدرس فيها ففيها يدرس من العلوم الطبيعة والكيميا والرياضة والنبات والحيوان لكن جامعة عليكرة ممتازة فى الفنون وتريد أيضا أن تمتاز فى العلوم ، وهذا يحتاج الى توسيع كبير فى المعامل والمعامل كبيرة النفقة تحتاج الى المال والمسلمون اليوم ليسوا من أهل الغنى الذى يجعلهم يستطيعون أن يمدوا عليكرة بالست مائة ألف التى تحتاجها من الجنيهات لهذه الغاية (٣) لكن على رأس عليكرة اليوم رجل من خير المسلمين وأبعدهم همة (٤) هو الدكتور سيد راس مسعود (٥) أو نواب مسعود يارجنك كما يلقبونه تكريما وهو حفيد السير سيد أحمد خان وابن السيد محمود وقد استطاع فى سنة ونصف أن يدبر لها ثلاثين لكا من الروبيات أونحو ٢٠٠٠٠٠ جنيه

لكن عليكرة على ماهى عليه ورغم حاجتها هذه الى التوسع شىء عظيم . هى على ماهى عليه تستحق أن يؤمها من الطلبة المصريين طلاب الفنون الادبية على الأقل فلماذا لاتؤمونها ؟

ليس فى هذا دعوة خطرة الى الجامعة الاسلامية انما هذا كلام بسيط يصح أن يقوله أى مسلم فان المسلم يجب أن يعرف أخاه المسلم . واذا كان الهنود يأتون الى مصر الى الأزهر ؟ فلماذا لايأتى المصريون الى الهند الى عليكره ، انكم اذا أتيتم عليكره ستجدون شيئا لاتجدونه فى مصر . ان فى مصر جامعة حقا ، ولكن اسمحوا لى أن أقول انها جامعة حديثة والجامعة لاتنفع نفعها الا اذا كان لها تقاليد صحيحة

---

(١) أسست أول كلية حوالى سنة ١٨٨٠

(٢) فى سنة ١٩٢٠

(٣) هذا مبلغ كبير ولكنه يناسب مايرمى اليه الرجال الكبار القائمون بامر جامعة عليكرة

(٤) هو وكيل الجامعة اما مديرها فهو نواب بهوبال

(٥) حامل درجة الشرف فى التاريخ وخريج لندن فى المحاماة ودكتور فى القانون

ثابتة والتقاليد الصحيحة الثابتة لاتتكون ولاتقوم الا فى سنين كثيرة وقدمرت على جامعة عليكره هذه السنون الكثيرة وقام فيها كل ماينفع المسلم من التقاليد الثابتة الصحيحة تقاليد تجمع بين الثقافتين : الثقافة الاسلامية التى قامت على القرون والثقافة الحديثة التى جاء بها العلم الحديث ؟ فلماذا لا يأتى اليها المسلمون من مصر بدلا من أن يذهبوا الى أوروبا فى طلب ماتستطيع عليكره أن تمدهم به ؟ انى أرجو أن يفعلوا بعد اليوم . وأرجو على كل حال أن لاتنسوا عليكره وأن تكبروا ذكرى عليكره فهى التى نجت الاسلام فى الهند وهى التى جعلت من المسلمين فى الهند قوما أعزة وأمة مهيبة بعد أن كادوا يكونون أخلاطا عبيدا ولست أجد أولى بى وقد فرغت من المحاضرة فى عليكره وعملها العظيم فى الهند من أن أسألكم أن تقرءوا الفاتحة لروح مؤسسها وأن تسألوا الله المعونة والتوفيق لحفيده القائم على رأسها اليوم . تمت اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « انا فتحنا لك فتحا مبينا »

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم

اعلم أن عصر الصحابة رضوان الله عليهم كان عصر أنوار نبوية ، واشراق نور النبوّة عليهم كان يلقى الطمأنينة فى قلوبهم ، وفى كل يوم يزدادون منها بما يرون من مشاهدة الآيات الإلهية ، ظاهرة على يد حضرة الرسول ﷺ ولاجرم أن الله عزّ وجل معنا أينما كنا « وهو معكم أينما كنتم » وهو الذى ملأ السموات والأرض بجنود تظهر العجائب على أيديها ، وفى كل يوم تظهر للمفكرين فى هذه الدنيا أنوار وأنوار ، فالمسلم اليوم يزداد إيمانه بنور النبوّة الموروث ، و بعجائب أمم الاسلام من حيث اجتماعها اليوم بعد التفرّق وانتشار الدين فى أقطار المسكونة بلا حرب ولاضرب ، ولادولة تحميه ، ولاخوف من أحد ، فهذه كلها تزيد المؤمن إيمانا ، بل إن حال انتشار الاسلام اليوم يضاهى حال انتشاره أيام النبوّة ، فهذا وحده يزيد الايمان ، فأما المفكرون والحكماء فانهم يزيدون فوق ذلك إيمانا بما يدرسون من العجائب كالتى جاءت فى هذا التفسير ، واذا كانت سكينة بنى اسرائيل وطمأنينتهم أيام طالوت ، إذ التابوت الذى انتهبه منهم أعداؤهم ، وكان فيه بعض مخلفات موسى عليه السلام ، قد رجع إليهم فكانت هذه من أمارات صدق النبوّة والوحى الموحى الذى وصل إليهم عن علمائهم ، فهذه لاتورث إلا التصديق المبنى على الظواهر من خوارق العادات وما يشبهها ، وهذه مقدّمة للمباحث الحكمية التى هى أرسخ قدما ، وأعلى فى السكينة كعبا ، فهكذا هنا كانت السكينة فى قلوب المؤمنين أوّلا بما يرون من عجائب النبوّة وغرائبها فى كل زمان بالمشاهدة ، أو بقراءة الآثار ، ثم يزدادون سكينة وطمأنينة بعجائب الحكم الإلهية التى لاحدّ لها ولانهاية كالتى فى هذا التفسير .

مسامرة

اعلم أن مثل المسلم الذى لاعلم عنده بهذه الدنيا كمثل الطبيب الذى أكب على التطبيب والجراحة ومداواة المرضى ، ونسى المسكين صحة جسمه ، فانتابته الأمراض ، وأحاطت به مهلكات القوى ، وقواطع الحياة ، وانهاك أعصابه ، فتراه مصفرّ الوجه ، خائر القوى ، ضعيفا ، هزيلا ، خامدا .

وسبب ذلك أن علم الطب قسمان : قسم هو علم صحة الأبدان وتدبيرها ، والمحافظة عليها ، وانعاش قواها ، باستنشاق الهواء النقى ، والتمرين العضلى ، وأفضله باجماع أطباء زماننا المشى فى الهواء النقى مع كثرة استنشاق الهواء فى الخلاء ، والجلوس فى الشمس ، معرّى الجسد فى بعض الأوقات ، ساتر العورة والرأس ، محافظة عليها ، وأكل مالم يطبخ من الخضر ، وأكل الفاكهة ، وهكذا مما سبق فى هذا التفسير ، ومايأتى قريبا ،

وهذا أفضل القسمين .

القسم الثانى : هو قسم المداواة ، وهذا يقوم به الطبيب ، فاذا أهمل الانسان صحة جسمه بترك علم تلك القوانين فانه يقع فى المرض ، فيتلقاه الطبيب العالم بالأمراض الباطنية ، أو بالجراحة ، أو بمرض العين ، أوالأذن والأنف وهكذا . فأكثر أطباء زماننا هم من القسم الثانى ، ينسون القسم الأوّل ويهيمون بالثانى ، لأنه هوالذى به يكون الربح والكسب والثروة والغنى ، فينسون أنفسهم وهم غافلون ، ومثل هؤلاء علماء الدين فى كل أمة من أمم الأرض ، فهم غالبا كالقسم الثانى من الأطباء فى زماننا ، فهم دائما لايعرفون إلا ماكان من الأحكام الظاهرة المقابلة للأدوية ، فكما أن الطبيب فى القسم الثانى يقول للمريض : خذ الملح الانجليزى ، أوالصودا ، أوالمغنيسيا ، أوملح الفواكه ، لاسهال المعدة ، ولايذكره قط بالهواء النقى ، ولا بنوع الـ كل التى يجب أن يتعاطاها ولايخطر بباله ذلك : فهوكالمرضع والنائحة المأجورتين ، فهذه ترضع ولاتبالى بالرضيع ، وهذه تبكى وليس فى قلبها أدنى حزن على الفقيد ، هكذا عالم الدين غالبا لاهمّ له إلا أن يحصر أقواله فى نواقض الوضوء وأحوال الحيض والنفاس ، وما أشبه ذلك ، ولايرفع أعين العامّة إلى السماء ، ولايشرح لهم شيئا من عجائب الطبيعة ، لأنه هكذا تعلم ، وهكذا يعلم ، فهوعن العلم بالله محجوب ، وعلى الأعمال الظاهرة مكبّ ، وأمة تعيش بالعمل وتغفل عن العلم أى العلم بالله و بعجائب صنعه ، مثلها كمثل النمل فى مساكنها طائفات عاملات ناصبات جاهلات . إن دين الاسلام علم وعمل : المسلم هوالذى يقرأ فى افتتاح كل صلاة : « إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لاشريك له و بذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين » فهو يقرؤها ، فان كان من المفكرين أخذ بطريق الاعتبار والفهم انه يكون ممن قال الله فيهم : « يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرّياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماما » والامامة الحقة لاتكون للمقلد الغافل ، وانما الامامة تكون للمفكر الذى يدرس النبوّة وعلومها ، وعجائب الحكمة الإلهية ، دارسة محقق ، فيزداد إيمانه كل صباح ، وكل مساء ، إذ يوجه وجهه للذى فطر السموات والأرض ، حتى يرى مايدهش عقله ، ويعجب من هذه الدنيا التى تظهر لنا عابسة وهى فى الحقيقة باسمة ، وينظر فى آثار الله فيجد ظواهرها مملوءة بشوك القتاد ، وعند التحقيق لاشوك ولاقتاد ، ورحمة الله تنجلى ، والجمال يبهر عقولا وعقولا ، وان أبيت إلا الافصاح ، لتسكن نفسك أيها الأخ ، فاعجب مما تراه قريبا فى اللطيفة التى بعد هذه من دماميل وقروح فى أجسامنا وحمى ، فنحن ننظر إليها نظرة المسكين المتألم الذى أصابه الضرّ ، ولكن علم الطب (كما سيتضح لك قريبا بأجلى بيان) يقول لك : كلا . وهل الدمل إلا قلعة بناها جنود الله القائمة فى جسمك ؟ وهى ذوات حياة حقيقية وعقل ، ولما بنت هذه القلعة المخروطية الشكل حصرت فيها المكروبات الداخلة فأهلكتهم وأفنتهم ، فكان القيح والصديد رمم الأموات من الفريقين : الفريق الوطنى ، والفريق المهاجم ، ويقول : إن الحمى تقرب من هذا ، فان الناس لما جهلوا الحمام الشمسى ، والحمام البخارى ، أوحمام الماء الساخن والمشى والتمرينات العضلية (وكل واحد من هذه يذهب بالعفونات من الجسم) .

أقول لما جهلوا ذلك ، وهو دواؤهم الوحيد ، قل الله لهم : أنا رحيم بكم ياعبادى ، أرحمكم بالحمى فأسلط جنودى التى فى أجسامكم وهى الكرات البيضاء على جنودى المهاجمة ، وهى الحيوانات الذرّية التى تحمل فى أجسامها السم وتفرغه فى أجسامكم فيحمى الوطيس والقنا تقرع القنا وموج المنايا متلاطم ، فيقع كثير من الفريقين صرعى وتكون الاشلاء منهما هو الصديد كما تقدّم ، وهذه جنود الله فى أجسامنا المقابلات لجنوده فى خارجها ، سأشرحها شرحا وافيا فى اللطيفة الآتية ، ولكن أذكر هنا نبذة منها توطئة لما يأتى واجلالا له ، فأذكر على سبيل التمثيل الأسد والنمر ونحوهما ، فهذا الأسد من جند الله التى أعدّها لاحداث الحياة تارة ولإحداث الهلاك أخرى ، فهى لذرّيتها سبب الحياة ، ولفريستها سبب الهلاك ، ولن ترضع اللبوءة

شبليها ، أوتنقض على فريستها إلا بما وقر فى نفسها من رحمة فى الأول واهلاك فى الثانى . إذن هنا مجمل ما سأذكره هناك بهذا المثال ، فهمنا جيش معنوى نورى وظلمانى : أى الرحمة والعذاب ، فهذان الجيشان المعنويان مقدمتان للجيشين الحسيين وهما جيش الآساد حين التحنان على ذريتها ، وحين افتراسها للظباء والأرانب ، فهذا مثل جنود الله فى الأرض والسموات .

جسم الأمة كجسم الانسان

اعلم أنه لافرق بين جسم الانسان وجسم الأمة ، فاذا جهل المسلمون علوم الأمم ، ونسوا الوحدة العامة كما عمى الجاهل الغافل عن اصلاح جسمه ، وترك قوانين الصحة ، فان الله عزّ وجل هو الرحيم بهم ، فسلط عليهم الأمم من بين أيديهم ومن خلفهم إذ قال لهم : « أيتها الأمم هبوا من رقدتكم ، وحاربوا المسلمين ، وادخلوا خلال ديارهم ، لأنى أريد إيقاظهم من طريق الشدة ، لأنهم نسونى ، ونسوا أنفسهم بطريق الذين كما نسى الغافل عن جسمه باستعمال الحمام الشمسى ، والمشى فى الهواء الطلق ، وأكل الفواكه ، والخضر ، فرحمته بالحمى ورحمته بالأورام ، لأنى أنا رحيم ، ورحمتى وسعت كل شىء ، فأنا أرحم الأشخاص ، وأرحم الأمم وان كانوا جميعا يجهلون أنى أرحمهم حين تنتابهم الآلام .

خطاب المؤلف لأمم الاسلام

أيها المسلمون : هذه والله هى ازدياد الايمان ، بل هذه هى السعادة ، هذا زمان الحكمة والعلم ، هذا هوالزمان الذى قال الله فيه : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وهوالذى قال الله فيه أيضا : « سأوريكم آياتى فلاتستعجلون » وقال فيه : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها »

وبهذا وأمثاله نفهم قوله تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » فكيف نوقن بهذه الرحمة إلابالدراسة ! درسنا يار بنا وفهمنا ، فهمنا أن إيلامك لنا لمنفعتنا ، رحم الله أستاذى (الشيخ حسن الطويل) ، فهوأول من لفت نظرى إلى هذه المعانى ، فانه لما عرض فى الدرس اسم الله الجبار المنتقم الخ ، قال يافلان : هذه الألفاظ بحسب الظاهرفقط والافلاانتقام ولاغيره ، لأنه منزه عن الغضب كماهومعلوم ، ولكن هذه أفعال رحمته سميت بأسماء مما نعرفها .

وأقول الآن : الله أكبر : بهذا نفهم سرا من أسرارالقرآن ، ألا وهو قوله تعالى : « إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » فهذا عجب أن يكون رحمانا وهو معذب ! فبالعلوم اليوم ظهرت بعض أسرار القرآن وعجائبه . اللهم لك الحمد على نعمة العلم .

فلما اطلع صاحبى على هذا . قال : هذا جمال وكمال وحكمة وعلم ، ولكنى أريد أن تفهمنى عنوان هذه المقالة ، فانك سميته « مسامرة » ، فأين المسامرة ؟ فقلت : إن ماتقدم إنما هومقدمة لتلك المسامرة وان هى إلانبراس لهذا المقام . فقال : إذن حدثنى حتى يتم المقام . فقلت : أعرف طبيبا نطاسيا شهيرا ببلادنا المصرية ، فهوفى الحكومة المصرية من الأطباء المشهورين ، وله فى منزله عيادة خاصة ، وهذا الطبيب لى به علاقة ، وهوأنه كان تلميذى بالمدرسة الخديوية فى اللغة العربية قبل أن يدرس علم الطب ، وهذا الطبيب قابلته منذ ستة أسهر فى عيادته ، فرأيته ضعيفا هزيلا نحيفا ، فأزعجنى مارأيت ! ووجهت إليه اللوم الكثيرعلى ترك صحته التى بها يقدرعلى مداواة المرضى ، فأخذ يقول لى ان أصدقائى يأتوننى فى وقت فراغى فلاأقدرعلى ردهم وترك إجابتهم ، فشددت عليه النكير ، وقلت له : لابدّ من النظام ، ولابد من مراعاة صحتك مراعاة تامة ، وقت له انى بعد مدة لابد سائلك عن ذلك كله ، فعجبت إذ قابلته منذ ثلاثة أيام فى هذا الشهرا كتوبر

سنة ١٩٣١ م وهوقوىّ البدن نشط ، فسلم علىّ وبادرنى بقوله : هذه نصيحتك ، وأشهد على ذلك طبيبا كان معه ، وقال : ألست ترانى أرفض العمل فى وقت رياضتى ؟ فقال نعم ، فسررت من ذلك كثيرا وانشرح صدرى ، وليس هذا بأوّل من تصدّيت له من الطبقة المتعلمة من اخوانى المصريين . ومما قلته له فى هذه المقابلة : إذن عملت « بالهايجين » كما قت « بالمدرسن » والأولى كلمة معناها علم الصحة ، والثانية كلمة تدل على علم المداواة . فقال نعم .

وهذه المسامرة هى المنطبقة تمام المطابقة كما قدّمنا آنفا على حال المسلمين الذين لايعرفون إلاعلم الفقه فهؤلاء الآن يقينا قد قاموا من رقدتهم ، واستيقظوا من غفلتهم ، وقرءوا العلوم ، وأنا أحمد الله عزّوجل إذ أن الأزهرالذى تملت فيه خطاخطوات فى هذه السبيل ، وهكذا بقية بلادالاسلام ، وهذا التفسيرمن منوّيات تلك الحركة فى عالم الاسلام ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

فقال صاحبى : حسن هذا المثال ، وجميل هذا التنظير ، ولكنى أريد أن تربط موضوع السكينة كله بقوله تعالى « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، فهل فى هذه السكينة فتح ؟ وأىّ أنواع الفتح هو ؟ فقلت : حياك الله : أنا ذكرت لك أن الجنود أربعة أقسام : معنوية وحسية ، وكل منهما جنود للاهلاك وجنود للاحياء ، ولاجرم أنه ﷺ قد فتح الله عليه فتحا علميا باظهارالحقائق له ، فأفاض على الناس بمايحتملون فهذا جيش معنوى نورانى تبعه جيش حسى وهم الغزاة المجاهدون . ثم إن مافتح الله به الآن من العلوم لنا نحن الأمة الاسلامية مثل ما اتضح فى هذا التفسير وفى غيره من بواهرالعجائب إن هو إلا أنوار المعرفة وبها تطمئن قلوب وقلوب وتسكن للحقائق كمسألة الأمراض التى جعلت لمصالحنا لا لإيذائنا ، فهذه حقائق واضحة لم تكن لتعلم للعموم إلا فى زماننا ، أما قبل ذلك فانها كانت خاصة بأناس اصطفاهم الله ولم يبيحوا للناس بعلمهم لأن الناس لم يكونوا مستعدّين ، وهذه جيوش علمية نورية تتبعها جيوش اسلامية حقيقية لقيادة أهل هذه الأرض من أمم الاسلام ، لأنهم خير أمة أخرجت للناس ، ومتى كان اجتماعهم مبنيا على ظهور الحقائق لهم كالشمس فى رابعة النهار ، فانهم لاجرم تكون قيادتهم لأنفسهم وللأمم أكمل وأتمّ ، واذن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . إذن الفتح العلمى فى زماننا كالذى ظهرفى هذا التفسيرمن مضمون قوله تعالى فى أوّل السورة : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما

اللهم إنى أحمدك حمدا يوافى نعمك ، ويكافئ مزيدك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، جلّ وجهك ، وعزّ جاهك ، لاإله إلا أنت ، وكيف يكون للعالم إله غيرك ونحن ننظر فنرى كلامك فى كتابك كفعلك فى خلقك ، ونراك خلقت من كل شىء زوجين : الذكر والأنثى ، والسالب والموجب ، والغالب والمغلوب والعالم والجاهل ، والحىّ والميت ، والذكىّ والغبى ، وهكذا ، لم نجد لهذه القاعدة شاردة وشاذة ، بل هى مطردة أوليس من العجب أن غزوات النبوّة كغزوة الفتح وغيرها من الغزوات ، وجميع حروب هذا العالم الانسانى لها نظائر فى أجسامنا .

ياسبحان الله : إن الله يقول هنا : ليس جندكم فى غزوة الفتح وغيرها هم جندى وحدهم . كلا . بل لى جنود فى السموات وجنود فى الأرض ، أدبرهم بعلمى ، وأنظمهم بحكمتى ، وكل هؤلاء قائمون بما عليهم وعملهم نافع لحياتكم وحياة غيركم ، فكما أنكم جئتم إلى هذه الأرض ومعكم نبيكم ، تحاربون الكفار الجهال

المفسدين فى الأرض ، الذين لم تكن لهم جامعة تجمعهم ، ولارابطة تربطهم ، بل هم قوم مشتتون ، فبعضهم تبع بلاد الفرس والأكاسرة ، و بعضهم تبع بلادالروم والقياصرة ، فحاربتم هذه الأمم بارشاد نبيكم وتريدون ادخالهم فى جامعتكم الاسلامية ، فتصبح الأمم كلها جسما واحدا صحيحا ، فهكذا كان فعلى فى أجسامكم ، إن جسم الانسان مقياس للجسم العام للانسانية كلها ، فالكرات البيضاء فى الجسم وماءمعها من جنود الجسم كلها تقاتل وتحارب أعداء هذا الجسم ، وتنتصر عليها وتقتلها ، والا فلاجسم للبشر، ولاحياة له ولا بقاء .

وما كدت أصل لهذا المقام حتى حضرصاحبى العلامة الذى استاد محادثتى فى هذا التفسير . فقال هذا حسن جدّا ، ولكنه كلام غامض ، إن المحاربين فى الأرض لهم آلات وقلاع وأعمال عجيبة ، وأين الكرات البيضاء المذكورة، وأين الحروب المشهورة بين الأمم ؟ فقلت له : حياك الله و بياك ، إن الحرب فى جسم الانسان تشابه الحرب التى نراها بين الأمم سواء بسواء ، والنوع الانسانى لايزال فى حرب وضرب حتى يصبح أمة واحدة ، و يصبح كله كتلة واحدة ، يحارب الطبيعة المحيطة به ، لينال منفعتها ، فالغزوات المحمدية فتح باب لرقىّ الأمم ، والناس الآن يحاربون حربين : حرب مع أنفسهم ، وحرب مع الطبيعة ، والغزوات الاسلامية مبدأ لازالة العناصر الضارّة بالجسم الانسانى كما تغزو الكرات البيضاء والبلعمة والمعاوية وغيرهما الحيوانات الطارئة على الجسم الضارّة به ، حتى اذا لم يبق فى الانسان شقىّ ولاأثيم أصبحت الانسانية كلها جسما واحدا تحارب الطبيعة حولها باذن ربها ، فكأنها إذ ذاك فى زمن السلم العام الذى بشر به القرآن فى سورة القتال المتقدّمة ، بلعمة واحدة تبتلع غيرها ، ولكن هذا الغير ليس من جنسها .

حينئذ قال صاحبى : أما الآن أصبحت فى عجب ! كلامك جميل ، و بيانك بديع ، به عرفنا أن لله جنودا بطريق السمع ، وأنت فصلت بعضها وهى التى فى الجسم البشرى ، ولكن القرآن كتاب عربىّ مبين وكلامك وان كان حسنا فيه التباس من وجهين : الأوّل أن هذه الجنود التى فى جسم الانسان لم تقين بالتفصيل حركات كرّها وفرّها ، وغدوّها ورواحها ، وأسلحتها ومحاصرتها ، وقلاعها وثكناتها ، وانهزامها وانتصارها ، وخنادقها ، وسمومها القتالة . الثانى : انك ذكرت البلعمة والمعاوية ، فهذه كلمات ليست عربية والقرآن سهل فاذا لم يكن التفسير أسهل من القرآن فانه لا يكون تفسيرا ، بل تعسيرا ، وقد عهدناك فيما سبق من هذا التفسير تذكر ماسهل على الناس فهمه ، وعظم نفعه ، فقلت له : أيها العزيز ، انى لم أذكر الحرب والضرب والجهاد ، ولا البلعمة والمعاوية إلا وقد أعددت لها عدّتها ، وأحضرت معى مقالا أذكره فى هذا المقام . فقال : ان كان من مقالك فأنت لست من علماء التشريح ، وان كان من مقال غيرك من علماء التشريح فانهم لايقتدرون أن يصفوا الحرب المكروبات والكرات البيضاء وصفا ينطبق على الحروب المعلومة لنا حتى يخرج قارئ التفسير من المقال وقد أيقن بأن لله جنودا غير جنود الانسان ، يشاهد كرّها وفرّها . فقلت : انك حصرت الكلام فى مقامين ، وهذا الحصر منقوض بمقام ثالث . فقال بينه لى ؟ فقلت : إن الكلام لطبيب مصرى ، وهو الذى وصف تلك الأوصاف التى ذكرتها بعينها فى المجمع المصرى للثقافة العامة سنة ١٩٣١ أى سنة طبع هذه السورة ، وهذا عجب ! وهو معجزة جديدة للقرآن ، وكيف لا يكون معجزة والناس عاشوا وماتوا وهم يقرءون : « ولله جنود السموات والأرض » ولكن أكثرهم لايعرفون كيف تكون تلك الجنود ، وكيف غزواتها ؟ حتى ظهرت الآن فيما ستراه من قول ذلك الطبيب . فقال : إذن تكون تلك الجنود الإلهية أيضا مساعدة على فهم : « وفى أنفسكم أفلاتبصرون » ومساعدة على فهم قوله تعالى : « ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » فنى النفس الواحدة يحصل ما يحصل فى جميع نوع الانسان ، فأرجو أن أسمع أوّلا خلاصة المحاضرة التى ألقاها الطبيب . ثانيا نفس المحاضرة . قلت : أما الخلاصة فهى أننا نرى الجسم الانسانى عبارة عن مدينة حصينة ، يحيط بها سور متين ، وهذا السور تحاصره جيوش تعدّ

با لاف الآلاف من الأعداء ، تريد دخوله لتعيش عيشة هنيئة كما يريد الاوروبيون أن يعيشوا عيشة هنيئة فى بلاد الاسلام بظلمها وارهاقها واذلالها ، ولاتجد لها تلك الجيوش بابا تدخل منه إلا المنافذ المفتوحة كالفم فتدخل منه ، وهناك تصل إلى المعدة ، والمعدة فيها عصير معدّ لاهلاك تلك الحشرات ، وهذا العصير يهضم الطعام ، ويقتل تلك الميكروبات ، ولكن اذا أسرع الغذاء فى الانزلاق من المعدة وجرى إلى الامعاء فان تلك الميكروبات لاتموت ، ولكن تسير إلى الامعاء ، لأن مدة إقامتها فى المعدة لاتكفى لابادتها ، وقطع جرثومتها ، وهذه مانكاد تصل إلى الامعاء حتى تلاقى حتفها ، لأنها لاتجد هناك الاكسوجين الذى لاتعيش إلا به ، ولأن الجنود المجندة من الميكروبات الصالحة تستحوذ على الغذاء ، فههنا خط دفاع أوّل وهوالجلد ، وخط دفاع ثان وهوالعصيرالمعدى ، وخط دفاع ثالث وهوالامعاء المهلكة لهذه الأعداء ، فهذه الأعداء الداخلات فى الجسم أشبه بالأمم الاوروبية لما اجتمعت كلها لإهلاك الأمة التركية وقتلها ، وتبديدشملها ، وقطع دابرها ، وكتم أنفاسها وإبادتها من الوجود ، فلم تتعدّ السواحل ، ولكن لما أرادت التوغل فى البلاد بما أرسلت من عساكر اليونان من جهة ، والفرنسيين من جهة أخرى هلكوا ذبحا وتقطيعا شنيعا ، ورجعوا بخفى حنين هكذا هذه الجنود من الميكروبات لما دخلت الجسم ولم يهلكها العصير المعدى أهلكتها الامعاء بقلة الميرة الواصلة إليها وبحبسها فى مكان مظلم لاهواء فيه فقطع أنفاسها فهلكت ولات حين مناص .

هذا ما كان من جهة الجيوش الجرّارة الواصلة من الفم ، فاذا وصلت من طريق آخر وتكاثرت كأن وصلت بطريق جرح أونحوه وتكاثرت بأىّ طريق كان فانها تتوغل فى الجسم ، وتفتك بالخلايا الجسمية ، وتقطعها تقطيعا ، وتتغذى بالموادّ الغذائية التى فى الجسم ، فهنالك يصل الخبر إلى بقية أجزاء الجسم ، فتأتى الجيوش من أطراف المملكة ، وتحاصرالمكان ، وتقتل مافيه من الميكروبات ، وهنا تكون القتلى من الجيوش الهاجمة ، والجيوش المدافعة ، والخلايا التى وقعت فى ساحة القتال ، فهذه كلهاتصبح مادّة سائلة صفراء ينبذها الجسم إلى الخارج ، وهذه العملية تراها فى أمثال الدمل ، فهو فى أثناء حصارالجنود الجسمية للجنود الهاجمة من الميكروبات يبدأ نموّه ، فاذا وقعت الوقعة ، وانتهت المعركة ، فهنالك تكون المادّة السائلة وهو القيح ، وهنالك تقوم الجيوش الوطنية بعملية تجفيف الجرح وتنظيم المكان بعد أن تفتح الجلد بأن تأكل منه جزءا فيخرج القيح ، وهورمم الأعداء ومن معهم ، هذه حال هذه المواقع الحربية .

ومن عجب أن الانسان اذا شاكته شوكة فى يده مثلا أحسّ بعد مدة قصيرة أن هناك تحت إبطه ورما فما هو ذلك الورم ؟ وهل ذلك الورم إلا ثكنة من ثكنات الجنود الوطنية فى الجسم التى اجتمعت لتهاجم الجيوش الجرارة التى اجتمعت لتطارد الأعداء الزاحفين على هذه المملكة من ذلك الجرح ، وقد يحصل للمريض حمى بسبب تعفن الأخلاط فى الجسم ، وهذه الحمى إنما جعلت فى الجسم لأن الأخلاط المتعفنة يعوزها حرارة ترتفع للتخلص منها ودفع شرّها ، ولوأن المريض كان من ذوى الارادة القوية فلم يكثر من الطعام ، أوأكثر منه ولكنه جعل الجسم متزنا بما يفعله من التمرينات العضلية ، أوالمشى فى الخلاء ، أوالجلوس فى ضوء الشمس مع الاحتراس ، كما هو موضح فى أوّل ﴿ سورة يونس ﴾ ، أواستحم بالبخار ، أو بالماء الساخن أو بالكهرباء .

أقول : لوفعل المريض أحد هذه الأعمال لم يقع فى الحمى ، فههنا حمى ودمامل وقروح وأورام غيرها ، فهذه كلها لم تكن فى الجسم لايذاء الانسان ، بل لاصلاح جسمه ، وماهذه الآلام إلا مذكرات ، فهى سعادة لاشقاء ، ونعمة لانقمة .

فلما سمع ذلك صاحبى . قال : أهذا نوع الكلام الذى يقوله ذلك الطبيب المصرى فى خطبته الآتى ذكرها ؟ فقلت نعم ، ولكن الذى له إنما هى عناصر الموضوع ، فأما بناؤه فانما هو من هيئة سير التفسير

ونظامه . فقال : أحب أن أسمع خطبته إذن بنصها . فقلت : سيأتى ذكرها قريبا إن شاء الله

إيضاح مختصر لجنود الله فى الأرض

من قوله تعالى : ولله جنود السموات والأرض

وذلك ماقرأته فى كتاب الترجمة فى المدارس الثانوية ، ذلك أن الدم عبارة عن سائل لالون له ، وهذا السائل يحتوى على جراثيم صغيرة كثيرة يسمونها الخلايا ، وهذه الخلايا قسمان : قسم أحمر وقسم أبيض ، وكلا القسمين فى غاية الصغر ، حتى اننا لوأخذنا قطرة دم صغيرة (وهى لاتكون أكثر من جزء من ٢٠ ألفا من البوصة المربعة) وحللناها لوجدنا مافيها من الخلايا الحمراء تبلغ خمسة ملايين خلية ، ومافيها من الخلايا البيضاء (٩) آلاف خلية ، ولاجرم أن القطرة المذكورة المحتوية على هذا العدد العظيم لاتعدو أن تكون قدر سن الابرة لاغير ، فاذا كان هذا العدد العظيم لهذا المقدار فكم فى تلك الأرطال الكثيرة من أعداد هذه الخلايا ، ثم ان وظيفة الخلايا الحمراء تنقسم إلى قسمين : قسم هو جلب المصالح ، وقسم هو درء المفاسد ، فهى من الجهة الأولى أشبه بالعتالين والشيالين ، وأصحاب العربات والسيارات الذين يتلقون الواردات إلى المدينة ، و ينقلونها إلى أطراف المملكة ، ومن الجهة الثانية أشبه بالزبالين والكناسين ورجال ،صلحة المجارى بمصر أولئك الذين يصرفون ماينزل من البراز والمواد الضارة فى مواسير تدفعه إلى الخارج دفعا للضرر عن السكان ، فهذه الخلايا الحمر هكذا تصنع فهى تستقبل مادة الحياة السارية فى الهواء المسماة بالأكسوجين فتحملها من الرئتين وتجرى بها لتوصلها ، وتوزعها على أطراف المملكة بالسواء ، وهكذا متى فعلت ذلك رأت بقايا حاصلة من الأنسجة بعد تفاعلها ضار بقاؤها بالجسم ، فهذه الخلايا الحمر تحملها وترجع بها جارية جريا حثيثا حتى توصلها إلى الرئة وتعطيها للهواء الجوى ، فيقبلها و ينبذها خارج الجسم ، فترى أثر ذلك فى المرآة اذا تنفسنا أمامها ، فيكون هناك مادة فحمية على الزجاج تمنع رؤية صورنا ، وهذه المادة الفحمية هى التى نشأت من احتراق المواد الغذائية فى الأنسجة ، فهذا كله أشبه بما نفعل فى مدننا من استقبال النافع ونبذ الضار .

هذا ما كان من أمر الخلايا الحمراء ، وهى أيضا تعطى الدم لون الحمرة أما الخلايا البيضاء فان منفعتها أشبه بالجنود المجندة فى المدن ، المدافعين عن البلاد ، الشاكى السلاح ، الشجعان الجحاجيح ، الأماثل العظماء .

فهؤلاء اذا وردت جيوش قتالة من الخارج ، وما أكثرها فى الجو ، وما أسرع وصولها إلى أجسامنا ، فان هذه الجيوش البيضاء تقاتلها ، وتحمى حمى الديار ، وتحامى عن السكان ، وتحفظ البيضة ، وتقارع الأبطال ، و بيان ذلك انها تصطف صفوفا ، وتهجم على الجيوش القادمة ، وتخترق أجسامها ، وتكتم أنفاسها ، فتختنق أوتلق عليها السم فتموت ، هذا فعل الخلايا الحمراء والخلايا البيضاء .

فلما اطلع صاحبى على ذلك . قل : هذا قول جميل ، لاسيما انه يقينى لأنك ترجمته من كتاب محترم فى المدارس ، فليس يعقل أن يكون فيه خطأ ما ، ولكنى أريد أن أرى ذلك بعينى فليس الخبر كالعيان ، لأنى لو رأيت ذلك بعينى لكان ذلك من مضمون قوله تعالى : « سأوريكم آياتى فلاتستعجلون » وقوله أيضا : « ولتعلمن نبأه بعد حين » وقوله : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » . فقلت أما اذا أردت ذلك فهاك نص ما قاله الدكتور ، وهو ماجاء فى الكتاب السنوى الثانى للمجمع المصرى للثقافة العلمية ، فقد جاء فيه تحت العنوان التالى ماياتى : —

المعركة اليومية فى الجسم البشرى

الوقاية الطبيعية للجسم

مقدمة . العدوى والمرض . المناعة . الميكروب وقوة أمراضه . العداء بين الجسم والميكروب . الميكروب فى داخل الجسم . الخلايا البالعة . الحرب بين الميكروب والخلايا . الوقاية النوعية . الخلاصة

سادتى : لانزاع فى أن الأمراض المعدية من أهم الأخطار التى يتعرض لها جسم الانسان فى حياته ، وتتأثر بها صحته وهى كما يعرفها كلكم تنشأ عن فعل كائنات حية دنيئة من مملكتى الحيوان والنبات ، ويطلق عليها الأطباء اسم الميكروبات ، وهذه الكائنات موجودة فى كل مكان ، وفى جميع الأوساط التى تحيط بنا ، انها تعيش فى الأرض ، وفى الماء ، وفى الهواء ، وعلى الأغشية المخاطية المبطنة لتجاويف البدن ، وخصوصا فى الامعاء التى تعج بمختلف أنواعها ، وكذلك خارج الجسم على سطح الجلد .

وليست كل الميكروبات خطرة على الانسان ، فبعضها لايدخل إلى الجسم وهو على قيد الحياة ولكنه يتخطى حواجزه الطبيعية بعد الوفاة ، ويتكاثر فى رفاته حتى يحوله إلى تراب ، ولكن بعضا منها يكون خطرا على الانسان ، وهو على قيد الحياة ، إذ يمكنه أن يخترق موانع الجسم وينفذ إلى داخله فينمو ويتكاثر على حساب المواد المغذية الموجودة فيه ، على أنه ليس من الصعب أن نجتنب تلك الضيوف الثقيلة بالابتعاد عن مواطنها ، أو بإبادتها بواسطة التطهير أوالتبخير ، أو بعزل الأصحاء عن المرضى ، ومهما يكن من أمر بعضها الذى لايمكن تجنبه نظرا إلى وجوده فى داخلنا أو حوالينا ، فان لدينا من ظاهرات الوقاية الطبيعية مايحول دون العدوى .

العدوى والمرض

ولكى يمكننا الوقوف على سر هذه الوقاية الطبيعية يجب علينا أن نعرف أولا ماهى العدوى ؟ فالعدوى هى عبارة عن الظاهرة التى تنشأ عن دخول الكائنات الحية الدنيئة فى الجسم ، أما المرض نفسه أى إصابة الجسم بالعدوى فهو ماينشأ عن وجود هذه الكائنات بذاتها ، وماتحدثه من نفث سمومها فيه ، سواء أكانت هذه السموم نتيجة إفراز هذه الكائنات مدة حياتها فى الجسم ، أم نتيجة انحلال مادتها بعد موتها ؛ لذلك يجب أن نفرق بين العدوى فى حد ذاتها وبين المرض ، أى بين دخول الميكروبات فى أنسجة الجسم وبين إصابة الجسم من تأثير سموم هذه الميكروبات ، وتختلف الميكروبات باختلاف درجة سميتها ، فالميكروبات القليلة السموم يجب عليها أولا أن تتكاثر وتتوالد بدرجة كبيرة حتى يمكنها أن تؤثر على الجسم البشرى ، أما الميكروبات السامة جدا ، فان القليل منها يكفى للتأثير على الجسم ، ففى العدوى بالمرض الفحمى مثلا كثيرا مانرى أن دماء الحيوانات المصابة بالحمى ملأى بميكروبات المرض دون أن يظهر على الحيوان أى أعراض ، كذلك فى ملاريا الطيور ، فكثيرا مانشاهد أن أغلب كريات الدم تحمل طفيليات المرض ، فى حين أن الطاير لاتبدو عليها أعراض المرض ، غير أننا نلاحظ من ناحية أخرى أن فى مرض الكزاز ، أوالتيتانوس الناشئ عن عدوى الجروح يكون عدد الميكروبات التى يمكن العثور عليها فى بؤرة الاصابة قليلا جدا ، مع أن أعراض المرض تكون شديدة وقاسية لأبلغ حد .

أعود فألخص هذه الحقائق ، وهى أنه لا يكفى دخول الميكروبات فى الجسم ، بل يجب أن تكون للميكروبات درجة سمية مخصوصة حتى يمكن للعدوى إحداث المرض ، أما الميكروبات القليلة السمية فانها تعتاض عن هذا النقص بشدة توالدها فى الجسم ، أو بما نسميه فوعتها .

أما الجسم البشرى فانه لكى يمكنه أن يقاوم الميكروبات المرضية يجب عليه أن يقى نفسه باحدى الطريقتين الآتيتين : — ﴿أولا﴾ أن يقاوم دخول الميكروبات فيه ﴿ثانيا﴾ أن يقى نفسه سمومها ، أو يبطل مفعولها ، أو يجعل نموها عسيرا ، إذا عجز عن مقاومة دخولها .

فالعدوى وظاهرة التسمم من جانب الميكروبات ، والمقاومة ، وابطال سمومها من جانب الجسم هى العوامل التى يترتب عليها ظهور المرض ، أوعدم ظهوره ، وقد تكفى مقاومة الجسم للعدوى إلا أن هناك ما يساعدها فى مهمتها ألا وهى المناعة .

المناعة

وهذه المناعة إما طبيعية وراثية ، أوجنسية ، أومناعة فردية . فالحيوانات ليست كلها عرضة للأمراض بدرجة واحدة ، فمثلا الأمراض الطفحية التى تصيب الانسان كالحصبة والحمى القرمزية لاتصيب باقى الحيوانات كذلك بعض أمراض الحيوان كالطاعون البقرى ، أوكوليرا الخنازير ، فانها لاتصيب الانسان ولكنها تصيب الحيوان ، وذلك لأن أنواع الحيوانات تمتاز بمناعة خاصة ، وهذا النوع هو الذى يطلق عليه اسم المناعة الطبيعية الوراثية ضد بعض الأمراض ، كذلك هناك مايسمى بمناعة الأجناس ، فمثلا الحمى القرمزية لاتصيب الأجناس ذى البشرة السوداء إلا نادرا بخلاف الجنس الأبيض فهو شديد الاستعداد للعدوى بهذا المرض ، وكما أن للأنواع والأجناس أحيانا مناعة ، كذلك توجد لبعض الأفراد مناعة ضد بعض الأمراض وكلنا نعرفها ونشاهدها يوميا ، فمن منكم لايذكر سنة ١٩١٩ م لما انتشرت الانفلونزا الخبيثة التى أطلق عليها اسم « الحمى الاسبانيولية » وكيف انها كانت تصيب بعض أفراد فى بيت واحد ، وتترك البعض الآخر رغما عن تعرضهم للمرض واتصالهم المباشر بالمصابين به ، ومن منكم لايشاهد فى أولاده أوأقربائه أن بعضا من الأطفال يصاب بالسعال الديكى ، أو الجدرى الكاذب ، والبعض الآخر يبقى سليما رغم تعرضه للعدوى بميكروبات هذه الأنواع .

بيد أن هذه المناعة للأفراد ، والتى نسميها المناعة الفردية ليست مناعة مطلقة كما هو الحال فى مناعة الأنواع والأجناس ، بل هى مناعة نسبية قد تختلف باختلاف الظروف والطوارئ ، أو بعبارة أخرى انها مناعة تتوقف على الاستعداد الشخصى للمرض ، أوقوة مقاومته له ، تلك المقاومة التى تتأثر بعوامل خارجية كثيرة كالتعرض لدرجة الحرارة ، أولتأثير الجوع ، أوالتعب . هذا فى الجسم البشرى ، ولنعد بعدئذ إلى ناحية الميكروب :

الميكروب وقوة أمراضه

وكما أن الجسم له استهدافه ومقاومته كذلك الميكروب له أيضا استهدافه ومقاومته ، فبعض الميكروبات لايمكنها أن تتكاثر فى جسم الحيوان لعدم ملاءمة حرارته الطبيعية لنموها مثلا كميكروبات المرض الفحمى ، فانها لاتتكاثر فى جسم الدجاج ، أوالضفادع ، لارتفاع درجة الحرارة فى جسم الأولى وانخفاضها فى جسم الثانية ، ولكنها تنمو وتتكاثر اذا خفضت درجة الحرارة فى الأولى بغمس أرجلها فى الماء البارد ، ورفعت الحرارة فى الثانية بوضعها فى أفران التفريخ ، كذلك سلالات الميكروبات تختلف فيما بينها من حيث قوة أمراضها . فهى قد تضعف فى حدتها اذا عاشت فى ظروف غير مناسبة لها ، وقد تزيد اذا لاءمها الوسط الذى تعيش فيه إلى غير ذلك مما لانريد أن نتعرض له فى كلامنا الآن خشية أن يطول بنا البحث ونبتعد عن موضوعنا ، وانما أردت فقط أن أبين لكم ماهية العدوى وما يتبعها من عوامل ومؤثرات . ودعونى الآن أن أنتقل بكم إلى موضوع محاضرتى هذه وهو شرح تلك العداوة الكامنة بين الجسم والميكروب :

العداوة بين الجسم والميكروب

الجسم والميكروب بحكم تنازع البقاء عدوّان لدودان ، كل يطلب الحياة لنفسه دون غيره ، مهما كلفه ذلك من عناء أوتضحية ، وهولا يتعفف فى سبيل ذلك أن يفرغ مافى جعبته من قوّة لابادة الآخر ، كلاهما يتسلح بما وهبته الطبيعة من وسائل الفتك أوالمقاومة لكى يفوز بالنصر فى آخر الأمر ، تلك سنة حياتهما كما هوالحال مع باقى أمم العالم سواء بسواء .

والجسم الانسانى يشبه فى تكوينه وترتيبه ونظامه إحدى ممالك العالم ، لأنه مكوّن من خلايا أشبه بالكائنات الحية ، فلاحرج علينا إذن إذا استعملنا اصطلاح « مملكة الجسم البشرى » عند الكلام على دفاع الجسم ضد العدوى ، وكما أن لكل مملكة حدودها الطبيعية من جبال وسواحل بحرية وجيوش تعبأ ، ووسائل متنوّعة لصد العدوّ ، أوالفتك به ، كذلك مملكة الجسم لها حدودها الطبيعية التى تفصلها عن عالم الكائنات الأخرى ، ولها وسائلها فى الكفاح والقتال ، فالحدود الطبيعيـة فى مملكة الجسم هى الجلد مع مايتبعه من البشرة القرنية ، والغدد الشحمية ، والغشاء المخاطى الذى يبطن التجاويف الأنفية والحلقية ، والمسالك الرئوية ، والقناة الهضمية .

فالجلد هو ذلك السور الذى يشبه فى أهميته ما كان لسور «بكين» بالصين من أهمية فى صد غارات الأعداء عليها ، بل هوالدرع الذى تتساقط تحته قنابل العدوّ عاجزة عن تخطيه ، ونحن اذا فحصنا تلك الطبقة التى تغطى وتحمى كل جزء فى جسم الانسان ، وجدنا على سطحها أنواعا لاتحصى من الميكروبات . منها العاطلة . ومنها المرضية كميكروبات التقيح الصديدى ، وهذه الميكروبات وغيرها من الميكروبات الخبيثة (كميكروب الدرن أوالكزاز) لا يمكنها أن تنفذ من ذلك الدرع القوى طالما لايوجـد فيه أية ثغرة تتسرّب منها إلى داخل البدن ، وهـذه القوّة الدفاعية الخاصة بالجلد ليست قوّة ميكانيكية فحسب ، بل هى تتوقف أيضا على بعض عوامل اخرى تتصل بها ، فهناك مثلا العرق المعروف بحموضته التى لاتلائم حياة الميكروبات وخصوصا الميكروبات المرضية ، وهناك حركة التجديد المستمرّ فى الطبقات السطحية للجلد حيث يقذف هذه الأجزاء أوّلا بأوّل ، فيزيل باستمرار ماتجمع عليـه من كائنات حية ، خصوصا اذا ساعدناه فى أداء مهمته باتباع ما وصلنا إليه من تعاليم النظافة والتجميل ، فأعطيناه حقه من الغسيل والاستحمام .

الميكروب فى داخل الجسم

وليت الأمر يقتصر على ذلك ، فان جسم الانسان أوالحيوان وهو يتنفس أو يأكل أو يشرب يجتذب إلى داخله هـذه الأعداء ، عند ماتكون معلقة فى الهواء ، أومنبثة فى الغـذاء ، أوسابحة فى المشروبات . ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ تتصـل هذه الميكروبات مباشرة بالغشاء المخاطى للفم والحلق والمعـدة والامعاء وأعضاء التنفس ، ولوأن الغشاء المخاطى بطبيعته أقلّ مقاومة لهجوم الميكروبات من الجلد إلا أنه يمتاز عنـه بأن به مادّة مخاطية يفرزها ، وهذه المادّة اللزجة التى كثيرا ماتعافها أنفسنا لها مهمة جليلة فى قنص الميكروبات كما يقنص ورق الصمغ الذباب ، ثم بعد قنصها تطردها إلى خارج الجسم بواسطة العطس ، أوالبصق ، أوالسعال ، أوالمخط ، ولـكى أبين لـكم شأن هـذه المادّة المخاطية فى طرد الأجسام الغريبة إلى الخارج أذكر لـكم أن العلامة (هيس) لاحظ أن العامل الذى يشتغل عشر ساعات يوميا فى الأسمنت يستنشق فى السنة مايقدر بـ ٣٠٠ جرام من هـذا التراب ، فاذا استمرّ فى عمله هذا عشرين عاما يجب أن يكون قد استنشق نحو

ستة كيلوجرامات من الأسمنت أودعت فى جوفه كلها ، اللهـم إلا اذا تخلص منها بواسطة العطس أوالبصق كما ذكرنا ، وعلى هذا القياس يمكنكم أن تتصوروا المقدار الكبير من الأجسام الغريبة التى يمكن أن يتخلص منها الجسم بواسطة أغشيته المخاطية وعملها العجيب . وليست وظيفة الغشاء المخاطى وظيفة ميكانيكية ، بل ان له أيضا قوة خاصة فى إبادة الميكروبات ، فقد دلتنا الاختبارات على أن مخاط الأنف ، ودموع العينين ، لهما هذه القوة ، لاحتوائها على نوع من الخمائر ، تسمى الخمائر المحللة « ليزوزيمات » تذيب وتحل الميكروبات فتقتلها اذا ما اختلطت بها ، ورغما من وجود هذين الحاجزين : المخاط والخمائر ، فقد تصل الميكروبات مع ذلك إلى القصبة الهوائية وشعبها ، ولكنها لا تبلغ إلى الرئة نظرا لوجود خط آخر من خطوط الدفاع يقف حائلا فى طريقها ، ذلكم الحائل هو الأهداب الموجودة على سطح الغشاء المخاطى لهذا الجزء من الجهاز التنفسى ذات الحركة الدائمة من أسفل إلى أعلى أى إلى جهة الفم ، طاردة بذلك كل ما يكون قد بلغها من أجسام غريبة ، أوكائنات مؤذية . أما اذا دخلت الميكروبات مع الأكل إلى المعدة فانها تلتقى هناك بالعصير المعدى الذى يحتوى حامض ايدروكلوريك بنسبة ١ إلى ٢ فى الألف ، وتلك النسبة كافية غالبا لقتل الميكروبات المرضية ، غير أنه يعوق عمل هذا الحامض « أولا » إن الميكروبات تكون غالبا مغطاة بجزئيات الطعام التى تحول بينها وبينه « وثانيا » ان المعدة قد تكون سريعة العمل فى اخراج ما بها إلى الامعاء ، فتمر الميكروبات بها سراعا قبل أن تقع تحت تأثير عصيرها المطهر ، ولكى أثبت لحضراتكم قوة العصير المعدى فى قتل الميكروبات أذكر تلك التجربة المشهورة فى تاريخ علم البكتريا التى قام بها العلامة (بيتينكوفر) وتلميذه (ايمريخ) التى أرادا بها أن يثبتا تأثير جراثيم الكوليرا على معدة سليمة وأخرى مريضة ، فتناول أولهما عدة سنتيمترات مكعبة من مزرعة الميكروبات فى المرق ، أى أنه تناول آلاف الملايين من الميكروبات ومع ذلك لم تظهر عليه أى أعراض مرضية مطلقا ، أما تلميذه الذى لم تكن معدته صحيحة كمعدة أستاذه فانه أصيب بكوليرا حقيقية ، وكاد يلقى حتفه ، وهذا يدلكم على المهمة الخطيرة لهذا العصير .

بقى أن نعرف ما يحدث اذا ما وصلت ميكروبات الأمراض إلى الامعاء ؟ وهنا أيضا تجد نفسها أمام عقبات وتهدد حياتها عدة أخطار ، فأولا عدم ملاءمة الجو هناك لمعيشتها ، ففى الامعاء لا يوجد غاز الاكسوجين ، وهو ذلك العنصر الحيوى لغالبية الميكروبات المرضية والتى لا يمكنها أن تعيش بدونه ، وثانيا التزاحم الذى تلاقيه من الميكروبات الجيدة التى تحيا وتعيش فى هذا الجزء من الجسم ، ففى الامعاء يعيش دائما ميكروب هادئ وديع سالم يسمى (ميكروب القولون) يعيش من فضلات التغذية كما أنه يقوم بدور ليس بالضئيل فى عملية الهضم ، وهـذا الميكروب بحكم حيويته يحرم الميكروبات المرضية من غذائها ، فيحرمها بالتالى سبيل الحياة . بل هو يعمل أكثر من ذلك ، لأنه يمنعها من النمو والتكاثر بما يفرزه من مستحضرات وفضلات .

إن هـذه الحقائق التى ذكرتها إن هى إلا صورة من الموانع الطبيعية التى تقى مملكة الجسم البشرى ، ولكن الخطر الحقيقى يحدث اذا ما اخترق العدو الحدود ووطئت قدماه أرض هذه المملكة ، هل يسلم أهل البلاد ويلقون سلاحهم أمامه يا ترى ؟ أم هناك أسلحة أخرى يدافعون بها عن كيانهم وحياتهم ؟ ذلك ما سأوضحه لحضراتكم فيما يجىء من الكلام :

الخلايا البالعة

إن الجسم البشرى كـكل الكائنات الحية ، يخضع لقوانين الطبيعة ، وكل كائن حى يعمل لحل وهضم كل ما يدخل إليه من مواد عضوية أوغير عضوية ، وذلك بواسطة عملية الهضم وتحويل هذه المواد الغريبة إلى أخرى تدخل فى تركيبه أو بنيانه ، هذه العملية تشاهد فى أبسط صورها فى الحيوانات المركبة من خلية

واحدة

واحدة ، وهى التى نسميها « الاميبا » فهذه الاميبات تزحف بواسطة أرجل تطلق عليها «الأرجل الكاذبة» لتجدّ فى البحث عن غذائها المكوّن من الميكروبات والطحالب ، فتأخذها فى داخلها وتهضمها . ولما كانت عملية الاغتذاء هذه قاصرة على الالتهام فالبلع ، فقد أطلقنا عليها اسم الخلايا البالعة ، أوالبلعمات ، كما اننا أطلقنا على هذه العملية اسم « البلعمة » .

وليست عملية البلعمة قاصرة فقط على هذه الحيوانات الدنيئة ، بل يكاد يكون فى كل حيوان بعض من الخلايا مازال محافظا على هذه الخاصية ، فمثلا توجد فى جسم الانسان خلايا الدم البيضاء ، والخلايا المبطنة لتجاويف البطن والصدر والأوعية الدموية والليمفاوية ، وهى خلايا لها قدرة على التهام و بلع الأجسام الغريبة وهضمها . أما وقد عرفنا أنه يوجد بالجسم خلايا لها قوّة بلع المواد الغريبة عنه ، فلنعد الآن إلى نقطة دخول الميكروبات إلى الجسم .

دعونا إذن نتصوّر أن واحدا منا قد وخزته إبرة ، فاذا كانت الابرة نظيفة فان الانسان يشعر فقط بالألم الوقتى ، ومن ثم يلتئم الجرح ، وينتهى الأمر ، ولكن الحال تختلف اذا كانت ملوّثة تحمل بعض الميكروبات التى قدر لها أن تنفذ من الجلد داخل البدن ، فلوكانت هذه من الميكروبات العاطلة الرمامة التى تتغذى على المتخلفات النباتية ، أوالحيوانية لهان الأمر ، لأنها تموت أوتنحلل بواسطة خلايا الجسم الحية ، أما لو كانت هذه الميكروبات المرضية التى تتذوّق الدم وتستمرئه ، وتعرّفت حلاوة مايحتويه البدن من محاسن الغذاء فاستطابته ، وتعففت عن غيره من الطعام ، نقول لو كانت كذلك لكان لها شأن آخر ، إذ لا يمكن لخلايا الجسم أن تتخلص منها بسهولة ، لأنها تميز عن تلك بسمومها التى تهاجم بها الخلايا فتعطلها وتشلها عن القيام بواجبها .

الحرب بين الميكروب والخلايا

وصل بنا الحديث إلى أن الميكروبات ، وهى أعداء الجسم قد تمكنت من اختراق الحواجز الأمامية والاستقرار فى الجسم ، ولم يبق أمام قوّة الدفاع وهى الخلايا إلا أن تمتشق حسامها ، وتخوض غمار حرب ضروس لارحمة فيها ولا شفقة ، حرب للحياة أوالموت ، لاتختلف فى معدّاتها وآلاتها عن حرب الجيوش البشرية كما أن جنودها لاتنقصهم آيات البطولة والتضحية ، والآن اسمحوا لى أن أروى لكم قصتها كما نراها تحت الميكروسكوب :

تدخل الميكروبات مملكة الجسم ، فتجد نفسها فى أرض جديدة غريبة عنها ، فتجمع أمرها ، وتلم شملها ، ثم تسطو على الخلايا المجاورة لها تبتز منها غذاءها ، ثم تتكاثر على طريقتها بالانفلاق إلى اثنين ثم أربع وهلم جرا ، وبعد ذلك الاستعداد تبتدئ فى هجومها ، فتنفث من أجسامها سماقة تلا ترمى به أفراد المنطقة التى احتلتها ، واذ ذاك لاتستطيع الخلايا أن تقف مكتوفة اليدين ، بل تعمد على الفور إلى الدفاع عن نفسها ، فتقذف عليها سيلا من المصل الدموى ، يهوّن من فعل هذا السم ، ويخفف من حدّته ، ثم تنجلى المعركة الأولى عن قتلى وأشلاء من خلايا الجسم ، ثم تتحلل هذه الأشياء إلى عناصرها الأوّلية كما يتحلل كل حىّ عند مماته ، وتحملها مياه الوطن إلى كل جهة من جهاتها كأنها نذير بالخطر الذى يتهدّده ، وبالكارثة التى حلت به ، ولانلبث أن نرى الحماة تخرج من معاقلها ، وما تلك الحماة ؟ وما هؤلاء الجنود ؟ إلا الخلايا البيضاء ، أوالبلعمات التى ذكرناها ، والتى يقع عليها عبء الدفاع عن أرض الوطن ، إذ لايمضى زمن طويل حتى تتمدّد الأوردة الشعرية فتزيد كمية الدم صوب المنطقة المصابة ، وعند ماتصل البلعمات السابحة فى مجرى الدم إلى تلك المنطقة تنتقل إليها وتدخل ميدان القتال زاحفة كما تزحف الاميبا ، فرادى فى أوّل الأمر ، ثم

جماعات بالمئات وبالالوف ، وعندئذ تصبح الحرب سجالا ، فالميكروبات تنفث سمومها ، والجسم يعرقل عملها بسيل من المصل ، فتنتفخ المنطقة المصابة وتحمر ، وذلك ماتعرفونه بالالتهاب ، ثم تقترب البلعمات رويدا رويدا من العدوّ ، وتأتيه من أمامه ومن خلفه ، ومن الجناحين ، وتحوطه من كل النواحى ، ثم يأتيها المدد من آن لآخر ، فتزداد عددا ، وتشتدّ حصارا عليه ، ثم تبنى سورا منيعا حوله يفصله عن باقى الجسم ، والى هنا تكون قدانتهت المناوشات والمناورات ، وتبتدىء بعدئذ المجزرة البشرية ، فتتقدّم كل بلعمة إلى الميكروب الذى أمامها تطبق عليه بجسدها حتى تبتلعه فى جوفها لتقتله ، وقد ينجح الكثير من هذه البلعمات فى قتاله وقد يموت البعض شهيد الواجب ، ولكن العدوّ لايستسلم لليأس ، ولايسلم بسهولة ، بل يعود إلى تنظيم صفوفه من جديد بعد أن يملأها بمحاربين آخرين ، بدل العشرة مائة ، وبدل المائة ألفا ، هذا من ناحية الميكروب ، أما من ناحية الخلايا فانها أيضا تصلها النجدة والمدد ، وتستأنف المعركة من جديد على أقصى ما يكون من الشدة ، ولكن إلى متى تستمرّ فرق الجيوش بعضها أمام بعض تتطاحن وتتقاتل : بل إلى متى تتحمل المملكة هذه الحرب ؟ لا يمكن أن تستمرّ الحال طويلا ، واذن لامندوحة عن التعبئة العامّة لكل محارب ، وكل من يمكنه حمل السلاح .

الآن تهرع كل بلعمات الدم إلى القتال على جناح السرعة ، ويخرج الرديف منهم والمخزون فى مستودعات الطحال ونخاع العظام إلى ميدان القتال ، وهنا نسمع دقات ناقوس الخطر « الجسم فى حمى »

لقد حشد الجسم الآن آخر رجل فى تشكناته للقيام بآخر مجهود ، فاما نصر ، واما هزيمة ، وهل يتمّ له النصر ؟ من يدرى ربما كان كذلك ، لأن العدوّ وان كان قد زاد عددا إلا أنه لم يتوغل كثيرا فى أرض الوطن ، بل أصبح محاصرا فى مكانه ، واذا كانت مملكة الجسم قد جربت حروب الخنادق ولم تفلح فيها كثيرا فلم يبق بدّ من تغيير خطة الحرب كما يفعل كل قائد ماهر فى مثل هذه الأحوال .

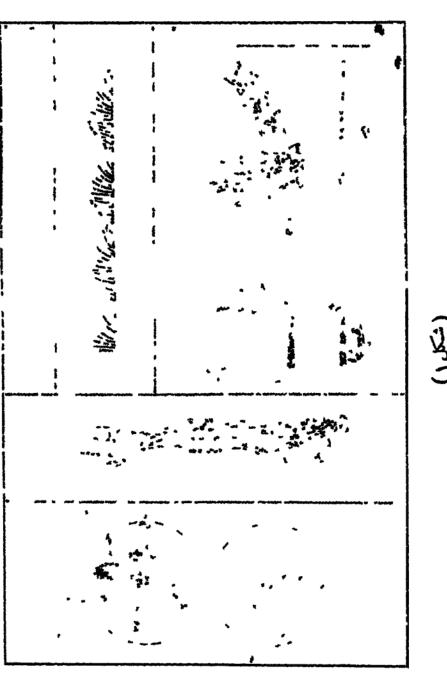
الآن تبدىء المملكة فى تضحية جزء منها لكى يسلم المجموع ، ومن ثم يقع تنفيذ هذه المهمة على عاتق البلعمات أيضا ، فهى تبتدىء فى اتلاف النسيج المصاب أوّلا بقتل الخلايا وثانيا بهضمها وتحويلها إلى عصيدة سائلة ، فينشأ عنه تجويف مملوء بهذا السائل ، أوتعلمون ماهوهذا التجويف ؟ هوالخرّاج الذى يظهر فى موضع حصار الميكروبات ، والسائل هوذلك الصديد الأصفر المكوّن من أنسجة مهضومة ، وآلاف من البلعمات وملايين من الميكروبات ، ثم يأخذ هذا الخرّاج فى الازدياد ، وكلما ازداد حجما كلما صار ألين وأميع حتى اذا لمس أحسّ الانسان بترجرج السائل فيه ، وليت عمل البلعمات يقف عند هذا الحدّ بل انها تتجه صوب الجلد فتتلفه وتهضمه من أسفل حتى ترقّ طبقته وتحدث ثغرة فيه فيندفع الصديد إلى الخارج ومعه الميكروبات .

الآن والآن فقط قد طرد العدوّ خارج المملكة بعد معركة حامية كان النصر فيها غاليا ، لقد كلفها ثمنا غاليا وتضحيات فى أفرادها ، ولكن يهون كل ذلك مادامت المملكة قد أنقذت ، وهنا يهدأ بال الجسم على مصيره وكيانه ولكن البلعمات هؤلاء الحماة الأشدّاء لايهدأ لهنّ بال وفى الجسم جراح فيعمدن إلى عملية الاندمال لأنهنّ أبناء المملكة البررة وعدتها فى الحوادث والملمات ، ويجب عليهنّ أن يطهرن ميدان القتال من جثث أعدائها ، ومن أشلاء مواطنيها ، حتى يمكن للجلد أن يتجدّد ويسدّ الثغرة ، ويكون ذلك باحداث ندبة تبقى على ممر السنين والأعوام كنصب تذكارى بنىء بمكان المعركة وبالنصر الذى فاز به الجسم ضد أعدائه المغيرين ،

سادتى : عند ماوصفت لكم المعركة الأولى قلت لكم : ان البلعمات تقترب رويدا رويدا من العدوّ ، وتأتيه من أمامه ومن خلفه ، ومن الجناحين ، وتحوطه من كل النواحى ، وتحاصره إلى أن تبنى من نفسها

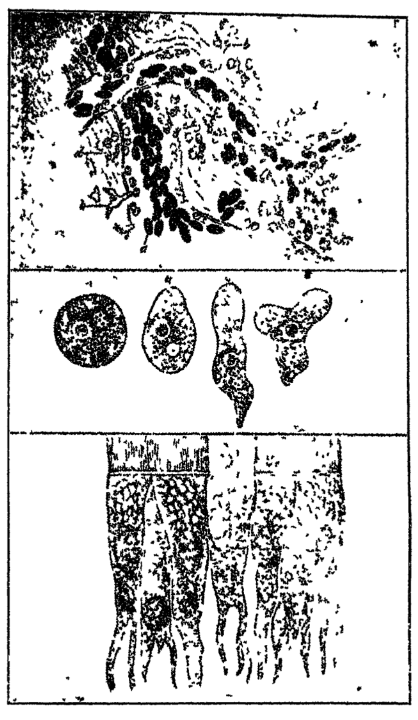
سورا منيعا حوله ، يفصله عن باقى الجسم ، ولكنه قد يحدث أن يكون العدوّ من شدّة البأس والقوّة ما يمكنه من أن يحطم جزءا من هـذا السور وتنساب بعض جنوده داخل المملكة ، فما العمل إذن ؟ هـل تتركه المملكة ينساب فى أحشائها فيعيث فى البـلاد فسادا يودى بحياة كل من يقابله فى طريقه من الأحياء ؟ أم هـل اتخذت المملكة أهبتها لمثـل تلك الكوارث ؟ نعم انها لم تكن غافلة عن ذلك منذ نشأتها ، لأن فى داخليتها حصونا وقلاعا ملأى بالجيوش على أتمّ استعداد لمثل هـذا اليوم العصيب ، وتلك الحصون والقلاع هى الغـدد الليمفاوية ، فاذا ما اخترق العدوّ جوانبها الطبيعية ، وتخطى خط الدفاع الأوّل فان مجارى الليمفا تحمله إليها فيلاقى حتفه فيها ، وذلك لأنها عبارة عن ثكنات ملأى باللمعات المقاتلة .

ويوضح لك أيها الذكىّ ما تقدّم ما تراه فى هذه الصفحة فى (شكل ١ و ٢) فانظره ترى العجب العجاب ! وهاك صورته :



(شكل ١)

شكل اللمعات لدى خروجها من الأوعية الشعرية (فوق) : حركة الأهداب التوجيه . (تحت) : يمين — وسط : الغدد والمجارى الليمفاوية — يسار : تجمع الميكروبات بواسطة اللازبات



(شكل ٢)

فوق : تمدد الأوعية وابتداء انتقال البلعمات إلى المنطقة المطلوبة .

وسط : شكل الاميبا .

تحت : الخلايا الهدبية المبطنة للقصبة الهوائية .

ولكن

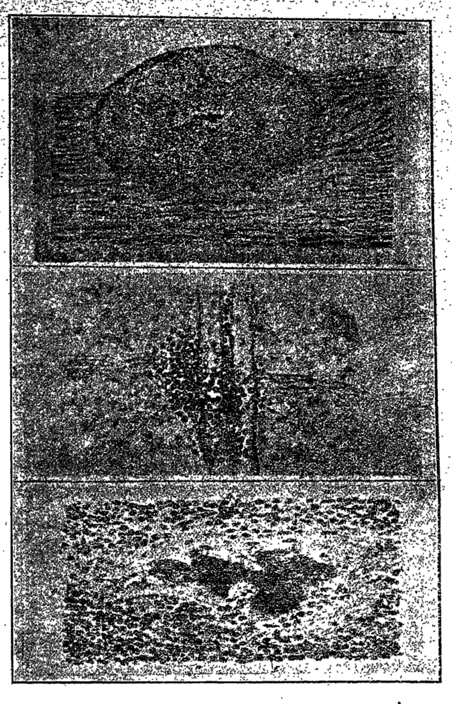
ولكى أقرّب ذلك إلى الفهم أقول : إن أغلبكم يعلم أنه عندحدوث بعض الجروح فى اليد ، أوالذراع ، ينشأ عن ذلك ورم صغير مؤلم تحت الابط ، وما ذلك الورم الصغير إلا عبارة عن غدد ليمفاوية تهيئ نفسها للدفاع عن الجسم فتملأ، بالبلعمات التى تقف فى سبيل الميكروبات المغيرة عليه .

ولكن قد يحدث أن العدوّ بفضل قوّته وضعف مقاوميه قد يتخطى أيضا خط الدفاع الثانى كما يحدث أحيانا فى الحروب العادية ، أى ان القلاع (أى الغدد الليمفاوية) لاتقوى على صد غارات الأعداء المهاجمة فماذا يكون العمل بعد أن أصبح العدوّ الآن حرا طليقا فى حركاته ، لاجنود أمامه تقاتله ، ولاحصون تعرقله ؟ بل هو ينساب فى البلاد ، سائرا فى طرقها الرئيسية ، أى فى الأوعية الدموية ، ملتمسا الغذاء والحياة لينمو ويتكاثر فيها ، إذن الويل ثم الويل لهذه المملكة البائسة التى تصبح فترى أن فى كل زاوية من زواياها ، وفى كل مقاطعة من مقاطعاتها أجنبيا يذيقها الهلاك والردى .

واذا كان هذا هو الحال فى ممالك الأمم فليس هو كذلك فى مملكة الجسم البشرى القوية المنظمة ، وما ذلك إلا لأنه لم ينضب بعد معين دفاعها ، وما زالت تحتفظ بوسائل أخرى للدفاع ، إن فى دمها الذى يجرى من قمة رأسها إلى أخمص قدمها ، ومن طرفها الأيمن إلى طرفها الأيسر من الوسائل ماهو أشدّ قوّة وأكثر فعلا من الوسائل الأخرى التى شاهدناها إلى الآن ، وهذه الوسائل المتأخرة للأيام العصيبة أى عند ماينتسم السم وتتسعر النيران فيه . قلت السم ، والأحرى بنا أن نقول مصل الدم أى ذلك الجزء المائع منه الذى يمكن فصله بعد تخثره من الجلطة الدموية ، إن هذا المصل الذى يحتوى على موادّ مهلكة تبيد الميكروبات سماها العلامة (بوخنر) الذى كان أوّل مكتشف لها ، والتى يمكن أن يعبر عنها بالعربية « بالموادّ الداحرة » وبالطبع لايمكننا مشاهدة عملية قتل الميكروبات كما تشاهد ظاهرة البلعمات تحت الميكروسكوب ، ولكن يمكن تتبعها بواسطة التجربة ، وذلك أنه اذا أخذنا جزءا من المصل الدموى ، وأضفنا إليه قليلا من الميكروبات الحية ، ثم أخذنا من هذا الخليط نماذج فى فترات متعدّدة ووزعناها على البيئات الملائمة لنموّ هاته الميكروبات رأينا أن عدد الميكروبات النامية على المستنبت يقلّ شيئا فشيئا حتى ينتهى الأمر إلى عدم العثور عليها ، لأنها تكون قد ماتت وأبيدت من جراء تأثير المصل عليها ، كذلك توجد فى المصل موادّ أخرى أقلّ فعلا من الموادّ الداحرة ، فهى لاتهلك الميكروبات وتقتلها ، ولكنها تشلّ حركتها فقط ، وتجمعها على بعضها كتلا كتلا ماسة إياها من المرح داخل البدن ، وفى الوقت نفسه تسهل للبلعمات إلتهامها وتدميرها ، هذه الموادّ هى التى اكتشفها كل من « جروبر » و « درهام » ويطلق عليها اسم « الاجلوتينات » أو « الملزنات »

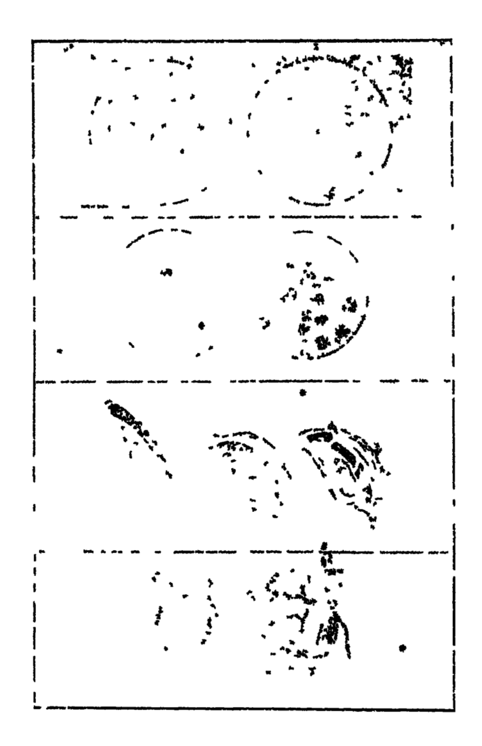
سادتى : إلى هنا قد وصل بنا البحث إلى أن وقاية الجسم ضد غارات الميكروبات هى وقاية خلوية خلطية ، أى انها وقاية تستند إلى فعل الخلايا الأكالة ، أوالبلعمات ، إلى أخلاط البدن ، أوالمصل الدموى . (ونرى فى الشكلين الآتيين فى الصفحتين التاليتين وهما شكل ٣ و ٤ مايوضح لك هذا المقام) . بقى أن نتحدث قليلا عن الوقاية النوعية ،





(شكل ٣)

فوق : اتجاه البلعمات نحو الجلد لهضمه .
وسط : خروج البلعمات إلى ميدان القتال .
تحت : البلعمات تحاصر الميكروبات .



(شكل ٤)

فوق : إبادة الميكروبات بالمواد الداحرة .
تحته : إلتهام البلعمات للميكروبات .
تحته : إلتهام البلعمات للميكروبات .
تحت : البلعمات لدى خروجها من الأوعية الشعرية .

الوقاية النوعية

إن البدن لايقف حيال العدوى عند حدّ الاستعانة بوسائله الطبيعية فى مكافحتها ، بل هو قادر أيضا على تجديد مافقده من المواد الواقية ومن البلعمات المكافحة التى تكون قد سقطت فى ساحة القتال أثناء الدفاع ولكن عملية التجديد هذه لاتقف عند حدّ الاستعاضة فحسب ، بل انها تنزع فى العادة إلى التعويض المفرط ، وإنه لمن أعجب النظم فى الكائنات الحية مانشاهده فيها عند مقاومتها للعدوى كيف انها تتعلم أن تقاوم بنوع خاص صنف هذه العدوى ، فمثلا اذا كانت العدوى حمى تيفودية وجه البدن كل قواه إلى تحضير المواد الواقية ضد ميكروب التيفود ، وان كانت العدوى كوليرا مثلا قام البدن بتحضير المواد الواقية ضد ضمات الهيضة الأسيوية وهكذا دواليك أى أن الوقاية تصبح كما يعبر عنها وقاية نوعية .

سادتى : لقد حاولت أن أبسط لكم اليوم بطريقة سهلة كيف يحافظ الجسم على كيانه من غارات الميكروبات وسمومها ، ولست أخفى عنكم انها محاولة ناقصة ، إذ يضيق بى المجال لو ذكرت لكم كل الحقائق التى أظهرتها الأبحاث العويصة ، والتجارب العلمية ، التى أجريت فى السنوات الأخيرة على مقاومة الجسم للأمراض ، ولكن يكفى أن تعلموا أن البدن يدافع بنفسه عن نفسه .

الخلاصة

والخلاصة أننا حقا مدينون إلى مقاومة وقدرة خلايا الجسم ، وبالحرى إلى الخلايا الأكالة (البلعمات) فى الدفاع ضد الميكروبات وسمومها القتالة ، وهذه الخلايا لاتقوم بعملها الجليل الذى وصفناه إلا لأن تلك هى وظيفتها التى اختصت بها بين أفراد مملكة الجسم البشرى ، ولولا هذه الاداة الواقية لاندثرت البشرية منذ زمن طويل .

ولقد عرفتم الآن كيف أن الجسم يبيد فى حياته اليومية الملايين من الميكروبات دون أن نشعر بذلك ودون أن يعلن عن نفسه ، أو يفتخر بعمله ، انه فى حرب صباح مساء مع أعدائه ، مضحيا بالآلاف من أفراده فى سبيل الحياة ، ولكننى أشعر أنكم تتساءلون فيما بينكم قائلين : اذا كان الأمر كذلك فلماذا إذن تحدث الأمراض المعدية بكثرة ؟ ولماذا تنتاب الانسان الأوبئة بين حين وآخر ؟ والجواب على ذلك هو أنه فى بعض الأحيان يكون هجوم الميكروبات بشدّة وقسوة بحيث يخرّ الجسم فريسة أمامها قبل أن تأتيه النجدة من جنوده ، على أنه اذا كان هناك سبب آخر يجب أن تعرفوه وتتخذوا الحيطة له فذلكم السبب هو تقصير الجنود ، ونقص مهمات الدفاع والكفاح ، والمعروف أن نقص وسائل الدفاع يكون عادة فى الممالك الضعيفة . وكذلك الحال فى مملكة الجسم الضعيفة فان وسائل الدفاع لديها تكون أيضا ناقصة ، أولا تلاحظون أن نسبة الأمراض المعدية أكثر بين الفقراء منها بين الأغنياء ، ولم ذلك ؟ أليس لأن أفراد هذه الطبقة هم بكل أسف ضعاف فى تركيب بنيتهم ، ضعاف فى أجسامهم ، لسكناهم فى المنازل الضيقة التى لاتتخللها الشمس ولا الهواء ، ضعاف بغذائهم القليل الضئيل ، ضعاف بتعبهم ونصبهم فى الأعمال الشاقة المضنية التى يجب أن يقوموا بها لكسب معاشهم ، فاذا عرفنا ذلك ، أصبح لزاما علينا أن نقوّى أجسامنا ، ونزيد فى مكانة أبداننا كى نعطى جنوده القوّة والنشاط للكفاح والدفاع .

فالى العمل بنظام ، والى الراحة بقسط وافر ، والى الخلاء حيث الشمس والهواء ، والى الرياضة البدنية حسب مقتضيات المزاج .

إننا بهذه الوسائل نكون حقا قد قمنا بالواجب علينا نحو أجسامنا ، وهيأناها للدفاع عن أعدائها .

انتهى ما أردته من المجلة المذكورة والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع صاحبي هذا القول أعجب به أيما إعجاب ! وقال : لله درّ هـذا الطبيب الخطيب ، لقد أجاد وأفاد وأبدع فى تصوير هيئة الجسم والجنود المجندة فيه مما لم يسبق له فيما أعلم نظير ، ولكن لما كانت آية : « ولله جنود السموات والأرض » غـير خاصـة بجسم الانسان ، بل ان الآية عامة ، وقد فتح الله الباب بهذا القول أحببت أن تسمعنى قولا عاما به نفهـم كيف تكون تلك الجنود المجندة فى السموات والأرض بقدر الامكان . فقلت :

فصل في جنود الإحياء والاماتة * أوالظلمة والنور

(١) لجند الكهرباء السالبة والموجبة .

(٢) وجند الجوامد ، والسوائل ، والغازات ، والنيران ، والمياه .

(٣) وجند الميكروبات التى للاحياء ، والتى للاماتة .

(٤) وجند الأغذية والسموم للاحياء والاماتة .

(٥) وجند الحشرات ، والطيور ، والهوامّ ، والبهائم ، والأنعام ، إحياء وإماتة .

(٦) وجند النوع الانسانى إحياء و إماتة .

(٧) وتبيان أن نوعى الجنود المذكورين يكونان مادّيين ومعنويين ، فههنا أربعة أنواع من الجنود

(٨) تبيان جنود الاماتة فى أمم الاسلام التى مزقت شملهم مادّية ومعنوية قبل زماننا .

(٩) وجنود إحيائها فى هذا الزمان بقسميها : معنوية ومادّية .

مسامرة

فقال : حدّثنى رعاك الله عن هـذه الجنود كلها ، فان هذا فتح لباب العلم وجمال الحكمة ، ولم يكن ليخطرلى أن الأمر يتسع حتى يصل إلى هذا الحدّ ، وأن فى الأضواء والنيران والمياه جنودا ، فلعلّ فى الأمر أسرارا وأنوارا .

الكهرباء السالبة والموجبة

فقلت : اعلم أيدك الله بنصره ، وأعزّك باعزازه ، ان هذه المادة التى نعيش فيها (كما تقدّم فى سورة النور عنـد آية : الله نورالسموات والأرض) لاوجود لها : فهذه الشموس والأقمار والسيارات والثوابت والأرضون وماعليها من الأحياء والجمادات ، كل هـذه لاوجود لها ، وماهى إلا ذرّات ضوئية ، أبدعتها الحكمة الالهية ، فكان منها السالبة ، ومنها الموجبة ، هذا خبر هـذه الدنيا ، وهـذا أوّل الوجود المادى وآخره ، وليس لعلماء عصرنا علم فوق هذا ، فهذه العوالم كلها ظواهرلهذه الأنوارسالبها وموجبها (انظرمعنى السالب والموجب فى « سورة الرعد » فهناك شرح هـذا الموضوع شرحا وافيا عند آية : هو الذى يريكم البرق الخ) ولايقرّب هذا لنا إلا مانعهده فى نفوسنا .

الله أكبر : نحن نحسّ فى أنفسنا بصور ، وهذه الصور لامادّة لها ، وهى تظهرفيها ولايطلع عليها أحد إلا نحن فى مخيلاتنا (وأنت قرأت هذا المقام فى « سورة القتال » عند آية : « فاعلم أنه لاإله إلا الله » فى رسالة « مرآة الفلسفة » وهذا المقام هو الذى به أمكن الخروج من الورطة التى وقع فيها أمم وأمم ممن قبلنا من أيام سقراط وأفلاطون إلى الآن ، وهـذا هوالمخرج الذى فتحه الله للانسانية للخروج من مأزقها الفلسفى) فهذه الصور التى نحسّ بها فى نفوسنا بلا مادّة تصوّر فيها تسهل لنا تصوّر مايقوله علماء عصرنا : « إن أصل المادّة إنما هوالكهرباء السالبة والموجبة ، فاذا كان الانسان يحسّ فى نفسه بصور لامادة لها

فليس بعجيب أن يرى أن هذه الدنيا كلها مكوّنة من كهرباء تشتمل على سالبة وموجبة ، وبالكهرباء السالبة وبالكهرباء الموجبة كانت هذه الدنيا كلها ، فلامادّة لهذا الوجود العظيم الذى اخترعه صانع الكون كما لامادة للصور التى تحسّ بها فى نفوسنا ، والتى عليها مدار حياتنا كلها وسعادتنا وشقائنا فى حياتنا .

خطاب الله عزّ وجل للعوالم

ولم أجد قولا جامعا لما أريده فى هذا المقام مما ألقاه الله بطريق الالهام على أحد الصالحين الملازمين لقراءة هذا التفسير ولذكر الله ليلا ونهارا ، حضر عندى منذ أيام وقال لى : بينما أنا أذكر الله ليلا إذ خيل لى كأن الله عزّ وجل يخاطب العوالم مبتدئا بالكهرباء الأولى وهو يقول : أيتها الكهرباء ، أنت من آثار نورى فلتسرعى فى حركاتك اسراعا حثيثا ، ولتكن حركاتك فى الثانية الواحدة من ٤٠٠ مليون مليون مرّة إلى ٧٠٠ مليون مليون مرّة ، ولتكن بهذه الحركات أنواع الأنوار الشمسية من الأحمر إلى البنفسجى ، ولتكن هناك سبعة ألوان ، ولتكن مزاجا واحدا ، وهيئة واحدة ، فظهر للحيوان نورا للشمس ظاهرا للعالمين .

إطاعة الكهرباء والأنوار لربها

فدارت الكهرباء كما أمرها الله ، وكانت منها الأنوار الشمسية والقمرية والكوكبية .

خطاب الله للأنوار أن تكون أسرع فتكون منها الغازات والسوائل والجامدات

ثم خاطب الله الكهرباء فقال : هاأنت ذه قد أتيت طائعة وامتثلت أمرى ، فهذه أوّل خطوة من خطوات مخلوقاتى ، ألا فاسمعى : جدّى السير مسرعة ، ولتكن لك فى الثانية الواحدة نحو ستة آلاف مليون مليون حركة ، فليكن منك الهواء والماء والأرض والأحجار وكل نبات وكل حيوان ، ستظهرين أيتها الكهرباء لعون الناس والحيوان بهيئات مختلفات ، يحسونها فيقولون : هذا غاز ، وهذا سائل ، وهذا صلب ، وفى الحقيقة لاغاز ولاسائل ولاصلب ، ماهذه إلا أضراء كهربائية اختلفت سرعة حركاتها فاختلفت أفعالها فسميت حجرا وشجرا وماء وهواء ، هذا أوّل الأمر وآخره . وفى الحقيقة لاشىء ولامادة ، وماهى إلا حركات فى عالم لاترونه ، وهذه الحركات متنوّعات ، ولهذا التنوّع نتائج عجيبات . أيها الهواء : ليكن فيك جند للاحياء وجند للاماتة فاذا اشتدّت عواصفك وقواصفك فأنت إذن جند الهلاك ، تهدم القصور والدور ، وتقتلع الأشجار ، واذا كنت خالصا من الأعراض المؤذية من البرد الشديد ، والحرّ الشديد ، فأنت رحمة للعالمين . وأنت أيها الماء : قم بمنافع عبادى ، وكن حياة كل حىّ ، واذا أصابك عارض مما ذكرناه فأنت من جند الابادة والاهلاك ، وهكذا قال الله لكل حجر وشجر ونبات وحيوان : إنكنّ جميعا تكونون جنودى فى حصول الحياة كما تكونون جنودى فى إحداث الممات . أيتها المخلوقات اسمعى .

هنالك صرخت تلك المخلوقات صرخة واحدة وقالت : ربنا . لِمَ لم نكن جند الحياة فحسب ؟ ولم جعلتنا للضدين ؟ فقال لها : أيتها المخلوقات : إنكنّ لاتعلمن ما أعلم ، أنتنّ من المادّة ، والمادة ضيقة العطن ، قليلة الفطن ، لاتسع كل ما أعلم من الصور والأجيال والأحوال ، فعلى يسع من الصور مالاتحتمله مادّتكم كما تفهمه عقولكن . . . ذ . . نكن جند . . . . . فقط لم يكن موت ، فيكون بخل فى العطية ، ويكون العالم المدّى جيلا واحدا . . . آلاف . . . السنين ، وملايين الملايين من القرون والأحقاب ، فأىّ بخل أقطع من هذا ؟ . . . عجزت مادّتكم عن . . . هذه الصور كلها ، ولم تتحمل إلا صورة بعد صورة

تلطفت فيها وقدّرت الموت والحياة ، وأنفذت جندين : جندا للاحياء ، وجندا للابادة ، لتسع المادّة ماتحتمله من صور الاحياء بقدر الامكان ، فهاكم أولاء ياعبادى :

(١) هذه الذرّات الصغيرات اللائى تعيش وتتكاثر فى الأرض وتتوالد بلا حد ولاعدد ، وتفتت المواد الأرضية التى تصبح غذاء للنبات ، فهذه المادّة نبات فطرى يمهد لحياة النبات المعلوم فهذه جنود نباتية أعددتها للحياة .

(٢) وهناك جنود أخرى من هذا النوع تتكاثر فى الموادّ المتخمرة نعدّها للفساد والهلاك (وهذا تقدّم شرحه فى بعض أجزاء هذا التفسير)

(٣) ثم انه لاطير ولادابة ولاحشرة إلا ولها عطف على أبنائها ، فهى تبنى العش ، وتطعم الفرخ ، أوترضعه اللبن إلى آخر ماهنالك ، فهذه بهذا الاعتبار جند الحياة .

(٤) ولا أسد ، ولانمر ، ولافهد ، ولا وحش ، ولاصقر ، ولاشاهين ، إلا وجعلت حياتها موقوفة على أكل الأرانب ، والغزلان ، وجميع آكلات الحشائش من الحيوان . فهذه من هذه الناحية جنود الاهلاك .

(٥) ومن جنود الاهلاك الجراد الذى يسطو على المزارع فيأكلها فيجوع الانسان ويموت .

(٦) ومنها النمل المحاربة لنمل آخر فتهلكه بلاشفقة ولارحمة فى جميع الأزمان .

(٧) أنا سلطت العنكبوت على الذباب إذ تصطاده بشبكاتها اللطيفات .

(٨) وسلطت طيور (المنز) على الجراد فيكون لها طعاما سائغا نافعا للآكلات (مذكور فى سورة آل عمران عند قوله تعالى : بيدك الخير الخ)

(٩) وألهمت بنى آدم أن يأكلوا السمك ، والطير ، والأنعام ، كل هؤلاء جيوش الامانة والاعدام .

(١٠) كل هذه القاتلات المهلكات عاطفات على أبنائها ، وفلذة أكبادها ، فهى جنود السموات والأرض ، جنود الاحياء ، وجنود الاهلاك .

(١١) وهناك جنود لى فى نوع الانسان ، وهذه منها الخير ومنها الشر .

(١٢) أنا أوحيت إلى الأنبياء أن يعلموا عبادى العلم والدين ، وأمرت بعضهم أن يستعمل السيف أحيانا ، وأمرت خاتم الأنبياء أن يكون له جنود معنوية ، وجنود حسية ، فالأولى هى المواعظ والحكم ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، والثانية هى الجنود المجندة بالسيف والسنان ، والضرب والطعان ، وأمرته أن لايستعمل الجنود الحسية المادّية الجرمانية إلابعد أن يرسل الجنود المعنوية النورية ، فتكون تلك الجنود لاهلاك العاصين ، ولحماية المطيعين ، فالجنود النورية العلمية ، والجنود الحسية المادّية الانسانية تكونان لاغاثة المؤمنين ، ولخذلان المهتدين .

(١٣) هنالك ظهر فى الوجود أمة اسلامية عظيمة : لها كيان خاص ، وحياة منتظمة ، كأنها هيكل إنسان حىّ ، هى أمة كفرد ، هم كالجسد الواحد .

(١٤) ولكنى عدل رحيم حكيم ، وقد سبق فى ذات لكم : أن حكمتى قضت أن هذه المادة يجب أن تسع الصور المختلفة ، فاذا أبقيت هذا الجيش الاسلامى بلاتغير مستمرّ فيه كان ذلك خطلا فى النظام ، فلابدّ من التغير والتبدّل ، لتحتمل المادّة الأرضية جميع الأوضاع الممكنة .

(١٥) هنالك سلطت الشياطين على قلوب ملوك الأمويين ، والعباسيين ، والاخشيديين ، والطولونيين والسلجوقيين ، والأندلسيين ، والزياريين ، والغزنويين ، والحمدانيين ، والفاطميين ، والممايك البرّية والبحرية ، والعثمانيين وغيرهم ، فوسوس إلى كثير منهم بالاسراف فى المطاعم والملابس

والنساء والظلم والقتل ، وسلطتهم أيضا على رجال من أهل العلم ، فأخذوا يقذفون فى الأمم الاسلامية مقالات تحض على افتراق الكلمة ، وتشعب الرأى ، وذلك بتأويل الآيات ، ووضع الأحاديث ، والجدل والمناظرة ، فكانت (٧٣) فرقة ، وكل فرقة أصبحت فرقا ، كل يدعى أنه هو الأحق بالدين وسواه فى ضلال مبين ، ها أنا ذا يا عبادى صنعت فى هيكل الأمم الاسلامية مافعلته فى هيكل الحيوان ، هيكل الحيوان تنحل أجزاؤه ، وتتفرق أعضاؤه ، ولكن عناصر جسمه باقيات فى الهواء والماء والتراب ، هكذا أمم الاسلام باقيات ولكنها متفرقات ، فلازالت تتبعثر وتتناثر قليلا قليلا ، فزالت الدولة الأموية ، ثم العباسية ، ثم الدول الأخرى ، واستقل كل جزء حتى عصرنا الحاضر إذ أصبح الاسلام قطعا متناثرة ، وأجزاء منبوذة ، وقد التهمته الأمم التهاما ، كما هى شأن الفريسة فى الصحراء (قبل سنين أما الآن فانها آخذة فى الالتئام)

(١٦) أوعزت إلى دولة الروس أن كونى حجر عثرة فى طريق العثمانيين ، وحار فى الصين ، واقصدى لبلاد الشرق بالمرصاد ، فتوغلت فرنسا والكلترا فى بلاد الاسلام ، ومزقتها مزقا شاملا لترجع إلى عناصرها الأولية كما يرجع النبات والحيوان عند هلاكه .

(١٧) ثم كانت الحرب الكبرى ، فقلت لأوروبا كفى عن الشرق والشرقيين ، فقد جاء دورهم ، وهم سيكونون أنفع للعالم منكم أجمعين .

(١٨) فياروسيا دعى النصرانية التى خنقت الاسلام خنقا ، وكونى شيوعية بلشفية ، ولتقم بجانبك تركيا الجديدة والصين والعراق والأفغان وايران ، فقم ياشرق ، وكف ياغرب ، واستيقظى يا أمة الاسلام : هذا دوركم أيها المسلمون ، قوموا من رقدتكم ، رقدتم قرونا فاستيقظوا قرونا ، أنتم اليوم جيوش للاحياء وللاهلاك ، وفيكم جيوشى المعنوية النورية والحسية الجرمانية ، وكفى ياانكلترا ، ويافرنسا ، ويايطاليا عن ظلم عبادى المسلمين ، قد انتهى دوركم أجمعين .

(١٩) ثم أوعزت إلى جميع المسلمين فى الهند والصين والأفغان و بلاد جاوه والملايو وشمال افريقيا وجميع آسيا وأوروبا أن اتحدوا وكونوا يدا واحدة ، وكونوا خير الأمم أجمعين ، وفى نفس الوقت قلت : أيها الفرنسيون : اجمعوا عود المسلمين فى مراكش ، وابلوهم بالشر ، وأنتم ياطليان اصنعوا شرا فى طرابلس ، لأنى أريد بشركم ارتقاء واتحاد أمم الاسلام (وههنا قال الاستاذ الصالح لى : فما كادت الأمتان تفعلان بعض الشر فى زماننا حتى قام المسلمون على بكرة أبيهم فى سوريا والهند و بلاد جاوه يقاطعون بضائع الأمتين ، ويحرمون مدارسهم ، ههنا ظهر فى الاسلام عالم جديد لم يكن معروفا من قبل ، ههنا ظهرت أمته وهى التى ستكون كما قال الله فيها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . هذه أمة لم نعرفها من قبل إلا قليلا ، أمة كانت متقاطعة متدابرة (إلا فى العصر النبوى ومايقرب منه) ، أمة هاجمها الصليبيون أيام صلاح الدين ، فلم يقم فى وجوههم إلا بعضها ، أما الباقون فانهم تخلفوا عنها فى شمال افريقيا وفى غيرها ، أما اليوم فان الحوادث المزعجات جمعت كلمتهم ، وسيكون لهذا فى القريب العاجل شأن عجيب) . انتهى كلام الصالح المتخلل خطاب الله الخيالى له .

(٢٠) ثم يقول سبحانه : وألهمت رجالا ورجالا فى بلاد الاسلام أن ينصحوا بلم الشعث ، وجعلتهم جنودا معنوية نورية ، تفتح معاقل القلوب ، وتحتل النفوس ، وتهزم جنود الشياطين وتطاردهم ، وتفل عروشهم ، وتهزم جموعهم ، فتقضى على النعرات القديمة ، المفرقات للكلمة ، فلاتبقى تلك السفاسف ، ولا تلك السموم الفتاكة الممزقة لهيكل هذه الأمة بأنواع المثبطات الموئسات ،

والبدع ، والانحياز للفرق المتشعبة ، والطوائف المتفرّقة ، فلن يضير هذه الأمة بعد اليوم اختلاف المذاهب والشيع ، وتفرّق الأهواء بطرق الصوفية ، وتنازع الرئاسات ، فان نور العلم سيعمهم أجمعين ويرون أن هذا التنوّع والاختلاف ليسا فى أصل الدين ، بل هما فى عوارض عرضت عليه من خارجه لا من داخله ، فيلتئمون ويتحدون اتحادا جوهريا ، وان اختلفوا اختلافا عرضيا ، وهم يتقون .

(٢١) ومن جنود الأنوار تلك العلوم التى بها تدرس هذه العوالم المحيطة بالناس فى الأرض وفى السماء فهى هى الرباط الجامع للأمم على وجه الأرض ، ولأمة الاسلام ، وبها لا بغيرها يدرك المسلمون سرّ التسبيح والتحميد والتكبير ، ويفهمون سرّ الأحاديث الواردة فى فضائلها ، والأقاويل الواردة عن الأخيار فى محاسنها ، وكيف تكون سبحان الله ملء الميزان ومنتهى العلم ؟ وكيف يكون التسبيح والتحميد غراس الجنة ؟ وماهذه الرموز والأعاجيب ؟ لن يعرف المسلمون تنزيه الله فى أفعاله الذى يقتضيه التسبيح إلا بادراك بعض أسرار الطبيعة ، فاذا علم المسلم علما ليس بالظن أن القروح والدماميل (فيما تقدم قريبا) وأن الحمى وأمثالها لم تخلق فى الانسان إلا لإسعاده ، ولولم تكن تلك الآلام قضى عليه ، فانه هناك يفهم ماهو التسبيح ، وهناك يفهم كيف كان ذلك التسبيح غراس الجنة ، لأنه لاسعادة فى دنيا ، ولافى آخرة ، إلا بالاطمئنان وادراك الحكمة فى خلق هـذا العالم ، فاذا رأى الانسان أنه محوط بعالم كله تنازع ، وكله مصادمات وأمراض وبلاء وموت وذلّ وهلاك ، فانه لايهنأ له بال ، ولاتستقرّ له حال ، بل هو فى عالم مزعزع الأمن ، لاثقة فيه ، بل عالم كله نقص وشين ، فلاأمان فيه ولاالطمئنان ، وهنا قال ذلك الصالح : (فلأكن أنا صحيح الجسم ، كثير الخيرات ، تغدق علىّ النعم من كل جانب ، ولـكنى أجد الناس حولى يموتون ويمرضون ، والحشرات تموت ، والبهائم والطيور ، وكل لـكل عدوّ ، فانى إذ ذاك لايستقرّ لى قرار . فاذا أدرك العقل أمثال هذه الأسرار التى ظهرت فى هذا الكتاب وفى أمثاله ، فانه يصبح فى نفس هذه الدنيا وقد ابتدأت سعادته ، واليه الاشارة بقوله تعالى : « دعواهم فيها سبحانك اللهم » وصرّح بالحقيقة الناصعة فقال : « وتحيتهم فيها سلام » وفى آية أخرى قال : « إن المتقين فى مقام أمين » وفى أخرى : « سلام قولا من رب رحيم » .

هـذه هى الأسرار التى فى الاسلام ، وفى آية أخرى يقول : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» .

لاسلام ولا أمان إلا بالوقوف على الحقائق كالتى فى هذا التفسير ، ولن يكون سلام فى بلاد الاسلام إلا بجنود الله المجندة المعنوية النورية التى تفتك بجنود الجهـل المخيمة على عقول القرون الاسلامية المتشاكسة فتقطع دابرها ، وتفلّ جموعها ، وتلك الجنود إنما هى الحكمة التى يقذفها الله فى قلوب المصلحين شرقا وغربا ومنهم قرّاء هذا التفسير الذين سيكون منهم ملهمون وهم مفلحون ناصحون اهـ

فلما سمع صاحبى ماقصصته عليـه من تلك الخطرات الخاطرات لذلك الصالح . قال : هذا كلام حسن ، ولـكن من ذا الذى يدّعى أن الله يخاطبه فى زماننا ؟ وكيف تنقل خطابا عن صالح يدّعى ذلك ؟ فقلت : انه لم يقل إلا أنه خيال ، ولـكن هذا الخيال مبنى على العقل . فقال : ولـكن فيه مبالغة فى أمر المسلمين وانهم الآن ارتقوا ارتقاء عظيما . هـذا مايفيده هـذا المقال . فقلت : سترى فى اللطائف الآتيـة فى كلام (لوثروب استودارد) ان الأمم الاسلامية ارتقت اليوم طفرة ، وقد نفضت غبار الـكسل واستيقظت ، وضرب الأمثال ، وأتى بما لاحدّ له من ضروب الحجج فى مقالات متتابعات ستتضح اتضاحا تاما فيما ستراه إن شاء الله تعالى كما

قلته لك . فقال : ولكن ما بالنا نرى بعض الأمم الاوروبية تضغط ضغطا شديدا على المسلمين . فقلت : ألم يتضح لك فى هذا المقال اتضاحا تاما أن ذلك الضغط إنما هو لايقاظ الأمم الاسلامية كما تقدم فى ذلك الخطاب الخيالى ، ألم تعلم أن الجيوش المعنوية النورية العلمية هجمت على قلوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فهذبت وتقحت ، ونبذت الشرور وملأتها بالخيرات .

جيوش النور عمت بلاد الاسلام الآن ، وستقتحم مابقى من حصون الجهالة ، وتفتح المعاقل والقلاع ، وستحتل كل ثكنة ، وكل حصن ، وكل معقل فى بلاد الاسلام ، وماضغط الاوروبيين على أمثال مراكش وتونس والجزائر وطرابلس وغيرها إلا كما تتكاثر الميكروبات فى الجسم ، فيكون دمل فقيح فيصح الجسم أوكما تكون حمى وهى لم تخلق إلا لصحة الجسم ونظافته وسعادته ، لا لإضعافه واهانته ، لاشر فى الأرض إلا لخير كما لم تكن الحمى إلا لصحة البدن (كما تقدم قريبا) وهاهى ذه جيوش النور تغزو القلوب الاسلامية فتصلحها ، وتتبعها جيوش الدول فتغزو الأمم الظالمة أولا بالاعراض عن المعاملة ، ثم تستقل وتعظم بين الأمم أجمعين ، فليس الضغط ولا الظلم الواقع على الأمم الاسلامية إلا أشبه بعمليات جراحية يجعلها الله لها بابا للشفاء كما جعل الحمى والأورام أبوابا لصلاح الجسم ، إن العلم اليوم كشف الحقائق ، إن هذا هو الزمان الذى ظهر فيه معنى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » .

إذا أبيدت أمة من الوجود فذلك لأنها لامعنى لبقائها إلا أن تذل وتخضع كما يموت الانسان اذا لم يصلح للبقاء فى الحياة ، واذا أذلها الأعداء فذلك لتذكيرها فتصلح شأنها .

إن العلوم اليوم قد فتحت أبواب الحقائق على مصراعيها « لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب » وماعرفناه من الحقائق القليلة دلنا على باقيها ، فأى فرق بين الموت وبين الجرح والحمى ، فاذا كان الجرح لاصلاح البدن فهكذا الموت لاصلاح الروح وخلاصها من أدران البدن كما خلص البدن من المؤذيات ، وشفاؤها بزواله كما شفى المريض بخروج الصديد والسم من بدنه بالقرح لأن البدن الضعيف قرح النفس ، وكشفاء الأمة من تفرق شملها ، وتشتت جمعها ، بدخول الأعداء بلادها ، فيكون الرق بلسما لجراحها ، وظلمهم فيها ، وعسفهم لها ، ماهى إلا عمليات جراحية أرادها الله لهم للاصلاح ، وهذه كلها جنود الله عز وجل : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : صف لى جنود النور إتماما لتفسير الآية ؟ فقلت : جنود النور مسموعة ومنظورة ومعقولة ، فكل مخلوق فى أرض أوسماء له صورة تراها العيون ، فتكون فى الخيال ، فيفهمها العقل فتكون علما لأولى الألباب ، وهذه الصور المخلوقة فى السموات والأرض أبدعت بعلم وارادة وقدرة كما هو معلوم ، وللانسان لسان وشفتان وحلق والصوت يتردد بينها ، وله عقل وارادة ومعان فى نفسه ، فهو يخرج تلك المعانى بهيئة أصوات تكون حروفا فكلمات ، فهذه الكلمات تعبر عن هذه الصور كلها وتسمعها الأذن كما رأت العين صور الموجودات ، والعقل يتقبلها على علاتها ، ويبحثها كما يبحث المبصرات ، فهذان جيشان من جيوش النور وهى جيوش الاسماع والابصار ، فكما أخذ النور الصور من الجامد والسائل والغاز فأوصلها إلى العيون هكذا أخذ الهواء الألفاظ التى فيه الواردة من ضغط اللسان والشفتين والحلق وأوصلها إلى الآذان ، وهناك جنود عقلية وهى المعلومات المستنتجات فى العلوم جميعها من رياضية وطبيعية وإلهية ، فكلها جنود عقلية لاحسية ، منيرة ، جيلة ، لاتدع شيئا من الجهالة إلا جعلته كالرميم ، وقد كثرت اليوم فى بلاد الاسلام

وكما رأينا أن المادة تختلف اختلافا فى صورها لاحد لمرآه ، هكذا الصور اللفظية التى أظهرها اللسان وما حوله من الأعضاء لاحد لمداها : تنوع فى المادة وتنوع فى الكلام ، المادة الجميلة برعت وأبدعت فى الافصاح عن مكنون الجمال الالهى وكلامه النفسى الذى لاحرف له ولاصوت ، فالأشجار تحدثنا ، والأزهار تؤنسنا ،

والنجوم

والنجوم تدهشنا ، والجبال تنعشنا ، وكل ذلك آثار لذلك الجمال والكمال ، ما العالم إلا حركات ، فان كان فى الأثير فهو المادة ، وان كان فى الهواء فهو الكلام ، الصور المادية لاتكون إلا بدوران الأفلاك والليل والنهار والصور اللفظية لن تكون إلا بلسان وشفة وحلق ، ويتردد الصوت بالشهيق والزفير بين الحلق والشفتين ، فههنا تنوع ، فحروف ، فكلمات ، فجمل ، فأمثال وخطب ومواعظ على مقتضى تصور العقول .

تفنن فى صور المادة وتفنن فى صور الألفاظ

أحدث الناس بصفاء نفوسهم قصصا وروايات ، وأودعوا فيها حكما وعلما ، تقليدا لتلك الحكمة العالية المبدعة فى المادة جمالا وجمالا ، فجمال المادة لحياة المتعلمين ، وجمال الكلام لهداية الانسان ، للصور المنظورة مالايتناهى من المنفعة والجمال ، أوالسطوة والاذلال ، والصور اللفظية مالاحد له من الهداية والاضلال جنود جرارة : تتردد الشمس فى أبراجها ، والقمر والكواكب فى منازلها ، فتكون صور الموجودات ، ويتردد الصوت بين المخارج كالحاء فى الرحمن الرحيم والحمد ، والعين فى العالمين فى ﴿سورة الفاتحة﴾ ، والغين فى المغضوب عليهم ، والهمزة فى إياك ، والهاء فى الله ، (وهذه حروف حلقية) وبين اللام والدال والميم وغيرها من حروف شفوية أونحوها فتكون تلك الحروف ، وتكون تلك الكلمات : كما يتردد النهار والليل ، والصيف والشتاء ، فتكون تلك المخلوقات .

عجب ! جنود لفظية ، وأخرى نورية ، وثالثة عقلية ، وكلها بالحركات ، واختلافها باختلاف أماكنها ، واتفقت الغايات ، إن للصوت لدولة وصولة كما ان للطبيعة دولة وصولة .

هاهوذا الزمان الذى ظهرت فيه صولة اللسان وجنود الرحمة لأمم الاسلام ، ناموا أجيالا وأجيالا ، وكانوا فى القرون الأخيرة أطفالا وجهالا ، إلا حكماءهم وعلماءهم العظماء الذين كانوا غير آمنين ، أما اليوم فانهم أخذوا يصولون ويجولون ، ويؤلفون وينصحون ، ولقد امتدت صولة القلم النائب عن اللسان بالكتابة وانتشرت الكتب ، وأسرع المسلمون للترحيب بجنود العلم ، جنود النور ، وأخذ المصلحون يضربون لهم الأمثال ، فهبوا من رقدتهم وبعثوا بعثا جديدا من أجداثهم وهم مجدون .

فقال صاحبى : إن هذه المعانى غريبة عن هذا الموضوع ، ولكنها دخلت فيه بهيئة أنها من عناصرها فأرجو أن تبين لى كيف خطرت لك هذه المعانى ؟ وفى أى وقت ؟ فقلت : هذه المعانى خطرت لى أمس (يوم السبت ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٣١ م) فانى كنت فى مزرعتنا بالمرج ، وبينما أنا راجع وقد جرت عادتى أن أكون فى ذهابى وايابى ماشيا على قدمى ، وذلك ربما يبلغ ١٢ كيلو أوأكثر . ويكون الذهاب والاياب فى يوم واحد غالبا ، أوفى يومين إذا بت هنالك ، فبينما أنا راجع إذ نظرت مزرعة (ذرة شامية) فحى وألفيت تحتها حشائش تبلغ الذراع ارتفاعا ، لها زهر جميل ، وقرون طويلة دقيقة ، وذلك الزهر ذولون أبيض ، يميل للزرقة ، ولها قليل من الرائحة العطرية ، وتلك الحشائش تترنح ذات اليمين وذات الشمال ، تحت أعواد الذرة المائسات القدود ، الحمر الشعور ، اللاتى تتدلى على « المطر » وهو الذى يسميه العامة الكوز ، وهو الذى فيه الحب ، فأعجبنى ذلك المنظر ، وكأننى لم أرهذه العجائب إلا ذلك الوقت ، وبينما هذه المناظر آخذة بمجامع عقلى من طريق البصر ، اذا طنين الذباب ، وغرير الأعشاب ، يطربنى من قبل السمع ، فهناك طرب فوق طرب ، والفلاحون يغدون ويروحون حولى ولاهم يفكرون ، فأخذت بعض تلك الحشائش ، وسألت الفلاحين عن اسمها ؟ فقالوا : هذه لم نرها إلا منذ سنتين اثنتين ، ولانعرف لها اسما ، وهنالك تذكرت حادثة حدثت لى أيام أن دخلت مدرسة « دارالعلوم » ، فبينما أنا مع التلامذة فى السنة الاولى ، ولاعهد لى

إلا بالأزهر و الحقول ، وقد أنست بها و بجمالها ، إذا بالمدرسة تصطفى من التلامدة ثلاثة وأنا منهم لنكون مع المرحوم أستاذنا (الشيخ حسن الطويل) فى الاوبرا الخديوية ، لأن الخديوى توفيق باشا سيكون فيها تلك الليلة . وهذه أوّل مرّة رأيت فيها لتمثيل ، فرأيت إذ ذاك عجبا مافوقه عجب ! غيرأنى لاأتصوّره ، ولكن لما عتشت فى نفسى عن الجمال الذى كنت أحسّ به فى الحقول ، وطنين الحشرات ، وتمايل الأغصان ، ومنظر النجوم ، ألفيت أن ذلك التمثيل الطبيعىّ فى الحقول كان أبهر عند نفسى وأجل ، وخيل لى أن هذا رتبته عند نفسى كرتبة الجمال الصناعى بالنسبة للجمال الطبيعىّ ، وصرت أتعجب من نفسى كيف كان ذلك حكمها ، فهذه هى الفكرة التى خطرت لى عند مشاهدة ذلك النبات فى الذرة أمس ضحى ، ثم خطرلى أيضا ماتقدّم من صور المادّة وصور الألفاظ وجنودهما ، وأن الأمم التى لاتهب عقول مصلحيها لإحداث الصور اللفظية لاصلاح شأنها لاحياة لها ، فحمدت الله على ذلك ، وقلت : هاهوذا هذا الكتاب جند من الجنود النورية والحمد لله رب العالمين .

فقال صاحبى : الموضوع طال فهل تسمح لى بتلخيصه ليتصوّره الأذكياء . فقلت نعم :

(١) نحن فى ﴿سورة الفتح﴾ والله قد فتح للنبىّ صلى الله عليه وسلم فتحا مبينا .

(٢) هذا الفتح بجنود انسانية مسلمة .

(٣) ومعلوم أن زمن النبوّة يمضى والباقى إنما هوالدرس والفهم ، فأخذ الله سبحانه يفهم المسلمين ماهى الجنود ؟

(٤) فذكر أن الجند ليس خاصا بالجنود التى ترونها .كلا .

(٥) ففى السموات جنود وفى الأرض جنود .

(٦) ومن جنود الأرض الميكروبات التى تقتحم جسم الانسان فتمرضه أوتهلكه ، وجنود أخرى فى نفس الجسم تطاردها فى كل أطراف مملكة الجسم .

(٧) وهناك تكون قلاع ، وحصون ، وحرب ، وخنادق ، وتعبئة الجنود ، إذن هذه من جنود الله المذكورة ، إذن هذا درس عام لاخاص بزمان النبوّة يدرس على مدى الزمان .

(٨) وهناك قسمت الجنود أربعة أقسام : حسية ومعنوية ، فالحسية لإهلاك الاعداء تارة ، ولابقاء الأولياء تارة أخرى ، وهذا ظاهر فى النمل والجراد والاسود والنمور والسباع والانسان ، ومن الجيوش المعنوية أيضا إصلاح وافساد ، فالاصلاح بالأقوال الجيلة ، والافساد بالقاء الفتن والضلال والافتراء ، فالأولى جنود نورانية ، والثانية جنود ظلمانية .

(٩) وبيان أن هذه الجيوش كلها من صور تحدثها أضواء الكواكب ، فتنطبع فى الأبصار ، فتدركها البصائر فتعقلها وتحدث لها نتائج ، أومن ألفاظ تحدثها الشفتان واللسان والحلق والحنك إلى آخر مافى علم التجويد وفن القراءات ، أومن نفس العقل واستنتاجه ، فهذه كلها جنود مبصرات أومسموعات أومعقولات .

(١٠) وأن الأمم الاسلامية اليوم قد أمدّها الله بجنود نورية ، منشؤها العقل ، ومصوّرها اللسان والشفتان الخ .

(١١) وينوب عنها الكتب المنشورة اليوم فى بلاد الاسلام التى أقسم الله بها فقال : «ورق منشور»

(١٢) وهذه الجنود النورية بعثها الله فى بلاد الاسلام لتطهرها بما يشبه العمليات الجراحية فى أجسام الانسان . وذلك بعض الأمم عليهم وظلمهم ؛ فهذه الجنود العلمية أشبه بالميكروبات فى جسم الانسان الواحد التى تسطو على الميكروبات القاتلة فتغلبها وتطردها من الجسم على هيئة

قبيح وصديد ، وذلك هو الحاصل الآن فى بلاد الاسلام ، فان العلم المنتشر اليوم فيها يطرد عدوّين : عدوّا معنويا ظلمانيا وهى الخرافات والجهالات والضلالات ، وعدوّا حسيا جرمانيا ماديا وهم الأمم الاوروبية ، وهذه الأمم لن تبقى فى أمة ظهر فيها نور العرفان .

(١٣) ولما سألتك عن هذه المعانى الأخيرة متى خطرت لك ؟ ذكرت لى أنها خطرت لك لما كنت راجعا من مزرعتكم وأنت متوجه إلى المرج ، وانك إذ ذاك أبهجك منظر الحشائش التى لم تعرف لها اسما تحت الترة ، ووازنت بين ابتهاجك بمناظر الطبيعة ومناظر الصور المتحركة ، وذكرت حادثتك فى ذلك أيام دخول « دار العلوم » .

هذا مجمل ما تقدم . فقلت : لله درّك ، لقد لخصت فأجدت وأحسنت . فقال الحمد لله رب العالمين ، ثم قال لى : ولكن لايزال لهذا المقام بقايا . فقلت : وماهى . فقال : إن الجنود النورية يعوزها إيضاح أتمّ ، وعلم أجل ، وحكمة أعمّ . فقلت : إن الجنود النورية على قسمين : أولهما الجنود النورية الحسية ، وثانيهما الجنود النورية العقلية ، والقسم الثانى أحقّ باسم الجنود من القسم الأوّل . فقال : حدّثنى رعاك الله عنهما ؟ فقلت : لأقدّم مقدّمة فأقول :

الناس أضياف ربهم فى هذه المادة يحرسهم بجنوده

فقال : إن هذا العنوان غريب جمع بين الضيافة والحراسة بالجنود ! فقلت إن لهذا سببا . إنى أمس فى ليلة السبت التى هى آخر شهر اكتوبر سنة ١٩٣١ كنت فى مزرعتنا وقد جرى حديث الضيافة وجاء حديث حاتم الطائى مع مخطوبته (ماويه بنت عفزر) وهى من بنات ملوك اليمن ومعه النبتى والنابغة ، فهؤلاء الثلاثة لما خطبوها لأنفسهم قالت لهم : سأتزوج أكرمكم وأشعركم ، فانصرفوا ثم لبست ملابس عجوز ومرّت عليهم فى ديارهم ، وكل منهم قد ذبح ناقة له ، وأخذت تستجديهم ، فأعطاها حاتم أحسن ما فى الناقة وأعطاها الآخران ذيلى الناقتين ، فلما حضر الثلاثة عندها بعد ثلاثة أيام ، وأتوا لها بالهدايا ، ووضعت الطعام أمامهم ، وجد كل منهم أن ما أمامه هو الذى أعطاه لامرأة شمطاء (هى نفسها) فخجل الرجلان من فعلهما فأما حاتم فانه رمى ما أمامهما من الطعام وأعطاهما مما أمامه ، وقال كل منهما شعره قبل الطعام ، وكان شعر حاتم الأبيات المشهورة وهى :

أماويّ ان المال غاد ورائح * ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماويّ إنى لا أقول لسائل * اذا جاء يوما حلّ فى مالى النذر
أماويّ ان يصبح صداى بقفرة * من الأرض لاماء لدىّ ولا خمر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضرّنى * وأن يدى مما بخلت به صفر
لقد علم الأقوام لو أن حاتما * أراد ثراء المال كان له وفر

فأما أشعار الآخرين فانها كانت كلها فخرا على هذا النحو ، وما فرغ من الطعام حتى [illegible] الرجلان وبقى حاتم وتزوّجها . انتهت الحكاية فى المسامرة ليلة أمس .

انتقال نفسى بعد ذلك الى الضيافة الإلهية

وما أتممت هذه المسامرة حتى أخذت نفسى تفكر فى هذه الدنيا : الله أكبر : طلعت [illegible] أمام القرية عند مزرعتنا والقمر فى السماء ، وهنالك طار لى وقات فى نفسى : عجائب بنا ! الناس يفرحون [illegible] ويثنون رب الدار اذا قدّم لهم طعاما ، وقدّم لهم [illegible] ، ومنحهم فراشا ، و [illegible] أعينهم عن كل جمال

فى الارض وبهاء ونعمة ، وينسون الجمال العام فى الارض والسموات ، وهم غافلون ساهون لاهون عن رب دارهم الكبرى ، وقناديله المعلقة فى السماء ، وأصناف الأشجار والأزهار والأنهار والبحار الواسعات ، حقا « إن الانسان لظلوم كفار » .

يمدح رجلا أجلسه فى دار ضيقة محصورة ، وأعطاه بعض طعام وغطاء ، وقد جهل الدار الواسعة ، وهى الأرض والغطاء الأكبر وهو السماء ، والمائدة الواسعة ، وهى هذه المزارع والأشجار والأزهار ذات الرائحة العطرية الجميلة المنظر ، والأنعام ، والقناديل المضيئة ، المشرقة ليلا ونهارا ، فياليت شعرى أين الثريا وأين الفانوس وأين الشمعة ، اللهم إنك حبست هذه الأرواح فى الأجسام ففغلت عن جمالك .

الجنود صنفان ، ولاحصر لأفرادها

ولئن كان لرب الدار خدم وحشم وحراس ، فهم قوم محصورون ، ولكن للدار الواسعة ، وهى هذه الدنيا حراس لاحصر لهم ، وهم قسمان : قسم هى الأنوار المشرقات المحسوسات ، ذات البهجة والأنوار ، وقسم هى العقول الكبيرة والصغيرة ، وأنواع الالهام والغرائز .

عجبا يا ربنا ! أرضنا فيها أنوار جزئية : فى شمع العسل ، والبترول ، والغاز المستخرج من الفحم ، وأنوار الزيت المستخرج من الزيتون ، وبذرة القطن ، والسمسم ، والقرطم وأضرابها ، وأنوار الكهرباء .

سبحانك اللهم وبحمدك : ماهذه الأنوار ؟ هى لنا هداية ، لولاها لكنا فى الأرض عميانا لانرى شيئا ، فهذه الأنوار جنودك الهادية لنا بمساعدة أبصارنا لطرقنا وأعمالنا ، وهذه الجنود لاحصر لها ولها قائد أعظم وهى الشمس ، لولا الشمس لم يكن شمع العسل ، إذ لولاها لم يكن مطر ولاسحاب ولا رياح ، فلانبات يحمل زهرا ، ولانحل يشتار منه العسل فيأكله فيصير عسلا ، ولولاها لم يكن زيت يستخرج منه القرطم والسمسم والزيتون ، إذ لاشجر فلازيت ، ولولاها لم يكن غاز الاستصباح الذى خزن منذ مئات الالوف من السنين ، خزنته الشمس فى الأشجار بأشعتها فاستخرجه الناس الآن .

الله أكبر : الشمس قائد ، وجميع الأنوار على الأرض جنود ، للشمس ضوء فيه سبعة أضواء : وهى الأحمر والبرتقالى والأصفر والأخضر والأزرق والنيلى والبنفسجى ، وهذه كلها تصبح لونا واحدا ، وهو النور المعروف ، وهذه الألوان بعينها نراها فى جميع أنوارنا التى نوقدها .

الله أكبر : الجنود الحسية التى تكفل هدايتنا فى الحياة الدنيا وهى الأنوار مشتقة من قائدها الأعظم وهى الشمس ، وهذا الصنف من الجنود مثال لما هو أعلى منه وهى :

الجنود المعنوية العقلية

جل الله : أبان لنا جنودا نراها بأعيننا ، وأظهر لنا أنها مشتقات من قائدها الأعظم ، ثم وهب لنا عقولا وهى الجديرة باسم الجنود ، هى التى تستحق الاعظام والاجلال ، فلئن هدتنا الأنوار إلى سبل الحياة فما ذلك إلا بواسطة عيوننا ، وهل لعيوننا عمل إذا لم تكن لنا نفوس وعقول ! كل انسان ، وكل حيوان له عقول تدبرها ، وتقوم بأودها ، وتصون حياتها ، وتحفظ كيانها . فللنملة عقل ، وللناموسة ، وللصرصار ، بل للخلية الواحدة من خلايا الجسم ، وللخلايا الأولية التى تعيش فى الماء الآسن ، ولايفنيها إلا أن ينقطع عنها الغذاء ، أو يأكلها الأعداء ، فكل هذه لها عقول على مقدار ماتحتاجه . قال الشاعر :

سقى الله أرضا يعلم الضب أنها ✽ بعيد عن الآفات طيبة البقل
بنى بيته فيها على رأس قنة ✽ وكل امرئ فى حرفة العيش ذو عقل

هـذا قول العربى الجاهلى ، وهونفس ما قرّره علماء النفس فى عصرنا الحاضر إذ قالوا : « كل قوّة إدراكية فى حيوان أيا كان فهى عقل ، سواء أكان ذلك الحيوان انسانا أم حشرات ، أم طيرا ، أم ميكروبا » كل ذلك يسمى عقلا ، وهـذا الاطلاق نفسه قاله الشيخ الخوّاص ، ونعّد على الناس فى جهلهم أن للحيوان عقولا ، إذن الصوفية المسلمون نطقوا قديما بما أتى به العلم الحديث .

الله أكبر : هـذه العقول الانسانية ، والعقول الحيوانية ، التى لايحصرها العدّ ، ولايحيط بها حدّ ، هى هى جنود الله فى أرضنا ، جنود وأىّ جنود ، جنود تهندس المبانى والمساكن والقلاع والحصون ، جنود تهندس أقراص العسل ، وتظهر نسج العنكبوت ، وآجام الآساد ، وأعشاش الطيور ، وحيل الثعالب ، وكرّها وفرّها ، وحيلها فى جلب قوتها ، وتدبير الحرب والضرب ، فى حروب النمل ، وترتيب الجيوش النملية ، وبناء المدائن المتقنة لحشرة الأرضة .

الله أكبر : هذه جنود الله ، اللهم أنت الحكيم ، أنت العليم ، خلقت هذه الجنود العقلية فينا نحن بنى آدم وحيواناتنا ودوابنا .

جنود العقول الانسانية والحيوانية

ومايوازيها من جنود الأنوار السماوية

لك يا ألله جنود عقولنا ، وعقول الحيوانات فى أرضنا ، أنت هديتها بادراكها بواسطة عيونها الناظرات بأضواء الكواكب ، وأضواء السرج الأرضية ، عقول جزئية ، أوجنود أرضية ، استخرجت الأنوار الأرضية فاستعملتها ، استخرج الانسان من الشمع نورا ، ومن الغاز المستخرج من الفحم ضوءا ، وهكذا من البترول والكهرباء . جنود عاقلة استعانت بجنود محبوسة وهى التى استخرجتها . يا ألله عجب لنا ! تحيط بنا أنوار الشمس ونحن لانحمد عليها ، فهى منسية ، فأخذت تذكرنا بالظلام ؟ وتحكم علينا أن نستخرج من الأرض نورا نستضىء به ، عقولنا اضطرّت لاستخراج النور من موادّ الأرض ، جزئىّ استخرج جزئيا ، وهـذه الأضواء مشتقات من أضواء الشمس ، أضواء الشمس مركبة من ألوان سبعة ، وهذه مثلها ، لولا الشمس لم تكن أنوارهذه الموادّ الأرضية ، لأنها سببها .

الاستدلال بالعقول الأرضية الجزئية على العقول الكلية السماوية

وهل يجوز فى العقول الانسانية أن يستند الضوء الجزئى إلى ضوء كلى ويكون مشتقا منه ؟ (أى ان أضواء القناديل الأرضية مشتقات من ضوء الشمس فى السماء) ثم يكون الضوء المعنوى العقلى مستقلا غير مشتق من عقل أكبر منه ، وهل تكون هناك شمس هى أصل لأنواع الأضواء الأرضية المحسوسة ، ثم لاتكون هناك عقول كلية منها تستمدّ هذه العقول الصغيرة علومها وإلهاماتها ، هذا لا يكون ، قضى العقل أن للعقول الأرضية حيوانية وانسانية عقولا أكبر منها هى مناط استمدادها ، ومباءة آرائها ، ونسبة عقولنا إلى تلك العقول الكلية كنسبة ضوء المصباح إلى الشمس ، ونسبة آراء عقولنا إلى آراء تلك العقول الكبيرة كنسبة ضياء الشمعة إلى ضياء الشمس .

هذا برهان صادق لاخطأ فيه ، يرجع للقضايا البديهية ، والمعلومات الأوّلية ، غاية الامر أن النوع الانسانى اليوم نوع حيوانى ، غافل عن هذه الامور العالية ، جاهل بما حوله ، اللهم إلا انه غارق فى الامور العملية ، كأن يطير فى الجوّ ، ويهلك المدن ، ويخرّب البلاد ، الناس اليوم فى أرضنا أطفال جهال ، عيونهم مقفلة ، لايحسون بما حولهم ، إن عناصر عقولنا هى عناصر العقول الكبيرة ، كما أن عناصر الضوء فى الكهرباء والبترول هى نفس عناصر ضوء الشمس ، وهى الألوان السبعة . واذا كان فى ضوء البترول السبعة الألوان

المعروفة ، ونظيره ضوء الشمس الذى هو أصله ، فهكذا عقولنا فيها ذاكرة وحافظة ومفكرة وخيال وحس مشترك وهكذا ، فهذه كلها عناصر عقولنا تحلل إليها وترجع لها بعد تحليلها ، هكذا تلك العقول الكبيرة ، لابد أنها تكون لها ذاكرة وحافظة الخ منها استمدت عقولنا هذه العناصر ، ويختلف الأكبر والأصغر فى عناصرهما بحسب صغرهما وكبرهما ونوع علمهما وأحوالهما ، وماهذا إلا مجرد تشبيه لايطبق تطبيقا تاما ، لأننا نجهل أحوال الأرواح المجردة .

النتيجة صادقة لمقدمات أولية محسوسة

إن المقدمات محسوسة ، فضوء الشمس ، وضوء نحو البترول نراهما ونحللهما ، وعقولنا وعناصرها التى منها تكونت نحس بها ، فهذه أشبه بمقدمات منطقية اثنتان محسوستان وواحدة معقولة بالوجدان ولم يبق إلا الرابع وهو نتيجة الثلاثة ، وما ذلك الرابع إلا العقول الكبيرة ، فاذا كانت عقولنا لاتنتفع بضوء أرضى إلا اذا استخرجته بفطنتها ، وماتستخرجه تنتفع به ، هكذا تلك العقول الكبيرة التى منها اشتقت عقولنا تدبر حركات الشموس فى عالم الأثير حتى تستكمل وتقوى وتضىء وهى التى تسخرها باذن الله فى إيجاد ما أراده الله فى هذه العوالم الأرضية بالحركات المنظمات ، كما اننا نحن نصنع طعامنا مثلا على ضوء الكهرباء والبترول الخ .

عقول كبيرة تنشىء شموسا كبيرة ، وعقول صغيرة تصنع منازل ومآكل وشمعا وعسلا ونسيج عنكبوت ، عقول كبيرة تنتج عقولا صغيرة ، فالأولى للسموات ، والثانية لأهل الأرض ، شموس عظيمة مصنوعة ومدارة بواسطة تلك العقول الكبيرة تشتق منها أجسام نورية أرضية لأعمال صغيرة أرضية ، أضواء الشموس الكبيرة مشابهة لأضواء المواد الأرضية المضيئة ، عقولنا الصغيرة عرفنا عناصرها ومم ركبت ، فهكذا يجب أن نقول فى العقول الكبيرة التى تدبر الشموس ، إن عقولنا على منوالها والاختلاف غالبا يكون بالكم ، كما ان الاختلاف كذلك فى ضوء الشمس وضوء البترول .

نتيجة هذا القول تفسير آية : ولله جنود السموات والأرض

وآيات كثيرة فى القرآن

بهذا وبهذا وحده نفهم : « ولله جنود السموات والأرض » . الله أكبر : عطف جنود الأرض على جنود السموات ، لأن الثوانى مشتقات من الأوائل ، بالله إنى فى أثناء هذه المباحث العقلية ما كان ليخيل لى ان فى هذا العطف سره العجيب ، قدم الله جنود السموات على جنود الأرض ليفتح لنا بذلك بابا كان مغلقا على أكثر الناس : ولكن أكثر الناس لايعلمون .

جنود الارض مشتقات من جنود السماء ، لذلك قدم المشتق منه على المشتق ، وهذه عجائب من أسرار القرآن : فلله جنود فى السموات ، وهى التى نسميها ملائكة ، نعم علماء الأرواح قالوا نفس هذا القول ، وتقدم ما نقلته فى هذا التفسير مرارا أن الاستاذ (أوليفرلودج) يقول : « إن هنا عوالم روحية تحيط بنا نسبتنا إليها كنسبة عقول النمل إلى عقولنا ، وهى تهتم بأمرنا ، وهى تحافظ علينا » .

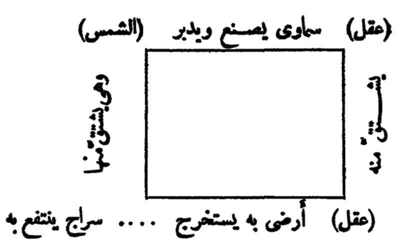
إيه أيها المسلمون ، إيه أيها المسلمون ، هذا هو كتاب ربكم ، كتاب ربكم نفس العلم الحديث ، إذن هذا القرآن جاء لأمم بعدنا ، نعم هو كلام الله ، وكلام الله أنزل لعباده المساكين فى الارض ، أليس من عجب أن يقول هذا القول علماء الارواح فى زماننا ، ثم يقوم البرهان الحسى الذى ذكرناه عليه ، نراه فى نفس

القرآن

القرآن ، نسمع الله يقول لنا : أنا لى جنود فى السموات ولى جنود فى الأرض ، فيأخذها أكثر من قبلنا أخذا مجرّدا من البحث ، ومن عرف من آبائنا منها شيئا كتمه خوفا من العامّة .

هاهوذا أيها المسلمون وضح الدين ، القرآن نزل لنفهم ماحولنا ومايحيط بنا والحمد لله رب العالمين .

فقال صاحبي : إن أصل سؤالى لك إنما كان موجها لايضاح الأنواع الحسية والمعنوية ، فكيف حضرت هذه البراهين فى ذهنك ، وهل كانت هذه فى ذاكرتك ؟ فقلت نعم . فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت : إن أمرنا لعجب ! لم تسألنى سؤالا إلا كان جوابه منظما فى نفسى قبل أن تسألنى ، فكأن هناك بين روحى وروحك وسائل أو رسائل بهاتعلم روحى ماستوجهه أنت إليها ، فترتب السؤال والجواب أوّلا ، حتى اذاسألتنى كان العلم حاضرا فى النفس . قال : أنا لا أفهم هذا ؟ فقلت : أريد بهذا القول أنك قبل أن تسألنى مثلا فى هذه المرّة كنت متوجها إلى ناحية الأزهر ، ونفس هذا المسائل كنت كأنى أطالعها أمامى فى صحيفة وكأنى أقرؤها فيها ، أنا أمشى والناس حولى ، ولكن هذه للعانى وأنا فى شوارع القاهرة كانت أمام مخيلتى ، وهذه صورتها :



هذا ملخص مامضى كله ، كنت كأنى أطالعه فى صحيفة أمامى ، فلما سألتنى أخذت أكتب لك ماطالعته هذه هى الحقيقة ، وليست هذه الصحيفة أمام عينى ، بل هى فى مخيلتى ، ومتى كتبت ماطالعت ووضعته فى الورق تذهب تلك الصحيفة من خيالى ولارجعة لها بل أنساها ، واذا أردت استرجاعها صعب علىّ ذلك .

فياليت شعرى : ماهذه المعانى ، وماهذه الصحيفة إلا أنها من عوالم تحيط بنا ونفوسنا متصلة بها وهى التى رسمت لنا هذه الخطط ، غاية الأمر أنها لاتعطى العلوم إلا على مقدار استعداد الأشخاص والأمم ، وماتعطيه لنا من العلم الآن قد استعدّت له أممنا الحالية ، وعقولنا الانسانية ، وبها فهمنا آية : « ولله جنود السموات والأرض » وقد قسمنا الجنود إلى مهلكة ومحيية ، ولاجرم أن قوله فى الآية الأولى : « وكان الله عليما حكيما » إنما كان ذلك عند ذكر جنود المؤمنين المجاهدين ، ولكن لما قال : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما » كما قدّمنا كانت العزة مناسبة لجنود النارالتى أعدّت للتعذيب ، إذن التقسيم الذى قسمناه للجنود من مقاصد القرآن ، فنفس الآية لوّحت لقسمى الجنود ، فجرد ذكرت معها العزة ، وجنود لم تذكر معها بل ذكر العلم ، وهذا المقام به نفهم : « والمدبرات أمرا » ونفهم : « وإنّ عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ماتفعلون » ، ونفهم : « ان كل نفس لما عليها حافظ » ، ونفهم : « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ، ونفهم : « فالمقسمات أمرا » ، ونفهم كيف أمرنا أن نؤمن بالله وملائكته إلى آخره ، ونفهم : « إنّ الله وملائكته يصلون على النبىّ » ، ونفهم : « شهد الله أنه لاإله إلا هو

والملائكة وأولوا العلم » فعطف أولى العلم على الملائكة لأنهم كالمختصرين منهم ، وهذا عجب ! أن يكون ما ذكرناه هنا (من العقول الكبيرة السماوية والعقول الصغيرة الأرضية إنما هى آثار العناية الربانية والله معلم الملائكة وهؤلاء يفيضون الالهام والعلم على الناس والحيوان بأمر ربهم ، فالله عام العلم ، والملك يتلقى منه الخ) هوالذى جمعته الآية فى ثلاث كلمات .

ملخص ماتقدم وما يبنى عليه

(١) الله أكبر : فى الجسم جنود هى الميكروبات السامة الداخلة فيه ، والخلايا التى فى الجسم المدافعة عنه ، فهذان صفان من الجنود : جند مهاجم ، وجند مدافع .

(٢) وفى العالم المشاهد مثل مافى الجسم جنود مسلمة تحارب جنودا كافرة .

(٣) فى العالم كله عوامل الحدوث ، وعوامل الفناء ، فهما جندان كجندى الجسم وجندى الانسان .

(٤) ورد أن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأن مايصل إلى القلب إما لمة من الشيطان واما إلهام من الملك . إذن هما جيشان أيضا مرسلان للنفوس كالجيشين المرسلين للأجسام ، فاذا جاء الشرع بالنوع الأوّل فقد جاء علم الطب بالثانى أشبه بضرب مثل للأوّل .

(٥) جيشا النور والظلمة ، والحرّ والبرد ، كل يعقب الآخر ويناظره كجيوش الجسم المحسوسة وماتبعها

(٦) جنود النور الكبرى من الكواكب وجنود النورالصغرى التى يصنعها الانسان فيما تقدّم كجنود العقول الكبرى وهى الملائكة وجنود عقول الانسان والحيوان فى الأرض .

هذا ما فتح الله به فى فهم قوله تعالى : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » . وقوله : ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما . كتب بعد فجر يوم الثلاثاء ٣ نوفمبر سنة ١٩٣١

***

لما اطلع على ماتقدّم صديقى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . قال : لقد اطلعت على حديث للمهاتما غاندى ، فوجدت به مايشبه أن يكون ذيلا لهذا المقام ، فانه ذكر أمرين : حبا وخوفا ، ولينا وشدّة ، وجعلهما محوركلامه ، أفلانلحق هذه الصفات بالجنود . فقلت : حدّثنى بما قاله غاندى . فقال هاك ماجاء فى جريدة الاهرام بتاريخ ١٧ اكتوبر سنة ١٩٣١ م وهذا نصه :

غاندى يصف رحلته

فى المياه المصرية

المقاومة بلاعنف

قال المهاتما غاندى فى مقالة نشرتها له جريدة الهند الفتاة مايأتى : « من محاسن الصدف أن الحديث بعد صلاة المساء دارعلى مسألة « المقاومة من غير عنف » وأتيح لأصدقائنا المصريين الذين ركبوا الباخرة من السويس فرصة سماع شىء عن هذا الموضوع ، ولاأرى بأسا فى إعادة بعض ماقلته بهذه المناسبة : اننا بأعمالنا اليومية نقاوم بعضنا بعضا من غير عنف ، وقد نفعل ذلك بعلم منا أو بغير علم ، وكل الجمعيات الصالحة قائمة على قاعدة اجتناب العنف ، وقد تبين لى أن الحياة منزّدة الوجدان على الرغم من انها محوطة بعوامل الهدم والهلاك ، وهذا دليل على وجود ناموس أسمى من ناموس الهدم والتدمير ، ولا يمكن لجمعية حسنة النظام أن تكون قريبة من الفهم إلا اذا كانت تحت ذلك الناموس ومن غيره لاقيمة للحياة ، فان كان هذا هوناموس الحياة كان حتما علينا أن نطبقه على حياتنا اليومية ، فحيثما تقع الاحتكاكات ، وحيثما نلتقى

بخصم ، علينا أن نغلبه بالتي هي أحسن ، وبهذه الكيفية الساذجة طبقت هذا الناموس على حياتي ، ولست أعنى أن جميع مشاكلى قد حلت ، ولكنى وجدت أن ناموس المحبة قد أدّى إلى تحقيق الغاية بطريقة لن تتاح بناموس الهدم والعداء . وقد قمنا فى الهند بتطبيق هذا الناموس عيانا فى أعظم مجال مستطاع ، ولست أدّعى أن روح اجتناب العنف قد دبت فى قلوب ثلثمائة مليون نفس من سكان الهنـد ، ولكنى أدّعى انها تغلغلت فى النفوس أكثر من أية رسالة أودعوة وفى وقت وجيز لايكاد يصدّق ، ولم نكن كلنا نحن الهنود سواسية فى اعتناق هذا المذهب ، بل كان لدى أغلبية كبيرة بمثابة ضرب من ضروب السياسة ، ومع هذا أودّ منكم أن تبينوا هل لم تتقدم الهند تقدما عجيبا ظاهرا تحت حماية « المقاومة من غير عنف » ونفوذها العظيم الشان ؟ »

وقلت ردّا على سؤال آخر : « إن الحصول على حالة عقلية للتمسك بمذهب المقاومة من غـير عنف يتطلب الشيء الكثير من العناء والتدريب ، ويجب أن يكون بمثابة نظام نسيرعليه فى حياتنا اليومية وان كنا لانجد من نفسنا رغبـة فيه فنقضى حياة كحياة الجندى ، ولكنى أوافق على رأى القائلين : انه ان لم يكن اعتناق هذا المذهب من صميم القلب والعقيدة التامة كان أشبه بقناع خارجى يضرّ بصاحبه وبالآخرين أيضا ، ولا يصل المرء إلى مرحلة الكمال فى هذا المبدأ إلامتى خضع له جسما وعقلا ، وسار بموجبه قولا وفعلا ، ولكن المسألة هى دائما مسألة كفاح عقلى عظيم ، ليس لأنى غير مطبوع على الغضب ولكنى أنجح فى كل مرّة تقريبا أن أملك نفسى وأضبط عواطفى ، ومهما تكن النتيجة فانى أشعر على الدوام بكفاح يتنازعنى لاتباع مبدأ اجتناب العنف بمحض إرادتى و بلا انقطاع ، وهذا النضال يزيد المرء قوّة للظفر ، فالمقاومة من من غير عنف سلاح القوى ، أما الضعيف اذا لجأ إليها كانت لديه بمثابة رياء ، فالخوف والمحبة على طرفى نقيض فالمحبة لاتبالى عند ماتعطى ، ولاتدقق فيما تأخذ بدلا من العطاء ، المحبة تـكافح العالم كما تـكافح نفسها وفى النهاية تصـير صاحبة السيادة على كل شعور ، وقد دلنى الاختبار اليومى كما دلّ المشتغلين معى أن كل مسألة يمكن أن تحلّ اذا اعتزمنا أن نجعل ناموس الحقّ واجتناب العنف همـا فى نظرى وحبها عملة واحدة (كذا) أما اذا كان الجنس البشرى يتبع ناموس المحبة من حيث يدرى فلست أدرى ، ولـكن هذا لايجب أن يشغل بالنا ، فهـذا الناموس يسرى كناموس الجاذبية ، سواء أقبلناه أم لم نقبله ، ومثلما يستطيع المتبحر فى العلوم أن يأتى بالعجائب بتطبيق الناموس الطبيعىّ من عدّة وجوه ، كذلك الرجل الذى يطبق ناموس المحبـة بدقة علمية يمكنه أن يأتى بعجائب أعظم ، لأن قوى المحبـة واجتناب العنف هى أعجب كثيرا وأدهى من قوى الطبيعة كالكهرباء مثلا ، فالرجل الذى اكتشف المحبة وأرشدنا إليها هو فى مذهبى أعظم من أعظم العلماء . على أن استكشافنا فيها لم يبلغ المدى الكافى ليتسنى للجميع أن يشهدوا مفعولها ومبلغ تأثيرها ، هذا على كل حال هو الهـذيان ، أو الهوس الذى أعمل مدفوعا به ، ولـكنى أصرّح انى كلما توغلت فى تطبيق هـذا الناموس ازداد شعورى بمباهج الحياة ، ومباهج . شروع هذا الـكون الأعظم ، وهو يعطيني سلاما وطمأنينة و يفسر لى خفايا الطبيعة بكيفية لايسعنى وصفها انتهى

فلما أتمّ حديثه . قلت له : أما الشدة واللين ، والحب والخوف ، فانها من جنود الله ، لأنها من الجنود المعنوية وهى داخلة فيما تقدم . فقال : أنا إلى الآن لم أفهم مامعنى قول غاندى :

(١) إن الحياة مطردة الوجـدان على الرغم من أنها محوطة بعوامل الهـدم والهلاك ، ثم يقول : إن الجمعيات يجب عليها أن تسعى لنيل هذه الغاية ، فـكيف يكون هـدم بجنود الاهلاك ، ثم يكون الحب سائدا ، فأين هذا الحب إذن فى هذه الدنيا ؟

(٢) وكيف يقول ان الحب له السيادة فى العلم مع ان العالم كله شقاء وهلاك وتدمير الخ .

(٣) ثم كيف يقول : إن ناموس المحبة يعطيني سلاما وطمأنينة ويفسر لي خفايا الطبيعة ، فما هذا التفسير؟ والطبيعة كلها شرّ وبلاء . وأنا اذا سألتك عن هذا فما خرجت عن منطوق الآية ، لأن الآية فيها أن لله جنود السموات والأرض ، ومن جنوده هـذه الجنود المهلكة التي يقولها غاندى ، فأين الحب السائد إذن في الأرض ؟ ولاحب ولاسلام ولاأمان في الأرض .

فقلت : قبل أن أجيب عن أسئلتك الثلاثة أشرح نقطة هامّة : وهي الحب والخوف ، وهـذا عجب أن ينطق بها عالم بوذى لم يدرس الاسلام حقّ دراسته ، ورد في الآثار : « نعم العبـد صهيب ، لولم يخف الله لم يعصه » أى ان صهيبا رجل محبّ لله ، فهو يعبده حبا له ، لاخوفا منه ، والعبادة الصادرة عن محبة للمعبود هي الجديرة أن تسمى عبادة ، والمحبون أرقى من الخائفين ، قال تعالى : « يحبهم ويحبونه » ، فالحب هو السعادة الحقيقية ، أما الخوف فانما يجاء به لمن لايفقهون الجمال في هذا الوجود ، فهم يخوّفون من العقاب والألم ان لم يكن فيها حكماء عاشقون لصانع العالم ، مغرمون برقيّ عباده ، فانها تكون آيلة للسقوط ، فالحب الذي يشرحه غاندى هو أصل من الاصول العالية في الاسلام . هذا ما أردت ذكره أولا :

(١) أما الجواب عن السؤال الأول فأقول : إن الانسان بنظره إلى هـذا العالم نظرا سطحيا يراه كله هدما واهلاكا وتبديدا وقتلا وحربا وخسفا وزلزلة الخ هذا بحسب مايظهرلنا ، ولـكن المفكرون هم الذين يعقلون الحب العام ، ولن يتسنى لامرئ أن يعرف الحب العام إلا بدرس الطبيعة دراسة تامة ، فهنالك هنالك يعرف أن هـذا العالم كله أشبه بجسم واحد وفيه كرات لايحصرها العدّ ، وهي كلها في تغير مستمر وحركة متصلة ، تدار بجنود لانراها كما تدار أجسامنا بأرواحنا ، فالاحتراق في أجسامنا وتبدّل صفاتنا رقيّ لأرواحنا كما ان تقلب عوامل العوالم كلها رقيّ لنفوس تدبرها ، ونفس الاهلاك والتدمير مقدّمة للتجديد ، وكل ذلك ارتقاء للنفوس المدبرات العاملات بالحب والعشق لاالخوف وحده ، وهذا العالم كله تتخلله جاذبية من أقصاه إلى أقصاه ، فهي أشبه برسول المحبة ، أوعامل من عواملها

(٢) أما جواب السؤال الثاني ، وهو أن الحب له السيادة في العالم مع ان العالم كله تدمير فانه مترتب على جواب السؤال الأوّل وظاهر منه .

(٣) أما الجواب عن سؤالك الثالث ، وهو أن ناموس المحبـة يعطى سلاما وطمأنينة ويفسر لي خفايا الطبيعة ، فهل بعد مابينته لك بيان ، أليس ماذكرته من الاجمال في الحب العام ينطبق على جميع الطبيعة : شمس يتبعها سيارات تجرى وراءها أقمار ، أليس ذلك كله محبة ؟ هل الأرض تجرى حول الشمس إلا بما نسميه جاذبية ؟ أليست أشبه بأثر من آثار المحبة ، فالعوالم والكواكب متجاذبة مرتبطة ، وأيّ حبّ بعد هذا ! فاذا اضمحلّ نبات أوحيوان فان ذلك للمحبة أيضا ، فاذا كان نبات ينفع بورقه أو بثمره الخ ثم يحلل إلى عناصره ويرجع إلى المعمل العام في الأرض فيكون خلقا آخر ينتفع به الانسان والحيوان ، فانه لولا المحبة الدائمة السائدة في العالم لبقى الهشيم على حاله لم يحلل فلم يكن خلقا آخر فلاتكون الفائدة ، فتكرار الهـدم والتجديد تكرار للمنافع ، والهدم والتخريب تابعان لحركة العامّة ، والحركة لاتكون إلا بالشوق ، والشوق مصاحب للحب ، فالعالم كله في حركة ، والحركة للجاذبية ، والجاذبية محبة ، وبالحركات تتجدد الثمرات ، فالحب هو نظام العالم والحمد لله رب العالمين . كتب ظهر يوم الخميس ٥ نوفمبر سنة ١٩٣١ م

فقال صاحبي ، هـذا حسن وواضح ، وبقى عندى سؤال واحد ، وعوانه اذا كانت المحبة من جنود الله التي في السموات والأرض والخوف نقيضها وهم . ينقسمان القلوب ، فقلوب العامّة للخوف ، والخاصـة للمحبة . وهذان الجندان بهما انتظام العالم ، فهذا صار واضحا ، ولـكنى أريد أن أفهم موازنة المهاتما غاندى بين المحبـة في النوع الانساني وبين الجاذبية في الذرات ، وأن الذرات المادّية أطاعت ربها ، وأن الانسان

قد عصيه ، فكيف يكون هـذا ؟ فقلت : إن النوع الانسانى مفطور على صفات كثيرة ، ومنها صـفة المحبة والغرام بالاجتماع ، والعطف العام غريزة كامنة فيـه ، انك ترى الذرة الواحدة التى لاتراها قد أجمع العلماء قاطبة على أنها مركبة من نقط كهربائية بعدد معلوم (تقدم شرحه فى سورة النور عند آية : الله نورالسموات والأرض) سالبها يدور حول موجبها فى الثانية الواحدة (٦) آلاف مليون مليون مرة ، ولاجرم أن سرعة الحركة وانطلاقها ، وعـدم توقفها ، ودوام ذلك النظام أبدا وأمدا سرمدا ، ووراءه قوة معنوية عقلية أعطته هذه الصـفات ودوامها ، فلنسم تلك القوة محبة ، لأن الحركات عنـد الحيوان جميعها لاتـكون إلا لمحبة ، لجرى صغار الحيوان لأمهاتها ، واسراع الأمهات بالعطف نحو أبنائها ، والسير فى الفلوات للبحث عن الغذاء ، والجرى هربا من عدو مفاجئ ، كل ذلك حركات ناشئات عن :

(١) حب الصغار لأمهاتها .

(٢) أوحب الأمهات لصغارها .

(٣) أوحب الغذاء الذى أوجبه الجوع .

(٤) أوحب البقاء ، ودوام الحياة الذى تعرض للمفاجأة بالهلاك بسبب العدو المفاجئ .

فاذا كانت الحركات التى نعرفها كلها صادرات لأجـل محبة ، هكذا فلنقس مالانعلم على مانعلم ولنسمها حبا ، وهذا الحب يوجب مايضارع حب عطف الانسان على الانسان بفطرته ، فانك لن ترى شرقيا ولاغربيا على أى دين كان ، أوأمة ، أونحلة ، إلا وله شفقة ورحمة وعطف على الأطفال الباكين ، أوالفقراء الشاكين ، أوالمساكين البائسين ، بل عطفه على الانسان تجاوزه إلى الحيوان ، فله عطف عليه عظيم .

الحركات المنتظمات فى كهارب الذرات المسرعات جريا ، المنبعثات المتحدات على قيام هيـكل الذرة الواحـدة اللواتى منها أنتجت هـذه العوالم كلها فصارت شموسا وأرضين لانعرف عددها كلها : قدأنتجت حيوانات لاحصر لهـا تعيش بالمحبة ، وحفظ الذرية ، والألفة العامة ، فهذه الحركات المنتظمات فى الذرة رأينا من نتائجها الأولى حركات الـكواكب والشموس المنتظمات انتظام حركات الذرات ، ثم انتهى الأمر بعطف وغرام فى الحيوان ، فماذا نقول فى الحركات الأولى إلاان جمالهـا ونظامها ، وأنوارها المشرقات ، المكظومات المضغوطات المتداخلات لم تنتج إلاعن حب عظيم وراءها : أى ان هناك عقولاعظيمة تتقدمحبة وغراما لاحد له وعطفا ، وهذه المحبات كانت نتائجها فى آخر الأمر محبات عرفناها فى الحيوان ، فهى كما تـكون الشجرة من حبة فتنتج حبة أيضا ، أما هذا الانسان الذى هوأرق من الحيوان فانه خلق من هذه المحبة أيضا ولـكن اعترضـتها عوائق ، وأحيطت بموانع ، وغشت عليها غواش ، فهوأرواح تعـد بالملايين ، أرادت أن تتقاسم الأرزاق والمنافع والأرض ، ففشلت فى العدل ، ووقعت فى الحيرة ، فحدث التحاسد والتباغض ، أصل العقول الانسانية انها مفطورة على المحبة ، وهذا شائع ذائع ، يفسره عطف الأم والأب على الذرية ، وعطف كل انسان على كل طفل وكل ضعيف ، ولـكن العقبات الـكثيرات غشت على تلك المحبة فسترتها وغطتها فـكان التحاسد والحقد ، وغلب الشر وخيم على العقول فنامت المحبة تتربص الفرص ، ومتى رأتها وفتش الانسان عليها واستخرجها من قلبـه ظهرت فأنارت وجـه الأرض ، كما ان العلماء فى ألمانيا وغيرها يبحثون عن مكنون الذرة ومخبوء مافيها من القوى المكنونة فيها حتى اذا ظهرت أراحت الناس فى أعمـالهـم الدنيوية ، ولـكن هذه الذرة وقواها وان كانت هى أصل خلقنا ليس استخراج مافيها من القوى كافيا لرقى الانسانية بل هذا رقى مادى لاغير ، و بعد ظهور هذه القوى يبقى الانسان على ماهو عليه ، فهو طماع حسود حقود جهول طفل غبى بعضه لبعض عدو (وهذا قوله تعالى : « قتل الانسان ما أكفره » وقوله : « إناعرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوماجهولا »

فالعوالم كلها من الذرّة إلى الأرض إلى الشمس تجرى بنظام وعملها متقن ، فهى لم تغش الأمانة ولم تخن فيها ، فأما هذا الانسان فانه خان الأمانة ولم يقم بحقها لظلمه وجهله ، انظر تفسير الآية فى « سورة الأحزاب » والمعنى الثانى المذكور هناك) .

فأما كشف مافى النفوس الانسانية من المحبات فان هذا اذا انبعث منها وخرجت كرة أخرى بعد غيبوبتها عنه تصبح الانسانية كلها أشبه بشمس واحدة ، أوذرّة واحدة ، وكل نفس من النفوس الانسانية تكون أشبه بكهرب واحد من كهارب تلك الذرّة المسرعات فى جريهنّ ، وهذا الاسراع فى الجرى أنتج ذرة كاملة هكذا هذه النفوس الانسانية الأرضية متى أسرعت فى حركاتها العقلية والعلمية إلى غرض واحد ، وهدف واحد ، ومقصد واحد ، وهى المصلحة العامّة ، فانها لاجرم تأتى إذ ذاك بنتائجها الحقة ، ويكون عالم الانسان إذ ذاك عظيما ، وقوّته لاتضارعها قوّة ، وتكون نتائج هذه النفوس فى انتظام حركاتها أبعد مدى ، وأرفع مقاما ، وأكثر منافع من انتظام حركات كهارب الذرّة الواحدة ، وفرق مابين حركات كهارب وحركات أرواح ، لأن حركات الأرواح الانسانية المنتظمة التى تسرع إلى غرض واحد وهى الخير العام للانسانية ترجع إلى مقاصد العلل الأولى وهى عالم الملائكة « المدبرات أمرا » لا إلى نتائجها المادّية البحتة . هذا هو السرّ فى قول المهاتما غاندى : « إن الذى يكشف سرّ المحبة العامّة أجدر بالاجلال من كل مخترع ومبتدع » وذلك لأن كل اختراع وابتداع فى عصرنا فهو راجع لنفس المادّة والنفوس باقية على ماهى عليه ، عليها غواشى التحاسد والطمع الذى يغطى المحبة كما تغطى غواشى المادّة من صلابة و برودة ونحوها ما تحتها من الأنوار التى منها تركبت بحركات وراءها .

إن النفوس الانسانية يجب أن تكون كنفس واحدة ، وهذا هو تفسير مايقوله المهاتما غاندى ، وهذا القول نفسه تفسير لقوله تعالى : « ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » . ألم تر أن عدد الانسان مهما كثر على الأرض آلاف الملايين من الأوّلين والآخرين فانه كله بالنسبة للعوالم من شموس ومجرّات أقلّ من جزء لايتجزأ ، فاذا جعلناه كله أشبه بذرة واحدة مركبة من كهارب لم يك تشبيهنا بعيدا ، وهو نفسه تفسير لقوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » لأن هذه فطرتهم وهى « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » وإذا كان خلق الله لايغير فانما يكون التغيير فى الظواهر فحصل هناك التحاسد والتخاصم كما حصل فى الأرض بعد انفصالها من الشمس اختلاف أجزائها سيولة وصلابة وأحوالا لاحصر لها ، فلما اختصم الناس أرسل لهم علماء (أنبياء وحكماء ليعلموهم ، لأنهم لم يبقوا على فطرهم ، فلما علموهم أخذ تابعو الأنبياء يختلفون ، فكل أتباع نبيّ مختلفون فيما بينهم ، و بين أتباع كل نبيّ والآخر اختلاف أشدّ وأوسع مدى ، وهذا قوله تعالى بعدما تقدّم « فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

وقصارى الأمر أن حال الأمم اليوم هو الاختلاف والاختلاف عارض على المحبة ، وعقلاء الأرض يرون أنه يجب عليهم أن يرشدوا النوع الانسانى أن يرجع إلى فطرته ، وفطرته هى المحبة العامّة ، وهذه هى الغاية من خلقنا فى هذه الأرض ، فغاية هذه التربية الأرضية التى أرسل لها الأنبياء وخلق الحكماء أن يصل هذا الانسان إلى فطرته الأولى ، وكل محاولة حاولها أنبياؤنا وحكماؤنا إنما كان القصد منها أن يصل إلى هذه الغاية ، وما دمنا لم نصل إليها فنحن نعيش على هذه الأرض فى غاية الذلة فى أنفسنا وفى دولنا سواء أكنا أقوياء أم كنا ضعفاء .

فليجدّ المسلمون بعد فى قراءة جميع العلوم ، وحوز جميع الصناعات ، وليضارعوا الأمم ، ثم ليتعدّوهم

إلى

إلى السلام العام بقوتهم وعلمهم ، ولهذا الفتح العلمى العام أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ فلئن فتحت مكة وفتحت فارس والروم ، ولئن رجع المسلمون الآن يجددون قواهم لازالة الخطر عن أنفسهم فهذا مبادئ ولكن غاياتها ماذكرناه وهو الحب العام .

كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يريد أن يجعل الناس أمة واحدة تحت راية الاسلام ، فاول آباؤنا الأولون ذلك ففشلوا أخيرا ، لان النوع الانسانى لم يكن يحتمل ذلك ، فلنقم نحن الآن بما علينا ، ولنفكر فى إسعاد الأمم كلها ، ولكن لن يتسنى لنا ذلك إلا بعد أن نقرأ كل علوم الأمم وندرسهم هم أنفسهم ، و بعد ذلك نقوم بدورنا ، ولكن هذا الدور ليس معناه أننا نحارب الأمم . كلا . بل نكون أقوياء نقدر على مدافعتهم ونكون أقوى منهم ثم نعطف عليهم ونجعل الانسانية كلها أمة واحدة رجوعا إلى قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » .

فعلينا نحن المسلمين أن نكشف السرّ المصون المخبوء فى عقول الانسانية وهى المحبة العامة ، إن حالنا الآن أشبه بحال النبيّ ﷺ وأصحابه وهم فى مكة يقودون أنفسهم أوّلا ، وستأتى حال أخرى أرقى من هذه أشبه بحال الهجرة إلى المدينة وهى آتية لاريب فيها .

إذن ظهر الآن معنى كلام « المهاتماغاندى » وتعليق عليه بأنه علينا نحن المسلمين أن نكشف هذا السرّ ، فهو يقول : « إن كاشف هذا السرّ أحسن من كل مخترع » وانما كان كشف هذا السرّ علينا لأننا أهل له ، أوّلا لأن نبينا ﷺ رحمة للعالمين ، ثانيا لأننا وسط بين الشرق والغرب فى ديارنا ، فنكفّ أوروبا أن تهجم على الشرق الأقصى أوعلينا ، ونكفّ الشرق الأقصى أن يهجم علينا أوعلى أوروبا . إذن علينا كشف سرّ المحبة لاعلى غيرنا . إذن يجب على المسلمين أن ينشطوا من الآن لهذا الكشف ، فليجدّوا فى العلوم كلها من الآن .

إن جنكيزخان منذ بضعة قرون هو والتتار الذين معه أرغاوا فى بلادنا أوّلا وفى بلاد أوروبا ثانيا ، فهذا هجوم من الشرق على الغرب ومامنعه أخيرا إلا المصريون عند حلب ، وهاهم أولاء رجال التتار قبل المسيح بقرون هجموا على أوروبا فكان منهم تلك الأمم الهمجية التى كانت تحيط بدولة الرومان فأهلكتها وأنتجت أخيرا هؤلاء الاوروبيين الحاليين ، فنحن اليوم نريد أن نكشف سرّ المحبة لنزيل هذه الهجمات عن الانسانية ونوجهها لغرض واحد وهو النفع العام ، نحن جنود الله ، بل أعظم جنوده فى الأرض ، فلنقم للعمل كما قام آباؤنا له ، ولكن خير أمة أخرجت للناس ، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، وهذا هو المقصود من قراءة ﴿ سورة الفتح ﴾ وفهمها وفهم كوننا خير أمة أخرجت للناس ، وقد ألفت كتاب « أين الانسان » وستقرأ ملخصه قريبا فى ﴿ سورة الحجرات ﴾ وفيه مبدئ الطرق التى بها انتظام الانسانية كلها ، وقد أحبه حكماء أوروبا ، وارتاحوا له ، وهذا من مبادئ اكتشاف سرّ المحبة العامّة فى النوع الانسانى ، فليقرأه المسلمون بعدنا ، وليتمموا ما ابتدأناه حتى نكون خير أمة أخرجت للناس ، وحتى نكون نحن الذين نكشف السرّ الذى طلب المهاتماغاندى كشفه .

والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : « ولله جنود السموات والأرض » والحمد لله رب العالمين . كتب ضحى يوم ٨ نوفبر سنة ١٩٣١ م



اللطيفة الرابعة

فى قوله تعالى « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون * محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما»

فى هذه اللطيفة أربع جواهر

الجوهرة الأولى فى قوله تعالى : ليظهره على الدين كله .
الجوهرة الثانية فى قوله تعالى : رحماء بينهم .
الجوهرة الثالثة فى قوله تعالى : تراهم ركعا سجدا .
الجوهرة الرابعة فى قوله تعالى : كزرع أخرج شطأه الخ .

الجوهرة الأولى فى قوله تعالى : ليظهره على الدين كله

مساحرة بينى و بين صديقى العلامة الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير

اطلع على هذا العنوان فقال : لقد مضى أمثال هذا فى سور كثيرة ، وذكرت عموم الرسالة وشرحتها شرحا وافيا . فقلت نعم ، ولكنى الآن اطلعت على مالم يكن ليدور بخلدى . فما أجمل أن أذكره ليطلع عليه المسلمون بعدنا . فقال وماهو ؟ قلت لأقدم لك مقدمة فأقول : إن العلم الجزئى ضار ولكن العلم الكلى هو النافع . فقال : أنا لاأدرى ماذا تريد ؟ فقلت : اذا رأينا عالما نبغ فى الفلك ، أوفى الهندسة ، أوفى جميع الرياضيات ، أوفى العلوم الطبيعية ، أوفى فرع منها كعلم الحيوان ، أوفى العلوم اللسانية ، أوفى فرع منها مثل علم البديع ، هل نقبل شهادته فى نظام هذه الدنيا وعجائبها ؟ ونقبل حكمه ، ونعده حكيما ؟ قال . كلا . قلت حسن فماتقول أيها الحبيب فى أمر أمم الاسلام ؟ أنقبل قول أى قائل كان ؟ أم نبحث عمن يعتد بقوله ممن أحاط بالأمم الاسلامية علما من حيث أخبارها . فقال : أما أنا فلم أفهم ماتريدون ؟ فقلت : هاهوذا الاستاذ (لوثروب استودارد) العالم الأمريكى الذى لم يعتنق دين الاسلام قد نشر كتابه « حاضر العالم الاسلامى » وقرأه أهل الغرب والشرق ، أفليس يكون هذا حجة اذا وصف الاسلام من حيث أن الرجل محيط علما بجلائل المسائل ودقائقها . فقال : أما هذا فكلامه مقبول اذا كان على هذا النمط لأنه اذا صح هذا كان حائزا لشرطين : أحدهما انه عالم بالحوادث . الثانى انه غيرمتهم ، لأنه غيرمسلم . فقلت حسن ، إذن أسمعك الآن قوله الذى يفيد معنى هذه الآية وهاهوذا قال فى صفحة ١٣ وما بعدها فى الجزء الأوّل من الكتاب المذكور مانصه :

« إن نشر الرسالة المحمدية لم يقم به رجال التبشير وحدهم ، ولاقصر الأمر عليهم دون سواهم ، هكذا ، بل شاركهم فيه جماعات عديدة من السياح والتجار والحجاج ، على اختلاف الأجناس . ولايؤخذ من هذا انه لم يقم فى المسلمين مبشرون ارتشفوا كؤوس الحمام فى سبيل الدعوة الاسلامية ، فعديد المبشرين الذين هم على هذا الطراز كثير ، وذلك ظاهر بين فى أمر الطرق الدينية مما لايحتاج إلى برهان ، بل أى دليل أقطع من المبشرين السنوسيين ، الحمس الغير الذين خرجتهم زوايا الصحراء وهم يعدّون بالالوف المؤلفة ،

وما

وما انفكوا يجوبون كل بلاد وثنية ، مبشرين بالوحدانية ، داعين إلى الاسلام ، وهذه الأعمال التى قام بها المبشرون المسلمون فى غرب افريقيا وأوسطها خلال القرن التاسع عشر إلى اليوم لعجيبة من العجائب الكبرى

وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر . فقد قال أحد الانجليز فى هذا الصدد منذ عشرين سنة : « إن الاسلام ليفوز فى أواسط أفريقية فوزا عظيما ، حيث الوثنية تختفى من أمامه اختفاء الظلام من فلق الصباح ، وحيث الدعوة النصرانية باتت كأنها خرافة من الخرافات » .

وقال مبشر بروتستنتى فرنسى : « مابرح الاسلام يسير بقوة منذ نشوئه حتى اليوم ، فلم يعثر فى سبيله إلا القليل ، وما زال يسير فى جهات الأرض حتى بلغ قلب أفريقية ، مذللا أشق المصاعب ، ومجتازا أشد الصعاب ، غير واهن العزم ، فالاسلام حقا لايرهب فى سبيله شيئا ، وهو لاينظر إلى النصرانية منازعته الشديدة نظرة المقت والازدراء ، فلهذا هو حقيق بالظفر والنصر ، إذ بينما كان النصارى يحلمون بفتح افريقية فى نومهم ، فتح المسلمون جميع بقاع القارة فى يقظتهم ، وأما السبيل الذى يسير فيه الاسلام جنوبا فى افريقية فهو من الرائع العريب ، منذ عدة سنوات عثرت الحكومة الانكليزية على غير ماتوقع ، على أن المبشرين المسلمين مخترقون « نياسلندة » دعاة إلى الرسالة المحمدية ، و بعد البحث والاستقصاء ، وإذكاء العيون ، وجدت تلك الحكومة أن المبشرين إنما هم من عرب زنجبار ، وقد بدأوا عملهم هذا منذ سنة ١٩٠٠ م وانه بعد مضى عقد من السنين على شروعهم فى جهاد التبشير ، كانت كل قرية فى جنوب « نياسلندة » قد أسلمت وفيها مسجد ، ومدرسة اسلامية ، ومعلمون مسلمون ، ومع أن هـذه الدعوة كانت كما هو ظاهر من أمرها وسيلة شديدة لتضعضع سلطة المستعمرين وسيطرتهم فلم تجسر الحكومة الانجليزية على مقاومتها خيفة ازدياد انتشارها فى الأقطار الأخرى » .

ويقول بعض المفكرين الغربيين فى هـذا العصر : « انه لايمضى مدة طويلة منذ اليوم حتى يرى الاسلام قد اجتاز (زمبازى) وانتشر فى جنوب أفريقية انتشارا عاما فيطبق القارة بأسرها ، وليس ظفر الاسلام فى أفريقية مقصورا على الوثنية فحسب ، بل على النصرانية الافريقية كذلك ، إذ ترى الآن الذين تنصروا فى غرب افريقية على يد المبشرين الفرنجة يتناقصون عددا تناقصا فاحشا ، وذلك لارتداد غالبهم عن النصرانية ودخولهم فى الاسلام . زد على ذلك أن النصرانية فى الحبشة ، إنما باتت فى خطر شديد من جراء سيول الاسلام الطامية ، من بعد ما كانت فيما مضى سدا منيعا فى وجه الاسلام ، والغريب فى هذا كل الغرابة أن الأحباش أنفسهم غدوا اليوم يدخلون فى الاسلام أفواجا متلاحقة ، لاعلى يد فتوح حربية ، بل فتوح سلمية دينية » .

وقال أحد الثقات الغربيين حديثا : « منذ خمسين إلى ستين سنة خلت كنت ترى قبائل الأحباش العديدة لا يكاد يرى فيها مسلم واحد ، أما اليوم فغالب هذه القبائل هم مسلمون مؤمنون بالرسالة المحمدية » .

وربما كان ظفر الاسلام فى افريقية اليوم أعظم ظفر لاقاه المبشرون المسلمون حديثا ، بيد أن هـذا ليس جميع الظفر الاسلامى ، بل هناك غيره مثله فى سائر أنحاء العالم ، وقد أتينا فى الفصل السابق من هذا الكتاب على ذكر حركة الأحرار السياسية فى بلاد التتر الروسية ، بحيث بقى علينا الكلام على النهضة الدينية العجيبة التى رافقت تلك اليقظة التترية ، كان التتر مابرحوا منذ عهد بعيد فى الحكم الروسى ، وقد جهدت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية أعظم الجهد لتنصيرهم ، فأدركت فى بعض المواضع بعض النجاح الذى لايذكر ، غير أنه لما انتشرت اليقظة الاسلامية العامة ، ووصل ماوصل منها إلى بلاد التتر فى أوائل القرن التاسع عشر ، هب التتر للحال يستردون إخوانهم المتنصرين إلى الاسلام . فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى عاد جميع هؤلاء فانتحلوا دين الرسالة ، على جميع مابذلته الكنيسة الأرثوذكسية من العناء الأشق : وجاءت إليه من

مختلف الذرائع والوسائل لتحول دون ذلك ، فلم تلق شيئا من النجح بالرغم مما اتخذته الحكومة الروسية من أحكام الجزاء والعقاب ، ووسائل القهر والاكراه ، على أن المبشرين المسلمين التتر لم يقصروا أمرهم على هذا ، بل شرعوا فى نشر الاسلام فى القبائل التركية الفنلندية الأمية المقيمة فى الشمال من بلاد التتر ، غير مبالين بمقاومة حكام الروس لهم ولو لاقوا من وراء ذلك من الهول ما لاقوا » انتهى

فلما سمع ذلك صاحبى . قال : حسن والله ، هذا معنى ظهوره على الدين كله ، وهـذا أمر عجب ! كيف ينتشر الاسلام فى تلك البلاد التى يحكمها الفرنجة وهم أخوف الناس وأكثرهم عدواة للاسلام . انتهى الكلام على الجوهرة الأولى فى قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية فى قوله تعالى : أشدّاء عَلَى الكفار رحماء بينهم

فى هذه الجوهرة فصول

الفصل الأوّل فى قوله تعالى : أشدّاء على الكفار
وبيان أن هذه الشدّة أحسّ بها أهل أوروبا فى زماننا بعد الحرب الكبرى

فانظر ماجاء فى هامش ذلك الكتاب بقلم الأمير شكيب أرسلان ، إذ أبان أن الدول الاوروبيـة التى ترتعد خوفا من البلشفيك ، خافت ان هى استعانت بالمسلمين عليهم أن يهلكوها مصداقا لهذه الآية ، وهذا نصه بالحرف الواحد :

« قد نشر العالم الاجتماعى الكبير (غويغليلمو فريدو) مقالة فى جريدة (الايللوستراسيون) عنوانها « أوروبا وآسيا » بين فيها أن الحرب العامة أحدثت انقلابات متناقضة ، فباعدت وقرّبت بين القارّات ، وانه من العادة اذا خرجت سلطنة عظيمة ظافرة من حرب من الحروب ، ازدادت هيبتها وانبسط سلطانها عن ذى قبل ، والحال أنه بعد أن خرجت انكلترا ظافرة من أكبر حرب فى الدنيا ، ثارت فى وجهها أفغانستان والهند ثم مصر ، وبعد أن كانت تركية اضمحلت سنة ١٩١٨ عادت فنهضت وردّت انكلترا وحليفاتها على أعقابهنّ ، وكذلك الصين بالرغم من الثورة التى تمزّق أحشاءها ، تطلب استرداد البلاد التى احتلت منها وعدم مسّ شىء من استقلالها ، فآسيا تقوم على أوروبا على حين هى آخـذة بمبادىء أوروبا وليست تأخذ من أوروبا وأمريكا أسلحة فحسب ، بل مبادىء وأفكارا تقاتلها بها . قال : وسبب ذلك هوانهيار الدولة الروسية فان أوروبا كانت سنة ١٩١٤ كتلة متحدة متينة متماسكة بالرغم من جميع المناظرات والمناهضات التى كانت بين أجزائها ، فقد كانت السلطنة الروسية والسلطنة الانكليزية متناظرتين فى آسيا ، ولكن من جهة أخرى كنت ترى كل واحدة منهما شادّة إزر الأخرى ، وكانت أوروبا بأجمعها تستفيد من الرعب الذى تلقيه الروسية فى قلب آسيا ، فسقوط السلطنة الروسية كان مبدأ خلاص آسيا ، وقد أشارت جريدة الطان بتاريخ (٨) حزيران سنة ١٩٢٣ إلى مقالة (غريدو) هـذه وأيدت رأيه من جهة كون انهيار الروسية هو الذى كان مبدأ تحرير آسيا ، وهذا عين ماورد فى مقالة (روجرلابون) التى عرّبناها عن مجلة باريز ، وكان أحد الروس اقترح علينا سنة ١٩١٩ نشر مقالة فى جريدة روسية تصدر فى برلين ، فحررنا فى ذلك الوقت له مقالة نبين بها الأسباب الداعية إلى الاتحاد بين الروس والشرقيين وتلوّن سياسة الروسية الماضية التى كانت عبارة عن قهر الشرق وملاشاة الدولة العثمانيـة لفائدة الدول الغربية ، فكان جـلّ الخسائر بالمال والرجال على الروسية ، ومعظم الفوائد لانكلترا وفرنسا ، لأنه من المحقق لولا ثقل حمل الروسية على ظهر العثمانيين ، وكونهم أصبحوا من عداوة الروس ، بحالة لايملكون معها قبضا ولا بسطا ، لما كان يمكن فرنسا الاستيلاء على الجزائر ، ولا على

تونس ، ولا ايطاليا دخول طرابلس ، ولا انكلترا احتلال مصر والسودان ، بل كانت الدولة العثمانية بأمنها ناحية الروسية تقدر على حماية هذه البلدان لاسيما فى بداية الأمر ، فالروسيا هى التى كانت سبب سقوط الشرق وواسطة تقسيمه بين الدول الاستعمارية ، وتحوّل الحكومة القيصرية إلى البلشفية هو الذى مكن اليوم الشرق من أن يتنفس : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » فهذا المعنى كنت أوضحته قبل أن ابتدأ الكتاب الاورو بيون ينبهون إليه .

ثم ان هناك جملة وردت فى كلام العلامة (فريدو) فيها معنى كبير ينبغى أن يمعن النظر فيه جميع الشرقيين ألا وهو قوله : « إن الروسيا وانكلترا مع تناظرهما وتنافسهما فى الشرق كانت كل منهما شادّة إزر الأخرى » ومعنى ذلك أن الروسيا كانت تقلم أظفار الأتراك والفرس والصينيين ، فبملاشاة قوتهم أصبحوا لايقدرون على إغاثة الهنود والأفغان والمصريين والعرب الذين مدّت يدها إليهم انكلترا بالبطش والغصب ، وكذلك انكلترا باستيلائها على هؤلاء قد عطلت منهم كل قوة حربية ، فأصبحوا لايقدرون أن يؤيدوا الدولة العثمانية ولا الدولة الفارسية ولا تركستان ولا الصين بشىء ، فكانت كل من الروسيا وانكلترا قد شدّت إحداهما إزر الأخرى بطبيعة الحال ، وكان بينهما تضامن وان لم يكن جرى عليه تواطؤ من قبل فهو جار بالفعل ، ومن الامور التى تؤيد هذا وقوع هذا التضامن بدون تواطؤ ، ليس بين أوروبا والروسيا القيصرية فحسب ، بل بين أوروبا والروسيا البولشفيكية نفسها مع شدة العداوة التى بين الفريقين ، فان الدول الغربية أثارت على البولشفيك الأميرال كولتشاك والجنرال دنيكين والجنرال يودينيش والجنرال فرانجل ، والمملكة البولونية ، وحاولت إثارة الأرمن والكرج ، وكل قوم ترجو فيهم النهضة لقتال الحكومة البولشفية التى ترى فيها الخطر الأعظم على كيان الهيئة الاجتماعية الاوروبية ، وقد بذلت انكلترا وفرنسا فى تسليح هذه الأقوام وسوقهم على الروسيا مئات الملايين ، ولا تزال الان إلى هذه الساعة تترصدان الفرص وتتربصان بالبولشفيك الدوائر . لكن قد حذرت هاتان الدولتان كل الحذر من أن تحرك على البولشفيك قوة إسلامية ، فعرض بعضهم الرأى بالاتفاق مع تركيا وتسليحها وسوقها على الروسيا من جهة القوقاس حيث ينضم إلى الترك هناك الكرج والطاغستانيون والتتر ، فلم يقبل الحلفاء هذا الرأى أصلا ، ولا راق لهم أن تسلح العجم ، ولا الأفغان ، ولا بخارى ولا خيوه ، ولا فرغانه ، ولا غيرها من تركستان ، ولا رمى البولشفيك بهذه القوات كلها ، وماذاك إلا لأنهم يرون الخطر الاسلامى أعظم من الخطر البولشفى مهما كان الخطر البولشفى عظيما .

ومن الأدلة البارزة على ذلك أنه لما نفى المرحوم أنور باشا من البولشفيكيين ، وبرح موسكو سنة ١٩٢١ إلى باطوم ، ومنها انسلّ إلى بخارى ، وأثار ثورة تركستان الهائلة التى حشد البولشفيكيون فيالق جرّارة لقمعها ، لم يفكر أحد بأوروبا فى إمداد أنور على البولشفيك ، بل عند ما سقط أنور شهيدا فى أوائل أغسطس سنة ١٩٢٢ فرح بمقتله الحلفاء ، ولم تخف الجرائد الانكليزية سرورها . وفى هذا مقنع لمن يبقى عنده شىء من الريب فى شدّة تضامن أوروبا بازاء الشرق . انتهى الكلام على الفصل الأوّل والجوهرة الثانية فيه والحمد لله رب العالمين — شكيب أرسلان

الفصل الثانى فى تحفز المسلمين لتلك الشدّة

وظهور المصلحين منهم لايقاد نارها

ولأذكر مصلحا منهم على سبيل المثال وهو الاستاذ المرحوم جمال الدين الأفغانى الذى نشر مبادئ الحرّية وكان حربا على الملوك المستبدّين ، ولأجعل الكلام فيه فى مبحثين :

المبحث الأوّل فى عدائه للمستبدّين

جاء فى هامش كتاب « حاضر العالم الاسلامى » المذكور بقلم نفس الأمير شكيب أرسلان مانصه :

فى أحد الأيام قدم على جمال الدين الأفغانى رجل من العجم ، بابى المذهب ، اسمه رضا آقا خان ، صادف أنه وجد مع جمال الدين فى حبس واحد فى قزوين عند مااعتقله الشاه ، فحصلت بينهما صحبة أكيدة ، ثم تفارقا عند ما أخرج جمال الدين من الحبس ونفى إلى بغداد ، ثم أخلى سبيل رضا آقا هذا ، ولما بلغه مجىء السيد إلى الاستانة جاء يزوره فيها ، فسر به السيد كثيرا ، وكان دائما يحادثه ، ويتكلمان على شقاء الأمة الايرانية بسوء ادارة سلطانها ناصر الدين . فقال رضا آقا خان يوما انه هومستعد أن يضحى نفسه لتخليص أمته . فقال له جمال الدين : ان كان كذلك فاذهب وافعل ، فذهب رضا آقا خان ، وبعد أشهر بينما ناصرالدين شاه فى جامع عبدالعظيم فى طهران إذ دنا منه هذا الرجل وقتله غيلة وقال له : بدى از جمال الدين أى خذها من يد جمال الدين ، ووردت الأخبار إلى الاستانة وتحدث بها الناس كما لايخفى ، فأبدى السيد جمال الدين مزيد سروره بهذا الخبر وشرع يقول : « قد تحقق الآن أن الأمة الفارسية لم تمت وانها أمة لم تنقطع منها الآمال ، لأن الأمة التى يقوم من أبنائها من يأخذ بثأرها ويفتك بالطاغى الذى على رأسها ، لا تكون قد فقدت جراثيم الحياة » .

وكلاما من هذا القبيل كان يردده ، ثم لما ورده عدد من مجلة « الايلوستراسيون » التصويرية الفرنسية وفيها صورة القاتل رضا آقا خان مصلوبا معلقا والناس ينظرون من حوله هتف : علو فى الحياة وفى الممات . وقال : انظروا كيف علقوه عاليا عليهم حتى يكون ذلك رمزا إلى أنهم كلهم كانوا من دونه ، وكان الجواسيس ينقلون إلى السلطان كل كلمة يفوه بها السيد ، فلم يشك عبد الحميد فى كون قتل الشاه كان بسبب جمال الدين وانه مازال وراء الشاه حتى أنزله فى قبره كما قال : ومن الغريب أن الشاه بعد أن خلى سراح جمال الدين ، وذهب هذا إلى أوروبا بلغ الشاه أن المترجم كان يسعى فى تدبير مكيدة مع بعض الايرانيين لخلع الشاه أولقتله فندم جدا على افلاته ، ويقال انه هوالذى بعث إلى السلطان عبد الحميد يرجومنه استقدام جمال الدين إليه ووضعه تحت المراقبة أمانا من شر غوائله ، فاستقدمه السلطان بكتاب من قلم أبى الهدى ، ولما بلغ الاستانة أمر بالمبالغة فى بره وإكرامه ، ليلهيه عن عداوة شاه العجم ، فكان من ذلك ما كان ، ولايمنع حذر من قدر . فلما تحقق السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضبا شديدا ، وأمر بتشديد المراقبة على المترجم ، ومنع أى أحد من الاختلاط به إلا بارادة سلطانية ، فأصبح السيد فى قصره محبوسا ، وكانت الحكومة الايرانية شرعت فى تحقيق حادثة القتل ، فثبت لديها إغراء جمال الدين لرضا آقا خان بالاشتراك مع شخص فارسى آخر اسمه رضا آقا خان أيضا ، وشخص بغدادى اسمه الشيخ ابراهيم ، فطلبت الدولة الايرانية من الباب العالى تسليمها هؤلاء الثلاثة ، فالسلطان عبد الحميد أبى تسليم جمال الدين ، ولكن الشخصين الآخرين بلغنى أنه جرى تسليمهما ، وقتلا فى ايران بحجة اشتراكهما بالمؤامرة ، ثم ان التضييق بلغ حده على المترجم حتى أرسل إلى « فيس موريس » مستشار سفارة انجلترا يلتمس منه إيصاله إلى باخرة يخرج بها من الاستانة ، فحضر « فيس موريس » إليه وتعهد له بما طلب ، واذ ذاك بلغ السلطان الخبر ، فأرسل اليه أحد حجابه يستعطف خاطره باسم الاسلام أن لايرضى بمس كرامة الخليفة إلى هذا الحد ، ولايلتمس حماية دولة أجنبية ، فثارت فى أنفه حمية الاسلام ، وبعد أن كان زم حقائبه للسفر . قال لفيس موريس : انه عدل عن السفر ، ومهما كان فليكن ، ولكن المراقبة كانت لم تزل باقية ، وكل من أراد أن يشاهده فلابد له من إذن خاص ، وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر فى حنكه مرض السرطان واشتد عليه ، وصدرت الارادة السنية باجراء عملية جراحية ، يتولاها قبور زاده اسكندر باشا ، كبير جراحى القصر السلطانى ، وكان هذا مقربا جدا إلى الحضرة السلطانية ، فأجرى له العملية فلم تنجح ، وما لبث إلا أياما قلائل حتى فاضت روحه ، رحمه الله

وعفى

وعفى عنه . والى هنا تمّ الكلام على المبحث الأوّل من الفصل الثانى والحمد لله رب العالمين .

المبحث الثانى من الفصل الثانى فى صفاته وتعاليمه

وهاك ماجاء بقلم الأمير شكيب أرسلان فى هامش الكتاب المذكور أيضا وهذا نصه : —

ولد السيد جمال الدين الأفغانى فى مطلع القرن التاسع عشر فى « أسد آباد » بالقرب من همذان فى بلاد فارس ، وهو أفغانى الأرومة لافارسى ، يتحدر نسبا ، كما يدل لقب سيادته على هذا ، من العترة النبوية الطاهرة ، ويجرى فى عروقه الدم العربى البحت الكريم .

كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداهية من أعظم الدهاة ، دامغ الحجة ، قاطع البرهان ، ثبت الجنان ، متوقد العزم ، شديد المهابة ، كأنّ فى ناسوته أسرار المغناطيسية ، فلهذا كان المنهاج الذى نهجه عظيما ، وكانت سيرته كبيرة ، فبلغ من علوّ المنزلة فى المسلمين ماقلّ أن يبلغ مثله سواه ، وكان سائحا جوّابا ، طاف العالم الاسلامى قطرا قطرا ، وجال غربى أوروبا بلدا بلدا ، فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ، ومن الاطلاع العميق . والتبحر الواسع ، فى سير العالم والأمم ، علما راسخا ، واكتنه أسرارا خفية ، واستنبط غوامض كثيرة ، فأعانه ذلك عونا كبيرا على القيام بجلائل الأعمال التى قام بها ، وكان جمال الدين بعامل سجيته وطبعه وخلقه ، داعيا مسلما كبيرا ، فكأنه على وفور استعداده ومواهبه إنما خلقه الله فى المسلمين لنشر الدعوة فحسب ، فانقادت له نفوسهم ، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم ، فليس هناك من قطر من الأقطار الاسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين إلا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية ، لاتخبو نارها ، ولايتبدّد أنوارها ، وكان يختلف عن السنوسى منهاجا ، لجمال انكبّ على السياسة وشؤونها وذاك على علوم الدين وترقيتها ، غير أن السيد جمال الدين الأفغانى كان أوّل مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة فى الشرق الاسلامى ، وتمثل عواقبها فيما اذا طال عهدها ، وامتدّت حياتها ، ورسخت فى تربة الشرق وأدرك شؤم المستقبل ، وماسينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبة الكبرى ، اذا لبث الشرق الاسلامى على حال مثل حاله التى كان عليها ، فهبّ جمال يضحى بنفسه ، ويفنى حياته ، فى سبيل إيقاظ العالم الاسلامى وانذاره بسوء العقبى ، وبدعوه إلى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصيح فيها النفير ، فلما اشتهر شأن جمال الدين خشيت الحكومات الاستعمارية أمره ، وحسبت له ألف حساب ، فنفته بحجة أنه هائج المسلمين ، ولم تخف دولة جمالا وتضطهده مثل ماخافته واضطهدته الدولة البريطانية ، فسجنته فى الهند مدة ، ثم أطلقت سراحه ، فجاء إلى مصر حوالى سنة ١٨٨٠ وكانت له يد فى الثورة العرابية التى أوقدت نارها فى وجه الغربيين ، فلما احتلّ الانجليز مصر سنة ١٨٨٢ نفوا جمالا للحال ، فزايل مصر وأنشأ يسيح فى مختلف البلدان حتى وصل إلى القسطنطينية ، فتلقاه عبد الحميد بطل الجامعة الاسلامية بالمبرّة والكرامة ، وقرّبه منه ، ورفع منزلته ، فسحر جمال السلطان الداعية بتوقد ذكائه ونفسه الكبيرة ، فقلده السلطان رئاسة العمل فى سبيل الدعوة الجامعة الاسلامية ، ويغلب أن ماناله السلطان عبد الحميد من النجاح فى سياسته فى سبيل الجامعة الاسلامية إنما كان على يد جمال الدين ، المتوقد الهمة ، المشتعل العزم ، والتحق جمال الدين بالرفيق الأعلى سنة ١٨٩٦ شيخا وعاملا كبيرا فى سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الأخير من أنفاسه ، وهاك ملخص تعاليم جمال الدين : —

« العالم الافرنجى على اختلاف أممه وشعوبه عرقا وجنسية ، هو عدوّ مقاوم مناهض للشرق على العموم وللاسلام على الخصوص ، لجميع الدول النصرانية متحدة معا على دكّ الممالك الاسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى ككون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية لم يزل التعصب

مستقرا فى عناصرها ، متغلغلا فى أحشائها ، ومتمشيا فى كل عرق من عروقها ، وهى أبدا ناظرة إلى الاسلام نظرة العداء ، والحقد ، والتعصب الدينى الممقوت . وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان فى كثير من الشؤون الخطيرة والمواضع الكبرى ، حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الاسلامية مستوية مع الأمم النصرانية ، تنتحل الدول النصرانية أعذارا لهاى كرّها وهجومها وعدوانها على الممالك الاسلامية واذلالها واكراهها بقولها : « إن الممالك الاسلامية هذه إنما هى من الانحطاط والتدلى بحيث لاتستطيع أن تكون قوّامة على شؤون نفسها بنفسها » وفوق جميع هذا فهذه الدول النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية وتتذرع بألوف الذرائع من نواح أخرى ، حتى بالحرب والحديد والنار . للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون فى بلادهم وديارهم فى سبيل الاصلاح والنهضة ، جميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عداء الاسلام ، وروح هذا العداء متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب ، جهدا خفيا مستترا متواليا لسحق الاسلام سحقا ، تأخذ النصرانية شواعر كل مسلم ، وآماله ، ورغباته ، التى تجول فى صدره ، ثم تمثلها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء ، فان مايدعوه الفرنجة عندنا فى الشرق تعصبا مذموما محرّما ، هو عندهم فى بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة ، والقومية المقدّسة ، والوطنية المعبودة ، وأن مايدعونه عندهم فى الغرب إباءة النفس ، والشمم ، والشرف الوطنى ، والعزّة القومية ، يعدّونه فى الشرق غلوّا مكروها ، وافراطا فى حبّ الوطن ضارّا ، ومقتا ، وشناءة للأجنبىّ الغربىّ .

جميع هذا يوضح أن العالم الاسلامى يجب عليه أن يتحد اتحادا دفاعيا عاما ، مستمسك الأطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الذياد عن كيانه ، ووقاية نفسه من الفناء المقبل . وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى إنما يجب عليه اكتناه أسباب تقدّم الغرب ، والوقوف على تفوّقه وقدرته » انتهى الكلام على الفصل الثانى والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث

فى شدّة المسلمين على الكفار فى زماننا هذا وبعض آثاره

فى هذا الفصل مبحثان

المبحث الأوّل فى بيان تآزر المسلمين فعلا

جاء فى كتاب «حاضر العالم الاسلامى» المذكور مانصه : « فى سنة ١٩١١ أغارت ايطاليا معتدية على طرابلس الغرب الافريقية التابعة للدولة العثمانية على غير ما علة سوى الاستعمار ، وفى سنة ١٩١٢ م تألبت الدول البلقانية النصرانية ، وأوقدت نار الحرب على تركيا ، فخسرت تركيا فى هذه الحرب جميع أملاكها الاوروبية ، فلم يبق من جميع ما كان لها فى أوروبا غير القسطنطينية معرّضة لخطر الغارات عليها ، ومهدّدة شرّ تهديد ، وفى تلك الغضون اتفقت انكلترا وروسيا على خنق الثورة الفارسية ، وكانت فرنسا على أثر معضلة « أغادير » تحرق الأرّم ، فعضت على مراكش بالنواجذ ، وأنفذت فيها المخالب ، وهكذا فى خلال سنتين توالت الحملات الاوروبية تترى على العالم الاسلامى ، حملات العدوان والاعتداء المحض ، فمزّقت ما كان باقيا منه حتى ذلك العهد سليما شرّ ممزّق ، فنزل ذلك على الأمم الاسلامية قاطبة نزول الصاعقة ، يصمّ الآذان دويها ، فأخذ العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب يقوم و يقعد مشتعلا غضبا وحنقا ، فعادت الجامعة الاسلامية إلى سابق حالها تجرى مجرى سريعا ، وقد تحقق للمسلمين الآن ما كان ينبئ به على انقطاع دعاة الجامعة الاسلامية منذ خمسين سنة . الحرب الصليبية الجديدة لدكّ الممالك الاسلامية دكا ، وصدق جميع ما كان يذيعه جمال الدين الأفغانى الحكيم العظيم ، وأخذت نتائج الجامعة الاسلامية تبتدئ ، ففى طرابلس الغرب انبرى الترك والعرب يقاتلون جنبا إلى جنب بروح عجيبة تبعثها فيهم دعوة الجامعة الاسلامية من بعد ما كانوا قبيل ذلك على حال

من الازورار والتنافر شديدة ، فلقى المعتدون الطليان أمامهم مقاتلة مستبسلين ، ملء صدورهم ضرم من التعصب لا يطفأ ، ضرم يزيده العالم الاسلامى وقيدا بما حل ساسة الغرب على الجزع والارتباك شديدا ، فأخذوا يتساءلون فى الخطب الكبير، وفى الذى عساه أن ينفجر انفجارا عاما فى مشرق العالم الاسلامى ومغربه .
فقال غبريال هانوتو ، وهو وزير فرنسى من وزراء الخارجية السابقين : « بالله لماذا وجدت ايطاليا طرابلس غير المحصنة كوكر الزنابير الساعة ؟ أفليس لأنها لا تحارب تركيا وحدها بل العالم الاسلامى أجمع ، فايطاليا جنت على نفسها وعلينا جناية لا يعلم غير الله عاقبتها ومنتهاها » . ولم يكن خنق انكلترا وروسيا لثورة إيران ومحق فرنسا لاستقلال مراكش بأقل استثارة للعالم الاسلامى من حرب طرابلس ، فزادت نار الغضب احتداما ، غير أنه لما نشبت الحرب البلقانية ، طفح الكيل وبلغت الروح التراقى ، فبات المسلمون من الصين حتى الكونغو يرقبون أنباء الحرب ونتيجتها ، وقلوبهم على أحر من جمر الغضا ، فلما طير البرق نبأ الكارثة التركية فى البلقان أجفل العالم الاسلامى للخطب أيما اجفال ، وبلغت صرخاته عنان السماء ، فقال أحد مسلمى الهند فى نداء وجهه إلى بنى قومه : « يوقد ملك اليونان نار حرب صليبية جديدة ، ويستنصر وزراء بريطانيا تعصب النصرانية على الاسلام ، ويأتمر وزراء الروسيا فى بطرسبرج لرفع الصليب وشكه على قبة مسجد « آجيا صوفيا » فاليوم هم يأتمرون ويتشاورون فى هذا الخطب ، وغدا يفعلون مثل ذلك للاستيلاء على مسجد عمر بن الخطاب (المسجد الأقصى فى بيت المقدس) . أيها المؤمنون الاخوة : اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، فان الواجب المقدس ليدعو كل مؤمن بالله ورسوله أن ينضم إلى أخيه المؤمن تحت لواء الخليفة أمير المؤمنين ، ويجاهد فى سبيل الذود عن حياض الاسلام والمسلمين »
وقال أحد زعماء المسلمين فى الهند مخاطبا الدولة البريطانية : « اننا ننادى الحكومة البريطانية بملء أفواهنا أن تقلع عن سياستها العدائية تركيا ، إتقاء لانفجار بركان المئات من ملايين المسلمين ، انفجارا يجر البلاء عظيما » ، وأعجب ما بدا أن أخذ المسلمون يوجهون النداء تلو النداء لغير المسلمين من شعوب آسيا ، يدعونها إلى التآزر والاتحاد إزاء الغرب المعتدى ، فكان هذا الأمر وايم الحق غريبا فى بابه لم يسبق له مثيل منذ نشوء الاسلام ، فان محمدا وقد جاء القرآن مصداقا للتوراة والانجيل وقال انه خاتم الأنبياء والمرسلين ، بعث الله من قبله موسى وعيسى ، أمر المرسلين باحترام النصارى واليهود ، وسماهم « أهل الكتاب » تمييزا لهم عن عبدة الأوثان ، وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الأخير ، فما كانوا قط يوما يبغضون النصارى بغضهم للوثنيين من البراهمة والبوذيين والكمونشيين أهل الشرق الأقصى .
بيد أن هذه الحال شرعت تنقلب وتتحول منذ الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ إذ ظفرت اليابان الدولة الشرقية الوثنية (الكافرة) على دولة غربية نصرانية ، ودقت عنقها دقا ، فهب غالب المسلمين يبتهجون لانتصار اليابان هذا ابتهاجا ملؤه الفخر الشرقى والحماسة الاسلامية ، وتمنى كثير من رجال الجامعة الاسلامية ودعاتها لو ينتحل أبطال اليابان الاسلام وشرع فى تحقيق هذا الأمر العظيم ، والتمست وسائل التقرب من اليابان ، ثم أنشئت العلاقات معها ، وأنشئت الصحف العديدة لنشر الدعوة ، واختير المبشرون للقيام بهذا المشروع الاسلامى الكبير ، فأوفد السلطان وفدا إلى اليابان على بارجة حربية ، وأخذ العالم الاسلامى بسبب ذلك يلهج بحديث إسلام اليابان ، ويتناقل الأنباء فى هذا الصدد ، ويتباحث فيه ، ويحبذه أشد التحبيذ .
قالت صحيفة مصرية سنة ١٩٠٦ : « إن بريطانيا العظمى وفى حكمها ستون مليونا من المسلمين لتخشى كل الخشية أمر اسلام اليابان ، الأمر العظيم الذى اذا كان تغير مجرى السياسة الاسلامية العامة تغيرا كليا » .
وقال شيخ من شيوخ مسلمى الصين : « إذا شاءت اليابان أن تدرك منزلة لم تدرك مثلها دولة فيما مضى وأرادت أن ترفع شأن آسيا على شأن سائر القارات فلا يتم لها ذلك بتة إلا بانتحالها الاسلام دينا » .

فاستقبلت اليابان وفد المسلمين استقبالا جليلا ، وأحلته محل الرعاية والاكرام . بيدأنها لم تكشف عن رغبة فى الدخول فى دين الرسالة ، وكانت النتيجة أن وضع أساس للعلاقات الودية الحية بين الشعوب المسلمة والشعوب غير المسلمة فى آسيا ، ومما زاد فى ذلك القرب أن أخذت عرى الولاء تتوثق بسبب الحرب البلقانية وماتجلى فيها وما حولها من المطامع الاستعمارية الهائلة ، ويمكن العلم بحالة شعور المسلمين ومبلغ ما آلت إليه من الاضطراب والاهتياج يومئذ بالوقوف على الصرخات الندائية المتوالية التى أخذ المسلمون يوجهونها نحو الهندويين (الهندوس) .

ومثال من ذلك نداء عظيم الخطر والشأن ، موسوم برسالة الشرق جاء فيه ما يأتى : « ياروح الشرق : ألاهبي من مرقدك ، وادفعى عن الشرق هذا الطوفان الغربى ، طوفان عدوان الفرنجة وبغيهم واعتدائهم ، يا أبناء هندستان : كونوا لنا عونا ونصرا بحكمتكم ، شدّوا أزرنا بحضارتكم وتهذيبكم ، كونوا لنا نصراء بقوتكم ، قوة الهندويين آبائكم وأجدادكم ، دعوا قوة الأرواح الكامنة فى قمم جبال هملايا تنبثق فقد حان لها وحقّ من أوجدها الانبثاق ، املؤا الجو بصلواتكم إلى إله الحرب لينصر الحقّ على القوة الغاشمة ، ويزهق الباطل : إن الباطل كان زهوقا ، وارفعوا أصوات دعواتكم ، وفى هياكل ربوات آلهتكم أن تهلك جيوش الأعداء المعتدين » .

فمن تدبر هذا المآل الذى آلت إليه حالة المسلمين ، ولاسيما تقربهم من الكفرة ، وتوثيق عرى الولاء بينهم وبينهم ، لايسعه إلا تكبير هذا الأمر وتعظيمه ، والتعجب والاستغراب ! ولم يكن هذا التبدّل الهائل مقصورا على مسلمى الهند وحدهم ، بل شمل أيضا مسلمى الصين ، فقد قالت صحيفة اسلامية من صحف تركستان الصينية ، تدعو إلى اتحاد الصينيين قاطبة اتحادا وطنيا منيعا للوقوف فى وجه الغرب المعتدى مايأتى : « إنّ أوروبا قد بلغت من الطغيان والجور مبلغا لاحدّ له ، فهى لاتنفك تنازعنا على حريتنا التى هى أقدس شىء لدينا ، وأوروبا ضربتنا الضربة القاضية اذا لم يستنصر بعضنا بعضا ، وننهبّ فى يوم آت هبة المدافعين عن الأوطان دفاع الأبطال » . وفى الدور الأول من أدوار الثورة الصينية ، خلع مسلمو الصين عنهم رداء العزلة ، واصطفوا إلى جانب أبناء بلادهم البوذيين والكنفوشيوسيين يقاتلون معهم مستبسلين فى سبيل الوطن ، وقد أثنى الدكتور (صن ـ يات ـ سن) الزعيم الجمهورى الكبير على مسلمى الصين بقوله : « إنّ الصينيين لن ينسوا أبدا نصراخوانهم المسلمين لهم فى سبيل تأييد نظام البلاد واستقلالها وحريتها » فلما نشبت الحرب الكونية العظمى كان العالم الاسلامى أجمع مضطربا اضطرابا عميقا ، ومحتدما حنقا على الغرب المعتدى ، وشاعرا بضرورة اتحاده اتحادا مكينا ، وساعيا جدّ السعى لعقد المحالفات بينه وبين غيره من الدول الأسيوية ليتسنى له بذلك القيام بجهاده المنوى فى سبيل التحرّر من ربقة الغرب . انتهى الكلام على الأول ، والحمد لله رب العالمين .

المبحث الثانى فى أن أوروبا نفسها بإيغارها صدور المسلمين جمعت كلمتهم على الشدة عليهم

جاء فى كتاب حاضر العالم الاسلامى أيضا مايأتى : « قام ساسة الحلفاء خلال الحرب مئات المرات ينشرون التصريحات الرسمية أن الغاية الكبرى الوحيدة فى هذه الحرب الدموية المخوضة الغمار إنما هو إنشاء نظام عالمىّ حديث قائم البنيان على مكارم الأخلاق ، والأسس الصحيحة ، والقواعد الشريفة ، كرعاية حقوق الأمم المستضعفة ، وإطلاق الحرّية لجميع الشعوب والأمم فى اختيار حكمها ، وتقرير مصيرها ، وامتلاك مقدراتها فذاعت هذه التصريحات فى الشرق أيما ذيوع ، واختزنتها الأمم الشرقية ، لا بل حفظتها عن ظهر قلبها ، وأخذت ترتلها ترتيلا ، فلما وجد الشرق أن الصلح لم يبن على شىء من تلك القواعد والأسس الصحيحة ، ولاعلى مقتضى مئات التصريحات المحفوظة ، بل على المعاهدات المقطوعة بين الدول بعضها مع بعض سرّا

وخفاء

وخفاء معاهدات الجشع الاستعمارى والحكم والفتح ، أخذ يحتدم غضبا ، ويكبر نوازل الجور والبغى ، ويعظم سوم هذا الخسف والذل ، فأخذت مراجل العداء تشتدّ غليانا فى كل صقع من أصقاع الشرق ، فاكفهرّ الجوّ ، وقصفت الرعود ، منذرة بأهوال الصواعق ، ولم يكن هذا بالحادث المستغرب ! إذ قد سبق الكثيرمن الخبراء العقلاء الغربيين الراسخين علما بالامور الشرقية ، فأنذروا الدول الغربية المرّة تلوالمرّة قبل انفضاض « مؤتمر فرسايل » بسوء العقبى الواقعة فى الشرق ، وانفجار عظيم لابدّ منه . من هؤلاء المنذرين (ليون كايتاى دوق سرمونيته) وهوثقة من ثقات الطليان فى شئون العالم الاسلامى ، فقد قال فى سنة ١٩١٩ فى جملة حديث له ذكر فى نتيجة الحروب العامّة فى الشرق : « إن الحرب الكونية العظمى قد هزّت شجرة الحضارة الشرقية ، فاهتزّت اهتزازا بلغ أقصى الجذور فى التربة ، وبعثت فيها روحا عجيبة ، إن الشرق أجمع من الصين حتى أقصى سواحل البحر المتوسط لميبد ميدانا عنيفا ، ففى كل رقعة و بلد ترى نار العداء للغرب مشبوبة ، ففى مراكش الفتنة ، وفى الجزائر الثورة ، وفى طرابلس الغرب عواصف الاضطراب والهياج ، وفى مصر ، وبلاد العرب ، وليبيا ، وسائر الأقطار الاسلامية ، الحركات الوطنية القومية الكبرى ، جميعها متماثلة الصفة العامّة ، وموحدة الغاية ، بتماسك العالم الشرقى الاسلامى بعضه ببعض ، ومناهضته للحضارة الغربية ما استطاع إلى ذلك سبيلا » انتهى الكلام على المبحث الثانى من الفصل الثالث

الفصل الرابع

فى الكلام على الجامعة الاسلامية ، وهل الشدّة المذكورة فى الآية لاتزال محتملة فى هذا الزمان بعد أن أذاع السلطان عبدالحميد الجهاد العام فلم يفلح

وأن ساسة أوروبا يشهدون بأن الجامعة الاسلامية اليوم أشدّ منها فى كل زمان ، وليس نداء السلطان المذكور شرعيا فى نظر المسلمين :

جاء فى كتاب حاضر العالم الاسلامى مانصه : « قد هاج تيار الجامعة الاسلامية هياجا هائلا ، وثار ثورانا عجيبا فى هذه الآونة الأخيرة ، والباعث على هذا إنما هو الارهاق الغربى ، المتوالى الشدّة والزيادة منذ الزمن البعيد ، ثم كانت الحرب العظمى فاستثارت من الجامعة الاسلامية مالم يستثر من قبل ، ثم ولى الصلح الحرب وهو الصلح الذى سبق لنا فأبنا قواعده ، وأركانه الفاسدة ، وما دهى العالم الاسلامى بسببه من النوازل والفواجع ، ولايعزبنّ عن البال أن الجامعة الاسلامية على مختلف حالاتها وتطوّراتها يجب أن لاتعتبر أنها حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب ، ردّا لاعتدائه ، ودفعا لجوره فحسب ، بل ان منشأها الأصلى هو المشاعر النفسانية الوجدانية العميقة فى المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامة ، تلك الجامعة التى قلنا فيها قبلا انها بين المسلم والمسلم لأقوى منها حقا بين النصرانى والنصرانى ، فان هذه الجامعة ليست دينية فقط ، بل أنها بحقيقة المعنى والمراد اجتماعية خلقية تهذيبية ، وأن القوانين والقواعد التى تتألف منها وتقوم عليها حياة الأسرة الاسلامية على مختلف العادات والأقاليم لاتتغير فى موضع عنها فى موضع آخر فى جميع المعمور الاسلامى . قال السير موريسون : « إن الحق الذى لايمارى فيه أن الاسلام أكثر من معتقد دينى ، إنما هو نظام اجتماعى تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج ، لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها ، وقد انقضى ما انقضى من العهد الذى مابرح فيه الاسلام والنصرانية على نضال ونزاع . فما عرى وهن جانبا من جوانب الاسلام قط ، بل ما أنفكّ على الدوام يشتدّ بعضه مع بعض ، متماسكا متعاضدا ، حتى صار وحدة جامعة نامية نمو الجسم العضوى سائرا سيره بفعل نظامه الذاتى المستقرّ فيه » . فالمسلمون تربط بعضهم ببعض روابط هذه الحضارة ربطا وثيقا لا انفصام له ، وباعتبار هذا المعنى فان الجامعة الاسلامية إنما هى عامة قائمة البناء فى جميع العالم الاسلامى حتى ان المسلمين الأحرار على مايحبذون من الآراء الغربية التى يردون شرعتها من حيث

لايرتاحون إلى دعوة الجامعة الاسلامية السياسية لتمشيها على الطرق الرجوعية يعتقدون كل الاعتقاد فى وجوب الوحدة الاسلامية الشاملة المبنية على أصول الحرّية وقواعدها . قال إمام حرّ من أئمة زعماء المسلمين فى الهند ، وهوأغاخان مايأتى : « إن هناك جامعة اسلامية حقة صريحة ، ينضم إلى لوائها الحرّ كل مسلم مؤمن مخلص ، أعنى بذلك الرابطة الروحانية الوجدانية ، والوحدة الجامعة بين أتباع صاحب الرسالة الاسلامية ، فهذه الوحدة الاسلامية الروحانية التهذيبية ، يجب أن تتعهد فتنمو أبدا ، لأنها عند أتباع النبى أسّ الحياة وجوهرالنفس » . فاذا كان هذا شعور المسلمين الأحرارالواقفين حقّ الوقوف على حضارة الغرب وتقدّمه ورقيه وعمرانه ، والقائلين بوجوب الاقتباس منه والأخذ عنه ، فما أشدّ شعور سواد المسلمين وهم الجاهلون الرجعيون المتعصبون ؟ ضف إلى هذا ماهومعروف فى عامّة المسلمين من الشناعة لاعتداء الغرب وحضارته ، الشناعة التى ليس منشؤها فى كل موضع سيطرة الغرب السياسية ، بل لمجرّد الافراط والغلوّ فى التعصب . وقد كان للحوادث السياسية فى العالم الاسلامى خلال العقد الأخير تأثيركبير فى هذا الافراط والغلوّ ، فالتهب التعصب التهابا بالغا الحدّ ، تدفعه دوافع سياسية خلقية دينية ، وتجمعه صفة واحدة متماثلة متمكنة فى نفس كل مسلم ، فباتت السلم العامّة فى المعمورالانسانى مهدّدة من ناحية العالم الاسلامى ، هذا هوالواقع الذى يجب علينا أن نعترف به ، وأن لانخدع نفوسنا فنستصغرشأن هذه الحالة العصبية اليوم ، ومايحتمل أن ينجم عنها من المخاطرالكبرى فى الغد القريب ، وعلى ذلك ليس من إصابة الحقيقة فى شىء أن يقال ان تركيا قد سبق لها فدعت المسلمين واستصرختهم إلى حرب عامّة ، وحاولت جهدها اقتداح زند الجهاد المقدّس سنة ١٩١٤ نزولا على أمر ألمانيا ، فلم يكن هناك الايراء المراد فذهب الاقتداح باطلا ، بل كان دليلا على أن الجهاد الحقيقى فى العالم الاسلامى بات ضربا من المحال ، إن من حمله الوهم على هذا فهو على خطل شديد ، إذ أن الجهاد لممكن أبدا كل الامكان . قال ضابط ألمانى ، كان من أركان الحرب فى الجيش التركى خلال الحرب العامة قولا صريحا ، وهو : « إن الجهاد الذى أعلنته تركيا قد حبط حبوطا ، لأنه فى الواقع لم يكن جهادا بحقيقة معنى الجهاد عند المسلمين » . وقد سبق لنا فأبنا كيف هبّ قادة المسلمين خارج تركيا ، فأخذوا يستهجنون دخولها فى الحرب ، و بسطنا ماذهب إليه هؤلاء القادة من الخطط والأعمال ، فسلسلة الاعتداءات الغربية الآخذ بعضها برقاب بعض منذ القديم حتى انتهاء الحرب العامة وتقريرالصلح على الأسس والأركان التى ذكرنا صفاتها الفاسدة ، تقريرا كان من شأنه أن بات العالم الاسلامى أجمع خاضعا خضوع الذل والخنوع للسيطرة الغربية ، جميع هذا أثرقلوب المسلمين ، فهبوا هبوب العواصف ، تقتلع كل شىء فى سبيلها ، أضف إلى ماتقدّم أن الأهب المادّية مابرحت تزداد وتستوفى . وقد سبق للمستشرق الكبيرالعلامة أرمينيوس فمبارى الخبير حقّ الخبرة بشؤون العالم الاسلامى ، فأنذرالغرب انذارا منذ أكثرمن عشرين سنة ، قال فيه : « إن السياسة الاستعمارية الهمجية إنما هى السبب فى نشوء المخاطرالعظمى فى الشرق » واليك بعض ما جاء فى مقاله الذى نشره سنة ١٨٩٨ — : « إن الخطر الباعث على حرب كونية عامة يزداد فى الشرق ازديادا عظيما على توالى الأيام ، ولايغيب عن البال أن روح العداء والمقاومة قد اشتدّت ، والصدور وغرت ، والحفائظ اتقدت ، أعنى بذلك أن الشعور بالوحدة العامة والجامعة الرابطة قد صار شعورا عاما ناميا منتشرا فى جميع الشعوب الاسلامية ، وقد كان من المساعد على ذلك الوسائل الحديثة للنقل والتواصل ، فباتت الحالة اليوم غيرها منذ عشر سنين إلى عشرين سنة . وليس من المستغرب أن نقوم على تنبيه الصليبيين فى أواخر القرن التاسع عشر إلى المرلة العالية التى أدركتها الصحافة الاسلامية اليوم من الخطورة والشأن ، وإلى عامّ انتشارها فى آسيا وافريقيا ، ومما لحظتها البالغات . واذ رأيتها أوقطات ، من التأثيرالشديد فى نفوس قارئيها المسلمين ، فالصحف الوطنية التى تصدر بالعربية فى تركيا والهند وفارس وأواسط آسيا وجاوه ومصر والجزائر مفعول عظيم

إذ كل ماتفتكر فيه أوروبا ، وتقرّره ، وتقوم على انفاذه على ما ينافى المصلحة الاسلامية ، تنتشر أنباؤه فى جميع هذه الأقطار بسرعة البرق ، وتحمل القوافل هذه الأنباء إلى كل جهة شاسعة ، وصوب سحيق فى الرقاع الاسلامية ، حتى إلى قلب الصين وخط الاستواء ، حيث يهب المسلمون لتلقى مثل هذه الأنباء معظمين مكبرين فالشرارة التى تستطير من مجمع من مجامعنا ، أوناد من أنديتنا ، أو وليمة من ولائمنا ، فما تزال فى مستطارها ومسبحها فى الفضاء حتى تجوب أقاصى العالم الاسلامى فتقع وقوع الرعد القاصف وماتنشره صحيفة « ترجمان » فى القريم مثلا تردّده صحيفة « اقدام » فى القسطنطينية ويرن صداه عظيما فى صحيفة « الحوادث الاسلامية » فى كلكتا فى الهند ، فالجامعة الاسلامية اليوم مسترخية العرى بعض الاسترخاء ، غير أن اعتداء الغرب على غير انقطاع ، وعسفه المتوالى يزداد اشتدادا على الدوام ، سيحملان على استجماع هذه العرى بعضها إلى بعض فتتماسك وترتبط فتصير الجامعة الاسلامية كالبنيان المرصوص منيع الأركان ، فيتوقع حينئذ من وراء ذلك حرب عالمية مشبوبة فى أنحاء المعمور لاتبق ولاتذر » .

منذ نشر فمبارى انذاره هذا حتى اليوم ، مابرح الأمر يتفاقم والنعرة الاسلامية تثور فى وجه السيطرة الغربية ، وقد زاد فى هذا زيادة كبيرة النهضات القومية والحركات الوطنية الاسلامية التى كانت تكاد لا تعرف فى القرن الماضى ، وهى قد أصبحت اليوم على أتم ما يكون من النظام والكفاية من أسباب الذيوع والدعاية ، ولنا مثال على هذا وهو صحف الدعوة للجامعة الاسلامية وهى التى أشار إليها فمبارى ، فقد تعاظمت تعاظما غير مسبوق المثيل ، ففى سنة ١٩٠٠ م لم يكن فى العالم الاسلامى أكثر من مئتى صحيفة دعوية ، فبلغ هذا العدد سنة ١٩٠٦ حد الخمسمائة صحيفة ، وأربى سنة ١٩١٤ على الألف صحيفة ، فالمسلمون يرحبون فى بلادهم بأسباب النقل والتواصل مثل البرد والبرق والقطارات الحديدية ، وغير ذلك مما يساعد على تطيير الأنباء ونقل الأخبار ، وكل بلاد من بلاد المسلمين هى على اتصال دائم مع سائر البلدان الاسلامية إما توا على يد الرسل والدعاة والحجيج والسياح والتجار والبرد ، وإما على يد الصحف الاسلامية والكتب والنشرات والمجلات ، ففى القاهرة ترى صحف بغداد وطهران وبشاور ، وفى البصرة وبومباى ترى صحف القسطنطينية ، وفى المحمرة وكربلاء وبورت سعيد ترى صحف كلكتا ، وأما الوسائل الكبرى للدعاية فى سبيل الجامعة الاسلامية فهى الطرق الدينية التى سبق لنا الكلام عليها ، وهى حقا كالسيل الطامى فانها ماأدركت أمة مسلمة إلا استوات على مشاعرها وقلوبها ، وسيرتها سهلة الانقياد إلى تعاليمها ، وترى دعاة هذه الطرق يقومون بوظائفهم على أساليب عديدة غريبة ، فهم يجوبون الأقطار بألوف الأزياء المتنكرة تجارا ووعاظا ومرشدين وعلماء ، وطلبة وأطباء ، وعملة ومتسوّلين ، رقباء ومساكين ، حتى ومشعوذين ودجالين ، وحيثما وصلوا ترى المسلمين قد تسارعوا لاستقبالهم على الرحب والسعة ، وأخفوهم عن عيون رقباء الحكومات الاستعمارية » .

زد على جميع هذا أن ساد اليوم فى العالم الاسلامى سيادة عامة الاعتقاد الذى يؤيده الأحرار والعمالة والمحافظون وسائر الأحزاب معا ، أن المسلمين اليوم ختموا دور الهمسة ولانتقال والتجدد يستردون مجدهم الاسلامى الفائت ، ويستعيدون عزهم التليد . قال السر ثيودر موريسون : « ليس من مسلم يعتقد أن الحضارة الاسلامية فانية ، أو غير متجددة مترقية ، بل يعتقد أن قد عرتها فترة قصيرة فحسب ، فقصر المسلمون أمرهم على التطوح فى الاشادة بمجد الجدود ، وتعسروا فى ذلك ، وغلوا شديدا ، ولكن أمرهم هذا ما كان ليختلف فى صفته عن الحال التى كانت سائدة أوروبا فى خلال القرون الوسطى . يوم كان ديجور الجهل مطبقا جميع البلاد النصرانية ، يعتقد المسلم اليوم أن العالم الاسلامى سائر فى طريق استئناف الارتقاء يأخذ عن الغرب مايزيد فى استحداثه ، ويبعث فيه عزما واقداما ونشاطا ، فتطورت الحياة تطورا جددت

دلائله فى كل قطر اسلامى » (١) .

فاذا كان دعاة الجامعة الاسلامية يجهرون بمثل هذه الآراء ، ويصرخون تلك الصرخات فى مفتتح هذا القرن ، وقد جاءت الحرب العالمية مصداقا لما جهروا به السنين الطوال ، فلاجرم أن قويت شوكة الجامعة واتسع لها المجال فاشتدت قوة واندفاعا ، أضف إلى هذا أن الغرب قد انقلب بعد الحرب العظمى ضعيف المنة ، واهن القوة المادية وهنا كبيرا ، ثم جاء الصلح مبنيا على أركانه الباطلة ، وطفق الخلاف ينشب بين الغالبين بعضهم مع بعض نشوبا قوض مكانهم تقويضا وقضى القضاء الأخير على منزلتهم فى عيون الشرقيين ، وقد كان من شأن النزاع والمشادة بين كل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا فى الشرق أن ساعد المسلمين مساعدة جليلة على زيادة تساندهم وتماسك بعضهم مع بعض . فاشتد إيقانهم بادراك المبتغى ، ثم إن هذا التعادى الذى قام به الحلفاء فى الشرق قد سبب أضطرابا سياسيا عظيما فى الغرب ، فبعد التباين واتسعت فرجة الخلاف .

قال أحد كتاب الفرنسيس فى الآونة الحديثة ينذر أوروبا انذارا شديدا : « إن العالم الاسلامى بات لايعترف بحدود أملا كنا الاستعمارية ، والعاقل الذى يريد اعتبار الحقيقة لايعجبن من ذلك أقل عجب مادامت الدعوة الكبرى التى نشرها ورفع علمها جمال الدين فى المسلمين تسير سيرا دراكا » .

وأى شىء أدل على هياج الاسلام ، وغليان مراجل حقده من ذلك الثوران الهائل الذى يقوم به السبعون مليونا من المسلمين فى الهند ، احتجاجا على تجزئة المملكة العثمانية ؟ والأمر الأخطر أن هذا الثوران الاسلامى ليس مقصورا على الهند فحسب ، بل انه شامل المعمور الاسلامى ، وعلى ذلك فلم يغال (السر ثيودر موريسون) بانذاره :

« لقد حان وأيم الحق للأمة البريطانية أن تعتبر وتتدبر خطورة ماهو جار فى الشرق ، فان العالم الاسلامى أجمع ليعج غضبا ، ويحتدم حنقا ، من جراء تجزئة تركيا ، وماهذه اللوامع النارية التى تبدو فى كابل والقاهرة إلا البرق الذى تتلوه الرعود القواصف فالصواعق المزلزلة ، إنى قد أقمت فى الهند أكثر من ثلاثين سنة عرفت فى خلالها المسلمين حق المعرفة ، وأرى من الواجب على الآن أن أنذر أمتى البريطانية بشر عقبى هذا الثوران الاسلامى الناشىء عن تجزئة تركيا التجزئة المنوية ، فان ساسة مؤتمر فرسايل قد خالوا تركيا فى الأناضول منقطعة عن سائر العالم الاسلامى ، فليس من شعب يغضب لها ، ولامن أمة تغار عليها فما أسوأ هذا الخيال الباطل ، والوهم القاتل ! فمن شاء البرهان فلينظر إلى هذه الوفود الاسلامية العديدة الحالة بين ظهرانينا فى لندن كأنها اللهب لايصطلى به ، فالمسلمون قاطبة فى الهند من بشاور حتى أركوت قائمون قاعدون لما يرونه قد حل بساحة تركيا والمسلمين ، حتى باتت النساء المسلمات يعولن اعوالا شديدا ، ويبكين حالة الاسلام بكاء الأمهات أطفالهن ، وترى التجار وهم أبعد طبقات الأمة عن مزاولة الشؤون السياسية يفرون من حوانيتهم ومتاجرهم خفافا إلى حيث ينظمون رقائع الاحتجاج ويطيرونها بالبرق إلى أنحاء العالم وترى الطوائف العديدة من رجال الدين المتقشفين ، المتشددين ، المضروب بهم المثل فى شدة انقطاعهم عن جارى الحوادث فى العالم يخرجون من المساجد مواكب مواكب ليشتركوا فى القيام بالتظاهرات والاحتجاجات »

وأغرب مافى الحالة أن الأحرار قد أخذوا ينتظمون أكثر فأكثر فى عداد رجال الجامعة الاسلامية ويؤيدونها بما استطاعوا من القوة والحول ، على اعتقادهم بوجوب الأخذ عن الغرب واقتباس الآراء والأفكار منه ، وذهابهم مذهبا مخالفا لغلاة الجامعة الاسلامية ، وأرباب الطرق الرجوعية ، والحامل كل

(١) ذكر المؤلف فى هذا الموضع كلاما مقتبسا من كتاب « يقظة الشعوب الاسلامية فى القرن الرابع عشر للهجرة » لمؤلفه يحيى صديق ، أضربنا عن ترجمته . شكيب أرسلان

الحامل

الحامل لهم على ذلك هو اشتداد الضغط والعسف الاوروبي ، فهم إزاء هذا الخطب الكبير يسعون في ودّه بموالاة الأحزاب الأخرى والتحالف معها ولو إلى حين مع علمهم أن الأحزاب الوطنية المغالية وأحزاب الجامعة الاسلامية اذا أثارت حربا عامة باسم الجهاد ، فمن شأن هذه الحرب أن تفجّ غورا بعيد المهوى بين الشرق والغرب ، وتقضى على تلك العوالم والمؤثرات السارية من هذا إلى ذاك وهى التى ترى اليوم دائبة فى كل عرق من عروق العالم الاسلامى ، باعثة فيه القوة والعزم ، ومع علمهم أيضا أن حربا كهذه تشعل نار التعصب الرجوعية فى المعمور الاسلامى ، ذلك التعصب الذى اذا عاد فاتقد أوهن حركة الاصلاح الحديث فى الاسلام إيهانا شديدا فأخرها مدة مديدة . ولعلّ الذى عرف حتى اليوم من ثوران لاسلام لايعدّ أكثر من مقدّمة لما سيحدث فى السنين المقبلة ، ولنا دليل على هذا ظهور الدعوتين العظيمتين للاصلاح الدينى فى الاسلام اصلاحا ضاربا إلى التعصب ، أما الأولى فهى دعوة الاخوان التى نشأت منذ نحو عشر سنين فى نجد قلب بلاد العرب وهى الوهابية عينها التى كانت نشأت منذ مئتى سنة خلت ، وهذه الوهابية الحديثة مابرحت تنتشر انتشارا سريعا حتى طبقت كل نجد ، وعلى رأسها زعيم صحراء بلاد العرب الكبير ، أعنى به ابن السعود ، خليفة سعود الذى كان رأس الدعوة الوهابية منذ مئة سنة ، وأما الاخوان الجدد فعلى تعصب شديد منقطع النظير ، وخطتهم هى حلم الوهابية القديم من الاصلاح الدينى العام فى العالم الاسلامى ، وأما الأخرى فهى الدعوة السلفية التى نشأت فى الهند منشأ يشابه دعوة الاخوان فى نجد ، غير أنها قد انتشرت فى هذه السنين الأخيرة انتشارا عمّ كل رقعة اسلامية ، وغرضها كغرض الوهابية من حيث الاصلاح المزيج بروح التعصب وغالب أتباعها من حلقات الدراويش . هذه هى الحالة التى مع ماتنطوى عليه من مختلف العوامل المبسوطة الذكر تنخر نخرا متغلغلا فى سلم الشرق » انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامى » والحمد لله رب العالمين .

***

نور عَلَى نور

انتشار الاسلام فى أوروبا وأمريكا فى زماننا

وذكر حادثتين اثنتين

من ذلك حادثة أمريكى أسلم ، وحادثة فرنسى عظيم أسلم أيضا ، وهاك قصتهما ، فأما الحادثة الأولى فهى ماجاء فى مجلة « جمعية الشبان المسلمين » سنة ١٣٤٩ هجرية وهذا نصه :

كيف أسلم ؟

ترجمة المحاضرة القيمة التى ألقاها بالانكليزية الاستاذ محمد أفندى عزّ الدين لوماكس الأمريكانى الذى أسلم ، بدار جمعية الشبان المسلمين فى ربيع الأوّل سنة ١٣٤٩ هجرية — ترجمها عبد الحميد سامى بيومى بكلية الحقوق .

بسم الله الرحمن الرحيم

جوهر الاسلام

الاسلام فى جوهره قوة وقدرة من الخالق ، وأن الله سبحانه وتعالى زيادة على وحدانيته وأبديته هو الموجود أزلا ، والموجد لكل موجود : « لاتأخذه سنة ولانوم له مافى السموات ومافى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون بشىء من علمه إلا بماشاء وسع كرسيه السموات والارض ولايئوده حفظهما وهو العلىّ العظيم » .

بين روح الاسلام والإله الواحد الأحد صلة وثيقة العرى لا انفصام لها ، فهوالذى يخرج الانسان من الظلمات إلى النور حيث يجد فى ضياء الاسلام أوّل قبس يشعّ نوره من القرآن الكريم .

بسم الله الرحمن الرحيم : ففى كلمة الرحمن يشعر المؤمن أن الله تعالى هوالإله الواحد الذى يسبغ على عباده النعم فى الحياة الدنيا والحياة الأخرى ، وأن المسلم اسلاما راسخا يعترف لخالقه فى صلواته الخمس بالرضا والنعماء ، وأما كلمة الرحيم فتدلنا أن الله تعالى يشمل برحمته جميع الخلائق ، سواء فى ذلك المؤمن والكافر ، لأنه سبحانه وتعالى يعلم قبل أن يخلق الكافر أنه سيكفر ، وأنه لولا لفظ الرحيم لما سمح للكافر أن يكون حيا يرزق فى الوجود الانسانى ، فمن هنا نرى حقيقة لايدانيها الشكّ أن هذا النور الأعظم وهو نور الإله إنما هوالشفقة والرحمة ، ولذا نجد أن الله الرحيم لايميت عيسى ابن مريم من جراء خطايا هذا العالم الدنىء .

إن روح الدين الاسلامى الحنيف تعلمنا أن الله لم يخلق شيئا عظيم النفع جليل القدر لأجل أن يرد إليه تارة أخرى ، وأن تقرّب إليه القرابين على سبيل التضحية مقابل اقتراف الانسان للمنكرات والآثام ومثل هذا كما يأخذ الانسان من أحد جيوبه مبلغا من المال ثم يضعه فى أحد جيوبه الأخرى .

أما الآية الأخرى من الكتاب الكريم وهى : « الحمد لله رب العالمين » فتعلمنا أن المحامد فى مجموعها وكليتها مرجعها إلى الله مالك الملك ، والمحيط علمه بكل شىء . وأما الآية الرابعة فتدلنا على أن الله تعالى مالك يوم الدين ، لأنه هوالمستثنى من الحساب : « لايسأل عما يفعل وهم يسألون » .

لقد أوحى الله سبحانه وتعالى إلى سيدنا محمد ﷺ روح الاسلام الذى جعله يجهر بالقول فى تعاليم الشريعة السمحة للذين يقرءون ويكتبون من المسلمين ، ومن هنا نعلم أن من يوحى إليه الله بتعاليمه وأحكامه لابد وأن يكون منزّها ومفضلا عن الناس كافة ؛ فسلام الرحيم على نبينا محمد صلوات الله عليه وعليه بركات الايمان واليقين .

ولقد نفذت روح الاسلام من محمد رسول المسلمين إلى الهداة والمصلحين أمثال عمرو بن العاص ، وخالد ابن الوليد ، وأن هذه الروح القوية الأثر هى التى حدت النبىّ ﷺ إلى الهجرة من مكة إلى المدينة بينما كان أعداؤه من المشركين يجدّون فى البحث عنه ليذيقوه ريب المنون ، ومن الغريب أن أعداء النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يقنعوا أنفسهم بترك مكة ، بل تعقبوه فى هجرته ، وهناك ضربوا على نزله سياجا من الحيطة لأجل القبض عليه ، ولكن روح الاسلام الدفينة فى الأعماق ألهمته بأن يتناول قبضة من تراب ويقذفها عليهم ، فأخذتهم سنة من النوم تمكن النبىّ ﷺ من النجاة منهم فى الصحراء حيث اختفى فى غار هناك ، ولا تقل إن اختفاءه فى الغار يحول دون هلاكه وحتفه ، ولكن الاسلام وما فى ثناياه من روحانية رقوة جعل الحمام يبيض على باب الغار ، ولما أدق أعداء النبىّ ﷺ من غشيانهم تتبعوا أثره إلى الغار مدهوشين وأخذتهم هواجس الظنّ لعلمهم أن النبىّ ﷺ لا يمكن بأىّ حال أن يكون فى الغار ! فمن يريد أن يؤمن بوحدانية الله فعليه أن يشاهد بسهولة يد الله المحركة للكائنات من غير أن تبصرها العين المجرّدة ، وبخاصة عند ما أحيطت حياة النبىّ ﷺ من يد العدوان برعاية الطير الذى اندفع إلى حماية محمد ﷺ بيد الإله الخافية عن الأبصار .

متى وكيف اتصل الاسلام بقلبي وهدانى سواء السبيل ؟

ولدت مسيحيا ، ومسقط رأسى الولايات المتحدة ، حيث لادين هناك خلاف المسيحية ، وحيث لايعثر فى تلك الجهة على أىّ نوع من نوع الأدب التى تترد إلى الدين الاسلامى القيم ، بل إلى هذا الضوء اللامع ، والضياء الساطع ، إلى القوة التى يرمز إليها روح الاسلام ، وهناك لايزالون يعلمون الناس أن المسلمين عبدة أوثان ، ولكن (بنئة الحـ) فى عام ١٩١٧ ميلادية اعترتنى مشاعر نفسانية دخيلة ، حركت قلبى ، ودفعت

ارادتى

إرادتى إلى اجتياز خمسمائة ميل ، لأقتات من فضلات موائد المسلمين ، ولآخذ من أدبيات روح الدين الاسلامى بنصيب .

لقد كنت قبل الدخول فى الاسلام والتشبع من هذا الدين : مدمنا على تعاطى الخمر ، لاهيا بالألعاب الاجتماعية ، أما اليوم فتركت هذه الامور ظهريا ، ولا علم لى بالدافع الذى حركنى لترك هذه الطفيليات ، ولكننى أقول وأجزم القول بأنى (أنا) وأتكلم هنا بلغة الاسلام ان الروح الدينية الاسلامية هى التى أوحت إلىّ بهذا الخير ، ولقد شعرت فى نفسى بأنى على استعداد للخدمة فى الكنيسة ، ولكنى إزاء ذلك وجدت أن ما استقرّ فى نفسى كان يتنافر مع أوضاع الدين المسيحى وتعاليمه ، فانتظرت خارج الكنيسة ولم أندمج فى سدتها ريثما ينبثق دين أحسن من هذا الدين الذى كانت الكنائس فى الولايات المتحدة سائرة على منواله ، سالكة سبله وخطاه .

عام ١٩٢٦ فى مدينة شيكاغو انقشع الغشاء عن عينى عند ما ابتدأت فى مطالعات آداب الاسلام الحقة ، وأن جوهر هذا الدين حرّك دكتورا هنديا يدعى ميليك بمدينة لاهور بمقاطعة البنجاب بالهند أن يكتب فى مجلته قواعد لدين الاسلامى الخمس التى تعتبر الأركان الأوّلية الأساسية الجوهرية للاسلام ، وهاك نصها : —

﴿ أولا ﴾ : كلمة أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله .

﴿ ثانيا ﴾ : الصلاة : على كل مسلم عريق فى إيمانه أن يؤدّى الصلوات الخمس يوميا بعد الطهارة والوضوء بالماء النقى الطاهر كى تبقى أرواحنا ، وأجسامنا ، وقلوبنا نقية طاهرة قبل الوقوف أمام الله

﴿ ثالثا ﴾ : الصوم : وهى فريضة صيام شهر رمضان من كل سنة حتى نقف بأنفسنا على ألم الحرمان من الغذاء ، ولنأخذنا قشعريرة الشفقة ، وحساسة الرحمة على المعوزين من أبناء السبيل والفقراء ممن يتضوّرون جوعا ، وبذلك نجنى من قوة الاسلام ونفوذه على الأرواح إيمانا ثابت الدعائم لا تحركه هزات الأباطيل .

﴿ رابعا ﴾ : الحج : وهو فرض على كل مسلم يملك القيام بأداء مناسك الحج فى مكة ؛ وحيث يستشعر المؤمن بالعظمة الربانية ، ويشاهد البيت ، ومقام ابراهيم ، وكل الأعمال الجليلة التى أودعها الله بمكة .

﴿ خامسا ﴾ : الزكاة : وهى فريضة من اليسر بمكان ، فاذا كان المسلم مولعا باقتناء المال وكنزه ؛ أى انه كان حائزا للنصاب الشرعى الذى فرضه الله على المسلم ، ومع هذا لم يدفع حقّ الله المفروض عليه سنويا فقد باء بخسران من سنة شديدة وحلت عليه اللعنة من ربه .

هذه الأركان الخمسة التى انطبعت فى شخصى الضعيف ، وامتزجت بنفسى امتزاجا قويا شديدا لنعم من روح الاسلام جعلتنى أدين بالعبودية لإله واحد لا ثلاثة آلهة كما يقول دعاة المسيحية . انتهى

محمد عز الدين : الخادم المطيع للاسلام

المعرّب : عبد الحميد سامى بيومى

هذه هى الحادثة الأولى ، وأما الحادثة الثانية فهى أيضا منبأة فى مجلة « جمعية الشبان المسلمين » تحت العنوان الآتى فى الصفحة التالية ونصه :

« لكم دينكم ولي دين »

من كتاب الحج إلى بيت الله الحرام

تأليف الحاج ناصرالدين دينه والحاج سليمان بن ابراهيم.

الحاج ناصرالدين دينه هوالمستشرق الفرنسى المصوّرالمشهور ، أوّل من قدّمه لقرّاء العربية فى مصر وعرّف المسلمين الشرقيين به الاستاذ راشد بك رستم بتعريبه رسالة « أشعة خاصة بنورالاسلام » التى وضعها ذلك الفرنسى المسلم الكبير . وفى سنة ١٣٤٧ هجرية وسنة ١٩٢٩ م لم يقعد به كبرسنه عن تأدية فريضة الحج برفقة صديقه الحاج سليمان بن ابراهيم الجزائرى ، وبعد عودتهما وضعا مذكراتهما التى دوّنا فيها رحلتهما إلى الأقطارالحجازية المباركة ، وبعد وفاة ناصرالدين فى ديسمبرسنة ١٩٢٩ م تولت مكتبة (هاشيت) الشهيرة بباريس طبع ونشر تلك المذكرات فجاءت كتابا وافيا ، يشتمل على مقدّمة وسبعة فصول وخاتمة وملحق ذى فصلين ، تقع جميعا فى أكثر من مائتى صفحة ، وقد حلاها السيد ناصرالدين بثمان صور من صنع يده ، مثل صورة الكعبة المكرّمة ، والحرم الشريف ، ومنظرالحج بعرفات ، وصلاة المغرب حول الكعبة ، وجبل النور الذى تلقى عنده الرسول الأمين الوحى عند نزوله أوّل مرّة ، وجميعها آية فى فنّ التصوير . وقدرأيت أن أعرب لحضرات قرّاء مجلتنا الزاهرة خاتمة هذا الكتاب لما ورد فيها من أمورحيوية جدير بالمسلمين أن يتنبهوا إليها لعلّ لهم فيها عظة وذكرى .

لقد استرعت أنظارنا بصفة خاصة أثناء رحلتنا أمورثلاثة على جانب من الأهمية بالنسبة للمستقبل وهى : ﴿ أوّلا ﴾ قوّة الحياة الكامنة فى اللغة العربية ﴿ وثانيا ﴾ قوّة العقيدة الاسلامية ﴿ وثالثا ﴾ إصرار أوروبا فى عداوتها للاسلام إصرارا ظاهرا أومستترا :

أولاً : قوة الحياة الكامنة فى اللغة العربية

اتخذ بعض اللاتينيين ديدنا لهم إظهار اللغة العربية الفصحى بمظهرلغة ميتة وغيرمفهومة عند ثلاثة أرباع المتكلمين بها من العرب ، أما لغة الكلام فهى فى نظرهؤلاء اللاتينيين عبارة عن لهجات عامية لاارتباط بينها ومصيرها الفناء بعد زمن قليل : ولكن حسب الانسان أن يذهب إلى الشرق ، إلى مصر ، أوسوريا ، ليتجلى له البرهان القاطع على أن اللغة العربية التى وئدت قبل أن يحين أجلها هى على عكس مايذهبون إليه لغة حية بكل مافى الحياة من قوّة ، لدرجة أن جميع الأجانب المقيمين فى هذه الأصقاع لايجدون مفرّا من تعلمها ، والا حيل بينهم و بين القيام بتصريف أمورهم ، وفى مكة على وجه التخصيص يشاهد الانسان أكبرمظهر من مظاهرحياة اللغة العربية ، فان لغة الكلام هناك تكاد تكون الفصحى بعينها ، ومن السهل أن يفهمها جميع الناطقين بالضاد فى جميع الأقطار . أما الاختلاف الواقع بين اللهجات المتعدّدة فعديم الأهمية لأنه لايحول دون تفاهم المراكشيين والسوريين والحجنيين وغيرهم فيما بينهم اذا جمعتهم الظروف فى مكان واحد والعناء الوحيد الذى يلاقيه المتكلم ينحصر فى اللهجة المصرية بسبب اختلاف النطق بحرفى الجيم والقاف ، وهناك الألوف من الحجاج الأعاجم (غير العرب) الذين يقبلون على تعلم اللغة العربية بشغف زائد ليتسنى لهم قراءة القرآن واستيعاب معانيه ، والكثيرون منهم يقدرون على التعبيربها من غير ماخطأ بالرغم من سقم نطقهم ، ولقد تسنى لنا محادثة بعض الجاويين ، والهنود ، والفارسيين ، والخراسانيين ، وأهالى البوسنه والأتراك ، والالبانيين ، وأهل القوقاز ، والسنغال ، والسودان ، من غير أن تصادفنا صعوبة تذكر .

أما العرب والبدو من سكان الحجاز ونجد فقد تولتنا الدهشة من الشبه الكبير بينهم و بين بدو صحراء

افريقيا الشمالية فى تعبيراتهم ونغماتهم وأفكارهم . واللغة العربية الفصحى تشابه فى الواقع اللغة الفرنسية ، وهى مثلها لغة حية ، وتتفق وإياها فى طريق التعبير والادلاء ، أما اللغة العامّية فلاتختلف لهجاتها عن بعضها بأكثر من اختلاف لغة فلاحى شمال فرنسا عن لغة فلاحى جنوبها ، ويجد الانسان فى دراسة تلك اللغة العجيبة ميزة خاصةبها ، فانها (من بين جميع اللغات القديمة) اللغة الوحيدة التى لاتزال حية للآن ، ولوعاد اليوم أحد معاصرى النبيّ ﷺ لما وجد أية صعوبة فى التفاهم مع جميع الناطقين بالضاد ، على حين أنه لوعاد أحد معاصرى قيصر لما تأتى له إلا أن يتكلم مع بعض الأساتذة المدرّسين ، ومع ذلك فمن المشكوك فيه أن يتسنى له أن يفهمهم كل الفهم ، كما أن أحد معاصرى (فرنسوا الأوّل) لوعاد لوجد صعوبة تامّة فى التخاطب مع فرنسي اليوم .

وآداب اللغة العربية (دون آداب اللغات الحية) أقلها انتشارا ، لأنها أدقّ على الفهم ، ولأن الموجود منها بين أيدينا مترجما إلى اللغات الأوروبية معظمه محشوّ بالأخطاء وعلى جانب من السخافة المزرية ، وفى الواقع لأجل الالمام بآداب اللغة العربية وتفهيمها للغير يجب أن لا يكون المترجم لها ممن درسوا اللغة العربية حقّ دراستها فحسب ، بل يجب أن يكون شاعرا ، وأن يكون ممن عاشوا بين ظهرانى العرب المسلمين وعاشروهم مدّة طويلة ، فأمثال هؤلاء يجدون فى آداب العربية كنوزا مدخرة قلّ أن يوجد لها نظير فى جمالها ونوعها ، وللغة العربية ميزة أخرى ، وهى انها منتشرة فى أقطار واسعة تمتدّ من شواطئ الاطلانطيق إلى بلاد فارس وخليج العجم ، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى بلاد السودان ؛ وكثيرا مايقابل الانسان جماعات كبيرة من المسلمين يتكلمون العربية فى الأقطار الواسعة الواقعة بين بلاد فارس والهند وشواطئ المحيط الهادى ، وان فى دراسة اللغة العربية فوائد لاتنكر لاسيما للفرنسيين ، بل هى أكبر أهمية من دراسة اللغة اليونانية القديمة واللاتينية ، وتعادل دراسة اللغتين : الانكليزية والألمانية ، ويجب أن تدرس فى جميع المدارس الثانوية فى فرنسا والجزائر وتونس والمغرب الأقصى .

ثانيا : قوة العقيدة الاسلامية

وقف القرّاء فيما أوردناه فى هذا الكتاب على مقدارقوّة العقيدة الاسلامية الهائلة ، ولذلك لاحاجة بنا إلى تكرارمارأيناه من المعجزات التى تجلت لنا من جراء فعل هذه العقيدة بالنفوس ولكن من باب التدليل على عظمة هذه القوّة نقتطف فيما يلى بعض الفقرات الواردة فى الكتاب الذى وضعه القس (زويمر) والذى أتى فيه على شرح انتشار الاسلام أيقظته المحن التى نزلت به منذ الحرب الكبرى . قال : « منذ سنة ١٩٠٥ عاد خمسون ألفا من الروسيين الذين كانوا يتسمون بأسماء مسيحية إلى حظيرة الاسلام (صفحة ٢١٠) وأن السودان الواسع الأرجاء بسكانه البالغين ٥٠ مليونا من النفوس ، وقبيلة هاوسا الكبيرة ، وقبائل بلاد النيجر ، والشاطئ الذهبى ، أسلم الكثيرون منهم ، بل هم على وشك أن يصيروا جميعا مسلمين ، ولاريب أن الموج يرتفع قهرا دون أن يلقى مقاومة (صفحة ٢٣٥) وفى ابنغال (مقاطعة من مقاطعات الهند) أسلم أكثر من ١٠ ملايين نفس ، وكذلك فى برمانيا (بجوار الهند) زاد عدد المسلمين بنسبة الثلث فى بحرعشرسنوات[1]

وأخيرا نثبت هنا مافات زويمرا أن يذكره ؛ وهو أنه يوجد فى جميع أنحاء أوروبا وأمريكا من اعتنقوا الاسلام ؛ وإذا كان هذا الأمر لايزال قليل الأهمية بالنظر لقلة عدد المعتنقين (وان كان عددهم لابأس به) فانه ذو أهمية كبرى نظرا لمركز هؤلاء المعتنقين الذين ينتمون إلى الطبقات الراقية المتعلمة ؛ ونذكر منهم على سبيل المثال (اللورد هيدلى) الانكليزى ؛ وصديقنا المأسوف عليه المرحوم كريستيان شرفيس أحد تلاميذ

(١) انظر كتاب « الاسلام » تأليف س . و . زويمر

أوغست كومت ، وأديب من أدباء فرنسا المعدودين ، وفيلسوف من فلاسفتها المشهورين .

ولوكان الاسلام الحقيقى معروفا فى أوروبا لكان من المحتمل أن ينال (أكثر من أىّ دين آخر) من العطف والتأييد من جراء روح التدين التى نجمت عن الحرب الكبرى ، فانه والحقّ يقال يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم فهو (ببساطته المتناهية كما يذهب إليه المعتزلة ، وباشتماله على روح التصوّف كما يذهب إليه أهل الصوفيـة) يهدى علماء أوروبا وآسيا إلى الطريق المستقيم ، ويجدون فيه تعزية وسلوى من غير أن يحول بينهم و بين حرّيتهم التامّة فى آرائهم وأفكارهم ، كما أنه هدى وتعزية لزنوج السودان الذين ينتزعهم من أحضان أوهامهم الوثنية ، ويرقى بروح ذلك التاجر الانكليزى رجل العمل الذى يعتبر الوقت من ذهب كما يرقى بروح الفيلسوف المتدين ، ويسمو بنفس الشرقى المفكر ذى التأملات والخيال ، كما يسمو بنفس الغربى الشغوف بالفنّ والشعر ، بل هو يسحر لبّ الطبيب العصرى بما قرّره من الوضوء المتكرّر كل يوم ، وبما فى الصلاة من حركات منتظمة ، تفيد الجسم والروح معا ، وفى وسع حرّ الفكر (وهو ليس ملحدا حتما) أن يعتبر أن الوحى الاسلامى عمل من أعمال تلك القوّة الخفية التى نسميها (الالهام) وأن يعتقد به من غير أية صعوبة بما أنه لايحتوى على أسرار خفية لايسيغها العقل .

ثالثا : عداوة أوروبا للاسلام

إن الكثيرين من القرّاء يعترضون على ملاحظتنا الخاصة بعداوة أوروبا للاسلام ، فان هذا الشعور السيئ لاوجود له فى الحقيقة عند عامة الاوروبيين ، بل هناك الكثيرون من غواة الفنّ وعشاق السياحة يشعرون بعطف خالص على الاسلام واعجاب كبير بذلك الدين الجذاب الذى أتى بآيات الاعجاز .

ولكن ممايؤسف له أن أوروبا متمسكة بتقاليد سياسية يرجع تاريخها إلى عهد الحروب الصليبية ولم تحد عنها للآن ، وكلما همت بنسيانها قام فى الحال أعداء الاسلام أمثال (غلادستون) و (كروس) و (بلفور) ومطران كنتربورى والمبشرين من جميع المذاهب فى وجهها ، لصدّها والعودة بها إلى تلك التقاليد العدائية (وهنا استعرض المؤلفان بعض الحوادث السياسية مما لايجهله القرّاء ومما يخرج بنا عن الخطة التى ارتسمتها المجلة لنفسها ؛ وبذلك لم نر بدّا من إغفال ما ذكره فى هذا الصدد) .

كراهية الاسلام تحت ستار العلم

جرت العادة عند ما يدرس أحد العلماء موضوعا من المواضيع أن يشغف به كل الشغف ، ويرى جميع المحسن مجتمعة فيه ، ومايزال عالقا بأذهاننا ما كان يبديه أحد أساتذتنا من الحماسة والاعجاب بأشعار فرجيل التى كان يحتم علينا استظهارها ، وكذا الحماسة التى كان يظهرها أحد علماء التاريخ الطبيعى عند مايقع نظره على الديدان الموجودة فى أحشاء كلب ميت .

ولايوجد لهذه القاعدة سوى استثناء واحد ، والاسلام هو فى هذه المرّة أيضا محور هذا الاستثناء ، ففى الواقع توجد ليدن جماعة من المستشرقين لاغرض لهم من دراسة اللغة العربية والبحث فى الدين الاسلامى سوى تشويههما والطعن فيهما . انتهى ما جاء فى « مجلة جمعية الشبان المسلمين » وبهذا تمّ الكلام على الجوهرة الأولى فى قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية فى قوله تعالى : رحماء بينهم

مع قوله تعالى فى سورة الحجرات الآتية بعد هذه : إنما المؤمنون إخوة

وفيها فصلان : الفصل الأوّل

جاء فى مقدّمة كتاب « حاضر العالم الاسلامى » للعالم الأمريكى (لوثروب ستودارد) ملخص مايوضح معنى : « رحماء بينهم » ومعنى : « إنما المؤمنون اخوة » وذلك بتدوين تاريخ الرسالة المحمدية ، وبيان أخلاق العرب القدماء وتفرّقهم ، والنصارى وخرافاتهم ، والقياصرة وظلمهم ، والأكاسرة واستبدادهم ، وكيف جاء الاسلام لجمع هذه الأمم على الاخوة الاسلامية ، ثم أبان أيضا كيف أصاب هذه الاخوة ماشتت شملها ، وفرّق جمعها ، وذلك بحب الاستبداد بالخلافة والرجوع إلى العصبية الجاهلية فى الأمم العربية ، فتبع ذلك أن استبدّ الترك الجفاة الغلاظ بالأمم الاسلامية فتفرّق الجمع ورجع الاسلام القهقرى ، واستعرت نيران الخلاف بين الفرق المتباينة الاسلامية ، ولما كثر الظلم ، واشتدّ الحيف وازداد ، وبلغ السيل الزبى ، امتدّت نيرانه إلى النصرانية ، فضيق الترك المسلمون عليها الخناق ، فى غدوها ورواحها للحج ، فكانت الحروب الصليبية ، ولولا أخلاق الترك لم تكن هذه الحروب .

ولقد أصيب الاسلام فى الشرق بالمغول وعلى رأسهم جنكيزخان ، وأصيب فى الغرب فى بلاد الأندلس بتفرّق كلمة العرب ، فزالت الدولتان الشرقية والغربية ، وهنالك ظهر الترك العثمانيون فملكوا أقطار الاسلام كلها بعد أن أقفرت أعظم ديار الاسلام أيام المغول ، وخربت بغداد ، وبلاد العراق ، ثم إن أوروبا أخذت تستيقظ إذ ذاك فهجمت على بلاد الاسلام واقتسمتها ، فقام المسلمون اليوم وعرفوا الحقائق ، فاستيقظوا من سباتهم العميق ورجعوا الآن إلى آية : « رحماء بينهم » وآية : « إنما المؤمنون إخوة » .

هذا ملخص المقدّمة التى كتبها مؤلف « حاضر العالم الاسلامى » الأمريكى : كل ذلك قصصته على صاحبى العلامة الذى يحادثنى فى هذا التفسير . فقال : هذا كلام جيد فى نرجة والاخوة الاسلامية ، والله انه نور على نور ، وكيف لا يكون ذلك . الكتاب ﴿ أوّلا ﴾ حديث العهد ﴿ ثانيا ﴾ ان كاتبه أمريكى نصرانى ﴿ ثالثا ﴾ إن فيه ملخص تاريخ النبوّة وملوك الاسلام ﴿ رابعا ﴾ ان الاخوة الاسلامية التى جاءت فى هذه الآية ظهرت فى أوّل تاريخ الاسلام ورجعت تظهر الآن كرة أخرى لاسعاد أهل الأرض ، والله إن هذا التفسير لو لم يكن فيه سوى هذا المقال لكفى ، بل لو لم يكن للنبىّ العربىّ معجزة سوى هذه لكفت ، بل لو لم يكن للمسلمين الحاليين نبراس وسلاوة ومنعة وعزّة سوى هذه الآراء لكفتهم فى رقيهم ، فاذا أنت نقلت نفس هذه المقالة لتسمعها الأمم الاسلامية المنبثة فى أقطار المسكونة . فذلك حقا يلهب فى قلوبهم نار الحماسة الأخوية والمحبة الاسلامية ، وتسرع فى رقيهم بها ، ويعلمون ماهم عليه من اليقظة والقوّة ، وتذهب تلك الوساوس والخوف والتشاؤم واليأس ، ويحلّ فى القلوب نور التفاؤل والتقدّم والسعادة والفلاح . فقلت : جاء فى الكتاب المذكور فى المجلد الأوّل تحت عنوان « تمهيد للمؤلف » مانصه :

إن العالم الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، قد تغلغلت فيه عوامل الانقلاب بعيدا متغلغل ، وانبثت فى عروقه فواعل التبدّل أوسع منبثّ ، حتى كمل اختماره ، وتمّ استعداده . وراح يجتاز هذا الدور الخطير فى التحوّل ، تؤازر القوى إلى مالاحدّ له ، فاذا ماسرّحت ببصرك نحو العالم الاسلامى رقعة رقعة ، من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان إلى الكونغو . رأيت الـ ٢٥٠،٠٠٠،٠٠٠ من المسلمين قد ثارت نفوسهم مشتدّة الحركة والانفعال ، نازعة إلى كل ضرب جديد من ضروب الآراء والأفكار ، والمطامع والآمال ، وأن عنى هذا الانقلاب الشامل لعظيمة جدا ، وستتأثر بنتائجها العميمة أمم الأرض جمعاء ، ولله الأمر من قبل

ومن بعد .

على أن العامل الأكبر فى هذا الانقلاب هو الحرب العامة ، ولكن منشأه يراه المستقصى أقدم عهدا وأبعد أصلا ، إذ أن بذوره قد ألقيت فى ترب العالم الاسلامى قبل الحرب الكبرى بمائة سنة بل أكثر ، ومنذ ذلك الحين درجت هذه البذور تنمو متزايدة الاستعداد والقوة الحيوية ، نموا مستسر المنهج ، بطىء الحركة فى أول العهد ، ثم على التوالى صار أوضح سبيلا وأوسع انتشارا ، ومازال الانقلاب الاسلامى على مسراه هذا حتى أدركته الحرب العامة التى قد تضعضع منها الكيان ، فكانت عامل الثورة جأة فى المعمور الاسلامى فطفق يثور ويهتاج منتقلا من حال إلى حال ، مر بد الجو بقاتم السحب ، لايسمع فيه السامع إلا القواصف . وان وصف هذا الانقلاب العجيب ، ودور التحول العظيم ، وما إليهما من مختلف الأسباب والعلل والنتائج هو غرضنا الذى قد ابتغيناه من اخراج هذا الكتاب للناس ، وقد كنا فى ذلك من الذين يصورون الشىء كاملا تاما ، فأتينا على بيان كل صور الانقلاب من دينية وتهذيبية وسياسية واقتصادية واجتماعيـة ، وفى كل من هذه تناولنا الكلام على سببها وتكونها ، ونشوئها وترقيها ، وعمومها وانتشارها ، وصفاتها وحالاتها ، وما فيها من قوة انسياق وعامل ، أضف إلى هذا أننا لم نغفل إيضاح مافى بعض المواضع من الاختلاف بسبب الاقليم والبيئة ، من حيث أننا قد بسطنا تلك المضارعة العامة والصفة الكلية ، بما هو مصاحب لجميع الحركات على اختلافها مصاحبة دالة على ماهنالك من وحدة متوخاة فى هذا الانقلاب الاسلامى .

إن موضوع الكتاب وان كان مختصا بالعالم الاسلامى فى المقام الأول ، غير انه تناول الكلام على غير المسلمين كالعناصر الهندوية (الهندوس) فى الهند وسواهم استيفاء للغرض من جميع الوجوه التى لها صلة بالموضوع ، لذلك جعل الكلام كافيا وافيا فى شأن الشرقين الأدنى والأوسط ، أما الشرق الأقصى فلم نتناول الكلام فى أحواله مباشرة ، ولكنا قد أشرنا إلى ماهو مشاهد من الشبه والمماثلة بينه و بين العالم الاسلامى فى الماجريات العامة إشارة ينبغى للقارىء أن يقيم لها وزنا اه

ولنشرع الآن فى ذكر مقدمة الكتاب المذكور ، فقد جاء فيه تحت العنوان التالى مانصه :

نشوء الاسلام وارتقاؤه وانحطاطه

يفنى البرايا ويأتى الوقت مختلفا * ليخرج الدهر تاريخا من الرمم

كاد يكون نبأ نشوء الاسلام النبأ الأعجب الذى دون فى تاريخ الانسان ، ظهر الاسلام فى أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان ، و بلاد منحطة الشأن ، فلم يمض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر فى نصف الأرض ، ممزقا ممالك عاليـة الذرى ، مترامية الأطراف ، وهادما أديانا قديمة كرت عليها الحقب والأجيال ، ومغيرا مابنفوس الأمم والأقوام ، و بانيا عالما حديثا متراص الأركان ، هو عالم الاسلام .

كلما زدنا استقصاء باحثين فى سر تقدم الاسلام وتعاليمه ، زادنا ذلك العجب العجاب بهرا ، فارتددنا عنه بأصرف حسرة ، عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت ثم أنشأت تسير فى سبيلها سيرا بطيئا ، ملاقية كل صعب ، حتى كان أن قيض الله لكل دين منها ما أراده له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ، ثم أخذ فى تأييده والذب عنه ، حتى رسخت أركانه ، ومنعت جوانبه ، بطل النصرانية قسطنطين ، والبوذية أسوكا . والمزدكية قيا كسرو ، كل منهم جبر أيد دينه الذى انتحله بما استطاع من القوة والأيد ، لا كمثل الأمر كذلك فى الاسلام . الاسلام الذى نشأ فى بلاد صحراوية ، تجوب فيافيها شتى القبائل الرحالة التى لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة فى التاريخ ، فسرعان ماشرع يتدفق و ينتشر وتتسع رقعته فى جهات الأرض ، مجتزا أفدح الخطوب وأصعب العقبات ، دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أزر

مشدود

مشدود ، وعلى شدة هذه المكاره فقد نصر الاسلام نصرا مبينا عجيبا ! إذ لم يكد يمضي على ظهوره أكثر من قرنين حتى باتت راية الاسلام خفاقة من « البيرينيس » حتى « حلايا » ومن صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط افريقيا .

كان لنصر الاسلام هـذا النصر الخارق عوامل ساعدت عليه ، أكبرها أخلاق العرب ، وماهية تعاليم صاحب الرسالة وشريعته ، والحالة العامة التى كان عليها المشرق المعاصر فى ذلك العهد ، إن العرب وان كان ماضيهم مابرح منذ عهد متطاول فى القدم حتى عصر الرسالة ماضيا غير مشرق باهر ، فقد كانوا أمة استودعت فيها قوة عجيبة ، تلك القوة الكامنة التى بدأت منـذ نشوء الاسلام تظهر جلية إلى عالم الوجود ، فقد ظلت بلاد العرب أجيالا طوالا من قبل محمد ، مباءة يشتد فيها تزخار القوى الحيوية ، وجيشان العوامل الروحانية ، كيف لا وكان العرب قد فاقوا آباءهم وأجدادهم إيغالا فى الشرك والوثنيـة ، وانقضى عليهم وهم على هـذه الحالة عهد ليس بالقليل حتى استحالت عناصر أمزجتهم من شدة ذلك كله فصاروا تواقين بفعل غرائزهـم وأخلاقهم إلى تبديل حالهم ، وتحسين شأنهم ، هكذا كانت حالتهم العقلية والنفسانية حالة الاستحالة الكبرى والانقلاب العظيم ، والاستعداد الكبير ، لما صاح فيهم نفير الاسلام ، ان محمدا وهو عربى من العرب ، وروح قومه متجسدة ، ونفسهم متجسمة ، استطاع وهو يبشر بالوحـدانية تبشيرا عاريا عن زخارف الطقوس والأباطيل أن يستثير حق الاستثارة من نفوس العرب الغيرة الدينية ، وهى الغيرة الكامنة متمكنة على الدوام فى كل شعب من الشعوب السامية ، و إذهب العرب لنصرة دعوة ابن عبـد الله ، من بعـد ماذهبت من صدورهم الاحن المزمنة ، والعداوات الشديدة التى كان من شأنها من قبل الذهاب بحولهم وقوتهم ، وانضم بعضهم إلى بعض كالبنيان المرصوص تحت لواء الرسالة فى رأسه نور الناس وهدى العالمين ، أخذوا يتدفقون تدفق السيل من صحاريهم فى شبه الجزيرة ليفتحوا بلاد الإله الأحد الفرد الصمد .

أجل ، هب الاسلام من شبه الجزيرة هبوب العاصف الزعزع ، فلاقى فى سبيله جوا روحانيا خاليا ؛ فى ذلك العهد كانت كلتا مملكتى فارس و بيزنطية باديتين للعيان كأنهـما المحاء الجاف فارق عوده لانمو فيه ولاحياة ، وكان الدين فى كل من هاتين المملكتين صاردين يزرى عليه و يسخر منه ، أما فارس فقد كان دين المزدكية القـديم قد انحط انحطاطا كبيرا حتى أصبح مجوسية باطلة وصـناعة خداعة بين أيدى الموابذة يظلمون به الخلق ويضطهدونهـم بكل قسوة ، فكره الناس ذلك الدين فى الباطن كرها شـديدا ، ومقتوه مقتا عظيما .

وأما فى القسم الشرقى من المملكة الرومانية ، وهو مملكة بيزنطية فقد ألبس الدين فيها لباسا غير لباسه الأول فاستحال إلى الأباطيل الشركيـة وانتشرت فيه الأوهام والخزعبـلات التى كان يقوم بها علماء الدين اليونانيون ذوو العقول السخيفة والآراء الفاسدة ؛ ففسـدت النصرانية عبثا وسخرية ؛ وعلى الجملة فقد كانت البدع والضلالات قد مزقت المزدكية الفارسية والنصرانية البيزنطية شر ممزق ، وبذرت فى كل منها بذور الاضطهادات الهمجية ، والعـداوات الوحشية ، فنمت تلك البذور نموا هائلا ، ولايعزبن عن البال أنه كان على رأس كل من بيزنطية وفارس سلطان مستبد دهر ، وملك عات أرهق الرعية إرهاقا لاقبـل لأمة باحتمال مثله ، فماتت كل عاطفة من عواطف حب الوطن والاخلاص بدولة ، زد على جميع ذلك أن هاتين المملكتين كانتا على حال من الضعف شديدة بعيد حرب طاحنة ، التظت نيرانها بينهما ؛ خرجت كلاهما منها مفتوتا فى عضدها ، منهوكة قواها .

هكذا كانت حالة العالم لما غشيه طوفان الاسلام ؛ وعلى هـذا لاعتبار فإن العاقبة التى رآها العالم بعيد ذلك كانت مما لابد منه ولامندوحة عنه ؛ وجميع ما فى الأمر أن كتائب المملكة الرومانية الشرقية ومتدرعة

فارس ، كانت من قبل خوّاضة حرب فتاكة ، لم تقوالآن على صد حملة الحاملين عليهما من أمة الصحراء المتعصبة ، فسقطت أمام الفاتحين العرب سقوط التلاشى والاعياء ، فلهذا لم يدافع المغلوبون عن أوطانهم حسا أبطالا ، بل ان هذه الأمم التى كانت حتى الفتح الاسلامى مدقوقة العنق من جانب ملوكها ، قبلت الفاتحين مستسلمة ، فقام عديد أرباب البدع يتهللون فرحا وسرورا لنجاتهم من نير المضطهدين المقوتين ، ولم يمض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الأعظم من هذه الأمم المغلوبة قد دخل فى دين النبى العربى أفواجا ، إيثارا له بجدته وسذاجته على ذينك الدينين اللذين صارا غاية فى الانحطاط والتدنى ، وقد عرف العرب بدورهم كيف يستدنى الحكم ويوثق السلطان حتى دانت لهم أمور الملك واستقرت نقطة دائرتها فى أيديهم ، فالعرب لم يكونوا قط أمة تحب إراقة الدماء ، وترغب فى الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على الضد من ذلك ، أمة موهوبة جليل الأخلاق والسجايا ، توّاقة إلى ارتشاف العلوم ، محسنة فى اعتبارنم التهذيب تلك النعم التى قد انتهت إليها من الحضارات السالفة ، واذ شاع بين الغالبين والمغلوبين التزاوج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعا ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة ، الحضارة العربية وهى جماع متجدّد التهذيب اليونانى والرومانى والفارسى ، ذلك الجماع الذى نفخ فيه العرب روحا جديدة ، فنضر وأزهر ، وألفوا بين عناصره وموادّه بالعبقرية العربية والروح الاسلامية ، فاتحد وتماسك بعضه ببعض فاشرق وعلا علوّا كبيرا ، وقد سارت الممالك الاسلامية طيلة القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ — ١٠٠٠ م) أحسن سير ، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقيا ، وتقدّما وعمرانا ، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة ، والحواضر العامرة ، والمساجد الفخمة ، والجامعات العلمية المنظمة ، وفيها مجموع حكمة القدماء ومختزن علومهم ، يشعان اشعاعا باهرا ، طيلة هذه القرون الثلاثة ما انفكّ الشرق الاسلامى يضىء على الغرب النصرانى نورا ، ثم غابت كواكبه ، وأفلت أنجمه ، حتى أدركته لياليه السوداء ، وأجياله المظلمة ،

لم يكد يستهلّ القرن العاشر حتى تبدّت الظواهر الواضحة تدل على حينونة العهد الذى أخذت فيه الحضارة العربية فى الانحطاط ، وما كانت تلك الظواهر لتكذب فيما دلت عليه ، غير أن تلك الحضارة إنما كانت فى أوائل عهد الانحطاط تهبط دركة دركة ، وعلى هذه الحال المستمرّة ، وانقضاء العصر العربى منذ القرن العاشر فقد دامت الحضارة العربية جلدة تنتزع حياتها من مخالب الفناء انتزاعا ، وسابقة للغرب النصرانى حتى حاول النازلة الكبرى التى حلت بساحتها فى القرن الثالث عشر ، وكانت الأسباب فى انحطاط الحضارة الاسلامية جمة أشدها أن روح الشقاق القديمة الأصل ، تلك الروح التى كانت على الدوام آفة سياسية تنخر فى جسم الدولة عادت فنهرت إذ نشأ التنزع على امرة المؤمنين . وهذا التنازع قد أفضى إلى فتن دموية ، وهذه الفتن وما فيها من حوادث الاغتيال وسلب الأرواح قد أفنت تلك الحرارة التى عرفت فى صدر الاسلام ، فقام مقام الأبطال الاول ، مثل أبى بكر وعمر ، حامى لواء الاسلام الأوّلين ، أمراء دنيويون ، اتخذوا الخلافة وسيلة للجور والظلم ، والتباهى بمتاع الدنيا وأعراضها ، وكانت الخلافة فى المدينة فى الحجاز ، ثم نقلت إلى دمشق فى سورية ، ثم إلى بغداد فى العراق . أما فى الحجاز فلم يكن البغى ولا الاستبداد هناك مستطاعا ، لان عرب الصحراء الأشداء ، أهل الاستقلال والحرية ليس من شأنهم الخضوع لحاكم قاهر ، ولا الانقياد لآمر مرهق ، وقد أوصاهم النبى بالحرية والشورى فقال لهم قولا مبينا : « إنما المؤمنون إخوة » وقد كانت الخلافة فى الحجاز شورية قائمة على قواعد الاسلام الصحيحة وأركانه ، والأمة هى التى اختارت أبا بكر وعمر وولت كلا منهما عليهم خليفة ، وكلاهما كان ينزل على رأى الأمة وحكمها ، وذلك على مقتضى الشريعة التى أوحى الله بها إلى نبيه محمد وهى القرآن الكريم . وأما فى دمشق ، ولاسيما فى بغداد ، فقد تحولت الأحوال ، وتبدّلت الامور . ولا يعجبن من ذلك ، فالعرب أنفسهم لأقحاح ، الجارى فى عروقهم الدم العربى البحت ،

الدم المتحدر إليهم من أصلاب أبناء الجزيرة ، إنما كانوا فئة قليلة فى أفواج الناس ، وطوائف الخلق الذين لاعداد لهم من أهل الشام وفارس وغيرهم من سائر المغلوبين المنتحلين الاسلام حديثا ؛ فامتزج دم الغالب بدم المغلوب ، وجمع الاسلام بين الأجناس المختلفة والنحل المتنوّعة ، ولما كانت جميع هذه الشعوب المغلوبة قد سئمت الذّل من ملوكها السابقين ، فعادت بسبب ذلك لاتقوى على احتمال الارهاق والصبر على المحنة ، لحدثان مادامت خاضعة مصافية للخلفاء المسلمين الذين أخذوا على التوالى يصطنعون ويستكفون من هذه الرعايا عمالا وحاشية ، وبالتالى جندا لحراسة سياج الملك والذبّ عن حياض الدولة ، ومازال الأمر هكذا حتى عرا الملك العربى ماعراه من النوائب ، فأخذ ظلّ سلطان العرب ، وقد ولت غرر أيامهم يتقلص إلى الصحراء ، وأنشأت حكومتهم تنقلب إلى مطية من مطايا الاستبداد الشرقى ، ولما نقلت الخلافة إلى بغداد بقيام دولة بنى العباس (٧٥٠ م) ازدادت كلمة الفرس نفوذا ؛ وامتدّ شأنهم وسلطانهم إلى كل زاوية من زوايا الدولة ، وما الخليفة الأعظم هرون الرشيد بطل ألف ليلة وليلة إلا الملك العربى على شاكلة ملوك الفرس مثل قيا كسرو وكسرى أنوشروان ، خلافا كل الخلاف لما كان عليه أبو بكر وعمر ، وفى بغداد كما فى غيرها من سائر حواضر المملكة الاسلامية كان الاستبداد مقوّضا لأركان الدولة أيما تقويض ، فغدا خلفاء النبىّ وهم على هذه الحال طغاة موسوسين ، وألاعيب بين أيدى الخطايا ، لايستطيعون القيام بعد بعبء من أعباء السلطان ، ولا القيادة بزمام من أزمة المملكة الاسلامية .

ما انفكت المملكة تهبط وتتقهقر حتى تقطعت أوصالها ، وتفككت أجزاؤها ، وسلبت متنها ، فصارت الوحدة السياسية مما لايستطاع دوامه لافتقار الدولة إلى قوّاد محنكين ، ولعفاء ذلك المزاج الاسلامى الصافى الجامع لسجايا عرب الصحراء الاول ، وقبيل ظهور الاسلام كان أهل كل مصر من الأمصار التى انتشر فيها ظلم أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، ينزعون منزعا قوميا ويحاولون نهضة وطنية ، فجاء الفتح الاسلامى طاميا قاضيا على جميع هذه المنازع . أما الآن والمملكة الاسلامية محتضرة فى النزع فأنى يستطاع المجىء بمثل ماجىء به فى صدر الاسلام ؟ استطاع الاسلام أن يجعل الملايين من الخلق على اختلاف عنصرهم وأمزجتهم ومعتقداتهم ينتحلون الرسالة المحمدية دينا ، ولكنه لم يستطع أن يحيل هذه الملايين إلى صورة إسلامية متماسكة البنيان ثابتة الصبغة ، فاعترض الازدراد شجا ، وساء الهضم فساءت نتيجته ، دعا محمد العرب فلبوا دعوته حقا ، لأنه إنما أتاهم بكتاب وآيات وآراء مما كانت عقولهم وطبائعهم مستعدة بالفطرة لقبوله أحسن قبول . ناداهم مستفزا نعرتهم وحميتهم ، وهم أخوان نخوة سجية وخلق ، فاستجابوا نداءه طائعين ، فما دخلت شعوب مخالفة غير عربية فى الاسلام ، أخذ كل شعب من هذه الشعوب يفسر الوحى ويترجم رسالة النبى على مايلائم منازعه الشعبية ، ومبادئه التمهيدية الخاصة ، ووفق روح التهذيب الذى كان عليه . فنتج عن جميع ذلك أن الاسلام الحقيقى الذى شاهده العرب أوّل مرة قد تعوّج والتوى ، وأنا أجلى دليل على هذا ماحدث فى بلاد فارس حيث استحالت الوحدانية التى نادى بها محمد إلى مذهب الشيعة . فباتت الفرس الشيعة على صلات واهية تكاد لاتربطهم بعالم السنة الاسلامى ؛ واستحالت الوحدانية أيضا عند البربر سكان البلاد المغربية الافريقية وغيرهم إلى حال عبدت معها الأولياء ، وحدث مثل هذا عند المسلمين فى الهند ، على أن جميع ذلك لما شدّد النبىّ فى تحريمه والنهى عنه نهيا قاطعا .

وما كفى ماحدث من الاختلافات المذهبية ، وما أصاب صورة الرسالة النبوية ، حتى حمت البلوى بأن منى الاسلام بتمزّق الوحدة السياسة ، والانشقاقات الزمنية ، فأوّل ماحدث من هذا النوع كان فى أوائل عهد الدولة إذ فرّ أحد المضطهدين من بنى أمية إلى الأندلس حيث أنشأ فى قرطبة خلافة منافسة للتى فى بغداد ؛ فاعترف مسلمو الأندلس قرطبة ببيت خلافة حتى وبربرة شمال أفريقية . ومن بعد ذلك بعهد أنشئت

خلافة أخرى فى مصر هى الخلافة الفاطمية وخلفاؤها متحدّرون على مازعموا من فاطمة بنت الرسول ، أما الخلفاء العباسيون فى بغداد فـابرحوا يهبطون دركات الانحطاط ، ويفقدون من دولتهم وسلطانهم حتى صاروا بعد مدة من الزمن عبيدا مطاويع بين أيدى الترك ، العنصر الغريب الداخل عليهم .

وقبل أن نشرع فى بيان كيفية انتقال الدولة من أيدى العرب الهجناء ذوى الدم المزيج إلى أيدى الترك وخطورة ذلك عظيمة فى تاريخ الاسلام نؤثر أن نقول كلمة فى أسباب انحطاط التهذيب والمدارك العقلية عند العرب ، ذلك الانحطاط الذى رافقه تمزّق الوحـدة السياسية فى جميع الأدوار الأخيرة من العصر العربى . كان العرب فى عصر صاحب الرسالة أمة كريمة الأخلاق ، سليمة الطباع ، نيرة السجايا ، مقاديم يركبون كل صعب ، تحركهم روح الرسالة بغاية غاياتها ، وتبعث فيهم عزما شديدا وغـيرة متوقدة ، كانوا أشـدّاء العصبية الدينية ، وهى العصبية المعروفة فى كل جيل من الأجيال السامية ، وعلى شدّة هذه العصبية فانهم لم يكونوا فيها على غير هدى ، بل كانوا مستبصرين يستنيرون بنور العقل وهدايته ، ومتمسكين تمسكا شديدا بمعتقدات دينهم وأركانه وأصوله ، غـير أن دينهم هذا إنما كان دينا سهل الاكتناه والمأخذ واضحا جليا ، كان جوهر تعاليم محمد الوحدانيـة مع السنة المعلومة ، فالاعتقاد كل الاعتقاد بأن لا إله إلا الله وبأن محمدا رسوله من لدنه كما أنزل فى القرآن ، والقيام بالفرائض المسنونة المعينة ، كالصلاة والصوم والحج ، إنما هذا فحسب هو جملة الأركان التى تألف منها الاسلام الذى كان عليه العرب يوم أصعدوا فى الأرض يفتحون العالم الشرقى . فالاسلام وهو هذا الدين البين الصريح ما كان ليقيد عقل العربى ويلقى عليه سجوفا فوق سجوف والعربى كان قد أدرك حالا ثار فيه جدّه ، واشتعلت غـيرته ، فبات توّاقا إلى اقتباس العلوم واجتناء ثمراتها والتبسط فى شؤون الحياة وتوفير أحوالها ، والتـكيف على حـديث مقتضياتها والخروج بها عما ألفه أزمانا فى فيافى الصحراء وكثبانها ، لهذا لما نشر العرب فتوحهم ، ومدّوا سلطانهم على الأقطار الأجنبية لم يقصروا نفوسهم على التنعم بالنعم المادّية واستلذاذ الترف ورخاء العيش فحسب ، بل عكفوا جادّين على ترقيـة الفنون والعلوم والآداب وآراء الحضارات القديمة ، فنشأ عن جميع هذا الجدّ والترقيات أن أخرج للناس تهذيب عربىّ سام فأضاءت العقول وازدهرت ازدهارا كان فخر الحضارة العربية ، وواسطة قلادتها ، ودرّة تاجها ، وكان ردح من الزمن كانت فيه هذه الحضارة مشرقة الشموس ، يانعة الثمار ، وارفة الظلال ، فسادت الحرّية العقلية ، وابتكرت الآراء والأفكار العلمية ، ووضعت القواعد والاصول واستنبطت الأحكام ، بيد أن هـذا لم يكن من صنيع العرب وحدهم ، بل شاركهم فيه كثير ممن كانوا متغللين ظلّ دولتهم من النصارى واليهود والفرس الذين كانوا فى عهد ملوكهم قبل الفتح الاسلامى يذوقون الأمرين ويسامون خسفا شديدا فى سبيل آرائهم ومعتقداتهم الدينية التى كانوا يخالفون فيها النصرانية البزنطية والمجوسية الفارسية . على أنه كان لهذا العصر الزاهر حدّ وقف عنـده ، ثم عرا شمسه كسوف فظلام مطبق ، فظهرت فرق رجعية ، فما برحت تستقوى وتناهض غيرها من الفرق الحرّة حتى تغلبت عليها ، ثم أنشأت تسود سياده شديدة ممتدّة ، وانقضت الأيام التى قامت فيها الفرق الحرّة المعروفة على العموم بالمعتزلة مستمسكة بلباب الاسلام وجوهره الصحيح ، وذاهبة إلى أن العقل إنما هو مقياس كل شىء ، وقامت الآن الفرق الخلافية المحافظة من بعدها ذاهبة إلى أن النقل والسنة إنما هما مقياس كل شىء . وأخذ من على هـذا المذهب وفيهم كثـير من النصارى الذين دخلوا فى الاسلام وكانت أمزجتهم مابرحت مشربة روح دينهم القديم يفسرون القرآن الكريم ويؤوّلونه ثم يؤلفون بين هذا التفسير والتأويل وبين السنة التى نقلها الصحابة عن النبىّ . وأوغلوا فى ذلك إيغالا بعيدا فنتج عن ذلك أن أصيب الاسلام بشىء مما أصيبت به النصرانية فى الأجيال المظلمة من تلبيس الدين عقائد غير عقائده ، ونسبة آراء سنية حديثة إليه وهو براء منها ، فذهبوا فى اشتدّ الخلاف واتسعت شقته وطال

عهده

عهده بين الذين اعتصموا بالسنة والنقل فقاسوا عليهما و بين الذين جعلوا العقل نفسه مقياسا لكل شيء ، وإذ قد انتهى الحال بالاسلام إلى مثل هذا فالغلبة الأخيرة إنما باتت متوقعة وهي غلبة عقيدة السنة والنقل على العقل ، وفي الواقع فان تاريخ السنة والتقاليد في كل بلد من بلاد الشرق إنما هو تاريخ السير نحو أدوار الاستبداد وعواقبه المشئومة ، كانت قد تلبدت في سماء الشرق سحب سوداء قاتمة ، فلما أشرقت عليها شمس الاسلام الأولى من الصحراء حقبة من الزمن مزقتها و بددتها ، وكيف لا تضمحل تلك السحب وقد سادت الحرية العقلية والفكرية ، غير أنه بعد انقضاء هذا الدور دور النور والحرية ، عادت الغباوة والعقائد والأوهام تملأ فضاء الشرق وتستولي على عقول أبنائه ، ومما ساعد على ذلك استحالة الخلافة الاسلامية من الشورى السياسية الصحيحة إلى الاستئثار فالاستبداد .

فلما رسخ الاستبداد في الدولة وجاوز أفقها بعيدا أخذت آثار ذلك تبدو جلية في موضع موضع والاستبداد بطبائعه هو عدو الحرية وقاتلها أينما وجدت ، سواء أكانت حرية العقل والفكر أم حرية العمل ، وكان بعض الخلفاء من بني أمية في دمشق ، وقد استهواهم مذهب المعتزلة في بدء الأمر يوسعون في حرية الفكر ويرتاحون إليها ، ولكن لما أخذت روح المعتزلة تظهر بمظاهر السياسة أجفلوا منها أيما اجفال وأضمروا لها القضاء عليها ، فالمعتزلة حقا لم تقصر أمرها على الآراء الفلسفية فحسب بل تخطت ذلك فأنشأت ترفع عقيرتها منادية بالرجوع إلى حكم مثل حكم الخلفاء الراشدين ، يوم كان أمير المؤمنين ينتخب للامارة انتخابا ولا يرثها وراثة وهو منقاد لرأي الأمة ، ونازل على حكمها وشوراها ، وقام الخوارج وهم من قلب شبه الجزيرة ومن أشد العرب عصبية يؤيدون تراثهم من حرية الصحراء ويذودون عنه وينادون بتوسيع نطاقه غير معترفين بسلطة الخليفة ، ولا مبالين بهيبة أمير المؤمنين . وذاهبين في السلطة إلى أبعد من الحكم الجمهوري نفسه ، فنشأ عن ذلك أن الخلفاء أخذوا يستدنون أتباع الفرق المحافظة ويقربونهم منهم ويعتضدون بهم و يقصون عنهم الفرق الحرة كالمعتزلة و يشددون عليها النكير و يستعينون بالمشايعين لهم من العرب الهجناء ويشدون بهم أزرهم ، مؤثريهم على العرب الصرحاء من شبه الجزيرة ، حتى باتت الحكومة في الدولة العباسية حكومة دينية مستبدة فرسخت عقائد الدين ملبسة لباس التقاليد وقررت حدودها ، واضطهد أتباع مذاهب المعتزلة وقتلوا تقتيلا

وما كاد يكون القرن الثاني عشر من التاريخ المسيحي حتى أمحت كل معالم الحضارة العربية وقوضت أركانها ، وجف كل عنصر من عناصر الحياة فيها ، وقضى على كل فكر مبتكر ، ورأي مبتدع ، وعاد لا يسمع صوت من أصوات المعتزلة ، ولا يرى لأحد منهم أثر ، وهجع العقل الاسلامي هجعته الطويلة ، ولا يزال مغرقا فيها حتى استفاق اليوم استفاقته الكبرى مذعورا .

في أوائل القرن الحادي عشر م تجسم انحطاط الحضارة العربية تجسما تاما ، وبعد أن اختفت الروح العربية الأولى التي هبت من الصحراء هبوبها العجيب ، أخذ العرب الهجناء يرون ملكهم السياسي يذهب من أيديهم إلى أيدي غيرهم من الدخلاء ، وكان هؤلاء الدخلاء الوارثون لمدنية العربية هم الترك . والترك هم العرق الغربي من الجيل الطوراني ، جيل القبائل الرحالة التي كانت منذ عهد لا يعرف أوله تجوب النجاد أواسط آسيا وشرقيها ، ولما كان العرب يفتحون فارس تحت قوادهم وجنودهم بالترك الرحالة ، وهؤلاء عهدئذ يعوجون المفاوز محاولين جواز حدود فارس الشمالية الشرقية ، غير أن العرب وهم في إبان سلطانهم يخشع غالب قطين الأرض لذكر خلفائهم ما كانوا ليرهبوا الترك ويحسبوا لهم حسابا ، بل رأوا في الترك نفعا لهم ، والترك قوم عرفوا بالجفاء والقسوة ، لا يحسنون شيئا أكثر من صناعة الحرب والقتال كالجنديين ، فلهذا ما كان الخلفاء لينفروا منهم في أول الأمر ، بل أخذوا يستأجرون منهم جندا من المطوعين لأوب الأعراب الجيش والذود عن ذمار الدولة ، و يستكثرون منهم بطانة وحرسا .

قلنا ان العرب ما كانوا ليرهبوا الترك فى أوّل الأمر ، ولكن لما وهن عظم الخلافة وذهبت ريحها تحوّلت الحال فآلت غير مآل ، إذ تمكن الترك المستأجرون من الحلول فى كل موضع قوىّ من مواضع الدولة ولاسيما فى الجيش العربى ، فأنشأوا يتصرّفون تصرّف السيد الآمر والحاكم المطاع ، ففتحوا أبواب التخوم العربية الشرقية ، ومهدوا السبيل تمهيدا لأبناء جنسهم ، فأخذ هؤلاء يتدفقون كالموج وعلى رءوس طوائفهم قوّاد أمراء ، وطفقوا يعيثون فى البلاد أحرارا أنى شاءوا ، ويقيمون حيث طاب لهم المقام ، ويجوسون خلال الديار ، ويسلبون وينهبون ، ويفجعون ويفتكون .

ولما شرع الترك يدخلون فى الدولة كانوا يقبلون سريعا على الدخول فى الاسلام أيضا . بيد أن الاسلام لم يدمث من جفائهم ، ولم يقوّم من أودهم كثيرا ، ومتى ما جئنا نعتبر شأن هؤلاء الترك الدخلاء يجب علينا أن نفرق بينهم وبين الترك العثمانيين المعاصرين سكان القسطنطينية وآسية الصغرى ، فان الترك العثمانيين اليوم إنما يجرى فى عروقهم دم مزيج بعضه أوروبى وبعضه الآخر اسيوى غربى ، ويخالط مزاجهم عنصر غربى وعنصر شرقى عربى ، فهم والحالة هذه يختلفون اختلافا كبيرا ، تهذيبا وخلقا ، عن آبائهم وأجدادهم الأوّلين وعلى هذا كله فان العثمانيين المتأخرين مابرحت فيهم السيم الطورانية الخشنة التى يتميز بها ترك قفقاسيا المعروفين بالتركمان عمن سواهم من الترك المقيمين فى غربى آسية ، فكيف كان التركى القديم بطباعه وسجاياه ترى ؟ انما كان فى المقام الأوّل جنديا مجرّبا ، ومقاتلا باسلا ، وهو لم يكن فى ذلك العهد ذا فكر ثاقب ، وعقل مبتكر بل كان فيه شىء من حبّ الاطلاع والاستشفاف ، فلم يقتبس غير القليل من الآراء العسكرية فى شؤون القتال ، فالطاعة العمياء ثم الطاعة العمياء وقتال الاستبسال فحسب ، هما جميع ما كان عليه التركى يوم تقدّم ليتناول قيادة الاسلام من الخليفة العربى المضعضع الواهن الاعظم .

حقا مادهى الاسلام وسائر العالم معا مثل هذه الداهية ، ومانزل بالحضارة العربية مثل هذه النازلة ، وكفى الاسلام انه دان لحكم أمة متعصبة مغالية جافة جاسية ، لم يكن الرقىّ مستطابا فى ظلّ دولتها ، فبات ضربا من ضروب المستحيل . أجل : لاينكر أن الاسلام قد اعتزّ بقوّة حربية كبيرة جديدة ، ولكن قد سىء التصرّف بهذه القوّة حتى جنت على الاسلام جنايات هائلة ، وجرحته جروحا كبيرة ، فبات نزيفا يتقهقر سريعا ، وأوّل عمل قام به الترك الزاحفون هوا كتساحهم آسية الصغرى واستيلاؤهم على بيت المقدس فى أواخر القرن الحادى عشر م . غير أن جانبا من آسيا الصغرى مابرح حتى اليوم قسما من العالم النصرانى ، ولما أخذ سيل الفتح العربى يتدفق فى القرن السابع م من شبه الجزيرة ، فمايزال يطمو على سورية حتى بلغ جبال طوروس فصدمه الروم هناك إذ استجمعت الأمبراطورية الرومانية الشرقية من قواها مااستجمعت واستطاعت أن توقف الفتح العربى عند حدّ عند تلك الجبال على عناء وتعب شديدين ، أما الآن فاجتاز الترك الحدود البزنطية ودوّخوا آسية الصغرى تدويخا ، وأخذوا يهدّدون القسطنطينية وهى الحصن الشرقى الحريز للنصرانية ، وكان بيت المقدس فى أيدى المسلمين منذ الفتح العربى (٦٣٧ م) وكان الخليفة عمر يرعى حرمة الأماكن المقدّسة النصرانية أيما رعاية ، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره ، فلاضيقوا على النصارى ، ولانالوا بمساءة طوائف الحجاج الوافدين كل عام إلى بيت المقدس من كل فجّ من أفجاج العالم النصرانى . بيد أن الترك بعد فتحهم البلاد لم يجروا على مثل ماجرى عليه العرب من قبلهم ، فالترك لما كانوا لايرون منه فى غير السلب وكره غير المسلمين أخذوا يستلبون الأماكن المقدّسة ويمتهنون حرمة النصارى ويحولون دون الحج فبات مستحيلا .

فاكتساح آسية الصغرى والاستيلاء على بيت المقدس معا إنما نزلا نزول الصاعقة على النصرانية فقامت لهذا الخطب وقعدت ، وطفقت أوروبا تمتد من أقصاها إلى أقصاها مشتعلة بغضا دينيا ومحتدمة غضبا وحنقا ،

وقام ألوف مؤلفة مثل بطرس الناسك يلهبون الصدور نارا دينية ويحضون على حماية بيت المقدس وقبر المسيح حتى جنّ الغرب النصراني جنونه الكبير، والتهبت الغيرة الدينية في كل جارحة من جوارحه وعرق من عروقه، وغشى التعصب على أبصاره، فهبّ يبعث البعوث الصليبية، والجحافل الجرارة دراكا لقتال الشرق الاسلامي في سبيل الصليب .

فداهية الترك ونازلة الحروب المقدسة الصليبية كانتا شرّ طعنة طعن بها صدر العالم وسببا دائما في سوء العلاقات بين الشرق والغرب . ففي سنة ١٠٠٠ م كانت العلاقات النصرانية الاسلامية أخذت تستقيم وتسير سيرا مبشرا بالكف عن العداء ومبشرا بازدياد تحسن الحال وخير المصير، وكانت الأحقاد التي ثارت على أثر تدفق الاسلام على حال التلاشي والاضمحلال، وظهر عهدئذ أن الحدود الجغرافية بين عالم الاسلام وعالم النصرانية كادت تستقرّ فليس أي الفريقين يطمع بعد في الخروج على الآخر، ولم يبق ثمة أمر من أمور النزاع شأنه خطير وكبير غير الأندلس، حيث كان هناك مصطدم الاسلام والنصرانية المصطدم الأخير، بل على كل كانت الأندلس إذ ذاك قد باتت تعدّ حدّا فاصلا بين العالمين، وعلى الجملة فقد كانت علائم ازدياد الوئام والطمأنينة بين الاسلام والنصرانية متجلية واضحة، وناحية منحى جيدا، فلو قدّر لهذه الحال أن تستمر وتسير بحيث يسكن كل عالم إلى أخيه لكانت أتت بنعمة من النعم الكبرى الباقية على الحضارة والانسانية، فالعالم الاسلامي كان مابرح حتى ذلك الأوان سابقا لأوروبا العربية سبقا بعيدا، وفائقا عليها علما وتهذيبا . بيد أن الحضارة العربية كان قد أخذ الكمد والكلف يبدوان عليها في الحين الذي طفقت فيه نفس الغرب النصراني تجيش ونهمته تشتدّ للافلات من ربق جهله، والخروج من ظلمته وبربريته، فأيّ خير كان أعظم من ذلك الخير الذي كان يرجى من الودّ الوليد الذي ظهر في القرن الحادي عشر م، بين الشرق والغرب فيما لو قيض له النمو أمدا بعيدا ؟ بل ترى أي نفع كان أجلّ من تقارض العالمين بعضهما البعض العون واقتسام السرّاء والضرّاء ؟ .

أجل : لو كان ذلك لكان به نجاة كبيرة ولكانت الحضارة العربية الاندلسية وفيها علوم اليونان والرومان قد أيقظت نهضتنا من مرقدها قبل استيقاظها بعهد طويل، ولكانت روح الغرب التي تمشت في جوارحه في الأجيال الوسطى، تلك الروح الجبارة هبت فتناولت الشرق وتغلغلت في أحشائه متغلغلها في الغرب، فنجت الحضارة الاسلامية من متخبطها ومتعثرها في ذلك الحلك الداجي الذي طال عهده .

غير انه ما كان ذلك ليكون فقد اختفى العربي الدمث الخلق، اللين العريكة، وجاء من بعده التركي المتعصب الخشن القاسي، فعاد الاسلام يثب ويهتاج، ولكن شتان بين اهتياجه الأوّل بالأمس واهتياجه اليوم، أما بالأمس فقد كانت تحرّك العرب روح الرسالة وفضائلها ومثلها العليا؛ وأما اليوم فما يحرّك الترك إنما هو روح الطمع والفتك وحافز الاستيلاء والغصب، ومن ذلك الحين بدأ العراك يشتدّ، وناره تتقد بين الدولة التركية والحضارة الغربية التي كان نشوءها مرجوّا لها عهدئذ، ودام هذا العراك قرونا؛ وما كانت الحروب الصليبية سوى ردّ الغارة على الترك الذين أخذوا منذ ذلك العهد يوالون غاراتهم على النصرانية برهة ستمائة سنة، حتى صدموا الصدمة الكبرى عند أسوار « فينا » سنة ١٦٨٣ م وقد كان من الطبيعي أن تأصل العداء، واستحكمت الشناءة، واستقرّ التعصب بين الاسلام والنصرانية مما مابرحت جراثيمه حية، وسموم ثماره نامية حتى الآن، وهذا النضال الذي تتلو أنباءه في صحف الأخبار اليوم، النضال القائم بين مصطفى كمال ومقاتلته الوطنيين وبين اليونان في آسية الصغرى إنما هو حلقة من سلسلة حروب بين الاسلام والنصرانية، حلقتها الأولى كانت في فلسطين بين الترك والصليبيين منذ ثمانمائة سنة، وحلقتها الأخيرة إلى اليوم هي هذه الحرب بين الترك واليونان في أغوار الأناضول وأنجادها .

وليس من غرضنا فى هذا الكتاب أن نبحث فى تاريخ الحروب التى قامت بين الترك والنصرانية إنما مايجب حفظه فى البال أن تلك الحروب ظلت إلى اليوم عداء مزمنا ، وعلة دائمة بين الشرق والغرب .

أما الشرق الاسلامى فقد قدر له بعد أن دارت الأيام بحضارته العربية وحنا عنقه للنير التركى الثقيل أن يلاقى فوق ذلك أهوالا أشدّ وأفدح ، منهالة عليه كغيرها من الجيل الطورانى ، ففى أواخر القرن الثانى عشر هبت العروق الشرقيـة من الجيل الطورانى ، ملتفة ملتئمة حول بعضها بعضا ، مكوّنة وحدة دامت مدة ، وعلى رأسها زعيم جبارعات هو « جنكيزخان » . اتخذ هذا الطاغية (الطاغية الذى لايغلب) لقبا له وطفق يزحف ناهبا العالم نهبا ، فاكتسح فى أوّل أمره الصين الشمالية وأنزل بها هولا شديدا ، ثم اتجه غربا زاحفا مدمرا ، وناهبا مخرّبا ، فرأى العالم من بلائه مالم ير مثله من عات قبله ، هذا هوالنهوض الذى نهضه المغول فى ذلك العهد ، وهـذا اسمهم مابرح حتى اليوم اذا ماجرى على الألسنة وجفت له القلوب واقشعـرّت منه الأبدان ، زحف جنكيزخان بكتائب من الجند لاتحصى ، مستصحبا مهرة المهندسين الصينيين لصنع البارود فى تخريب المدن والحصون ، فكان وفرسانه سيلا جارفا ، ونارا آكلة ، وأعظم بلاء حلّ بالبشرية ، لم تكن غاية المغول الفتح والاستيطان ، حتى ولاالغنم ولا الاستلاب فحسب ، بل هراقة الدماء ، وتعـذيب الأرواح ، ودرس البلاد وملاشاة العمران ، فذبحوا الشعوب تذبيحا ، ودكوا المدن دكا ، بحيث لم تنج بلاد حـلّ فيها المغول من الهول ، وكان شأنهم فى قطر شأنهم فى سائر الأقطار .

ومات «جنكيزخان» بعد بضع سنوات من زحفه هذا فقام خلفاؤه من بعده وانتهجوا نهجه فى الزحف وتعميم النازلة ، فالمغول حقا طعنوا الاسلام والنصرانية معا طعنة خارقة ، إذ حاق بأقطارشرق أوروبا مثـل ماحاق بغـيرها من الأقطارالأسيوية ، وتلك آثارالهول المغولى فى روسيا مابرحت شاهدة على بربرية المغول وهمجيتهم . غيرأن الهول الذى نزل بالعالم الاسلامى كان أشدّ منه فى العالم النصرانى ، فالمغول بزحفهم على روسيا لم يجاوزوا تخوم بولندا قط فنجت بذلك أوروبا الغربية ، لـكن ما أريد لأوروبا الغربية من النجاة لم يرد مثله لجانب من العالم الاسلامى ، إن العاصفة المغولية بهبوبها من الشمال الشرقى فى آسيا استطاعت أن تطبق العالم طرا من الهنـد حتى مصر ، مقتلعة جارفة كل شىء فى سبيلها ، وقد كانت فارس وهى إذ ذاك مابرحت منهب الـكتائب التركيـة تحاول النجاة بحضارتها الوليدة فدهمتها الجوارف المغولية غاشية ماحقة ، فتلاشت قوّة فارس وتضعضع كيانها أيما تضعضع ، ثم تقدّم المغول نحوالعراق ليعطوا بغـداد مدينة الحضارة والتهذيب نصيبها من الهول ، وكانت بغداد عهدئذ قد ذهب الـكثيرالزاهرمن عزّها ومجدها ، فذوت نضارتها من بعد هرون الرشيد ، وتنكرالدهرلذلك المليون من السكان ، بيد أن بغداد على كل هذا كانت مابرحت مدينةعظيمة من أمّهات المدن الـكبرى ، فيها كرسى الخلافة ، ومركزالحضارة العربية ، فانقضّ عليها المغول سنة ١٢٥٨ م وأعملوا فيها أيدى التخريب والتدمير فذبحوا أهلها تذبيحا وكادوا يمحونها محوا من على وجه الأرض ، على أن هـذا لم يكن جميع البلاء ، كانت بغداد عاصمة العراق ، وكانت مابرحت فى العراق سدود الرى العجيبة من فجر التاريخ تمثـل مهارة بناتها الأوّلين وقدرتهـم ، وتقى البلاد من مهابّ أعاصيـر الصحراء ، فـكانت العراق على الدوام وفيها هذه السدود الـكبرى جنة الأرض دهرى العالم ، وقد تعاقب الفاتحون الـكثار فى البلاد دورا بعد دور ، وعصرا بعد عصر ، فـكان من شأن كل فاتح أن يبقى على هذه السدود ، لابل يعظم شأنها وشأن بناتها ، ويعتبركل الاعتبار قدرنفعها وخيرها للبـلاد ، فلما غشى المغول العراق سرعان ماقوّضوا هذه السدود تقويضا بحيث لم يبقوا منها حجرا على آخر ، فعفت أقدم حضارة عرفها العالم ، وخرب مهد التهذيب البشرى ، ومحيت آثار أعمـال جدّت فى سبيلها البشرية طيلة ثمانية آلاف سنة على الأقل ، فغوت العراق خواءها هذا المشهود حتى اليوم ، وباتت صهدية حالة من الجفاف المحرق ومنشأ

لأ. ثة

لأوبئة الحمى المنتشرة متى ما كان فيضان ، يسكن قراها الحقيرة أقوام من الفلاحين ، ويجوب رحابها رحالة من البدو ، يرعون ماشيتهم أرضا كانت من قبل منابت الحضارة والتهذيب ، فالنازلة التى حلت ببغداد إنما كانت ضربة قاضية على الحضارة العربية ولاسيما فى الشرق ، وكانت هذه الحضارة قد أصيبت من قبل نازلة المغول بضربة أخرى فى الغرب وهى نازلة الأندلس العربية ، وموجز ذلك أن الاسلام بعد انتشاره فى جميع افريقية الشمالية جاز البحر وطبق اسبانيا من أقصاها إلى أقصاها ، نخفقت فيها أعلامه ، وأشرقت شموسه ، وازدهرت الحضارة العربية الاسلامية الأندلسية ازدهارا كاد لايرى مثله فى أى قطر آخر من الأقطار الاسلامية الشرقية ، وكانت قرطبة عاصمة الأندلس ، وفيها كرسى الخلافة الغربية ، فبلغت هذه العاصمة من العظمة والمجد مبلغا كبيرا ، حتى لعلها كانت تفوق بغداد عينها رقيا وحضارة ، وقد عاش ملك العرب فى الأندلس قرونا عديدة ملكا زاهرا آمنا والعرب حاصرون للنصارى فى الكور الجبلية الشمالية من البلاد ، فلما بدأ سلطان العرب يضعف وينى وقوتهم تهن أخذ النصارى يدفعون المسلمين جنوبا مستردين منهم البلاد كورة فكورة ، وكانت معركة (لاناقادى طولوزة) سنة ١٢١٣ م خضدت فيها شوكة العرب ، وفت فى عضدهم فتا كبيرا ، ثم من بعد ذلك صارت تتوالى انتصارات النصارى على غير عياء حتى سقطت قرطبة فى أيدى المستردين من نصارى اسبانيا المتعصبين ، فبادر هؤلاء إلى استئصال شأفة الحضارة العربية الأندلسية على نحو ما كان يقوم به المغول عندئذ فى الشرق ، فذهبت الأندلس من أيدى المسلمين ، فلم يبق لهم من جميع ذلك الملك الذى كان زاهرا سوى رقعة صغيرة واقعة فى الطرف الجنوبى من البلاد وهى غرناطة التى بقيت فى حوزة المسلمين حتى استكشاف كولمبوس اماركة ، ثم بعيد ذلك طردوا منها ، فاختفت على الأثر معالم الحضارة العربية فى الغرب .

وكان الشرق الاسلامى مازال يشقى وتتوالى عليه فجائع المغول وأهوالهم ، وأمامنا الآن آخر داهية من دواهيهم ، وهى زحف تيمورلنك فى أوائل القرن الخامس عشر ، فى هذا العهد كان المغول الاول الغربيون قد صاروا مسلمين ، غير أن الاسلام لم يذهب بالكثير من وحشيتهم وبربريتهم ، واقتفى تيمورلنك آثار جنكيزخان فى تذبيح الخلائق وتدمير البلاد ، فما كانت نفسه تغتبط بشىء اغتباطها بمناظر الاهرام من جماجم البشر ، وأى هرم أكبر من ذلك الذى شيده تيمورلنك من سبعين ألف جمجمة بعد تخريبه مدينة أصبهان فى بلاد فارس وانقضى عهد المغول الهائل فى الشرق الاسلامى ، ثم جاء الترك بدورهم زاحفين .

الترك العثمانيون هم من أصل القبائل التركية العديدة التى جاءت آسيا الصغرى من بعد سقوط المملكة الرومانية البيزنطية ، وغالب الفضل فى تشييد المجد الذى شيدوه ، وعزهم الذى بنوه ، إنما هو عائد إلى عديد سلاطينهم الذين كانت لهم الغلبة على سائر القبائل المجاورة ، فاستطاعوا بذلك أن يوحدوا جميع القوى التركية العظيمة ، ثم طفقت فتوحاتهم تمتد شرقا وغربا ، وفى سنة ١٤٥٣ م دك الترك صرح الأمبراطورية البيزنطية دكا ، وفتحوا القسطنطينية ، وخلال قرن تال فتحوا الشرق الاسلامى من فارس حتى مراكش ، ودوخوا شبه جزيرة البلقان من أقصاها إلى أقصاها ، وتغلغلوا فى أحشاء هنغاريا حتى بلغوا أسوار (فينا) واستطاع الترك العثمانيون مالم يستطعه أبناء عمهم المغول من قبلهم ، فبنوا مملكة منيعة الأركان ، غير أن ملكهم هذا كان فيه جلف وبربرية ، وذلك إنما كان لبعدهم عن روح التهذيب والتثقيف ، فانهم لم يبرعوا فى شىء براعتهم فى فنون القتال ، بل كانوا فيها من أشهر الأمم وأشدها قوة وبأسا ومراسا ، ولما كانوا فى إبان مجدهم وسلطانهم كانت خيالتهم ورجالتهم من أفضل طراز الجيوش التى شهدها العالم ، فأرعبوا بها أوروبا رعبا شديدا ، وفى هذا العهد كانت أوروبا قد بدأت تستيقظ وتسير سير التقدم الصحيح وتنشئ حضارة متدرجة مدارج الرقى والثبات ، وبينما كان الشرق الاسلامى يئن من الأهوال المغولية والفتوح التركية كان الغرب

النصرانى يشعل مصابيح النهضة ، ويعد أسباب استكشاف اماركة وطريق الهند ، ذلك الاستكشاف الخطير الشأن ، العظيم النتائج مما لا يخفى على أحد ، ومما يزيده خطورة هى الحالة التى كانت عليها أوروبا فى ذلك العهد ، فانه لما كان كولمبوس وفاسكادى غاما يقومان بأسفارهما البحرية قبيل ختام القرن الخامس عشر كانت الحضارة الغربية محاصرة فى نطاق ضيق لا تجوز دائرته القسم الغربى من أوروبا الوسطى وهى إذ ذاك فى أكره يوم من أيام نضالها وجلادها مع البربرية الطورانية ، كانت روسيا تمزقها سنابك خيول التتر والمغول وكان الترك وهم ثملون بشوكتهم الحربية ، يغيرون منتصرين من الجنوب الشرقى ، مهددين قلب أوروبا شر تهديد ، هكذا كانت البربرية الطورانية مطبقة آسيا وشمالى أفريقيا وشرقى أوروبا يوم كانت الحضارة الغربية وهى طفلة فى المهد تستقبل حكم القضاء النازل إما لها وإما عليها ، وعلى الجملة فقد كانت الحضارة الغربية تنازع فى سبيل بقائها أشد منازعة ، مولية ظهرها السور العظيم (سور الاوقيانوس) فلذلك لا نكاد نستطيع أن نتصور حق التصور كيف واجه أجدادنا الاوقيانوس ، وشرعوا يمخرون عبابه فى تلك الليلة الظلماء ، والفترة العصيبة من الأجيال الوسطى ، لا جرم ، كانت أوروبا فى تلك الحقبة إنما تذود عن بقائها بجميع ما كان فيها من قوة و بأس ، وترد عنها غاشية البربرية الأسيوية ، وما هى إلا ليلة وضحاها فاذا بليل الخطر الاسيوى وقد انجلى ، و بالاوقيانوس بات طريقا آمنة ، فصارت أوروبا من بعد ذلك سيدة البحار ثم سيدة العالم بأسره .

قضى الأمر ودارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الانسان ، فبعد أن ركبت أوروبا متن البحار صارت تستهزىء بجبابرة آسيا وعتاتها ، وكانت من قبل بردح ترى النصر عليهم أبعد منالا من الجوزاء ثم أخذت . وارد الثروة تفيض على أوروبا من وراء البحار ، فانفذ نشاط القارة واشتعلت قوتها ، ولا يعجبن من ذلك وأوروبا قد كشفت القناع عن ابكار بلدان ، فأخذت تستورد منها خيرات لا نفاد لها ، غذاء طيبا لحياتها وصناعتها ، فباتت والشرق شتان ماهما ، فأى موارد كانت للشرق الاسلامى الخرب المهشم إزاء اماركة الجنوبية والشمالية وجزائر الهند ؟ هكذا دبت الحياة دبيبها الهائل فى الحضارة الغربية ، فانتفضت وهبت من مرقدها ، وأخذت تخطو إلى الأمام خطوات الجبابرة ، محطمة أغلال أجيالها الوسطى تحطيما ، وقابضة على طلاسم العلوم ، جادة نحو العصور الحديثة .

وعلى كل هذا فقد ظل الشرق الاسلامى جامدا ساكنا ، ملتفا بخلقان الحضارة العربية التى طال على خوائها الأمد ، ومتسكعا فى ديجور الظلام ، ولم يكن ذلك جميع شقائه حتى تضعضعت قوته الحربية و بلغت حد التلاشى ، فوهن عظم الترك بعد الشدة ، واستغرقوا فى انحطاطهم فصاروا لا يستطيعون مجاراة أوروبا اختراعا وارتقاء ، ولا تحسين فن من فنون القتال ، وقد كرت حقب كان الغرب فيها يقاتل بعضه بعضا قتالا عنيفا ، فلم يستطع الحملة على الشرق ، فعلت منزلة اسم العثمانيين علوا كبيرا ، بيد أنه لما أغار الترك على أسوار فينا سنة ١٦٨٣ م فردوا على أعقابهم خاسرين ، أيقنت أوروبا حينئذ أن هناك انما كان منقلب قوة المملكة العثمانية ، فأخذ جد العثمانيين يعثر ونجمهم يأفل ، ومنذ ذلك الحين شرع الغرب بكر على المملكة العثمانية المرة بعد الأخرى ، منتاشا منها ما استطاع ، ولولم تؤرث نار الحسد بين بعض الدول الغربية بعضا فتطمع كل دولة فيما طمعت فيه غيرها ، أعنى لولم تختلف هذه الدول فى اقتسام الغنيمة لمزقت الأمبراطورية العثمانية شر ممزق منذ عهد بعيد .

ثم توالت الأيام على العالم الاسلامى وهو هاجع لا يستيقظ حتى كان القرن التاسع عشر ، فتململ فى مهجعه مستثقلا وطأة الذنوب ، وفى خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الاسلامى وتخضع لها الأقطار فى شرقى أوروبا وجزائر الهند ، وأما جل العالم الاسلامى ومعظمه من مراكش حتى

أواسط

أواسط آسيا فقد ترك وشأنه ، فما كان ليعتبر قدر هذه الفترة السانحة ، بل ظلّ مستغرقا فى هجعته مستهزئا بكفرة أوروبا ، راضيا مسلما أن شقاءه إنما هو بمشيئة من الله ، لايقيم لرقىّ أوروبا وزنا ، ولايحسب لمستنبطاتها حسابا ، هكذا كانت حالة العالم الاسلامى لما استيقظ استيقاظه فى مطلع القرن التاسع عشر فاذا بأوروبا تقف بازائه مجنونة بثورتها الصناعية ، مدججة بأسلحة العلم الحديث وعجائب الاختراع ، و بين يديها الغاشمتين الطبيعة مسخرة مفضوحة أسرارها وآلات حربية جهنمية لم يحلم أحد من البشر بمثلها من قبل ، فكانت النتيجة المتوقعة لما شرعت حملات أوروبا تغشى الشرق الاسلامى أخذت أقطاره تسقط الواحد تلو الآخر فى أيدى الحاملين عليه ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبا الكبرى قد اقتسمت جميع العالم الاسلامى ، فاستولت بريطانيا على الهند ومصر ، وعبرت روسيا القوقاس و بسطت سلطانها على أواسط آسيا ، وفتحت فرنسا شمالى أفريقيا ، وقامت سائر الدول الاوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الغنيمة الاسلامية ، ومازالت الحالة هكذا حتى جاءت الحرب الكونية العظمى ، فكانت شاهدا على آخر دور من أدوار إذلال الشرق الغرب ، ولما وضعت شروط المعاهدات بعيد أن وضعت الحرب العامّة أوزارها قضى على كيان الدولة العثمانية ، فلم تبق من بعد ذلك دولة اسلامية مستقلة استقلالا صحيحا ، فتمّ اخضاع العالم الاسلامى ، ولكن على القرطاس !

أجل ، تمّ ذلك على القرطاس فحسب ، والسبب فى ذلك أنه لما ظهرت سيطرة الغرب على الشرق هذا المظهر القاهر لسرعان ماهبت عليها عواصف شديدة عجيبة لم يسمع بمثلها من قبل ، كان الشرق الاسلامى طيلة هذه المئات من السنين التى كرّت عليه وهو حان عنقه للغرب تتطوّر قواه الباطنية تطوّرا عظيما وينفعل بعضها ببعض انفعالا كبيرا حتى آن الأوان فانفجر البركان فكان منفجره هائلا .

وهذا المدّ ، مد بحر المطامع الغربية الطامى قد غالى فى إيلام الشرق مغالاة شديدة ، فتحرك الشرق الجامد الساكن أخيرا ، ودار الشرق الاسلامى حول نفسه ، فرأى تعاسة حاله وماهو حالّ بساحته ، فأخذت نفسه تجيش وتضطرب ، ومشاعره تهتاج وتنبعث ، وقواه تثور ثورانا عجيبا بلغ أقصى أعماقه ، واستيقظت روح الاسلام فى كل رقعة من رقاع العالم الاسلامى ، فهبّ الـ ٢٥٠،٠٠٠،٠٠٠ من أتباع النبىّ محمد من مراكس حتى الصين . ومن تركستان حتى الكونغو ، هبوب العاصفة تزعزع لايعرف مستقرّها قدح الزناد فى صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ثم أخذ الشرر يتطاير إلى كل جانب من جوانب العالم الاسلامى ، إذ فى الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية فى مطلع القرن التاسع عشر وهى دعوة الاصلاح الاسلامى ، ثم كان من أمرها أن ترقت واتسعت حتى بلغت فى نطاقها دور النهضة الاسلامية ، ثم عرفت بالتالى بالجامعة الاسلامية ، ولم تكن عوامل هذه التبدلات والتحوّلات فى العالم الاسلامى مقصورة على تلك العوامل الداخلية المنبعثة عنه فحسب ، بل إن هناك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ما انفكت تتدفق من الغرب على الشرق ، وجميعها يبثّ فى الشرق الاسلامى روح الاستيقاظ والثوران : من ذلك عقائد الحكومة النيابية والعصبية الجنسية ، والعلوم العملية ، وحقوق العمل ، حتى وأكثر من ذلك كحقوق المرأة ، والاشتراكية والبلشفية .

فثوران العالم الاسلامى هذا الثوران ، وشدّة التضييق الأوروبى الضارب فيه ومن حوله على غير انقطاع ولاحدّ يزيدان فى هيجانه فيشعلان فيه روح الحركة والعمل ، إن الحرب الكونية العظمى قد أتت بعجائب عظيمة ، وأرت مالم ير من قبل ، فأنشأ الاسلام يميد ويضطرب ويتمخض تمخضا شديدا ، منتقلا من حال حاضر إلى آخر مقبل ، ومجتازا دورا غايته تجدّد عالم اسلامى حديث ، ولبيان كيفية هذا الانتقال والتجدّد اللذين سترى ثمارهما فى عالم اسلام المستقبل قد وضعنا هذا الكتاب . انتهى ما أردته من كتاب «حاضر

العالم الاسلامى » وبهذا تم الكلام على الفصل الأوّل والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثانى

فى قوله تعالى : « رحماء بينهم » أيضا

اعلم أن الرحمة بين الأمم الاسلامية اليوم قد تجلت بأجلى مظاهرها ، ولكننا نحن فى ديارنا لا نقدر أن نصفها ، ولكن القادر على وصفها رجل قد أعطى صفتين : أوّلا التفرّغ للاطلاع . ثانيا عدم التحيز ، وهاتان الصفتان قد ثبتتا فى صاحب كتاب « حاضر العالم الاسلامى » ولأنقل لك من الجزء الثانى من كتابه فصولا :

الفصل الأوّل

فى أن انكلترا وفرنسا كانتا جاهلتين حال تركيا والعالم الاسلامى إبان الحرب الكبرى ، ولكن ايطاليا كانت تعرف الحقيقة فتركتهما . وهذا نص ما جاء فى الكتاب المذكور :

« جرت الامور فى تركيا مجاريها التى سبق لنيتى رئيس الوزارة الايطالية فتنبأ عنها ، فأكره رجال الحلفاء وهم حينئذ سادة القسطنطينية السلطان على تعيين وزارة مصافية ، ففعل السلطان ذلك ، فشجعت الوزارة حركة « مصطفى كمال » ورجاله العصاة ، وأوفدت وفدا اختير أعضاؤه اختيارا إلى مؤتمر « سان ريمو » فى فرنسا حيث وقعوا بالرضا والتسليم المعاهدة التى أعدّها الحلفاء الذين استطاعوا بذلك « تأييد مرامهم » على قصاصات الورق لاغير ، وما كان ذلك الأمر الغريب ! لأن كل انسان فيه مسكة من العقل يتيقن أن جميع هذه الصفقة التى رام الحلفاء عقدها إنما هى ضرب من الخبل والجنون وأن كل فرد من أفراد الحكومة « المصافية » من السلطان حتى أحقر الكتبة ماهو إلا كمصطفى كمال يتلهب غيرة ووطنية ، وأن العاصمة التركية الحقيقية إنما باتت أنقره لا القسطنطينية ، وأن قوّة الحلفاء لاتتجاوز فى الواقع غاية مرامى مدافعهم ، أما مصطفى كمال فقد قال فى شأن معاهدة سيفر (معاهدة صلح تلك) : « انى مستعدّ لقتال العالم بأسره مشرقا ومغربا » ، فباتت الحلفاء فى مأزق حرج لاريب فيه ، ولاسيما من بعد ما أصبحت كلمة الحلفاء تدل على بريطانيا وفرنسا لاغير ، أما ايطاليا فلم تشترك فى إلقاء دلوها فى الدلاء ، بل فعلت كما قال (نيق) : ولم ترسل جنديا واحدا ولم تدفع ليرة واحدة » لذلك لم تستطع فرنسا ولابريطانيا حشد الجنود الكافية لسحق مصطفى كمال فى الحين الذى تتكبدان فيه نفقة مائتى ألف جندى (٢٠٠،٠٠٠) لتسكين الحال فى الأقطار العربية الهائجة وغيرها ، وما كان سحق القوّة الكمالية بالأمر السهل ، إذ قدّر أركان الحرب الفرنسيون الجيش المقتضى لذلك (٣٠٠،٠٠٠) مقاتل تام العدّة ، على أنه قد بقى فى أيدى الحلفاء سلاح آخر هو اليونان ، فتقدّم فنزيلوس رئيس الوزارة اليونانية وأخذ على نفسه خضد شوكة الترك ودق عنقهم ، وذلك على شريطة أن تنال اليونان فى مقابلة عملها هذا امتيازات كبيرة فى مناطق آسيا الصغرى ، فقبل ذلك منه ، وبعد حين نزل جيش يونانى إلى برّ أزمير عدده (١٠٠،٠٠٠) مقاتل ، غير أن هذا الجيش قد لقى الخيبة والفشل إذ أن المائة ألف مقاتل على كثرتها كانت أشبه بالغثاء ، واجتنب مصطفى كمال الاشتباك فى معارك فاصلة ولكنه ثابر على مضايقتهم ، وايقاع الحيف بهم ، بالحرب غير النظامية كما كان شأنه مع الفرنسيين فى كيليكية فى الطرف الآخر من الميدان ، فتوغل اليونانيون فى البلاد توغلا فاحشا ، وتورّطوا تورّطا شديدا ، كاد يقضى عليهم على بكرة أبيهم ، فازدادت القضية التركية إعضالا واشكالا ، وعلى ماظهر أن فنزيلوس ظلّ يبتغى نزال الترك والمضى معهم فى الحرب ، وذلك بصفة كونه المنتدب الثانى من قبل الحلفاء ، لكن الشعب اليونانى أبى عليه ذلك لأن اليونان مابرحوا منذ سنة ١٩١٢ يخوضون غمار الحرب من ميدان إلى آخر حتى نهكت قواهم أشدّ النهك ، فرأوا الاستراحة ولو قليلا ، فلما كانت انتخابات تشرين الثانى (نوفمبر) أسقطوا فنزيلوس

بنحو ٩٩٠٫٠٠٠ صوت إزاء ١٠٫٠٠٠ صوت ، ثم دعوا ملكهم قسطنطين الذى كان الحلفاء قدخلعوه منذ ثلاث سنوات ليعود فيتبوأ العرش ، فكانت النتيجة الصافية أن اليونان باتت كايطاليا خارجة عن أرباب الصفقة ، أما الملك قسطنطين فقد استأنف القتال مع الترك من تلقاء نفسه . فكان عمل اليونان هذا العمل مناقضا لذلك الموقف الذى وقفوه فى عهد فنزيلوس ، وعلى الجملة فان الحلفاء باءوا بالخسران ، فردّ كيدهم فى نحرهم ، وسقطوا دون أمنيتهم التى حسبوها من الهنات الهينات .

فى ذلك الحين كان مصطفى كمال يجهد ليس لتوحيد قوّته وسلطته فى آسيا الصغرى فقط ، بل لاكتساب أحلاف له فى الخارج ، ففى المقام الأوّل كان ينشئ علاقات وثيقة مع العرب الأمر الذى قد يبدو لأوّل وهلة من الغرابة بمكان ، إذ يرى أن العرب والترك هما العدوّان بعضهم لبعض ينقلب من العداوة المرّة إلى الصداقة الحلوة ، ولكن ذلك ليس فى الواقع بالغريب ألبتة ، لأن السياسة الفرنسية البريطانية هى التى قد خلقت هذه الأعجوبة ، وأتت بهذه الخارقة ، والسبب الذى من أجله عاد الاتفاق بين العرب والترك قد جلاه لورانس المعروف « بروح الثورة العربية » حقّ الجلاء ، فقد قال بعد فراغه من الخدمة العسكرية فى بيان نشرله فى الصحف البريطانية : « إن العرب قد ثاروا فى وجه الترك خلال الحرب العامّة ، ليس لأن الحكومة التركية كانت فاسدة فسادا شديدا ، بل أنهم ابتغوا نيل الحرّية ، وراموا إدراك الاستقلال فلم يخوضوا المعمعة لكى يستبدلوا سادة بسادة كأن يخوضوا لبريطانيا أوفرنسا . كلا . بل لكى ينشئوا لهم دولة عربية ، على أن هذه الحقيقة قد أفرغها أحد زعماء العرب وهو قائد من قادة النهضة الوطنية المشتغلين بالقضية العربية فى قالب أبين عن القصد ، وأفصح عن الغرض ، وذلك فى مقال نشره فى صحيفة فرنسية راديكالية جاء فيه ما يأتى .

« ينبغى لفرنسا وبريطانيا أن تعلما علم اليقين أن العرب إنما هم للترك اخوان فى الدين توحدوا وإياهم توحدا سياسيا قرونا عديدة بحيث هم لا يرغبون ألبتة فى الانشقاق عن اخوانهم المؤمنين ، وشركائهم المسلمين ، الذين هم وإياهم كانوا فى الحروب الخالية يقاتلون العدوّ جنبا لجنب وصفا إلى صف انشقاقا ليس من ورائه سوى خضوع أعناقهم لنير دولة أوروبية مهما كان شكل سلطان الحكم الذى تتقلده هذه الدولة . . . فلذلك أىّ جدوى ياترى من القول الذى يقوله المسيو مليران : لم يدر فى خلدنا قط أن نعتدى بوجه من الوجوه على استقلال الأمة العربية ، فليس أحد من العرب اليوم يمكن إضلاله بمثل هذا التمويه وأخذه بمثل هذا الخداع ان الهدنة وقعت على حسب الشروط والمبادئ التى أعلنها الرئيس ولسن ، ولكن لما تضعضعت ألمانيا وتضعضع أحلافها معها ديست شروط الهدنة وعهودها كما ديست الأربع عشرة مادّة بالأقدام ، على أن النكث الذى أصاب العهود المقطوعة للعرب قطعا جزما لازما فى منحهم الاستقلال التام ، تلك العهود المكرّرة المؤكدة عشرات من المرار قد حمل العرب والترك على الاتفاق من جديد واستئناف الإخاء بحيث لم تمض إلا أشهر معدودات حتى تمّ ذلك بين الأمتين ، قد تستطيع فرنسا بحفظها جيشا مؤلفا من ١٥٠٫٠٠٠ ألف جندى فى سورية ، وتكبدها انفاق البلايين من الفرنكات أن تخضع عرب سورية إلى ميقات ، بيد أن ذلك ليس جميع ما فى الأمر ، ولا الضامن لسلامة العقبى ، فحدود سورية مترامية إلى ما يليها من البلاد التى قطينها عرب وكرد وترك ، وممتدّة إلى الصحراء الكبيرة ، فاذا ما شرعت فرنسا فى قتال الأربعة ملايين من عرب سورية لم يبق ذلك مقصورا على قتال هؤلاء فحسب بل يتناول قتال عدوّ عدده أكثر من ١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ مليون عربى منتشرين فى جميع الأقطار الشرقية من القبائل المسلحة الشديدة الشكيمة ، الصلبة القناة ، هذا ما عدا الأمم الاسلامية الأخرى المجتمعة معهم فى الوحدة المترامية الاسلامية ، والحامل على جميع ذلك إنما هو ارهاق الحلفاء وتوالى ضرباتهم الساحقة على غير رحمة ، فان قال قائل : إن فى هذا غلوّا فما عليه إلا أن يواقع الحقائق مواقعة ويراها عن كثب مستبصرا مستقصيا ، ولكن

لعمرى أىّ نفع يرجى من الندم ولات ساعة مندم بعد أن تجرى الدماء فى الأقطار العربية أنهرا وغدرانا .
وفى الواقع باتت الأدلة على الوفاق التركى العربى مشهودة جلية فى مواضع عديدة ، غير أن هذا الوفاق القاضى بمعاونة هؤلاء لهؤلاء لم يعترف به علنا من جانب مصطفى كمال ولا من جانب الملك فيصل الذى أنزل من عرشه ، وجاء من بعد خروجه من دمشق إلى إيطاليا حيث طفق يوالى القيام بمناقشات سياسية ، مع هذا فقد اصطفّ العرب مع الترك جنبا إلى جنب فى كيليكية وقاتلوا الفرنسيين العدوّ المشترك ، واشترك الترك والكرد مع العرب السوريين فى إيقاد المآن السورية التى ظلت تشب فى موضع موضع ، وأما ما كان لمصطفى كمال من اليد فى إشعال الثورة العراقية على البريطانيين فظاهر ظهورا يغنى عن البيان . انتهى

الفصل الثانى فيما يقوله ساسة أوروبا وعلماؤها

من أن الاسلام دين الحرّية ، وأن المسلمين أوّل الأمم فى الحرّية من أىّ صنف كانوا

قال الحجة الثقة أرمينيوس ڤامبارى : « كان الاسلام وما برح الدين الفائق سائر أديان العالم شورى وديموقراطية . الدين الذى هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشرعة السواء ، فان كان العالم قد شهد حقا منذ أوّل عهد العمران البشرى إلى اليوم حكومة شورية دستورية فهى لعمرى حكومة الخلفاء الراشدين » اهـ

وقال محقق انكليزى كبير خبير فى شؤون الشرق الأدنى : « إن بلاد العرب التى يضرب فيها البدو الرحل هى البلاد الفذة فى العالم المشتملة على صحيح الديموقراطية والشورى ، فالعرب فيها أبدا سادة ، حريتهم يذودون عن سياجها بشفار سيوفهم ، ومهج أكبادهم ، وشبه الجزيرة هو منبت الحرّية ، فلا تعيش فيها نبتة الاستبداد » انتهى

وقال العلامة ليبيار فى شأن ثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ م : « قال بعضهم إن تركيا لم تكن على استعداد لتحيا الحياة الدستورية النيابية بعد الثورة ، إنما ذلك وهم شديد ، فقد كان لتركيا مران سابق على الحياة الدستورية وكانت توّاقة إلى إنشاء الحكومة النيابية ، وعلى جانب كبير من الاستعداد لذلك . أجل ثم أجل ، إن النظم الشرعية والمدنية التى كانت عليها تركيا إنما هى أفضل أسّ يشيد عليه الحكم النيابى ، كان محمد صاحب الرسالة الاسلامية يجعل الحكم شورى بينه وبين صحابته ، وقد جرى العلماء المسلمون وهم أقطاب الدين ، وولاة الشرع الشريف على هذا النهج ، وما برحوا هكذا حتى اليوم يتشاورون ويسترشد بعضهم بعضا فى شؤون مصالح المسلمين ، فالشريعة الاسلامية هى ديموقراطية وشورية بطبائعها وجوهرها ، وعدوّ شديد للاستبداد ، وباعتبارها شريعة أساسية ، فمن شأنها إذن أن تمكن الشعوب الاسلامية كافة حتى أبعدها إغراقا فى التدلى من إدراك معنى الشورى والدستور والنظام النيابى » .

ثم بين العلامة ليبيار فى موضع آخر أن السلاطين القدماء كان لهم « ديوان » وهو مجلس يضم أركان الدولة والوزراء وأصحاب الخطط العليا والمناصب الكبرى يجتمعون فيه على مقتضى نظام فى مواقيت معلومة لمناقشة السلطان فى شؤون الدولة وامداده بالمشورة الحكيمة . وقد ظلت الحال هكذا أمدا طويلا حتى أنشئ فى العهد الأخير مجلسان : الأوّل يعرف بمجلس الدولة ، والآخر بمجلس الوزراء ، زد على هذا فقد أنشئ مجلس نوّاب مرّتين : الأولى فى سنة ١٨٧٧ م والأخرى فى ١٨٧٨ م ومع أن هذين المجلسين لم يعيشا طويلا إذ قضى عليهما الاستبداد الحميدى ، فقد كانا على كل حال من سوابق المران القانونى والمراس الشرعى على نظام الدستور والحكم النيابى .

وختم العلامة المذكور كلامه بقوله : « فلذلك يجب أن لا يعتبر اعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ م

أمرا مستحدثا مما لم يسبق له مثيل فى بلاد اسلامية ، بل يجب اعتباره من النظام الاسلامى المألوف ، كان من قبل على ماهيته هذه ، ولكن خرج به الآن إلى نطاق واسع ومجال أرحب » انتهى

الفصل الثالث

فى أن أوروبا شورية فى بلادها مستبدّة فى غير بلادها وأهل الشرق والمسلمون لابدّ فائزون

جاء فى كتاب « حاضر العالم الاسلامى » مايأتى : « وقد أجاد (ليونل كرتس) الكاتب الانكليزى الذائع الصيت أيما إجادة فى جلاء هذا القول وتصريحه فى كلام له فى شأن الهند بين فيه أن التعليم والتهذيب والثمرات والخيرات التى جاء بها الحكم البريطانى ليست بكافية بذاتها لإعداد أهل الهند إعدادا صحيحا للقيام بأعباء الحكومة النيابية ، بل الأمر على ضد من هذا ، فالتعليم والتهذيب ينقلبان خطرا كبيرا وبلية إيجابية مالم يقترنا بمنح الهنود أزمة شؤونهم السياسية وتبعتها شيئا فشيئا ، إن الشعب مهما كان مهذبا راقيا لن يستطيع المران على فنّ الحكومة الذاتية إلافى حيز الخبرة الحقيقية المحسوسة والمباشرة الفعلية لافى حيز النظر والتصوّر والخيال . قد يقول بعضهم إلى لجوج فى طلبى الذى بينت فيه أنه يجب علينا الشروع فى نقل السلطة شيئا فشيئا نقلا صحيحا لاغشّ فيه من عاتق الحكومة البريطانية إلى عاتق حكومة الشعب ، وأنه يجب على موظفى الحكومة البريطانية فى تلك البلاد أن يقوموا بكل مساعدة ممكنة وعون مستطاع ومشورة صادقة للحكومة الجديدة التى تطلب منهم هذا بحق ، نعم يجب عليهم أن يسدوا كل حسنة إلى هذه الحكومة الفتية ، وأن يعطفوا عليها عطف الأمّ الحنون على وليدها وفلذة كبدها ، لاعطف الظئر المأجورة التى سواء عندها أعاش الرضيع أم مات ، واذا ما أريد حقا تعليم هذه الحكومة الجديدة فنّ الحكم الذاتى ، وجب أن تكون حرة من كل جانب لامطلقة من ناحية ومصفدة بالأغلال من ناحية أخرى ، فان لم يكن هذا فليس من سبيل إذن لهذه الحكومة الفتية لأن تشعر حقّ الشعور بأنها مسئولة لدى الشعب الذى هو من ورائها ، حتى ولا الشعب يستطيع على هذه الحال أن يعلم ويوقن أنه هو المالك لنفسه من ضرّ ونفع ، هذا ليجلبه وذاك ليدرأ عنه ، نعم ان السبيل شاقة ولكن الشعب الذى يبتغى بملء إرادته حكما ذاتيا لايتسنى له الوصول إلى غرضه السامى وغايته الكبيرة إلا فى الجهاد قائما أبدا ، واجتياز طريق الصعاب التى تشقّ عندها الأنفس وتركب الأهوال ، وربما إلى عهد طويل حتى يستطيع بعد جميع هذا أن يذوق طعم الاستقلال الصحيح ، ويعلم ماهيته فيطلب منه المزيد ، وكلما وفر نصيبه منه ازدادت عزّته حتى تستقرّ فيه ملكة السيادة على نفسه . إنى لأفخر فخرا كبيرا بما جلبته بريطانيا العظمى إلى الهند من الخير والنفع من إنشاء النظام وتثبيته ، وحمل أهل البلاد على العلم بأن الحكومة المنتظمة ما أعظم شأنها وأخطر مكانتها فى عمران البلاد ، غير أنى على كل هذا لاأعتقد أن النظام الذى أنشأناه وتمشينا عليه حتى اليوم يظلّ صالحا بعد دون أن ينقلب إلى مجلبة الضرر على أخلاق الشعب كما كان مجلبة الخير من قبل . يجب علينا وقد حان لنا أن نشرع فى تأدية هذه الأمانة الكبرى إلى أهل الهند أصحاب البلاد من بعد ما حملناها على عواتقنا حقبة ليست بالقليلة ، تأدية مشفوعة بالصدق والاخلاص . يجب أن يكثر سواد الهنود فى دواوين الحكومة من حيث يجب علينا أن نقوّى ساعدهم ، ونزيد حولهم ، ونعلى من منزلتهم ، وذلك لايتمّ إلا اذا مكناهم من التمرّن على الواجبات التى تنقل إلى نطاقهم نقلا مزدادا ، لأن مران الشعب على الحكومة الذاتية ليس أمره كأمر الطلبة الذين يتلقون العلوم النظرية جلوسا على المقاعد . لاوصول إلى الغاية التى بينها حديثا وزير الهند إذ بركوب المشقة ومعاناة الصعب فى سبيل وعرة ، الأمر الذى يجب علينا العلم به حقّ العلم ، ذلك أننا قد استطعنا

الوصول إلى هذا الدور الحالى من مهمتنا فى الهند بعد العناء الكبير والانتهاء إلى هذه الحال انتهاء ملتئما كل الالتئام مع ماهومعروف لنا من التقاليد ، وما بقى أمامنا من القيام بالمهمة فأمر واجب علينا خدمة لتاريخنا ولوكان فى ذلك بذل لكل عزيز لدينا وتضحية حتى لنفوسنا » .

إن كلمات المستر كرتس الأخيرة يتبين معها ماهو واقع اليوم فى الهند كما فى سائر الأقطار الشرقية ، أن الحرب العامة قد ألهبت العصبية الجنسية الشرقية حتى تركتها لظى شديدا من حيث أوهنت السيطرة الغربية وزلزلتها شر زلزال ، فغدا مقبض أوروبا على الشرق مسترخيا استرخاء متواليا يدل على قرب الزوال ، وسواء كانت العاقبة من بعد ذلك خيرا أم شرا ، فتقلص الظل أمر واقع لامرد له ولامدافع ، مما يدل على أنه لن ينقضى منذ اليوم جيل بل عقد من السنين حتى يغدو غالب الدول الاسلامية فى الشرقين : الأدنى والأوسط متمتعا بالحكم الذاتى وربما بالاستقلال التام لاعيب فيه ، أما التساؤل أتسىء هذه الشعوب التى ستصبح حرة اغتنام الفرصة فتعود تتعثر معاثر الاستبداد والفوضى ، أوتصبح حقا عالية الجبين فى إنشاء الحكومات الدستورية المنظمة الثابتة فتنبعث هذه فى طريق التقدم والارتقاء ، فذلك أمر سيكشفه المستقبل ، وإذقد بينا لغاية الآن العوامل المختلفة العاملة فى أفق تطور السياسة ، سالبها وموجبها ، ندع القضية مستاقة فى مجراها الطبيعى بهذه العوامل ، مراقبين تقلبها المستمر فى هذا الدور دور التحول ، وننتقل للكلام على العصبية الجنسية .

الفصل الرابع

فى هياج العالم الاسلامى

قال المؤلف المذكور فى صفحة ٨٩ وما بعدها مانصه : « كان العالم الاسلامى (قبل أن أخذ يصطدم بالغرب النصرانى الاصطدام الأكبر خلال القرن التاسع عشر) هاجعا هجعته التى قد تقدم الكلام عليها بعيدا من التنبه القومى وثورة العصبية الجنسية ، وكان غالبه منقسما إلى امارات متناثرة ، ولكنها قوية المراس شديدة الشكيمة ، وأن ما كان فى نفوس قطينه وساكنه من العاطفة الوطنية إنما كان متجها نحو السلالات الحاكمة على نحو الحالة التى كان عليها سلاطين الترك العثمانيين ، غير أنه كانت مظاهر العزة القومية ومبادئ الشمم والإباء جلية فى غالب العناصر كالأمة العربية (أمة الرسالة) إذ فى العرب كانت أسباب العصبية الجنسية على بيان فى الظهور وقوة فى الانفعال والنمو ولكنها كانت متفرقة وغيرمنتظمة تنظيما كافلا لائتلاف المزاج الذى تغدو به العصبية عاملة فعالة ، أما الشعب الاسلامى الفذ الذى كان حقا يمشى فى عروقه ماينبغى لنا تسميته بروح العصبية الجنسية الصحيحة ، فهو الشعب الفارسى حبيب بلاده ، وعاشق موطنه القديم ، وأما سائر الشعوب الاسلامية فقدكانت على شىء من مبادئ الشعورالوطنى واليقظة الجنسية والروح النزاعة إلى الوحدة والتضامن ، وكانت هذه الروح مستعدة بأسبابها للارتقاء والاتساع حتى تبلغ دور العمل الصحيح والحركة المؤثرة . على أن فى الأمر اعتبارا آخر ، ان الاسلام قد نهى فى مواضع عديدة عن العصبية ، فلما انتهت الشعوب الاسلامية إلى هذا العصر عصر العصبية الجنسية ، بات الفرض الذى يفرضه الاسلام على المؤمنين أن يكونوا إخوة متضامنين متساوين لافرق بين عربيهم و بين عجميهم ، وأمست الغاية السياسية المقصودة فى الاسلام من وحدته الامامة الكبرى ، أوالشورى الشرعية العامة أمرا مقاوما بطبيعة الدور والزمن بسبب إنشاء القوميات المستقلة والعصبيات المتمايزة فى الملة الاسلامية كما كانت الحال فى مبدأ عصر النهضة فى أوروبا إذ كانت النهضات القومية فى مطلع ذلك العصر تصطدم اصطداما عنيفا بالعقائد الدينية الشائعة ، والآراء الدائرة حول وحدة البابوية والمملكة الرومانية المقدسة » .

وقال

وقال أيضا فى صفحة ١٣١ ومابعدها من الجزء الثانى مانصه : « غدت الحياة السياسية فى أقطار شمالى أفريقيا المختلفة العناصر والاصول حياة اضطراب تعتريها الانشقاقات والانقسامات ، وكانت مراكش ومابرحت أكثر الأقطار الافريقية الشمالية وحدة والتئاما ، وثباتا فى مجموعها السياسى ، مع أن سلطة السلطان النافذة حق النفاذ لم تمتد قط يوما إلى الجبال التى تقطنها القبائل المختلفة ، وأما الممالك المعروفة بالممالك البربرية (الجزائر وتونس وطرابلس) فقد كانت أكبر قليلا من الثغور البحرية ممتدة على طول السواحل ، وأما البلاد الورائية فقد كانت متمتعة بالاستقلال البدوى التام ، على هذه البلاد المتبلبلة طفق الفتح الفرنسى يتدفق فبدأ غامرا الجزائر سنة ١٨٣٠ حتى انتهى بمراكش اليوم ، إن فرنسا قد أرخت على البلاد سكينة ، وكتبتها نظاما ونجحا ماديا ، غير أن هذه المنافع والفوائد التى أتت بها السيادة الاوروبية فى هذه الأقطار الافريقية كما فى غيرها من الأقطار الشرقية قد كان من شأنها أن خلقت نوعا حديثا من الوحدة والتضامن والتماسك بين أهل البلاد حتى غدوا جميعا على مستوى متماثل فى الاجماع على شناءة الفاتح الأوروبى ، وعلى نيل المطمح العام الذى يطمحون إليه وهو الاستقلال والتمتع بالحكم الذاتى بمعزل عن السيادة الأجنبية بتة ، لذلك قد شهد العالم خلال الجيل الماضى نشوء « الجزائر الفتاة » و « تونس الفتاة » وفيهما الأحزاب السياسية يقودها رجال فرنسيون من أهل العلم والتهذيب المتشبعين كل التشبع بعقائد الحكم الذاتى والحرية . أما المتجه الذى تتجهه هذه الأقوام فى نهضتها فهو بغايته أميل إلى إنشاء الوحدة الافريقية الشمالية الكبرى ثم إلى الجامعة الاسلامية العامة كما تقدم الكلام على هذا منه إلى إنشاء أمة تونسية أو جزائرية منفصلة عن غيرها من سائر الأمم الاسلامية ، ولا يعزبن عن البال أن جميع هذه الشعوب والأمم إنما هى على صلات شديدة وروابط متوافقة توافقا كبيرا مع السنوسى ، تلك الصلات والروابط التى قد أسلفنا الكلام عليها فى قسم الجامعة الاسلامية » .

معجزة جديدة لم تعرف من قبل

مقالا بديعا يظهر لنا بوضوح حديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »
ويفهمنا حقا معنى : « رحماء بينهم » والحق يقال ان هذه أجل معجزة اسلامية ،
فالويل لأوروبا اذا جهلت هذا

قال أيضا فى صفحة ١٥٠ ومابعدها مانصه : « مما لاريب فيه أن الحرب العامة قد هاجت الجامعة العربية هياجا شديدا ، وبعثت فيها قوة كبيرة ، ولاسيما بما قضت به الحرب من إنشاء مملكة عربية مستقلة فى الحجاز ، مدلية بحقوق لها فى سورية والعراق ، وقد غمر الشعوب العربية المختلفة طوفان من الهياج والاضطراب ، والهرج والمرج هنا وهناك . وثارت تطالب الاستقلال ، متطاعة نحو إسقاط السيادة الأجنبية ومحوها محوا تاما ، وهى السيادة البريطانية والفرنسية والايطالية المنتشرة فى مصر وسورية والعراق وطرابلس الغرب وسائر الأقطار العربية ، وقد استغرق الهياج هذه البلدان جميعها استغراقا جعل تلك الغاية الكبرى المتوخاة من الجامعة العربية وان كانت لم تبرح عالا شديدا غير ظاهرة كما كانت من قبل فى صدر البرامج التى فى أيدى رجال العرب القائمين بالنهضات القومية الوطنية ، الذائدين عن حرض العصبية الجنسية العربية . زد على ذلك أن الجامعة العربية مشتبكة النسيج (كما قلنا قبلا) بمبدأين عامين شاملين ، لايختصان بعنصرية أو جنسية دون أخرى ، وهما مبدأ الجامعة الاسلامية وجامعة العصبيات الجنسية الاسلامية ، ولعل هذا المبدأ الأخير يبدو لنا نحن الغربيين موضوع التدقيق الغريب من حيث هو ليس كذلك عند الشرقيين ، إن الشرق وإن استمسك جهده بمبادئنا وأفكارنا فى الجنسية والوطنية ، وانتحل ما انتحل من عقائدنا فيهما ، فهذه المبادئ والأفكار والعقائد إذا انتقلت إلى الشرق تشربتها العقول الشرقية اللاتى بصف آخر

من المبادئ والعقائد الرامية إلى الوحدة الاسلامية وتآخى جميع المؤمنين على اختلاف الأقوام والفرق بحيث نشأ عن ذلك التلبس الجامع بين القديم والجديد ، وحصل التلوّن المختلف إلى حدّ غدا عنده المسلمون متى ما استعملوا الكلمات التى نستعملها نحن مثل « الجنسية » و « الجنس » ذهبوا فى فهم معنييهما مذهبا مخالفا لمذاهبنا ، وقس على هذه الاختلافات والفروق التى بيننا و بين الشرقيين ماهوشائع فى أفق جميع المبادئ والعقائد السياسية ، خذلك مثلا كلمة « الدولة » فان الدولة الاسلامية التى يصح اتخاذها مثالا للمقارنة ليست كالدولة الغربية المشتمل تحديدها على وحدة معينة من الناس وأرض يسكنونها مقرّرة الحدود وسلطان ممارس نافذ تمام النفاذ فى كل مكان داخل حدود الدولة ، بل ان الدولة فى الشرق الاسلامى إنما هى كناية عن كتلة قلت أم كثرت ، غيرمستقرّة الشكل ولاالنصاب ، ولامنتظمة التركيب ، لها نواة مركزية هى مصدرالسلطة المنبعثة منها انبعاثا مشتملا على معنى الاستقلال المبهم التحديد ، تعتريه آفات الفوضى ويشوبه الاختلال ، ومن المعلوم أن غالب الدول الاسلامية ما برحت منذ نصف قرن تجدّ فى تنظيم حكوماتها ، واصلاح شؤونها ، وسائر أحوالها ، ناسجة فى ذلك على منوال الدول الغربية ، غير أن المنازع التقليدية لم تبرح حية مشهودة المثال كما فى أفغانستان حيث ان القبائل التى عند الحدود الهندية الشمالية الغربية ، وهى قبائل أفغانية متملكة استقلالا عمليا صحيحا ، كانت تقوم من تلقاء نفسها فى المدة بعد الأخرى بشن غارات عنيفة على الانكليز غارات حروب استطاع أمير أفغانستان أن يتنصل من تبعتها تنصلا انقطع عنده دهاء الانكليز ، والأمر كذلك فى الجنسية عند المسلمين ليست الولادة فى البلاد ، ولا التجنس على الاصول الرسمية شرطا لمن يريد أن يكون فردا من أفراد أمة اسلامية فى قطر من الأقطار متمتعا حق التمتع بحقوق الجنسية الاسلامية ، فوطن المسلم هو العالم الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، لذلك يستطيع الهابط أية بلاد اسلامية أن ينال للحال أىّ وقت شاء حقوق الوطنى المكرّم ذى المقام والمنزلة بين ظهرانى القوم ، فالعبارة : « مصر للمصريين » مثلا لا تعنى ذلك المعنى بعينه الذى نتصوّره نحن فى الجارى المعتاد ، فاذا ما أقام مسلم جزائرىّ أودمشقى فى القاهرة فليس هناك من حائل يحول دون تصرّفه وسلوكه واعتباره « مصريا وطنيا حرا » بصحيح المعنى والعبارة ، والسبب فى ذلك أن من منازع الاسلام على الدوام صيانة الوحدة بين المسلمين ، الوحدة الدينية والجغرافية الاقليمية ، فجميع الأقطار والممالك والبلدان الاسلامية معروفة عند المسلمين « بدار الاسلام » (وضدها دار الحرب) وهى المواطن التى قاطنها مسلمون يجب عليهم باعتبارهم أمة واحدة متحدة الذب عن سياجها والذياد عن حياضها ، وهذا هو السبب فى أننا نرى أنه كلما أصاب اعتداء أجنبيّ طرفا من العالم الاسلامى هاج الطرف الآخر واضطرب وقام وقعد على غير أن يكون هناك اشتراك فى المصلحة المادّية يحمله على ذلك كأنما المعمور الاسلامى جسم واحد باعتلال عضو منه تتأثر وتعتلّ سائر الأعضاء ، ترانا بعد جميع ماتقدّم نستطيع أن نعلم كم هناك من المفكرين من المسلمين» .

وقال فى صفحة ١٥٤ ومابعدها مانصه : « ولعمر الحقّ ليس من الغرابة فى شيء أن نرى الشرق وقد ارتوت نفوس شعوبه وأممه بضروب من المطامع القومية والآمال الاستقلالية التى هاجتها الحرب الكونية أعظم هياج فصيرتها نارا ذات لهب أن ينقلب بسبب خاتمة الحرب التى نزلت عليه ويلا عميما و بلاء شاملا ، مرجلا شديد الغليان فوّارا ، و بركانا ثائرا : من المعلوم البين أنه قد كان من المستطاع عقد مصالحات سليمة من النقائص والمشاين ، وذلك بالجرى على السياسة الصحيحة الشريفة النسيج ، السوية النهج ، لكن مؤتمر فرسايل السلمى كان و باللأسف الشديد متجرّدا عن كل سياسة رشيدة ، وتدوية حكيمة ، وحصافة فى الرأى ، ونظر بالعواقب ، فنجم عن ذلك أن تلك التسويات الفاسدة التى وضعها هذا المؤتمر قد حبطت شرّ حبوط ، ليس فى ضمان السلم لأوروبا فحسب بل كان من شأنه إماطة اللثام ورفع الحجاب عن موقف الغرب

الحقيق إزاء الشرق ، ذلك الموقف الرائع الذى عاد فظهرت فيه تلك الروح التى عرفت قبل الحرب ، روح التوسع الأمبراطورى والجشع الاستعمارى ، روح استلاب الشعوب وارهاقها ، وانتهاب مابين أيديها وماخلفها واستنزاف دمائها ، وشدّ الأخنقة على ماحول رقابها ، زد على هذا أن الحلفاء الظافرين طفقت بصائرهم تعمه أشدّ العمه ، غير معتبرين شيئا من التطوّرات النفسانية الهائلة التى حدثت فى الأمم الشرقية من جراء الحرب فلم يلجئوا إلى تبديل موقفهم بأفضل منه على ماتقتضيه الحال المستجدّة ، والى انتهاج نهج سياسى خير من ذلك الذى انتهجوه قبلا ، بل ظلوا على المضىّ فى معاملة الشرق بالخفة والازدراء ، كأنهم يحسبون أن الحرب العظمى التى أنّ من فدح عبئها الثقلان ، ومادت من شدّة وطأتها وكابوسها هذه السيارة الأرضية ما كانت سوى مساجلة ومناوشة ، وأن آسيا مابرحت ذلك الجبار المستغرق فى هجعته كما كان منذ قرن خلا .
أجل ، شرع الحلفاء يستهزئون بما كانوا قد نشروه خلال الحرب من أنواع التصريحات التى قرعوا بها أسماع الشعوب مئات من المرّات ، وضمنوا بها قواعد الحرّية وأساس العدل ، وأقبلوا يخلفون بوعودهم التى قطعوها لشعوب الشرق الأدنى فى تقرير المصير خلال المعمعان الأكبر ، وطفقوا ينشرون على الملأ سلسلة من المعاهدات السرّية (المعقودة بين بعض وبعض منهم فى الحين الذى كانوا فيه يصرّحون بالنياد عن الحرّية وتقرير المصير) وأرادوا بمقتضاها تقسيم الأمبراطورية العثمانية ، إشباعا لشرههم الكلبى ونهمتهم الوحشية ، ممتهنين شرّ امتهان إرادة أهالى البلاد ورغبتهم فيما يشتهون أن يكونوا عليه من الحكومة ، وكان مؤتمر فرسايل كشافا عن واقع المقاصد السيئة والأغراض الخبيثة التى انطوى عليها الحلفاء ، إذ تجلى ذلك بتلك الطريقة الخدّاعة التى التزم جانبها المؤتمر فى رفضه قبول وفد إيران الذى أوفدته حكومته لبسط القضية الايرانية (وايران كانت مابرحت مستقلة استقلالا اسميا ظاهرا) فكان من الأمر أن حمل المؤتمر الوفد على البقاء فى باريس مدة جعل يعلله خلالها بالسراب الذى يراه المسافر فيحسبه ماء بينما كانت الحكومة البريطانية تشدّ الخناق على عنق حكومة الشاه فى طهران إلى أن أكرهتها إكراها على إبرام اتفاق باتت إيران كانها بمقتضاه بلادا محمية فى كنف الأمبراطورية البريطانية ، وأما المصريون (الذين كان دأبهم وديدنهم على الدوام تزجية الاحتجاجات على الحماية التى أعلنتها بريطانيا منفردة من تلقاء نفسها فى مصر سنة ١٩١٤) فقد أوفدوا إلى باريس وفدا لبسط قضيتهم ، فرفض مؤتمر فرسايل الاصاخة لأقوال الوفد ، بل أفهم رجاله أن المؤتمر إنما يعتبر الحماية البريطانية فى مصر أمرا قضى وحكما أبرم ، فنجم عن جميع ذلك ماعدّ نتيجة من نتائج الحرب وهو أن السيطرة الاوروبية على الشرقين : الأدنى والأوسط قد شدّت أطنابها ، وتوطدت عمدها ، واتسعت آفاقها ، من حيث كان يجب تهوين خطب الاستعمار وتضييق ظله » .

بيان أن فرنسا وانكلترا بعثتا الحمية فى نفوس العرب

فأحرق الأمّتين نار ثورتهم

وقال فى صفحة ١٧٢ ومابعدها من الكتاب المذكور مانصه : « من المعلوم أن هذه الخدعة الكبرى التى قامت بها بريطانيا وفرنسا على مسرح المكر من وراء الستار لم يكن للعرب علم بها ، ولاوقفوا عليها بل أبرمت خفية عنهم من حيث ان بريطانيا جهدت كبير الجهد ، وبذلت غاية المستطاع لهياج الآمال الاستقلالية فى صدور العرب واثارة العصبية والمطامع القومية فى نفوسهم ، فكان ذلك خير وسيلة ، وأنجع ذريعة ، لاستثارة نخوتهم فى الثورة فجعلوا يتسارعون إلى مجال الحرب ، وينبعثون إلى مقاتلة الترك وخضد شوكتهم وأنفذت الحكومة البريطانية إلى العرب عددا من نخبة الضباط المختارين أشهرهم الأميرالاى لورانس الفتى

الفتى اللوذعي النابه الشأن ، الذى ما أسرع مانال من نفاذ الكلمة والسلطة على أمراء العرب وزعمائهم بمالاحدّ له ولاغاية حتى دعى « روح الثورة العربية » لكن هؤلاء الضباط الأكفاء العارفون بشؤون العرب والمعروفون بميلهم إليهم وعطفهم عليهم ، إنما قداختبروا ليقوموا بما انتدبوا إليه من حيث لم يكونوا هم أنفسهم قد وقفوا ولا اطلعوا على المعاهدات السرّية التى عقدت خفية عن العرب ، وكان القصد من ذلك فى الواقع أن لايعرو همة هؤلاء المستثيرين فتور ولاانكسار ، ولا يثلم وفاؤهم للعرب بينما هم يستثيرونهم همتهم ويستوقدونهم نارالقتال ، وكان القوّاد البريطانيون لاينفكون عن تزجية الوعود للعرب مودعة فى المنشورات والتصريحات التى كانوا يذيعونها آخذا بعضها برقاب بعض ، ثم تمت خاتمة هذه الرواية عند نهاية الحرب فأصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية مشتركتين معا منشورا أذاعتاه فى جميع الأقطار العربية جاء فيه مايأتى : « إن الغاية التى من أجلها خاضت فرنسا وبريطانيا فى معمعان الحرب فى الشرق ، الحرب التى أثارتها على العالم المطامع الألمانية هى أن تضمنا لجميع الشعوب التى طال عليها عهد الجور من الترك تحريرهم من الاستعباد تحريرا تاما باقيا ، وأن تنشأ حكومات وادارات وطنية تستمدّ سلطانها من رغبات الشعب وارادته المطلقة دون منازع » فلم يلبث أن برح الخفاء ، وانجلى المستور ، وبان الصبح لذى عينين ، فتبدلت الحال غير الحال ، عند ماوضعت الحرب أوزارها ، ورجعت السيوف إلى أغمادها ، ومزّق العدوّشرّ ممزّق وانتهت الرواية ، وأرخى الستار ، الستار الذى تبدّت حقائق نيات الحلفاء ومقاصدهم منقوشة فيه نقشا جليا ، فقرأها العرب وعلموا الأسرار ، ووقفوا على بواطن الأمور ، بعد أن أخذوا بظواهرها ، وظهرت الجنود الفرنسية تحتلّ شاطئ سورية ، وعلم العرب حقّ العلم كيف خدعوا وختلوا ، وغشوا ، فذعروا وأجفلوا ، وقاموا وقعدوا ، وأرغوا وأزبدوا ، واشتعل غضبهم ، وهاجت هائجات الثورة فى نفوسهم . ولولا أهل الحصافة والرّوية من زعمائهم ، ولا سيما الأمير فيصل نجل شريف مكة المكرمة ، الأمير الذى برهن حق البرهان على فائق كفايته لقيادة الرجال والقتال فى الحروب ، والذى استطاع الآن أن ينزل من بنى قومه منزلة لاينازع فيها من النفاذ وعزة السلطان لربما انفجر بركان العرب وتطاير من حممه ما ألهب البلاد جميعها ، لكن فيصلا كان يعرف مبلغ قوّة الحلفاء العسكرية ، فأيقن أن ركوب الحرب معهم إنما هو مركب خشن ، وغاية فى الاستهداف والمخاطرة ولاسيما فى آونة مثل تلك الآونة ، واذ أدرك حقّ الادراك قوّة العرب المعنوية والأدبية فى ذلك الموقف الذى كانوا فيه طلب من أبناء قومه و بلاده أن يقوموا فى بسط القضية العربية والدفاع عنها لدى مؤتمر السلم الذى كان على وشك الانعقاد ، فقام بهذا الأمر راجيا تنحية البلاد من يوم عصيب ، فظلت الأقطار العربية خلال سنة ١٩١٩ هادئة ، ولكن هدوء الانتظار على ارتياب ، والنار تحت الرماد ، والأمير فيصل بسط لدى مؤتمر السلم قضيته ببلاغة معنى وفصيح منطق يحفّ بموقفه الوقار ، لكنه لقى خيبة فى المسعى ، إذ اشتمل عهد عصبة الأمم على بيان دال على الرفق والعطف وذلك أن الأقوام المعلومة التى كانت من قبل فى الحكم التركى ، وقد بلغت من الارتقاء مستوى يستطاع عنده الاعتراف بكيانها أنها مستقلة استقلالا معلقا عليها أن تتلقى المشورة والمساعدة الادارية من دولة منتدبة حتى يأتى يوم تصبح فيه هذه الأقوام قادرة على السير بنفسها فيطلق حبلها إذ ذاك على غاربها . ثم فقه العرب معنى الانتداب واكتنهوا ماهيته وسرّه ، وقد كان من شأن لويد جورج أن يجود ببعض العبارات المنمقة والجمل الرائقة مثل قوله : « إنّ العرب قد وفوا حقا بعهودهم ، وبرّوا بوعودهم ، لبريطانيا العظمى ، فيجب علينا إذن أن نقابل الاحسان بمثله فنفى بعهودنا ونبرّ بوعودنا لهم » غيرأن العرب كانوا قد قرءوا المعاهدات السرّية واطلعوا عليها فبان من العبث والأفن بعد محاولة أصطيادهم بالأشراك والأحابيل مرة أخرى ، إذ عاد الختل من الذرائع الباطلة ، وأمسى الخداع من الوسائل الكاذبة ، وبالتالى علم العرب علما مكينا أنه يجب عليهم الاعتماد على نفوسهم وقوّة

سواعدهم ، ومساعيهم ومجاهيدهم ، وذلك إما فى مجال السياسة ، واما فى مجال الحرب . انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامى » والحمد لله رب العالمين .

نظرة عامة فى هذه المقالات

تلك المقالات المنقولة من ذلك الكتاب الذى حرّره رجل عالم أمريكى نظر نظرة عامة فى الاسلام : « إن أكثر المسلمين يعيشون ويموتون ولاهم يذكرون ، يعيش المسلم غالبا وهو يجهل تركيب أعضائه وجاهلا ونظام العالم المحيط به ويجهل تركيب جسم الأمة الاسلامية التى هو عضو منها وأن كاتب هذه السطور أحد المسلمين المساكين الذين يجهلون نظام أمم الاسلام ، وما أقبح الجهل وما أفظعه ، أفليس من المؤلم أن نجهل ونحن فى مصر (المشهورة بالعلم) بلاد الاسلام وماحصل فيها ؟ ثم يأتى رجل نصرانىّ قد درس هو وقومه بلادهم وعرفوها ، ثم أخذ يدرس أمم الاسلام ، وأنا الساعة أنقل عنه ، فكيف نفهم معاشر المسلمين قوله تعالى : « هوالذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » ، ماهو هذا الظهور ؟ وما معناه ؟ نعم نفهمه الآن بقول رجل بعيد عن الغرض لأنه ليس مسلما ، فماذا يقول ؟ يقول فيما قدّمناه :

(١) « إن أحد المبشرين الانجليز منذ (٢٠) سنة يقول : إن الدعوة النصرانية باتت خرافة من الخرافات .

(٢) ويقول : إن مبشرا بروتستانتيا يقول : « إن الاسلام يسير فى سبيله منذ بدايته إلى اليوم فلم يعترض سبيله إلا القليل ، وهولا يمقت المسيحية ، فلذلك فاز فوزا مبينا ، النصارى يحلمون بفتح أفريقيا فى القدم وفتحها المسلمون فى العلانية .

(٣) ويقول : « إن نيوز يلانده مبشروها من عرب وتجار ابتدءوا ذلك منذ (١٩٠٠ سنة) وبعد عشرين سنة أصبح فى كل قرية مسجد ، ومدرسة اسلامية ، ومعلمون مسلمون ، الانجليز عجزوا عن مقاومتهم .

(٤) ويقول بعض المفكرين الغربيين بعده بمدّة قليلة : « من الآن يجتاز الاسلام زمبازى وينتشر فى جنوب أفريقيا فيطبق القارّة بأسرها » .

(٥) ويقول : « الاسلام يهجم على المسيحية كما هجم على الوثنيـة ، إذ أصبح الذين تنصروا فى غرب أفريقيا على يد المبشرين يدخلون الاسلام ، بل الحبشة أيضا تسلم بعد أن كانت سدّا منيعا »

(٦) « منذ خمسين سنة ما كنت ترى فى الأحباش مسلما واحدا ، أما الآن فغالبهم مسلمون »

(٧) « ظفر الاسلام اليوم فى أفريقيا عظيم » .

(٨) « إن التتار بعد أن ظلم الروس بعض المسلمين ونصروهم هبوا فأرجعوا اخوانهم جميعا للاسلام فى القرن التاسع عشر لما استيقظ المسلمون .

(٩) ومقال العالم (فريدو) ملخصه أن الحرب العامّة لم تصبح ظفرا لأوروبا ، بل صارت ظفرا للشرق وأشار إلى قيام الصين والأفغان والهند ومصر ، وأن الروسيا التى كانت سبب إذلال فرنسا وانكلترا للشرق قد أصبحت بعد الحرب الكبرى نصيرته ، أقول : وملخص هذا كله قوله تعالى هنا : « ليظهره على الدين كله » ، فبينما الاسلام ينتشر فى أفريقيا شرقا وغربا اذا آسيا يزول الكابوس الذى كتم أنفاسها فانتعش الاسلام .

(١٠) ويقول : « ظلم أوروبا أوقد نار الجامعة الاسلامية ، ومثاله ماحصل فى طرابلس من اجتماع الترك والعرب على مناوأة الطليان .

(١١) ويقول : « الحرب البلقانية زادت تقارب المسلمين » .
(١٢) « إنّ مصطفى كمال بعد أن مزّقت الدولة العثمانية غلب أوروبا كلها ، وقال لهم : أنا أحارب العالم كله ففاز ، وهذا نصر للاسلام » .
(١٣) واتفق العرب والترك سرا ، وحاربا معا فى كيليكية ، وإن كانوا لم يظهروا ذلك .
(١٤) ويقول أرمينوس : « إنّ الدين الاسلامى هو الدين الفائق سائر أديان العالم شورى وديموقراطية إلى آخره » . أليست هـذه الجلة من حجة ثقة عند أوروبا بأجمعها هو نفسه معنى قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » ، وهذا عجب ياربّاه ! أعيش فى مصر بلادى ، وأجد كثيرا من الطبقة المتعلمة لايصلون الصلاة المفروضة احتقارا للدين بسبب انتشار المبشرين بيننا ، ثم أسمع هذا العلامة فى أوروبا يقول : « إن هذا الدين يفوق أديان العالم » أليس أمثال هـذا القول وماتقدمه أكبر معجزة للقرآن فى هذا الزمان .
(١٥) ثم يقول أيضا : « إن جزيرة العرب حفظت الاسلام والحرية الخ » .
(١٦) ملخص كلام المستر (كرتس) : « أن أوروبا لن تبقى طويلا فى الشرق ، ولايمضى جيل بل عقد من السنين حتى تصير الدول الاسلامية متمتعة بالحكم الذاتى » .

هذه زبدة مستخلصة من هذه المقالات عرضتها عليك حتى يحضر فى عقلك أيها الذكى منظر العالم الاسلامى العجيب ويظهر لى أنك متعجب من هذه الأخبار ! وتراها غريبة عليك كحالى حينما كنت أقرؤها ، نخذها جلية خالصة ، فأنت الآن تقرؤها واخوانك المسلمون فى أقطار الأرض يقرءونها ، وهل بعد هذه الأخبار يبقى ذلّ لأمم الاسلام ؟ كلا . ثم كلا . أنا أكتب هذا وقد ظهرت لى أمم الاسلام شرقا وغربا كأنهم فى خيالى قد ربطتهم رابطة الاخوية العامة كما قال تعالى «إنما المؤمنون إخوة » ولقد ظهرت الآن ظهورا واضحا .

خطاب المؤلف

أيها المسلمون : أنتم سادة هـذه الأرض ، أنتم الظاهرون فيها . أيها المسلمون : أوروبا نحن علمناها وهاهى ذه تظهر علمها لنا نخذوه . أيها المسلمون : أنتم رحماء ، واعلموا أن الأمم ستبلغ رشدها ، فكونوا أنتم القدوة ، وانشروا السلام ، وهل تنشرون السلام وأنتم ضعفاء ؟ ستكونون أقوياء فتهابكم الأمم لقوّتكم ، وتحبكم لرحمتكم . إياكم أن تكونوا كأوروبا الشرهة الظالمة ، بل كونوا رحمة للعالمين .

أيها المسلمون : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » عجبى لأمم الاسلام ، ولدين الاسلام ! هذا الدين الذى نزل من السماء نورا مشرقا ، وماكاد يصل إلى الأرض ويسير قليلا حتى امتزج بالظلام ، وأوّل هـذا الظلام الاختلاف والشجار الذى وقع بين عظماء الأمّة لأجل الخلافة ، فتشاجر الأمويون والعباسيون والعلويون أمدا طويلا . ثم ذهبت الدولة كأمس الدابر ، وبقى العلم ولكن فى الوقت الذى فيه كانت تحتضر المملكة العباسية أخذ العلم يرجع القهقرى ، فرأينا الحكمة نامت نوما عميقا ، وفى بلاد الأندلس وشمالى أفريقيا نفى ابن رشد ، وبات الذى يقرأ الحكمة مذموما مدحورا ، فهرب العلم من وجه المسلمين إلى أوروبا وهاهوذا رجع إلينا ثانيا .

إن المسلمين اليوم أرقى منهم فى كل زمان بعد عصر الصحابة والتابعين

وكيف لا يكونون أرقى من السابقين فى ألف السنة الماضية ، وهـم اليوم يقبلون كل علم وكل حكمة ، اللهم لك الحمد ، ولك الشكر ، ولك النعمة ، أنت المنعم المتفضل ، أنت تحفظ الجليل والحقير والكبير والصغير

يا ألله : نراك جعلت الجوهر الفرد مملوءا من القوى المدّخرة التى لو أطلقت منـه لدفعت العالم كله ، نراك رحمت النملة وأعطيتها أعينا تعدّ بالمئات ، والذبابة أعينا تعدّ بالألوف ، وأبدعت هذه العيون كما أبدعت عين الانسان ونظمتها تنظيما بديعا تقدّم بعضه ، وسيأتى قريبا ما هو أجـل ، فهل بعد هذا وبعد ما جاءنا من الأخبار عن أمم الاسلام يدخل فى قلوبنا وهم أوشك أنك تترك هذه الأمم ، فهل الذى يرعى تلك الحشرة الحقيرة لايرعى هذه الأمم الـكبيرة ؟ إنك ترعى المسلمين ، إن وعدك حقّ وصدق ، هاهو ذا القرآن ظهرت معجزاته ، هاهم أولاء المسلمون متحفزون ، أليس من أعجب العجب أن يختنق العلم بعد نفى ابن رشد بالأندلس فيظهر فى الشرق وفى الغرب رجال عظماء ، فيظهرون باسم الصوفية ويذمّون العلم المشهور ، ويعلمون الناس بقدر إمكانهم كمحيي الدين بن عربى رحمه الله وأمثاله ، ونرى نفس ذلك العصر يظهر فيه السيد الرفاعى الـكبير ، والسيد عبد القادر الجيلانى ، والسيد أحمد البدوى رضى الله عنهم أجمعين الذى تحتفل الأمة المصرية بمولده الآن (جمادى الثانية سنة ١٣٤٩ هـ) وهو من ذرّية السيد محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الحسن بن علىّ رضى الله عنهم أجمعين ، وقد ولد فى فاس (سنة ٥٩٦ هـ) وتوفى بطنطا ببلادنا المصرية ، فالسيد أحمد البـدوى قد اجتمع بالجيلانى والرفاعى فى بلاد العراق ، أفليس من عجب أن نرى القرن السابع يظهر فيـه ابن الفارض ، والرفاعى ، والدسوقى ، والسيد أحمد البـدوى ، وابن عربى ! فهـذه ثمان قرون مضت ، وهؤلاء لهم القدح المعلى فى الاسلام ، فـماذا جرى إذن ؟ أصبحوا هم وأصبح كثير غيرهم لهم عجائب وغرائب وكرامات لم تنقل عن رسول الله ﷺ ولا عن أصحابه ، فهؤلاء الصلحاء العظماء أصبحوا بعد موتهم قبلة الأمة ، لماذا ؟ لأن كراماتهـم لانظير لهـا ، فنهم من يأتى بالأسرى ، ومنهم من يحيى الموتى وهكذا ، فتلق العامّة ذلك بالقبول ، وسارت الأمة أجيالا وهى فرحة بربها ، لأن جماله وحكمته تظهر بخوارق العادات التى يظنون أنها أعظم مظهر للألوهيـة ، وحجبوا عن جماله الحقيق ، وهى عجائب السموات والأرض ، ونظام هذا العالم .

إن كل نفس توّاقة إلى الجمال ، والجمال التـكوينى إنمـا هى عجائب السموات والأرض بالعلوم ، فلما طمست البصائر ، ونامت الأمة ، حوّلت عقولهـا إلى أكاذيب وخرافات تفرح بها الصبيان .

فياعجبا ! رباه : دين ينبذ نبذا ، ولايعرف الناس إلا خرافات منسوبة إليه ، ثم يبقى إلى زماننا هذا ، ثم نراه ينتشر انتشارا مدهشا ، أليس هذا أيضا من العجب ! ثم نرى مانكتبه الآن فى التفسير مقبولا مع أنى لم آل جهـدا فى مزج الفلسفة به والمسلمون يتقبلونها ، هاأنتم أولاء أقبلتم على زمان العلم « هاؤم اقرءوا كتابيه » ، أنا أحمد الله عزّ وجل إذ جعل هذا الـكتاب فاتحة خير لأمم الاسلام التى تعطشت للعلم ، ولامحيص لهـا منه ، بعـد أن أحاطت بها أوروبا ، وورثت مخترعاتها وعلومها ، فاسلام بلاعمل لابقاء لأهله بعـد زماننا ، والمسلمون فى المستقبل حقا هم « خير أمة أخرجت للناس » .

لقد قرأت فى الاحياء ما يفيد أن الامام الغزالى كان يخاطب أهل زمانه كما نخاطب نحن الآن الأطفال ، لا كما أخاطب أنا المسلمين الآن ، فانه لمـا أراد أن يفهم علماء زمانه أنّ الأسباب تترتب عليها المسببات لم يأت بمثال إلا بالوضوء والغسل ، لأنه رأى أنّ فقهاء زمانه كانوا لايغرمون إلا بالفقه . وقال هو أيضا : إن ترتيب أجزاء كتاب الاحياء قد جعله هو على ترتيب كتب علم الفقه ليكون ذلك أنسا للفقهاء .

أما نحن الآن فاننا نخاطب أمة استيقظت ، وعقولا ارتقت ، ونفوسا علت ، نحن الآن نخاطب المسلمين علماءهم وعامّتهم ، خطابا صريحا ، وننقل لهم عن الفرنجة الحق فيقبلون ، ولقد قال الامام الغزالى رحمه الله تعالى : « إنّ المسلم الذى لايقبل العلم إلا عن مسلم ، ويبنذه اذا كان عن غيره أشبه بمن قدّم له الماء فى محجم الحجام وهو مغسول نظيف فلم يقبله بحجة انه كان فيه دم ، فهكذا هؤلاء الأغبياء من المسلمين الذين

لايقبلون الحقائق اذا وردت عن الكفار » .

فأما نحن فى زماننا فلسنا فى حاجة إلى ضرب هـذه الأمثال ، لأن أمتنا اليوم قد بلغت الحال التى بها تستحق أن تتولى زمام العلوم ، وهل بعد البيان بيان ! هاأناذا أعاين حال المسلمين بما يرد من جميع الأقطار أنهم بكل علم مغرمون ، اللهمّ لك الحمد إذ خلقتنا فى زمان النهضة ، وصرفت عنا السوء ، وعلمتنا ، وأنعمت علينا بالقبول ، أنت خير الناصرين ، أنت الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين .

فصل فى ذكر مثال واحد لرحمة المسلمين لغير أمم الاسلام من رجال العصور المتأخرة لأنهم رحمة للعالمين

فلما سمع ذلك صديقى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . قال : كل ماتقدّم حسن وجيل ، ولكنى أريد الساعة أن تذكر لى خبرا عن عظيم من عظماء الاسلام كان نعمة على أمم غـير المسلمين ، على شرط أن لا يكون من أمثال عمر وأبى بكر ، ومن معهما من الخلفاء الراشدين ، ولامن غيرهم من المشهورين فى سائر الأقطار ، ليكون ذلك مثالا لرحمة المسلم لغير المسلم ، لأن ظاهر الآية : « رحماء بينهم » ربما يظنّ بعض الناس أن رحمة المسلم خاصة بالمسلمين . فقلت : إن المسلم رحيم بالمسلم و بالذمىّ ، و بكل معاهد ومؤمن ، فالذمى له مالنا ، وعليه ماعلينا ، ونحن لانحارب ، ولا نعادى إلا من حاربنا ، وهـم الذين فى دار الحرب ، أما المثال الذى تريده فهو ماجاء فى هامش كتاب « حاضر العالم الاسلامى » المذكور بقلم الأمير شكيب أرسلان فى الجزء الأوّل ، ولنختم به الكلام فى هذه الآية تحت عنوان « السيد الأجلّ » فقد اطلعوا فى ينان على تاريخ محرّر فى سنة ١٦٨٤ يقال فيه انه لما زحف جنكيزخان إلى الغرب جاء السيد الأجـل عمر بألف فارس وقدّم له الطاعة فأكرمه وجعله من بطانته (١٢٠٦ ــ ١٢٢٩) ولما آل الأمر إلى السلطان أوغوناى (١٢٣٠ ــ ١٢٤٢) ولاه ثلاث ولايات وهى : (فونغ ، تسينغ ، يون ناى) ثم استدعاه إلى باكين ، وعهد إليه بمنصب عال ، ثم لما تولى السلطان نانفو (١٢٥١ ــ ١٢٥٩) عهد إليه بادارة ستّ نظارات بالاشتراك مع (تاول هوان) ثم جعله مديرا عامّا لمقاطعة (يان كينغ) فأحسن الادارة جدّا ، فعهد إليه بنظارة الاستخبارات ثم لما زحف السلطان إلى بلاد (تسونشوان) جعله ناظرا للميرة العسكرية ، فقام بها أحسن قيام ، فلما تولى السلطان (قو بيلاى) أعطاه رتبة الوزارة ، وجعله عضوا فى مجلس أمانة السرّ الأعلى ، وكان كلما تقلد عملا ظهرت فيه فضائله ، وحاز رضا السلطنة ، وسنة ١٢٧٤ تقدّم إليه السلطان فى أن يقبل ولاية ينان ، وكانت أحوالها مختلفة ، وكان أهل ينان شديدى الغباوة والجهـل ، فلما ذهب إلى هناك وجد القيادة فى يد أمير من بيت السلطنة ، فخاف هذا منه وأراد أن يجاذبه الحبل ، إلا أنّ السيد الأجلّ بحكمته وحسن سياسته استماله إليه وصيره صديقا ، وكانت تلك الولاية فى غاية الانحطاط والبلاد خرابا ، فنشر السيد الأجل العلم و بنى المدارس واعتنى بتهذيب الأخلاق ، وكذلك وجه همته إلى عمارة الأرضين ، فمهد الطرق ، و بنى المعابر والجسور والسدود لأجل المياه مما تلافى به خطر القحط ، فكانت بعض الأنهار تطغى على الأراضى فتذهب بها زروع الفلاحين فجعل لها حواجز تقى من ضرر الطغيان ، وكانت أراضى أخرى تعطش فى الصيف من قلة المياه ، فبنى خزانات وحياضا احتياطا من حراء العطش ، وأزال المغارم والمظالم ، وأبطل السخرة ، وشيد الملاجئ للأيتام والعجزة ، وخفف المكوس ، وأحـدث نموذجات زراعية يحتذى على مثالها ، وحفر الآبار ، وأقام الأسواق ، وأدخل فى طاعة الدولة مالايعدّ ولايحصى من الأقوام ، وأثناء وجوده فى تلك الولاية عمر مسابد للاسلام ، ولكنه شيد أيضا هياكل لكونفوشيوس ولبوذا ، وكانت ولايته تضم عشرين مقاطعة ، فيحدّها من الشرق سونغ ، ومن الغرب بيرمانيه ، ومن الشمال التبت ، ومن الجنوب آنام ، و بحسن سياسة السيد الأجـل خضع ملوك التونكين وآنام لسلطان الصين .

ومن نوادر حكمته أن ملك لوبان ثار على السلطنة ، فصدر الأمر للسيد الأجل بالزحف إليه ، فلما سار بالجيش رآه الناس حزينا كئيبا ، فسألوه عن سبب كآبته فأجاب : لست كئيبا لكونى ذاهبا إلى الحرب ، بل لكونى أتصور منكم كثيرا سيهلكون فى هذه الملحمة بدون ذنب اقترفوه وانهم سيقتلون وينهبون أناسا كثيرين موادعين لا ذنب لهم أيضا ، ولما وصل إلى مكان الثورة أرسل إلى الثوّار يعرض عليهم التسليم ، فلبثوا ثلاثة أيام لايجاوبون ، فهاج العسكر ، وطلب القوّاد الاذن بالهجوم ، فلم يأذن لهم ، بل راجع رئيس الثوار فى أمر التسليم ، فأظهر الطاعة ولكنه لم يسلم البلدة ، فوثب رؤساء الجند على البلدة ، فغضب السيد الأجل ، واستدعاهم وقال لهم : إن ابن السماء أمرنى أن أتولى بلاد ينان ، وأحكم فيها بالعدل والأمان ، لا بالقتل والعدوان ، فلا أرضى أن تهاجوا البلد ، مادام الثائرون وعدوا بالطاعة ، فان أبيتم إلا سفك الدماء فجزاؤكم القتل ، ثم أوثق الضباط الذين أرادوا الهجوم خلافا لأمره ، فلما سمع الثوار بما حصل جاءوا وسلموا ، وسكنت البلاد ، وأطاعت عن بكرة أبيها . وكان سائر العمال يقتدون بسيرة السيد الأجل ويتباهون بأعماله ، فأمنت السوابل ، واستراحت الرعية ، وساد العدل ، وفاضت الخيرات ، وعمرت البلاد ، وصار يقال هنيئا لبلاد ينان ، أمّا آثاره فى الزراعة فلاتزال بقاياها إلى الآن ، وأن كثيرا مما بناه من الجسور لايزال قائما إلى يومنا هذا . وكانت بلاد (تشاوثيان) تطغى عليها الأنهر ، فتتحوّل إلى بحيرة ، فحفر السيد الأجل نهرا حدر إليه تلك المياه كلها ، فصرفها عن الأراضى التى كان الماء يغمرها من قبل ، وحفر ترعا كثيرة ، وخلجا لسقيا البقاع المحتاجة إلى الرىّ ، وجعل بريدا مؤلفا من ٣٦٠ فارسا وحراسا بقدرهم يسهرون على السدود بحيث إذا حصل فتق فى أحدها أسرعت البرد بإخبار الحكومة ، فجمعت الحكومة الأهالى ، ونهضوا لرتق الفتق .

ومات السيد الأجل رحمه الله سنة ١٢٧٩ فكان له مأتم عمّ الصين بأسرها ، وبكاه أهل ينان كما يبكى الأولاد أباهم ، وعمّ الحداد البلاد المجاورة إلى بلاد (سونغ) و (تبت) وغيرها ، وذبحت القرابين فى البلاط السلطانى ، وخلف خمسة أولاد و١٩ حفيدا ، فكان خلفه فى الامارة ابنه ، ثم ابن ابنه ، وتداول أحفاده الامارة ، وكانوا جميعا أعضاء للسلطنة .

وفى أيام دولة (مينغ) راجع السلطان (ناى تسوكا هوانغ تى) (١٣٦٨—١٣٩٩) تراجم وزراء الدولة السابقة ، فلم يجد بينهم فى الحكمة والعدل والرّفق بالرعية ، ووفرة آثار العمران ، مثل السيد الأجل ، فأمر بتسجيل سيرته فى كتاب خاص بقيد المآثر اسمه (ين تشه شو) وأن يدرس هذا الكتاب للطلبة وينشر فى المملكة ، وقد ثبت هذا السلطان لقب السيد الأجل ، وهو « الأمير الأمين المحسن » وأمر ببناء هيا كل فيها القرابين عن روحه ، وسنة ١٤٠٥ صدر أمر الحكومة الصينية بتأليف سيرة للسيد الأجل بقلم (تشيغ هو) . ويوجد فى بلاد ينان هيكل باسم الأمير (هيان يانغ) وهو لقب السيد الأجل عند الصينيين . ولاتزال أعقاب السيد الأجل إلى اليوم ، وأسرته معروفة منذ سنة ٨٥٠ انتهى ما أردته من كتاب « حاضر العالم الاسلامى » وبهذا تمّ الكلام على قوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا * محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » . كتب ظهر يوم الاثنين ١٩ اكتوبر سنة ١٩٣١ م والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثالثة فى قوله تعالى : تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود

اعلم أيها الذكىّ أن هذا الانسان فوق الأرض المخلوق من الطين فى الأعم الأكثر ، هائم على وجهه ، جاهل لايدرى لم خلق ؟

الله أكبر : إن الانسان يشبه ماشاع وذاع فى زماننا ، من أن الجواهر الفردة والذرات الدقيقة أصبحت الآن موضع عناية علماء الألمان خصوصا وعلماء العالم عموما ، إذ يقولون ان فيها قوى كامنة ، وتلك القوى المخبوءة يعوزها أعمال عظيمة حتى يمكن استخراجها ، ذلك أن كل مادّة فانها مكوّنة من موادّ كهربائية سالبة وموجبة وهى مكبوسة مكدّسة مضغوطة ، فأصغر المادّة الذى لا يرى إذا أزلنا ضغطه وخرجت القوى الكامنة فيه غيرت لنا معالم الحياة ، لأنها قوى لاحدّ لها ، وقد تقدّم هذا كثيرا .

أقول اذا كانت هذه حال الذرّات التى لانراها فى الطين والتراب والماء . الله أكبر : فكيف تكون حال هذا الانسان إذن ؟ الانسان نهاية الابداع فى أرضنا هذه ، فاذا كانت هذه حال الذرّات التى منها تركب عالمنا ، فكيف يكون حال الانسان الذى هو نهاية الابداع ؟

الانسان يشبه هذه الذرّة ، فهو يهيم على وجهه ، و يعيش كالحيوان منبوذ كالذرّة . والجوهر الفرد ولكن يستخرج قواه أناس منه مجبولون على صفات خاصة به خرجوا من هذا الطور الطبيعىّ وأيقظوه إلى استخراج ماكمن فيه من القوى ، ولذلك تجد الرجل المهذب الراقى بوحى أو بتعليم يقدر أن يؤثر فى نوع الانسان كله بآرائه وأفكاره ، ومن أوّليات هذه الوجهة التى أتى بها الأنبياء الصلاة والركوع والسجود فان هذا الانسان الذى يعاشر السباع والطيور والأنعام يقف ويقول : « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض الخ » وهذا عجب ! الجوهر الفرد قواه مادّية باستخراجها يرفعنا مادّيا ، ولكن هذه النفس الانسانية باستخراج مافيها من القوى ترجع إلى أصل هذا الوجود وهو الله ، فنخاطبه قائلين : « إياك نعبد و إياك نستعين » .

ياعجبا ! هذا الانسان المركب من ذرّات أرضية وما حولها يركع ويقول : « اللهمّ لك ركعت ، و بك آمنت ، ولك أسلمت الخ » ، ويقول : « سجد وجهى للذى خلقه وصوّره وشقّ سمعه و بصره » .

هذا الانسان الصغير الجسم الضئيل يعاشر الحيوان ، يقف ويخاطب خالق هذا العالم كله وطبقاته التى لم يعرف الناس لها حدا إلى الآن ، وفيها شموس يعدّونها بآلاف الملايين و بعضها كما فى الجوزاء أكبر من شمسنا (٢٥) مليون مرّة ، وضوء شمسنا بالنسبة لها أمر صغير . سبحان الله : أهذا الانسان هو الذى يخاطب خالق هذه العوالم كلها ، ثم هو نفسه الذى يفكر فى الشرق والغرب ، وفى أعلى وفى أسفل ، فى ثانية واحدة

نعم الانسان هذا وصفه ، وهذه حاله ، أيقظه الأنبياء وهذبوه وربوه ، وغاية الأمر أن الديانات قديما كانت تنزل على الناس بمقتضى استعدادهم ، وكل دين أرقى مما قبله ، ولما جاء ديننا رفع تلك الشبهات والخرافات ، لأن الله يريد أمما أرقى من السابقة موحدين صادقين ، وقد أمر جميع الأمم أن تتحد به ، ومامن دين إلا وقد أمر متبعيه بالصلاة والتوجه لله ، ألم تر إلى غاندى المصلح الهندى الشهير ، فانظر كيف يصف الصلاة فى دينه البوذى الذى نزل به بوذا قبل نزول المسيح عليه السلام ، وكيف تراه يوقن بالصلاة ونفعها ، أنا لا أقول ان هذا الدين لم ينسخ . كلا . هو منسوخ بديننا وانما الذى يهمنى أن أقوله ان وجود الصلاة إلى الآن فى دين البوذية ، واعلان غاندى أن الصلاة نافعة معجزة لديننا ونبينا ، لأن الله يقول : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل الخ » ويقول : « ولقد وصينا

الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » ، ويقول : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا باذن الله » .

فاذا أسمعتك ما قاله المهاتماغاندى فى الصلاة فانى أسمعك معجزة ، أسمعك شيئا لم تألفه ، أنت تعرف أن اليهود والنصارى لهم صلوات وان كانت منسوخة بصلواتنا ، ولكنك فى الغالب لم تسمع اذا كنت بعيدا عن ديار الهند أن هناك صلوات وان كانت منسوخة يتلوها قوم وينتفعون بها ، لأن الله ربّ الناس ورب الحيوان ، أما كون الدين منسوخا فشيء آخر ، واذا كان المهاتماغاندى ينتفع بالصلاة ، فكيف يكون المسلم إذن ؟ وهذا نص ما قاله بالحرف الواحد . جاء فى جريدة الاهرام يوم ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٣١ تحت العنوان التالى مانصه :

الصلاة فى نظر المهاتماغاندى

وقع نظرى على أحد أعداد جريدة « الهند الفتاة » الصادرة أخيرا وفيها فذلكة مختصرة عن رأى المهاتماغاندى فى الصلاة فرأيت ترجمتها لكى أشرك اخواننا (الشبان بالاخص) فى أراء ذلك الرجل العظيم خصوصا أن الكثير منهم ينظر الى الصلاة نظرة استهزاء وسخرية ويعتبر التمسك بها نوعا من الجمود

قال المهاتما من ضمن أحاديثه على ظهر الباخرة « راجوتانا » :

« وربما كانت مسرتى عندما أقوم لصلاة المساء تفوق ما أشعر به من الغبطة والمغزل دائر بيدى . ويشترك معى فى صلاة المساء جميع أصدقائى من هندوس ومسلمين وبارسيين وسيخ أمانى صلاة الصباح المبكرة فلايشترك معى منهم الا القليل ، ولقد سألنى صديق مسلم عن الصلاة ومأراد منى أن أعطيه وصفا نظريا ولكنه سألنى عما شعرت به نحوها من تجارب عملية ولقدراقنى سؤاله هذا كثيرا وليس غريبا علىّ أن أصرح على رءوس الأشهاد بأنه لم يكن لى سبيل إلى النجاة إلا بسبب الصلاة كما أنى لا أنكر الناس أنى لولم اكن أصلى لكانت تضمنى الآن إحدى دور المجاذيب . ولقد أتى علىّ حين من الدهر كثر مالقيته فيه من مرارة العيش ومن اليأس الوقتى الذى رمانى فيه بعض الجماهير ولكن ما كان أسرع نهوضى من يأسى وقنوطى ببركة صلاتى وقنوتى .

لم تكن الصلاة فيما مضى جزءا لازما من حياتى ولكنها أتت بنت الضرورة حينما وجدت أنى لن أكون سعيدا بدونها وكلما زاد اعتقاد الناس فى الله زادت رغبتهم فى الصلاة . ولربما اكون قد بدأت حياة الالحاد ولكن قد أتى علىّ نور من الله حينما بدأت أشعر بان لزوم الصلاة للروح أكثر من لزوم الاكل للجسم : لان مرض الجسم يحتاج إلى الحمية لكى يصح ولكن كلنا يعلم أنه لايوجد حمية من الصلاة لكى تصح الروح ، وفى حين أن التخمة ربما تأتى لنا من كثرة الأكل فاننا لانجد تخمة صلاة للروح

ولقد ترك لنا ثلاثة رجال عظماء وأعنى بهم بوذا ، وعيسى ، ومحمد ، اعترافا بأنهم لم يروا سعادة الحياة الاعلى ضوء مصباح الصلاة كما أن ملايين من الهندوس والمسيحيين والمسلمين الاتقياء لايجدون لهم سلوى إلا فى الصلاة وقد يعتهم البعض كذابين ، ولكنى كباحث عن الحقيقة المجسمة أحب أن أؤمن بهذا الكذب لأنى وجدت أن نتيجة تصديقى له كانت عماد نجاحى ، ومع أنى لا أستبشر خيرا من الجو السياسى ولا أرى فى أفقه إلايأسا فانى دائما فى غاية الاطمئنان والأمان لدرجة أن الكثيرين صاروا يحسدوننى على اطمئنانى هذا ، وما كل ذلك الامن الصلاة .

انى لست رجل تعاليم راقية ولافلسفة عميقة ولكنى بكل خضوع يمكننى أن أدّعى بأنى رجل صلاة ولست مع كل هذا أعلق كبير أهمية على الطريقة التى بها نؤدى الصلاة فالنتيجة فى النهاية واحدة .

بقيت مسألة صعبة ، وهى أن البعض لايعتقدون وجود إله لايمكننى أن أقول لهذا البعض إلا أن يرمى بتلك العلوم التى تربك عقـله عرض الحائط ويسلم بأننا بنى البشر ما أوتينا من العلم الاقيلا فلندرس هذه المسألة بعقل طفل صغير وفى الحقيقة اننا أصغر حتى من الذرة لأن الذرة المتناهية فى الصغر تطيع قوانين الطبيعة من شدّ وجذب وسقوط وارتفاع ، ولـكننا بنى الانسان فى كبرياء جهلنا وخفة آمالنا وعجرفة صلفنا نقف وجها لوجه ضد هذه القوانين وننـكرها . ومادمت قد سلمت بوجود إله وكنت به من المؤمنين فانى لاأرى مايمنعك لحظة واحدة عن الصلاة ولا أقبل فلسفة من يدّعى بان مجرد حياتنافى الدنيا هى نوع من العبادة ، وعلى ذلك لازوم للصلاة لأن الأنبياء أنفسهم وقدكانوا على اتصال دائم بالروح العلوى كانوا يقومون بالصلاة ويجددون ايمانهم كل يوم ، فما أولانا بنى البشر بأن نصلى ونتضرع إلى الله يوميا ونجدد أيمـاننا . إنى أيها الاخوان ضامن لـكم بعد ذلك خلاً بالـكم من كل ما يمكن أن يسبب له أقل تعاسة أوأدنى شقاء . انتهى بتصرف .

ا . حلمى مطر

(إستاذ علوم من جامعة منشستر)

فضل الله عَلَى النّاس

إن الله ذو فضل على الناس ، الناس محبوسون فى الأرض ، أنا لا أدرى كيف كان هذا الانسان قبل أن ينزل إلى الأرض وإنما أنا أصف الانسان الساعة بمـا وقر فى نفسى ، فأقول :

انى الآن موقن إيقانا تاما بأن صانع هذا العالم لاحدّ لرحمته ، رحمة وعدل وحكمة وجمال وبهاء وابداع فى الصنع ، لايسع من يقرأ هذا التفسير ومافيه من العلوم إلا أن يقول ذلك ويعتقده ، وليست تعـقل نفس بعد هذا أن يكون وجود الناس فى الأرض لقصد التعذيب . كلا . فـكل عذاب لم يرد به إلاالسعادة ، هذا لا أشكّ فيه ، فهو يقين (نعم هناك ماهو فوق علمى وطاقتى ، ولايتسنى لى معرفته ، بل أسلم به ، وأومن به وهو عذاب الـكفار الدائم ، فهذا آمنا به ، ولوأننا عرفنا سرّه لـكنا من عالم أرقى من عالمنا ، فـكفانا ماعرفنا الآن ، ونـكل أمر الباقى إلى الله ، حتى يطلعنا على السرّ بعد الموت ان استحققناه) .

فاذا كان هذا هواليقين عندى ، فانى أبنى عليه ما يأتى . فأقول : لعلّ أرواح الناس كانت قبل نزولها إلى الأرض غبية جاهلة بتفصيل العوالم ، وان كانت تعرف الـكليات فعلومها تحيط بالـكليات وتجهل الجزئيات فبعث الله فيها غريزة حبّ المـادّة وعشقها فانحدرت إليها وانغمست فيها وحبست . ومن عجب أن يكون هذا السجن الأرضى أشبه ببستان جميل ، وهوأعظم سجن وأبدعه ، وهو يعطينا درسا كأنه يقول لنا : أناسجنتكم فى الأرض لأعلمكم ، أرسلت أنبياء وحكماء وعلماء ، وأنزلت ماء ، وأمرتـكم بالطهارة والصلاة لتـكملوا ، ووضعت فيكم غرائزالطعام ، والشراب ، واللباس ، والحرب ، والعداوات ، ليكون ذلك كله مهمازا يدفعكم إلى العلم والعمل ، وهـذا كله هوالرقىّ والسعادة ، وأوعزت إلى علماء اسبارطه باليونان أن يمرّنوا الصبيان من الصغر على تحمـل الضرب ، فيشبون على الشجاعة ، وأوعزت إلى بعض قبائل السودان أن يضربوا الشاب أمام الفتيات ضربا موجعا قاسيا فلايصرخ ، فيستحقّ أن يتزوّج الفتاة لشجاعته ، وألهمت بعض القبائل أن لايتزوّج الشاب فتاة فيها إلا اذا قتـل سبعا ، أونمرا ، أونحوذلك ، كل ذلك لاستخراج ما كمن فى نفوسكم من العجائب والقوى الـكامنة ، فلا شجاعة إلا بالتحمل ، ولا أنوار للنفوس إلا بالصلـوات والحكمة والعلم .

أنتم يا أهـل الأرض مسجونون ، ولـكن الذى سجنكم حكيم ، ولم يرد من السجن ذلـكم ، بل أراد استخراج كنوز نفوسكم ورقيها واسعادها .

وقد

وقد وضع لكم فى الأرض أشجارا وأزهارا وأنهارا وجبالا وأودية وبحارا لتكون هذه مكملات لكم ، تارة بالنصب والتعب فى استخراج مابطن فيها ، وتارة بتعاطى مافيهامن الأغذية والأدوية والثمرات ، وكل هذا تكميل لكم ، واستخراج لقواكم ، وخير السجون ماجمع بين الحبس والعمل والطهارة ، انظر ماكتبناه فى ﴿سورة البقرة﴾ عند قوله تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ، وكيف يقول (بنتام الانجليزى) فى كتابه « أصول القوانين » : « إن النظافة والاستمرار فى العمل يقللان الجرائم ، والطهارة فى الشريعة الاسلامية من محاسنها ، فلن ترى نظيفا عاملا إلا وهو بعيد عن الجرائم ، قليل الأوزار » .

وازن أيها الذكى بين أدنى الحيوان ، وهى تلك الخلايا الصغيرة التى تعيش فى الماء ، ولاتموت مطلقا إلا بعدو يفاجئها ، أوبانقطاع غذائها ، وكيف تعيش دهورا ودهورا لولا الطوارىء ، كيف كانت حياتها ضئيلة من حيث الارتقاء ، وفيها طبعا أرواح ضئيلة ، ثم انظر إلى الحيوانات التى هى أرقى منها وأرقى إلى أن تصل إلى الانسان فتجد علما وحكمة ورقيا وشجاعة وقربا إلى الله بالصلاة حتى يقول الله فى المسلمين : « تراهم ركعا سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا » انتهى الكلام على الجوهرة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين كتب صباح يوم الخميس ٥ نوفبر سنة ١٩٣١ م .

الجوهرة الرابعة

فى قوله تعالى : « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار »

صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده . لك الحمد اللهم ولك الشكر ، ما أعظم نعمك ، إن هذا الزمان هو الذى اشتد فيه ظهور المعجزات ، معجزات النبوة المحمدية ، كيف لا ، ألم أذكر فى السور الأولى من هذا التفسير أن الفرنسيين انقضوا على بلاد سوريا ففتكوا بأهلها فتكا ذريعا وقتلوا القوم تقتيلا . ألم أقل فى ﴿سورة آل عمران﴾ عند قوله تعالى : « ألم ترإلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » . الآيات ، إن هذه الآيات إنما نزلت لأجل رقينا نحن أبناء المسلمين عموما ، والعرب خصوصا ، وقلت ان (الم) فى أول السورة تشير إلى هذه القصة المبتدأة بهذه الحروف (الم) وأن اليهود لما اتكلوا على شفاعة آبائهم ، وعلى تخفيف العذاب عنهم يوم القيامة ذهب ملكهم ، وملك المسلمون بلادهم ، وقلت إن المسلمين اليوم قد دخل عليهم من الخرافات والجهل فى الدين ما أزال نخوتهم ، وفرق جمعهم ، وأبنت هناك أن أبناء العرب من بحر الظلمات ، وهو المحيط الاطلانطيق ، و بلاد السودان الى بلاد العراق والموصل ومابينهما متفرقون مع أن بلادهم متلاصقة وتفرقهم إنما جاء من الجهل المحيط بهم ومن بعض الشيوخ المخرفين والرؤساء المغرورين الدجالين وما أكثرهم فى بلاد الاسلام ، هذا نموذج لما قلته هناك من أسرار (الم) التى نزلت لايقاظنا نحن الآن ، لأننا نحن الذين جبنا أى الأرض ، ونحن فى حاجة إلى الهداية ، فهدايتنا جاء بعضها عن طريق هذا الزمن العجيب ، كنت أقول هذا هناك وأنا واثق برقى هذه الأمة ، ولكن لم يكن ليخطرلى أن هذا الرقى أصبح قاب قوسين . كلا . أنا كنت واثقا برقى المسلمين عموما وأبناء العرب خصوصا ولكن هل كان يدور بخلدى أنى أعيش حتى أقرأ ما ستسمعه أيها الذكى الآن ؟ بل هل كان يهجس فى خاطرى ، أوتحدثنى نفسى بأن ماستسمعه الآن يحصل ونفس هذا التفسير لايزال يطبع . كلا . لم يكن ذلك بخلدى ، ولكن زماننا هذا زمان انقلاب فى كل شىء انقلاب فى الشرق ، وانقلاب فى الغرب حتى أقرأ اليوم فى جريدة الاهرام أثناء طبع هذه السورة يوم ٤ نوفبر

سنة ١٩٣١ تحت عنوان « العراق وعصبة الأمم » وهذا نصه :

« جنيف فى ٢ نوفمبر (روتر) قال السرفرنسيس همفريز المندوب السامى البريطانى فى العراق أمام لجنة الانتداب : « فى أيديكم مفتاح الباب الذى لابدّ لهذه البلاد الفتية من المرور فيه إلى البلوغ التام والتحرير الكامل ، فأسألكم أن تفتحوا هذا الباب . وقال أيضا : ان العراق برهنت على أنها أهل للقبول فى مجمع الأمم المتمدّنة الراقية » . انتهى . وعلقت الجريدة على هذا التلغراف بمقال هذا نصه :

العراق وعصبة الأمم

بعد إلغاء الانتداب ، ومستقبل الحالة فى سورية

خطب السر فرنسيس همفريز المندوب السامى البريطانى فى العراق أمس أمام لجنة الانتدابات الدائمة فى جنيف مؤيدا طلب انضمام العراق الى عصبة الأمم بعبارات مؤثرة .

والذى نعرفه أن مسألة انضمام العراق الى العصبة فى السنة المقبلة قد بت نهائيا بين الدول وأنه لم يبق لتقريرها رسميا الا بعض معاملات شكلية لاتؤثر فى الموضوع ، وانضمام العراق الى العصبة يعنى إلغاء الانتداب الذى فرض عليها فى مؤتمر سان ريمو فرضا . وقد رفضته منذ إعلانه وتمسكت بهذا الرفض الى النهاية . ولم تشأ انجلترا أن تضيف الى مشاكلها الكثيرة فى تلك البلاد مشكلة أخرى بمحاولة اكراهها على الاعتراف رسميا بالانتداب ، بل جعلت علاقاتها معها على أساس المعاهدات المعقودة فى سنة ١٩٢١ ثم فى سنتى ١٩٢٦ و ١٩٢٨ . وقد كفلت لنفسها فى هذه المعاهدات الاشراف على المصالح المسئولة عنها لدى عصبة الأمم بصفتها دولة منتدبة ، ومكنت العراق فى الوقت نفسه من عدم الاعتراف بالانتداب وعدم التقيد بنصوصه وأحكامه ، فكانت دولة منتدبة على العراق فى نظر عصبة الأمم ودولة مخالفة له فى نظر حكومة بغداد . على أن الشعب العراقى الذى رفض الانتداب رسميا لم يسعه القبول به ضمنا تحت ستار المعاهدات ، فكان دائما يطالب بتعديل مايراه ماسا باستقلاله ، من موادها وكانت معظم الوزارات التى توالت فى دست الحكم تصطدم بالانجليز من جراء ذلك فتفوز ببعض الشىء أحيانا وتفشل أحيانا الى أن وقع الاصطدام الأخير مع وزارة المرحوم عبد المحسن السعدون ، وهو الاصطدام الذى أدّى الى انتحاره بعد مابددت الآمال التى عقدها على حسن نيتهم وشعر بقوّة ضغط الشعب عليه وضياع مركزه لدى الوطنيين من أبنائه .

ووقع اصطدام آخر أثاره الهاشمى باشا وزير المالية فى عهد وزارة ناجى باشا السويدى . و بلغت الأزمة حينئذ أقصى حدّ من التعقد حتى خيل الى الجمهور أن الملك سيعجز عن تأليف وزارة جديدة .

ودارت مباحثات خطيرة فى تلك الأثناء حملت جلالته على الاقتناع بأنه أصبح فى الامكان الوصول الى اتفاق مع الانجليز ، فأقنع نورى باشا السعيد بذلك وعهد اليه فى تأليف وزارة اشترك فيها بعض الوطنيين المتطرفين ، وأسفرت المفاوضات التى قامت بها وزارة نورى باشا السعيد عن عقد معاهدة تنص على الجلاء والاستقلال ، ولاتبقى لانجلترا من مظاهر السيطرة غير ثلاثة مطارات اثنان منها غربى الفرات والثالث فى جهات البصرة . ولم تقابل هذه المعاهدة على مافيها من مزايا لايستهان بها بارتياح المقامات الوطنية لطول مدتها من جهة ، ولأن العراقيين يريدون استقلالا خالصا من كل شائبة من جهة أخرى .

وقد أيدت انجلترا طلب العراق الانضمام الى عصبة الأمم ، وأعلنت أنه أصبح فى حالة من الرقى لايحتاج معها الى إرشاد دولة منتدبة . وسيدخل العراق العصبة فى السنة القادمة على أساس المساواة التامة مع الدول المشتركة فيها ومن دون أقل قيد أوتحفظ يتعلق بالأقليات أوغيرها ، سوى القيود التى تنص عليها المعاهدات العامة ، كما صرح جلالة الملك فيصل لمندوب الاهرام فى أثناء مروره أخيرا بالاسكندرية .

ومتى دخلت العراق عصبة الأمم وخطت هذه الخطوة الواسعة فى طريق استقلالها . تعذر إبقاء البلاد المجاورة لها ، والتى هى أقرب الى الحضارة منها تحت الانتداب . وهـذا ماأدركته فرنسا وصرح به مندوبها أخيرا فى عصبة الأمم . فالطريق الذى سار عليه العراق ستسير عليه سوريا أيضا إذ لايعقل أن يقبل السوريون — كما قال ممثل فرنسا لدى لجنة الانتدابات — بنظام أبعد عن الاستقلال من نظام العراق ، مع كونهم لايقلون عن العراقيين علما وحضارة وخبرة فى شؤون الحكم .

وخلاصة القول : أن دخول العراق عصبة الأمم سيكون فاتحة دور جديد فى تاريخ الشرق الأدنى ومقدمة لانقلابات سياسية خطيرة قدتكون فى مصلحته ومصلحة السلم . انتهى ماجاء فى جريدة الاهرام

أقول : هل كان يخطر لى وأنا حىّ أرزق ، ونفس هذا التفسير يطبع أن أسمع أنّ العراق وسوريا على أبواب الاستقلال . اللهم انك أنت الواسع المغفرة ، الحكيم العليم العدل ، أعدت إلى الشرق شرفه وكماله وعزّته بعد أن أدّبته وربيته بالنوازل والمحن ، إنّ كتاب (بالتشديد) زماننا المسلمين خصوصا والشرقيين عموما من أسعد الكتاب (بالتشديد) فى الأرض ، لأنهم يرون مايدعون اليه من الرقىّ قريب المنال ، سريع الحصول ، والله هو الولىّ الحميد . انتهى الكلام على الجوهرة الرابعة والحمد لله رب العالمين .

الفتح الاسلامى فى زماننا

وآثار النبوّة المحمدية فى نهضة الشرق الأقصى

لك الحمد اللهم على نعـمة العلم والحكمة ، وعلى الفتح المبين ، اللهم إنك أنت الفتاح العليم ، المحسن المهيمن ، الجليـل الرحيم . تالله لم يكن ليخطر لى فى الخيال ، ولافى الأمانى ، ولافى الأحلام ، أن أقف فى حياتى قبل أن أموت على ماسمعت به الآن عن بلاد الاسلام من الفتح الاسلامى المبين ، حقا إنّ هذا زمان الفتح المبين ، الذى يضاهى الفتح المبين أيام النبوّة ، وأيام عصر الصحابة والتابعين ، نعم هو حقّ ، هو حقّ وصدق مبين ، كيف لا وقد كنت قبل اليوم أظنّ فى نفسى أنّ هذا التفسير ربما تقرؤه أمم قراءة جدية بعد موتى ، وتثور به فى وجه الجهالة العمياء ، فتطمس معالمها ، وتزهق روحها ، وتجعلها فى خبر كان .

كنت أقول ذلك أشبه بالأمانى والأحلام ، ومعلوم أن الأمانى والأحلام تضليل ، ولكن ماذا حدث ؟ اليوم ، حدث مالاعين رأت إلا قليلا ، ولا أذن سمعت إلا نادرا ، ولاخطر على قلب كثير من المؤلفين ، حدث ماذكرته فى تفسير البسملة فى أوّل هذه السورة ،من حضور الشاب التركستانى الذى قصّ علىّ أخبارا ونشرها فى الجرائد فوق ماكتبته فى أوّل السورة ، هذا الشاب اليوم أى فى شهر ديسمبر سنة ١٩٣١ م قد قبل فى كلية الآداب فى علم الفلسفة فى الجامعة المصرية ، فماذا يقول ؟ يقول : لقد فتحت مدارس فى بلادنا التركستان الصينية ، ودرسنا فيها العلوم الحديثـة ، وأنا درستها فيها ، وأن السبب فى ذلك انتشار كتاب « نظام العالم والأمم » و « التاج المرصع » ، ومثل بلادنا بلاد الصين ومسلموها نحو (٧٠) مليونا ، وبعض أهل اليابان أسلموا ، واتصلوا باخوانهم فى التركستان والصين ، واسلام أهل اليابان بسبب رجل من بلاد التتار أحضرلهم « التاج المرصع » مترجما (انظر مقالة تحت عنوان ،علومات جديدة فى المقطم يوم ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣١)

أكتب هذا الآن ذاكرا نعم الله عزّوجلّ ، أكتبه وأنا دهش أن بعض الكتب التى سبقته ونشرت قبله قد أدّت الغرض المقصود الذى كنت أرجوه منه بعد مفارقتى هذه الدار .

إن هذه الأخبار فيها معان سامية ، ومرام شريفة ، وأسرارها مابعدها فتح سريع ، وخطوات واسعة ، اتصل المسلمون اتصالا لم يعهدوه ، وانتشر الاسلام انتشارا غريبا لم نعهده ، واتصل الافريقى بالأندنوسى ، والجاوى والسومطرى ، والصينى واليابانى ، والأفغانى والهنـدى والتركستانى ، والتتارى والقازانى . اتصـل

المسلمون ، اتصالا لم يعهدوه .

هذا من آثار : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » فرحم الله الشيخ الصباغ لأنه هو الذى قرأت عنه أن الفتح معناه الفتح العلمى ، ذلك الفتح الذى نشر أيام النبوّة فى سائر الأقطار ، ثم أصبحت بقايا العلم الاسلامى أشبه ببقايا الماء الآسن فى البرك والمستنقعات ، ثم كانت الحركة العلمية الحاضرة ، فانبعث المسلمون ونفضوا غبار الذل ، وغادروا الكسل ، وأخذوا يجدّدون مجدا مضى ، وعزّا قضى ، وسعادة أدبرت وملكا ذهب ، وأخذنا نسمع باقترابهم وتواصلهم ، فلله الحمد وله المنة .

أكتب هذا وسيقرؤه شبان هم يعيشون الآن معنا فى هذه الحياة الدنيا وهم مفكرون ، وآخرون لا يزالون صبيانا ، وآخرون هم أجنة فى بطون أمّهاتهم ، وآخرون هم فى ظهور أصلاب آبائهم . كل هؤلاء وهؤلاء سيقرءون ما كتبناه الآن أو يسمعون به فيبعث فى قلوبهم من الحمية العلمية الاسلامية مالا أعلمه أنا ولا أكثر المسلمين الحاليين ، وسيحدث ذلك فى قلوبهم شعورا قويا يحملهم على ركوب الطيارات التى أما الآن وأنا أكتب هذا فى صباح يوم الأربعاء يوم ٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ بعد الفجر ، كأنى أراهم فوق طياراتهم راكبين من بلاد التركستان الصينية ، أو البلاد اليابانية ، أو البلاد الصينية ، وقد وصلوا بها إلى البلاد المراكشية والجزائرية والتونسية وهم يحلقون فوق رءوس إخوانهم المسلمين ، وقد قابلوهم بالتصفيق والفرح المبين ، هذا هو الذى أتخيله الآن ، كأنه حقيقة أراها بعينىّ ، ولقد أطمعنى ما تحقق من انتشار ما أكتبه وذيوعه فى بلاد الاسلام أنّ هذه الحقيقة قد قرب وقتها ، وأظلّ زمانها ، وأقبل حينها : « ولتعلمنّ نبأه بعد حين » وهكذا يقابل المصرى والسورى والمراكشى والطرابلسى جيل شبان الشرق الأقصى بمثله ، فيركبون طياراتهم ، ويردّون إليهم الزيارة قاصدين الأفغان والتركستان والصين واليابان والهند وايران و بلاد الترك وغيرها من بلاد الاسلام . كل هذا خيال اليوم وحقيقة الغد « ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » .

ومالى أذهب بعيدا ، إن زماننا زمان انقلاب اسلامى عجيب ! فبينما يخبرنى هذا الشاب التركستانى النابغة الذى يجيد أربع لغات ، وهو لم يتجاوز الثانية والعشرين بما ذكرت عن الشرق الأقصى ، ونسمع أذنى هذه الأخبار السارّة العجيبة ، إذا بالجرائد والأخبار تأتى سراعا بأخبار مدهشة ، ذلك أن المسلمين اجتمعوا فى مؤتمر إسلامى عام فى القدس فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٣١ وتلقت رئاسة المؤتمر برقيات التأييد من الملك على بن الحسين والأمير عبدالله أمير شرق الأردن ، والامام يحيى عامل اليمن ، وخديو مصر السابق ، وقد حضر المؤتمر مندوبو البوسنه والهرسك واليوغسلاف والصرب ، وكانوا يكرّرون مرارا « الله أكبر ، الله أكبر» عند ذكر أسمائهم والحضور نحو (٢٠) ألفا . ثم اشتغل المؤتمر بتأليف لجانه الفرعية ، فقرّر أن يجرى تأليف اللجان الآتية : —

(١) لجنة المحافظة على الأماكن المقدّسة والبراق .
(٢) لجنة الثقافة الاسلامية وجامعة المسجد الأقصى .
(٣) لجنة سكة حديد الحجاز .
(٤) لجنة الاقتراحات .
(٥) لجنة الدعاية والنشر .
(٦) لجنة الوعظ والارشاد .
(٧) لجنة المالية والتنظيم .
(٨) لجنة القانون الأساسى .

هذا ماجاء فى الجرائد المصرية يوم ٨ ديسمبر سنة ١٩٣١ أثناء طبع هذه السورة .

اللهم إنا نحمدك ونشكرك ، أحكمت صنعك ، وأجدت تدبيرك ، وجعلت تفسير هذه السورة موافقا فى زمان طبعه لحادثة حضور الشاب التركستانى إلى البلاد المصرية يحمل لنا نبأ بلاده ، ولحادثة المؤتمر الذى هو الآن منعقد فى فلسطين ، وقد حضره مندوبون من أكثر أقطار الاسلام .

اللهمّ إنّ هذا هو النصر المبين ، وهو عينه الفتح الاسلامى . اللهمّ إنّ المسلمين اليوم أشبه بالمسلمين أيام النبوّة قبيل الهجرة ، ففتحهم الآن فتح علمى سلمى تعليمى ، وسيعقبه قريبا الفتح السياسى العظيم ، وسيكون المسلمون سياج النظام العام ، وحماة العدل والرحمة لسائر الأمم والأجناس ، وسيكونون « خير أمة أخرجت للناس » يحملون السلام العام لأهل الأرض ، لأن فتحهم فتح علمى ، والأمم الآن سيكون فتحها فتحا علميا ، لأن الناس اليوم يسمعون و يعقلون ، والى هنا تمّ الكلام على ﴿ سورة الفتح ﴾ والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ م



تفسير سورة الحجرات

(هى مدنية)

آياتها ١٨ — نزلت بعد المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ * وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ * قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

﴿ القسم الأوّل ﴾ فى تفسير البسملة .

﴿ القسم الثانى ﴾ فى آداب المؤمنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوّل السورة إلى قوله تعالى « والله غفور رحيم » .

﴿ القسم الثالث ﴾ فى آداب المؤمنين بعضهم مع بعض من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » إلى آخر السورة .

القسم الأول فى تفسير البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم

جرت عادة الشعراء أن يبدءوا قصائدهم بالغرام ، ليكون ذلك داعية لاستماع القائل مابعده ، يصف جمال المرأة ومحاسنها ، فيصغى السامعون للشاعر ، ثم ينتقل بهم إلى المدح ، فالاستجداء ، فيخرج بالجوائز السنية ، والهبات الذهبية ، ولقد تقدّم أنّ الخلفاء الرّاشدين منعوا ذلك ، أمّا القرآن فان براعته استهلاله البسملة ، والبسملة تصف الله بالرّحمة ، رحمة هى مصدر جمال الرجال والنساء ، وجمال النجوم والجبال والشجر والدواب وما جمال الفتيات الساحر إلا أثر من آثار الرحمة ، ولكنه جمال يهيج الشهوات ، والشهوات غريزية فى الناس ، فليست فى حاجة إلى مايهيجها ، والأمم اليوم فى حاجة إلى إثارة ما كمن من صفات الكمال فى الناس وفى آثار الرحمة من الجمال مالاحدّ له .

ولقد شرح الله الرحمة فجعل لها سورة بأكملها ، فقال : « الرحمن علم القرآن الخ » ، إذن سورة الرحمن الآتية من مفصلات الرحمة فى البسملة كما قدمنا فى غير هذا المكان ، فصلت الرحمة هناك تفصيلا واضحا ؛ وفى ﴿ سورة الفتح ﴾ قبل هذه السورة جعلت أصول الرحمة هناك الفتح وهو انكشاف الحقائق الذى ترتب عليه كل فتح فى الاسلام ، فاذا قيل فى ﴿ سورة الرحمن ﴾ : « الرحمن علم القرآن » ففى ﴿ سورة الفتح ﴾ يقال : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، وعلى هذا الفتح دانت أمم وأمم ؛ وفتحت بلاد وبلاد ، أما الرحمة فى هذه السورة ، فانما هى الرحمة العملية ، أى رحمة الفضائل والأخلاق :

(١) أدب مع النبيّ صلى الله عليه وسلم وعدم رفع الصوت عنده .
(٢) وعدم الإصغاء إلى نقل الكلام حتى يحقّ الحقّ ويبطل الباطل .
(٣) والصلح بين الطائفتين .
(٤) واحترام الاخوة الاسلامية .
(٥) واجتناب الاستهزاء والسخرية ، وكل فعل يؤذى الاخوان .
(٦) وترك اللمز .
(٧) والتنابذ بالألقاب ، والسباب .
(٨) واجتناب كثير من الظن .
(٩) والتجسس .
(١٠) وترك الغيبة ونحو ذلك .
(١١) ثم التعارف .
(١٢) والايمان بالبرهان واليقين .

ولما أتممت هذا المقال ، جاء صاحبي الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير ، فقال : كأنك فهمت أنّ الرحمة هنا موجهة إلى مافى السورة وهى المطالب الثانية عشرة . فقلت : انّ الرحمة عامّة ، وههنا جاءت هذه المطالب تذكرة بها ، وأمثلة لها ، وهذه من المطالب التى نقلت عن سيدنا علىّ كرّم الله وجهه ورضى عنه إذ قال : « لوشئت لأوقرت سبعين بعيرا فى تفسير البسملة » أومامعناه فهومن نحوهذا الباب دخوله ، ومن هذه الناحية وجهته ، وبها وصوله ، وان كان له علم فوق ماعرفناه وحكمة فوق ما ألفناه ، ولكن مالايدرك كله لايترك كله . فقال : إنك قد جعلت أكثر السور على هـذا النحو ، فانك قد فسرت البسملة فى أكثر السور بالمطالب التى فيها ، فجعلت تلك المطالب مثـلا للرحمة كما هنا ، ولكن يخيل لى أن فى هـذه السورة طرائف مستحدثة ، و بدائع مستحسنة ، ولكن لاأجد فى لسانى قدرة على التحرير والتصوير ، ولافى جنانى قوّة على التقدير والتفكير . فقلت نعم ههنا معان شريفـة ، ودقائق منيفة ، ولطائف بديعـة ، وعوارف رفيعة ، وجواهر مكنونة ، وطرائف مصونة ، وطرائق مسنونة . انظر رعاك الله إلى هذه الآيات ، ففيها آداب الأمم ، وأحوال اجتماعها وتعارفها ، بحيث لا يكون هناك اختـلاف ، ولا اضطراب ، ولاغيبة ، ولانميمة ، ولاحرب ولاجدال .

وههنا يبدو للخواطر سؤال ، فيقال : إن الله هوالرحمن الرحيم ، ومن أجـلّ الرحمات أن لايجعل فى النوع الانسانى هذه المثالب ، وأن يخلصهم من تلك الشوائب ، حتى لايعوزهم النصائح القرآنية ، ولا الزواجر الاسلامية ، وهذا السؤال يعوزه بحث هام ، وتنقيب عن مصادرهذه العوالم ومواردها ، وأوّلها وآخرها ، حتى نفهم الرّحمات ، ونعرف هاتيك الآيات البينات .

اعلم ألهمك الله الحكمة ، وجنبك الزلل ، وأماط عنك الغوائل ، وألبسك ثوب الوقار ، أن ماتراه من هذا الوجود الذى اختلط فيه الخبيث والطيب ، والحسن والقبيح ، ان هو إلاحركات فى خيال هذه الأكوان وخطرات فيه كالأوهام .

لقد علمت أيها الأخ الذكىّ ممـا مرّ بك فى ﴿ سورة النور ﴾ أن الجواهرالفردة والذرّات التى وصل إليها التحليل ليست هى بمـادة ، وماهذه المسماة بالمادّة إلا نقط كهربائية يجرى سالبها حول موجبها ، اما نحو ستة آلاف ملايين الملايين ، واما أقلّ ، واما أكثر ، فان كانت أقلّ ، فلتـكن الأنوار أوالأصوات ، وان كانت أكثر فلتـكن الأحجام الصلبة ، والأجسام الثقيلة ، ولقد مرّ هذا غير مرّة فى هذا التفسير .

سبحانك

سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت القدوس ، جيل جليل ، لا إله إلا أنت ، ان عالمك إلا حركات ، فما هذه الحركات ؟ هي حركات فى أثير ، وما هو الأثير ؟ وما المحرّك لها فى ذلك الأثير ؟ إلى هنا وقفت عقول الأمم فى زماننا ، وصفوا الأثير بأنه عالم لو جسّم لكان أثقل من الحديد أضعافا مضاعفة ، انظر هذا المقام فى أوّل ﴿ سورة الصافات ﴾ ولكنه لاحجم له ، ولايحس به ولايرى ، ونحن نقول إذن هو خيالنا .

الله أكبر : إن فى خيالنا لحركات ، وتلك الحركات لها وجود حقا ، ولكن حركات خيالنا نتائجها معقولات لها نتائج فى خارج أجسامنا وأعمالنا فى رقى مدنتنا ، ونظام أخلاقنا ، إذن هى موجودة وحركات العوالم موجودة ، ووجود مافى أذهاننا ضعيف ، ووجود مافى الخارج قوى ، فالأوّل سريع الزوال ، والثانى نراه آمادا طويلة ، ولكن الأصل هو الحركات على كل تقدير ، فلتدم الأحجار والجبال والنجوم ، ولتعش دهورا ودهورا ، ثم تفنى ، ولكنها معدومة أوفى حكم المعدومة ، فهذا الجبل الذى نراه ، والحجر الذى فيه ، والشمس والقمر ، والشجر والدواب ، كلهنّ حركات وأضواء متراكات ، ظهرت للعيون بهيئات مختلفات ، ولكن العلم يقول . كلا . ثم كلا . أيتها العيون ، أيتها الأسماع ، لا وجود ، لاوجود ، كل هذا حركات ، والمحرّك لانراه ، له وجود كامل ، وهو تام الرحمة ، ومن رحمته انه أراد أن يصوّر فى هذه المجاهل أرواحا و يلهمها علما ، وتحبه و يحبها ، فماذا يصنع ؟ صنع هذه الحركات ، فأبرز بها نور الكهرباء ، فضغطه ، فتراكم وازدحم وانحصر انحصارا شديدا فى الذرّات والجواهر الفردة ، وبهذا التراكم أصبح مشاهدا محسوسا ، وما عوالمنا إلا تنويع وتجديد ، واختلاف فى الصور والأشكال ، واذا كان أصل العوالم سالب الكهرباء وموجبها ، فهكذا نشأت كلها على هذا النمط ، سماء وأرض ، وجماد وحيوان ، أعلى وأسفل ، حيّ وميت ، أسود وأبيض ، رفيع ووضيع ، كافر ومؤمن ، عالم وجاهل ، ملوك وسوقه ، ذكيّ و بليد . وهناك تفاعل وتفاعل ، فهذا التفاعل به دوام الوجود وترقى هذه الصور تعيش الأرواح الحيوانية ، وهى لاحياة لها إلا بهذه الصور التى مبدؤها تلك الحركات ، وأقرب شىء إلينا مامرّ فى ﴿ سورة الفتح ﴾ من أن فى كل قطرة كسن الابرة لاتزيد على جزء من عشرين ألف جزء من البوصة المربعة خمسة ملايين خلية حمراء بها يحمر الدم ، وهى عاملة ناصبة جاهدة ، وتسعة آلاف خلية بيضاء هى المدافعة عن المملكة الجسمية ، لتحافظ عليها من الذرّات الداخلات فى الجسم لاهلاكه ، إذن أرواحنا لاارتقاء لها إلافى جوّ مشبع بالعراك والخلاف ، والاشتباك ، والاختلاط ، والاختلاج ، وكل أمّ يتبعها ولدها ، فاذا كان هذا هو الأصل البعيد والأصل القريب ، والأخير يشبه الأوّل فهكذا تكون هذه النفوس ، ففيها تكون العداوات والشحناء ، والحسد والبغضاء ، كما تكون المحبة والولاء والشوق بالوجدان .

هذه طبائع عوالمنا ما هى إلاحركات ، والحركات متضادّات ، و بغير هذا لا وجود للمادّة ، والمادّة فيها تربى الأرواح ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان وجود العالم وجود ناقص والانسان تبع للناقص مستمدّ منه ناتج عنه ، والنتائج على مقتضى المقدّمات ، ولقد قدّمنا أن الله رحيم ، ومن أجلّ رحماته أنه يخلق خلقا من روحه هو وهى النفوس الانسانية ، وهذه النفوس أيضا ناقصة ، ولا كمال لها إلابالتطوّر والتشكل ، والتطوّر والتشكل إنما يكونا فى المادّة ، والمادّة ناقصة ، فاذا كان هذا طبع الوجود الناقص ، طبعه التناقض ، فلم تبق إلا مرتبة واحدة وهى تصفية هذه الأخلاط ، وازالة هذه النقائص ، لذلك أنزل الأنبياء والحكمة فى الأرض ، فأعطوا الناس دروس المحبة والمودّة والموعظة الحسنة ، ومنها هذه السورة ، فالله (وان كان رحيما) لايخلق المستحيل ، ومن المستحيل أن تخلق أرواحنا كاملة ، كما كان من المستحيل أن يكون للمادّة بوجود أوّلى ، فاذا كان أصل الوجود المادّى معدوما فالكمال معدوم من باب أولى ، فمن الرحمة انتهاج خطة ارتقاء الأنفس فى مدارج الكمال ، وهذا هو الذى جاء فى ﴿ سورة الحجرات ﴾ .

إن ارتقاء النفوس البشرية لاسبيل له إلا التدرّج نحو الكمال ، فليكن الناس فى أوّل حياتهم كالاسود شراسة وكالأنعام شراهة ، فليرفعهم العلم إلى درجات الملائكة الكرام ، والوجود الكامل لغير صانع العالم مستحيل فقول القائل : لِمَ خلق الله نفوسنا ناقصة ثم هو يكملها ، وهلاخلقها كاملة من أوّل وهلة ؟ معناه لِمَ لم يكن كل انسان أصلا للوجود ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ لِمَ لم يكن كل انسان إلها إذلا كمال إلا له ، فاذا خلقنا نحن كاملين فمعناه اننا آلهة ، وهذه هى الحقيقة ، كل ماعـدا صانع العالم أصله العـدم والوجود طارئ عليه وهو لايقبل من الوجود الطارئ إلا قليلا قليـلا حتى يصـل للكمال الذى يليق به ﴿ و بعبارة أخرى أيضا ﴾ يصـل إلى مرتبة لا يتعداها ، وغيره يصل إلى أقلّ أو أكثر منه ، هذه هى الحقيقة ، وهذا هو جواب أصل السؤال

جمال فى جمال

يخيل لى وأنا أكتب هذا الموضوع أن كل ذرّات الوجود مشرقات ، وانها تفتحت أكمامها ، وازدهرت فأشرقت الأنوار المخبوءة فيها التى يحاول علماء الألمان وروسيا استخراجها للانتفاع بها فى الأعمال ، وكأنها كلها الآن مضيئة .

الله أكبر : نعم كلها موسيقى ، ألم تر أن حركاتها منتظمات ، ألم تر أن حركاتها فى النور تكون من أر بعمائة مليون مليون فى الثانية إلى ٧٠٠ مليون مليون فيها ، أى من ابتداء لون الحمرة إلى انتهاء لون البنفسجى .
جميل والله هذه المناظر ، حركات تعدّ بالملايين فى الثانية فى ذرّات لاحصر لعددها ، قد حجبت روحى عنها ، روحى التى تعيش فى وسط هذه الأنوار وهذه الحركات ، روحى المسكينة المحجوبة الممنوعة عن أن تسمع تلك الحركات وتشاهد تلك الأنوار ، نعم حجبها الله ، حجبها عن ذلك الجمال وعن تلك الأنوار رحمة منه بروحى ، لأنها لوسمعت تلك الموسيقى ، أورأت تلك الأنوار ، وشاهدت أساليبها فى الحديد والنحاس والرصاص والماء والهواء والجبال ، وشاهدت أفانينها المختلفات ، وضروبها العجيبات ، وسمعت تلك الأغانى ، وأنواع الموسيقى ، وضروب اللحن الشجية لذابت من اللذة ، ولهلكت من وفرة الجمال ، أنا الآن أعيش فى جمال منظور ، وجمال مسموع ، ولكنى عنه محجوب ، رحمة من الله بى .

ومن رحمته بالحيوان أيضا انه غشى على عقله ، وعلى بصره ، وعلى سمعه ، وشغله بتحصيل قوته ، ومطاردة عدوّه ، ولولا ذلك لشاهد تلك الأنوار ، ولذهل من جمال الأصوات فى موسيقى الذرّات . ألم تر أن الجمال تهيم عند سماعها للغناء ، وأن الحيتان فى البحار العظيمة تصطاد بالآلات المطربات الشجيات النغمات ، إذن الجمال محبوب عند كل حيوان كما هو محبوب عند الانسان ، فكان احتجابه عنه رحمة به ، والا لهلك الأوّلون والآخرون .

الذرّات مركبات من جمال و باختلاف حركاتها وتنوّع صورها كان هذا الوجود ، المملوء بالمتناقضات المؤلمات المؤذيات ، من الحرّ والبرد ، والحلو والمرّ ، والخبيث والطيب ، ولكن أصـل الوجود غلب عليه وهو الجمال ، ألاترى إلى الشجرات المزهرات ، والشموس الطالعات ، ألم تركيف ترى صباحا قطرات الندى على الورق وهى أشبه بقطع الماس الجميلات ، ألم تركيف يتبين لك منظر نسيج العنكبوت ، وقد جلله الندى بهيئة خيمة من الجواهر البديعة والماس المشرق البهيج ، غلب الجمال على ظواهر الطبيعة بعد أن ظهرت بمظهر الغضوب الشموس ، لأنها تريد أن ترجع إلى أصلها ، وتظهر أصل جمالها ، فاذا غاب عنا تنوّع حركات الكهرباء فى الذرّات من حيث جمال ألوان أضوائها ، وبهجة موسيقاها ، فوالله لم يغب عن عيوننا مشاهدة باهر جمالها فى الليل اذا عسعس ، والصبح اذا تنفس ، فالجمال باق وان أحاطت به المؤلمات والمزعجات ، والانسان يشاهد ذلك ، والعناية الإلهية تريد أن ترقيه ، فماذا تصنع ؟ خلقت فيه قوى متضادّة ، وألهبته

بالحسد

بالحسد والحقد والعداوات والحروب ، وقالت أيها المسلمون : حاربوا كل من يؤذيكم وأنتم تنشرون دعوة الاسلام ، و ياعلماء الألمان والرومان والروسيا وجميع أوروبا اخترعوا المهلكات ، وابتدعوا ماتشاءون من المنذرات ، واشغلوا نفوسكم بذلك حتى تغيب عقولكم عما أمامكم من الجمال الذى ينم على أصل الجمال ، وبهذه الشواغل تعيشون أمدا مقترا ، ولوأن الجمال غلب عقولكم مما تشاهدون ولم تشبه شوائب الحسد والطمع والمباراة والمنافسة لهلكتم ولصرتم فى خبر كان .

وهذه المزعجات جعلت رياضة لكم ، ليكون الكمال الوارد إليكم قليلا قليلا بقدر ما تسمح به قواكم فتستنبطونه استنباطا فى أثناء مجادلاتكم . كما ان خير الماء كل فى صحة أبدانكم ما كان غير مركز فتأخذ منه الخلايا حظها قليلا قليلا . فأما الأغذية المركزة فانها تطغى على الجسم شرّ طغيان ، فتكون فيه بثور وقروح وأمراض .

إن كل ما أخذ بلاتعب ونصب ، فهو عند من ناله مرمى منبوذ ، لاتعيره نفسه التفاتا ، ولا له عندها منزلة ، فكل مبذول مطروح ، وأحبّ شىء إلى الانسان مامنع .

فلما سمع صاحبي ذلك وهوشديد الاصغاء إلىّ . قال : إنّ هذا لون آخر من ألوان العلم ، وصورة محبرة ، ونعمة ونعيم ، وحكمة من الله الحكيم العليم ، لم يرد على نمطها درس فيما درسناه ، ولم نر لها شبها فيما قرأناه .

فقلت : الحمد لله الذى بنعمته تتمّ الصالحات . انتهى الكلام على القسم الأوّل فى تفسير البسملة ، والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخيس ١٢ نوفبر سنة ١٩٣١ م

القسم الثانى من السورة

التفسير اللفظى للسورة كلها

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل البدء فى تفسير هذا القسم ، نذكر صلة هذه السورة بما قبلها ، فنقول : ﴿ سورة الفتح ﴾ قد ذكرت بعد القتال ، لمناسبة أن الأولى كالمقدّمة ، والثانية كالنتيجة ، إذ الفتح إنما يكون بعد القتال . أما هذه السورة فهى أشبه بما يعقب الفتح ، فان الأمة اذا جاهدت ثم فتح عليها والنبىّ ﷺ بينهم وقد استتب الأمر ، فاذن يجب أن توضع القواعد التى تكون بين النبىّ ﷺ وأصحابه ، وكيف يعاملونه ؟ وما الآداب التى يكونون عليها ؟ فانهم اذا كانوا فى الأمثال المضروبة فى التوراة والانجيل قد تراحموا فيما بينهم وسجدوا وركعوا وعبدوا ، ثم نموا وعظموا ، وقوّوه ، وغاظوا الكفار ، فليكن البحث بعد ذلك فى طريق المعاملة بينه وبينهم ، ثم كيف يعامل بعضهم بعضا ؟ هذا هو ملخص السورة وترتيبها ونسقها مع ماقبلها ، ولنشرع فى تفسير الألفاظ ، فنقول : قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتقدّموا بين يدى الله ورسوله) أى لاتتقدّموا ، من قولهم : مقدّمة الجيش لمتقدميهم ، ان حقيقة قولهم جلست بين يدى فلان أن تجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريبا منه ، فسميت الجهتان يدين مجازا للمجاورة ، ومعنى لاتتقدّموا بين يديه ، لاتفعلوا أمرا من الامور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة ، وهذا على سبيل الاستعارة التمثيلية صور المعقول بصورة المحسوس ﴿وبعبارة أخرى﴾ لاتقطعوا أمرا دون أن يحكما به ، وفى ذكر الله معه تعظيم له صلى الله عليه وسلم ، والمقصود من هذا المعنى الانقياد لأوامره ونواهيه فلايعجلون بقول أوفعل قبل أن يقوله صلى الله عليه وسلم ، أوقبل أن يفعله . فلايذبحون يوم عيد الأضحى قبل ذبحه ، فان الذبح بعد الصلاة ، ولايصوم أحد يوم الشك وقد نهى عنه ، ولاترفع الأصوات عنده كما حصل من الشيخين ، إذ اختلفا فى أمر

فارتفعت أصواتهما بحضرته لما قدم وفد من بنى تميم ، وهذه أمثلة قد أسند لكل منها أنه سبب نزول الآية وهى عامة شاملة لاتخص ما ذكر (واتقوا الله) فى التقديم ومخالفة الحكم (إن الله سميع) لأقوالكم ورفع أصواتكم عنده (عليم) بما تعملون ، ولما كان ثابت بن قيس بن شماس جهورى الصوت ، وفى أذنه وقر ، كان يتأذى رسول الله ﷺ بصوته ، فنزل فيه وفى أمثاله قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) إذا كلمتموه ، فاذا نطق ونطقتم فعليكم أن لاتبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذى يبلغه بصوته ، واذا كلمتموه وهو صامت فاياكم أن تبلغوا به الجهر الدائر بينكم ، أوأن تقولوا يامحمد ياأحمد ، بل خاطبوه بالنبوة مع السكينة والتعظيم : وهذا قوله تعالى (ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) فى الأمرين المتقدمين خشية (أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون) ففى الرفع والجهر استخفاف قد يؤدى إلى الكفر المحبط اذا ضم إليه قصد الاهانة وعدم المبالاة ، ولما نزلت هذه الآية تخلف ثابت بن قيس ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يارسول الله : لقد أنزلت هذه الآية ، وانى رجل جهير الصوت ، فأخاف أن يكون عملى قد حبط فقال عليه الصلاة والسلام : لست هناك ، انك تعيش بخير وتموت بخير ، وانك فى أهل الجنة . فقال : رضيت ببشرى رسول الله ﷺ لا أرفع صوتى على رسول الله ﷺ أبدا . فأنزل الله تعالى (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) مراعاة للأدب (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) أى ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة حتى طهرت تلك القلوب وصفت بما كابدت من الصبر على المشاق ، وقال عمر رضى الله عنه : أذهب الشهوات عنها ، والامتحان اختبار بليغ (لهم مغفرة) لذنوبهم (وأجر عظيم) لغضهم وسائر طاعاتهم :

(١) ويروى أن رسول الله ﷺ أخبر ثابتا بأنه سيقتل فى سبيل الله ، فلما كان يوم اليمامة فى حرب مسيلمة قتل ، وكان عليه درع فرآه رجل من الصحابة بعد موته فى المنام . فقال له : إن فلانا رجلا من المسلمين نزع درعى فذهب به وهو فى ناحية من العسكر عند فرس يستن فى طيله ، وقد وضع على درعى برمته فأت خالد بن الوليد ، فأخبره حتى يسترد درعى ، وأت أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقل له ان على دينا حتى يقضيه عنى ، وفلان من رفيقى عتيق ، فأخبر الرجل خالدا ، فوجد الدرع والفرس على ماوصفه فاسترد الدرع ، وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا ، فأجاز أبو بكر وصيته ، قال مالك بن أنس : لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه .

(٢) ولما نزلت الآية الأولى كان أبو بكر لايكلم رسول الله ﷺ إلا كأخى السرار ، وماحدث عمر النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، فسمع النبى ﷺ كلامه حتى يستفهمه مما يخفض صوته ، لذلك مدحهم الله بغض الصوت عند رسول الله ﷺ ثم ان العرب كانوا يعاملون النبى ﷺ على عاداتهم فيما بينهم

***

(١) لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى بنى العنبر ، وجاءوا بعيالهم سبايا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رئيس السرية عيينة بن حصن الفزارى ، جاء بعد ذلك رجالهم يفدون الذرارى ، فقدموا وقت الظهيرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائل فى أهله ، فجعلوا ينادون يا محمد اخرج إلينا ، حتى أيقظوه من نومه ، فخرج إليهم ، وأعتق نصف الذرارى ، وقبل فداء النصف الثانى .

(٢) وأيضا لما جاء عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر وافدين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعين رجلا من بنى تميم وقت الظهيرة ، وهو راقد نادوه : وقالوا يامحمد اخرج إلينا ، وذلك للمفاخرة كما هومعلوم فى فن الأدب والحديث ، لذلك ولأمثاله نزل قوله تعالى : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) من خارجها سواء أكان من خلفها أم من قدامها ، والحجرة قطعة أرض محجورة بحائط

والمراد حجرات نسائه صلى الله عليه وسلم (أكثرهم لايعقلون) لأن العقل يقتضى حسن الأدب ومراعاة الحشمة ، لاسيما لمن كان فى منصب النبوّة (ولوأنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان) الصبر (خيرا لهم) من الاستعجال لمافيه من الأدب (والله غفور رحيم) لأنه اقتصرعلىالنصح والتقريع لهؤلاء المسيئين للأدب . وبهذا تمّ الكلام على القسم الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث من السورة

روى انه صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبى معيط إلى بنى المصطلق ، وكانت بينه وبينهم احنة فى الجاهلية ، فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين إليه ، فحسبهم مقاتليه ، فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قدارتدّوا،ومنعوا الزكاة ، فبعث خالد بن الوليد فوجدهم يصلون،فسلموا إليهالصدقات ورجع فنزل : (ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ) أى بأىّ نبأ (فتبينوا) فتوقفوا فيه ، وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ، ولاتعتمدوا قول الفاسق ، فانّ من لايبالى بالفسق لايبالى بالكذب الذى هونوع منه . والفسوق الخروج من الشىء ، يقال فسقت الرطبة عن قشرها ، وفى مقلوبها فقست البيضة إذا كسرتها وأخرجت ما فيها ، وأيضا فقست الشىء اذا أخرجته من يد مالكه مغتصبا له ، ويستعمل فى الخروج عن القصد بركوب الكبائر ، وقوله « فتبينوا » فى قراءة أخرى « فتثبتوا » ، والتثبت والتبين متقاربان ، وهما طلب البيان ، يقول فتثبتوا كراهة (أن تصيبوا قوما بجهالة) أى كراهة إصابتكم قوما جاهلين بحالهم (فتصبحوا) فتصيروا (على مافعلتم نادمين) مغتمين غما لازما ، متمنين أنه لم يقع ، فقوله فاسق على هذا هو الوليد بن عقبة ، وأنت ترى أنّ الفسوق خروج عن الحقّ ، وهل كان الوليد كذلك ؟ إنّ الوليد أخطأ فى ظنه فليس فاسقا ، فالأولى والأحقّ أن يرادالعموم أى أىّ فاسق ، والتقييد بالفاسق يدل علىقبول خبر الواحد العدل ، إذ لوتوقفنا فى خبره لسوّينا بينه وبين الفاسق ، ولخلا التخصيص من الفائدة (واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثيرمن الأمر لعنتم) المعنى أن فيكم رسول الله على حال يجب تغييرها وهى انكم تريدون أن يتبع رأيكم فى الحوادث ، ولوفعل ذلك لعنتم ، أى لوقعتم فى العنت ، وهوالجهد والهلاك ، وكأن هذا يشير إلى الرواية السابقة على ماقيل أن بعض المؤمنين زينوا له صلى الله عليه وسلم الايقاع ببنى المصطلق وتصديق قول الوليد ، وأن بعضهم كانوا يتصوّنون ، ويزعهم جدّهم فى التقوى عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استثناهم بقوله (ولكنّ الله حبب إليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) لحبهم للايمان إلى آخره جلهم على ذلك لما سمعوا قول الوليد (أولئك هم الراشدون) أى أولئك المستثنون هم الذين أصابوا الطريق السوىّ ، وعن أبى نضرة ، قال : قرأ أبو سعيد الخدرىّ رضى الله عنه « واعلموا أن فيكم رسول الله » إلى قوله « حبب إليكم الايمان » قال هذا نبيكم يوحى إليه وخيار أئمتكم لوأطاعهم فى كثيرمن الأمرلعنتوا فكيف بكم اليوم ؟ أخرجه الترمذى وصححه ، وقوله (فضلا من الله ونعمة) أى حبب إليكم الايمان فضلا الخ مفعول لأجله (والله عليم) بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز (حكيم) يفضل وينعم بالتوفيق على الافضال (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) تقاتلوا (فأصلحوا بينهما) بالنصح والدعاء إلى حكم الله (فان بغت إحداهما على الأخرى) تعدّت عليها (فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) ترجع إلى حكمه ، أوما أمر به (فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل) بفصل مابينهما على ماحكم الله (وأقسطوا) وأعدلوا فى كل الامور (إنّ الله يحبّ المقسطين) يحمد فعلهم بحسن الجزاء ، نزلت فى قتال حدث بين الأوس والخزرج فى عهده ﷺ بالسعف والنعال ، ولما نزلت قرأها صلى الله عليه وسلم ، فاصطلحوا وكفّ بعضهم عن بعض ، وهذا دلالة انه يجب معاونة من بغى عليه بعد

تقـديم النصح والسعى فى المصالحة ، وأيضا الباغى مؤمن واذا قبض عن الحرب ترك ، لأنه فاء إلى أمر الله (إنما المؤمنون إخوة) لأنهم منتسبون إلى أصل واحد وهوالايمـان الموجب للحياة الأبدية (فأصلحوا بين أخويكم) اذا اختلفا واقتتلا ، ذلك ان الايمـان قد عقد الاخوة بين المؤمنين ، فهى كأخوة النسب أوأحقّ وقد جرت العادة أنه اذا حصـل مثل ذلك بين الأخوين فى النسب فانهم يجدّون فى رفعه بالصلح ، فالاخوة فى الدين أحقّ بذلك ووضع الظاهرموضع المضمرفى أخويكم مضافا إلىالمأمورين للمبالغة فى التقرير والتخصيص (واتقوا الله) فى مخالفة حكمه والاهمـال فيـه (لعلكم ترحمون) على تقواكم (ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهنّ) أى لايسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض ، إذ قد يكون المسخور منه خيرا عند الله من الساخر ، والقوم مختص بالرجال وهوجمع قائم كزائر وزور ، ويقال أيضا انه مصدر نعت به فشاع فى الجمع (ولاتلمزوا أنفسكم) أى ولا يعب بعضكم بعضا ، فان المؤمنين كنفس واحدة ، ويصح أن يقال ولاتفعلوا ماتلمزون به ومن فعل ذلك فـكأنما لمزنفسه ، واللمزالطعن باللسان (ولاتنابزوا بالألقاب) ولايدع بعضكم بعضا بلقب السوء ، فان النبزمختص بلقب السوء عرفا (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمـان) الاسم هنا الذكرمن قولهم طاراسمه فى الناس بالـكرم ، أو باللؤم ، أى بئس الذكرالمرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم الايمان واشتهارهم به . يقال ان الآية نزلت فى صفية بنت حيى رضى الله عنها أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ان النساء يقلن لى « يايهودية بنت يهوديين » . فقال لهـا : هلا قلت ان أبى هارون وعمى موسى وزوجى محمد (ومن لم يتب عمـا نهى عنه (فأولئك هـم الظالمون) حيث وضعوا العصيان موضع الطاعة (ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثـيرا من الظنّ) كونوا منه على جانب ، فليتأمّل المؤمن وليحتط حتى يعلم أمن الامور العملية ذلك الظنّ فيجب اتباعه ؟ أم من حسن الظنّ بالله فـكذلك ؟ أم فى الالهيات والنبوّات حيث يخالفه الدليل القاطع ؟ فيحرم اتباعه ، أم هوظنّ سوء بالمؤمنين فـكذلك ؟ أم هو فى الامور المعاشية فيباح (إنّ بعض الظن إثم) أى ذنب كالثالث والرابع فيما تقدّم (ولاتجسسوا) ولاتبحثواعن عورات المسلمين من الجسّ ، وفيه معنى الطلب كالتلمس ، وفى قراءة بالحاء من الحسّ الذى هو أثرالجسّ ، كما يقال للحواس الجواس . وفى الحـديث : « لاتتبعوا عورات المسلمين فان من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولوفى جوف بيته » يروى أن سلمان الفارسى كان مع رجلين موسرين وهم مسافرون للجهاد ، فقالا له يوما : انطلق فاطلب لنا طعاما فانطلق إلى أسامة بن زيد بأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وهو خازن رسول الله صـلى عليه وسلم ، فلم يجد عنده طعاما ، فأخبرهما ، ثم أرسلاه إلى طائفة من الصحابة فلم يجد ، فأخذا يتجسسان هل عنـد أسامة ما أمر لهما رسول الله ﷺ فلما جاءا إلى رسول الله ﷺ قال : مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما قالا والله يارسول الله ماتناولنا يومنا لحـا . فقال : ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة فنزلت هـذه الآية (ولا يغتب بعضكم بعضا) ولايذكر بعضكم بعضا بالسوء فى غيبته ، والغيبة أن تذكر أخاك بمـا يكرهه ، فان كان فيه فقد اغتبته ، وان لم يكن فيه فقد بهته (أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا) هـذا تمثيل وتصوير لمـا يناله المغتاب من عرض أخيه على أفحش وجه ، والمبالغـة فى الآية ظاهرة فى الاستفهام التقريرى واسناد الفعل إلى أحدكم ، وجعل المأكول لحـه أخا وهذا الأخ ميت ؛ وعن قتادة : « كما تـكره ان وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها كـذلك فاكره لحم أخيك وهوحىّ » (فـكرهتموه) أى ان صحّ ذلك وعرض عليكم هذا فقد كرهتموه ، ولايمكنكم إنـكار كراهته (واتقوا الله) بترك ما أمرتم باجتنابه ، والندم على ماوجد منكم منه ، فاذا اتقيتم تقبل الله توبتكم ، وأنعم عليكم بثواب المؤمنـين التائبين (إنّ الله توّاب رحيم * يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) من آدم وحوّاء فـكيف يغتاب بعضكم بعضا ؟ وكيف يسخر بعضكم من

بعض

بعض وتتنابزون الخ (وجعلنا كم شعوبا وقبائل) الشعب الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد ، وهو يجمع القبائل والقبيلة تجمع العمائر ، فالبطون ، فالأفخاذ ، فالفصائل . فخزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة وقصى بطن ، وهاشم فخذ ، وعباس فصيلة (لتعارفوا) ليعرف بعضكم بعضا لا للتفاخر ولا للحروب واللمز والنبز والسخرية ، وظنّ السوء بالأخ فى الدين (إنّ أكرمكم عندالله أتقاكم) فبالتقوى من العلم والأخلاق والأعمال الشريفة تتفاضل النفوس لا بالأنساب ، فمن أراد الشرف فليلتمسه منها . قال عليه الصلاة والسلام : « من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله » . وقال عليه الصلاة والسلام : « يا أيها الناس إنما الناس رجلان : مؤمن تقىّ كريم على الله ، وفاجر شقىّ هين على الله » . (إنّ الله عليم) كرم القلوب وتقواها (خبير) ببواطنكم * روى أن نفرا من بنى أسد قدموا المدينة فى سنة جدبة ، وأظهروا الشهادتين ، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنوفلان ، يريدون الصدقة ويمنون ، فنزل : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا) إذ الايمان تصديق مع ثقة وطمأنينة قلب ولم يحصل لكم والالما منتم على الرسول بالاسلام وترك المقاتلة (ولكن قولوا أسلمنا) فان الاسلام انقياد ودخول فى السلم ، واظهار الشهادتين ، وترك المحاربة يشعر به (ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) أى ولكن قولوا أسلمنا ، والحال انه لم تواطئ قلوبكم ألسنتكم بعد (وان تطيعوا الله ورسوله) بالاخلاص وترك النفاق (لايلتكم من أعمالكم) لاينقصكم من أجورها (شيئا) يقال لات يليت اذا نقص (إنّ الله غفور) لما فرط من المطيعين (رحيم) بالتفضل عليهم (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) لم يشكوا ، يقال رابه فارتاب (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) فى طاعته ، والمجاهدة بقسميها تصلح للعبادات المالية والبدنية (أولئك هم الصادقون) الذين صدقوا فى إيمانهم (قل أتعلمون الله بدينكم) أى أتخبرونه بقولكم آمنا (والله يعلم مافى السموات ومافى الأرض والله بكل شىء عليم) لايخفى عليه خافية (يمنون عليك أن أسلموا) أى يعتدّون اسلامهم عليك منة وهى النعمة الثقيلة من المنّ (قل لاتمنوا علىّ اسلامكم) أى باسلامكم منصوب على نزع الخافض (بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للايمان) على مازعمتم مع ان الهداية لاتستلزم الاهتداء (إن كنتم صادقين) فى ادّعاء الايمان فلله المنة عليكم ، وهذه الجملة جواب ان (إن الله يعلم غيب السموات والأرض) ماغاب فيهما (والله بصير بما تعملون) فى سركم واعلانكم ، فكيف يخفى مافى ضمائركم . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

خاتمة فى مباحث هذه السورة

مباحث هذه السورة قسمان : قسم بين النبىّ ﷺ والأمة ، وقسم يخص الأمة ، والثانى إما تخلية بترك الرذائل ، واما تحلية بالفضائل ، والقسم الأوّل هو : —

(١) لايقدم المؤمنون على أمر من الامور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة .

(٢) التهيب والاجلال له .

(٣) لايتجاوز صوتهم صوته .

(٤) تكون أصواتهم أخفض من صوته دلالة على الترحيب ومراعاة للأدب .

(٥) لايخاطبون باسمه وكنيته كما يخاطب بعضهم بعضا ، بل يخاطبونه بالنبىّ والرسول .

(٦) من خفضوا أصواتهم عند رسول الله ، كما كان يفعل عمر وأبو بكر وثابت رضى الله عنهم ، امتحنت قلوبهم للتقوى وخلصت بالاختبار كما يمتحن الذهب بالنار ليخرج خالصه .

(٧) بنو العنبر الذين نادوه من وراء الحجرات ، وهكذا عيينة بن حصن ومن معه من وفد بنى تميم إذ قالوا وقت الظهيرة وهو راقد : يامحمد اخرج إلينا أكثرهم لايعقلون .
(٨) الصبر خير لهم حتى تخرج وتكلمهم .
(٩) ذم المنّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالايمان ، وأنّ المنّ إنما يكون لله إذ هداهم إلى الايمان إن صحت لهم الهداية .

وهذه المسائل التسع فتح بابلمعاملة ذوى العلم وخفض الصوت عندهم ، واحترامهم لشيوخ العلم والفضلاء فى الاسلام .

القسم الثانى فى التخلية بترك الرذائل

(١) لانسمع كلام الفاسق بل نتثبت لتظهر الحقيقة وإلا وقعنا فى فتنة جهلا ، وندمنا غما .
(٢) تقبل كلام العدل ، وهو يوجب الظنّ لا اليقين .
(٣) إذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة ، فامتنعوا عن طاعة الامام العادل بتأويل محتمل ، ونصبوا لهم إماما ، فالحكم فيهم أن يبعث إليهم الامام ويدعوهم إلى طاعته ، فان أظهروا مظلمة أزالها عنهم ، وان لم يذكروا مظلمة وأصرّوا على البغى قاتلهم الامام حتى يفيئوا إلى طاعته ، ثم إن هؤلاء لايتبع مدبرهم ، ولايقتل أسيرهم ، ولايذفف على جريحهم ، أى لايجهز عليه . وأتى علىّ عليه السلام يوم صفين بأسير ، فقال : « لا أقتلك صبرا إنى أخاف الله ربّ العالمين » ثم انه لاضمان فى نفس أومال على إحدى الطائفتين ، فأما اذا كان البغاة فئة قليلة لامنعة لها ، أولم يكن لهم تأويل ، أولم ينصبوا إماما ، فلايتعرّض لهم اذالمينصبوا قتالا ولميتعرّضوا للمسلمين ، فان فعلوا ذلك فهم كقطاع الطريق فى الحكم . هذا ملخص ما جاء عن الأئمة فى قتال الباغين . أما الآية التى نحن بصددها ، فالكلام عليها أعمّ ، فليصلح المسلمون بين المتقاتلين قلوا أوكثروا فان بغت إحدى الطائفتين ، فلتقاتل الباغية ، ومتى فاءت فليكن الصلح بالعدل .
(٤) العدل فى كل الامور .
(٥) شوّق الله المسلمين وحضهم على الصلح بين اخوانهم ، وحبب إليهم ذلك بذكر الاخوة وتكرارها
(٦) تقوى الله وعدم مخالفة أحكامه ليرحمهم بتلك التقوى .
(٧) ترك السخرية ، فلايسخر رجل برجل ، ولا امرأة بامرأة .
(٨) ربما يكون المسخور منه خيرا من الساخر ، كما كان الأنبياء يسخر منهم الجهال ثم يعلونهم كما حصل لنوح عليه السلام : « إن تسخروا منا فانا نسخرمنكم كما تسخرون » .
(٩) لا يكن لمز من المؤمن للمؤمن ، وهو الطعن والضرب باللسان ، واذا عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه ، واذا فعل الانسان مايستحقّ به اللمز بأن عرّض نفسه لذلك ، بسبب الوقوف مواقف التهم مثلا ، فكأنما لمز نفسه وعابها ، وأيضا اذا عاب الانسان غيره كان ذلك حاملا لذلك على عيبه فكأنه عاب نفسه .
(١٠) لا يكن تنابز بالألقاب ، فاذا عمل الرجل سيئات ثم تاب عنها ، فان الله نهى أن يعير بما سلف من عمله ، وأيضا لا يقول المؤمن لأخيه : يافاسق ، يامنافق ، يا كافر ، وياحمار ، وياخنزير ، وهكذا كل ما يكرهه المنادى به ، أو يفيد ذمّا له ، فأما الألقاب التى صارت كالأعلام : كالأعمش ، والأعرج ، فلا بأس بها .

(١١) النهى عن ظنّ السوء بالمسلم مع التكلم به كما قال سفيان وغيره لم يقيد بذلك ، وعن سوء الظنّ بالله .

(١٢) لايبحث المسلم عن العيوب المستورة ، ولايتتبع عورات الناس ، حتى لايظهرماستره الله . يقال : « نظر ابن عمر يوما إلى الكعبة ، فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك » .

(١٣) لايذكر بعض المؤمنين بعضا بالسوء فى غيبته ، روى أن عائشة ، قالت : قلت للنبيّ صلى الله عليه وسلم : حسبك من صفية كذا وكذا : أى قصيرة . فقال : لقد قلت كلمة لومزجت بماء البحر لمزجته ، أى خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه ، لشدّة نتنها وقبحها . وقال ميمون بن سيار : بينا أنا نائم إذا بجيفة زنجى وقائل يقول : كل ياعبد الله . قلت : وما آكل ؟ قال : كل بما اغتبت عبدفلان . قلت : والله ماذكرت فيه خيرا ولاشرّا . قال : ولكنك استمعت ورضيت فكان ميمون لايغتاب أحدا ، ولايدع أحدا يغتاب أحدا عنده .

(١٤) تقوى الله فى أمر الغيبة ، وفى جميع المنهيات .

هذه هى التخلية عن النقائص المذكورة فى هذه السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث : التحلية بالفضائل

(١) إنّ الناس مخلوقون من ذكر وأنثى ، ثم كانوا شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، فيكون الناس على هذا كأغصان الشجرة وأوراقها وأزهارها وأثمارها ، فانها كلهامتصلة متحدة مجتمعة على أصل واحد ، وكما أنه لا فضل لورقة على ورقة فى الشجرة ، إلا بما امتازت به ، ولا فضل لزهرة على ورقة ، ولا لثمرة على زهرة إلا بما فضلت به الزهرة وفضلت به الثمرة ، هكذا لافضل لأحد من الناس على آخر إلا بالتقوى ، فالأتقياء كالأزهار والأثمار ، وغيرهم أقلّ من ذلك ، يقال انّ ثابت بن قيس لم يفسح له رجل فى المجلس ، فقال فيه (ابن فلانة) ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : من الذاكر فلانة ؟ قال ثابت : أنايارسول الله . قال انظر فى وجوه القوم ، فنظر ، فقال : مارأيت ياثابت ؟ قال رأيت أبيض وأحمر وأسود . قال : إنك لاتفضلهم إلا بالدين والتقوى ، فنزلت فى ثابت هذه الآية ، ونزل فى الذى لم يفسح له : « يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس الخ »

(٢) قيل لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالا حتى علا على ظهر الكعبة وأذن ، فقال عتاب بن أسيد بن القيص : الحمد لله الذى قبض أبى ولم ير هذا اليوم ، وقال الحرث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ، وقال سهل بن عمرو : ان يكره الله شيئا يغيره ، وقال أبوسفيان : لاأقول شيئا ، أخاف أن يخبره رب السماء . فنزل جبريل فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالوا ، وسألهم عما قالوا فأقرّوا ، فأنزل الله هذه الآية ، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال ، والازراء بالفقراء ، لأنهم متساوون فى النسب ، فلاتفاخر لبعض على بعض ، لكونهم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة ، وفى البخارى لما سئل : « أىّ الناس أكرم ، قال : أكرمهم عند الله أتقاهم ، فلا زالوا يدققون فى السؤال حتى قال فى العرب : خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا أى تعلموا » . وعن ابن عمر أن النبىّ ﷺ طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه ، فلما خرج لم يجد مناخا ، فنزل على أيدى الرجال ، ثم قام فخطبهم

فحمد الله وأثنى عليه ، وقال الحمد لله الذى أذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها ، يا أيها الناس : إن الناس رجلان : برّ تقىّ كريم على الله ، وفاجر شقىّ هين على الله ، ثم تلا : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى الخ » ، ثم قال : أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » . — قوله المحجن : عصا محنية الرأس كالصولجان ، وقوله عبية الجاهلية أى كبرها وفخرها اهـ

تذييل السورة

اعلم أن ترك الرذائل المذكورة مقدّم على التحلية بفضائل الائتلاف ، ولذلك قدّم فى السورة على تعارف بنى آدم ، فأوّلا تعظيم الرسول ، وقبول قوله ، ثم الآداب العمّة بين الناس ، ثم يكون اتحادهم بالتعارف وبالبحث والعلم ، وهذا هو المقصود الأعظم . ألا تعجب من هذا المقام ؟ ألا تعجب كيف يؤذن بلال على ظهر الكعبة وأبناء العرب واقفون ؟ أنظر إلى هذا تجده رمزا إلى اتحاد نوع الانسان كله كأنه يقول : ليس الاسلام كاليهودية ، إنّ اليهودية جعلت دينا خاصا بجنس واحد وهم بنو اسرائيل ، أما دين الاسلام فلا أبيض ولا أحمر ، ولا عربيا ولا عجميا ، بل الناس فيه سواء ، أنظر أيها الذكىّ للأمم الحاضرة ، أنظر إلى أمريكا التى مدحت أعادها لك سابقا ، وذممت الأمم الاسلامية الحاضرة لجهلها وتقاطعها ، انظر أليس البيض هناك يحقرون أن يكونوا مع السود فى مركبة واحدة فى القطار ، ذلك لمجرّد اللون ، انظر كيف سبقونا فى العلم والأخلاق ، ولكن لاتزال فيهم تلك النقيصة المزرية ، وهى اعتبار اللون فارقا ، انظر كيف يؤذن بلال على ظهر الكعبة والعرب الذين هم أهلها واقفون ، انظر : ان ذلك ناطق بأن هذا الدين هو الذى سيجمع الأمم جمعا حقيقيا لاجمعا صناعيا ، فليجدّ النوع الانسانى ، فالأمم الاسلامية التى بعدنا ستفهم هذا ، وستقرأ كل العلوم والصناعات وتجدّ وتحوز الحكمة ، وإذن يقودون أهل الأرض . انظر كيف يقول صلى الله عليه وسلم : « خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام إذا فقهوا» ولم يقيد التفقه بعلم خاص ، يريد إذا علموا كل مايجب علمه فى أحوال الدنيا والآخرة ، ولاجرم أن العرب الذين قال الله فيهم ذلك هم نحن أبناء مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وسوريا واليمن ونجد والحجاز وحضرموت والبحرين والعراق والموصل والسودان فهؤلاء خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام على شرط العلم الذى لم يقيده إلا بعض الفقهاء بلاحقّ ، فهل نحن الآن خيار الأمم ؟ أقول نعم على شريطة العلم الذى يلزم للأمة فى دينها ودنياها ، ولكننا الآن لسنا خيار الأمم ، لأننا جهلاء ، والمخرج من هذا الجهل أن يقوم أهل العلم بحثّ هذه الأمم المتجاورة على العلم كما شرحته فى سورة ﴿ آل عمران ﴾ فيدرسون العلم فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، وإذن يتعارفون ، لأنهم تقاطعوا بالجهالة الكثعاء فصاروا أمما عمياء متفرّقة متشاكسة ، فاذا عرفوا وتعلموا جميع العلوم التى درستها أوروبا واليابان وأمريكا وزادوا عليها ، ثم اتحدوا مع اخوانهم الترك والفرس والأفغان ، وسائر أمم الاسلام ، فاذن يكون خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام ، وهذا الذى أقوله الآن سيكون بعد نشر هذا التفسير وغيره وسيعرف أبناء العرب ذلك ، ويعملون به قريبا ، وسيكون قرّاء هذا التفسير قائدى تلك الحركة من أمم الاسلام . انتهى صباح يوم الجمعة ٢٦ يونيه سنة ١٩٢٥ م



لطائف هذه السورة

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى

اعلم أيها الذكيّ أن هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع :

في هذا الشهر وهو شهر نوفبر سنة ١٩٣١ منذ أيام كنت سائرا إلى جهة النيل لمجرّد الرياضة حيث النسيم عليل ، والجوّ جميل ، والدنيا مشرقة ، والنيل جار ، والأشجار مزهرات ، والزروع نضرات ، إذا بامرأة مريضة ، تمشي وهي عرجاء صفراء ، قد ازداد ضعفها ، ونحل جسمها ، فخطر لي أن هذه لا تطلب للزواج ، ولا يرغبها الأزواج ، وما كان أسرع الخاطر إذ ذاك إلى ارخاء العنان ، والخوض في المعمعان ، والعروج إلى طرائف المعاني ، والوصول إلى درجات المعالي .

هنالك هنالك أخذ العقل يقول : الناس جميعا في الأرض ممتحنون ، لا يطلب الرجل امرأة لزواجها إلا بعد أن يأنس بجمالها ، ويرتاح لخلالها ، ويسرّه مرآها ، ويروقه مبدؤها ومنتهاها ، نعم هذا نوع من الامتحان ، امتحان في الجمال ، امتحان في الأخلاق ، امتحان في القوّة الجسمية والقوى العقلية ، فالمشوّهة الخلقة ، والقبيحة الوجه ، والسيئة الخلق ، والغبية العقل ، لا يرغبها أحد من الرجال إذا أيقنوا بذلك ، ولكن النقص فاش ، والطيور على أشكالها تقع ، والكمال درجات .

فيا عجبا لنظرة فاترة ، وخلسة ماضية ، أحضرت علما وحكمة ، وأفادت نورا وفهما . القبح ذكر بالجمال والمرض أذكرنا بالصحة والكمال .

خلال ثلاث يجدّ في طلبها الانسان : خلة الصحة في الجسم ، وخلة انتظام الخلق ، وخلة الكمال في تفكر العقل . هذه هي الخلال الثلاث اللائي قدّمناها في ﴿ سورة الفتح ﴾ وكانت من آيات الله في زماننا ، إذ كانت هذه الثلاث هي كما قدّمنا الفتح العلمي : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » والأخلاق الجميلة « ويهديك صراطا مستقيما * وينصرك الله نصرا عزيزا » ومن مقدمات هذا قوّة الأبدان ، وهذه الثلاثة هي مقاصد العلم في زماننا كما ترجمته لك من أقوال علماء زماننا .

أفلا تعجب الآن ! نرى الله يقول لنا في هذه السورة : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » ولا جرم أن هذا الامتحان يرجع إلى علم الأخلاق من حيث تطبيقه عملا وهو إحدى الدعائم الثلاث ، إذن دعائم الحياة الثلاثة هو ذا الامتحان حصل في أحدها ، فالله امتحن قلوب طائفة زمن النبوّة ، ولا جرم أن امتحان القلوب أغمض من امتحان الأجسام . الحياة كلها امتحان ، امتحن الله قلوب بعض المؤمنين بالتقوى ليعلمنا الامتحان في الأعمدة الثلاثة ، لأنه إذا امتحن فيما أغمض ، فالامتحان فيما هو أسهل من باب أولى . وصرّح بالامتحان في سورة أخرى سماها باسم « الممتحنة » فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنّ الله أعلم بإيمانهنّ فان علمتموهنّ مؤمنات فلا ترجعوهنّ إلى الكفار لاهنّ حلّ لهم ولاهم يحلون لهنّ » إذن الله امتحن قلوب قوم بالتقوى ، وأمرنا يوما مّا أن نمتحن النساء المهاجرات فالأعلم يمتحن من هو دونه ، والرجل أعلم من المرأة ، فهو يمتحنها فيعلم إيمانها .

كل هذه الأوّليات الدينية تفتح لنا أبواب الامتحان ، فلنمتحن كل شيء في هذه الدنيا ، وإذا امتحنا عقل الانسان فامتحان جسمه وأخلاقه وامتحان كل صغير وكبير في هذا الوجود من باب أولى ، ومن ترك

الاختبار والامتحان ، وعاش عالة على المجموع لم يفكر وهومحمول على تفكير غيره وامتحانه فانما هو طفل يقيم يربيه المحسنون .

يمتحن الطبيب المريض إما بجس نبضه بحاسة اللمس ، واما بسماع عدد الضربات ، وشدتها وضعفها بسمعه ، واما بمشاهدة البول فى القارورة بحاسة بصره ، و بمشاهدة لسانه أنظيف أم عليه طبقة تغشيه ، هكذا علينا أن نمتحن مانباشرمن أعمالنا من جميع وجوهه ، ومن الطرق المختلفات : من اتكل على غريزته فهو أشبه بالحيوان ، والغريزة يحزتها ظاهر الامور ، ألم تر إلى الفراش يرى النارفيتجه إليها فيحترق ، و إلى الذباب يقع فى العسل فيموت ، هكذا غرائزنا إذاوقفنا عندها أخلت بنافى أحرج المواقف وأشد الأزمات ، فمن بهره رائع الجمال واغتر به ، أودته جهالته ، وأحاطت به خطيئته ، وقامت بجهله قيامته ، فظواهر الجمال ، لا تغنى عن دخائل الأعمال ، وزخرف الظواهر وزينتها تغر الجاهلين ، وتقعد بالعاجزين ، وتودى بالغافلين ، وهاك جوهرة نفيسة ، وزهرة جميلة ، أختم بها هذا المثل ، وهى ماقرأته فى كتاب « مسرات الحياة » للورد أفبرى المولودسنة (١٨٣١ . المتوفى سنة ١٩١٣) تحت عنوان ﴿الرجل الكامل﴾ قال : «ماتلك الصفات التى نتوخاها فى الرجل الكامل فى هذه الحياة ؟ وماهى المزايا حتى يتمتع بها العصامى العبقرى و يمتاز عمن سواه ؟ ثم أجاب قائلا : هى أولا العقل الرزين المصون ، ثانيا العواطف الشريفة كالمروءة ، والاحسان ، والحب العام ، والكرم ومكارم الأخلاق ، وثالثا صدق النظر فى قضايا العقل والتثبت فى أحكامه ، ورابعا قوة بدنية تصون هذه الخلال وتحفظها من الزوال ، وتساعد على تنفيذها فى المجتمع العام ، واذا لم يكن العقل رزينا صائب الحكم أسرع فى حكمه ، فكان الخطأ حليفه ، والألم نصيبه ، وقد أحاطت به المصيبة ، واذا لم تكن العواطف نبيلة ، والأخلاق شريفة ، والنفس عفيفة ، فان الانسان يكون عابدا لنفسه ، واقفا عند حسه ، جاهلا حب جنسه ، بعيدا عن الأنس به . واذا لم يكن الجسم حديديا والأعصاب قوية متينة ، فان عمله يكون ضئيلا ، ونفعه قليلا ، وحرمانه طويلا ، لايذكى نارا ، ولايدفع عارا ، ولاينفع جارا . واذا كان القصد نبيلا ، والنية حسنة ، ولكن قوة الحكم عاجزة عن إدراك الحقائق ، متعثرة الأذيال ، غبية عمياء ، فان ضرها يكون أكثر من نفعها ، وخطؤها أكثر من الصواب .

قال تكبرى : « نحن نمدح الرجل فنقول هو عبقرى ، هوكامل ، كيف يكون هذا الكمال ؟ أيكون بالشرف ؟ أم يكون بالظرف واللطف ؟ أم يكون بالشجاعة والاقدام ؟ أم يكون بالعقل ؟ أم يكون باجتماع هذه الأوصاف كلها فيه ؟ وظهورآثرها على يديه ، بأساوب تصحبه الرقة واللطف والشفقة والعطف والحنان ، إن الرجل الكامل يجمع ذلك كله و يفوقه هو أندرمن الكبريت الأحمر ، وأعز من بيض الانوق ، هوأبعد مما نظن . إن الملوك يقدرون أن يعطوا الناس ألقاب الشرف ، وصفات الاعظام والكمال . ولكنهم لن يتسنى لهم منح نفس الكمال ، فهم يمنحون الأقوال فحسب ، وكل منا يتسنى له أن يكون كاملا نبيلا متى أردنا » انتهت ترجمة تلك القطعة من ذلك الكتاب .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : هذه القطعة الانجليزية تشبه نظيرتها فى ﴿سورة الفتح﴾ وغاية الأمر انها هناك مجملة وهنا أشبه بتفريع عليها ، ولكن خطرلى هنا سؤال وهو : اذا كان الامتحان مشروعا شرعه الله وقد أمر المسلمين وقتا ما أن يمتحنوا المهاجرات فى حال خاصة ، وهونفسه امتحن قلوب رجال للتقوى أفلانفكر نحن فى المسألة المشهورة الاجتماعية ، وهى ان الزوجين يمتحنان عند الزواج ، أهما صحيحان أم مريضان ؟ فقلت : هذا حسن ولكنه بسورة الممتحنة أليق ، فانتظره هناك فى تفسيرها إن شاء الله تعالى . وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : «أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى» والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ١٢ نوفبر سنة ١٩٣١ م

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » إلى قوله : « إن الله عليم خبير » وفي هذه اللطيفة ﴿ أربع مقالات : المقالة الأولى ﴾ في قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إنّ الله يحبّ المقسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »

يأمر الله المسلمين أن يصلحوا بين أيّ طائفتين من المسلمين اقتتلوا ، وليكن الصلح بالعدل ، فلا يتعصب لمن كان من غير أمته ، كما لا يجوز للانسان أن يشهد لأبيه ، أو أخيه ، أو لغنيّ ، أو لفقير الخ كما تقدم في ﴿ سورة النساء ﴾ .

فاذا بغت طائفة ولم تقبل الصلح فليقاتلها المسلمون ، ومتى رجعت الباغية فليكن الصلح بالعدل ، ولم يقتصر على الصلح بين المسلمين ، بل جعلهم إخوة ، ثم أمر المسلمين بالتقوى ، وهذا يعقبه الرحمة العامة ، والرحمة هنا في الأرض الأمن والسعادة ، والعزّ والسؤدد ، وعظمة الأمم الاسلامية .

هذه يارب أوامرك ، ولقد علمنا علما يقينا أن نبينا صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين كانوا على هذه الشريطة ، ولكن الخلفاء الأمويون والعباسيون لم يتقوا الله في أمر الخلافة وان كانوا في حكم الرعية غالبا عادلين . عصى المسلمون أمر الله وتعصبوا لقبائلهم وأنسابهم . لم يرض عمر رضي الله عنه أن تساق الخلافة إلى ابنه عبدالله بن عمر ، لماذا ؟ لأن الأمر شورى بين المسلمين ، أما ان يأتي خليفة فيقول : إن الخلافة لابني مهذا ليس له ، بل هو حرام عليه ، لأن المسلمين ليسوا قطيع غنم يورثون ، فأين الشورى ؟ وأين آية : « وان طائفتان الخ » وآية : « إنما المؤمنون إخوة » ؟ ولقد جاء في كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » في صفحة ١٠٦ ومابعدها من الجزء الرابع مايأتي :

«ظهر بنو أمية وتسلطوا واستبدوا ، وآل عليّ بن أبي طالب يطالبون بالخلافة ، ويسعون في إدراكها ، وأوّل من طلبها بعد عليّ ابنه الحسن ، ثم تنازل عنها لمعاوية سنة ٤١ هجرية ، فغضب أشياع العلويين في الكوفة من تنازله وهاجوا ، وأمير الكوفة يومئذ زياد بن أبيه الداهية الشهير ، فشدد في إخماد الثورة ، وقتل جماعة من أشياع عليّ ، فيهم حجر بن عدي وأصحابه ، فتربص العلويون ينتظرون موت معاوية لعلّ انتخاب الأمة يقع على واحد من أبناء عليّ فترجع الخلافة إلى أهل البيت ، ولم يخطر لهم أن يبايع معاوية لابنه ، فلما علموا ببيعته نقموا عليه ، وزادهم نقمة ماعلموه من تهتكه وقصفه ، واشتغاله بالصيد عن أمور الخلافة . ومن قول عبد الله بن هشام السلولي في ذلك :

خشينا الغيظ حتى لو شربنا * دماء بني أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم * تصيدون الأرانب غافلينا(١)

وكان أوجه العلويين يومئذ الحسين بن عليّ ، فلما مات معاوية سنة ٦٠ هجرية وتولى ابنه يزيد أبى الحسين أن يبايعه ، على أن أكثر الذين بايعوه من أهل التقوى عدّوا بيعتهم خرقا لحرمة الدين (٢) وكان الحسين في المدينة ، فلما طلبوا منه أن يبايع يزيد فرّ إلى مكة وأكثر شيعته في الكوفة ، فكتبوا إليه وحرضوه على القدوم إليهم لينصروه ، فأطاعهم ، ولما اقترب من الكوفة قعدوا عن نصرته ، وبعث إليه أمير الكوفة يومئذ عبيد الله بن زياد جندا حاربه ، فدافع عن نفسه وأهله حتى قتل قتلته المشهورة في

(١) المسعودي ٥٠ ج ٢ (٢) ابن الأثير ٢٥٢ ج ٣

كربلاء يوم عاشوراء من سنة ٦١ هجرية ، ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته ، فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان بن الحكم سنة ٦٤ هجرية يطالبون بدمه ، وسموا أنفسهم « التوابين » وأمير الكوفة لايزال عبيد الله بن زياد فأخرجوه منها ، وولوا عليهم رجلا منهم ، فتغلب ابن زياد عليه ، فنهض المختار بن أبى عبيد الثقفى ، وهو من جملة الذين طمعوا بالسيادة لابتزاز الأموال فى أثناء تلك الفوضى واختلال الأحوال ، وكان المختار على المهمة ، فجاء الكوفة يطالب بدم الحسين ، ويدعو إلى بيعة محمد ابن الحنفية أخى الحسين من أبيه ، فتبعه على ذلك جماعة من الشيعة سماهم « شرطة الله » وزحف على ابن زياد فهزمه وقتله ، وقتل أكثر قتلة الحسين ، ولكن محمد ابن الحنفية لم يكن راضيا بتلك الدعوة ، فبعث إلى المختار يتبرأ منه ، فحوّل المختار دعوته إلى عبد الله بن الزبير ، وكان عبد الله قد نهض عند نهوض الحسين ، لأن أباه الزبير بن العوام كان من جملة الطامعين بالخلافة بعد مقتل عثمان كما تقدم ، وأقام عبد الله فى مكة يدعو إلى نفسه ، على أن المختار لم يخلص النية فى دعوته لأحد ، لأنه إنما كان يريدها لنفسه ، فلما علم ابن الزبير بغرضه بعث أخاه مصعبا على العراق فحارب المختار وقتله سنة ٦٧ هجرية . أما الشيعة العلوية فانقسمت بعد مقتل الحسين إلى فرقتين : إحداهما تقول ان الحق بالخلافة لولد علىّ من فاطمة بنت النبىّ ، والأخرى تقول بتحوّلها بعد الحسن والحسين إلى أخيهما محمد ابن الحنفية وهى الفرق الكيسانية ، وأكثرهما ظهورا وتصدّيا الفرقة الأولى ، فبايعوا بعد الحسين ابنه عليا المعروف بزين العابدين ، وتسلسلت الخلافة بعده فى أعقابه حتى صار الأئمة ١٢ إماما وهم : علىّ ، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلىّ الرضا ، ومحمد التقى ، وعلى النقى ، وحسن العسكرى ، ومحمد المهدى . وتفرّع من من الشيعة العلوية أيضا فرق أخر بايعت غير واحد من أعقاب علىّ كالزيدية نسبة إلى زيد بن علىّ بن الحسين ، والاسماعيلية نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وفرق أخرى لامحل لذكرها . وكان بنو أمية إذا سمعوا بظهور أحد دعاة العلوية بذلوا جهدهم فى قتله ، فقتلوا بعضهم وسموا البعض الآخر ، وصلبوا آخرين فأصبح دعاة الشيعة يستترون خوف الفتك بهم ، فلاقى العلويون فى أيام بنى أمية ضنكا شديدا ، وكادوا يهلكون جوعا ، وأصبح همّ أحدهم قوت عياله ، حتى تولى خالد القسرى عامل بنى أمية المتوفى سنة ١٢٦ هجرية ، فأعطاهم الأموال ورفق بهم ، فعادوا إلى طلب الخلافة (١) وخالد هذا غريب الأخلاق ، فمع كونه من عمال بنى أمية ، فقد كان ينصر العلويين ، ويستعمل أهل الذمة كما تقدم . انتهى ما أردته من كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » والحمد لله رب العالمين .

***

هذه حال المسلمين بعد العصر الأوّل ، فأين الصلح ، وأين الحقّ ، وأين الشورى ؟ معاوية أمر الناس بالمبايعة بالخلافة لابنه ، كيف هذا وأين الشورى ! تربص العلويون موت معاوية ، ولهم الحقّ لأن الأمر شورى ، ولكنه أمر بمبايعة اليزيد ، إذن لاشورى ، إذن هو ملك عضوض ، إذن القرآن لم يعملوا به ، ثم هؤلاء الشيعة العلوية بعد قتل الحسين رضى الله عنه اختلفوا ، فالكيسانية ساقوها إلى محمد ابن الحنفية ، وغيرهم جعلوها فى ولد الحسين رضى الله عنه حتى صارت الخلافة إلى محمد المهدى ابن حسن العسكرى وهم ١٢ إماما ثم كانت فرقة الاسماعيلية وغيرهم ، وكل طائفة تعتقد أن إمامها معصوم ، وهذا ورب العرش هو الارتباك . هذه أمور لاتوافق القرآن ، بل هى اعتقادات أضرّت بالمسلمين .

أيها المسلمون : الشورى بينكم والصلح ، أيجوز فى ديننا أن نسمع أن طوائف من المسلمين تكفر غيرها لمجرّد شبهة ! « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

(١) ابن الأثير ١٢٩ ج ٥

الشيعة العباسية والعلوية

لوكان الأمر شورى بين المسلمين كنص القرآن ، وكفعل أصحاب النبيّ ﷺ واجماع الصحابة رضوان الله عليهم ، أى لوفعل المسلمون بدليلين يقينيين ، وهما نص الكتاب ، ودليل الاجماع ، لم تكن هناك شيعة عباسية وعلوية يطالبان بالملك ، بل كان أولو الرأى يجتمعون ويقرّرون الخلافة لمن حاز صفاتها ، ولكن المسلمون هربوا من ذلك خيفة ظهور الحقائق ، فالتجأوا إلى العصبية وأيدوها بالسيف .

ظلم بنوأمية العباسيين والعلويين ، وقتلوا رجلهم ، فماذا جرى بعد ذلك ؟ اتحد الفريقان ، ودبروا المكائد ، لنيل الخلافة سرّا ، وهما معا من بنى هاشم أعداء بنى أمية من أيام جاهليتهم ، وبايع السفاح والمنصور محمد بن عبد الله بن حسن المثنى ابن الحسن بن على الملقب بالنفس الزكية لتقدّمه عليهم فى الفضل ، فالأمر إذن شورى بين الرهطين ، وهذا حسن جدا ، سارت دعوة العباسيين فى بلاد الفرس وغيرها وسكت العلويون لأن العباسيين بايعوهم ومنهم السفاح والمنصور . وأمر ابراهيم الامام العباسى أبا مسلم الخراسانى وهو رئيس شيعتهم أن يقتل كل من يشكّ فيه ، وقتل مروان بن محمد ابراهيم الامام ، فانتقلت الامامة إلى اخوة الامام المقتول ، والعلويون وأنصارهم لايعترضون ، لأن عدوّهم لايزال حيا ودولته قائمة ، ولما سقطت دولة الأمويين غدرالمنصور بالعلويين ، وقتلهم تقتيلا ، ومنهم صاحب البيعة محمد بن عبد الله .

اللهم ليس هؤلاء على سنن القرآن ، استبدّ الأمويون بالخلافة ، وتركوا الشورى ، وحاربهم العباسيون ، والأمويون يطاردونهم ، ففازوا ، فيكون الغدر والقتل ، فأين الآية ، وأين الشورى ، وأين القرآن ؟ اللهم إنك عظيم وعلىّ ، أنت تعلم ضعف أهل هذه الأرض ، وأنهم ضعاف لم يصلوا إلى الكمال ، ولذلك حبستهم فى هذه الأرض ، والمحبوسون قد اعتادت الحكومات أن ترسل لهم قوما يعظونهم فى السجون ، ولكن تغلب عليهم طباعهم ، فهؤلاء غلبت عليهم طباعهم ، ورجعوا إلى الجاهلية فى الخلافة ، أما فى حفظ الدولة فلا

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : هذه أمور عظيمة فحدّثنى بالتفصيل فى هذا المقام ، فالاجمال لايغنى عن التفصيل . فقلت ياصاح إن أردت إلا الافصاح ، فاسمع ما جاء فى الجزء الرابع من كتاب « تاريخ التمدّن الاسلامى » فى صفحة ١٠٨ ومابعدها تحت عنوان « الشيعة العباسية » وهذانصه :

« وكان فى جملة المطالبين بالخلافة من أقرباء النبيّ صلى الله عليه وسلم بنوالعباس عم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، لكنهم كانوا لايتصدّون لطلبها ، والأمويون فى إبان دولتهم ، وانما كانوا يدعون إلى أنفسهم سرّا ، وكان العلويون والعباسيون فى أيام ضيقهم واضطهادهم يتقاربون ، لأنهم من بنى هاشم ، وكلا الرهطين أعداء بنى أمية من قبل الاسلام ، والمضطهدون يتقاربون فى أى حال .

وظلّ العباسيون يتسترون فى دعوتهم وهم مقيمون فى الحيمة من أعمال البلقاء بالشام حتى ضعف شان بنى أمية ، فهموا بالنهوض ، واتفق فى أثناء ذلك أن الفرقة الكيسانية دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده إلى ابنه أبى هاشم ، وكان أبوهاشم هذا يفد على خلفاء بنى أمية من المدينة إلى الشام فيمرّ فى أثناء الطريق بالحيمة ، ففى بعض وفداته على هشام بن عبد الملك آنس هشام منه فصاحة وقوة ورئاسة مع علمه بطمعه فى الخلافة ، فخافه ، فدسّ إليه فى أثناء رجوعه إلى المدينة رجلا سمه فى لبن ، فشعر أبوهاشم بالسم وهو فى بعض الطريق ، فعرج إلى الحيمة ، وصاحب الدعوة العباسية يومئذ محمد بن على بن عبد الله بن عباس فنزل عنده ، ولما أحسّ بدنوّ الأجل خاف ضياع البيعة وهو بعيد عن أهله ، فأوصى إلى محمد المذكور بالخلافة بعده ، وكان معه جماعة من شيعته سلمهم إليه وأوصاه بهم ، فلما مات أبوهاشم تهوّس محمد بالخلافة وأيقن بالنجاح ، لأنه اكتسب حزب الكيسانية جميعا ، فأخذ فى بثّ الدعاة سرّا ، ثم توفى وقد أوصى

بالخلافة بعده إلى ابنه ابراهيم وعرف بالامام ، فأخذ ابراهيم الامام فى بثّ دعاته ، و بدأ بخراسان لوثوقه بأهلها أكثر من سائر أهل الأمصار، ولأن الشيعة الكيسانية أكثرهم فى خراسان والعراق وقد نصروا العلويين مرارا ، فبعث إليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع أبى هاشم وأوصاهم أن يطلبوا بيعة الناس باسم « آل محمد » أى أهل النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ولم يعين العلويين ولا العباسيين ، وكان الخراسانيون قد ملوا الدولة الأموية ، فهان عليهم أن يباعوا لآل محمد ، وهم يحسبون الأمر يكون مشتركا بين العباسيين والعلويين ، وتوفى ابراهيم الامام فى أثناء ذلك إلى أبى مسلم الخراسانى القائد العجيب فأتمّ أمرهم وسلم لهم الدولة كما هومشهور .

بيعة المنصور للعلوية ونكثه

وكان بنوهاشم العلويون والعباسيون لما رأوا اختلال أمر بنى أمية اجتمعوا بمكة وفيهم أعيان بنى هاشم علويهم وعباسيهم ، وتداولوا فى قرب انحلال دولة الأمويين ، وفى من يخلفهم من آل البيت ، وكان فى جملة الحضور أبو العباس السفاح وأخوه عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس وهوأبوجعفر المنصور وغيرهما من آل العباس ، فأجمع رأيهم على مبايعة أوجه العلويين يومئذ وهومحمد بن عبد الله بن حسن المثنى ابن الحسن ابن على الملقب بالنفس الزكية ، فبايعوه لتقدّمه فيهم ، ولما علموه له من الفضل عليهم ، وبايعه أبوجعفر المنصور فى جملتهم (١) ولعلّ هذه المبايعة هى التى أسكتت العلويين عن طلب الخلافة فى أثناء انتشار دعاة العباسيين فى طلبها كأنهم اتفقوا أن تكون الخلافة مشتركة فى أهل البيت ، لأن العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم « آل محمد » وليس باسم الامام ابراهيم أوغيره من بنى العباس .

أما دعاة الشيعة العلوية الذين كانوا يدعون للعلويين فى العراق وفارس وخراسان قبل انتقال البيعة إلى العباسيين فقد رضوا بذلك الانتقال غير مخيرين ، وفى جملتهم أبو سلمة الخلال الهمذانى الفارسى الشهير ، وكان يقيم فى حمام أعين بضواحى الكوفة ، وكان شديد التمسك بدعوة العلويين ، وقد بذل ماله وجاهه فى سبيل نشرها ، فلما سمع بانتقال البيعة إلى بنى العباس كظم وتربص ليرى مايقول الناس ، ثم علم أن ابراهيم الامام عين أبا مسلم وأرسله إلى خراسان ومعه الوصية المشهورة « من اتهمته فاقتله » ، وقد أطاعه النقباء فأطاعه أبوسلمة فى جملتهم ، وهو يتوقع أن تكون البيعة شورى بين الشيعتين (٢) ولما بلغه أن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية قتل ابراهيم الامام أضمر الرجوع إلى الدعوة العلوية (٣) ثم جاءه اخوة الامام ، وفيهم أبو العباس السفاح واخوته وسائر أهل بيته ، وتداولت البيعة إلى أبى العباس المذكور ، فأنزلهم أبوسلمة عنده ، ورأى نفسه عاجزا عن نقل البيعة ، فسكت ، فبقيت لآل العباس ، وكان أبومسلم وسائر النقباء والقواد يحاربون عساكر الأمويين فى خراسان وفارس والعراق ، فما غلبوهم وملكوا خراسان ومايليها جاءوا العراق وبايعوا أبا العباس ، فسكت العلويون خوفا على أنفسهم من ذلك التيار العظيم ، وهم يتوقعون مع ذلك أن تكون الخلافة شورى بين الرهطين ، وعلم العباسيون بما كان يضمره أبوسلمة من نقل الخلافة إلى العلويين ، فشكوه إلى أبى مسلم سرّا ، فدسّ إليه رجلا قتله بالكوفة غيلة ، وأشاعوا أن بعض الخوارج قتله ، وقد قتلوا كثيرين غيره ممن شكوا فى إخلاصهم حتى تمّ الأمر لهم .

أما آل الحسن بن علىّ الذين كانوا قد بايعوا أحدهم محمد بن عبد الله فى المدينة ، وبايعه معهم سائر بنى هاشم ، ومنهم أبوجعفر المنصور ، فلما علموا بذهاب دولة بنى أمية ومبايعة أبى العباس السفاح سنة ١٣٢ جاءوا إليه

(١) ابن خلدون ٣ ج ٤ وابن الأثير ٢٤٣ ج ٥ والفخرى ١٤٧
(٢) الفرج بعدالشدّة ١٢٠ ج ٢ (٣) المسعودى ١٥٠ ج ٢

في الكوفة يطالبونه بديعتهم ، فاسترضاهم أبو العباس بالأموال ، وقطع لهم القطائع ، وكان في جملة القادمين إليه عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة ، فأكرم السفاح وفادته ، وعرض عليه مايرضاه من المال ، وقال له : احتكم عليّ ، فقال عبد الله بألف ألف درهم فاني لم أرها قط ، ولم يكن هذا المال موجودا عند السفاح ، فاستقرضه له من رجل صيرفي اسمه ابن أبي مقرن ودفعه إليه ، واتفق وعبد الله المذكور عند السفاح أن بعض الناس جاءه بالجواهر التي كانت عساكر العباسيين قد اغتنمتها من مروان بن محمد ، فجعل السفاح يقلب الجواهر بين يديه وعبد الله ينظر إليها و يبكي ، فسأله عن السبب ، فقال : « هذا عند بنات مروان ، ومارأت بنات عمك مثله قط » فحباه به ، ثم أمر الصيرفي أن يبتاعه منه ، فابتاعه بثمانين ألف دينار (نحو مليون درهم) وأمر أبو العباس باكرام عبد الله وانزاله على الرحب والسعة ، وهو يتوجس مما في ضميره ، فبثّ عليه العيون ، فآنس عنده طمعا ، فزاده عطاء ، فعاد عبد الله إلى المدينة مثقلا بالأموال ، ففرّقها في أهله ، وكانوا أهل فاقة ، فلما رأوا تلك الأموال سرّوا .

وأما عبد الله فمازال مضمرا المطالبة بالخلافة لابنه (١) على ما تمت المبايعة عليه ، والعباسيون يخافون ذلك ، والسفاح يسترضيه وسائر أهله بالأموال كما رأيت ، فلما توفي السفاح سنة ١٣٦ هجرية خلفه أخوه أبو جعفر المنصور ، وكان رجلا شديد البطش لايبالي بما يرتكبه في سبيل تأييد سلطانه ، فكان همه قبل كل شيء أن يتحقق مافي نفس بني الحسن في المدينة ، لأن لهم في عنقه بيعة ، فبثّ عليهم العيون ، وأراد اختبارهم ، فبعث بعطاء أهل المدينة على جاري العادة من قبل ، وكتب إلى عامله فيها : « أعط الناس في أيديهم ولاتبعث إلى أحد بعطائه ، وتفقد بني هاشم ومن تخلف منهم عن الحضور ، وتحفظ بمحمد وابراهيم ابني عبد الله بن الحسن » ففعل العامل ذلك ، فلم يتخلف عن العطاء إلا محمد وابراهيم المذكوران ، فكتب إليه بذلك ، فتحقق المنصور أنهما ينويان القيام عليه وقد سكتا في أثناء خلافة أخيه ، لأنه كان يكرمهما ، و يغدق الأموال عليهما ، والمنصور لايرى ذلك ، فلما رأيا تضييقه عزموا على الخروج ، فبثوا الدعاة في خراسان وغيرها يدعون شيعتهم إلى بيعتهم ، فعلم أبو جعفر بذلك ، فبعث من يقبض على كتبهم في الطريق واحتال في استطلاع أسرارهم ، وأراد استقدام ابني عبد الله ، وكتب إليه يستقدمه بهما ، فأنكر عبد الله أنه يعرف مقرّهما ، فأصبح همّ المنصور التخلص منهما ومن سائر طلاب الخلافة من العلويين ، وخصوصا بني الحسن وهم يقيمون في المدينة ، فبعث إلى عامله فيها أن يقبض عليهم جميعا ، ثم أمره أن ينقلهم إلى العراق فنقلهم وهم مثقلون بالقيود ، والأغلال في أرجلهم وأعناقهم ، وقد حملوا على محامل بغير وطاء ولكن ليس فيهم محمد ولا ابراهيم ابنا عبد الله لاستتارهما ، فجاءوا ببني الحسن وعدتهم بضعة عشرة رجلا ، فأمر المنصور بقتلهم فقتلوا إلا بضعة قليلة . أما محمد بن عبد الله صاحب البيعة ، فلم يقع في الفخ ، فبعث المنصور إلى عامله في المدينة يشدد في طلبه ، فلم ير محمد بدا من القيام ، فظهر بالدعوة ، وبايعه أهل المدينة بعد أن استفتوا إمامهم مالك بن أنس ، فأفتاهم بالخروج معه . فقالوا : « إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر » . فقال : انكم بايعتموه مكرهين ، وأن بيعة محمد بن عبد الله أصحّ منها ، لأنها انعقدت قبلها (٢) . وكان أبو حنيفة أيضا على هذا الرأي يقول بفضل محمد هذا ويحتج إلى حقه ، فحفظ لهما المنصور هذا القول ، فتأدت إليهما المحنة بسبب ذلك ، فلما تمكن من محمد وقتله سنة ١٤٥ هجرية أصبح من أكبر المضطهدين لهما فضرب مالكا على الفتيا في طلاق المكره وحبس أبا حنيفة على القضاء كما هو مشهور . وكان سكت المنصور ببيعة محمد بن عبد الله تأثير عظيم في أذهان العلويين ، لأنها جاءتهم بغتة ، وكانوا يظنون ذلك لايصدر من أهل البيت ، كما صدر من بني أمية فتحسروا على أيام بني أمية وتمنوا رجوعها .

(١) العقد الفريد ٢٧ ج ٣ (٢) ابن الأثير ٢٥١ ج ٥ وابن خلدون ٣ ج ٤

ذكروا عن محمد بن عبد الله فى أثناء قيامه على المنصور أنه سمع شاعرا يرثى بنى أمية ، فبكى فقال له عمه : أتبكى على بنى أمية وأنت تريد ببنى العباس ماتريد . فقال له : ياعم لقد كنا نقمنا على بنى أمية مانقمنا فما بنو العباس إلا أقل خوفا لله منهم ، وأن الحجة على بنى العباس أوجب منها عليهم ، ولقد كان للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبى جعفر (١) .

سياسة العباسيين فى تأييد سلطتهم

القتل على التهمة

قد رأيت فيما تقدم أن بنى العباس قاموا يدعون إلى أنفسهم وهم بين خطرين عظيمين : الأول أن يحاربوا بنى أمية ويتغلبوا على أحزابهم . والثانى أن يأمنوا جانب العلويين فى مسابقتهم إلى الخلافة . وكانت الحوادث قد علمتهم أن الدولة لاتقوم بالدين والتقوى فقط كما قامت فى عصر الراشدين ، وكما أرادها بنو على ، وأن العلويين إنما عجزوا عن نيلها لاعتمادهم فى دعوتهم على شرف نسبهم ، وصدق تدينهم ، وأن معاوية لم يغلب إلا بالدهاء والحيلة ، وأن عبد الملك لم يستطع استبقاءها إلا بالفتك وشدة البطش ، فلما انتقلت البيعة من العلويين إلى العباسيين بمبايعة أبى هاشم بن محمد ابن الحنفية لمحمد بن على العباسى كما تقدم ، ثم أفضت بعده إلى ابنه ابراهيم الامام ، وتوفق هذا إلى أبى مسلم الخراسانى ، ورأى فيه الشدة والدهاء جعله قائدا على نقبائه ودعاته ، وأوصاه وصية هى محور سياسة العباسيين فى تأييد دولتهم هذا نصها :

« انك رجل منا أهل بيت ، احفظ وصيتى ، انظر إلى هذا الحى من اليمن ، فالزمهم ، واسكن بين أظهرهم ، فان الله لايتم هذا الأمر إلا بهم ، واتهم ربيعة فى أمرهم ، وأما مضر فانهم العدو القريب الدار واقتل من شككت فيه ، وإن استطعت أن لاتدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار واتهمته فاقتله » . (٢)

فخرج أبو مسلم من عند الامام ابراهيم بهذه الوصية ، وقد عمل بها ، وعوّل عليها ، فكان يقتل كل من اتهمه ، أوشك فيه ، فبلغ عدد الذين قتلهم فى سبيل هذه الدعوة ٦٠٠,٠٠٠ نفس قتلوا صبرا (٣) بدون حرب فى بضع سنين ، وفى جملتهم جماعة من كبار الشيعة ، وفيهم غير واحد من جلة النقباء وكبار الدعاة كأبى سلمة الخلال الذى نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم بسيفه ، وكان يقال له وزير آل محمد كما يقال لأبى مسلم أمير آل محمد ، فلما استشار السفاح أبا مسلم بشأنه ، واتهمه بنقل الخلافة إلى العلويين أشار أبو مسلم بقتله ، فقتلوه ، وقتلوا عماله على الأطراف ، وفعل نحو ذلك أيضا بسليمان بن كثير ، وهو من أكبر دعاة الدولة العباسية قبله وكان شيخا جليلا لم يدخر وسعا فى نصرة تلك الدعوة ، فبعد قتل أبى سلمة بلغ أبا مسلم عنه مثل مابلغه عن أبى سلمة ، فأحضره إليه ، وقال له : « أتحفظ قول الامام لى من اتهمته فاقتله ؟ » قال نعم ، قال : فانى قد اتهمتك ، فخاف سليمان ، وقال : أناشدك الله ، قال : لاتناشدنى فأنت منطو على غش الامام ، وأمر بضرب عنقه (٤) ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة وفيهم الأمراء والقوّاد ، قتل بعضهم بالحيلة والبعض الآخر بالغدر ، ومنهم الكرمانى وأولاده وكبار رجاله (٥) وغيرهم بشر كثير حتى سئم الناس فعله وملوا سفك الدماء ، وأصبح المسلمون حتى رجاله لا يدعى أحدهم إلى مقابلته الا أوصى وتكفن وتحنط ، وثار من ذلك بعض الأمراء من شيعة بنى العباس ، وصاح فى رجاله : « ما على هذا اتبعنا آل محمد أن تسفك الدماء وأن يعمل بغير الحق » فتبعه على رأيه أكثر من ٣٠,٠٠٠ رجل فوجه إليهم أبو مسلم جندا قاتلهم وقتلهم .

(١) الأغانى ١٠٦ ج ١٠ (٢) ابن الأثير ١٦٥ ج ٥ (٣) ابن الأثير ٢٢٧ ج ٥
(٤) ابن الأثير ٢٠٨ ج ٥ (٥) ابن الأثير ١٨٣ ج ٥

المنصور والدولة العباسية

فبهذا وأمثاله مهد أبومسلم الخلافة لبنى العباس فساعدهم أولا على إخراجها من بنى أمية إلى أهل البيت ولم يكتف ببيعة أبى العباس ، وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، ولكنه حرضهم على قتل من بقى من بنى أمية بالاغراء أو التخويف على ألسنة الشعراء ، ويقال انه هو الذى أوعز إلى سديف الشاعر مولى بنى هاشم أن يقول ذلك الشعر فى مجلس السفاح وفيه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان السفاح قد أمنه وأكرمه وأمن سائر بنى أمية ، فيقال ان سديفا دخل يوما على السفاح وعنده سليمان بن هشام ، فأنشد سديف قوله :

لايغرنك ما ترى من رجال * إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى * لاترى فوق ظهرها أمويا

فتأثر السفاح ، وأمر بسليمان فقتل ، ودخل شاعر آخر ، فقال شعرا آخر ، وكان عند السفاح نحو سبعين من رجال بنى أمية ، فقتلهم ، و بسطوا النطوع على جثثهم ، فأكلوا الطعام وهم يسمعون أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا (١) . وقيل فى كيفية قتلهم غير ذلك ، وأن الذى قتلهم عبد الله بن على عم السفاح ، وهو مشهور بكرهه لبنى أمية ، وشدة نقمته عليهم ، ولكن لاخلاف فى أنهم قتلوا غدرا سنة ١٣٢ هجرية وهم آمنون كما قتل الأمراء المماليك بمصر فى أوائل القرن الماضى . والغالب أن أبا مسلم أوعز إلى العباسيين بقتلهم لئلا يقفوا فى سبيل دولتهم ، فأشار إلى سديف أن يحرضهم على ذلك بشعره ، ولم يقل سديف ذلك حبا ببنى العباس بل كرها لبنى أمية ، وانتقاما لآل على ، لأنه من الشيعة العلوية ، وهو يظن الخلافة شورى بين الشيعتين ، فلما رأى المنصور استقل بها بعد ذلك نقم على العباسيين ، وهجاهم بأشعار بلغ خبرها المنصور فكتب إلى عامله أن يأخذ سديفا فيدفنه حيا ، ففعل (٢) .

و بعد أن قتل العباسيون من كان فى قبضتهم من الأمويين عمدوا إلى استئصال شأفتهم من سائر البلاد ولم ينج منهم إلا قليلون ، أهمهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، ففر الى الغرب ، وأسس دولة بنى أمية بالأندلس كما سيأتى ، وتولى استئصال شأفة الأمويين من بنى العباس عبد الله بن على ؛ فبالغ فى ذلك حتى نبش قبورهم ، ومثل بجثثهم ، انتقاما لما فعلوه قبلا بالأئمة من آل على ، وخصوصا زيد بن زين العابدين ، فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره ، وهو لم يبل ، فضربه ثمانين سوطا ، ثم أحرقه (٣) .

و بعد أن تخلص المنصور من الأمويين لم يدخر أبو مسلم وسعا فى تخليص الدولة له من أقربائه آل العباس أنفسهم ، وفى جملتهم عبد الله بن على المتقدم ذكره ، وقد طمع بالخلافة ، فحاربه بأمر المنصور ، وغلبه ، وقبض على مافى عسكره من الغنائم والأسلحة ، فأراد المنصور أن يوجه همه إلى بنى الحسن منافسيه فى الخلافة ، فاشتغل خاطره بأبى مسلم ، وأصبح خائفا منه على سلطانه بعد ما بلغ إليه من النفوذ والشهرة والدالة ، ولم يكن همه إلا قتله ليتفرغ للعلويين ، فاتهمه بأنه ينوى إخراج الملك منهم ، فاستحق القتل عملا بوصية الامام . وكان المنصور قد خاف أبا مسلم وعزم على قتله من عهد خلافة أخيه أبى العباس ، ولكن أبا العباس لم يرد الاقدام على ذلك ، فلما مات السفاح وخلفه المنصور صمم على قتله ، ولكنه استخدمه فى حرب عمه عبدالله بن على ، فضرب عدويه أحدهما بالآخر ، فأيهما قتل صاحبه انفرد فيسهل على المنصور قتله ، فلما فرغ أبو مسلم من حرب عبد الله بن على احتال المنصور فى استقدامه إليه من خراسان فى حديث طويل ، وأدخله عليه دخول الزائر الأمين ، وقد أكمن له أناسا بالسلاح وراء الستر ، فأخذ سيفه منه وحادثه ، وتدرج

(١) الفخرى ١٣٤ والعقد الفريد ٢٧٩ ج ٢ (٢) العقد الفريد ٣٢ ج ٣
(٣) ابن خلكان ٢٠٥ ج ٢

من العتاب إلى التوبيخ حتى اذا أزفت الساعة صفق المنصور ، فخرج الكامنون بأسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٧ هجرية ، وأمر به فلفوه بالبساط ، ثم دعا بعض رجال خاصته ، وشاورهم في قتله ، ولم يقل لهم انه قتله ، فقال له أحدهم : « ان كنت قد أخذت من رأسه شعرة فاقتله ثم اقتله » فأشار المنصور الى البساط فلما رأى أبا مسلم فيه وتحقق موته قال : « عدّ هذا اليوم أول يوم من خلافتك » (١)

ولما فرغ المنصور من أبي مسلم لبث يتوقع مايبدو من رجاله الخراسانية لعلمه انه ارتكب بقتله خطرا عظيما فما عتم أن ثار عليه جماعة منهم يعرفون بالراوندية وكادوا يفتكون به لولم يدافع عنه معن بن زائدة . فقتل الراوندية جميعا ولكنه أصبح لا يأمن على نفسه من مثل هذه الثورة فبنى مدينة بغداد بشكل حصين يقيه غائلة ذلك عند الحاجة : ثم عمد الى تخليص الخلافة من آل علي فحارب محمد بن عبدالله وقتله . ثم رأى من آل العباس من ينازعه عليها ، منهم عمه عبد الله وكان أبو مسلم قد غلبه ، ولكنه لم يتمكن من قتله فاحتال المنصور في استقدامه بأمان بعثه اليه مع ولديه فجاء فحبسه عنده . ثم علم سرًّا ان ابن عمه عيسى بن موسى ينوي الخروج عن طاعته ، وكان واليا على الكوفة . فتجاهل و بعث اليه ، وقد دبر أمرا كتمه عن رجال بطانته : فلما جاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والاكرام ثم أخرج من كان في حضرته من الحاشية واستبقاه وحده وأقبل عليه . وقال : « يا ابن العم إني مطالعك على أمر لا أجد غيرك من أهله ولا أرى سواك مساعدا لي على حمل ثقله فهل أنت في موضع ظني بك وعامل مافيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي » فقال له عيسى : « أنا عبد أمير المؤمنين ونفسي طوع أمره ونهيه » فقال المنصور: « ان عمي وعمك عبدالله قد فسدت بطانته واعتمد على ما بعضه يبيح دمه ، وفي قتله صلاح ملكنا فخذه اليك واقتله سرا » فأطاعه عيسى فسلم اليه عمه فمضى به الى الكوفة . وأضمر المنصور أن ابن عمه عيسى اذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص وسلمه الى أعمامه إخوة عبد الله ليقتلوه به فيكون قد استراح من الأثنين معا . أما عيسى فكأنه شك في نية المنصور ، والناس يومئذ يتهم بعضهم بعضا خوفا من وصية الامام : فاستشار بعض ذوي مشورته فحذروه من عاقبة ذلك فحبس عمه ولم يقتله . ولما طلبه المنصور منه دفعه اليه حيا فقتله في بيت جعل أساسه على الملح (٢) .

وأمثلة ماأتاه المنصور من الدهاء والفتك في تأسيس دولته كثيرة . وكان يعطي الأمان ثم ينكث كما رأيت فعله بعمه عبد الله وكما فعل بابن هبيرة عامل بني أمية على واسط لما بويع السفاح ، وأرسل أخاه المنصور لمحاربته : فجرت السفراء بينهما واتفقا على أن يدخل ابن هبيرة في أمان بني العباس : فكتب له المنصور أمانا ظل ابن هبيرة أربعين ليلة وهو يشاور فيه العلماء حتى تحقق صحته ورضي به فبعثه الى أبي جعفر فأنفذه أبو جعفر الى أبي العباس فأمره بامضائه . وكان رأي أبي جعفر في بادئ الأمر أن يفي بما أعطاه ، ولكن أبا مسلم (وكان لايزال حيا) أشار على السفاح أن يقتله قائلا « ان الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد . لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة » فبعد ان جاء ابن هبيرة الى أبي جعفر مستأمنا غدر به وقتله (٣) لانه اتهمه مما اتهم أبامسلم وقتله بعد ان أمنه كما رأيت ، وشاع نكث الأمان والغدر عن المنصور وتحدث به الناس : فلما قام محمد بن عبد الله العلوي في المدينة خافه المنصور كما تقدم فبعث اليه يعرض عليه الأمان ويعده خيرا فأجابه محمد : « أي أمان تعطيني أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله أم أمان أبي مسلم (٤) »

وظل المنصور وأبو مسلم قدوة لمن جاء بعدهما بالدهاء والفتك . على أنهم لم يكونوا يبطشون أو يفتكون

(١) المسعودي ١٦٧ ج ٢ (٢) المستطرف ٦٣ ج ١ . وابن الأثير ٢٥٧ ج ٥

(٣) ابن خلكان ٢٧٩ ج ٢ (٤) ابن الأثير ٢٥٤ ج ٥

الا

الافى من نازعهم على الخلافة فهذا يقتلونه على الشك . أما أحكامهم فيما خلا ذلك ففى نهاية العدل والرفق كما سيأتى . أما من كان فى نفسه مطمع فى الخلافة أو مايتعلق بها فحكمه حكم المجرمين : فكل من يطلب الخلافة لنفسه أو يسعى فيها لأحد كانت حياته فى خطر فاذا دعى للمثول بين يدى الخليفة اغتسل وتحنط استعدادا للموت .

وكان المنصور أيضا قدوة لعبد الرحمن بن معاوية مؤسس دولة بنى أمية فى الأندلس وقد فرّ من العراق فالشام الى المغرب خوفا من القتل فنصره رجاله ؛ وخصوصا مولى له اسمه بدر سعى فى تأييد سلطانه مثل سعى أبى مسلم فى الدولة العباسية ، فلما استتب له الأمر سلبه كل نعمة وسجنه : ثم أقصاه حتى مات وفعل نحو ذلك فى رؤساء الأحزاب الذين نصروه ، وسيأتى الكلام على ذلك .

واشتهر فتك العباسيين بالذين ينصرونهم فى تأييد دولتهم حتى صار الخلفاء أنفسهم يشيرون الى ذلك اذا أعوزهم الاستدلال به . فالأمين لما رأى طاهر بن الحسين يتفانى فى نصرة أخيه المأمون وقد تولى قيادة جند الخراسانيين وغلب على جند الأمين وكاد يذهب بدولته كتب الأمين اليه : « بسم الله الرحمن الرحيم اعلم أنه ماقام لنا منذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه الا السيف فانظر لنفسك أو دع [١] » وفى الواقع ان المأمون لما استتب له الامر فى الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور بقتل أبى مسلم فأهدى له خادما كان رباه وأمره أن يسمه ففعل [٢] . اه ماأردته من كتاب التاريخ التمدن الاسلامى والحمد لله رب العالمين .

***

فانظر أعزك الله أيها الذكى فى هذه الأمم الاسلامية ، وكيف :

(١) يأمر هشام بن عبدالملك سرا بقتل (أبى هاشم) ابن محمد بن الحنفية الذى تدعوله الفرقة الكيسانية

(٢) ثم إن أبا هاشم لما أحسّ بالموت أوصى بالخلافة لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس .

(٣) ولما تولى ابنه ابراهيم الامام أصبح ما كان يأمر به كأنه كتاب منزل ، وكيف يأمر أبا مسلم بقتل كل من يتردّد فيه ، وكيف يقتل ٦٠٠,٠٠٠ غدرا فى منازلهم وفى طرقهم ! والله حرّم القتل ! فهل يباح القتل لأجل الملك ؟ فأين الشورى ؟ وأين آية : « وان طائفتان الخ » .

(٤) وكيف بايع العباسيون باسم آل محمد ، ثم استبدّوا بالملك وقتلوا العلويين ، بأىّ كتاب ؟ أم بأية سنة ؟ و بأىّ عقل ؟ ،

(٥) وكيف يقتل أبو سلمه الخلال المثرى الشهير غدرا وظلما التمسك بالعلويين ؟ .

(٦) وههنا أمر عظيم حلّ بالأمة ، هذا عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة جاء إلى السفاح الذى اغتصب الملك من ابيه فأكرمه وعرض عليه نيل فأعطاه ألف ألف درهم ، وفى نفس الوقت حضرت جواهر نهبها عسكر العباسيين من مروان بن محمد ، فلما رآها عبد الله أخذ ينظر إليها و يبكى إلى آخر ماتقدم من أنه بكى لأن هذا كان عند بنات مروان ، ومارأت بنات عمك مثله قط ، وأعطاه تلك الجواهر . هذه الحكاية وحدها ان صحت تدل على تغير الأخلاق فى بعض آل البيت ، ذلك لأن عصر النبوّة كان عصر زهد ! فماهذا البكاء ، وماهذا النحيب ؟ إن أخلاق الأمة إذ ذاك تغيرت ، لأن الأمة نسيت أخلاق النبوّة ، وأنس الناس بالترف والنعيم ، و بيت النبوّة الذى هو النور المشرق فى ادمّة أيضا أحاطت ببعض حجراته الظلمة ، النبىّ ﷺ وأبو بكر وعلىّ وغيرهم يحقرون المال ، وفطمة رضى الله عنها تطحن على الرحى ، ثم انا نسمع أن عبد الله يبكى

(١) السعدى ٢١٣ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢٣٧ ج ١

للجواهر ويفرح بالمال ، ذلك تغير عظيم فى أخلاق الأمة حتى سرى إلى بعض رجال بيت النبوّة ؛ تغيرت أخلاق الأمة ، فبعد أن كان الخليفة حارسا لمال الأمة كعمر رضى الله عنه أصبح مترفا منعما كالعباسيين والأمويين ، واشرأبت لهذا أعناق العلويين . هذا كله لأن الخلافة بعد أن كانت عفيفة عن مال الأمّة أصبحت شرهة على مالها ، وطلبت لذلك ، وكل من وصل إليها اعتبرها غنيمة له ، وما أقبح هذا الجهل بأمة الاسلام !

(٧) ثم كيف نرى أبا جعفر المنصور يبعث فى طلب بنى الحسن الذين كانوا نصراءه بالأمس ، وكيف يقتلهم جميعا بعد أن أحضرهم مثقلين بالقيود والأغلال ؟ وكيف يضرب مالكا على فتواه فى طلاق المكره ؟ وكيف حبس أباحنيفة ؟ ذلك لأنهما أفتيا بأن بيعة محمد بن عبد الله صحيحة ولا بيعة للمنصور ، ثم كيف يقتل من كان هو مبايعا له بالأمس من آل بيت النبوّة ؟ .

(٨) اللهم انك أنت المهيمن العليم الحكيم ، أمر ابراهيم الامام بإذلال العرب على يد أبى مسلم الخراسانى فقتل منهم مئات الالوف فى منازلهم ، فحرمه الله الملك إذ قتله الأمويون ، تولى أخوه السفاح بعده فلم يشفق على بنى أمية لما تمّ له النصر ، وأهلك القوم ، فلم يدم له الملك ، ومات ولا ذكر لعقبه . فتولى أبو جعفر المنصور ، فأوقع بالطائفتين العلويين من ناحية وأقاربه العباسيين من جهة أخرى ، وقتل أبامسلم . كل ذلك مخالف للقرآن والعقل ، وتولى الخلافة ذرّيته فلم تطل المدة حتى رأينا ما يأتى :

(٩) اختلف الأمين والمأمون ، ولكل أنصار ، فأنصار الأوّل العرب ، لأن أمه زبيدة حفيدة المنصور وأنصار الثانى الفرس ، لأن أمه فارسية ، وكان فى خراسان بين أخواله وشيعته فنصره الخراسانيون كما نصروا أجداده ، إن الفرس هم الذين أقاموا هذه الدولة ، ولهذا حقروا العرب بعد أن كان بنو أمية رافعى شأنهم ، وههنا زاد امتهان العرب ، فالدولة عربية ظاهرا فارسية حقيقة ، فلما مات المأمون سنة ٢١٨ تولى الخلافة أخوه المعتصم ، وأمه تركية من بلاد (السغد) فى تركستان ، فشبّ محبا للأتراك ، وصار لا يأتمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الأمين ، وهى أوّل مظاهر جرأتهم على الخلفاء ، ولم يكن له ثقة بجند العرب ، لأن العباسيين أذلوهم فضعفوا واستكانوا ، ومن المدهش أن أخاه المأمون أوصاه بمحاربة العرب ، ولذلك منعوا من أعمال الدولة ، وآخر عربى تولى عملا عنبسة بن اسحق الضبى سنة ٢٣٨ هجرية ، ولقد أراد المعتصم كما زهد فى رجال العرب أن يزهد فى بلادهم ، فبنى سامرّا بالقرب من بغداد ، وأقام فيها جنده ، وأنشأ فيها كعبة ، وجعل حولها طوافا ؛ واتخذ منى وعرفات ، غرّ بذلك أمراء كانوا معه لما طلبوا الحج خشية أن يفارقوه ، فصار بذلك لفظ عربى مرادفا لأحقر الأوصاف عندهم . ومن قولهم : « العرب بمنزلة الكلب اطرح له كسرة واضرب رأسه » . وقولهم : « لا يصلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبىّ ينصره الله به » وأصبح الأمراء والوزراء وسائر رجال الدولة من الفرس والترك والديلم وغيرهم ، وصار الخلفاء يؤيدون مناصبهم بالأجناد وبذل المال ، وقلت العناية بالعرب وأحزابهم ، وهذا سرّ انك تسمع ابن طولون والاخشيد والمماليك البرّية والبحرية كانوا يحكمون مصر ، وتلك هى السنة التى سنها العباسيون من التجائهم إلى غير العرب وانحيازهم إليهم ، ناهيك ما فعله المنصور ، إذ أمر رجاله أن يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة ، تدعم بعيدان من داخلها بدل العمائم ، أو يعتموا فوقها بعمامة صغيرة ، وأن يعلقوا السيوف فى أوساطهم ، وأن يكون اللباس الاسود عاما فيهم ، وهو شعار العباسيين كما كان البياض شعار الأمويين ، فلابدّ للداخل على الخليفة العباسى من لبس جبة سوداء يسمونها « السواد » تغطى سائر ألبستهم ، وألبسهم المنصور دراريع

كتب على ظهورها : « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » و بعث إلى عماله فى سائر الأقطار أن يأمروا رجالهم بمثل ذلك .

نتيجة أعمال الأمويين والعباسيين فى الاسلام

نحن الآن أيها الذكى لم نكتب هذا حبا فى التاريخ ، إن التاريخ لامعنى له إلا الاعتبار والذكرى والتأسى والله يقول : « أولم يهدِ للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لونشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون ✽ تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها » الآيات .

الله أكبر : نحن الآن فى تفسير آية : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » الآيات التى تأمر بالصلح أوّلا والاخاء ثانيا ، ولكننا لما قرأنا تاريخ أسلافنا ، ألفيناهم بعد العصر الأوّل هجروا الشورى بتاتا ، ورجعوا إلى عادة الجاهلية الأولى ملطفة بالاسلام . فلمافعلوا ذلك أخذوا يتخذون غيرالعرب لاذلال العرب .

الله أكبر : إن الغنم بالغرم ، أذل العباسيون العرب ، لماذا ؟ لأجل الخلافة ، ولم ذلك ؟ لأن الخلافة تعطيهم الحرّية فى الأموال والدولة ، ولكنها لوكانت تلك الخلافة خلافة صادقة بحيث لايتصرّف الخليفة فى مال ولا فى حال إلابالشورى ، لم يتناحروا ولم يتقاتلوا عليها ولم يبك عبد الله من ذرّية الحسن رضى الله عنه أمام السفاح لأجل الجواهر والمال ، لبس العباسيون ملابس الفرس ، هجروا العرب أمر المعتصم بألايأخذوا من العطاء فماذا جرى ؟ أصبح أولئك الخلفاء تحت امرة الفرس تارة والترك أخرى ، فقتلوا من الملوك العباسيين ٣٨ من ٥٩ خليفة ، وبعضهم سملوا عينيه ، وأصبح يسأل الناس على أبواب المساجد (اقرأ هذا المقام موضحا فى ﴿سورة الأحقاف﴾ عند آية « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » فهناك ترى كيف قتل باغر التركى المتوكل وهو فى حال سكر ، وكيف قتل غيره وغيره) .

إذن بنوالعباس استعانوا بغيرالعرب لاذلال العرب ، فصاروا هم أوّل من أذلهم الفرس والترك . كل ذلك لترك الشورى ، ولنسيان القرآن ، واتباع العصبية الجاهلية ، يتعصب العباسيون ؟ لمن يتعصبون ؟ لأجل المال لاغير والسلطان ، فتكون النتيجة الوبال على الذرّية . إن ماصنعه العباسيون مع العرب بقى أثره إلى الآن ، ألم تركيف حدثنا التاريخ بالمماليك البرّية والبحرية وبالأمة العثمانية التى أذلت المصريين وأكثر بلاد العرب ، ذلك لأن الأمم العربية ذهبت غالبا عصبيتهم فناموا ولم يظهر فيهم نابغون يذكرونهم مجدهم مثل من ظهروا اليوم فناموا نوما عميقا . إن مافعله العباسيون سرى فى بعض أمراء الأندلس ، فانهم كانوا يستعينون بجيرانهم من الفرنجة على اهلاك المسلمين . وانظر إلى قصة برّاق فى ﴿سورة الأحقاف﴾ أيضا فى الآية المذكورة . وكيف كان يقابل بابا رومه ودوق فينيزياو بارونات أوروبا . وكيف جاء بوعد من البابا لأمير أشبيلية (جندل بن حمود) انه هو الذى يكون أميرا على بلاد الأندلس على شرط أن يغير على قرطبة ليخضد شوكة المسلمين ، ففعل بهذه الوصية ، وأغار على قرطبة ، فكان الفرنجة فى نفس الوقت مغيرين على أشبيلية ، وفضحوا البكر والمرأة بحضرة أبيها وزوجها ، وقتل ٣٠ ألف لأجل المحافظة على العرض ، ومثلهم وأكثرمنهم لأجل المحافظة على الدين ، كل ذلك وجندل بن حمود مغرور بوعد البابا وبارونات أوروبا ودوق فينيزيا ، وقد خاب ظنه ، فانهم قتلوه فى قرطبة غدرا بعد أن ساعدهم فى إذلال المسلمين ، أما عسكره فانهم رجعوا فوجدوا أشبيلية مدينتهم قاعا صفصفا ، وقابلهم عسكرالفرنجة بالقتل والاهلاك ، فطلبوا الأمان .

هذا مثل واحد مما ذكرته هناك فى ﴿سورة الأحقاف﴾ عند آية : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » إلى آخره .

الله أكبر : إذن أمم الاسلام بعد أزمان النبوّة قد خالفوا كتاب الله تعالى وسنة نبيه واجماع الأمة . الله أكبر : إذن بعض ما نحن فيه الآن نتائج ما كان من آبائنا . اللهمّ إنى أحمدك حمدا كثيرا على نعمة العلم ، وعلى أن وفقتنى للالمام بما حصل لأمّتنا حتى يكون ذلك نبراسا لمن بعدنا ، فنكون أرقى حالا مما نحن عليه الآن .

اللهم اننا نحن الآن مغمورون فى بحار من الجهالة ورثناها عن بعض أسلافنا الغابرين . هاهم أولاء بعض شيوخ الطرق فى زماننا ، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، يحملون الرايات ، ويتخذون النقباء ، ويعطون العهود ، ويطوفون بالبلاد ، لماذا هذا ؟ هم لايعلمون سرّ ذلك ، ولكن سرّه أظهره التاريخ كان العباسيون والعلويون يفعلون ذلك لما فاتهم الخلافة ، وكان أبومسلم الخرسانى تحت امرته نقباء بنى العباس وبهذه العهود والمريدين والتلاميذ استرجعوا الخلافة ، وفتكوا بمن هم أحقّ منهم وهم العلويون ، ذهبت الدولة العربية ، ولكننا لانزال نرى النقباء والتلاميذ فى جميع بلادالاسلام ، وهؤلاء وان كانوا يريدون التقوى والصلاح كان أمرهم فيما مضى راجعا لطلب الخلافة كما ترى فى دولة الفاطميين بمصر ، وحسن بن الصباح ببلاد الفرس فى قلعة الموت . هذه فكرة عامة ، وصورة مصغرة ترينا حالهم لننظر فى مستقبل بلاد الاسلام .

اعتراض على المؤلف

فلما اطلع صديقى العلامة على هذا ، ودرسه حقّ دراسته . قال : ماأجمل هذا البيان ، اننا كثيرا ماقرأنا التاريخ ، ودرسنا القرآن وتفسيره ، ولكن تطبيق التاريخ على القرآن نادر عند آبائنا السابقين ، فأنا أحمدالله على نعمة العلم وانتظام التاريخ مع آى القرآن . ولكن هنا تبدّى لى سؤال ؟ وهوانك بهذا البيان قدكسرت قلوبا صحيحة ، ونفوسا بريئة ، فانه بناء على هذا البيان يكون مجدنا القديم ضائعا ، إذن تاريخنا أسود وآباؤنا ظالمون جهلاء ، إن هذا القول يقبض القلب وينكس الرأس ، ثم انك نقلت عن الفرنجة الذين لا يرجى منهم مودّة للمسلمين مدح هؤلاء الملوك فكيف تجمع بين الذم والمدح ، وهل العقول تقبل الضدّين ؟ ياسبحان الله : إذن جميع المدح إنما هوتظاهرمن المادحين ، لأن ماقرأته الآن فى هذا المقام ظاهرمن التاريخ فهو لاشكّ فيه إذن المدح هوالمشكوك فيه . فقلت له : أيها الصديق ان المدح والقدح كلاهما حقّ . فقال : وكيف ذلك ؟ قلت : لقد قدّمت فى هذا التفسير فى ﴿سورة سبأ﴾ وغيرها أن الأمّة أشبه بطفل ، وكل قرن فى حياتها يعتبر سنة واحدة فى حياته ، إذن الأمّة اليوم كمراهق فى السنة الرّابعة عشر ، ولكنها اليوم أدركت البلوغ قبل ١٥ سنة كما يدرك الشاب بالاحتلام قبل السنّ ، والدليل على ذلك انها اليوم تقبل العلم والحكمة المنشورة بعد أن كانت لاتقبلها ، ولاتعرف لها وزنا ولاطعما .

إن الطفل فى أوّل أيامه يصيبه التخبط والجهالة ، لاسيما اذا كان يتيما ، وهذه الأمة لما فقدت الخلفاء الراشدين بعد النبيّ ﷺ أخذ المسلمون يتخبطون فى ديجور الظلام ، ونسيت الأمة الشورى ، لأن الشورى إنما تكون بين البالغين ، فأصبحت الأمّة كرة طرحت بصوالجة تلقفها الأمويون فالعباسيون فالأمراء الخارجون عليهم وأمراء الأندلس ، ثم دالت الدولة ، ولكن بقيت الذكرى والذكرى تنفع المؤمنين .

ان ما اتفق لآبائنا هوالأسّ الذى نبنى عليه نظام مدنيتنا ، وكيف نتجه للشورى ونحرص عليها ، ونصطفى الأمراء ورؤساء الجمهوريات إلا اذا رأينا عبرالدهر فى آبائنا الأوّلين ، والذى منعنا أن نسيرعلى الطريق المستقيم إنما هوالجهل بالتاريخ وبعظائه وآلامه وبالشرع نفسه ، أما الآن فقدعرفنا الحقائق ، وأن آباءنا كانوا فى زمان لم ينضج فيه العقل الاسلامى فى أمر الخلافة والحكومات فشردوا كل مشرد ، وباءوا وأصبحوا ذكرى للذاكرين

هذه ذكرى لنا ، ولقد عرفنا اليوم والمعرفة أساس العمل ، فههنا سائق للحكومة المنظمة وقائد ، أما السائق فهى الآلام التى حلت بآبائنا الاوّلين ، وأما القائد فهو ما نراه من الحكومات المنظمة فى بلاد أوروبا وأمريكا واليابان وغيرهما ، وهؤلاء لم يكن لهم نظراء قبل ظهور نبينا العربىّ عليه الصلاة والسلام ، هذا ما كان من أمر الحكومات العام .

النظام العام فى الاسلام

فأمّا فيما عدا ذلك من النظام العام فكانت دولهم أعدل دول الأرض ، وقد بقى ملك العباسيين إلى القرن السادس وملك الأندلس إلى القرن التاسع ، فهذه حكومات كان العدل هو الغالب فيها ، وظهر فى تلك الممالك العلماء والحكماء والشعراء والمهندسون ، وجميع من يحتاج إليهم العمران ، بل هم قدوة أوروبا وحاملو لواء العلم فى العالمين .

هاهوذا الشرع والمذاهب والقرآن باقية محفوظة ، هاهوذا القرآن والشريعة باقيان لم تمسهما يد الحدثان فلم يقدر المنصور أن يمنع الحج بقبته التى بناها لتكون مطاف الحجاج ببغداد ، ولا المعتصم لما جعل فى سامرّا مناسك الحج ولاغيرهما ، فهاهى ذه مناسك الحج والقرآن باقيان ، وهل مزّقت تلك الفرق المتشاكسة وهى اثنتان وسبعون فرقة دين الاسلام ؟ كلا ، بل مزّقت وحفظ الاسلام .

أشرق دين الاسلام فى العرب وانتشر فى الأقطار ، وتنقلت رئاسته من العرب إلى الفرس إلى الترك إلى أمراء فى سائر الأقطار ، هذه سنة الله فى خلقه ، تنتقل الشمس فى أبراجها والقمر فى منازله ، والمادّة فى صور الجماد والحيوان ، إن المادّة خلق الله والدين لله وهو القائل : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » فهذا هو العدل وحسن النظام .

إنّ المسلمين فى المستقبل غير المسلمين الماضين ، فهؤلاء يسلم لهم الدين والعلم والحكمة والاعتبار بالتاريخ وسيكون الأمراء والملوك والخلفاء آباء للأمم الاسلامية ، لاذئابا يفترسون المسلمين ، وسيكون أمرهم شورى بينهم . المسلمون السابقون كانوا خير أمّة أخرجت للناس فى زمانهم ، ذلك أن دولهم كانت خيرا من دولتى الفرس والروم ، ولما ضعف أمرهم ارتقى النظام فى ممالك أوروبا ، فنحن الآن لا نكون خير أمّة أخرجت للناس إلا إذا اعتدلنا فى الخلافة والامارة ، وكان أمراؤنا أشبه قوم بأبى بكر وعمر وعثمان والنبىّ صلى الله عليه وسلم .

هذا من حيث النظام العام فى المملكة ، فأمّا الأفراد فانهم سيعلمون مانقوله فى هذا التفسير ، ويعملون به عن اعتقاد وإخلاص وصدق ويقين ، وذلك ما قررناه مئات المرات من أن القيام بأىّ عمل من أعمال الأمة لنظامها فرض من فروض الكفايات ، فهو من جهة عمل نافع للأمّة ومن جهة أخرى سعادة للمرء فى الآخرة بل يقول إمام الحرمين وغيره إن ذلك أفضل من فرض العين لأن القائم بهذا العمل دفع الحرج عن بقية أمة الاسلام .

وأمّة هذا اعتقادها ويقينها لاجرم تكون خير أمّة أخرجت للناس ، فاذا كانت الأمم يعمل أفرادها للجاه والمال مثلا فهاهنا أمم الاسلام يعملون الأعمال العامة تقرّبا لله تعالى ، فيكونون أرقى من جميع الأمم . هذه هى أمّة الاسلام فى مستقبل الزمان . انتهى



جمال العلم . ونور الحكمة . وأزهار الحدائق العلمية . وبهجة القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت المنعم المتفضل الحكيم ، معلم الحكمة ، وملهم كل حشرة ودابة وانسان وملك كريم .

بينما كنت أكتب فى مقالة فى سورة (ق) فى بيان جمال العلم وبهجة الحكمة وأسرار اليقين فى معنى (الم) فى قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وقد استبان بعض أسرار (الم) وأن هذه الحروف فى سورة (ق) لها صلة وثيقة بها فى أوّل ﴿سورة البقرة﴾ وانها فيها مفتاح فتحت به أسرار فى زماننا كانت مغلقة الأبواب ، وأن الشبان فى عصرنا وفيما بعد عصرنا سيفتحون بهذه الحروف خزائن كانت مغلقة على القرون المتأخرة فى أمم الاسلام الذين أغرقتهم مطامع آبائهم فى أحوال هذه الحياة ، ومطامع الأمم الذين يحيطون بهم ، فألهتهم عما يحيط بهم من العلوم كالفلك وعلم النبات والحيوان ، نفرجنا نحن فى الأرض حائرين لاندرى أين نتوجه ؟ فألفينا هذه المفاتيح التى أعدّها الله لزماننا ، فيأنس بها الشبان الأذكياء ، فينالون منها مايريدون ، ويضارعون الأمم المحيطة بهم ، بل يكونون أرقى الأمم ، لأنهم إذ ذاك يكون مايعملون لدنياهم هو عين ما يقرّبهم إلى ربهم ، وهذه مزية لم يسبقها سابق ، ولن يلحقها لاحق ، وقد فصلت هناك المقام تفصيلا ، واستبان من قراءة التاريخ فى ابن خلكان وغيره أن ملوك المسلمين تداولوا هذه الحروف فيما بينهم وجعلوها رموزا فى الكتابات الرسمية ، فأدّت الغرض الشريف ، وحقنت دماء ، وحفظت ممالك ، ولكن لم يفضّ ختام تلك الأسرار من الوجهة الإلهية والنظام الاجتماعى إلا فى زماننا أى عند الحاجة إليها كما استعملها أولئك الملوك فى أغراضهم السياسية ، تمهيدا لما زاولناه فى هذا التفسير من المناهج الشريفة ، والمقاصد المنيفة ، واسعاد الأمم ، وإثارة الهمم ، وطمس معالم التفرّق والانحلال ، وتشييد حصون الوئام ، ورفع بنود الارتقاء والاتحاد ، واستباق الخيرات فى سواء السبيل .

أقول : بينما أنا أكتب ذلك إذ حضر صديقى العلامة الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . فقال : ما أجمل ماوصفت ، وما أحسن ماصنعت ، ولكنى أذكرك بما أبنت فى ﴿ سورة الحجرات ﴾ من تفرّق وانحلال ، واختباط واختلال ، وبهتان وضلال ، وجهل ووبال ، فى الممالك الاسلامية ، وما أحيط بها من كل ضرّ وبلية ، فقد ذكرت أنهم كانوا فى غيهم يلعبون ، وهم فى كل واد يهيمون ، ويقولون مالايفعلون .

فما كادت شمس الذات المحمدية تغرب من سماء الوجود ، وتلاها الشفق بعد الغروب فى أزمان أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ ، حتى عسعس الليل ، وعبس الدهر ، وكلح وجه الزمان وبسر ، وأصبحت الخلافة ملكا عضوضا ، لافرق فيها بين الأمويين والعباسيين والفرس والترك والأندلسيين ، وكل دولة إسلامية هذا شأنها وذلك دأبها ، ولما كان هذا التفسير لم يقصد به مجرّد إرشاد الأمم ، وإثارة الهمم ، بل أريد به مافوق ذلك من إظهار الحكم الالهية ، والنظم الحكمية ، وآثار العجائب الربانية ، أليست هذه الأمم المختلة النظام ؟ فى حكوماتها ، الشاردات فى غيها وشرّها ، خلقا خلقه الله بيده ، فليكن تبيان الحكمة فى ذلك الاضطراب بعد النظام ، والملك بعد الخلافة .

إن النفس توّاقة إلى مناظر أزهار الحكمة فى رياضها ، وإلى ثمار العلم فى حدائقها ، حتى تطمئن إلى حقائق التكوين ، وبدائع الايجاد ، إن الأمم التى وقفت عند ظواهر التشريع ، ولم تعرف السرّ المصون ،

ولا الجوهر المكنون ، فى النظام العام تمسى وتصبح وهى خاملة ، وتصبح ديارها فيما بعد خاوية على عروشها ، و بئرها معطلة وقصرها غير مشيد . إنّ القاصرين على ظواهر التشريع مثلهم كمثل « شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار » ، والذين أدركوا سرّ النظام مثلهم كمثــل « شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها » ، فالأولى كشجرة الحنظل ، والثانية كشجرة النخل . إذا تقرّر هذا فأنا أرجو أن تبين لنا ماالسرّ ؟ ماهذا الخلاف ؟ والتفرّق والانحلال بعد العصر الأوّل ، وكيف ينزل دين من السماء عظيم ، يزلزل الأرض زلزالا شديدا ، ثم يرفع الانسانية أجيالا ، ثم يختفى وراء الحجاب ، وتلبس الأرض رداء الحداد عليه ، وتلبس الانسانية ثوبا قشيبا من مدنية حديثة ، وحاملو هذا الدين نائمون هائمون . فأنا أودّ أن تشرح لنا هــذا المقام ليتحد التشريع مع التكوين ، وتلتئم الحقائق مع الظواهر ، والعقائد مع الفروع ، وهذا به ارتقاء الأمم وسعادتها إلى حين ؟ .

فلما أتمّ ذلك ، قلت له : لقد أجدت فى صوغ عبارات السؤال واصطفيتها بصفاء نفس وجودة قريحة ، حتى تجلت بيضاء نقية للقارئين . فاعلم أيدك الله بالفهم ، وألهمك الحكمة ، وأنار بصيرتك بالعلم ، أن آية (ق) التى ذكرتها : « أفلم ينظروا إلى السماء الخ » فيها الجواب عما تقول . فقال : وكيف كان ذلك ؟ فقلت : إنّ فيها ذكر النبات ، والنبات أنواع مختلفات ، ولكن من نبات قد خفيت منافعه حينا عن البصائر ثم ظهرت فجأة إلى الوجود كما حصل فى زماننا هذا ، فان امرأة افرنجية فى مصر نشرت (قبل أواخر سنة ١٩٣٩ الفرنجية أى قبل ثلاثة أشهر من كتابة هذا الموضوع) فى الجرائد المصرية أنها جرّبت الرجلة المسماة « البقلة الحمقاء » وهى كثيرة فى بلادنا المصرية تقول انها جربتها إذ شربت ماءها بعد أن عصرتها وقد كانت مريضة بالسكر وكان السكر ٦٠ فى المائة ، فأخذ يقلّ حتى شفيت تماما . وما كادت تعلن هــذا فى الجرائد حتى صنعت آلات لعصر الرجلة ، و يبعث للناس ، وأخذ المرضى يفعلون ذلك رجاء الشفاء .

هذا هو الذى تمّ فى أيام كتابة هذا الموضوع فى بلادنا المصرية ، وانما ضربت هــذا المثل المفيد فى علم الصحة بتجربة امرأة أرادت الخير للناس إلا لأجعله نظيرما فى القرآن من العلوم ، فالدين نزل من السماء بقول الله ، ونظام الزرع بفعل الله ، فاذا رأينا نظامه الذى صنعه بيديه تخفى أسراره على نوع الانسان . ينظر الأشجار والزروع ولايفقه منها إلا قليلا ، و يبسم الزهر فى وجوه الناظرين وهو يقول : انظروا إلى جمالى ولكن ما أوتيتم من علمى إلا قليلا ، فهكذا يسمع الناس الكلام الموحى به ، ويبتهجون ببلاغته ، ان كانوا من الأمم العربية ، أو باحترامه وتقديسه ان كانوا من غير الأمم العربية ، ثم يسمعون خطاب الوحى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » و يسمعون أيضا : « ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم » فنوع الانسان على الأرض ليس مقياسا لنظام الطبيعة المنظورة ، ولا لنظام الكتب السماوية المسموعة ، لأن السمع والبصر ليسا يقدران على الحكم فى قول بليغ ، ولا نظام زهر بديع ، بل الحاكم العقل الانسانى ، والعقل الانسانى مغموس فى حمأة الطين ، فهو يعطى من العلم بقدر كما اتفق لهذه المرأة الافرنجية فى « البقلة الحمقاء » وكما يلقى من الفكر لأناس يعيشون فى زماننا و بعده لإدراك بعض أسرار الآيات القرآنية كالمفاتيح الآتى ذكرها فى سورة (ق) كما قدّمناه .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : أنا أفارضك الثناء ، فأنت أثنيت على تنميق السؤال وإيضاحه ، وأنا كذلك بدورى أثنى ثناء مستطابا على الاجابة ، ولكنها ليست بكافية ، وانما علمتنا مسألة طبية جاءت للتنظير والتشبيه ، ولكن المهمّ أن ندرك سرّ اختلاف الأمم الاسلامية التى سبقتنا وقد أوضحتها ، ماسرّ هذا الاختلاف وهذا الجمود الطويل ؟ وما حكمته التكوينية ؟ ولم أستفد من هذا الجواب إلا أن بعض أولى الألباب يلقى إليهم فهم أمور فى الاسلام كما ألقى إلى هذه المرأة فى الطب .

وملخصه أن أمم الاسلام المتأخرة غشى على عقول كثير من أكابرها فغاب عنهم كثير من الحقائق ، و بعضها أخذ يظهر الآن ، أى ان السر" كل السر" إنما هو الاستعداد ، فالاستعداد اذا وقف عند حد محدود بما أحيط به من غواشى الظلم داخلا وخارجا يقف عن الفهم ، إذن الدين فيه السر" المصون ، والجوهر المكنون ، والصراط المستقيم ، ولكن العقول لم تهتد إليه ، وستهتدى الآن وتنظم دول الاسلام . هذا شرح ما أجلته ، فاذن سر" النظام هنا أن الفضائل (وان كانت موجودة فعلا) لاتعطى إلا لمن يستحقها ، فهذا الجواب مع نفاسته مجمل لايشفى الغليل . فقلت : حياك الله و بياك ، فان أبيت ياصاح إلا الافصاح ، فهاأنا ذا ألقى عليك التفصيل بعد الاجمال .

اللهم منك الحول ، ومنك القوة ، اعلم أيها الأخ الوامق للحكمة ، الفرح بها ، المستعد لفهمها ، أن الناس اذا لم يفهموا المحسوسات لايدركون المعقولات ، ومن عجز عن فهم ماأدركته الأبصار فهو عن ادراك ماوراءها أعجز ، ومن كثرت مدركاته البصرية وكل محسوس وعقلها بروية كثرت ماوراءها من علومه الحكمية . فلأشرح الآن لك أيها الذكى" خمسة أنواع من العلوم :

(١) نظام النبات .

(٢) نظام الفلسفة العام .

(٣) نظام الحكومات كحكومتنا المصرية اليوم .

(٤) نظام الديانات العام .

(٥) النظام المجمل للمذاهب الاسلامية .

وكل ماسأفصله فى هذا المقام فهمته مما فتح بمفتاح : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

فهذا الذى ذكرته الآن هو نفس هذه التبصرة وهو الذكرى ، فانا اذا فكرنا فى أمر النبات وجدناه يحل" هذه المشاكل كلها . والنبات منظور ، وهذا المنظور يحل" لنا مشاكل المسموع والمعقول . فقال : إن ما تذكره الآن أشبه بالألغاز ، والتعريف يجب أن يكون أوضح من المعر"ف ، فأين الايضاح هنا ؟ فقلت : خلق الانسان من عجل . ههنا خمسة فصول :

الفصل الأول فى النبات

إن فى النبات فاكهة وحبا وخضرا للانسان ، وفيه حشائش وتبن للحيوان ، وفيه أغذية لأدنى الحشرات ولكل حيوان ، وكم فى الأرض من فضلات نباتية وحيوانية عفنة قذرة يعيش عليها أدنى الحيوان من علق ودود ونحوها من المخلوقات ، إذن النبات يغذى أشرف حيوان يكاد يلتحق بالملأ الأعلى وهو الانسان وأخس حيوان يكاد يلتحق بالطين اللازب وهو الدود ، و بينهما درجات لا يكاد يحصرها العد" ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، فلا الدود يبغى فوق مالديه ، ولا الانسان يتنزل عما أمد" به ، فهذه الحيوانات اقتسمت النبات وأكلته ، وكل يسعى لطلب رزقه فيما استعد" له وله خلق ، وهو معرض عما وراء ذلك ، وهو بذلك فرح سعيد ولم نجد من هذه الأنواع من الحيوان أحدا يلقى نظرة عامة على جميع النبات إلا بعض خواص الانسان .

الفصل الثانى فى نظام الفلسفة العام

قلنا فى الفصل السابق ان الدود قد يعيش فى فضلات النبات والانسان يأكل منه ، وأنهما هما وما

بينهما من أنواع الحيوان مقتسمات أنواع النبات ، وقلنا ان هـذا الانسان وحده هوالذى فكرفلاسفته فى النظام العام لهـذا النبات . إن المفكرين فى النبات أيضا ، أى المذكور فى حيز (الم) فى ﴿ سورة ق ﴾ (وهى الحروف التى هى مفتاح من مفاتيح العلوم الآتى إيضاحها هناك) يكونون فرقا شتى ، فنهم من يبحث فى خشبه للصناعة ، ومنهم من يبحث فى شيرجه وزيته للأكل ، أوحبه للتجارة ، أومنافعه للطب ، إلى غير ذلك من مباحث لايستطاع حصرها إلا فى مجلدات ، واذا رفعنا طرفنا إلى مافوق ذلك وجدنا هـذا النبات إن هو إلا نوع واحـد من أنواع الوجود ، ولـكل نوع علماء اختصوا به كما رأيت لـكل طائفة من النبات حيوانات خاصة تتعاطاه وتتغـذى به ، فقوم للنظر فى عموم النبات من حيث تـكوينه ونسبته إلى الحيوان ، وقوم يدرسون نفس علم الحيوان ونسبته إلى النبات ، وآخرون يدرسون علم المعادن ، وآخرون يدرسون الطبائع العامّة للعوالم كالمغناطيس والضوء والـكهرباء والحرارة والصوت ، وهـذه طبائع عامّة لاتختص بقسم من أقسام الطبيعة ، وهذا كله فى العالم الأرضى ، وهناك طوائف يرتفع بعضها إلى العلويات ويكونون فرقا شتى ، وأعلاهم من ينظرون نظرا كليا فى تركيب النجوم والشموس والأقمار والسيارات والأرضين وذوات الأذناب والمجرّات والسدم ويحصرون العوالم حصرا عاما . وآخرون فوق ذلك يحصرون العالم العلوى والسفلى بعدأن يكونوا قد أحكموا العلوم الرياضية بقدرطاقتهم ويفكرون فى النظام العام . هذه نظرات أكابر الفلاسفة فى الدنيا الذين مثلهم بالنسبة لأصحاب العلوم الجزئية فى العوالم السماوية والأرضية كنسبة نوع الانسان بالنسبة للحيوانات الأرضية التى قاسمته الأغذية فى المخلوقات النباتية ، فكما كان الدود مشاركا للانسان وللحشرات وغـيرها فى اقتسام الأغذية النباتية ، واختص الانسان بالبحث العام فى النبات ، هكذا المفكرون فى الأمم اقتسموا النظر فى العوالم العلوية والسفلية ، واختص أكابر الحكماء بالنظر العام فى العوالم كلها ، وانتقلوا منها على جهة اليقين والمسرّات والبهجة إلى صانع العالم ، وتعلقوا بالصانع ونسوا الصنعة وراءهم ، وقرءوا : « وأنّ إلى ربك المنتهى » .

اذا فهمت هذا أيها الصديق فقس عليه نظام الحـكومات ، وأضرب لها مثلا نظام حكومتنا المصرية ، لأنه أقرب إلينا فى التمثيل ، وهذه الأمثال كلها جعلناها مقدّمة لما تريده أيها الأخ الذكىّ من إدراك السرّ فى التناقض والاختلال والاختلاف الواقعات فى القرون الاسلامية الخالية حتى تلتئم العقائد والنظام العام مع التشريع الظاهرى كما طلبته أيها الأخ العليم ، فهذا تفصيل الـكلام على :

الفصل الثالث : نظام حكومتنا المصرية

إن حكومتنا المصرية نراها مكوّنة من :

(١) قرية لها عمدة ومشائخ وخفراء .

(٢) فمركز مكوّن من قرى .

(٣) فمديرية مكوّنة من مراكز .

(٤) فوزارة الداخلية المكوّنة من مديريات .

(٥) فالوزارة العامّة المكوّنة من وزارات ، وهذه الوزارة فيها وزارات مثل الداخلية والخارجية والحقانية والأشغال والزراعة والمالية ، وفيها مصالح كثيرة . كل هذه تبع للوزارة العامّة ، وكل جماعة فى وزارة مكبون على عملهم . لايعرفون إلا قليلا عن عمل غيرهـم فى الوزارات والمصالح الأخرى كما لايعرف حيوان البرّ عن حيوان البحر إلا قليـلا ، وكما لايعرف عالم الحيوان الأرضى عن عالم الـكواكب إلا قليلا .

(٦) وفوق هذه الوزارة القوّة العليا التى تولى تلك الوزارات التى تستند إلى رجال دار النيابة الذين تصطفيهم الأمة للقيام بتمثيلها .

فأنت ترى أيها الذكىّ أن كل طائفة تقوم بعملها وتعرض عما سواه ، وإذا خالفت ذلك اختلّ النظام كما تقسم أنواع الحيوان من أقلها وهو الدود مثلا إلى أعلاها وهو الانسان أصناف النبات ، ولكن فريق واحد يكون نظره عاما فى الأمّة كلها وهو القوّة التى تنظر فى شؤون الوزارات كلها ولاتهتمّ بجزئيات الأعمال بل أعمالها عامة ، وليس لها أن تتنزل عن الكليات كما اختص نوع الانسان دون سائر الحيوان بالنظر العام فى النبات المشترك بينه وبين الحيوان ، وكما اختص الحكيم العظيم فى نوع الانسان بالنظر العام فى الوجود وان شاركه غيره فى النظر فى الجزئيات العلمية ، وقس على حكومتنا المصرية حكومات العالم المتحضر فهذا مثال له مجمل ، وهذا توضيح وشرح لما بعده وهو نظام الديانات العام فى الأرض .

الفصل الرابع فى نظام الديانات العام في الأرض

اعلم أن فى الأرض من أنواع الديانات مايختلف باختلاف العقول والأفهام اختلافا كاختلاف أنواع النبات باختلاف أصناف الحيوان فى التغذية والانتفاع ، فكما رأينا من بقايا النبات المتعفن المنبوذ فى الأرض والبرك والمستنقات مايتعاطاه الدود وأخسّ أنواع الحشرات والعلق ، ورأينا منه ماهو فاكهة وحب لنوع الانسان الذى يكاد بعضه يكون من نوع الملائكة الكرام ، هكذا نرى من الديانات ماتنزل إلى دركات الانحطاط لغباوة معتنقيه وانهم فى نوع الانسان أشبه بالدود فى نوع الحيوان ، فأعوزهم ذلك إلى دين يوائمهم ويسدّ حاجاتهم ، ويكون ذلك الدين على قدرهم لايتجاوز ماتقبله نفوسهم ، وتمتلئ به أفئدتهم ، وهم به فرحون .

ومثال ذلك ماستراه فى ﴿ سورة البينة ﴾ فى الجزء الأخير من القرآن ، إذ ترى هناك فى حديث رئيس البعثة الأزهرية الصينية أن عدد الديانات فى تلك البلاد خمسون دينا ، وعدد السكان (٤٠٠) مليون انسان ومن الديانات عبادة الجبال والنور والنار والدواب المختلفات ، وكذلك ترى فى تفسير نفس تلك السورة أن فى الحبشة من يعبدون الأشجار ويقدّسونها ، وبعضهم يقدّس الطبيعة ويعبدها ، وترى الذين يعبدون الأشجار يقومون حولها فى كل عام ، ويقومون بواجبهم الدينى ، وكيفية ذلك أن يدهنوا جذوعها بالسمن ويقفون حولها وهم يرقصون ، ويغنون مختلف الأغانى ، ويقصد أهالى قبيلة (لادرمون) بعض الجهات التى تكثر فيها الأشجار ، ويتناولون حولها بعض المشروبات ، كالجعة واللبن وشراب العسل وغيرها .

هذا قلّ من كل من ديانات هذا الانسان . ماهذه الديانات المختلفات فى عالم الانسان إلا نماذج مطابقات لمختلف العقول والعواطف والأميال على النحو الذى اختلفت فيه أغذية الحيوان فى النبات من دود يتعاطى القاذورات ، ومعه حشرات كذلك ، إلى أنعام تأكل الأب ، إلى الانسان يتعاطى الفاكهة والحب ، وما مثل دين الاسلام إلا كمثل النوع الانسانى فيما مثلنا ، إذ نظر نظرة عامة فى جميع النبات فبحثه وفكر فيه وإلا كمثل حكماء الأمم الذين نظروا نظرة عامة فى أنواع العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية وجدّوا فيها ، فاتخذوا كليا من الجزئيات وكلا من الأجزاء ، ونظروا نظرة عامة وتوجهوا به إلى صانع العالم ، وأخذوا يشوّقون الأمم إلى الوحدة العامة ، والنظام العام ، والى صانع ذلك النظام ، وهذا هو مقصود دين الاسلام ، فهو لايحصر المتدين فى مصنوع من المصنوعات وان كان فى كل مصنوع سرّ من أسرار الربوبية ، ولكن دين الاسلام يقول : « فأينما تولوا فثمّ وجه الله » ، فهذا دين عام يعوزه مفكرون يقومون به من نوع الانسان ، تكون نسبتهم إلى هذا النوع الانسانى كنسبة الانسان إلى الحيوان من حيث النظر فى أمر النبات من حيث عمومه لامن حيث اقسام أصناف الحيوان لأصنافه المختلفة تغذية وتمتعا وحبا ، بل يكون نظرهم عاما لمنفعة العموم ، واذا ظهر هذا السرّ المكنون فى هذه الفصول الأربعة فقد وصلنا إلى المقصود من هذا المقال وهو :

الفصل الخامس في النظام المجمل للمذاهب الاسلامية

لاجرم أنك أيها الذكى بأدنى التفاتة لما مضى تعرف سر المذاهب الاسلامية التى بدراستها نصل إلى مقصودنا من هذا المقال، فما هذه المذاهب الاسلامية؟ هى الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، ومذاهب الشيعة المختلفة، والزيدية، والاباضية، وفرق مختلفات متفرقات، وكل امرئ اتبع مذهبا من هذه المذاهب أكب على عمله، مخلصا فيه، واثقا به متقربا إلى الله، قائما بعمله على الوجه الذى أراده الله له، فترى الشافعى مكبا على قراءة الكتب المقررة مثلا فى الجامع الأزهر، كابن قاسم، وكتاب الخطيب الشربينى على متن أبى شجاع، والتحرير، والمنهج، وأمثالها، وقس على ذلك بقية المذاهب، وكل هذه مستخرجات من الكتاب والسنة والاجماع والقياس، وتراهم يستدلون بالأحاديث المتنوعة والأدلة المختلفة، وكل طائفة تتبع أقوال أئمتها وان خالفوا أقوال غيرهم فى الفروع التى لاضرر فيها على الاصول، وبدوام ذلك أجيالا وقرونا أصبح كل مذهب كأنه عقيدة راسخة، وان كانوا يتوارثون عن الآباء والأجداد، احترام المذاهب الأخرى كابرا عن كابر، لاجرم أن هذه المذاهب ليست إلا جزئيات لهذا الدين الكلى، فبينما ترى الشافعى والحنبلى والزيدى والامامى ونحوهم يدرسون شروط الصلاة وأركانها، ونواقض الوضوء، وأركان الحج، والبيع الصحيح والفاسد والطلاق والرجعة، والدعاوى والبينات، والشركة والاجارة ونحوها.

تراهم لايفكرون، ولن يفكروا، بل لن يخطر بأذهانهم النظام العام لهذا الدين الاسلامى الذى جاء لانقاذ الانسانية كلها من شر الملوك الظالمين، والمسلطين القاهرين، ذلك أن كل فريق من هؤلاء المتعلمين المخلصين لايعدو أن يكون مثله كمثل عمدة قرية من قرى مصر، أوشيخ من مشايخها، أومأمور من مأمورى المراكز المصرية، أومدير من المديرين، أو وزير من الوزراء، ولاجرم أن كل واحد من هؤلاء ليس له أن يتجاوز وظيفته فى الحكومة المصرية، هكذا هؤلاء العلماء قد وضعوا فى مراكز خاصة فعليهم أن يقوموا بها حق القيام، وليس من حقهم عادة أن ينظروا نظرة عامة فى الأحوال العامة للأمم الاسلامية فيكونوا فى أمم الاسلام أشبه بالقوة المدبرة فى الحكومة المصرية التى تولى الوزراء، وتعطى كل ذى حق حقه، وتنظر نظرة عامة فى المصالح المصرية؛ أويكونوا أشبه بالانسان فى مثل النبات، إذ يختص من بين الحيوان بنظرة عامة لنظام النبات، أوكمثل دين الاسلام إذ جاء لنظرة عامة فى جميع الكائنات، هكذا كانت ولاتزال أحوال أمم الاسلام إلى وقتنا هذا، ولاعيب على الناس فى ذلك، فلالوم على حنفى ولاشافعى ولازيدى ولامالكى فى هذا القصور، لأنه قصور موروث من أيام أن اضطربت الأمة اضطرابا شديدا، وزلزلت زلزالها، وقال المسلمون: مالهذه الأمة مالها، فرجعت الأمة إلى بعض جاهليتها، وأحيت ما مات من عوائد العصبية والنسب وإرجاع الخلافة للأنساب وحدها، وأخذ الأموى يناوئ العباسى، والعباسى يناوئ العلوى، ويناوئ جميع هؤلاء الأمم الأخرى من ترك وفرس وكرد متقلبين.

وكل يدّعى وصلا لليلى ＊ وليلى لاتقر لهم بذا كا

أنزل الله هذا الدين على محمد صلى الله عليه وسلم وقال: «وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى الخ». وقال: «ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

هذه المزية هى التى قامت بها النبوة خيرقيام، فما كاد عصر النبوة وأيام الصحابة بعدها تمر حتى عصفت عاصفة الأنساب، ورويت لها الأحاديث، وقامت الضجة، واعجبا! ليست الخلافة للمال، وكل خليفة يجمع المال ولا يكون كأبى بكر وعمر وعلى رضى الله عنهم، فهوليس خليفة، لأن هذا ليس على طريقة ديننا،

شرب الخلفاء الخمر، لبسوا الحرير، كنزوا المال، هل هذه خلافة؟ صدق رسول الله، فهي ملك عضوض لاعجب اذا رأينا أبا حنيفة يضرب، ومالكا يهان و يؤذى، واستمرّ اذلال العلماء فى أعصارخلت، ولم يكد أحد يرفع بصره إلى النظر فى الأمرالعام الذى أعدّ له هذا التفسيرحتى يزجّ فى السجن و يؤذى و يهان ودامت الأمة على ذلك أجيالا وأجيالا، وأرباب المذاهب فى أعمالهم دائبون مخلصون إذ لامخلص لهم ولا منفذ إلى المستوى الأعلى الذى فيه ينظرون نظرة عامّة فى دين الاسلام، وكانوا كلما جاء المسلمين عالم بما لاتهوى أنفسهم استكبروا ففريقا كذبوا وفريقا يقتلون، ومنهم من كان يكتب ماشرحناه الآن تحت ستار التصوّف، وآونة تحت ستارالفقه كما نرى منه شذرات فى كتب الفقه فى المذاهب الاسلامية المختلفة لأمم الاسلام، ذلك هو الحاصل فى أمم الاسلام إلى هذا اليوم .

نظرات حكماء الاسلام الذين أعدّهم الله للمسلمين بعد ظهور هذا التفسير

إنّ هؤلاء الذين منهم من هم اليوم أحياء يدرسون، ومنهم من هم فى بطون الأمهات، أوفى ظهور الآباء، فهؤلاء سيكونون مستنيرين بالنور الإلهى، وذلك بدراسة العلوم المحيطة بنا فى الأرض وفى السماء، وهؤلاء تشرق نفوسهم بالأنوارالالهية، لأن هذه العجائب مملوءة نورا إلهيا، و بالبحث فيها يزدادون قوى وعلما وحكمة، وتشرق عقولهم، فهؤلاء بعدتلك الدراسة ينظرون فى دين الاسلام فيقولون : ماهذه المذاهب إلا أنوار جزئية لدين كلى، وهذا الدين الكلى يعوزه حكماء يفكرون فيه فيكونون للمذاهب المختلفات أشبه بالانسان المختصّ بالنظر العام فى النبات مع مشاركته للحيوان فى التغذية بالنباتات، وكالقوّة الحكومية المستمدّة من نوّاب الأمة ومجلس الشيوخ، والأعيان التى تخصص لكل وزير عمله، وكالحكيم الذى ينظر للعلوم كلها نظرة عامّة، وقد شارك علماء الحيوان والنبات والفلك الخ وارتقى عليهم، وكدين الاسلام الذى جاء ومقصده عام لايتقيد بشجر ولابحجر ولا بكنيسة : « فأينما تولوا فثمّ وجه الله » . فهذه الطائفة هى التى تجعل لأمم الاسلام وحدة عامّة للعالم كله، لأن هؤلاء يقولون للمسلمين : « أيها المسلمون : إن الخلافة والرئاسة ليست للمال، إنّ هذا خطأ محض وجهل فاضح، ليس هذا ديننا : قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلاذكرى للعالمين . إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا . واذا كان اطعام رغيف لمسكين يحتاج إلى اخلاص بلاجزاء ولاشكور كما نرى نورالشمس يصل إلى أهل الأرض، هكذا يجب أن يكون خليفة المسلمين، فان كان غير ذلك فهوكاذب، الخليفة ليس هو ذلك المترف المنعم . كلا . فاما أن يكون كأبى بكر وعمروعلىّ وعثمان، وإما لا، نحن لانطلب خليفة محجبا ولامنعما، إن هذه جهالة أعظم الجهالات هنالك نهدّ كل مابناه الآباء من الخلاف والشجار الذى شجر بينهم وهم كانوا مجتهدين فيه، فلهم جميعا أجر فيما اختلفوا فيه، لأنهم كانوا فيه مخلصين، وكل منهم كان يعتقد أن الحق فى جانبه، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، ذلك هوتحقيق الحق، وهذا هوالجواب عما سألتنى عنه أيها الصديق، فهذه الأمم الاسلامية لما كانت فى مبدأ أمرها لم تطق صبرا على الأخلاق الشريفة النبوية والعمرية والبكرية والعلوية والعثمانية، فرجعت القهقرى درجة فدرجة، فلما علم الله منهم ذلك، وأنهم لايحملون الامانة كما أدّيت إليهم، ولايتورّعون عن ذلك سلط الله على العرب الفرس فدخلوا بينهم والترك وغيرهم، وقال : أيتها الأمم : إن العرب قد أخلوا بشروط النبوّة فادخلوا معهم وفرّقوا جمعهم، لأنهم لم يجعلوا الخلافة بالشورى، بل جعلوها للعصبية، فاذا كان الأمر كذلك فانى أذنت للأمم أن يزاحموهم « جزاء وفاقا » ، فدخل الفرس فزاحموهم، ودخل الترك كذلك، ثم استبدّوا بهم، ذلك هوالعدل الالهى، وهانحن أولاء الآن وأنا أكتب هذا وأنامن النسب العربى الصميم، أقول هذا هوالتاريخ الاسلامى مجملا، وهذا كان شأننا، وهؤلاء الحكماء الآتون بعدنا سيصلحون

ما أفسده الزمان ، وأتى به الحدثان ، وسيقولون للأمم الاسلامية كنى كنى :

مامضى فات والمؤمل غيب * ولك الساعة التى أنت فيها

فقال صديقى بعد ذلك : هذا حسن وكيف بقى هذا إلى هذا الزمان ، وهذه نيف و١٣ قرنا ، وهى زمان طويل ، فلماذا تأخر هذا الاصلاح إلى هذا الزمان ؟ فقلت : أيها العزيز : اعلم أن هذا العالم فيه أمران اثنان أحدهما يعمل فى ثانيهما ، فالعامل هو العقل العام المسلط على ثانيهما وهى المادة التى ماهى إلا حركات فى خيال الكون المسمى بالأثير ، وإنما سميناه خيالا لأنه يشبه خيالنا نحن ، فخيالنا نحس فيه بقوة عاقلة منظمة والحركات فى الأثير المنبث فى هذا الفضاء الذى عبرنا عنه بالخيال هى هذه المادة ، فالمادة مجموع حركات منظمات يتصرف فيها عقل ، وأظهر هذه المادة الشموس والأقمار والنجوم الثوابت والسيارات ، تشرق الشمس على الآفاق فيكون نبات ، وهذا النبات يأخذ فى النمو أمدا على مقدار ماحدد له ، وبعد نصبه وتعبه تظهر فيه أزهار جميلة تحكى أنوار المشرقات وتستمد منها الضوء ، بل تتجه للشمس عند طلوعها وعند مغيبها اتجاها ما ، هكذا تلك العقول الكلية المدبرة لعوالمنا الأرضية تربى عقولا جزئية فى أرضنا كالعقول الاسلامية ، ولكن زهر تلك العقول لايأتى إلا فى حينه ، ولن يتعدى طوره ، تقديما وتأخيرا ، فاذا رأينا أممنا الاسلامية اليوم قد بزغ فيها فجر الاصلاح ، وأخذت أزهار العقول الاسلامية فى نباتها تضىء للملأ فهذا هو الناموس العام ، فلازهر لشجر إلا بعد حين يناسبه ، وهذا الدين لم يمض له إلا ١٣ يوما من أيام الله الصغرى وهى القرون بعد أن استعدت الأمة لظهور مصلحين هم أزهارها كما لم يزهر النبات إلا بعد استكمال قواه فى أمده المعلوم .

هذا جواب ماسألتنى عنه أيها الأخ فى أمر أمم الاسلام من حيث خلاف الأولين وشجارهم ، والغفلة المستحكمة ، ثم اليقظة الحديثة ، ثم الاصلاح الذى بزغ فجره ، وماحكمة الله فى ذلك ؟ وماسر النظام ؟ .

فقال : لم أكن والله لأتوقع هذا الكشف والايضاح ، ولم يكن ليخطر لى أن أنال هذا الفتح المبين ، ولكن مانوع التعاليم التى تختص بها طائفة المصلحين فى أمم الاسلام ؟ فقلت :

بهجة وجمال فى ذكر التعاليم الخاصة بالمصلحين من حكماء الاسلام فى مستقبل الزمان

اعلم أيها الصديق أن هذه الطائفة فى أمم الاسلام مثلها كمثل من ذكرناهم فى الأمثلة السابقة ، بل كل ماسأقوله الآن يستنتج مما قررته لك الآن ، فهم كالملوك الذين يستندون على الشورى بالنسبة لوزرائهم ، وكالحكماء الكبار بالنسبة لعلماء العلوم الجزئية ، وكالأنبياء بالنسبة للمجتهدين كأبى حنيفة والشافعى ، ومجتهدى الشيعة وهكذا ، وكالانسان بالنسبة للحيوان فى مثال الاغذية النباتية والنظرة العامة فيها ، فهؤلاء علومهم تكون موجهة للكليات كما ترى فى القرآن : إن القرآن والنبوات موجهان للامور العامة ، ولو أن النبوة اختصت بجانب دون جانب من العلوم لم تكن نبوة ، بل هذا الاختصاص لطوائف يخلقون تابعين للنبوة ، ولقد جاء فى كتاب « الاتقان ، فى علوم القرآن » فى الجزء الثانى فى صفحة ١٧٦ ومابعدها مانصه :ـــ

« قال ابن تيمية فى كتاب ألفه فى هذا النوع : يجب أن يعلم أن النبى ﷺ بين لأصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : « لتبين للناس مانزل إليهم » يتناول هذا وهذا ، وقد قال أبوعبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا اذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا مافيها من العلم والعمل ، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا ، ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة . وقال أنس : كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جد فى أعيننا (رواه أحمد فى مسنده) وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين (أخرجه

فى الموطأ) وذلك أن الله قال : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته » وقال : « أفلا يتدبرون القرآن » وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لايمكن ، وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا فى فنّ من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحونه ، فكيف بكلام الله الذى هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم ودنياهم ؟ ولهذا كان النزاع بين الصحابة فى تفسير القرآن قليلا جدا ، وهو وان كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم ، ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة ، وربما تكلموا فى بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، والخلاف بين السلف فى التفسير قليل ، وغالب مايصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوّع ، لا اختلاف تضادّ ، وذلك صنفان : أحدهما أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى كتفسيرهم الصراط المستقيم بعض بالقرآن أى اتباعه ، وبعض بالاسلام ، فالقولان متفقان ، لأن دين الاسلام هو اتباع القرآن ، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما أن لفظ صراط يشعر بوصف ثالث ، وكذلك قول من قال هو السنة والجماعة ، وقول من قال : هو طريق العبودية ، وقول من قال : هو طاعة الله ورسوله ، وأمثال ذلك ، فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة ، لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها . الثانى : أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع ، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود فى عمومه وخصوصه ، مثاله مانقل فى قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا » الآية ، فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات ، والمنتهك للحرمات . والمقتصد يتناول فاعل الواجبات ، وتارك المحرّمات ، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرّب بالحسنات مع الواجبات ، فالمقتصدون أصحاب اليمين والسابقون السابقون أولئك المقرّبون ، ثم ان كلا منهم يذكر هذا فى نوع من أنواع الطاعات كقول القائل : السابق الذى يصلى فى أوّل الوقت ، والمقتصد الذى يصلى فى أثنائه ، والظالم لنفسه الذى يؤخر العصر إلى الاصفرار ، أو يقول : السابق المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد الذى يؤدّى الزكاة المفروضة فقط ، والظالم مانع الزكاة » انتهى ما أردته من كتاب « الاتقان ، فى علوم القرآن » والحمد لله رب العالمين .

***

وقد أطال فى ذلك صاحب الاتقان ، ونحن نكتفى بهذه الشذرة استدلالا على ما أردناه وهو أن هذه الطائفة آراؤها عامّة موجهة لاسعاد المجموع بما هو عام ، فأما الفروع فلها شأن آخر ، إذن سلف الأمة الذين شادوا مجدها لم يكن نظرهم محصورا فى الجزئيات كما هو شأن جميع المذاهب الاسلامية فى الأعصر المتأخرة ، فانهم أفرغوا جهدهم فى استقصاء الفروع ، ونسى أكثرهم النظام العام الذى كان يبثه النبىّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى تعليمهم ، أفليس هذا من العجب ! أوليس من العجب العجاب أنهم كانوا اذا تعلموا من النبىّ صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا مافيها من العلم والعمل كما قدّمناه هنا قريبا ، ويقولون : « تعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا » ، وقد كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة ، وانظر كيف يقول أنس : « كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فى أعيننا » ، وكيف يقيم ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ، وكيف يقول صاحب كتاب الاتقان : « إن كتب الطب والحساب تشرح وتفهم فكيف بكتاب الله تعالى ؟ » .

عجب وألف عجب يارب ! إذن ماجاء فى هذا التفسير موافق ومناسب لما كان عليه الصدر الأوّل ، إذن هذه سنة اسلامية جيلة ، فاحمد الله على العلم والحكمة ، إذن الفكرة العامة وحب العلم ، وحب الله ، وحب الأمة ، نتائج هذا القرآن ، وهو المقاصد العامة التى يبثها هؤلاء المصلحون الآن فى أمم الاسلام .

آراء (چون راسكن)

المولود سنة ١٨١٩ المتوفى سنة ١٩٠٠

أفلا تعجب أيها الذكى من علماء أوروبا : أولئك الذين شربوا من مناهل علوم آبائنا كيف يقولون ، هذا ، راسكن يقول فى قطعة تحت عنوان ﴿ التعليم الحقيق ﴾

« ان التعليم سواء أكان لأدنى الطبقات أوأعلاها لاعبرة فيه بما كثر منه أو قل على شريطة أن يكون مغريا للمتعلم على الاكباب على العلم ، وأن يعرف كيف يدير حركة أعماله ويتقنها الخ » اه .

وأوضح منه وأصرح وأنسب لموضوعنا قول غيره تحت عنوان « تعليم الأطفال »

« ان مقاصد التعليم الهامة تنحصر فى توجيه همة المتعلم الى الاكباب على القراءة والفهم » ثم قال : « كما أننا لانتعاطى جميع مايعوزنا من الطعام طول النهار وقت الصباح ، هكذا لاتحمل أذهاننا مشاق تحصيل جميع العلوم فى صباح الحياة وأول العمر : بل العمر كله زمان مهيع لتحصيل العلوم ، ومن ذا الذى يعدّ الطالب لذلك ، ويحدث فى قلبه غراما وعشقا للتحصيل أمد الحياة الا الاساتذة المعلمون والمدرسون الصادقون الخ » .

فهذان الرأيان مجمعان على أن الغرام بالتحصيل ، والولوع بالعلوم هوالذى يبعث فى الأمم رجالا يكونون مصابيح يضيئونها ، وقناديل ينيرون سبلها ، وكواكب فى دجنات الظلمات ، وحنادس دهر الدهارير ، مع معرفة مايعملون ، وادراك كنه مايزاولون .

ضرب مثل لحكماء الأمم الاسلامية فى المستقبل بيعسوب النحل

(١) قال فاضرب لى مثل هؤلاء المصلحين فى أمم الاسلام بعدنا الذين يصلحون ماأفسدته يد الأيام وحوادث الدهر ، ويعلمون أمم الاسلام كيف يصلحون بين طائفتين من المؤمنين اقتتلوا ؟ وكيف يقومون بالعمل بآية « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ويصرفونهم عما وقع فيه أباؤهم من الشجار على الخلافة والامارة ، وان ذلك انما جعله الله تجربة يحترس من مثلها الابناء فلا تكون الممالك المتحدة ولا اليابان ولا الصين ولا ألمانيا أولى منهم بالاتحاد والاجتماع وترك الشجار على عرض الدنيا الزائل ، وان كان للآباء فى ذلك تأويل ، وهم جميعا ناجون ، المخطئ منهم فى اجتهاده ، ومن هو على صراط مستقيم .

(٢) ثم ماعلامة هؤلاء المصلحين : فقلت . انما مثل هؤلاء الذين يأتون بعدنا من حكماء أمم الاسلام كمثل الخشرم : فقال ؟ وما الخشرم : فقلت . يعسوب النحل وهى الملكة التى تقود الآلاف المؤلفة من النحل فى الخلية ، فقال : وما المناسبة بين المشبه والمشبه به : فقلت لعلك اطلعت فى خلايا النحل على تلك الاشكال المسدسات المنتظمات الملتئمات المجتمعة معا . قال نعم اطلعت ، فقلت وهناك ترى من تلك الاشكال المصنوعة من الشمع ماملئ عسلا ، ومنها ماجعل منزلا لبيض النحل يربى فيصيرذكورا للنحل أو يصير نحلا عاملة (انظر هذا المقام فى سورة النحل ، والاشكال هناك مرسومة موضحة) وهناك أيضا ترى منازل أخرى ممتازة بيضاء وهى قليلة بالنسبة لغيرها ، فهذه البيوت تربى فيها تلك الملكات أواليعاسيب أوالخشارم ، فترى الملكة تأمر أن تغذى الذرية العاملة والذكور بعسل معتاد : أما اليعاسيب الصغار فانك ترى عسلهن أنقى وأجل وأصفى : قد اصطفاه النحل من مواد خاصة حتى تخرج اليعاسيب أوالملكات ذوات أجسام قوى وغرائز أصفى فتدير

الخلية كلها وتكون حفاظا ونورا للجميع هذا فى الممثل به : أما الذى ضربنا له هذا المثل ، وهم المصلحون فى أمم الاسلام المستقبلة فانهم طائفة نسبتهم فى القلة الى أمم الاسلام كنسبة اليعاسيب الى الآلاف المؤلفة فى الخلية الواحدة ، وهذه اليعاسيب عند بلوغهن سنا معلومة يتقاتلن ومن غلب فهو القائم بنظام هذه الدولة النحلية الصغيرة ، وهذه الطائفة الاسلامية التى ضربنا لها هذا المثل يقرءون من العلوم أجلها ويضربون فى كل علم بسهم ، وتكون تلك العلوم أغذية لنفوسهم كما اغتذت الملكات النحلية بأنواع ماجناه النحل من رحيق الزهر الجميل ، وهذا التشبيه حق ، فان العلوم زهرات هذه الدنيا وثمراتها ، والرحيق المختوم المخبوء فى تلك الزهرات هو محاسن نظام هذه الدنيا الجميل ، وحب صانع العالم ، وحب الامم الانسانية ، وارتقاء النفس عن السفاسف وشوق النفوس ، وعشقها للانسانية ، ورقيها وسعادتها ، فهذا هو الرحيق المختوم المخبوء فى زهرات هذه الدنيا ، وزهرات هذه الدنيا : هى العلوم والمعارف .

فما مثل العلماء المعتادين فى الامم الذين أغرموا بعلوم اللغات كعلوم اللغة العربية الاثنى عشر ، وعلوم اللغات الأخرى ، أو بعلوم خاصة من رياضية أوطبيعية أوفرع من فروعها أوصناعة من الصناعات المتفرعة عليها أو بعلم القانون فى أى أمة من الامم أو بعلوم ظواهر دين من الديانات . أقول مامثل هؤلاء الا كمثل النحل العاملة فى خلايا النحل اللاتى تتلو عند رؤيتها « وما منا الا له مقام معلوم » فالكل منها عمل خاص ، وأعمال الخلية موزعة عليها توزيعا عادلا ، والملكة رباط الجميع ، فهؤلاء النحلات كلهن اقتسمن أعمال المملكة، وغذاؤهن وهن أجنة ليس من العسل المصفى : فهذا الغذاء غيرالمصفى فى الصغر مناسب لأعمالها عند ادراكها : فالعمل فرعى والغذاء غير مصفى : أما اليعسوب فغذاؤها مصفى ، وعملها عام للجميع .

فاذا رأينا علماء اللغة أو الفقه أو الرياضيات أو صناعة من الصناعات ، فان هؤلاء كالنحل القائمات بأعمالهن فى الخلية ، واذا رأينا المغرمين بالحكمة العاشقين للعلم الذين يلمون بجميع أطراف هذه العلوم ويختصون هم بالمثل الأعلى قلنا هؤلاء هم حكماء هذه الأمة القائمون بتدبيرها بعدنا ، المجدون فى اصلاحها : هذا جواب سؤالك الأول .

أما علاماتهم فأقول : ان لهم « علامتين : العلامة الأولى » تؤخذ من الجواب الأول ، فهم المغرمون بجمال هذه الدنيا من العلويات والسفليات ، السابقون لكل علم ولكل فن ، المكبون على صفوة العلوم المحبون لصانع العالم ولعباده الوالهون بأمم الاسلام أن ترقى .

« العلامة الثانية » أن الناس يصغون اليهم ، ويميلون الى كلامهم ويستمعون لهم ، وتقبل القلوب عليهم ، ويعمل العقلاء بأقوالهم وآرائهم بشوق وتوق : فهاتان هما العلامتان . فقال : حسن ولكن أى الكتب يقرؤها الانسان حتى ينال هذه الدرجة الرفيعة ؟ فقلت : السموات والأرضون والبحار والأنهار والسحب والجبال ، هذه هى الكتب التى يقرءونها ، وكتاب الله الدال على ذلك . فقال : هذا أجل ان هذه المذكورات مبذولة للناس جميعا ولكن أكثر الناس لايعلمون .

فقلت : فان أردت ياصاح إلا التخصيص فانى أقول : إن هذا التفسير وماماثله من الكتب العامة لمؤلفى الاسلام فى زماننا وفيما قبله مزارع تنبت فيها وتزهر عقول وعقول ، والاستعداد هو الذى به يمتاز الجيد من الردىء ، والخبيث من الطيب ، والسابق والمقتصد ، والاول والآخر ، « وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون . وربك يعلم ماتكن صدورهم ومايعلنون » فاذا رأيت أيها الصديق أمثال الخلفاء الراشدين وسداد حكمهم وبارع حكمتهم وماأوتوا من ذكاء وفطنة ، حتى قال بعض حكماء أوروبا فى عصرنا وقدنا عنهم ذلك فى هذا التفسير : انهم كانوا أذكى من قياصرة الروم وأكاسرة

الفرس فى زمانهم ، فما ذلك الا من التعاليم التى كانوا يتلقونها من النبوّة عنـد تلاوة الآيات القرآنية كما تقدم وأنهم كانوا لا يحفظون شيئا حتى يفهموا حقائقه ، وماهى هذه الحقائق ؟ هى التى ظهر لنا نتائجها فى أعمالهم فنراهم يحوطون أممهم والأمم الخاضعة لهم بعطفهم ورحمتهم ، لأنهم فهموا معنى آية « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فصاروا هم رحمة للعالمين ، لا للمسلمين وحدهم ، فعمّ عدلهم وفهموا أن الغنائم لم تكن لأجل شهواتهم بل كانت لاصلاح المجموع : فلذلك نبذوا التنعم ظهريا ورضوا بالخبز الذى لم ينخل وتركوا عرض الحياة الدنيا وهكذا ، وهذا نموذج لصفوة العلوم التى يصطفيها أئمة المسلمين بعدنا الذين يكون مثلهم فى أمم الاسلام كمثل الانسان فى نوع الحيوان أو كمثل دين الاسلام بالنسبة لسائر الديانات يعلو عليهم . فهؤلاء المصلحون بعدنا تكون وجهتهم المصلحة العامة وقيادة مجموع الأمة يحترمون المذاهب كلها ويحبون العلوم كلها ويكونون للمسلمين آباء ، فاذا رأوا الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية والشيعة والزيدية والاباضية وأمثالهم مكبين على فروع زاولوها ، وأحاديث تلقفوها وعاشوا على ذلك وماتوا فليقروهم وليغرموا هم بجمال العوالم ، وحب المجموع الاسلامى ، وحب الله عزوجل ، وتوجيه همم المسلمين الى المثل الأعلى .

ذلك أيها الأخ جواب ماسألتنى عنه . فقال : بقى لى سؤال واحد ، وأنا لك شاكر . فقلت : وأنا إن شاء الله مجيب . فقال : من أين أنت لك هذه الاجابات مع أنك قبل أن ألقى السؤال عليك لم يكن لك به علم . فقلت : ان الاجابات أحسّ بها فى قلبى وقت السؤال فينشرح صدرى للاجابة فأجيب . فقال : وهل كل ماينشرح صدرك له يكون علما . فقلت : ذلك له ميزان . فقال : وماهو ذلك الميزان . فقلت : الميزان هو الدين أوّلا ، والعقل ثانيا ، والنظر لحاجة الأمم الاسلامية ثالثا ، فان وافقها فهو حق ، وان خالف الدين أو العقل أو لم يكن له دخل فيما يحتاج اليه المسلمون لم يكن خير جواب فلا أجيب به . فقال : لقد أطلت عليك بالأسئلة ، ولقد أفدت خير إفادة ، فأنا أحمد الله على هذه النعم . فقلت : « ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » . انتهى ظهر يوم الثلاثاء ٥ يناير سنة ١٩٣٢ م النصف الثانى من شهر شعبان سنة ١٣٥٠ هجرية .

نور عَلَى نور

فى أخلاق عصر النبوّة ، وفى الخلافة الاسلامية ، وفى فروع الدولة العباسية المنفصلة عنها ، وفى جميع الممالك الاسلامية من عصر النبوّة الى الآن .

حضر صاحبى العلامة الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير فى اليوم التالى لكتابة هذا المقال : وقال .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله الكرام . أما بعد : فانى اليوم أريد منك أن تبين لى أمرين ، قد أشكلا علىّ فيما تقدم : أما أوّلهما فانك ذكرت فى الأمر السادس عند تعليقك على أعمال الدولة العباسية أن عبدالله بن الحسن والد صاحب البيعة جاء الى السفاح الذى اغتصب الملك من ابنه فأكرمه وعرض عليه المال فأعطاه ألف ألف درهم الخ ، وأن ذلك يدل على أن أخلاق بعض آل بيت النبوّة قد تغيرت فى القرن الثانى بعد القرن الأول ، وأن الترف صار مرغوبا فيه بعد أن كان مبتعدا عنه ، فأرجو أن تذكر لى شذرة من أخلاق رجال العصر الأوّل ليكون تذكرة وتبصرة . فقلت : أذكر أن المغيرة (كما ذكرته فى بعض هذا التفسير) لما قال له رستم القائد الفارسى فى أثناء واقعة القادسية « انكم تموتون فيما تطلبون » فقال المغيرة « يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ، ويظهر من بقى منا

على من بقى منكم » وكقول عبادة بن الصامت للمقوقس صاحب مصر . لما خوّفه بجموع الروم وأنه لن يقدروا عليهم وهم محاصرون حصن بابل : فقال عبادة .

« ياهذا لاتغرّن نفسك ولا أصحابك . أما ماتخوّفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وانا لانقوى عليهم ، فلعمرى ماهذا الذى تخوّفنا به ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه . وان كان ماقلتم حقا فذلك والله أرغب مايكون فى قتالهم وأشد لحرصنا عليهم . لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه ان قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، وما شىء أقرّ لاعيننا ولا أحب لنا من ذلك ، واننا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين أما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم أوغنيمة الآخرة انظفرتم بنا ، ولانها أحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا . وانالله عز وجل قاللنافى كتابه « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » وما منا رجل الا ويدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة ، وأن لايرده الى بلده ولاالى أرضه ولا الى أهله وولده . وليس لأحد منا همّ فيما خلفه ، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده . وانماهمناماأمامنا . وأماقولك : اننا فىضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن فىأوسع السعة : ولوكانت الدنيا كلها لنا ماأردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه » اه

فلما سمع صاحبى ذلك قال كفانى ماذكرت فى الأمر الأول . نحن الآن فى تفسير آية « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » . هاهو ذا الخلاف المستحكم بين المسلمين فى العصور الأولى ماثل أمامنا ، فمارأيك أنت فىالخلافة ؟ فقلت : رأيى ذكرته فى بعض أجزاء هذا التفسير . فقال أريدأن تصرح به هنا لأن هذامقامه فقلتقد كتبته فىمجلة « المعرفة » فىشهر يناير سنة ١٩٣٢ فقال أرجو اثباته هنا مأخوذا من فحوى ماهنا ، فقلت قد جاء فيها تحت العنوان الآتى مايأتى ، وهذا نصه :

آراء خطيرة فى الخلافة الاسلامية

مبحث الخلافة الاسلامية مبحث مهمّ من المباحث العلمية الاسلامية ، وكل علم لايعرف الناس أدوار تاريخه يكونون فى دراستهم له ، وأحكامهم فيه أشبه شئ بمن يبنى بيته على شفا جرف هار ، وبمن يستسمن ذا ورم وينفخ فى غير ضرم .

إن الخلافة الاسلامية فى الأعصر الغابرة لعبت دورا عظيما مهما ، وشغلت أمم الاسلام قاطبة ، وتفرقوا فيها فرقا شتى وأحزابا متباينة ، وينشأ الناشئون من الأبناء على ماعوّدهم الآباء .

وينشأ ناشىء الفتيان منا * على ما كان عوّده أبوه

وكل حزب بما لديهم فرحون ، وهل ينبغى لطفل تربى على مذهب خاص فىأمر الخلافة أن يفكر فى القرآن وفى الاجماع ؟ بل يظل على عقيدته حافظا لطريقته لايتعداها ، جامدا عليها لايتخطاها . إن أكثر نوع الانسان فى الأرض مقلدون ، جمدت القرائح وتعارضت الظنون ، روقفت الحركة العلمية الاصلاحية فى جميع الشؤون ، حتى إذا قرعت القارعة ، وأصابت الصاعقة ، وأحاطت بنا الأمم « وهم من كل حدب ينسلون » أذاقونا سوء العذاب ونحن غافلون . فتعالوا أيها المسلمون أتل عليكم نبأ الخلافة ، وأبد رأيا مجملا يقبل التفصيل والتحوير .

إن أمر الخلافة لن يستقرّ قراره ويتم الرأى فيه الابالبحث فى أحوال الخلفاء السابقين والوقوف على أعمالهم حتى نستنتج نتائج منها ، ثم نعتبر بما فعله أسلافنا ، ونبنى على ذلك الأساس عملا بقوله تعالى : « فاعتبروا ياأولى الأبصار » وقوله تعالى « أفلم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون » .

إن الخلافة إذا كانت مقيدة بالشورى ، موجهة للمصلحة العامة بأخلاص ، تصبح خدمة عامة لاينتطح في أمرها عنزان ، ولايرثها الأبناء عن الآباء ، فان كانت غيرذلك كانت أداة سوء تتقاذفها في أيدى الجهال وتأبى أن ينالها الأبطال . توفي رسول الله ﷺ وخلفه أبو بكر فعمر فعثمان فعلىّ رضى الله عنهم . درسنا مجمل أخلاق الخلفاء الراشدين فلم نجد أبا بكر وصى بها لابنه ، واستنكر عمر قول من طلبها لابنه عبد الله ، ثم لم نر أحدا منهم استكثر من الأموال واتبع الشهوات ، ذلك شأن الخلافة في الاسلام . ان أمر الخلافة شورى بين المسلمين « وشاورهم فى الأمر » « وأمرهم شورى بينهم » هذا هو الصراط المستقيم .

مضى عصر الراشدين ، وتولاها الأمويون وأولهم معاوية فاستبدّوا بالأمر فقاومهم بنو هاشم ففتك بهم الأمويون فتكا ذريعا ، ثم اشتد العباسيون والعلويون فى مقاومة الأمويين ، وساعدهم شيعتهم الفارسيون و بطلهم أبومسلم الخراسانى ، وأكثروا من موضوعات الاحاديث ، وما كاد الأمر يتمّ للعباسيين حتى قلبوا ظهر المجن للعلويين وفتكوا بهم فتكاذريعا ، وقتل المنصور محمد بن عبدالله ، وهوالخليفة الحقيقى صاحب البيعة الصحيحة .

هنالك أصبح الخليفة العباسى بعد تشريد الأمويين يقتل العلويين باليمين وأبناء عمه العباسيين بالشمال بل كثيرا ما كانوا يقتلون شيعتهم غدرا كأبى مسلم الخراسانى وجعفر البرمكى وغيرهما كثير . ولقد تغالى العباسيون فى إذلال العرب كما تغالى بنو أمية فى إعلاء شأنهم على غيرهم ، وماقاله ابراهيم الامام لابى مسلم « من ترددت فى أمره فاقتله » وحرّضه على قتل العرب فقتل منهم ٦٠٠ ألف رجل غدرا وهم آمنون .

مات الرشيد وخلفه الأمين والمأمون وأمّ الاوّل عربية ، وأم الثانى فارسية فنصر الفرس ابن أختهم وشرّدوا العرب كل مشرد وأذلوهم ومنعهم المعتصم العطاء . ولما كانت أمّ المعتصم تركية من بلاد الصغد أصبح مغرما بالترك غير واثق بالعرب ولا بالفرس أجمعين .

هنالك أصبحت الخلافة فى العباسيين اسما بلا مسمى ، وتنازع القوّاد من غير العرب الرئاسة وصار الخلفاء آلات صماء فى أيديهم فقتلوا منهم ٣٨ من ٥٩ وسملوا أعين بعضهم حتى زالت الدولة على أيدى التتار ، وكل ماحصل للعباسيين تمّ نظيره فى الأندلس ، وقد كانوا يستغيثون بجيرانهم من الاسبان على اخوانهم ، فيهلك الفريقان ، فربما كانوا يقتلون المستجير بهم غدرا كما حصل لجندل بن جود أمير أشبيلية اذ وعده البابا ودوق فينزيا و بعض دوقات أوروبا أن يكون ملك الأندلس كلها اذا ساعدهم فى فتح قرطبة فبرّ بوعده لهم فقتلوه غدرا وخربوا أشبيلية .

هذه شذرة من تاريخ الخلافة ومايتبعها من الامارات فى الاسلام . وكان ذلك كله عقابا على ترك الشورى المنصوص عليها فى القرآن . والذى أراه :

(أولا) — أنه يجب على كل أمة «عربية أوغير عربية» أن تعمم التعليم للذكور والأناث بقدر الامكان .

(ثانيا) — يجتمع أمراء الاسلام المفوضون من أممهم فى أمر الخلافة ، لينتخبوا أميرا منهم لها ، على شريطة ألا يبرم أمرا الا بمشورتهم : من صلح أوحرب أوغيرهما كما كان يفعل الخلفاء .

(ثالثا) — أن يكون الانتخاب لسنين محدودة أولمدة الحياة ، فاذا انقضت المدة فى الأوّل أومات فى الثانى فلينتخبوا سواه بالشورى ، فاذا أعيد انتخابه فى الحالة الأولى فلا ذلك .

(رابعا) — يجب أن يراعى فى الخليفة أمران مهمان وهما (١) أن يكون جيشه أقوى جيوش الامراء (٢) أن يكون أهل مملكته أعلم من سائر الأمصار ، ولا يكون للنسب فضل إلا فى الترجيح اذا تعارض أميران واستوفيا ماذكرناه . ونستأنس للشرطين المذكورين بقوله تعالى « وزاده بسطة فى العلم والجسم » .

(خامسا) — كل أمير تسيطر عليه دولة أجنبية لاحق له فى تولى أمر الخلافة ، لأن رأيه تابع لرأى من فوقه ، وهذا ضارّ بالمسلمين .

(سادسا) — اذا تعذر الاجتماع فى هذا الزمان «لضعف أوافتراق كلمة» فليتربص المسلمون الوقت المناسب .

فأما الخلافة الضعيفة التى يتولاها من لايحوز هـذه الثقة ، فما هى الا شبكة صائدين ، وحيلة محتالين ، فهل المسلمون عقار يتناوله الابناء عن الآباء ؟ كلا ، إنهم خير أمة أخرجت للناس ، وهم شهداء عليهم فليكونوا بالاولى لخلفائهم مصطفين ولهم مشيرين وعلى أعمالهم شاهدين ولاعوجاجهم مقوّمين .

هذا ما أراه فى شأن الخلافة وفوق كل ذى علم عليم . هذا هو ما كتبته فى مجلة المعرفه ، والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع صاحبى هذه المقالة قال : حسن هذا الرأى ، ولقد ذكرت فيه : أن الدولة العباسية اضمحلت وضعفت واستبد بها عمالها ، فهل من سبيل الى معرفة الفروع التى تفرعت لها تلك الدولة أيام ضعفها ؟ فقلت نعم جاء فى الجزء الاوّل من تاريخ التمدن الاسلامى مايأتى :

وجعلت سلطة الخلفاء تتقلص حتى وسعها السواد بين الفرات ودجلة . ولم يكد يدخل القرن الرابع للهجرة حتى انحصرت سلطتهم فى مدينة بغداد ، واليك فروع المملكة الاسلامية على عهد الراضى بالله فى الربع الاول من القرن الرابع للهجرة :

الولايات		حكامها
البصرة	فى يد	ابن رائق
خوزستان	«	البريدى
فارس	«	عماد الدين بن بويه
كرمان	«	أبى على محمد بن الياس
الرى وأصفهان والجبل	«	ركن الدولة بن بويه وغيره
الموصل وديار بكر ومضر وربيعة	«	بنى حمدان
مصر والشام	«	الاخشيد
خراسان وماوراء النهر	«	السامانية
طبرستان وجرجان	«	الديلم
البحرين واليمامة	«	القرامطة

استبداد الجند والخدم

ومما زاد الامر استفحالا أن الخدم والاجناد أصبحوا مطلقى الايدى فى قصور الخلفاء يستبدون فى أعمالها ويسومون الخلفاء صنوف الاهانة وأنواع العذاب . كما فعل جند المغاربة والاتراك فى المعتز سنة ٢٥٥ هـ لما خلعوه لأنه قصر فى عطائهم . فانهم دخلوا حجرته وجروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأوقفوه فى الشمس . فكان يرفع رجلا ويضع الاخرى لشدة الحر . وبقى بعضهم يلطمه ، وهو يتقى بيده وأدخلوه حجرة وأحضروا ابن أبى الشوارب القاضى وجماعة فاشهدوهم على خلعه ثم سلموه الى من يعذبه ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام . ثم ادخلوه سردابا وجصصوه عليه فمات (١) . ومع كل مالحق الخلفاء من الذل والضعف لم يخطر للفرس ولا للاتراك ولا لغيرهم من غير عرب قريش أن ينزعوا الخلافة من أعقاب بنى العباس . فما زالت الخلافة العباسية فى بغداد حتى جاءها التترمن مفازة الصين فافتتحوها وقتلوا خليفتها

(١) ابن الأثير ٧٧ ج ٧

سنة ٦٥٦ هـ ففرّ من بقى من أهله الى مصر ولتجأوا الى سلاطينها المماليك فأنزلوهم على الرحب والسعة الى ان فتح السلطان سليم العثمانى مصر سنة ٩٢٣ هـ فاخذ الخلافة منهم . وبلغ عدد الخلفاء العباسيين جميعا نيفا وخمسين خليفة منهم ٣٧ فى العراق ، أوّلهم السفاح وآخرهم المستعصم والباقون فى مصر .

فلما سمع صاحبي ذلك قال ماأحسن التفصيل بعد الاجمال ، ولوأننا وقفنا على مجمل الدول الاسلامية من أوّل عصر النبوّة الى الآن : لكان ذلك أشد جمالا وكمالا . فقلت هاك جدولا ببيان ذلك وهذا نصه .

جدول الدول الاسلامية منذ ظهور الاسلام الى الآن

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضائها هـ
الخلفاء الراشدون	مكة	٠٤	٠١١	٠٤٠
الدولة الاموية بالشام	دمشق	١٤	٠٤١	١٣٢
العباسية	بغداد	٣٧	١٣٢	٦٥٦
الاموية بالاندلس	قرطبة (الاندلس)	١٩	١٣٨	٤٢٢
الحمودية	مالقة »	٠٩	٤٠٧	٤٤٩
»	الجزيرة »	٠٢	٤٣١	٤٥٠
العبادية	اشبيلية »	٠٣	٤١٤	٤٨٤
الزيرية	غرناطة »	٠٥	٤٠٣	٤٨٣
الجهورية	قرطبة »	٠٣	٤٢٢	٤٦١
ذوالنونية	طليطلة »	٠٣	٤٢٧	٤٧٨
العامرية	بلنسية »	٠٧	٤١٢	٤٧٨
التوجيبية	سرقوسة »	٠٩	٤١٠	٥٣٦
ملوك دانية	دانية »	٠٢	٤٠٨	٤٦٨
النصرية	غرناطة »	٢١	٦٢٩	٨٩٧
الادارسة	مراكش (افريقيا)	١٠	١٧٢	٣٧٥
الاغالبة	تونس وغيرها »	١١	١٨٤	٢٩٦
الزيرية	» »	٠٨	٣٦٢	٥٤٣
بنوحماد	جزائر العرب »	٠٩	٣٩٨	٥٤٧
المرابطون	مراكش وغيرها »	٠٦	٤٤٨	٥٤١
الموحدون	شمالى افريقيا »	١٣	٥٢٤	٦٦٧
بنوحفص	تونس »	٢٢	٦٢٥	٩٤١
بنوزيان	جزائر الغرب »	١٠	٦٣٣	٧٩٦
بنومرين	مراكش »	٣٥	٥٩١	٩٧٥
الشرفاء	» » »	٢٨	٩٥١	لاتزال
الطولونية	القطائع (مصر)	٠٥	٢٥٤	٢٩٢
الاخشيدية	الفسطاط (مصر)	٠٥	٣٢٣	٣٥٨

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضائها هـ
الفاطمية	القيروان والقاهرة .مصر	١٤	٢٩٧	٥٦٧
الايوبية (١)	القاهرة (مصر)	٠٩	٥٦٤	٦٤٨
المماليك البحرية	« «	٢٧	٦٤٨	٧٩٢
« الشراكسة	« «	٢٣	٧٨٤	٩٢٢
العائلة الخديوية	« «	٠٧	١٢٢٠	لاتزال
الزيادية	زبيد (اليمن)	٠٩	٢٠٤	٤٠٩
اليعفورية	صنعاء الخ «	٠٩	٢٤٧	٣٤٥
النجاحية	زبيد «	٠٨	٤١٢	٥٥٣
الصليحية	صنعاء «	٠٣	٤٢٩	٤٩٥
الهمدانية	« «	٠٨	٤٩٢	٥٦٩
المهدية	زبيد «	٠٣	٥٥٤	٥٦٩
الزريعية	عدن «	٠٨	٤٧٦	٥٦٩
الرسولية	اليمن «	١٧	٦٢٦	٨٥٨
الطاهرية	« «	٠٤	٨٥٠	٩٢٣
الأئمة الرسية	صعدة «	١٧	٢٨٠	٧٠٠
أئمة صنعاء	صنعاء «	٠٠	١٠٠٠	لاتزال
الحمدانية	الموصل الخ (سوريا)	٠٩	٣١٧	٣٩٤
المرداسية	حلب «	٠٧	٤١٤	٤٧٢
العقيلية	الموصل وغيرها «	٠٧	٣٨٦	٤٨٩
المروانية	ديار بكر «	٠٥	٣٨٠	٤٨٩
المزيدية	الحلة «	٠٨	٤٠٣	٥٤٥
الدلفية	كردستان (فارس)	٠٥	٢١٠	٢٨٥
الساجية	اذربيجان «	٠٤	٢٦٦	٣١٨
العلوية (الزيدية)	طبرستان «	٠٤	٢٥٠	٣١٦
الطاهرية	خراسان «	٠٥	٢٠٥	٢٥٩
الصفارية	فارس (فارس)	٠٣	٢٥٤	٢٩٠
السامانية	تركستان وفارس	١٠	٢٦١	٣٨٩
خانات ايلاك	تركستان	٢٤	٣٢٠	٥٦٠
الزيارية	جرجان	٠٦	٣١٦	٤٣٤
الحسنويهية	كردستان	٠٣	٣٤٨	٤٠٦
بنوبويه	العراق وغيرها	٢٠	٣٢٠	٤٤٧

(١) لهذه الدولة فروع كثيرة حكمت مدات متفاوتة فى دمشق وحلب و بين النهرين وحماه ص و بلاد العرب وعددهم كلهم ٣٧ سلطانا

اسم

اسم الدولة	كرسي ملكها	ع د ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضائها هجرية
السكاكوهية	كردستان	٠٢	٣٩٨	٤٤٣
السلاجقة وفروعهم	جنوبي آسيا	٥١	٤٢٩	٧٠٠
الدانشمندية	سيواس وغيرها	٠٥	٤٩٠	٥٦٠
الاتابكة البوريون	دمشق	٠٦	٤٩٧	٥٤٩
« الزنجيون	سوريا و بين النهرين	٢٠	٥٢١	٦٤٨
« البكتجينيون	اربلاوغيرها	٠٣	٥٣٩	٦٣٠
الارتقية	ديار بكر	٢٥	٤٩٥	٧١٢
شاهات ارمينية	أرمينية	٠٨	٤٩٣	٦٠٤
اتابكة اذر بيجان	اذر بيجان	٠٥	٥٣١	٦٢٢
السلغرية	فارس	٠٩	٥٤٣	٦٨٦
الهزارسبية	لورستان	١٤	٥٤٣	٧٤٠
شاهات خوارزم	خوارزم	٠٨	٤٧٠	٦٢٨
الخانات القتلغية	كرمان	٠٨	٦١٩	٧٠٣ (١)
آل عثمان	الاستانة العلية وغيرها	٣٥	٦٩٩	لاتزال
خانات المغول	زنقارية وغيرها	٣٤	٦٠٣	١٠٤٣
مغول الفرس	فارس	١٧	٦٥٤	٧٥٠
خانات العشائر الذهبية	قاراختياى	٤٠	٦٢١	٩٠٧
« القرم	القرم	٤٦	٨٢٣	١١٩٧
« جاغتاى	تركستان	٢٦	٦٢٤	٧٦٠
الجيلاريون	العراق وغيره	٠٦	٧٣٦	٨١٤
المظفريون	فارس وكردستان	٠٦	٧١٣	٧٩٥
السربداريون	خراسان	١٢	٧٣٧	٧٨٣
الكرتيون	هراة	٠٨	٦٤٣	٧٩١
القراقيونليون	اذر بيجان وغيرها	٠٥	٢٨٠	٨٧٤
اق قيونليون	«	١٢	٧٨٠	٩٠٨
شاهات العجم	ايران وغيرها	٣١	٩٠٧	لاتزال (٢)
التيموريون	تركستان والتتر	١١	٧٧١	٩٠٦
الشيبانيون	«	١٩	٩٠٦	١٠٠٧
المنجيون	«	٠٦	١٢٠٠	١٢٨٤
خانات خيوا	«	٣٥	٠٩٢١	١٢٨٩
« خوقند	«	١٧	١١١٢	١٢٩٣
الجانيون	استراخان	١١	١٠٠٧	١٢٠٠
الغزنويون	افغانستان و بنجاب	٢٢	٣٥١	٥٨٢
الغوريون	« وهندستان	٢٠	٥٤٣	٦١٢

(١) قد أسقطها مصطفى كمال باشا ، وصارت الآن جمهورية   (٢) سقطت أيضا في عصرنا

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضائها هجرية
سلاطين دهلى	هندستان	٣٨	٦٠٢	٩٦٢
ملوك البنغال وحكامها	البنغال (الهند)	٥٥	٥٩٩	٩٨٤
« جانبور الشرقيون	جانبور «	٠٦	٧٩٦	٩٠٥
« مالوا	مالوا «	٠٧	٨٠٤	٩٣٧
« كجرات	كجرات «	١٤	٧٩٩	٩٨٠
ملوك خانديش	خانديش (الهند)	١٢	٨٠١	١٠٠٨
البهمنية	الدكن «	١٨	٧٤٨	٩٣٣
الشاهات العمادية	برار «	٠٥	٨٩٠	٩٨٠
« النظامية	أحمد نجر «	١٠	٨٩٦	١٠٠٤
« بريد	بيدر «	٠٧	٨٩٧	١٠١٨
« العادلية	بيجابور «	٠٨	٨٩٥	١٠٩٧
« القطبية	كولكندا «	٠٧	٩١٨	١٠٩٨
امبراطوروالمغول	هندستان «	٢٦	٩٣٢	١٢٧٥
امراء افغانستان	افغانستان	١٥	١١٦٠	لاتزال (١)

وخلاصة ذلك ان الدول الاسلامية التى ظهرت من أوّل الاسلام الى الآن نيف ومائة دولة عدد رؤسائها نحو ١٢٠٠ رئيس فيهم الخلفاء والسلاطين والملوك والامراء والاتابكة والاخشيدية والخديويون والشرفاء والبايات والدايات وغيرهم . من العرب والفرس والاتراك والشراكسة والاكراد والهنود والتتر والمغول والافغان وغيرهم . ومن عواصمهم المدينة والكوفة والشام وبغداد ومصر والقيروان وقرطبة والاستانة وصنعاء وعمان ودهلى وغيرها . انتهى ما أردنه من كتاب تاريخ التمدن الاسلامى والحمد لله رب العالمين

بهجة الجمال فى تاريخ الأمم الاسلامية

فى جواب اعتراض على المؤلف فى هذا المقام

حضرصديق العالم الذى اعتاد مسامرتى فى هذا التفسير. فقال : يخيل لى أن هذا المقام قد خرج عن دائرة التفسيرخروجا يؤدّى إلى أن يحسب الانسان نفسه فى تيهاء المعارف ومفاوز العلوم ، أوكأنه غريب فى وسط هذا المعمعان العلمى ، فأين آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » من هذه الدول المتشاكسة ، والأحوال المتناقضة التى لاحدّ لها ولانهاية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أنت بماصنعت هنا خرجت عن دائرة المفسرين جميعا فانهم قليلا مايتطرّفون إلى مثل هذه المشاكل والمشاجرات والحوادث علما منهم بأن كلام الله لم ينزل لمثل هذه الامور ، هونور ، والنور غير الظلمات .

فقلت : حياك الله أيها الأخ ، أنا أعلم انك تعبر بهذا عن آراء كثيرمن اخوانى المسلمين شرقا وغربا ، وهذا القول أثار فى نفسى آثارا جيلة صالحة :

وحرّك وجدى بعد ماكان نائما * برأد الضحى مشغوفة بالترنم
فلوقبل مبكاها بكيت صبابة * بسعدى شفيت النفس قبل التندّم

(١) سقطت وآخرها أمان الله خان

ولكن بكت ليلى فهيج لى البكا * بكاها فقلت الفضل للمتقدم

أذكرنى بقول ابن الفارض :

أجد الملامة فى هواك لذيذة * حبا لذكرك فليلمنى اللوم

إنّ ملامتك أيها الصديق إغراء :

دع عنك لومى فان اللوم اغراء * وداونى بالتى كانت هى الداء
صفراء لاتنزل الأحزان ساحتها * إن مسها ضجر مسته سرّاء

فلماسمع صاحبي ذلك . قال : أخذت فى الغزل بدل الاجابة ، وذكرت الخمر المذمومة طبا وشرعا . فقلت : « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتذكرون » ، هاجت بلابل شوقى للمباحث الجليلة ، والآيات البديعة ، فى هذا الوجود وحكمته ، والعلم وروعته .

أيها الأخ الذكىّ : سأحدّثك الساعة مجيبا عن اعتراضك بما يثلج صدرك ويشرحه ، ويصلح بالك ، فأجعله فى ثمانية فصول :

(١) فى النظر فى عالم الحيوان .

(٢) وفى بروز الانسانية من وسط معامع الهيجاء الثائرة فى الشهوات البهيمية ، والسطوة السبعية ، وتسلطها على القوّتين ، والاعتدال فيهما .

(٣) وأن هذه النظرات العلمية ظهرت على لسان (كونفيشيوس) الفيلسوف الصينى فى القرون الأولى

(٤) ثم قفاه (سقراط) فى جمهوريته وانتحى نحوا آخر فى سياسة الأمم ، وهما فى النتيجة متآخيان متقاربان ، وان لم يعرف أحدهما أخاه ، لتباعد الديار ، وانقطاع الأخبار .

(٥) ثم تطبيق علوم تلك الأمم البائدة على الأمم الاسلامية فى القرون الأولى ، وكيف تطوّروا فى سياستهم على مقتضى ماذكره (سقراط) فكان أوائلهم على المنهج الأتمّ ، وتنزل الأبناء عن سنن الآباء دركة فدركة إلى أن انحطوا إلى أسفل سافلين فى سياساتهم .

(٦) ثم تبيان أن ذلك لم يخلقه الله سدى ، بل جعله بصائر ونورالنا نحن المسلمين فى هذا العصر الذى جاء كالفاصل بين أمدين متناقضين : أمد مضى بحوادثه وتجاربه التى جعلت سلالم يصعد عليها الجيل الآتى والجيل المقبل إلى قة السعادة والهناء .

(٧) ثم بيان أن تجارب الآباء وحوادثهم لم تظهر آثارها أكمل إلا فى زماننا هذا ، لأن الله يريد أمما تكون فى سعادة وحبور .

(٨) ثم تبيان نعمة الله علينا وعلى الناس بالعلم والعرفان فى هذا الزمان .

الفصل الأول : نظرتى فى عالم الحيوان

اللهم ان نورك مشرق علينا ، فى كل حين شمس تشرق ، وقمر يضىء ، وكواكب تزين ، ومجرّات كثيرات الشموس ، وسدم بعيدات الأمكنة ، طويلات الأزمنة ، من حيث وصول أنوارها إلينا .

رباه : جل صنعك ، بهرت حكمتك . رباه : خلقتنا فى وسط هذا النور والجمال ، وجعلت فينا قوى تحثنا على أعمال لنا نحن ، فماذا وجدنا ؟ وجدناك يارباه بعثت فى الحيوان نشاطا بقوى ثابتات فيه سميناها « القوى الشهوية » ، تلك القوى حركته لطلب القوت ، وطلب النسل ، وعاش فى هناء وحبور ، ورأيناك منحته غرائز ، تلك الغرائز تكفلت بحفظ الفرد ، وحفظ النوع ، وحفظ السعادة الزوجية ، فى مقابلة أحوالنا

المنزلية ، وحفظ الجماعات فى مقابلة أحوالنا السياسية .
هذه يارب حال الحيوان الذى يحيط بنا ، أنت القائم بشأنه ، فالنور الذى يحيط بنا من كل جانب وتراه عيوننا قد أعطى الحيوان فى داخله قوى تضىء له طرق الحياة ، مشابهات من حيث حقائقها له مشابهة مّا . إن الحيوان بنوره الداخلى الموازى لنور الكواكب الخارجى من حيث الهداية قد كفاه أمر السعادة الشخصية المنزلية والسياسية ، ولكنا من جهة أخرى وجدنا أمورا عجيبة ، وجدنا قوى الغضب فى كواسر الحيوان أغرته أن يسطو على أمثال الغزلان والأرانب من آكلات الحشائش . تسطو الكواسر من الطير على بغاثها ، والسباع والنمور والوحوش على ذوات الظلف والحافر وغيرها ، مجزرة هائلة ، وميدان واسع للقتل والفتك والنهش ، بينما نرى كل نوع من حشرات ، أوطير ، أوزواحف ، أوكواسر ، مسوقا بغريزته للتعاطف والتوادّ والتراحم ، بالعواطف تعارضت واتجهت إلى اتجاه الاهلاك والتدمير والذعر والخوف والعداوة والعدوان ، ملحمة مجزرة مهلكة ، جنائز تتبعها جنائز ، وضحايا وراءها ضحايا ، فى وسط هذه المعامع والمجازر برز خلق جديد .

الفصل الثانى فى ظهور الانسان بين أنواع الحيوان

ظهر بين هاتيك المجازر والمعامع خلق جديد هو الانسان ، وماهو ؟ هو حيوان اجتمعت فيه القوّة الغضبية مع القوّة الشهوية ، فهو سبع وغزال ونمر وأرنب وذئب وطاووس ، هو جماع كل حيوان ، فظهر التضارب فى أخلاقه ، والخلط فى أفعاله ، كما كان بين الأسد والشاة والنمر والغزال ، ولكنا رأينا له حالا ثالثة سميناها «عقلا» عقلت القوّة الأسدية أن تطغى ، والقوّة الشهوية أن تحيد عن الصراط السوىّ ، وهنالك كان الظنّ أن يكون هذا الانسان معتدلا ، ولكن * ما كل مايتمنى المرء يدركه * فاننا رأينا المجازر والمذابح والغارات التى تشنها الآساد على الغزلان ، تفعل مثلها وأشدّ منها الأمم القوية مع الضعيفة ، ومن المخجل أن الكواسر من الطير ، والفواتك من السباع لها العذر فى الفتك بآكلات الحشائش ، فأما الانسان فانه حيوان زاد فى شرهه عن كل حيوان ، فهو يغير على غيره ليأكل من تعبه وعرق جبينه ، ليكون الغنم له والغرم على غيره بلاعلة إلا طغيانه . ولاسبب إلا جهله وخطله المبين .
هذه صفات أكثر نوع الانسان ، ولقد ارتقت عن هؤلاء طائفة منهم فقالوا : قف أيها الانسان قف ، أين عقلك ؟ انك لغوىّ مبين ، نحن تنزلنا عن الحيوان شرفا ، ونزلنا دركات فى طرق العماية ، ألسنا أشرف منه قدرا ، ألسنا أرفع منه مرتبة ؟ أفلا نكون نحن بررة أتقياء ، فعلينا أن نجعل المجموع مساعدا للمجموع فلنقم بالقسط ، ولنترك لكل امرىء ما كسب ، بل لنزهد نحن فيما فى أيدى غيرنا ، ولكن آباء رحماء للناس ، هذه مزيتنا لاغير ، لقد علمنا مما جربنا أن الله سريع الحساب ، وبهذا نزل الكتاب ، ألم تروا أيها الناس أن الانسان اذا أكل فوق طاقته ، فانه يتحمل تبعة جهله ، ويعطى الدواء المرّ الكريه ، فيكون الغنم بالغرم ، أليست البطنة تذهب الفطنة ، بل ألم يظهر فى علم الطب حديثا أن كل مأكول قد طبخناه نقص من مادّة الحياة فيه مقدار عظيم ، ومالا يطبخ يعطى قوة الحياة لنا كاملة ، إذن أيها الناس نحن غافلون ، اتباع اللذات والشهوات له ردّ فعل ، فالله سريع الحساب لنا فى نفس الحياة فضلا عما بعدها ، وأيضا اذا توغلنا فى اللذات وجدنا قوانا ضعفت ، وكل جيل يكون أضعف ممن قبله ، والعاقبة مخزية موقعة فى الدمار والهلاك فهذه الطائفة من نوع الانسان قالت . كلا . فلتكن حكومات ، وليكن نظام ، فانظر :

الفصل

الفصل الثالث فيما نقل عن كونشفيوس الفيلسوف الصينى العظيم

بقلم الكاتب الأمريكى (ول . دورانت) مؤلف قصة « الفلسفة وعصور الفلسفة » وقد ذكر أسماء ١٢ عظيما اختارهم من بين عظماء التاريخ مثل :

(١) إن التقويم المصرى عثر عليه قد ألف سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد وهذا من عجائب العلم .
(٢) ومثل بوذا المتوفى سنة ٥٤٢ ق.م .
(٣) ومثل كونفشيوس المتوفى سنة ٣٧٨ ق.م .
(٤) ومثل سقراط المتوفى سنة ٣٩٩ ق.م .
(٥) ومثل قيصر المتوفى سنة ٤٤ بعد الميلاد .
(٦) ومثل المسيح .
(٧) ومثل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المتوفى سنة ٦٣٢ ب . م .
(٨) ومثل روجر بيكن المتوفى سنة ١٢٩٤ ب.م . الذى يدعون انه أوّل من استعمل البارود (١)
(٩) ومثل غوتنبرج المتوفى سنة ١٤٥٤ ب.م مخترع المطبعة .
(١٠) ومثل كولمبوس كاشف أمريكا سنة ٤٩٢ ب م .
(١١) ومثل (جيمز وط) مخترع الآلة البخارية سنة ١٧٦٩ م .
(١٢) الثورة الفرنسية .

هذه هى الحوادث التى اختارها ذلك الكاتب الأمريكى التى يعدّها بحسب نظره هو أنها أعظم ما أثر فى العالم الانسانى ، وأنا الآن لست أريد إلا سيرة كونفشيوس الفيلسوف الصينى الذى عاصر سقراط ولم يكن بينهما معرفة ولا مواصلة ، فهل لك أن أحدّثك عن أوّلهما ، ثم أحدثك عن ثانيهما ؟ أحدّثك عن أوّلهما فى هذا الفصل ؟ لماذا ، أحدّثك عنه ، لأنه شرح المسألة التى أنا الساعة بطريق حلها ، مسألة نظام هذه الدنيا ، هذه الدنيا الجميلة فى نظر الفيلسوف ، المرتبكة الموحشة فى نظر الجاهلين .

الله أكبر : أنت كبير ، أنت عظيم ، عجبنا يارب لهذا الابداع ! عجبنا يارب لابداعك ! تعاليت وارتفعت عنا ، وأرسلتنا إلى الأرض ، وقلت لنا أيها الأطفال اذهبوا إلى الأرض فعيشوا فيها ، وسترون موتا وحياة ، وعزا وذلا ، وقاهرا ومقهورا ، وغالبا ومغلوبا ، وحيوانات ذرّية تسطو على الانسان ، وعلى الأسد ، والأسد يسطو على الانسان ، وانسانا يحارب انسانا بالسيف والنار والحديد والبارود والغازات السامة ، فتذهلون من هذا المنظر ، وتقولون موت وحياة ، وفراق ووصال ، ماهذا ماهذا ماهذا ؟ ولكنى اخترت منكم طائفة يعيشون بينكم وهم غرباء عنكم ، يعيشون فيكم وأرواحهم فى الحقيقة كأنها مخلوقة منفصلة عن أجسامهم ، وكأنهم فى عزلة عن المادّة ، أشهدتهم صنعى ، وأفهمتهم حكمتى ، وأن مايشاهدونه إنما هو المظاهر التى تشبه مظاهر السينما (دار الصور المتحركة) يراها المتفرّجون صورا تتبعها صور والنفس باقية خامدة لن تموت ، وماهذه الصور إلا أحوال مختلفات عارضات على النفس التى لاخلاص لها من هذا البحر المتلاطم وهو المادّة إلا بما يعتريها من نحس وسعد وموت وحياة ، فالأهل والأحباب على مريضهم وميتهم يبكون ، والنبىّ والحكيم والفيلسوف يضحكون سرورا لما تجرى به المقادير عليهم وعلى غيرهم ، لأنهم للناس آباء ، والناس كلهم أبناؤهم ، وقد أشهدهم الله وأطلعهم على مجمل سرّه المصون المكنون ، فعرفوا أنه رحيم وماعمله إلا لتخليص النفوس من الجهالة ورقيها إلى أن تصل إلى مبدعها الحكيم ، فتشاهد الجمال والجلال ، فهذه الطائفة

(١) وهذا خطأ لأنه اختراع اسلامى .

منهم كونفشيوس وهو حكيم كبير . قال الكاتب الأمريكى فى ذلك مذكورا فى « مجلة المقتطف » فى شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ م :

« ولابدّ لنا من رمز يمثل الصين ، الصين العظيمة التى يدعوها أبناؤها « كل ماتحت الشمس » . والصين القديمة التى مازالت تدوّن تواريخ ملوكها وأعمالهم منذ أربعة آلاف سنة إلى الآن ، وانى لأغتنم هذه الفرصة لأعرض على نظر القارئ فقرة من كتابات كنفوشيوس ، فانها تحتوى على حكمة خالصة من الشوائب وهى من كتاب « المعرفة العظيمة » . قال : — « إن الأقدمين الأمجاد كانوا اذا أرادوا أن يوضحوا الفضائل السامية و ينشروها بين الناس ينظمون أحوال ممالكهم ، وقبل أن ينظموا أحوال ممالكهم كانوا ينظمون أحوال أسرهم ، وقبل أن ينظموا أحوال أسرهم كانوا يهذبون أخلاقهم ، وقبل أن يهذبوا أخلاقهم كانوا ينقون نفوسهم ، وقبل أن ينقوا نفوسهم كانوا يحاولون أن يكونوا صادقين ومخلصين فى تفكيرهم ، منزهين فى أغراضهم ، وقبل أن يكونوا صادقين ومخلصين ومنزهين ، كانوا يوسعون معارفهم ، وتوسيع المعرفة كان يجىء عن طريق البحث والمشاهدة ، شاهدوا الأشياء والأفعال فاكتملت معارفهم ، ولما اكتملت معارفهم خلصت أفكارهم وتنزهت أغراضهم فتهذبت أخلاقهم فتنقت نفوسهم فانتظمت أسرهم ، ولما انتظمت أسرهم انتظمت دولهم وأصبحت الأرض كلها تمرح فى السعادة والوئام » .

« ولما كنا مرائين فى الفكر ، ونرفض أن نرى الأشياء على حقيقتها (كالديمقراطية مثلا والزواج والاستعمار ونظام الطبقات فى أوروبا وأمريكا) ، فنحن لسنا مخلصين فى تفكيرنا ، ولما كنا غير مخلصين فى تفكيرنا تعذر علينا أن نبلغ بنفوسنا مراتب الكمال ، وأن ننظم حياتنا ، ولما كنا لا نستطيع أن ننظم حياتنا الشخصية لم نستطع أن ننظم أسرنا ، واذن فدولنا فى حالة اضطراب وفوضى » .

هذا هو الدرس البسيط الذى يلقيه علينا كنفوشيوس ، انى أحسد أولئك التلاميذ الصينيين الذين كان يفرض عليهم أن يحفظوا أقوال كنفوشيوس عن ظهر قلب ، فقد وجدت كل سطر من سطوره يصل إلى صميم الحقيقة ، وفى الوقت نفسه يمكن تطبيقه ، واذ أخلو إلى نفسى أقول : لو أن بعض هذه الحكم طبع فى نفسى من عشرين سنة لكنت فزت باتساق النفس ، والكرامة الروحية ، والفهم الهادئ ، والخلق المتين ، والأدب الخالص ، وهى الصفات التى يتصف بها الصينيون المثقفون الذين عرفتهم ، أنا لا أعرف رجلا طبع أمة بطابعه كما طبع كنفوشيوس أمة الصين ، فلنتخذ تاريخ وفاته رمزا وحافزا ، إن هذا الرمز ينطوى على القصائد الغنائية البديعة التى نظمها شعراء دولة « تانغ » الصينية ، وصور المشاهد الطبيعية المتسمة بسمة التصوّف والشوق ، والآنية الصينية الكاملة شكلا وزخرفا ، وحكمة حكماء الصين وفلاسفتها ، إن حضارة من أعظم الحضارات القديمة تلخص فى اسم كنفوسيوس . و بهذا تمّ الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين .

الفصل الرابع : فى آراء سقراط فى جمهوريته

لقد عرفت أيها الأخ الذكىّ أن كنفوشيوس فى الصين بنى نظام المدينة والأخلاق كلها على اتساع المعارف واتساع المعارف بناه على البحث والمشاهدة ، و بالبحث والمشاهدة كملت المعارف فخلصت الأفكار ، وهذبت الأغراض والأخلاق وصفت النفوس فانتظمت الأسر فالدول .

ياسبحان الله : إذن أمم الاسلام لا رقىّ لها إلا بمعرفة المشاهدات واستقصائها بحثا وتنقيبا ، فيعرفون إذن علوم الكائنات حولهم ، و يطالعونها ، و يدرسون آثار الأمم البائدة التى ورثوا هم أرضهم وديارهم ، ومتى درسوا ذلك عرفوا الخطأ فتحاشوه ، إذن لندرس الآن هذه العوالم المحيطة بنا من صنع الله تعالى ،

وندرس تواريخ أسلافنا من العباسيين والأمويين والصحابة والتابعين ، ثم نرى الحسن فنفعله ، والقبيح فنجتنبه ، لا اننا نتغنى بسطوة الملوك وجبروتهم ، ومنحهم الشعراء أموال الأمة جزافا ، ولننبذ كل ما كان فيه أستبداد كبيرات الخلافة الاسلامية بالمبايعة القسرية ، وتوارث المسلمين بها كما تتوارث النعاج والخراف ، كل ذلك لن يكون إلا بالدراسة ، وهذا الاجمال الذى قاله فيلسوف الصين فصله سقراط المعاصر له ، فقد جاء فى الجمهورية فى الكتاب الرابع حكاية عن (اديمنس) الذى تدخل فى الموضوع وسأله قائلا : وبماذا تدفع عن نفسك ياسقراط (يريد بذلك أن سقراط حرّم على رجال الدولة القائمين بالحكم أن يتمتعوا بالأموال ، بل يجب أن يكونوا زهادا على الهيئة التى رأيناها فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم ، وأن لهم هم سعادة روحية ، وتبتلا ، وصلة بربهم ، تجعلهم أسعد ألف مرّة من المترفين البائسين الجاهلين) اذا احتج أحد عليك بأنك لم تبلغ برجال هذه الطبقة « الحكام » أوج السعادة ؟ مع ان اللوم عليهم فى عدم سعادتهم لأن الدولة دولتهم عند التحقيق ، ومع ذلك فليس لهم فيها حظ الذين يملكون الأراضى ويشيدون الأبنية الفخمة ، ويفرشونها فرشا يتفق مع فخامتها ، ويذبحون الذبائح ، ويولمون للأصحاب ، ويملكون الفضة والذهب ، وكل ماهو ضرورى لاسعاد الناس ، وقد يقال انهم كصغار المستخدمين ليس لهم فى المدينة إلا الخفارة .

(سقراط) نعم ، بل يظهر انهم يقتصرون على القوت ، ولا يأخذون معه مالا كالآخرين ، فلا يمكنهم السفر على نفقتهم اذا أرادوه ، ولا تقديم الهدايا للحظايا ، وانفاق الأموال على الرغائب الأخرى ، كما يفعل المحسوبون سعداء ، وأمثال ذلك من الامور مما طويت عنه كشحا .

(اديمنس) فأضيف ذلك إلى شكواى .

(سقراط) أفتسألنى أىّ دفاع أقدم ؟

(اديمنس) نعم .

(سقراط) أظنّ اننا اذا استأنفنا السير فى الجهة نفسها أدركنا الدفاع المطلوب ، مع انه لا يستغرب كون هؤلاء الحكام أسعد السعداء حتى فى هذه الأحوال ، على اننا لم نؤسس الدولة لمجرّد اسعاد قسم من أهلها ، بل لاسعاد الجميع معا على قدر الامكان ، ففرضنا فى انشاء الدولة اكتشاف العدالة ، كما اننا فى دولة أخرى ساء نظامها نكتشف التعدّى ، وبعد اكتشاف هذى وتلك يمكننا البتّ فى المسألة التى أمامنا ، فنحن جادّون فى الوقت الحاضر فى انشاء دولة سعيدة ، لافى أن نخص أفرادا منها بالسعادة ، بل أن نسعد جميع أفرادها على السواء ، ثم ننظر فى دولة هى نقيض هذه أحوالا ، فلو صوّرنا شخصا بشريا فانتقدنا منتقد بأنا لم نزين أجل أقسام الصورة بأبهى الألوان ، لأن العيون وهى أجل أعضاء الجسم لم تلوّن بالأرجوانىّ بل بالأسود فيجب أن نفكر فى أنه دفاع كاف قولنا له : « أيها الناقد مهلا ، لا تتوقع منا أن نلوّن العيون باللون الجميل بحيث لا تبقى عيونا ، وهكذا يقال فى بقية أعضاء الجسم ، ولكن انظر انا جعلنا الجسم كله جميلا بتلوين كل عضو فيه باللون الملائم ، جريا على الطريقة نفسها فى مثلنا الحالى توجب علينا أن نسخ صنوف السعادة على الحكام فيصيرون غير ماهم اه

وجاء فى الكتاب السادس من الجمهورية فى صفحة ١٥٥ : « ان هؤلاء الحكام فضلا عن زهدهم فى المال ، وانهم آباء الدولة ، يجب أن يدرسوا كل علم ليصلوا إلى معرفة الله عزّ وجل الذى عبر عنه هو بالخير ، وهذه الدراسة مفصلة فى هذا التفسير مجملة فى الجمهورية ، وانما طلب ذلك لأن تلك الدراسة توجب حب صانع العالم ، ومتى كان هذا الحب تمت السعادة وصار هؤلاء الحكام خلفاء له فى إدارة أرضه : « ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتبع الهوى الخ » .

وقسّم فى الكتاب الثامن من الجمهورية الحكومات إلى خمسة أقسام : (أرستقراطية ، وتيموكراسية ، وأوليغاركية ، وديموقراطية ، واستبدادية) فالارستقراطية حكومة الفلاسفة ، وهى الحكومة العادلة المشروحة شرحا وجيزا فيما تقدّم ، ثم يظهر بعد ذلك الخلف على غيرطريقة السلف ، فيظهرخلف الفلاسفة غير مراعين الحكمة ، فيصبح الأمر بيد القوّاد ، ويقومون بالدولة بدل الفلاسفة ، وهى التيموكراسيه ، ثم يظهر بعد ذلك الطمع فى المال ، وتذهب الحماسة من الجنود ، ويصبح المال هو المقصود بعد أن كانت الحكمة فى الارستقراطية ، والحماسة فى التيموكراسية ، فالمال إذن يكون هو المقصود فى الاوليغاركية ، فاذا أصبح هذا مقصوداً كابر الأمة فهم إذن مجرمون ، لأنهم يخدمون الشهوة الساقطة ، شهوة البطن والفرج ، واذن يصبح المال فى يد الحكام ، فيقوم الشعب ويحاسبهم حسابا عسيرا ، وتنزع الأمة إلى الثورة ، فتكون الحكومة بالانتخاب ، والانتخاب يرجع فيه إلى الأفراد كلهم وهى الديموقراطية وتكون الحكومة الاستبدادية اذا لم يمكن ضبط الأفراد .

هذه هى الحكومات وأنواعها ، ومن رأى سقراط أن أعلاها أوّلها ، وآخرها أقلها شأنا . والديموقراطية وهى الرابعة على حسب زمانه لقلة المواصلات رديئة ، ولكن فى زماننا قيمتها عظيمة ، وهذه الحكومات ذكرناها هنا لتبنى عليها ما نريد من الكلام فى الفصل الخامس .

الفصل الخامس فى تطبيق علوم تلك الأمم على أممنا الاسلامية فى القرون الأولى

فاذا رأينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يبذل قصارى جهده فى التبرّى من مال المسلمين ويكتفى بأقلّ القوت ، ورأينا أبا بكر قبله والنبىّ صلى الله عليه وسلم وعليا وعثمان رضى الله عنهم ، فاننا نقول هذه الحكومة فيها اقتراب مما وصفه سقراط ، واذا رأينا أن العصر الأوّل لما ذهبت دولته ، ورأينا الأمويين والعباسيين فى القرن الثانى يقاتل بعضهم بعضا وان كانوا مجتهدين والمجتهد له أجر ، ورأينا أمثال عبد الله من ذرّية الحسن وقد حضر عند السفاح ، ورأى المال المنهوب من بنى أمية ، وهو جواهر وحلى للنساء ، وهو يطلبه من السفاح لأن ابنه كان هو صاحب البيعة فانا لانشكّ أن هذا الجيل أقلّ من الجيل فى القرن الأوّل ، لأن بعض آل البيت أحبوا المال وقد كان علىّ رضى الله عنه وعمر يتبرآن منه ويهربان ، وهذا يأخذ ألف ألف درهم ، ويأخذ جواهر لبنات آل البيت ، وقد كانت تنفر منه وتحقره فاطمة رضى الله عنها ، فالسفاح فى المثال المتقدم المشروح آنفا قبل هذا المقام فى الطبقة الثانية وهى التيموكراسية فهو إلى الحماسة أقرب ، وعبد الله من ذرّية الحسن أشبه بالطبقة الثالثة وهى الاليغاركية ، وهى التى مقصد أربابها المال فهو إذن فى رتبة شهوية كما كانت التى قبلها حماسية ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ إن أمثال الخلفاء الراشدين إلى الحكمة أقرب ، وأمثال السفاح إلى الحماسية أميل ، وأمثال عبد الله المذكور إلى دولة المال أقرب ، وهى التى يعقبها الاضطراب .

***

هذا ما استنتجناه من قراءة التاريخ المذكور هنا ، ثم أصبح أبناء الخلفاء بعد ذلك جميعا على نسق واحد ، وهو هذه الطبقة . طبقة المال والشهوة البهيمية ، فأما جنودهم من الترك والفرس وغيرهم فهم أقرب إلى الحماسية ، فأصحاب الحماسة أذلوا أصحاب الشهوة : أى الطبقة الثانية أذلت الطبقة الثالثة .

اللهم إنك أنت المحمود على نعمة العلم ، نحمدك انك عرّفتنا لماذا انتقمت من المسلمين بعد العصر الأوّل وسلطت بعضهم على بعض ، وألبستهم شيعا ، وذاق بعضهم بأس بعض ، لأنهم لم يكونوا فى الذروة العليا من مقاصد الملك ، وهو العدل والصدق والاخلاص ، واعطاء كل ذى حقّ حقه ، أى انهم لم يكونوا خلفاءك

أنت على عبادك فى الأرض ، و بعضهم أخلد إلى الأرض واتبع هواه فى الميل إلى عصبيته ، وأبناء بيئته ، وتفضيلهم على سواهم ، وأنت ما أرسلت نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم إلا للعدل العام ، وهجر العصبية الجاهلية ، لذلك عاقبتهم بالتخاذل ، وجعلت الملك فى أيدى غيرهم ، وجعلتهم خاضعة أعناقهم لقوادهم من الترك وغيرهم .

ههنا ظهرت الحكمة فى تسليط بنى هاشم بعضهم على بعض ؛ فالعباسى يقتل العلوى ، والعلوى يطالب بالملك ، والله يقول . كلا . لا ملك لأنكم تريدون مطالبا أدنى وهذا الدين نزل لما هو أعلى ، فكونوا متعادين لأسلط بعضكم على بعض ، وذلك جزاء الذين لا يعدلون .

خطاب من المؤلف الى السفاح العباسى وعبد الله الحسنى

« أيها السيدان العظيمان : أزلتما دولة الأمويين ، وأخذتما جواهرهم ونقودهم ، لمن هذه النقود ، ولمن هذه الجواهر ؟ أهى لكما أم للأمة ؟ ستقولان ان لنا فى بيت المال كذا وكذا ، وتحتجان بفروع علم الفقه ، والفقهاء مختلفون ، وعمر رضى الله عنه يرى غير رأيكما ، لندع فروع الفقه جانبا ، نحن نريد تربية الأمة ، إن الأمة لا تربى بهذه الطريقة ، لا تربى الأمم بأن تجعل طائفة منها تختص بالمال ، وتجعل غيرها مسخرة لها ، فهذا مثال العين وصبغها بالصبغ الارجوانى الذى ذكره سقراط ضربه مثلا لطبقتكم الشريفة يرى علم الحكمة المدوّن قبل النبوّة أن طبقة الحكام أولى بأن تزهد وترضى كما ترضى العين بصبغها البسيط وتتباعد عن أن تتزين كما تتزين العرائس ، وأن تكون مترفة ، إن المترف قليل ، وكثرة المترفين تسقط الأمم ، الوقوف عند فروع الفقه والجدل فيها إضاعة لجمال الاسلام . يقول الله تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

أليس هذا هو دين الاسلام ؟ أيليق بنا أن نجعل جسم أمتنا أعضاء مصابة بالشلل ، لندع الفلسفة والحكمة العقلية جانبا ، ولنرجع الى النبوّة ، ماذا رأينا فيها ؟ رأينا إعراضا تاما عن مال الأمة من نبينا ﷺ وخلفائه فماذا جرى بعد هؤلاء ؟ رأينا كما أيها السيدان تتهاديان مال بنى أمية : فأنت ياسفاح تواسى به عبد الله الحسنى لانك اغتصبت الخلافة من ابنه وهو يتشوّق للمال ويفرح ، وأنتما معا نسيتما ان المال مال الأمة ان لم يكن بعلم الفقه ، فليكن بعلم الاخلاق ، وعلم القرآن ، وعلم النبوّة ، وسيرة الصحابة ، أين رأى الامة فى هذا المال ، نحن أيها السيدان نحفظ حقكما وشرفكما ونعدّكما مجتهدين ، والمجتهد مخطئا ومصيبا مرحوم ولكن الاجتهاد شئ وتربية الامة شئ آخر ، هاهو ذا كونفوشيوس الفيلسوف الصينى يجعل نقاوة الضمير وتهذيب النفس ، ونظام الأسرات ، ونظام الممالك : كل ذلك موقوف على البحث فى المحسوسات وفهمها ودرسها ، وهاهى ذه النبوّة المحمدية الشريفة قد ظهرت أنوارها فى الخلفاء الأربعة : نسمع أصحابه رضى الله عنهم يقولون : « من حفظ البقرة وآل عمران جدّ فى أعيننا » وهذا عجب ، ونسمعهم يقولون : (ما كنا نحفظ آى القرآن حتى نفهمها) وهذا تقدم قريبا : هذه البقرة ، وهذه آل عمران ، ونحن الآن نحفظهما ونحفظ القرآن كله ، ونحفظ علوما وعلوما ، ولكن أين ملوكنا وحكامنا وقضاتنا الذين أشبهوا أبا بكر وعمر وأمثالهما ، أخبرانى أيها الشريفان العظيمان ، وقولالى يقع فى خاطرى ان النبوّة كانت تلقى عليهم تعاليم تبعثهم على النظر فى ملكوت السموات والأرض ، حتى ترسخ محبة الله ومحبة الخير للناس فى نفوسهم أوّلا ، وتعاليم أخرى تجعلهم يفكرون فى الأمم والدول والأخلاق والأحوال ؟ والا فلماذا نسمع كما تقدم أن بعضهم يحفظ السورة فى سنين معدودة ، ماهذا الحفظ ، وما هذا البطء إلا بتفهم المعانى التى ذكروا أنهم يتعلمونها من نبينا صلى الله عليه وسلم .

خطاب المؤلف للمسلمين

أيها المسلمون : نحن اليوم نسلم تسليما قاطعا أن تعاليم الخلفاء الراشدين ومن كان معهم مجهولة عندنا ، ونقرّ ونشهد كما جاء فى الأحاديث السابقة المنقولة عن ﴿ الاتقان ﴾ للسيوطى أن حفظ آيات من القرآن أيام النبوّة كانت متبوعة بمعان نجهلها نحن الآن ، بدليل أننا لم نجد رجالا يضارعون الخلفاء الراشدين فى تعميم العدل فى الأمم ، نقرّ بهذا ونعترف به ، ونقرّ بأن التعاليم التى فهمها الصحابة وأ كثرهم لم يعرّفها أ كثر الناس بعد ذلك وضربوا عنها الذكر صفحا . نعم : الشريعة كلها بلغت هـذا لاشك فيه انما الامور التى وقرت فى الصدور ، وهى التى تهذب الأخلاق وتحفظ الدول ، وتحفظ المال للأمة جعلت نسيا منسيا غالبا .
أقول : فلعل ماأطلنا به فى هذا التفسير يحوم حول بعض تلك المعانى الشريفة : ففيه بهجة الجمال السماوى والأرضى ، وفيه نظام الدول والممالك ، وكيف يكون زوال الملك تابعا للشره على المال : فلعل هذا الكتاب يكون فاتحا بابا يلجه المسلمون بعـدنا ويدخلون منه الحقائق الخلقية والنظم الدولية ، فلا عجب فى ذلك فقد رأينا النيل يجرى من خط الاستواء و بين منبعه ومصبه فى البحر الأبيض المتوسط مايربو على ألفى ميل ، ولم تظهر ثمراته الا بالقرب من مصبه فى بلادنا المصرية : امافى السودان فثمرته قليلة ، فلعل دين الاسلام كذلك بالنسبة لزمانه القديم بعد العصور الاولى وزمانه الحديث اليوم ، والله هو الولى الحميد وهو حسبنا ونعم الوكيل ولاحول ولا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم .

الفصل السادس ، فى أن الله عز وجل هو الذى أسس ذلك التاريخ لنا نحن

ذلك أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . والعلم والدين لاتظهر فوائدهما التامة الابعد التجارب الكثيرة ، وهانحن أولاء رأينا تجارب الآباء سنأخذ اليوم حذرنا مما وقعوا فيه ، ونؤسس الممالك على الشورى ، ولا نكون مغرمين بالمال كالطبقة الشهوية ، ولابالعظمة كالطبقة الحماسية بل نكون مغرمين بالعدل ، سائرين على منهاج الخلفاء الراشدين ، وماعدا ذلك فنحن ندعه : وهانحن أولاء عرفنا حقيقة التاريخ ، والله بالمرصاد لمن غفل فى السياسة ، كما إنه بالمرصاد لمن غفل فى تدبير الطعام والشراب فالمقصر والمغالى فيهما مخذول مقهور مهان ذليل ، فمن أ كثر من الطعام أورثه الأسقام ، وشرب الدواء الكريه المر هكذا من طغى فى الملك منع لذيذ النوم ، وأصبح محسورا مقهورا .

خطاب الله للأفراد والأمم

إن مانراه من عقاب للأفراد وللأمم من حيث الاسراف فى المأكل والمشرب ، ومن حيث الجهل بالمحبة العامة فى الأمم يفهمنا فهما علميا ، كأن الله عزّوجل يخاطب الأفراد قائلا : أيهاالناس . هاأناذا أنزلتكم فى الأرض ، وأعطيتكم الحبّ والفاكهة والخضر ، و بوّأتكم فى الأرض منازل وقصورا لأنظرأتكفرون بجهل نعمى ووضعها فى غير موضعها ، أم تشكرون بالنظام العام ؟ وقد أعددت لكم العدّة ، وأقمت العدل بينكم ، وأنا سريع الحساب فى الدنيا قبل حساب الآخرة ، فمن أكل فوق طاقته ، واتبع شهوته ، فانى أعددت له أمراضا مختلفات تذله ثم تقتله ، واذا أراد البرء منها أعددت له أطباء وأمرتهم أن يحضروا له العقاقير المنافية لمزاجه ولذوقه ، وأعطيتهم الأسلحة والمشارط ، وقلت لهم : أيها الأطباء من استغاث من هؤلاء الجاهلين بنظامى وهو مريض فجرّعوه كؤوس الأدوية يشربها صبرا وعلقما ، ومزّقوا جلده بأسلحتكم المعدّة لذلك ، وأدخلوا تحت جلده مرارة تحقنونه بها ، زيادة فى تعذيبه ، ونكالا به ، لأنه جهل نعمتى ، وهذه الأدوية

المرّة ماهى إلا أنواع من السموم التى تحتمل أجسامهم تحملها ، وتقدر على أن تسوغها وتتمثل بها ، فمن عاش من هؤلاء عاش عليلا سقيما ، ومن كثرت أدويته أوردته موارد الهلكة ، وعجلت به إلى عالم الأرواح ليعرف مستقرّه ودرجته فى عالم الأموات .

هذا خطاب الله الذى يخيل لنا أنه يخاطبهم به فى كل زمان ومكان ، وكأنه عزّ وجل يخاطب الأمم قائلا : « أيتها الأمم : هاأناذا خلقتكم والحشرات وبقية الحيوان حولكم ، وكثير منهنّ لهامالك منظمات ، ومحبة ومساعدة تامّة كالنمل والنحل ، أما أنتم فان أىّ أمة جهلت المحبة العامة وتقاطعت ، وأصبح أفرادها بعضهم لبعض عدوّ كما حصل فى أمم العرب وأمم الاسلام المتأخرين ، فوعزّتى وجلالى لأسلطنّ عليهم من هم أكثر منهم التئاما ، وأوصلهم رحما ، وأقربهم محبة ، وأحسن منهم نظاما فى مدنيتهم وان كان دينهم أقلّ من دينهم ، وشرفهم أدنى ، ولكن المودّة العامة نامية ، فهؤلاء أسلطهم على هؤلاء المتقاطعين يسومونهم سوء العذاب ، ويفتكون بهم فتكا ذريعا ، ويزيدونهم تقاطعا بالوشايات والنكايات ، ويصيرون لهم أشبه بالخدم والعبيد حتى يستيقظوا من نومتهم .

فالأمم العظيمة التى استحكم نظامها وان كان كثير من رجالها فاسقين أسلطهم على الأمم المتقاطعة وان كان أكثر رجالها صالحين ، لأنى أريد المودّة العامة ، والمحبة الملتئمة ، التى تشمل الأمة كلها نظاما واتقانا ، فأىّ أمة قصرت فى ذلك فان من هى أحكم منها نظاما تسطو عليها ، وتهتك سترها ، وتذلها ، وتغير عليها بسلاحها ومدافعها وبارودها وطياراتها ، فتقذف عليها النار من الجوّ ، ومن السفن البحرية ، ذلك جزاء الجاهلين .

هذا ما خطر لى اليوم ١٤ يناير سنة ١٩٣٢ ميلادية — ٥ رمضان ١٣٥٠ هجرية بعد الظهر والحمد لله رب العالمين .

الفصل السابع : في بيان أن تجارب أيامنا هذا زمان ظهورها

إذا رأينا الفارس إذا مات فى الهيجاء اختص باللحم الطيور ، وبالعظام الوحوش ، وأخذ الخيالة ماعليه من سلاح وكراع ، وهذا هو المسمى (بالسلب) كسبب كما يقول عنترة شعرا :

لى النفوس وللطير اللحوم وللـ ـوحش العظام وللخيالة السلب

واذا دفن فى جدثه ، فللدود والحشرات تراث لحمه وعظمه ، ولورثته ماله وعقاره ، وللأمة والتاريخ حوادثه وأخباره ، لم يخلق الله خلقا عبثا ، فاذا مات آباؤنا الأول ، فلنا نحن أفضل ميراث عنهم ، وهى العبرة فى التاريخ : لأن الدود استوفى حظه ، والورثة نالوا مرادهم ، فلنستوف نحن ميراثنا الآن ، ولنقل أن الأئمة رضى الله عنهم كأبى حنيفة ومالك وابن حنبل ومن بعدهم كانوا تحت سلطان قاهر وسيف مسلط ، وملوك مغتصبين ، فأهان المنصور الأوّل والثانى ، وأما الثالث فقد امتحن وأهين فى مسألة خلق القرآن ، إذن فلا سبيل الى إطالتهم فى أمر نظام الدولة الا بمقدار : اما أنهم يجسرون على تطبيق القرآن على الدول والممالك .

(١) مثل أن يستنتجوا من آية « ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى الخ » إن المدار فى الملك على قوّة جسمه وعلمه : وأما مسألة شرف الآباء فليست مقياس ذلك ، وهاهم أولاء بنو إسرائيل يقولون : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه لاننا من بيوته ، ونسلنا أرفع من بيت طالوت ونسبه ، وأيضا ليس عنده سعة من المال والمدار فى الملك على المال والنسب ، أى أنهم يريدون الطبقة الثالثة ، وهى التى تملك بسبب سلطان القوّة الشهوية ، وهى (الأوليغاركية) أى المالية فيصبح المدار فى الملك على المال : فقال الله لهم . كلا . أيها الناس : المدار على العلم

بدل المال ، واستعداد المرء من حيث ذاته هو لا أصله : فهذا رجوع الى أعلى طبقة ، وهو طبقة الأكابر والحكماء بقدر الامكان : فهذه الآية تهدم الركن الركين فى استيلاء العباسيين والأمويين ويرجعون الى الشورى .

(٢) وهل يستطيع أصحاب الشافعى ومالك وابن حنبل وأبى حنيفة أن يرفعوا أصواتهم أمام ملوك هذه الدول : فيقولون أيها الملوك : أما سمعتم قول الله « وأمرهم شورى بينهم » وقوله « وشاورهم فى الأمر » وقوله من قصة بلقيس : « قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد » الخ وقوله فى قصة فرعون اذ يشاور الملأ فى أمر موسى « إذ قال للملا حوله فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه » الخ : ياعجبا مملكتان شرقيتان يذكرهما القرآن ، ملكة تقول « ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » ، وملك عات « يقول للملأ حوله فماذا تأمرون » القرآن صريح فى الشورى ، لاملك يورث ، ولا مال يؤخذ الا بأمر نوّاب الأمة أى أهل الحل والعقد : فهذا كله ترك منذ العصور الاولى لأن الحكومات مستبدة وكل من رفع رأسه قتل أو أهين ، ودرج الخلف على ماسنه السلف ، ورضى الناس بالملوك وعاسوا فى ظلامهم وهم كارهون أو غافلون :

أكتب هذا الليلة : ليلة الثلاثاء ٤ شهر رمضان سنة ١٣٥٠ هـ أكتبه وأنا مقبل على زمان سعادة وهناء لأمة الاسلام بعدنا ، وسيكون هذا من مقوّمات النهضات ، وبناء الحكومات على أساس وطيد ، فلا المال ولا النسب ، ولكن الكفاءة والعلم وضبط الملك ، فوانحن أولاء جئنا فى زمان لاحرج فيه على الكاتبين نظرنا فى تجارب الآباء فاستنتجنا منها هذه النتائج ، وهى واجبة علينا فأما من قبلنا فقد كانوا فى زمان لا يستطيعون فيه أن يرفعوا أصواتهم حتى برفع السيف على أعناقهم ، وأنا لست أقول إنهم لم يدوّنوا ذلك هم دوّنوه ، ولكنهم لم يطوّلوا فيه كما أطالوا فى البيوع والزكاة والصلاة وما أشبهها ، والعلة هى الخوف مع ان هذه المسألة حفاظ لما عداها : لانه لاصلاة ولاحج ولاغيرها والناس غير آمنين فى منازلهم ، والأمن يكون أكمل إذ أسند الأمر إلى أهله .

الفصل الثامن . فى تبيان نعمة الله علينا وعلى الناس فى زماننا وبعده

إن الله عز وجل سيسأل كل ذى علم عن علمه ، والله سيسألنى عن تقصيرى فى النشر بعد الفهم : يقول الله تعالى « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه الخ » ويقول « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التوّاب الرحيم » .

وسيسمع هذا أقوام بعدنا فيرون أن أهم ما فى القرآن متروك ، فلم يستنسخ منه الناس علوما فيوجبوا قراءتها ﴿ مثال ذلك ﴾ علم الآثار كآثار الآشوريين ، والبابليين ، وقدماء المصريين ، والفرس ، وما أشبه ذلك ، تلك الأمم الخالية التى عثر الناس عليها فى الحفائر والمقابر ، وعلى الألواح والطروس ، والورق ، وورق الغزال ، والبردى ، أليست هذه هى التى يقول انه فيها كما قدمناه مرارا « وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال * فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله الخ » ألست ترى أن هذه الآية منطبقة تمام الانطباق على مكر الملوك المستبدين فى الامم الاسلامية الذين ذكرناهم ، وكيف كانوا يمكرون ويحتالون فى

حياة

حيازة ملكهم ، وانما نحن يجب علينا أن ندرس ذلك ، ومن المدهش أن علماء الاسلام أجلوا ذلك ، جعلوا تلك العلوم من فروض الكفايات ، ولكن المسلمون تركوا ذلك كله جهالة كما أوضحناه .

إن هـذا المقال يطول لو استطردنا فيه بذكر قصص القرآن وحوادث الأمم : كل ذلك ذكر لنظام الدول والممالك ، وأنا أحمدك يالله إذ وفقت لوضع نبذ فى هذا المقام تدل على البقية وعلى من يأتون بعدنا ، أن يدرسوا الفلسفة ، ويستخرجوا خلاصتها مع خلاصة القرآن ويرقوا الأمم : إن هـذا الزمان مبدأ لأمم أسعد حالا وأرقى شأنا ، ولذلك أنعم الله بهذا التفسير « فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » .

كتب ليلة الثلاثاء الساعة ١٢ أى نصف الليل ٤ رمضان سنة ١٣٥٠ هـ — ٢ يناير سنة ١٩٣٢

نظرتى فى عوالم العقول وعوالم الحقول . والمزارع . والثمرات

والتسليم لله لمناسبة ما كتبته فى هذا المقام

رباه : أمرت نبينا صلى الله عليه وسلم أن يسلم وجهه لله ، وأمرتنا بذلك التسليم فى آية : « فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن » الآية .

وأمرت المسلم أن يقول فى أوّل كل صلاة : « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا »

رباه : هانحن أولاء وجهنا وجوهنا لك ، وسلمنا أمورنا إليك ، ورجعنا إلى كتابك ، وانتظرنا الفتح منك .

رباه : هانحن أولاء نزلت أرواحنا إلى هذه الأجسام فى أرضك ، ونظرت فى أحوال الأمم التى نعيش معها ، والأمم الخالية فألفينا عجبا ! ألفيناك فعلت فى عقولنا مافعلته فى حقولك وحقولنا :

(١) ذلك انك أنزلت المطر مدرارا فى خط الاستواء أكثر أيام السنة ، ولم يعوز المخلوقات الحية هناك حرث للأرض ، ولارىّ للشجر ، فالأرض تجود بالشجر والمطر فوقها والثمار غزيرة ، والمخلوقات الحية قريرة العين بتلك الثمرات اللائى تؤتى أكلها كل حين باذن ربها .

(٢) ثم رأينا أمما أخرى فى مناطق أخرى يعوزها حرث الأرض لاستخراج نباتها ، وقد كفاه المطر السقى

(٣) وأمم أخرى كأمتنا المصرية يعوزها أمران : حرث لأرضها لتقليب الطين فيها ، واستخراج للماء من الآبار ومن النيل حتى يكون لها زرع وثمر . هكذا رأينا المواهب العقلية والحكمية :

(١) فهانحن أولاء نرى أنبياء ظهرت الحكمة فى قلوبهم فبثوها للأمم ، وهؤلاء الأنبياء لايعوزهم معلمون أرضيون ، وليسوا فى حاجة إلى دراسة النظريات الفلسفية .

(٢) ونرى حكماء فى الارض يعوزهم بحث وتنقيب فى مقابلة القسم الثانى فيما تقدم .

(٣) ونرى علماء يعوزهم أمران : تدريب عقولهم بالبحث ، واستخراج العلم من مخزون علوم الانبياء والحكماء .

هذه أقسام المواهب العلمية المقابلة لمنابت المزارع والحقول والاشجار الارضية : إذن نحن اليوم من الفريق الثالث ، فعلينا أن نجدّ لاستخراج ما كمن فى عقولنا من المواهب فى مقابلة حرث الأرض لاستخراج الزرع منها ، وأن نقرأ ما انبعث من منبع النبوّة من العلم ، فلا ندع عقولنا بلا تفكير لئلا تهلك الأمة كما تهلك أمتنا المصرية جوعا اذا تركت حرث أرضها ، ولاندع علوم آبائنا الأولين ولاحكماء الأمم ولاعلم الرسالة المحمدية ، لئلا تهلك أمتنا الاسلامية كما تهلك الامة المصرية اذا تركت ماء النيل جانبا وأخذت ترقب المطر ، ولامطر غزير فى بلادها : رباه هذه طريقتنا فى حياتنا الدنيا ، نكتب هـذا ، وسيكتب نظيره من بعـدنا ، ونسلم أمورنا اليك ، ونحن نوقن أن هذه المواهب وهذه المعارف ليست لنا ، بل هى منك وهى هبة لعبادك

فكل من كانت لديه أى حكمة من أمم الاسلام فى زماننا أو بعده : فانه مأمور أن يسلم أمره لله ، وأن يسعى فى نشرها فى أمته ، وأن يعلم أنه لافضل له فى معرفتها ولا فى نشرها : كما لافضل لأشجار خط الاستواء فى غزارة ثمراتها ولا لحقول الزرّاع المصريين فى تغـذية عبادك بحبوبها ، فأنت الزارع فى الحالين ، وأنت المهيمن على الأمم منها : فها أنا ذا أفوّض أمرى إليك ، وأقول أسلمت وجهى لله إتباعا لانبيائك ، لاسيما خاتم الرسالة صلى الله عليه وسلم ، وأوقن أن ما أكتبه ماهو الاغيض من فيض رحمتك ، وماعقولنا ولا أبحاثنا إلا كالقلم فى يد كاتبه يصرفه كيف يشاء ، أنت منزل الماء من السماء ومحيي الأرض بعد موتها ، وأنت منزل الوحى ومصرف العقول ، وهاديها الى ماتشاء من طرق الهداية . بها تحيي أمما وأمما ، ولعل هذه الطرائق الحديثة فى أممنا الاسلامية ، ترجع بالناس الى العصور الأولى النبوية ، عصور التسليم لك والانقياد لأمرك والسير على نصوص كتابك ، والاهتداء بأنوارك ، وقيام أمم ودول ، تكون أقرب الى عصر النبوّة فى حبك وفى الاشراف على عبادك بحسن السياسة وانتظام الشمل ، (و بعبارة أخرى) يكون المسلمون فى مستقبل الزمان رحمة لعبادك لانك رب العالمين اه .

إشراق شمس الاسلام بعد إظلام ليله

لقد أبنا فى تفسير هذه الآية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إنّ الله يحبّ المقسطين ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » اختلاف الأمم الاسلامية فى القرون المتأخرة ، وأفضنا فيه إفاضـة كافية وافية ، ومن عادة الله عزّوجل أن يجعل بعد العسر يسرا ، و بعد الضيق سعة : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

اللهم إنا نحمدك حمدا يوافى نعمك ، ويكافىء مزيدك ، رباه قد نلنا ما كنا نتمناه فى أمم الاسلام ، رباه لقـد أنلتنى ما كنت أتوق إليه وأنا حىّ ، نعم نلت ذلك ، فياسبحان الله : هل كان يدور بخلدى أن أعيش حتى أطلع على الاتفاق بين إمام اليمن والملك ابن السعود ، فمذ أيام اختلفا على جبل بينهما ، فوكل الأوّل الحكم للثانى ، فحكم الثانى للأوّل ، وفى هذا اليوم جاء فى جرائدنا المصرية أى يوم الاثنين ١٨ يناير سنة ١٩٣٢ الموافق ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية تحت العنوان الآتى مانصه :

الاتفاق بين جلالة إمام اليمن والملك ابن السعود

« تمّ الاتفاق بين العاهلين العربيين ، وذلك على عدّة نقط ، النقطة الأولى ان الأربعـة المخاليف التى كانت تابعة للسيد على بن محمد الادريسى ، والذين انقضوا عليه بعد وفاة والده السيد محمد الادريسى ، والذين أخذوا منه المدافع التى كانت معه من متراليوز والجبخانة ، وقد ظلوا حاكمين نفوسهم مدة من الزمن ، غـير أنه حصلت الفوضى بينهم ، واختلّ الأمان والاطمئنان ، ثم أصبحت من غير راع ، فما كان من كبرائها إلا أنهم اتفقوا على أنهم يسلمون أنفسهم لجلالة الامام يحيى ، وذهبوا إلى أقرب نقطة تابعة لحكمه تسمى (ساقين) وطلبوا من عامل تلك الجهة أن يتقدّم ليتسلم أمورها ، ويجرى ضبطها ، قبل استفحال الفوضى بها ، وألزموه الحجة ، فطلب منهم تسليم المدافع والجبخانة الموجودة معهـم ، وتسليم الرهاين بحسب العادة المتبعـة هناك ، فأجيب طلبـه ، فأرسل الجيوش المتوكلية واحتلت الجهة تماما من غير أى مقاومة ، ولما بلغ الأمر إلى ابن السعود من عامله بصبياء أرسل من طريق جيزان تلغرافا لعامل الامام بميدى ، وهو القاضى عبد الله العرشى

الذى منه رفعه إلى جلالة الامام يحيى ، فحصلت المخابرات بين العاملين ، ثم اقترحا إرسال مندو بين من الطرفين كان على رأس مندو بى اليمن حاكم ميدى القاضى العرشى ومعه شيخ مشايخ بلاد خولان راجح ، وشيخ بلاد مجور ، وشيخ بنى جماعة ، واجتمع الوفدان عدة مرات ، ثم قرّ القرار على أن البلاد التى احتلها جيش الامام تضمّ إليه ، ويتوقف مؤقتا عن التقدّم الى جهة صبيا ومايليها ، ثم ان وفد ابن السعود طلب أن تعين الحدود مابين عسير واليمن ، فرفض الامام يحيى ذلك ، بحجة أن عسيرمن أمها اليمن ، وقد أجرى الصلح مؤقتا بهذا وبناء على ذلك تمّ الاتفاق ، وأمضى الفريقان المعاهدة . اه

أفليس من العجب أن يكون هذان الأميران ابنى تلكم الأمم التى لم تعرف إلا المشاجرة والتنابذ فى القرون المتأخرة ، وقد رجعا لعصر النبوّة كرة واحدة اتباعا لآية الصلح بين الطائفتين . هـذا ومن عجب أن المسلمين يسرعون فى الرقىّ ، فهـل كان يدور بخلدى أثناء طبع ﴿ سورة سبأ ﴾ التى كمل طبعها فى شهر شوّال سنة ١٣٤٨ هجرية أى منذ أقلّ من سنتين (وأنا الآن أكتب هذا يوم الاثنين العاشر من شهر رمضان سنة ١٣٥٠ هـ) أن ماتمنيته لبلاد اليمن ، بل ما توقعته يتمّ قبـل مضىّ سنتين اثنتين . أفليس هذا من عجائب صنع الله تعالى التى توقعتها فى هذا التفسير ، حقا حقا ان الله أذن برقىّ أمم الاسلام .

كم ذكرت فى هذا التفسير أن هذا زمان رقىّ أمم الاسلام . كم كررت هذه الجملة ، نعم كررتها ، ولادليل عنـدى إلا دافع نفسى ، وهذا الدافع كان كافيا لما أكتبه ، وليس هذا الدافع برهانا عقليا ، إذ البراهين العقلية غير الامور الوجدانية القاصرة على صاحبها ، ولـكم ضلّ قوم بوجدانهم فكثيرا مايخطئ الوجدان ، ولـكن فى هذا المقام صدق الوجدان ، وتمّ ما كنت أتوقعه لهذه الأمة أوجله ، حتى أصبح ذلك عندى يقينا صدقته الحوادث .

فانظر كيف كتبت فى تفسير ﴿ سورة سبأ ﴾ المذكورة انى كنت فسرتها تفسيرا أوّليا بدون اطلاع على ماكتبه المسلمون والاوروبيون عن الآثار فى أرجاء اليمن ، ثم عاقت العوائق عشر سنين اطلعت فى أثنائها على تاريخ تلك البـلاد ، وسبب اضمحلالها ، وأن القوم أهملوا أعمـال زراعتهم ، وصيانة سدودهم ، فانهار السدّ ، فتفرّقوا شـذر مذر ، فـكان الاستنتاج الاجمالى الأوّلى هو عين التفصيل التحقيقى بعـد ذلك ، وفى هذا التفصيل ظهر الـكشف الحديث وفيه آثار بلاد سبأ ، وخريطة « مدينة مأرب » بعد خرابها ، وخريطة « سدّ العرم » ، وذكر العلماء الذين نقبوا عن تلك الآثار ، ومالاقوا من الذلة والمهانة ، وهم من أمم مختلفة وكيف نشروا صور تلك الآثار فى أنحاء أوروبا ، والمسلمون لجهلهم بعلومهم و بلادهم ، وعلوم الأمم حولهم ، ولغاتهـم خامدون نائمون جاهلون كأنهم لايعلمون ، أوكأنهـم غير موجودين فى هذا الـكوكب الذى تعيش عليه ، وختمت المقال هناك بنداء وجهته لأمم الاسلام ، وقلت : إيه يا أمة الاسلام ، أهكذا يكون المسلمون ؟ إلى أن قلت : أيجمـل فى دين المروءة والشرف أن يكون الجاهلون يعمرون أرض الله أكثر من المسلمين ! إلى أن قلت : لا لا إن أمة الاسلام ستأخـذ دورها عن قريب . أمة الاسلام النائمة قد انقضى دورها ، وستأتى أمة الاسلام اليقظة التى تحفظ نعمة الله الخ إلى أن قلت : لم ذكرت سبأ ؟ ألقصة تذكر . كلا . والله ذكرت لنا الآن ، ذكرت لمن يتعظون ، دفن الله المال والعلم فى الصخور والألواح وعلى الجدران ، ثم أخرج ذلك الآن الخ .

هذا قلّ من كل مما كتبته فى ﴿ سورة سبأ ﴾ . أفليس من العجب العجاب أن نرى فى صحيفة الجهاد فى نفس التاريخ المتقدّم تحت عنوان « أخبار اليمن » مانصه :

« تقدّمت الجيوش المتوكلية شرقا وحلت وادى سبأ ومأرب والبيض والسودا والحزا و بنى نوف والعوالق و بيحان والمصعبين ومراد والجوبة ، والجميع يسلمون البلاد إلى القائد العام السيد عبد الله الوزير من غير

أى مقاومة ، وفى أثناء هذه المدة يجرى التنقيب فى مأرب باهتمام عظيم بواسطة الاختصاصيين الألمانيين عن ملوك حمير وكنوزهم المدفونة تحت الجبال ، وقد اهتدت الحكومة اليمانية إلى اخراج مدفن بجهة مأرب ، ووجدت فيه كمية واسعة من الكنوز الذهبية والأحجار الكريمة ، وأيضا وجدت مدفنا آخر بجهة بلد تسمى « النخلة الحمراء » وهى تابعة لبلاد الحداء ، وتبعد عن صنعاء ٣٠ كيلومترا ، والمشرف على اخراج مابها من الكنوز سيف الاسلام محمد بن أمير المؤمنين ، وأيضا وجد كنز بجهة بلدة تسمى « غيمان » وقد وجد بها تمثال الملك من ملوك حمير ، وعدّة تماثيل : منها ماهو على صور الخيل ، ومنها ماهو على صور أخرى ، وأما الملكة قرينة الملك فهم ينقبون عنها فى بلد تسمى « سيان » وهى تبعد عن صنعاء ١٠ كيلومترات ، والتنقيب يجرى باهتمام عظيم . انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة والحمد لله رب العالمين .

كل هذا لما كتبته وسمعه صديقى العالم الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير سرّ أيما سرور ، وقال : هذا هو النصر والفتح المبين . هاهم أولاء القوّامون على أمر اليمن قد نشطوا لاستخراج كنوزها ، ولكن خير لهم أن يعلموا أهل بلادهم كل علم وكل فن حالا كما فعلت اليابان ، وهاهم أولاء أمراء الاسلام غيروا طريقة آبائهم فى القرون المتأخرة التى كانت كلها محنا و بلاء فالحمد لله رب العالمين .

فقلت : إن أمم الاسلام اليوم تخطو خطوات واسعات نحو المجد ، وأما أقول : ستشهد الانسانية مشهدا اسلاميا لايشابهه إلا عصر النبوّة ، وينتشر الرقىّ الاسلامى انتشارا لم يعهد له نظير ، وهذا ابتداء دوره فى أثناء طبع هذا التفسير ، وهذه أمة مقبلة لاحدّ لكمالها ، ولامنتهى لسعادتها .

فقال صديقى : إن الأمر فوق ذلك ، إن اتساع المعارف أخذ يمتدّ بين أمم الاسلام جيعها ، فليس قاصرا على أمة العرب ، بل المدهش أن الأمم التى ليست بعربية أخذت ترتقى طفرة ، لافى الآثار وحدها ، ولافى الصلح بين الطوائف ، بل فى سائر الشؤون الحيوية ، وهل أتاك حديث « المقطم » يوم الثلاثاء ٢٩ ديسمبر ١٩٣١ تحت عنوان « معلومات جديدة » عن بلاد التركستان وهذا نصه :

معلومات جديدة
عن بلاد التركستان الصينية (كشغر)
نصف ساعة مع السيد منصورخان

كثيرا ما كنت أحنّ إلى مصر حنين المرضع الرؤوم إلى فطيمها ، وكلما زمت حقائبى بقصد السفر تماكسنى الظروف وتقعدنى الحوادث ، وماافتحت عينىّ من نوم إلاوأرى صورة الأزهر الشريف ماثلة أمامى ، لاتكاد تفارقنى حتى أراد الله ، وكنت من جملة المدعوين إلى المؤتمر الاسلامى العام ، فلم أر بدّا من زيارة مصر التى باتت منى قاب قوسين أوأدنى ، و بين عشية وضحاها كنت فى مصر أسير فى شوارعها جيئة وذهابا ، وفى ذات يوم ضمنى مجلس مع شاب يدعى « السيد منصورأمين خان » من بلاد تركستان الصينية (كشغر) وهو فى العقد الثالث من عمره ، يحسن خمس لغات : التركية ، والفارسية ، والعربية ، والفرنساوية ، وجانبا من الانكليزية ، وهو أسمر اللون ، معتدل القامة ، طلق المحيا ، ممتلئ الجسم ، لايتكلم اللغة العربية إلا بأسلوبها الفصيح ، حتى انك اذا مزجت كلامك بكلمة عامية يطلب منك تفسيرها ، وانك تمرأى جبينه عنوان الشرف والمبادئ السامية عند مايقع بصرك عليه ، فطلبت منه أن يتحفنى بمعلومات عن تلك البلاد النائية ، فتفضل علينا بالحديث الآتى :

(س) — ما السبب الذى حملك على مغادرة الوطن ؟ وهل زرت غير مصر من البلاد الاسلامية ؟

(ج) — كنت تلميذا فى المدرسة الثانوية فى (كشغر) والعلوم العصرية قليلة فى بلادنا جدّا بالرغم

من

من رقّ العلوم الاسلامية والآداب العربية والفارسية ، فمنذ عصور قديمة كانت بلادى واخوانى المسلمون غرق فى لجة الجهالة ، بحيث لايمكننى تفصيل أحوالهم الاجتماعية فى هذه المدة القصيرة ، فهاأناذا أريد الآن أن أرفع من شأن بلادى وشعبي (وهم مسلمو تركستان الصينية) بالعلوم العصرية ، تلك العلوم التى كانت منذ أزمنة متطاولة حتى زماننا هـذا معدودة من أسباب الزندقة والالحاد فى البلاد بل الكفر، وأن كل من يتعلم علما عصريا يعدّه قومى مارقا من الدين ، إلى أن بزغ فى آفاق عالم الاسلام شمس أحرقت بأنوارها حجب الجهالة ، فتجلى جمال الحقيقة ، وأزيل الغطاء عن عيون شباب بلادى جميعا فى بضع سنين ، الأمر الذى عجزت عنه القرون المتطاولة ، والمؤلفات التى كانت تصدر آنا فآنا لفلاسفة الاسلام ، وما هذه الشمس التى مزّقت تلك الحجب وأحرقتها إلا مؤلفات فيلسوف الاسلام الأوحد فضيلة الاستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى المصرى الذى سحر عقول بلادنا فى مدة وجيزة ، وأبدع قرنا جديدا فى الحياة الاجتماعية الاسلامية ، ووفق بين القرآن والعلوم العصرية ، مما لايدع مجالا للشكّ والريب فى أن تلك العلوم هى نفس الدين ، وأخصّ بالذكر من المؤلفات ﴿التاج المرصع﴾ الذى أهداه لميكادو اليابان و﴿ نظام العالم والأمم﴾ و﴿ تفسير الجواهر﴾ وكتاب ﴿القرآن والعلوم العصرية﴾ . ومن العجب أنى فى أى بلاد مررت بها فى سفرى إلى تركيا كنت أقابل من يعرف فيلسوف الشرق الشيخ طنطاوى جوهرى وفى يده أثر من آثاره القيمة يريد أن يتثقف به ، أو يثقف به غيره ، والحق يقال ان آثار الفيلسوف على ما أعتقد ستؤثر فى عقلية الشعوب تأثيرا يشبه تأثير المصلح فى الدين المسيحى «لوثر» . ولما كنت فى بلادى كان شباب تركستان الصينية يتشاورون فيما بينهم أن يشيدوا باسم الفيلسوف الجوهرى جامعة تكون تذكارا لاسمه ، وتقديرا لأعماله ، إن تلك الآثار القيمة أثرت فى عقلية شبان تركستان الصينية الذين كانوا يتيهون فى بيداء آسيا الوسطى حيارى لامرشد لهم ولادليل ، فى عزلة عن الأمم المتمدنة ، فلما رأوها أقبلوا عليها ، وحلّ فى قلوبهم شوق إلى العلوم العصرية ، فسعوا إلى منابعها فى جامعاتها فى الممالك المتمدنة الاوروبية والاسلامية ، وأن هـذه الكتب الطنطاوية هى التى بعثتنا فى أقطار الشرق والغرب لدراسة علوم الأمم مما حرم منه جميع أجدادنا وآباؤنا ، وأنا واحد من أوّل وفد قام من البلاد ، وعددنا ثلاثون شابا ، وقام بعدنا وفد آخر فآخر ، كل ذلك بتأثير مؤلفات هذا الفيلسوف ، فهاأناذا غادرت بلادى إلى تركيا لاقتباس العلوم العصرية ، وللارتشاف من مناهل حياضها .

(س) ذكرتم أن فى بلادكم مسلمين ، فكم عددهم ومن يحكمهم ؟ .

(ج) عندنا أكثر من عشرة ملايين من الأتراك المسلمين الذين يتكلمون بلهجة قديمة من اللغة التركية ، أما المسلمون فى بلاد الصين فانهم أكثر من سبعين مليون مسلم يتكلمون باللغة الصينية ويعتادون العادات والتقاليد الصينية ، ويدينون بالديانة الاسلامية المحمدية ، وأن الذى يحكمهم هى الحكومة الصينية الأمبراطورية .

(س) هل تضيق الحكومة عليكم فى دينكم ؟ أم هل تقيمون الشعائر بكل حرية ؟ .

(ج) نحن أحرار بكل معنى الكلمة .

(س) هل زرتم غير مصر وتركيا ؟

(ج) الأفغان وإيران فى طريقى إلى تركيا .

(س) هل مكثتم طويلا فى بلاد الأفغان .

(ج) جلت فى الأفغان ستة أشهر ، وأن رفيقى أمين أفندى الكاشغرى دخل فى إحدى المدارس الأفغانية مجانا تحت حماية أمان الله خان الملك السابق . ثم إنى ذهبت إلى وزارة المعارف الأفغانية أخبرنى معاون الوزير برأيه فى صدد ترجمة كتاب ﴿ نظام العالم والأمم﴾ للاستاذ طنطاوى جوهرى إلى اللغة الفارسية لشبان الأفغان

(س) قلتم ان كتاب «التاج المرصع» لهذا الفيلسوف أهداه صاحبه لأمبراطور اليابان ، فهل لهذا الكتاب أثر فى تلك البلاد اليابانية ؟

(ج) إن التاج المرصع لما وصل إلى اليابان أكبّ المسلمون اليابانيون الذين أسلموا من ربع قرن بارشاد المشهور عبد الرشيد ابراهيم السياح ، والآن فى اليابان على ماسمعت من بعض الثقات أكثر من عشرين ألف مسلم يابانى ، فصارهذا الأثر النفيس (دولة) أى تتداوله الأيادى ، وأثر فى زيادة محبتهم لدينهم ، والآن ينتشرالدين الاسلامى بتأثير ترجمة هذا الأثر انتشارا واسع النطاق . انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة

محمد سعيد درويش من سوريا الباب : نزيل مصر

***

فلما سمعت ذلك وكتبته . قلت : صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده ، هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنىّ كريم ، وقرأت : « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » . كتب يوم الاثنين ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية و١٨ يناير سنة ١٩٣٢ م .

هذا هو نهاية الكلام على المقالة الأولى فى قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إنّ الله يحبّ المقسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » والحمد لله رب العالمين .

المقالة الثانية

فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهن ولاتلمزوا أنفسكم ولاتنابذوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون * ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إنّ بعض الظن إثم ولاتجسسوا ولايغتب بعضكم بعضا أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إنّ الله توّاب رحيم »

إن ماتضمنته هذه الآيات فيه « مقامان : المقام الأوّل » فى غوائل اللسان من السخرية والاستهزاء واللمز والتنابذ بالألقاب والغيبة وما أشبهها « المقام الثانى » فى غوائل الأعمال القلبية ، وقد أشير لها بالنهى عن كثير من الظنّ ، ويقرب منه التجسس ، فهنا أمران خطيران : هما اللسان والجنان . قال زهير بن أبى سلمى :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

إن القلب هو العالم النورى الجميل العالى الشريف ، الذى يجمع صور العالمين الدنيوى والأخروى ، واللسان ينوب عنه فى أداء ما كمن فيه من المعانى والعلوم والمعارف ، وكل خير وشرّ ، إذن أمرهما عظيم ، ولاجرم أن فتح المدارس والمعاهد الدينية والكليات والجامعات ، كل ذلك لتكميل العقل وتدريبه . ولقد كانت عناية الناس باللسان لها مقام عظيم أيضا ، ألاترى أن العلوم اللسانية كلها فى الشرق والغرب ترجع إلى تهذيب اللسان ، وفى لغتنا العربية ١٢ علما : كالنحو والصرف واللغة والمعانى والبيان والبديع والخط والانشاء والتاريخ والاملاء والشعر والخطابة ، كل هذه وما يشبهها إنما جعلت لترقية اللسان ، كما ان العقل يرقيه العلوم الرياضية والطبيعية ، والعلم الأعلى وهو العلوم العامة التى تبحث فى نظام العالم العام ، وفى علم النفس وفى علوم الأخلاق والسياسة والله والأرواح والملائكة ، إذن العقل واللسان أمرهما عظيم ، لذلك كان لزاما

علىّ فى هذه المقالة أن أبين لك أيها الذكىّ عجائب العلم والحكمة ، وهذه الثروة العلمية التى ورثناها عن آبائنا الأوّلين ، وكيف دفنت هذه الثروة فى ثنايا الكتب مئات السنين ؟ وكيف نبغت الأمم الاوروبية فى هذه الثروة الآن ولكن بهيئة غير الهيئة الاسلامية والنتيجة واحدة .

أما أرى الآن أنك قد تهيأت نفسك أيها الذكىّ للتبيان ، وشاقها ماسأقوله فى هذا المقام ، وانى سأعجل لك ذلك الآن فأقول :

ياسبحان الله . اللهم إنك أنت المعلم ، أنت الهادى ، أنت الحكيم ، أنت معلم الطيور فى أوكارها ، والوحوش فى أوجارها ، والحشرات فى أكنانها ، والذرات الكروية فى أطوارها ومستقرّها ومستودعها ، وكل من هذه له طريقة تناسبه ، وحال تلائمه ، فهكذا نوع الانسان قد جعلته أشبه بتلك الأنواع ، اننا نرى أن الكلام فى تهذيب اللسان يتخذ طرقا متباينة ، وأحوالا شتى ، ونرى ديننا الاسلامى فيه من كنوز العلوم فى هذا المقام وغيره مابه ينتفع الصادقون المخلصون ، فهاهوذا الامام الغزالى قد ذكر فى الجزء الثالث من الاحياء آفة اللسان فجعلها عشرين ستقرؤها قريبا ، وأبان مضارّها ، والاحتراس منها ، وهاهى ذه جمعية المباحث النفسية فى انكلترا تبحث فى غوائل اللسان كابحث علماؤنا ، ولكن بطريق أخرى ، فانظر ماذا جرى ؟ جعلوا العقل أشبه ببطارية الكهرباء ، واللسان أشبه بحارس لتلك الكهربائية ، فاذا حافظ عليها اللسان ولم يبعثرها وسكت ، فان تلك الكهربائية تكون عونا لصاحبها فى جذب القلوب واقبال الناس على الانسان وسهولة المعاملة وجمع مصالح الحياة ، إن هذه الطريقة نافعة لمن يريد العاجلة ، وطريقة علمائنا نافعة لمن يريد الآخرة ، والطريقتان تسعيان لغرض واحد ، وهذا أمر عجب ! إنّ أسلافنا ظهر منهم الخطباء والحكماء والعظماء وأرباب الحجا بدون أن يعوزهم ماذكره الاوروبيون ، فهم عملوا بما وصى به الله ونبيه والعلماء فانتفعوا ، ولكن علماء المباحث النفسية أدركوا أن الناس الآن لايهتمون إلا بالنتائج القريبة اللهم إن ظهور نتائج حفظ اللسان عند علماء المباحث النفسية فى زماننا من أكبر المعجزات وأعظم الفوائد فى ديننا الاسلامى ، فلأذكر لك أوّلا ماسطرته من أقوال علماء جمعية المباحث النفسية ، ثم أتبعه بما قاله الامام الغزالى فى الاحياء ، وهذان فى حفظ اللسان وهو المقام الأوّل ، ثم أختم بما ذكرته فى كتابى فى علم الأخلاق المسمى « جوهر التقوى » فى الذنوب القلبية كالحسد والحقد بعد ذكر الذنوب اللسانية ، وهو المقام الثانى من المقالة الثانية وهاك ماقالته :

جمعية المباحث النفسية

المغناطيسية الشخصية

الفصل الأول : معرفة القوة

إنا كل منا فيه بطارية كهربائية ، يؤثر ويتأثر ، فالحب من الناس لتيارمنك وأنت لاتعلم ، وكذلك النفور ، فالمرء يؤثر ويتأثر طوعا وكرها .

وجود التيارات العقلية

هناك قوة غير القوة العاقلة تعمل بغير العقل فلنسمها مغناطيسية وان كانت هى غيرها ، وقد تعمل أعمال الكهرباء ، والقصد أن نعرف كيف نحكمها كما حكمنا الكهرباء وان لم نعرف حقيقتها كما جهلت الحياة .

الفصل الثانى

من هو الرجل المغناطيسى ؟ الرجل كالمرأة فى المغناطيسية

(١) ترتاح لمعاشرته .
(٢) رزين لايتأثر بسرعة .
(٣) الاحساس بقوةخفية فيه (لا فى حديثه ولاحركاته ولاسكناته ولامعاملته) بل هى جزء منه .
(٤) يستولى على جزء من كهر بائيتك فتذهب إليه .
(٥) ينظر نظرات رحمة بين عينيك فى أوّل الأنف بدون أن تشعر باشمئزاز مع اللطف عند أوّل كلامه معك .
(٦) يصغى إلى حديثك دائما .
(٧) لاتقف أمامه عقبة ، ولايتلهف على مطالبه ، بل هو واثق بها ، لأنه مستند لارتكانه على المعرفة ، وانه ينال مقصوده .
(٨) لايمدح نفسه ألبتة .
(٩) يزداد القوىّ قوّة فى مغناطيسيته ، والضعيف يزداد ضعفا ، هذه قاعدة .
(١٠) لايغرم باظهار العلم ، بل حديثه عادى .
(١١) لايظهرالرغبة فى الحديث وأنت تعجب به لاعتقادك أنه قادر على الاخبار بالعجائب وهو لايريد وتظن أنه لايتعمد ذلك ، ويظهر لك كأنه فوق المدح والاطراء .
(١٢) إذا ترقىفى هذه الصفة لايسر بآثاره فى أصحابه كالأوّل لأنه أرقى من ذلك .
(١٣) يترقى دائما .
(١٤) مميزات المغناطيسية الشخصية : السطوة ، والتأثير ، والثروة ، والجاه ، والقبول عند الناس ، وهى نتائج منطقية للمقدّمات السابقة ، ويجلب المحبة لجذب الثروة والأفراد .
(١٥) يعزّ عليك مفارقته ، تتعلق به تعلق الطفل بأمّه .
(١٦) يسلب علمك ، وهو يحفظ علمه ، ولوشاء لأسمعك فتحدّثه وهو ساكت ، ثم آخذ علمك .

الرجل غير المغناطيسى

(١) يخيفك وتكره مصاحبته .
(٢) يزيدك حزنا وانقباضا .
(٣) يكثر المجالس .
(٤) يشكو القدر ، والأصحاب ، والجوّ ، وكل شىء .
(٥) متغيرالمبدأ ، سريع التنقل فيه ، وفى الحديث ثقيل عليك ، ولايقنع بشىء ، عابس الوجه ، خائب ، لايحبّ إلا الاطراء الكاذب ، فتخلص منه بالاطراء الكاذب .
(٦) تفرح عند خروجه من عندك ، ولامغناطيسية عنده ، هى سالبة ، فقد أخذ منك شيئا وهو بعض المغناطيسية .
(٧) سببه أنه لايعتمد على نفسه ، لايستقلّ ، والرجل المغناطيسى لايشكو ، ولايبكى ، هوقوة تخضع له الظروف ، ويؤثر فى البيئة التى حوله .
(٨) مسرف فى أحواله .
(٩) منهزم سريعا .
(١٠) النتيجة أنه لايلاقى إلا السار تبعا لقوانين الطبيعة الصادقة .

القاعدة الذهبية

(١) لاتشك لمخاوق ألمك .
(٢) ولاتسع وراء اكتساب المدح ، ولاالشفقة من الناس .
(٣) وفى كل رغبة قوة مغناطيسية يجب حفظها للانتفاع .

الفصل الثالث : طبيعة التيارات العقلية

(١) كل رغبة لأى مطلب هى تيارعقلى عملى يحمل قوة مغناطيسية ، يؤثر الرجل المغناطيسى على اخوانه ، و يعمل فى هذا المستوى بقانون الجذب والتنافر .

(٢) استخراج القوة من الرغبة ، هذه الرغبات اذا عصيناها وحفظناها كانت قوة حفظناها لأنفسنا وان جرينا وراءها ونلنا مبتغاها فقدناها ، فلنحرص عليها ، لأننا أحوج إليها فنخزنها .

(٣) فالأنانية والفخر الكاذب ، وقلة الصبر ، توجب أفعالا تصرف بها عنا تلك القوة .

(٤) لاتدع مجالا لتيارالرغبة أن يفلت من يديك ، ولاتحقق تلك الرغبة لتكون لك قوة تنضم إلى أخواتها فتكون قوى الجذب لغيرك ، فاذا رغبت أن تدهش اخوانك بأخبارعجيبة ، ورأيت فيك مطمحا لذلك فاسكت وهذه قوة حفظتها ، فان حققت ذلك أضعفت مغناطيسيتك .

(٥) الكتمان : اذا رأيت أن تخبرأحد أصدقائك بخبر ولوكان لاقيمة له فاكتمه ، فهذه رغبة مكتومة حفظت لك مغناطيسية ، وهذه أشبه بالحمام فى البرج ، يجلب إليه أخواته ، وكلما كثرت الأمثال تضاعفت الزيادة ، وهذه تخدمك أجل خدمة .

(٦) إياك أن تظن أن حفظ هذه القوة هو الجود والوقوف . كلا . بل كلما زادت حفظا زادت قوة كالنهر كلما علا سده زاد ضغط الماء عليه فيسهل الانتفاع بها أكثر .

(٧) إن قوة الرغبة موجودة ، ألم تر أنك قد تحملك الرغبة على المشى وركوب العربة لاخبارصديقك فاذا حفظت هذه القوة حفظت لك كل قواك التى كانت ستصرفها .

(٨) نحن لايؤثر فيناغرابة الذكاء ، وإنما يؤثر فينا نفس الذكاء ، فقابل الخبر المرقص بسكون كأنك فوق ذلك ، لا انك لاتميل لسماعه . كلا . وكأن نفسك عميقة ، واعجابنا بما يبدو من الأذكياء أقل من اعجابنا بأنهم أعمق منا ، اجعل معارفك واخوانك فى ظلام دامس من جهة أفكارك ، ومتى فعلت ذلك فجأة أعجب بك أصحابك حالا .

(٩) الكتمان جعل الأتباع يظنون فى المتبوعين قوة فوق طاقتهم ، ولولا الكتمان ماجهلت الحقائق والجهل بها أورث الاتباع إعظاما لمتبوعيهم ، فعظماء الرجال سادوا بالكتمان .

(١٠) ممن اتصف بهذه الصفة تشارلس استيوارت الزعيم الأرلندى وهوفوق نابليون ، وكان كثير من هؤلاء معضلات عند أصحابهم ، وكان استوارت بارتل قليل الكلام جدا ، ولاخشرنة فى صوته ، ولايتكلم إلاباللازم ، وكان هادئا فى حديثه .

(١١) الصمت المذكور له أوقات كالأدوية المختلفة ، ومعنى هذا الصمت أن أخبارك تحفظها فى نفسك وتتعود التفكير فيها فتكون قوة حقة ، أما اذا تكلمت وصرحت بأفكارك فقد ذهبت مغناطيسيتك ، فاذا لم تطلعهم على سرك كنت ذاجاذبية قوية تجذبهم إليك كما يجذب المغناطيس قطع الحديد .

(١٢) لاتخبر اخوانك انك قرأت المغناطيسية فذلك يسقط قيمة عملك ، بل اكتم هذا تكون قوة عظيمة ، أما اذا علموا كانت أعمالك ضائعة ، واجتنب الاطراء ، فالذى يطرى أفعاله يزيدعليه الساكت الحافظ رغباته ، فالناس هم المادحون له .

الفصل الرابع

انظر فى حياتك الماضية تجد أنك أنت و ٩٩ من المائة من الناس ينتهزون الفرص لاخبار اخوانهم بما فعلوا لتظهر نباهتهم ، هذه فطرة حب الاطراء والمدح ، وهى تيار من تيارات المغناطيسية الانسانية العقلية فى المخ يتسرب من النفس كما تضيع الكهرباء فى الجو بدون عمل اذا لم تحفظ ، إن هذه الغريزة فينا متى تركت وشأنها أضعفت قوانا وأخذت منا منافع لانهاية لها ، وهى تضاد المنافع الواجبة لنا فلنحفظها ، فلتحذر هذا ولتجتهد أن تكون منتبها ، فلاتحقق رغبة الاطراء ولوفى أبسط الأشياء ، فاحفظها تكسب غيرها بلاتعب ، فسوف تشاهد النتيجة محسوسة ، فى زمن قصير ترى ﴿ أمرين : الأوّل ﴾ أنك بعد أن تقرأ هذه الأخلاق وتعمل بها ترى تغيرا محسوسا فى نفسك ، وفى حياتك اليومية ، يزيد احترامك لنفسك وثقتك بها ، وتعلو هيبتك ووقارك ، وتحس بالقوة الحقيقية تسرى فى عروقك ، بعد التغلب على كل تيار تشعر به ﴿ الثانى ﴾ انك ترى اخوانك قدتغيروا نحوك تغيرا كليا ، يزدادون رغبة للبحث عنك ، والمحادثة والبقاء معك ، يمكنك الزيادة فى كل وقت اذا اتبعت مايأتى : « لاتحقق رغبتهم فى معرفة شؤونك ، واترك أصحابك حيارى من جهتك ، واياك أن تظهر أنك تفعل ذلك متعمدا » انتهى الفصل الرابع .

الفصل الخامس : كيف يمكن استعمال القوى المضادّة لفائدتك الشخصية

كل رغبة تيار موجب أوسالب يريد الاتحاد مع ضده فيحدث التعادل وترجع إلى ما كنت عليه كما يجذب القطب الموجب المغناطيسى القطب السالب ، ألاترى إلى السكير كيف يضرب بالفضائل عرض الحائط ، ويفضح نفسه ، ويخالف ضميره ، تلك قوة قاهرة باطشة ، فلاتستفيد منها كما يستفيد المصارع اليابانى من خصمه ، وتكون وبالا عليه .

معرفة القوة القابلة للاستعمال

ق ـ علمت القوة المغناطيسية الكامنة فى التكتم ، ونبذ الأنانية بالتكلم والفخر ، كل دافع للرذيلة نعمة متنكرة فليقابلها اللبيب بصدر رحب على أىّ شكل كانت ، فتزيد القوة المغناطيسية ، فيضيف جاذبية على جاذبية عنده ، فان اتبع هواه رجع كالعادة وتضعف البطارية العقلية . إن العازل الواقى لك من ضياع المغناطيسية هوالعلم الذى تقرؤه فى مثل هذا .

تمرين هام لامتصاص الطاقة

اذا عرض لك خاطر مزعج مما كان يؤثرفيك سابقا ، فافرح فانك أرقى منه ، وفكر فى أنك ستملكه وتنتفع به ، ففى أثناء التفكير :

(١) خذ نفسك ببطء مقدار ٨ ثوان وكرّرالعبارة الآتية : « سأسعى حالا بارادتى لامتلاك القوّة الكلية لهذه الرغبة » .

(٢) بعد ذلك احفظ الهواء فى رئتيك ٨ ثوان ، وكررالجملة الآتية فى أثناء ذلك : « سأسعى الآن فى

امتصاص هذه القوّة التى ستصبح من الآن ملكا لى » .

(٣) أخرج الهواء من رئتيك ببطء نحو ٨ ثوان وردّد الجملة الآتية فى نفسك أثناء ذلك : « أما الآن فى هدوء تام ، ويمكننى به أن أحكم القوّة المغناطيسية التى أحوزتها » ويمكنك أن تكرّر هذا التمرين عدّة مرّات اذا أردت .

هاأناذا شرحت لك طريقة الامتلاك والامتصاص والهدوء ، وذلك ليس لحفظ القوّة فقط ، بل العلماء يعتقدون أن هناك صلة بين الرئتين ، وبين طبيعة الشعور البشرية .

يتغلب على هوى نفسه

إن هوى نفسك يفقد سلطانه عليك متى اعتقدت وعرفت أنك قادر على التغلب عليه ، وانك تسلبه قوّته ، وتستعملها لأغراضك ، ففى خطوة واحدة صرت أرقى من الهوى النفسى ، وأعلى من العواطف ، والناس يسعون لهذا طول حياتهم ، وقليل منهم الواصل . مثل الرغبة والعواطف كمثل قنبلة فيها فتيلها المحترق الذى ينتهى بفرقعتها ، فان تركها الرجل الجاهل تفرقعت وقتلته ، أوشوّهت جسمه ، وان رفع الفتيل عنها (ولا أخالك إلا فاعلا ذلك) صارت ملكا حلالا تنتفع بها فى حياتك متى شئت ، فالانسان تحت العواطف هالك ، والمالك لها سعيد . انتهى الفصل الخامس .

الفصل السادس: الوقت اللازم لظهور النتائج

سيقول قائل : هذه الفصول الخمسة لم يجئ فيها أمور عالية هى معقدة سر ؟ فنقول : عليك باتباع هذه التعاليم ، والنتيجة أشبه بنتيجة الزرع ، والقوانين هنا كالشمس ، الزرع لايورق ولايزهر ولايثمر إلا فى زمان ملائم ، هكذا هنا فليست النتائج بنت يوم أو بعض يوم .

بعض النتائج فى الحال تشاهد

الطالب الجديد يشاهد فى ٤ أو ٥ أيام على الأكثر بعض النتائج ، وفى الحال يشعر باحترام نفسه ، والثقة بها ، وكلما زدت كبحا للنفس زدت قوّة فى أعصابك ومخك تزيد فى أبحاثك وثقتك بمغناطيسيتك الشخصية ، وهى ليست أنانية ، بل هى طمأنينة وراحة بها يتأكد لك عظيم نفوذك وتأثيرك ، وهى لاتدعو للمباهاة ، ولا المفاخرة أبدا ، ولينتقد كل طالب نفسه بصراحة فى كل لحظة ، فلايقع فيما يقع فيه الناس من الخطأ ، فلاتظنّ أن فقدك الجاذبية من أنانية الأصحاب وذوقهم السقيم ، فالخطأ منك أنت لأنك فقدت الجاذبية .

ضرب مثل

إن زيدا الذى كنت تحبّ اعجابه بك وهو صديقك قد أقبل ، وقد كنت تستجلب مودّته وهو لايلتذ بمعاشرتك ، ولاتدرّه محبتك ، سبب ذلك انك كنت البطارية المرسلة وهو البطارية القابلة ، فكنت فاقدا شرارتك الكهربائية ، فأضعت قوّتك وراء الفخر والمباهاة طوعا أوكرها ، وهوحازثقتك واحترامك بلاتعب ، يمكنك أن ترجع إلى عقلك الآن ترى أن القوانين المتقدّمة تدل على أنه سحب منك ولم تسحب منه .

مايجب عليك ؟

اسكت الآن قليلا ، اترك صاحبك ثلاثة أيام أوأربعة ، هل سرّك شئ تخبر به أصحابك كعادتك ؟ احفظه اترك العادة القديمة ، تغلب على تلك الرغبة ، رغبة الاخبار والمباهاة ، هذا التغلب سهل فى الأوّل ، صعب

بعد ذلك ، لتمكن العادة منك ، ولكنك أنت فوق كل صعب ، لأنك قوىّ العزيمة ، ولست ممن تقف أمامه العقبات ، ولقد كانت تهرب منك تلك القوة ، وا أسفاه : فاحفظ رغائبك المادّية والمعنوية لاتفرّ منك ، وليس هذا نكران الذات إنما هو القانون العلمى الذى يحكم التيارات ، فاذا عملت بهذه القوانين وطبقتها بذكائك أمكنك أن تحفظ قوتك ، وتقاوم رغباتك ، وقوّة ذلك تصير ملكا لك . انتهى الفصل السادس :

الفصل السابع

لعلك تقول قبضت على قوّتى المادّية والمعنوية بيد من حديد ، وجعلتها فى بطاريتى العقلية ، فالنتيجة ؟ ﴿الجواب﴾ القوّة التى ملكتها وحفظتها سوف تجذب إليها مايضادّها من مغناطيسية الآخرين كالكهرباء الموجبة تجذب السالبة بدون عمل منك ولافكر . وجهك يتغير ، وأخلاقك تتغير ، وأعمالك وأنت لاتشعر ، والذى كنت تطلبه فلاتصل إليه يجرى إليك مختارا بلاسعى منك ، يأتى إليك اضطرارا بالقانون والجذب العام ﴿والنصيحة﴾ أن لاتتذمر اذا لم يأت لك نفس ماطلبته بعينه الذى كنت تسعى إليه ، انه سوف يأتى لك يوما من الأيام .

التغير الطبيعي المشاهد

متى ابتدأت فى العمل والتمرين والتقوية بهذه القوانين :

(١) فالجسم يتغير .
(٢) العين أكثر لمعانا .
(٣) البشرة تزيد بياضا .
(٤) القامة أكثر اعتدالا .
(٥) يترك الخوف ، والقلق ، والحزن ، والتململ ، والسآمة ، والتأثر .
(٦) يكون هادئا ساكنا .
(٧) صار الآن ليس هو ذلك الضعيف الذى تلعب به الطبيعة البشرية ، أصبح قوّة لايستهان بها فى الوجود ، تتغير الدنيا فى عينه ، تلبس حلة جديدة ، تتبدّل أفكاره من جهها ، ويستمرّ فى فهم قوّته المعنوية ، فيزيد إيمانا وعقيدة وطمأنينة ، نفسه أصبحت تفهم معنى الحياة ، والعلم قوّة ليس بعدها قوّة .

يجب الانتباه لأبسط الأشياء ، فاذا ترك فرصة واحدة أضاعت كثيرا من قوّته ، هناك ظاهرة طبيعية ، لايعتدّ بها صغار العقول ، وتكون سببا من أسباب اليأس ، وداع من دواعى الخيبة ، اذا سرت فى هذه الأعمال انقادت لك السعادة ، وأصبح ما كان صعبا عليك فى غاية السهولة ، ولكن ربما تقف عند مانلته ماعلم أن القوّة لاتتناهى ، فاطلب الأعلى ولاتقف عند ماوصلت إليه ، فليس للسعادة نهاية ، ولاللقوّة غاية .

الفصل الثامن : اقتراحات نافعة فى الامور العملية

قد عرفت هذه القوانين ، وفهمت كيف تحفظ كهربائيتك ، وتريد أن تستعمل هذه الموهبة فى أمر ، كأن تتوجه إلى رجل فظ غليظ قاسى القلب ، وتريد أن تخلص منه وتؤثر فيه فيكون لك لاعليك ، فهذه القوانين تساعدك :

(١) تظاهر أمامه بمظهرك الأدبى الحقيقى مع الفتور وعدم الاهتمام ، شاعرا انك قادر أن تكون أرقى

من ذلك وألطف فى حضرتك ، ولكنك لاتريد ذلك . وتبتدئ المحادثة وأنت مقتدر لقوتك المحفوظة فى بطاريتك حق قدرها . تكلم بهدوء وطمأنينة . لايظهر على وجهك علامة التلهف والاشتياق . لايظهر الملل عليك ، ولا اليأس على وجهك ، اجعل السرور يعلوأسارير طلعتك مع السكينة والهدوء والثقة بكل نجاح ، وكل حركاتك دالة على ماسبق ، وعند ابتداء الكلام انظر إلى البقعة بين عينيه فى أعلى الأنف ولتعتقد انها موضع ضعف الرجل ، هؤلاء المخشنون ضعاف ، فستنظر عيناه يمينا وشمالا ، ولاتنظر لها بعين برّاقة بل بهدوء وطمأنينة فتبتعد عيناه عنك بقلق زائد ، اجتهد فى أن ينظر إليك وأنت تتكلم ، واذا ابتدأ فى الكلام فارفع عنه نظرك وانظر الى أى نقطة أخرى من جسمه ، اصغ إليه باحترام ، فاذا ابتدأت الكلام انظر النقطة بغير وضوح بحيث لايتنبه ، الهدوء والسكينة مفتاح نجاحك ، و بعدذلك لاينساك أبدا وسوف يعرف انك أثرت فيه

كيف تحصل على الراحة والطمأنينة والثقة بالنفس ؟

تدرّب على الخطابة فى الأماكن الخالية ، أوفى حجرتك التى لايجلس معك فيها أحد ، وخذ النفس بلطف وأخرجه بلطف هكذا ٥ دقائق ، والادخال والاخراج بالتدريج ، و بعد ذلك قف على قدميك ذاهبا جائيا ملقيا كلمات ذات رنات فى أىّ موضوع على شخص ، أوأشخاص ، أوصورتك فى المرآة ، وقل بصوت جهورى ، مشيرا بأصبعك ، مفكرا فى كل جملة قبل النطق بها ، كامل الثقة ، واثقا ثقة تامة بالقول ، حاصرا فيه فكرك ، وتخرج الألفاظ كدقات الأجراس من أعماق صدرك ، والكلام فى أى خاطر يطرأ عليك ، ولوكانت الكلمات غريبة ، أوالأقوال غير معقولة ، وتؤثر على السامع الخيالى وكأن الحادثة حقيقة .

التأثير « قسمان : الأوّل » زيادة الثقة بالنفس وله نتائج عديدة بأشكال مختلفة مباشرة وغير مباشرة وعلى كل حال سوف تعرفها بنفسك وتشعربها فى حينها : متى شعرت بملل واحتجت إلى زيادة ثقتك بنفسك فاقض فى هـذا التمرين نصف ساعة ترَ العجب العجاب . والقسم الثانى تأثير العقيدة ، فاذا كان الحديث فى قضية معاومة استفاد من هذه القوّة العجيبة فائدة ، وحصل على ماير يد على حسب ماطلب فى حديثه ، وكأن تلك الأشياء ملك له فلاتلبث حتى تأتى له ، ووجهة تأثير العقيدة نظرية شائعة فى أوروبا اليوم . والى هنا تمّ الكلام على المقالة الثانية والحمد لله رب العالمين .

هذا ما أردت ذكره من آراء مباحث الجمعية النفسية ذكرتها لأريك أن القوم فى أوروبا أخذوا يحتالون على حفظ اللسان بمثل ذلك وان كنت أعارض فى بعض ماجاء فيه ، وأنت ترى أيها الذكىّ أن هذه الجمعية احتالت على تهذيب اللسان بالنتائج العاجلة بحسب ظنها . وهذه النتائج الدنيوية وصل لها المهذبون من المسلمين سابقا بما أقصه عليك من نبأ الأخبار والآثار التى ذكرها الامام الغزالى فى الاحياء . وسترى عجبا من توافق النتائج فى الحالين وكيف كانت هذه الثروة المخزونة عندنا ضائعة . وظهر عند غيرنا مايوافقها فى نتائجها . فانظر ماسنذكره فيما يلى وهو :

القسم الثانى من المقام الأول فى المقالة الثانية

نذكرهنا ما جاء فى الجزء الثالث من كتاب الاحياء فى صفحة ١٠٠ ومابعدها وهذا نصه :

« ونحن بتوفيق الله وحسن تدبيره نفصل مجامع آفات اللسان ، ونذكرها واحدة واحدة بحدودها وأسبابها وغوائلها ، ونعرّف طرق الاحتراز عنها ، ونورد ماورد من الأخبار والآثار فى ذمّها ، فنذكر أوّلا فضل الصمت ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لايعنى ، ثم آفة فضول الكلام ، ثم آفة الخوض فى الباطل ، ثم آفة

المراء والجدال ، ثم آفة الخصومة ، ثم آفة التقعر فى الكلام بالتشدق ، وتكلف السجع والفصاحة ، والتصنع فيه ، وغير ذلك مما جرت به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة ، ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان ، ثم آفة اللعن إما لحيوان أوجماد أوانسان ، ثم آفة الغناء والشعر . وقد ذكرنا فى كتاب السماع مايحرم من الغناء ومايحل فلانعيده ، ثم آفة المزاح ، ثم آفة السخرية والاستهزاء ، ثم آفة افشاء السر ، ثم آفة الوعد الكاذب ثم آفة الكذب فى القول واليمين ، ثم بيان التعاريض فى الكذب ، ثم آفة الغيبة ، ثم آفة النميمة ، ثم آفة ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعاديين ، فيكلم كل واحد بكلام يوافقه ، ثم آفة المدح ، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأصول الدين ، ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عز وجل ، وعن كلامه وعن الحروف أهى قديمة أومحدثة ؟ وهى آخر الآفات ، ومايتعلق بذلك ، وجملتها عشرون آفة » ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه :

بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت

اعلم أن خطر اللسان عظيم ، ولانجاة من خطره إلا بالصمت ، فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه فقال صلى الله عليه وسلم (١) « من صمت نجا » وقال عليه الصلاة والسلام (٢) « الصمت حكم وقليل فاعله » أى حكمة وحزم (٣) وروى عن عبدالله بن سفيان عن أبيه قال قلت يارسول الله : أخبرنى عن الاسلام بأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم قال قلت فما أتقى ؟ فأومأ بيده إلى لسانه (٤) وقال عقبة بن عامر قلت يارسول الله ماالنجاة ؟ قال أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك (٥) وقال سهل ابن سعد الساعدى قال رسول الله ﷺ : « من يتكفل لى بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقى الشر كله » القبقب هو البطن ، والذبذب الفرج ، واللقلق اللسان ، فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق ، ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين : البطن والفرج (٧) وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر مايدخل الناس الجنة فقال تقوى الله وحسن الخلق ، وسئل عن أكثر مايدخل النار فقال الأجوفان الفم والفرج فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لأنه محله . ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه ، فقد

---

(١) حديث : من صمت نجا (ت) من حديث عبد الله بن عمرو بسند فيه ضعف وقال غريب وهو عند الطبرانى بسند جيد .

(٢) حديث : الصمت حكمة وقليل فاعله : أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بلفظ حكم بدل حكمة وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت ، قال : والصحيح عن أنس أن لقمان قال ورواه كذلك هو وابن حبان فى كتاب « روضة العقلاء » بسند صحيح إلى أنس .

(٣) حديث سفيان الثقفى : أخبرنى عن الاسلام بأمر لاأسأل عنه أحدا بعدك الحديث (ت) وصححه (ون ه) وهو عند (م) دون آخر الحديث الذى فيه ذكر اللسان .

(٤) حديث عقبة بن عامر : قلت يارسول الله ماالنجاة ؟ قال أملك عليك لسانك الحديث (ت) وقال حسن

(٥) حديث سهل بن سعد : من يتوكل لى بما بين لحييه ورجليه أتوكل له بالجنة . رواه خ

(٦) حديث : من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه الحديث أبومنصور الديلمى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ : فقد وجبت له الجنة .

(٧) حديث : سئل عن أكثر ما يدخل الجنة الحديث (ت) وصححه (ه) من حديث أبى هريرة

قال[1] معاذ بن جبل : قلت يارسول الله أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال : ثكلتك أمك يا بن جبل . وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم[2] وقال عبد الله الثقفي : قلت يارسول الله حدثني بأمر أعتصم به ؟ فقال قل ربي الله ثم استقم . قلت يارسول الله ماأخوف ماتخاف علي ؟ فأخذ بلسانه وقال هذا[3] وروى أن معاذا قال يارسول الله أي الأعمال أفضل ؟ فأخرج رسول الله ﷺ لسانه ثم وضع عليه أصبعه[4] وقال أنس بن مالك قال صلى الله عليه وسلم : « لايستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ، ولايستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولايدخل الجنة رجل لايأمن جاره بوائقه » وقال صلى الله عليه وسلم[5] « من سره أن يسلم فليلزم الصمت » وعن سعيد بن جبير مرفوعا إلى رسول الله ﷺ أنه قال[6] اذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان أي تقول : اتق الله فينا فانك ان استقمت استقمنا ، وان اعوججت اعوججنا[7] وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو يمد لسانه بيده فقال له ماتصنع ياخليفة رسول الله ؟ قال هذا أوردني الموارد ان رسول الله ﷺ قال : ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدته[8] وعن ابن مسعود انه كان على الصفا يلبي ويقول : « يالسان قل خيرا تغنم ، واسكت عن شر تسلم ، من قبل أن تندم » فقيل له ياأبا عبد الرحمن أهذا شيء تقوله أوشيء سمعته ؟ فقال لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه »[9] وقال ابن عمر : قال رسول

---

(١) حديث معاذ : قلت يارسول الله أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال ثكلتك أمك ، وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم (ت) وصححه (وك) وقال صحيح على شرط الشيخين .

(٢) حديث عبد الله الثقفي : قلت يارسول الله حدثني بأمر أعتصم به ؟ الحديث رواه (ن) قال ابن عساكر وهو خطأ ، والصواب سفيان بن عبدالله الثقفي كما رواه (ت) وصححه (ه) وقد تقدم قبل هذا بخمسة أحاديث .

(٣) حديث : ان معاذا قال يارسول الله أي الأعمال أفضل ؟ فأخرج لسانه ثم وضع يده عليه ، الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت ، وقال : أصبعه مكان يده .

(٤) حديث أنس : لايستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولايستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائطي في مكارم الأخلاق بسند فيه ضعف .

(٥) حديث : من سره أن يسلم فليلزم الصمت ، ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو الشيخ في فضائل الأعمال والبيهقي في الشعب من حديث أنس باسناد ضعيف .

(٦) حديث : اذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان الحديث (ت) من حديث أبي سعيد الخدري رفعه ، ووقع في الاحياء عن سعيد بن جبير مرفوعا وانما هو عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد رفعه ، ورواه (ت) موقوفا على حماد بن زيد وقال هذا أصح .

(٧) حديث : ان عمر اطلع على أبي بكر وهو يمد لسانه فقال ماتصنع ياخليفة رسول ؟ قال ان هذا أوردني الموارد ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس شيء من الجسد إلايشكو إلى الله عز وجل اللسان على حدته ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو يعلى في مسنده والدارقطني في العلل والبيهقي في الشعب من رواية أسلم مولى عمر ، وقال الدارقطني ان المرفوع وهم على الدراوردي ، قال وروى هذا الحديث عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر ولاعلة له .

(٨) حديث ابن مسعود انه كان على الصفا يلبي ويقول : يالسان قل خيرا تغنم ، وفيه مرفوعا : إن أكثر خطايا بني آدم في لسانه ، الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب بسند حسن

(٩) حديث ابن عمر : من كف لسانه ستر الله عورته الحديث ابن أبي الدنيا في الصمت بسند حسن

صلى الله عليه وسلم : « من كف لسانه ستر الله عورته ، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره » [١] وروى أن معاذ بن جبل قال يا رسول الله أوصني : قال اعبد الله كأنك تراه ، وعدّ نفسك في الموتى ، وان شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله ، وأشار بيده إلى لسانه [٢] وعن صفوان بن سليم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق » [٣] وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » [٤] وقال الحسن : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رحم الله عبدا تكلم فغنم ، أو سكت فسلم » وقيل لعيسى عليه السلام : « دلنا على عمل ندخل به الجنة ؟ قال : لا تنطقوا أبدا ، قالوا لا نستطيع ذلك . فقال : فلا تنطقوا إلا بخير » وقال سليمان بن داود عليهما السلام : « ان كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » [٥] وعن البراء بن عازب . قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : دلني على عمل يدخلني الجنة ؟ قال : أطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، فان لم تطق فكف لسانك إلا من خير . وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « اخزن لسانك إلا من خير ، فانك بذلك تغلب الشيطان » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله عند لسان كل قائل ، فليتق الله امرؤ علم ما يقول » وقال عليه الصلاة والسلام [٧] « اذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقن الحكمة » [٨] وقال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس ثلاثة : غانم ، وسالم ، وشاحب ، فالغانم الذى يذكر الله تعالى ، والسالم الساكت ، والشاحب الذى يخوض فى الباطل » وقال عليه الصلاة والسلام [٩] « إن لسان المؤمن وراء قلبه فاذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه وأن لسان المنافق أمام قلبه فاذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه »

---

(١) حديث : ان معاذ بن جبل قال يا رسول الله اوصني ، قال اعبد الله كأنك تراه الحديث ، ابن أبي الدنيا فى الصمت وطب ، ورجاله ثقات ، وفيه انقطاع .

(٢) حديث صفوان بن سليم مرفوعا : ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق ، ابن أبي الدنيا هكذا مرسلا ورجاله ثقات ، ورواه أبو الشيخ فى طبقات المحدثين من حديث أبي ذر وأبي الدرداء أيضا مرفوعا .

(٣) حديث أبي هريرة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت ، متفق عليه

(٤) حديث الحسن : ذكر لنا رسول الله ﷺ قال : رحم الله عبدا تكلم فغنم أوسكت فسلم ، ابن أبي الدنيا فى الصمت والبيهقي فى الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فانه من رواية اسماعيل ابن عياش عن الحجازيين .

(٥) حديث البراء : جاء أعرابي فقال : دلني على عمل يدخلني الجنة ؟ قال أطعم الجائع الحديث ، ابن أبي الدنيا باسناد جيد .

(٦) حديث : اخزن لسانك إلا من خير ، الحديث (طص) من حديث أبي سعيد وله فى المعجم الكبير ولابن حبان فى صحيحه نحوه من حديث أبي ذر .

(٧) حديث : اذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقن الحكمة (ه) من حديث أبي خلاد بلفظ : اذا رأيتم الرجل قد أعطى زهدا فى الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فانه يلقن الحكمة وقد تقدم

(٨) حديث ابن مسعود : الناس ثلاثة : غانم وسالم وساحب ، الحديث الطبراني ، وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ المجالس ، ومن طريقه ابن عدي ، ولم أجده ثلاثة من حديث ابن مسعود .

(٩) حديث : إن لسان المؤمن وراء قلبه فاذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ، الحديث لم أجده مرفوعا وانما رواه الخرائطي فى مكارم الأخلاق من رواية الحسن البصري قال كانوا يقولون .

وقال عيسى عليه السلام : « العبادة عشرة أجزاء : تسعة منها فى الصمت ، وجزء فى الفرار من الناس » . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (١) « من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به » .

ومما ورد فى الآثار : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يضع حصاة فى فيه يمنع بها نفسه عن الكلام ، وكان يشير إلى لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد . وقال عبد الله بن مسعود : والله الذى لا إله إلا هو ماشيء أحوج إلى طول سجن من لسان . وقال طاوس : « لسانى سبع ان أرسلته أكلنى » . وقال وهب ابن منبه : فى حكمة آل داود : حق على العاقل أن يكون عارفا بزمانه ، حافظا للسانه ، مقبلا على شأنه . وقال الحسن : ماعقل دينه من لم يحفظ لسانه . وقال الأوزاعى : « كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد : فان من أكثر ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير ، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه » . وقال بعضهم : « الصمت يجمع للرجل فضيلتين : السلامة فى دينه ، والفهم عن صاحبه » . وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار : « يا أبا يحيى : حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم » . وقال يونس بن عبيد : « ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك فى سائر عمله » وقال الحسن : « تكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأحنف بن قيس ساكت ، فقال له مالك : يا أبا بحر لا تتكلم فقال له أخشى الله ان كذبت وأخشاك ان صدقت ، وقال أبو بكر بن عياش : « اجتمع أربعة ملوك : ملك الهند ، وملك الصين ، وكسرى ، وقيصر . فقال أحدهم : أنا أندم على ماقلت ولا أندم على مالم أقل . وقال الآخر : انى اذا تكلمت بكلمة ملكتنى ولم أملكها ، واذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكنى . وقال الثالث : عجبت للمتكلم ان رجعت عليه كلمته ضرته وان لم ترجع لم تنفعه . وقال الرابع : أنا على رد مالم أقل أقدر منى على رد ماقلت » . وقيل أقام المنصور بن المعتزلم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة . وقيل ماتكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة ، وكان اذا أصبح وضع دواة وقرطاسا وقلما فكل ماتكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء ، فان قلت فهذا الفضل الكبير للصمت ماسببه فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض فى الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وايذاء الخلق وهتك العورات ، فهذه آفات كثيرة ، وهى سباقة إلى اللسان لاتثقل عليه ، ولها حلاوة فى القلب ، وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويمسكه ويكفه عما لا يحب فان ذلك من غوامض العلم كما سيأتى تفصيله ، ففى الخوض خطر ، وفى الصمت سلامة ، فلذلك عظمت فضيلته ، هذا مع مافيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول فى الدنيا ومن حسابه فى الآخرة ، فقد قال تعالى : « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » . ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة ، أما الذى هو ضرر محض فلابد من السكوت عنه ، وكذلك مافيه ضرر ومنفعة لاتفى بالضرر ، وأما لامنفعة فيه ولاضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران فلايبقى إلا القسم الرابع فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقى ربع وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجا يخفى دركه فيكون الانسان به مخاطرا ، ومن عرف دقائق آفات اللسان على ماسنذكره

---

(١) حديث : من كثر كلامه كثر سقطه الحديث ، أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، وقد رواه أبو حاتم بن حبان فى « روضة العقلاء » والبيهقى فى الشعب موقوفا على عمر بن الخطاب

علم قطعا أن ماذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قال (١) : « من صمت نجا » (٢) فلقد أوتى والله جواهر الحكم قطعا وجوامع الكلم ، ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعانى إلا خواص العلماء ، وفيما سنذكره من الآفات وعسر الاحتراز عنها ما يعرّفك حقيقة ذلك ان شاء الله تعالى ، ونحن الآن نعدّ آفات اللسان ونبتدئ بأخفها ، ونترقى إلى الأغلظ قليلا قليلا ، ونؤخر الكلام فى الغيبة والنميمة والكذب فان النظر فيها أطول ، وهى عشرون آفة ، فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى .

الآفة الأولى : الكلام فيما لا يعنيك

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التى ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلا لا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه ، فانك مضيع به زمانك ، ومحاسب على عمل لسانك ، وتستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه ، ولو هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيرا لك ، فكم من كلمة يبنى بها قصر فى الجنة ، ومن قدر على أن يأخذ كنزا من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسرا خسرانا بينا ، وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه ، فانه وان لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى (٣) فان المؤمن لا يكون صمته إلا فكرا ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكرا هكذا قال النبىّ صلى الله عليه وسلم ، بل رأس مال العبد أوقاته ، ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدّخر بها ثوابا فى الآخرة فقد ضيع رأس ماله ، ولهذا قال النبىّ صلى الله عليه وسلم (٤) « من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه » بل ورد ما هو أشدّ من هذا . قال أنس (٥) استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجرا مربوطا من الجوع ، فمسحت أمه عن وجهه التراب وقالت : هنيئا لك الجنة يابنىّ ، فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضرّه ، وفى حديث آخر (٦) أن النبىّ صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشى حتى أتاه ، فلما دخل عليه قال أبشر يا كعب ، فقالت أمه هنيئا لك الجنة يا كعب ، فقال صلى الله عليه وسلم من هذه المتألية على الله ؟ قال هى أمى يارسول الله قال وما يدريك يا أم كعب لعلّ كعبا قال ما لا يعنيه

(١) حديث : من صمت نجا تقدم .

(٢) حديث : انه صلى الله عليه وسلم أوتى جوامع الكلم (م) من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

(٣) حديث : المؤمن لا يكون صمته إلا فكرا ، ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكرا ، لم أجد له أصلا ، وروى محمد بن زكريا الغلابى أحد الضعفاء عن ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله أمرنى أن يكون نطقى ذكرا ، وصمتى فكرا ، ونظرى عبرة .

(٤) حديث : من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه (ت) وقال غريب (ه) من حديث أبى هريرة .

(٥) حديث : استشهد منا غلام يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع الحديث وفيه : لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويمنع ما لا يضرّه (ت) من حديث أنس مختصرا وقال غريب ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت بلفظ المصنف بسند ضعيف .

(٦) حديث : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض الحديث ، وفيه لعلّ كعبا قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يغنيه ، ابن أبى الدنيا من حديث كعب بن عجرة باسناد جيد إلا أن الظاهر انقطاع بين الصحابى وبين الراوى عنه .

أومنع مالايعنيه ومعناه أنه إنما تتهيأ الجنة لمن لايحاسب ، ومن تكلم فيما لايعنيه حوسب عليه وان كان كلامه فى مباح فلا تتهيأ الجنة مع المناقشة فى الحساب فانه نوع من العذاب . وعن محمد بن كعب (١) قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ان أوّل من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة ، فدخل عبد الله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك وقالوا أخبرنا بأوثق عمل فى نفسك ترجو به ؟ فقال إنى لضعيف وإن أوثق ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك مالا يعنينى » وقال أبو ذر (٢) قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل فى الميزان ، قلت بلى يارسول الله ؟ قال هو الصمت وحسن الخلق وترك مالا يعنيك . وقال مجاهد : سمعت ابن عباس يقول : « خمس لهنّ أحبّ الىّ من الدهم الموقوفة : لاتتكلم فيما لايعنيك فانه فضل ، ولا آمن عليك الوزر ، ولا تتكلم فيما لايعنيك حتى تجد له موضعا ، فانه ربّ متكلم فى أمر يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فعنت ، ولا تمار حليما ولا سفيها ، فان الحليم يقليك والسفيه يؤذيك ، واذكر أخاك اذا غاب عنك بما تحبّ أن يذكرك به ، واعفه مما تحبّ أن يعفيك منه ، وعامل أخاك بما تحبّ أن يعاملك به ، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالاحسان ، مأخوذ بالاجترام » وقيل للقمان الحكيم ما حكمتك ؟ قال لا أسأل عما كفيت ، ولا أتكلف مالا يعنينى . وقال مورق العجلىّ : « أمر أنا فى طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه ، قالوا وماهو ؟ قال السكوت عما لايعنينى » . وقال عمر رضى الله عنه : « لاتتعرّض لما لايعنيك ، واعتزل عدوّك ، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ، ولا تطلعه على سرّك ، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تعالى» : وحدّ الكلام فيما لايعنيك . أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضرّ به فى حال ولا مآل ، مثاله : أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار ، وما وقع لك من الوقائع ، وما استحسنته من الأطعمة والثياب ، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم ، فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضرّ ، واذا بالغت فى الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ، ولا اغتياب لشخص ، ولا مذمة لشىء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك ، وأنى تسلم من الآفات التى ذكرناها ، ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك ، فأنت بالسؤال مضيع وقتك ، وقد ألجأت صاحبك أيضا بالجواب إلى التضييع ، هذا اذا كان الشىء مما لايتطرّق إلى السؤال عنه آفة وأكثر الأسئلة فيها آفات ، فانك تسأل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له : هل أنت صائم ؟ فان قال نعم كان مظهرا لعبادته فيدخل عليه الرياء وان لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السرّ ، وعبادة السرّ تفضل عبادة الجهر بدرجات ، وان قال لا كان كاذبا ، وان سكت كان مستحقرا لك وتأذيت به ، وان احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه ، فقد عرّضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب فى حيلة الدفع ، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته ، وكذلك سؤالك عن المعاصى ، وعن كل مايخفيه ويستحى منه ، وسؤالك عما حدّث به غيرك فتقول : ماذا تقول وفيم أنت ؟ وكذلك ترى انسانا فى الطريق فتقول من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره فان ذكره تأذى به واستحيا وان لم يصدق وقع فى الكذب وكنت السبب

(١) حديث محمد بن كعب : ان أوّل من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة فدخل عبد الله ابن سلام الحديث ، وفيه : ان أوثق ما أرجوه سلامة الصدر وترك مالا يعنينى ، ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا وفيه أبو نجيح اختلف فيه .

(٢) حديث أبى ذرّ : ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن الحديث ، وفيه : هو الصمت وحسن الخلق وترك مالا يعنيك ، ابن أبى الدنيا بسند منقطع .

فيه ، وكذلك تسأل عن مسألة لاحاجة بك إليها والمسئول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لا أدرى فيجيب عن غير بصيرة ، ولست أعنى بالتكلم فيما لا يعنى هذه الأجناس فان هذا يتطرّق إليه إثم أوضرر ، وإنما مثال مالايعنى : ماروى أن لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم فجعل يتعجب مما رأى ! فأراد أن يسأله عن ذلك فنعته حكمته ، فأمسك نفسه ولم يسأله ، فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال نعم الدرع للحرب ، فقال لقمان : « الصمت حكم وقليل فاعله » أى حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال ، وقيل انه كان يتردّد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال ، فهذا وأمثاله من الأسئلة اذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط فى رياء وكذب وهومما لايعنى وتركه من حسن الاسلام فهذا حدّه ، وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة مالاحاجة به إليه ، أوالمباسطة بالكلام على سبيل التودّد أوتزجية الأوقات بحكايات أحوال لافائدة فيها ، وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وانه مسئول عن كل كلمة * وأن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين ، فاهماله ذلك وتضييعه خسران مبين ، هذا علاجه من حيث العلم ، وأما من حيث العمل فالعزلة ، أوأن يضع حصاة فى فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض مايعنيه حتى يعتاد اللسان ترك مالايعنيه ، وضبط اللسان فى هذا على غير المعتزل شديد جدا . انتهى الكلام على الآفة الأولى .

الآفة الثانية : فضول الكلام

وهوأيضا مذموم وهذا يتناول الخوض فيما لايعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة فان من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يجسمه ويقرّره ويكرّره ومهما تأدّى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول : أى فضل عن الحاجة وهوأيضا مذموم لماسبق وان لم يكن فيه إثم ولاضرر . قال عطاء ابن أبى رباح : « إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدّون فضول الكلام ماعدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ أوأمرا بمعروف ، أونهيا عن منكر ، أوأن تنطق بحاجتك فى معيشتك التى لابدّ لك منها ، أتنكرون : إن عليكم حافظين كراما كاتبين . عن اليمين وعن الشمال قعيد ، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحيى أحدكم اذا نشرت صحيفته التى أملاها صدرنهاره كان أكثرمافيها ليس من أمر دينه ولادنياه » . وعن بعض الصحابة . قال : « إن الرجل ليكلمنى بالكلام لجوابه أشهى إلىّ من الماء البارد إلى الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولا » . وقال مطرف : ليعظم جلال الله فى قلوبكم فلاتذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار : اللهم أخزه ، وماأشبه ذلك ، واعلم أن فضول الكلام لاينحصر ، بل المهمّ محصو فى كتاب الله تعالى . قال الله عزّوجل : « لاخير فى كثير من نجواهم إلامن أمر بصدقة أومعروف أوإصلاح بين الناس » وقال صلى الله عليه وسلم[1] : « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه ، وأنفق الفضل من ماله » فانظر كيف قلب الناس الأمر فى ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان . وعن مطرّف بن عبد الله عن أبيه . قال[2] : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط

(١) حديث : طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه ، وأنفق الفضل من ماله ، البغوى وابن قانع فى معجمى الصحابة والبيهقى من حديث ركب المصرى ، وقال ابن عبد البرّ انه حديث حسن ، وقال البغوى لاأدرى سمع من النبىّ صلى الله عليه وسلم أم لا ، وقال ابن منده : مجهول لانعرف له صحبة ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) حديث مطرف بن عبد الله عن أبيه قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط من بنى عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا الحديث (دن) فى اليوم والليلة بلفظ آخر ، ورواه ابن أبى الدنيا بلفظ المصنف

من بنى عامر فقالوا : أنت والدنا ، وأنت سيدنا ، وأنت أفضلنا علينا فضلا ، وأنت أطولنا علينا طولا ، وأنت الجفنة الغرّاء ، وأنت وأنت . فقال : قولوا قولكم ولايستهوينكم الشيطان إشارة إلى أن اللسان اذا أطلق بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها ، وقال ابن مسعود : أنذركم فضول كلامكم ، حسب امرئ من الكلام مابلغ به حاجته . وقال مجاهد : إن الكلام ليكتب حتى ان الرجل ليسكت ابنه فيقول : أبتاع لك كذا وكذا فيكتب كذابا . وقال الحسن : « يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ماشئت وأكثر أوأقل» . وروى أن سليمان عليه السلام بعث بعض عفاريته وبعث نفرا ينظرون مايقول ويخبرونه فأخبروه بأنه مرّ فى السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهزّ رأسه فسأله سليمان عن ذلك فقال : عجبت من الملائكة على رءوس الناس ما أسرع ما يكتبون ومن الذين أسفل منهم ماأسرع مايملون . وقال ابراهيم التيمى : اذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فان كان له تكلم والا أمسك ، والفاجر انما لسانه رسلا رسلا . وقال الحسن : من كثر كلامه كثر كذبه ، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه . وقال عمرو بن دينار (١) : تكلم رجل عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم « كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال شفتاى وأسنانى ، قال : أفما كان لك فى ذلك مايردّ كلامك » ؟ وفى رواية انه قال ذلك فى رجل أثنى عليه فاستهتر فى الكلام ، ثم قال «ماأوتى رجل شرا من فضل فى لسانه » وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : انه ليمنعنى من كثير من الكلام خوف المباهاة . وقال بعض الحكماء : اذا كان الرجل فى مجلس فأعجبه الحديث فليسكت ، وان كان ساكتا فأعجبه السكوت فليتكلم . وقال يزيد بن أبى حبيب من فتنة العالم أن يكون الكلام أحبّ إليه من الاستماع ، فان وجد من يكفيه فان فى الاستماع سلامة ، وفى الكلام تزيين وزيادة ونقصان . وقال ابن عمر : إن أحقّ ماطهر الرجل لسانه ، ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة ، فقال : لوكانت هذه خرساء كان خيرا لها ، وقال ابراهيم : « يهلك الناس خلتان : فضول المال ، وفضول الكلام » فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث عليه ، وعلاجه ماسبق فى الكلام فيما لايعنى . انتهى الكلام على الآفة الثانية .

الآفة الثالثة : الخوض فى الباطل

وهو الكلام فى المعاصى ، كحكاية أحوال النساء ، ومجالس الخمر ، ومقامات الفساق ، وتنعم الأغنياء ، وتجبر الملوك ، ومراسمهم المذمومة ، وأحوالهم المكروهة ، فان كل ذلك مما لايحلّ الخوض فيه وهو حرام ، وأما الكلام فيما لايعنى أوأكثر مما يعنى فهو ترك الأولى ولاتحريم فيه ، نعم من يكثر الكلام فيما لايعنى لايؤمن عليه الخوض فى الباطل ، وأكثر الناس يتجالسون للتفرّج بالحديث ، ولايعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس ، أوالخوض فى الباطل ، وأنواع الباطل لايمكن حصرها لكثرتها وتفننها ، فلذلك لامخلص منها إلا بالاقتصار على مايعنى من مهمات الدين والدنيا ، وفى هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها ، فقد قال بلال بن الحرث (٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله مايظن أن تبلغ به مابلغت فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وان الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله مايظن أن تبلغ به مابلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة» ، وكان علقمة يقول : كم من كلام

---

(١) حديث عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فأكثر ، فقال : كم دون لسانك من باب ، الحديث ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا ورجاله ثقات .

(٢) حديث بلال بن الحرث : إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله الحديث ه ت وقال حسن صحيح

منعنيه حديث بلال بن الحرث ، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم (١) : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا » وقال أبوهريرة : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة مايلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم ، وان الرجل ليتكلم بالكلمة مايلقى لها بالا يرفعه الله بها فى أعلى الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا فى الباطل » ، واليه الاشارة بقوله تعالى : « وكنا نخوض مع الخائضين » وبقوله تعالى : « فلاتقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره انكم إذن مثلهم » ، وقال سلمان : أكثر الناس ذنوبا يوم القيامة أكثرهم كلاما فى معصية الله ، وقال ابن سيرين : كان رجل من الأنصار يمرّ بمجلس لهم فيقول لهم توضؤا فان بعض ماتقولون شرّ من الحدث ، فهذا هو الخوض فى الباطل ، وهو وراء ماسيأتى من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها بل هو الخوض فى ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها ، ويدخل فيه أيضا الخوض فى حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ، وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن فى بعضهم ، وكل ذلك باطل ، والخوض فيه خوض فى الباطل ، نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه . انتهى الكلام على الآفة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة الرابعة : المراء والجدال

وذلك منهى عنه ، قال صلى الله عليه وسلم (٣) : « لاتمار أخاك ولاتمازحه ، ولاتعده موعدا فتخلفه » وقال عليه السلام (٤) : « ذروا المراء فانه لاتفهم حكمته ، ولاتؤمن فتنته » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « من ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة ، ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة » وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت (٦) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أوّل ماعهد إلىّ ربى ونهانى عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال » ، وقال أيضا (٧) : « ماضلّ قوم بعد أن هداهم الله

(١) حديث : إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة بسند حسن ، وللشيخين (و ت) : إن الرجل ليتكلم بالكلمة لايرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفا فى النار ، لفظ (ت) وقال حسن غريب .

(٢) حديث : أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا فى الباطل ابن أبى الدنيا من حديث قتادة مرسلا ورجاله ثقات ، ورواه هو والطبرانى موقوفا على ابن مسعود بسند صحيح .

(٣) حديث : لاتمار أخاك ولاتمازحه ولاتعده وعدا فتخلفه (ت) من حديث ابن عباس وقد تقدم .

(٤) حديث : ذروا المراء فانه لاتفهم حكمته ولا تؤمن فتنته (طب) من حديث أبى الدرداء وأبى أمامة وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع باسناد ضعيف دون قوله لاتفهم حكمته ، ورواه بهذه الزيادة ابن أبى الدنيا موقوفا على ابن مسعود .

(٥) حديث : من ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة ، الحديث تقدم فى العلم .

(٦) حديث أم سلمة : ان أوّل ماعهد إلىّ ربى ونهانى عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى والبيهقى بسند ضعيف ، وقد رواه ابن أبى الدنيا فى المراسيل من حديث عروة بن رويم .

(٧) حديث : ماضلّ قوم إلا أوتوا الجدل ت من حديث أبى أمامة وصححه وزاد : بعد هدى كانوا عليه ، وتقدم فى العلم ، وهو عند ابن أبى الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف .

إلا أوتوا الجدل » ، وقال أيضا (١) : « لا يستكمل عبد حقيقة الايمان حتى يدع المراء وان كان محقا » وقال أيضا (٢) : « ست من كنّ فيه بلغ حقيقة الايمان : الصيام فى الصيف ، وضرب أعداء الله بالسيف ، وتعجيل الصلاة فى اليوم الدجن ، والصبر على المصيبات ، واسباغ الوضوء على المكاره ، وترك المراء وهو صادق » . وقال الزبير لابنه : لاتجادل الناس بالقرآن فانك لاتستطيعهم ولكن عليك بالسنة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل ، وقال مسلم بن يسار : إياكم والمراء فانه ساعة جهل العالم وعندها يبتغى الشيطان زلته . وقيل : ماضلّ قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدال . وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه : ليس هذا الجدال من الدين فى شىء . وقال أيضا : المراء يقسى القلوب ويورث الضغائن . وقال لقمان لابنه : يابنىّ لاتجادل العلماء فيمقتوك . وقال بلال بن سعد : اذا رأيت الرجل لجوجا ممار يا معجبا برأيه فقد تمت خسارته . وقال سفيان : لوخالفت أخى فى رمانة فقال حلوة وقلت حامضة لسعى بى إلى السلطان . وقال أيضا : صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمنعك العيش . وقال ابن أبى ليلى : لا أمارى صاحبى فاما أن أكذبه واما أن أغضبه ، وقال أبوالدرداء : كفى بك إثما أن لاتزال ممار يا ، وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « تكفير كل لحاء ركعتان » وقال عمر رضى الله عنه : لاتتعلم العلم لثلاث ولاتتركه لثلاث : لاتتعلمه لتمارى به ، ولالتباهى به ، ولالترائى به ، ولاتتركه حياء من طلبه ، ولازهادة فيه ولارضا بالجهل منه ، وقال عيسى عليه السلام : « من كثر كذبه ذهب جماله ، ومن لاحى الرجال سقطت مروءته ، ومن كثر همه سقم جسمه ، ومن ساء خلقه عذّب نفسه » ، وقيل لميمون بن مهران : « مالك لاتترك أخاك عن قلى ؟ قال لأنى لاأشاريه ولاأماريه » وماورد فى ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى : وحدّ المراء هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه إما فى اللفظ واما فى المعنى واما فى قصد المتكلم ، وترك المراء بترك الانكار والاعتراض ، فكل كلام سمعته فان كان حقا فصدّق به وان كان باطلا أوكذبا ولم يكن متعلقا بامور الدين فاسكت عنه ، والطعن فى كلام الغير تارة يكون فى لفظه باظهار خلل فيه من جهة النحو ، أومن جهة اللغة ، أومن جهة العربية ، أومن جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أوتأخير وذلك يكون تارة من قصور المعرفة ، وتارة يكون بطغيان اللسان ، وكيفما كان فلاوجه لاظهار خلله ، وأما فى المعنى فبأن يقول : ليس كما تقول وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا ، وأما فى قصده فمثل أن يقول : هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وانما أنت فيه صاحب غرض ومايجرى مجراه ، وهذا الجنس ان جرى فى مسألة علمية ربما خص باسم الجدل ، وهو أيضا مذموم بل الواجب السكوت أوالسؤال فى معرض الاستفادة لاعلى وجه العناد والنكارة ، أوالتلطف فى التعريف لافى معرض الطعن ، وأما المجادلة فعبارة عن قصد افحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح فى كلامه ، ونسبته إلى القصور والجهل فيه ، وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروها عند المجادل يحب أن يكون هو المظهر له خطأه ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه ، ولانجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل مالايأثم به لوسكت عنه ، وأما الباعث على هذا فهو الترفع باظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير باظهار نقصه ، وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها ، أما اظهار

(١) حديث : لايستكمل عبد حقيقة الايمان حتى يذر المراء وان كان محقا ، ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة بسند ضعيف ، وهوعند أحمد بلفظ : لايؤمن العبد حتى يترك الكذب فى المزاحة والمراء وان كان صادقا .

(٢) حديث : ست من كنّ فيه بلغ حقيقة الايمان الحديث وفيه ترك المراء وهو صادق أبومنصور الديلمى من حديث أبى مالك الأشعرى بسند ضعيف بلفظ : ست خصال من الخير الحديث .

(٣) حديث : تكفير كل لحاء ركعتان ، الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف .

الفضل فهو من قبيل تزكية النفس ؛ وهى من مقتضى مافى العبد من طغيان دعوى العلوّ والكبرياء ، وهى من صفات الربوبية ، وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فانه يقتضى أن يمزّق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه ، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان وانما قوتهما المراء والجدال ، فالمواظب على المراء والجدال مقوّ لهذه الصفات المهلكة ، وهذا مجاوز حدّ الكراهة ، بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير ، ولاتنفك المماراة عن الايذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدح فى قائله بكل مايتصوّر له ، فيثور الشجار بين المتماريين كما يثور الهراش بين الكلبين ، يقصد كل واحد منهما أن يعضّ صاحبه بما هو أعظم نكاية ، وأقوى فى إفحامه وإلجامه ، وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على اظهار فضله ، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره كما سيأتى ذلك فى كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب فان علاج كل علة باماطة سببها ، وسبب المراء والجدال ما ذكرناه ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعا حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه ، روى أن أبا حنيفة رحمة الله عليه قال لداود الطائى : لم آثرت الانزواء ؟ قال لأجاهد نفسى بترك الجدال ، فقال احضر المجالس واستمع مايقال ولاتتكلم ، قال ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشدّ علىّ منها وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه تعسر عليه الصبر عند ذلك جدا ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا فى أعلى الجنة » لشدّة ذلك على النفس ، وأكثر مايغلب ذلك فى المذاهب والعقائد فان المراء طبع ، فاذا ظن أن له عليه ثوابا اشتدّ عليه حرصه ، وتعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض ، بل ينبغى للانسان أن يكفّ لسانه عن أهل القبلة ، واذا رأى مبتدعا تلطف فى نصحه فى خلوة ، لابطريق الجدال فان الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه فى التلبيس ، وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا ، فتستمر البدعة فى قلبه بالجدل وتتأكد ، فاذا عرف أن النصح لاينفع اشتغل بنفسه وتركه ، وقال ﷺ [(١)] « رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن مايقدر عليه » ، وقال هشام ابن عروة : كان عليه السلام يردّد قوله هذا سبع مرات ، وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ، ووجد لنفسه بسببه عزّا وقبولا قويت فيه هذه المهلكات ولايستطيع عنها نزوعا اذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء ، وحب الجاه ، والتعزّز بالفضل ، وآحاد هذه الصفات يشقّ مجاهدتها فكيف بمجموعها ! وبهذا تمّ الكلام على الآفة الرابعة .

الآفة الخامسة : الخصومة

وهى أيضا مذمومة ، وهى وراء الجدال والمراء : فالمراء طعن فى كلام الغير باظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير واظهار مزية الكياسة ، والجدال عبارة عن أمر يتعلق باظهار المذاهب وتقريرها والخصومة لجاج فى الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود ، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضا والمراء لايكون إلا باعتراض على كلام سبق ، فقد قالت عائشة رضى الله عنها [(٢)] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن

---

(١) حديث : رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن مايقدر عليه ، ابن أبى الدنيا باسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم مرسلا ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ : رحم الله امرأ كف لسانه عن أعراض المسلمين وهو منقطع وضعيف جدا .

(٢) حديث عائشة : إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم خ وقد تقدّم .

أبغض

أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » وقال أبو هريرة (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع » . وقال بعضهم : « إياك والخصومة فانها تمحق الدين » ويقال : « ماخاصم ورع قط في الدين » ، وقال ابن قتيبة : مرّ بي بشر بن عبد الله بن أبي بكرة ، فقال : مايجلسك ههنا ؟ قلت خصومة بيني و بين ابن عمّ لي ، فقال : ان لأبيك عندي يدا واني أريد أن أجزيك بها ، واني والله مارأيت شيئا أذهب للدين ، ولاأنقص للمروءة ، ولاأضيع للذة ، ولا أشغل للقلب من الخصومة قال فقمت لأنصرف فقال لي خصمي مالك ؟ قلت لاأخاصمك ، قال انك عرفت أن الحق لي ، قلت لا ولكن أكرم نفسي عن هـذا ، قال فاني لا أطلب منك شيئا هولك ، فان قلت فاذا كان للانسان حق فلابدّ له من الخصومة في طلبه أوفي حفظه مهما ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه ، وكيف تذم خصومته ؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم مثل وكيل القاضي فانه قبل أن يتعرّف أن الحقّ في أي جانب هو يتوكل في الخصومة من أيّ جانب كان فيخاصم بغير علم ويتناول الذي يطلب حقه ولكنه لايقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد في الخصومة على قصد التسلط ، أوعلى قصد الايذاء ، ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحجة واظهار الحق ، ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال ، وفي الناس من يصرّح به ويقول إنما قصدي عناده وكسر عرضه واني ان أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جدا ، فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد واسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وايذاء ففعله ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ماوجد إليه سبيلا ، فان ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب ، واذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه و بقي الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرّته ويطلق اللسان في عرضه ، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرّض لهذه المحذورات ، وأقلّ مافيه تشويش خاطره ، حتى انه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلايبقى الأمر على حدّ الواجب ، فالخصومة مبدأ كل شرّ ، وكذا المراء والجدال ، فينبغي أن لايفتح بابه إلا لضرورة ، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جدا ، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ولاتذم خصومته إلا أنه ان كان مستغنيا عن الخصومة فيما خاصم فيه لأن عنده مايكفيه فيكون تاركا للأولى ولا يكون آثما نعم أقلّ مايفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب ، إذ أقلّ درجات طيب الكلام اظهار الموافقة ، ولاخشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذي حاصله إما تجهيل واما تكذيب ، فان من جادل غيره أوماراه أوخاصمه ، فقد جهله أوكذبه فيفوت به طيب الكلام ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) « يمكنكم من الجنة طيب الكلام واطعام الطعام » وقد قال الله تعالى : « وقولوا للناس حسنا » ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وان كان مجوسيا إن الله تعالى يقول : واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردّوها » ، وقال ابن عباس أيضا : « لوقال لي فرعون خيرا لرددت عليه » ، وقال أنس (٣) قال رسول الله ﷺ « إن في الجنة لغرفا يرى

---

(١) حديث أبي هريرة : من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع ، ابن أبي الدنيا والأصفهاني في الترغيب والترهيب ، وفيه رجاء أبو يحيى ضعفه الجمهور .

(٢) حديث : يمكنكم من الجنة طيب الكلام واطعام الطعام ، الطبراني من حديث جابر وفيه من لاأعرفه ، وله من حديث هانئ أبي شريح باسناد جيد : يوجب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام

(٣) حديث أنس : إن في الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها ، الحديث (ت) وقد تقدم .

ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام » ، وروى أن عيسى عليه السلام مرّ به خنزير فقال مرّ بسلام ، فقيل : ياروح الله أتقول هذا لخنزير ؟ فقال : أكره أن أعوّد لسانى الشرّ ، وقال نبينا عليه الصلاة والسلام (١) : « الكلمة الطيبة صدقة » . وقال (٢) : « اتقوا النار ولو بشق تمرة فان لم تجدوا فبكلمة طيبة » ، وقال عمر رضى الله عنه : « البرّ شىء هين ، وجه طليق وكلام لين » . وقال بعض الحكماء : « الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة فى الجوارح » . وقال بعض الحكماء أيضا : « كل كلام لايسخط ربك إلا انك ترضى به جليسك فلاتكن به عليه بخيلا فانه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين » . هذا كله فى فضل الكلام الطيب وتضاده الخصومة والمراء والجدال واللجاج فانه الكلام المستكره الموحش ، المؤذى للقلب ، المنغص للعيش ، المهيج للغضب ، الموغر للصدر ، نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه . تمّ الكلام على الآفة الخامسة والحمد لله رب العالمين .

الآفة السادسة : التقعر فى الكلام والتشدّق

التقعر فى الكلام بالتشدّق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدّمات وماجرت به عادة المتفاصحين المدّعين للخطابة ، وكل ذلك من التصنع المذموم ، ومن التكلف الممقوت ، الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وأتقياء أمّتى برآء من التكلف » . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « إن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجلسا الثرثارون المتفيهقون المتشدّقون فى الكلام » وقالت فاطمة رضى الله عنها (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ، يأكلون ألوان الطعام ، ويلبسون ألوان الثياب ، ويتشدّقون فى الكلام » . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) : ألاهلك المتنطعون ثلاث مرات ، والتنطع هو التعمق والاستقصاء . وقال عمر رضى الله عنه : إن شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان » ، وجاء عمرو ابن سعد بن أبى وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة فتكلم بين يدى حاجته بكلام ، فقال له سعد : ماكنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (٦) : « يأتى على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها » وكأنه أنكر عليه ماقدّمه على الكلام من التشبب والمقدّمة المصنوعة المتكلفة ، وهذا أيضا من آفات اللسان ، ويدخل فيه كل سجع متكلف ، وكذلك التفاصيح الخارج عن حدّ العادة ، وكذلك التكلف بالسجع فى المحاورات إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة فى الجنين فقال بعض قوم الجانى (٧) كيف ندى من لاشرب ولاأكل ولاصاح ولااستهل

(١) حديث : الكلمة الطيبة صدقة (م) من حديث أبى هريرة .
(٢) حديث : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، الحديث متفق عليه من حديث عدى بن حاتم وقد تقدم .
(٣) حديث : إن أبغضكم إلى الله وأبعدكم منى مجلسا الثرثارون المتفيهقون المتشدّقون ، أحمد من حديث أبى ثعلبة وهو عند (ت) من حديث جابر وحسنه بلفظ : إن أبغضكم إلىّ .
(٤) حديث فاطمة : شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ، الحديث ، وفيه ويتشدّقون ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب .
(٥) حديث : ألاهلك المتنطعون (م) من حديث ابن مسعود .
(٦) حديث سعد : يأتى على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها ، رواه أحمد .
(٧) حديث : كيف ندى من لاشرب ولاأكل الحديث (م) من حديث المغيره بن شعبة وأبى هريرة وأصلهما عند (خ) أيضا .

ومثل

ومثل ذلك بطل ؟ فقال أسجعا كسجع الأعراب ، وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بين عليه ، بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ومقصود الكلام التفهيم للعرض وماوراء ذلك تصنع مذموم ، ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير افراط واغراب فان المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها و بسطها ، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به ، فأما المحاورات التي تجرى لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق والاشتغال به من التكلف المذموم ، ولا باعث عليه إلا الرياء ، واظهار الفصاحة والتميز بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه . انتهى الكلام على الآفة السادسة والحمد لله رب العالمين .

الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومنهى عنه ومصدره الخبث واللؤم قال صلى الله عليه وسلم (١) : « إياكم والفحش فان الله تعالى لايحب الفحش ولا التفحش » (٢) ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين ، فقال : لاتسبوا هؤلاء فانه لايخلص إليهم شئ مما تقولون وتؤذون الأحياء ألا أن البذاء لؤم وقال صلى الله عليه وسلم (٣) : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولاالفاحش ولاالبذىّ » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٤) : « الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها » ، وقال صلى الله عليه وسلم (٥) : « أربعة يؤذون أهل النار فى النار على مابهم من الأذى ، يسعون بين الحيم والجحيم ، يدعون بالويل والثبور : رجل يسيل فوه قيحا ودما فيقال له : مابال الأبعد قد آذانا على مابنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة قذعة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث . وقال صلى الله عليه وسلم (٦) لعائشة «ياعائشة لوكان الفحش رجلا لكان رجل سوء » وقال صلى الله عليه وسلم (٧) «البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق » فيحتمل أن يراد بالبيان كشف مالايجوز كشفه ، ويحتمل أيضا المبالغة فى الايضاح حتى ينتهى إلى حدّ التكلف ،

(١) حديث : إياكم والفحش : الحديث (ن) فى الكبرى فى التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو ، ورواه ابن حبان من حديث أبى هريرة .

(٢) حديث : النهى عن سب قتلى بدر من المشركين : الحديث ابن أبى الدنيا من حديث محمد بن على الباقر مرسلا ورجاله ثقات وللنسائى من حديث ابن عباس باسناد صحيح أن رجلا وقع فى أب للعباس كان فى الجاهلية فلطمه الحديث ، وفيه : لاتسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا .

(٣) حدث : ليس المؤمن بالطعان ولااللعان ولاالفاحش ولاالبذى (ت) باسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب والحاكم وصححه وروى موقوفا ، قال الدارقطنى فى العلل والموقوف أصح

(٤) حديث : الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها : ابن أبى الدنيا وأبونعيم فى الحلية من حديث عبد الله بن عمرو .

(٥) حديث : أربعة يؤذون أهل النار على مابهم من الأذى : الحديث ، وفيه : إن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث : ابن أبى الدنيا من حديث شفى بن ماتع ، واختلف فى صحبته ، فذكره أبونعيم فى الصحابة ، وذكره (خ حب) فى التابعين .

(٦) حديث : ياعائشة لوكان الفحش رجلا لكان رجل سوء : ابن أبى الدنيا من رواية ابن لهيعة عن أبى النضر عن أبى سلمة عنها .

(٧) حديث : البذاء والبيان شعبتان من النفاق (ت) وحسنه (وك) وصححه على شرطهما من حديث أبى أمامة وقد تقدم .

ويحتمل أيضا البيان فى أمور الدين وفى صفات الله تعالى فان إلقاء ذلك مجملا إلى أسماع العوام أولى من المبالغة فى بيانه إذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس فاذا أجملت بادرت القلوب إلى القبول ولم تضطرب ولكن ذكره مقرونا بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحيي الانسان من بيانه فان الأولى فى مثله الاغماض والتغافل دون الكشف والبيان ، وقال صلى الله عليه وسلم (١) : « إنّ الله لايحب الفاحش المتفحش الصياح فى الأسواق » ، وقال جابر بن سمرة (٢) : كنت جالسا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبى أمامى ، فقال صلى الله عليه وسلم « إنّ الفحش والتفاحش ليسا من الاسلام فى شيء وان أحسن الناس إسلاما أحاسنهم أخلاقا » وقال ابراهيم بن ميسرة : يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة فى صورة كلب أوفى جوف كلب ، وقال الأحنف بن قيس : ألاأخبركم بأدوإ الداء ؟ اللسان البذى ، والخلق الدنى ، فهذه مذمة الفحش ، فأما حدّه وحقيقته فهو التعبير عن الامور المستقبحة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ذلك يجرى فى ألفاظ الوقاع ومايتعلق به ، فانّ لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون عنها ويدلون عليها بالرموز فيذكرون مايقاربها ويتعلق بها . وقال ابن عباس : إنّ الله حيىّ كريم يعفو ويكنوا ، كنى باللمس عن الجماع ، فالمسيس واللمس والدخول والصحبة كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة ، وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها فى الشتم والتعيير ، وهذه العبارات متفاوتة فى الفحش وبعضها أفحش من بعض ، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردّد فيها ، وليس يختص هذا بالوقاع بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أولى من لفظ التغوّط والخراء وغيرهما ، فان هذا أيضا مما يخفى وكل مايخفى يستحيا منه فلاينبغى أن يذكر ألفاظه الصريحة فانه فحش ، وكذلك يستحسن فى العادة الكناية عن النساء فلايقال قالت زوجتك كذا ، بل يقال : قيل فى الحجرة ، أومن وراء الستر ، أوقالت أم الأولاد ، فالتلطف فى هذه الألفاظ محمود والتصريح فيمايفضى إلى الفحش ، وكذلك من به عيوب يستحيا منها فلاينبغى أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير ، بل يقال العارض الذى يشكوه وما يجرى مجراه ، فالتصريح بذلك داخل فى الفحش ، وجميع ذلك من آفات اللسان . قال العلاء بن هرون : كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ فى منطقه ، فخرج تحت إبطه خراج ، فأتيناه نسأله لنرى مايقول ، فقلنا من أين خرج ؟ فقال من باطن اليد ، والباعث على الفحش إما قصد الايذاء واما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب . وقال أعرابى لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) «أوصنى فقال عليك بتقوى الله ، وان امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلاتعيره بشيء تعلمه فيه يكن وباله عليه وأجره لك ولاتسبنّ شيئا » ، قال فماسببت شيئا بعده . وقال عياض بن حمار (٤) قلت يارسول الله إنّ الرجل من قومى يسبنى وهو دونى هل علىّ من بأس أن أنتصر منه ؟ فقال المتسابان

(١) حديث : إنّ الله لايحبّ الفاحش ولاالمتفحش الصياح فى الأسواق : ابن أبى الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف ، وله وللطبرانى من حديث أسامة بن زيد : إنّ الله لايحبّ الفاحش المتفحش ، واسناده جيد .

(٢) حديث جابر بن سمرة : إنّ الفحش والتفحش ليسا من الاسلام فى شيء : الحديث أحمد وابن أبى الدنيا باسناد صحيح .

(٣) حديث : قال اعرابىّ أوصنى فقال عليك بتقوى الله وان امرؤعيرك بشيء يعلمه فيك فلاتعيره بشيء تعلمه فيه : الحديث أحمد والطبرانى باسناد جيد من حديث أبى جزى الهجيمى ، قيل اسمه جابر بن سليم ، وقيل سليم بن جابر .

(٤) حديث عياض بن حمار : قلت يارسول الله إن الرجل من قومى يسبنى وهودونى هل علىّ من

شيطانان يتعاويان ويتهارجان وقال ﷺ (١) «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر» وقال ﷺ (٢) «المستبان ماقالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدى المظلوم» وقال ﷺ (٣) «ملعون من سب والديه» وفى رواية «من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه قالوا يارسول الله كيف يسب الرجل والديه قال يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه»

الآفة الثامنة : اللعن

إما لحيوان أوجماد أو انسان وكل ذلك مذموم قال رسول الله ﷺ (٤) «المؤمن ليس بلعان» وقال ﷺ (٥) «لاتلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولابجهنم» وقال حذيفة ماتلاعن قوم قط الاحق عليهم القول ، وقال عمران بن حصين (٦) «بينما رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره إذ امرأة من الانصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها فقال ﷺ خذوا ماعليها وأعروها فانها ملعونة قال فكأنى أنظر إلى تلك الناقة تمشى بين الناس لايتعرض لها أحد » وقال أبو الدرداء مالعن أحد الأرض الاقالت لعن الله أعصانا لله : وقالت عائشة رضى الله عنها سمع رسول الله ﷺ (٧) أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت اليه ، وقال يا أبا بكر أصديقين ولعانين كلا ورب الكعبة مرتين أوثلاثا فأعتق أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبى ﷺ وقال لاأعود ، وقال رسول الله ﷺ (٨) ان اللعانين لايكونون شفعاء ولاشهداء يوم القيامة ، وقال أنس (٩) كان رجل يسير مع رسول الله ﷺ على بعير فلعن بعيره فقال ﷺ ياعبد الله لاتسر معنا على بعير ملعون ، وقال ذلك انكارا عليه واللعن عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل وهو الكفر والظلم بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين ، وينبغى أن يتبع فيه لفظ الشرع فان فى اللعنة خطرا لأنه حكم على الله عزوجل بأنه قد أبعد الملعون وذلك غيب لايطلع عليه غير الله تعالى ويطلع عليه رسول الله ﷺ إذا أطلعه الله عليه : والصفات المقتضية للعن ، ثلاثة الكفر ، والبدعة

بأس أن أنتصر منه فقال المستبان شيطانان يتكاذبان ويتهاتران (د) الطيالسى وأصله عند أحمد

(١) حديث سباب المسلم فسوق وقتاله كفر متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٢) حديث المستبان ماقالا فعلى البادئ حتى يعتدى المظلوم (م) من حديث أبى هريرة وقال مالم يعتد

(٣) حديث ملعون من سب والديه ، وفى رواية من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه : الحديث أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث ابن عباس باللفظ الأول باسناد جيد واتفق الشيخان على اللفظ الثانى من حديث عبد الله بن عمرو

(٤) حديث المؤمن ليس بلعان تقدم حديث ابن مسعود ليس المؤمن بالطعان ولااللعان : الحديث قبل هذا بأحد عشر حديثا وللترمذى وحسنه من حديث ابن عمر لايكون المؤمن لعانا

(٥) حديث لاتلاعنوا بلعنة الله : الحديث (ت د) من حديث سمرة بن جندب قال (ت) حسن صحيح

(٦) حديث عمران بن حصين بينما رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها الحديث رواه (م)

(٧) حديث عائشة سمع رسول الله ﷺ أبا بكر رضى الله عنه وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت اليه فقال ياأبا بكر لعانين وصديقين : الحديث ابن أبى الدنيا فى الصمت وشيخه بشار بن موسى الخفاف ضعفه الجهور وكان أحمد حسن الرأى فيه

(٨) حديث ان اللعانين لايكونون شفعاء ولاشهداء يوم القيامة (م) من حديث أبى الدرداء

(٩) حديث أنس كان رجل مع رسول الله ﷺ على بعير فلعن بعيره فقال ياعبد الله لاتسر معنا على بعير ملعون ، ابن أبى الدنيا باسناد جيد

والفسق ، واللعن فى كل واحدة ثلاث مراتب : الاولى اللعن بالوصف الأعم كقولك لعنة الله على الكافر والمبتدعين والفسقة : الثانية اللعن بأوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض أوعلى الزناة والظلمة وآكلى الربا وكل ذلك جائز ولكن فى لعن أوصاف المبتدعة خطر لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور ، فينبغى أن يمنع منه العوام لأن ذلك يستدعى المعارضة بمثله ويثير نزاعا بين الناس وفسادا : الثالثة اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك زيد لعنه الله وهو كافر أوفاسق أومبتدع والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا فتجوز لعنته كقولك فرعون لعنه الله وأبو جهل لعنه الله لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا أما شخص بعينه فى زماننا كقولك زيد لعنه الله وهو يهودى مثلا فهذا فيه خطر فانه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونا ؟ فان قلت يلعن لكونه كافرا فى الحال كما يقال للمسلم رحمه الله لكونه مسلما فى الحال وان كان يتصوّر أن يرتد ، فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله أى ثبته الله على الاسلام الذى هو سبب الرحمة وعلى الطاعة ولايمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ماهو سبب اللعنة فان هذا سؤال للكفر وهو فى نفسه كفر بل الجائز أن يقال لعنه الله إن مات على الكفر ولالعنه الله إن مات على الاسلام وذلك غيب لايدرى والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر وليس فى ترك اللعن خطر وإذا عرفت هذا فى الكافر فهو فى زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى فلعن الاعيان فيه خطر لأن الاعيان تتقلب فى الاحوال إلا من أعلم به رسول الله ﷺ فانه يجوزأن يعلم من يموت على الكفر ولذلك عين قوما باللعن فكان يقول فى دعائه على قريش [١] اللهم عليك بأبى جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة قتلوا على الكفر ببدر حتى أن من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهى عنه [٢] إذ روى أنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة فى قنوته شهرا فنزل قوله تعالى ليس لك من الأمر شئ أويتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون يعنى أنهم ربما يسلمون فمن أين تعلم أنهم ملعونون وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه ان لم يكن فيه أذى على مسلم فان كان لم يجز كما روى [٣] ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر رضى الله عنه عن قبر مرّبه وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه عمرو بن سعيد ، وقال يارسول الله

---

(١) حديث اللهم عليك بأبى جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٢) حديث انه كان انه يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة فى قنوته شهرا فنزل قوله تعالى ليس لك من الأمر شئ : الشيخان من حديث أنس دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحا : الحديث ، وفى رواية لهما قنت شهرا يدعو على رعل وذكوان الحديث ولهما من حديث أبى هريرة وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه الحديث وفيه اللهم العن لحيان ورعلا : الحديث ، وفيه ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شىء لفظ (م)

(٣) حديث أن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر عن قبر مرّبه وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله وعلى رسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه الحديث (د) فى المراسيل من رواية على بن ربيعة قال لما افتتح رسول الله ﷺ مكة توجه من فوره ذلك الى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابنا سعيد بن العاص فقال أبو بكر ان هذا القبر قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر لعن الله صاحب هذا القبر فانه كان يحاهد الله ورسوله الحديث ، وفيه فاذا سببتم المشركين فسبوهم جميعا

هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للهام من أبى قحافة فقال أبو بكر يكلمنى هـذا يارسول الله بمثل هذا الكلام فقال صلى الله عليه وسلم اكفف عن أبى بكر فانصرف ثم أقبل على أبى بكر فقال ياأبا بكر إذا ذكرتم الكفار فعمموا فانكم اذا خصصتم غضب الأبناء للآباء ، فكف الناس عن ذلك . (١) وشرب نعيمان الخمر مرات فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعض الصحابة لعنه الله ماأكثر مايؤتى به ، فقال ﷺ لاتكن عونا للشيطان على أخيك ، وفى رواية : لاتقل هذا فانه يحب الله ورسوله ، فنهاه عن ذلك ، وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز ، وعلى الجملة فنى لعن الأشخاص خطر فليجتنب ولاخطر فى السكوت عن لعن إبليس مثلا فضلا عن غيره ، فان قيل هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أوآمر به ؟ قلنا هذا لم يثبت أصلا فلايجوز أن يقال انه قتله أوأمر به مالم يثبت فضلا عن اللعنة ، لأنه لاتجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق ، نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم عليا ، وقتل أبولؤلؤة عمر رضى الله عنهم فان ذلك ثبت متواترا ، فلايجوز أن يرمى مسلم بفسق أوكفر من غير تحقيق . قال صلى الله عليه وسلم (٢) «لايرمى رجل رجلا بالكفر ، ولايرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك » . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « ماشهد رجل على رجل بالكفر إلا باء به أحدهما ، ان كان كافرا فهوكما قال ، وان لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه » وهذا معناه أن يكفره وهو يعلم انه مسلم ، فان ظن انه كافر ببدعة أوغيرها كان مخطئا لا كافرا ، وقال معاذ (٤) قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنهاك أن تشتم مسلما أوتعصى إماما عادلا ، والتعرض للأموات أشد . قال مسروق : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقالت : مافعل فلان لعنه الله ؟ قلت توفى ، قالت رحمه الله ، قلت وكيف هـذا ؟ قالت قال رسول الله ﷺ (٥) : « لاتسبوا

(١) حديث : شرب نعيمان الخمر مرات فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر مايؤتى به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتكن عونا للشيطان على أخيك ، وفى رواية : لاتقل هذا فانه يحب الله ورسوله ، ابن عبد البر فى الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلا ، ومحمد هذا ولد فى حياته صلى الله عليه وسلم وسماه محمدا وكناه عبد الملك ، وللبخارى من حديث عمر أن رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارا وكان يضحك رسول الله ﷺ وكان قد جلده فى الشراب فأتى به يوما فأمر به فجلد فقال رجل من القوم اللهم العنه ما أكثر مايؤتى به فقال النبى صلى الله عليه وسلم لاتلعنوه فوالله ماعلمت إلا أنه يحب الله ورسوله من حديث أبى هريرة فى رجل شرب ولم يسم ، وفيه : لاتعينوا عليه الشيطان ، وفى رواية : لاتكونوا عون الشيطان على أخيكم .

(٢) حديث : لايرمى رجل رجلا بالكفر ولايرميه بالفسق إلا ارتدت عليه ان لم يكن صاحبه كذلك متفق عليه والسياق للبخارى من حديث أبى ذر مع تقديم ذكر الفسق .

(٣) حديث : ماشهد رجل على رجل بالكفر إلا أتى أحدهما ان كان كافرا فهوكما قال وان لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه ، أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد بسند ضعيف .

(٤) حديث معاذ : أنهاك أن تشتم مسلما ، أوتعصى إماما عادلا ، أبونعيم فى الحلية فى أثناء حديث له طويل .

(٥) حديث عائشة : لاتسبوا الأموات فانهم قدأفضوا إلى ماقدموا (خ) وذكر المصنف فى أوله قصة لعائشة وهوعند ابن المبارك فى الزهد والرقائق مع القصة .

الأموات فانهم قد أفضوا إلى ماقدموا » . وقال عليه الصلاة والسلام (١) : « لاتسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء » . وقال عليه السلام (٢) : « أيها الناس : احفظونى فى أصحابى واخوانى وأصهارى ولاتسبوهم . أيها الناس : اذا مات الميت فاذكروا منه خيرا » فان قيل : فهل يجوز أن يقال قاتل الحسين لعنه الله ، أو الآمر بقتله لعنه الله ؟ قلنا الصواب أن يقال : قاتل الحسين ان مات قبل التوبة لعنه الله ، لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة ، فان وحشيا قاتل حمزة عم رسول الله ﷺ قتله وهوكافر ثم تاب عن الكفر والقتل جميعا ، ولايجوز أن يلعن ، والقتل كبيرة ولا تنتهى إلى رتبة الكفر . فاذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر ، وليس فى السكوت خطر فهوأولى ، وانما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعنة واطلاق اللسان بها ، والمؤمن ليس بلعان فلاينبغى أن يطلق اللسان باللعنة إلاعلى من مات على الكفر ، أوعلى الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين ، فالاشتغال بذكرالله أولى ، فان لم يكن ففى السكوت سلامة . قال مكى بن ابراهيم : كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبى بردة فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا يا ابن عون إنما نذكره لما ارتكب منك فقال إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتى يوم القيامة لاإله إلا الله ولعن الله فلانا فلأن يخرج من صحيفتى لاإله إلا الله أحب إلىّ من أن يخرج منها لعن الله فلانا . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) أوصنى فقال أوصيك أن لاتكون لعانا . وقال ابن عمر : إنّ أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان . وقال بعضهم : « لعن المؤمن يعدل قتله » . وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا : لوقلت انه مرفوع لم أبال ، وعن أبى قتادة قال (٤) كان يقال : من لعن مؤمنا فهومثل أن يقتله ، وقد نقل ذلك حديثا مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقرب من اللعن الدعاء على الانسان بالشرّ حتى الدعاء على الظالم كقول الانسان مثلا : لاصحح الله جسمه ، ولاسلمه الله ، ومايجرى مجراه فان ذلك مذموم ، وفى الخبر (٥) « إنّ المظلوم ليدعوعلى الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة » . تمّ الكلام على الآفة الثامنة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة التاسعة : الغناء والشعر

وقد ذكرنا فى كتاب السماع مايحرم من الغناء ومايحلّ فلانعيده ، وأما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه

(١) حديث : لاتسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء ، الترمذى من حديث المغيرة بن شعبة ورجاله ثقات ، إلا أن بعضهم أدخل بين المغيرة وبين زياد بن علاقة رجلا لم يسم .

(٢) حديث : أيها الناس : احفظونى فى أصحابى واخوانى وأصهارى ولا تسبوهم . أيها الناس : إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا . أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث عياض الأنصارى : احفظونى فى أصحابى وأصهارى واسناده ضعيف ، وللشيخين من حديث أبى سعيد وأبى هريرة : لاتسبوا أصحابى ، ولأبى داود والترمذى وقال غريب من حديث ابن عمر : اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم ، وللنسائى من حديث عائشة : لاتذكروا موتاكم إلا بخير ، واسناده جيد .

(٣) حديث : قال رجل أوصنى قال أوصيك أن لاتكون لعانا ، أحمد والطبرانى وابن أبى عاصم فى الآحاد والثانى من حديث جرموز الهجيمى وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبى عاصم .

(٤) حديث : لعن المؤمن كقتله ، متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاك .

(٥) حديث : إنّ المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة ، لم أقف له على أصل ، وللترمذى من حديث عائشة بسند ضعيف : من دعا على من ظلمه فقد انتصر .

قبيح إلا أن التجرّد له مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعرا » ، وعن مسروق انه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له فى ذلك فقال أنا أكره أن يوجد فى صحيفتى شعر ، وسئل بعضهم عن شىء من الشعر فقال اجعل مكان هذا ذكرا فان ذكر الله خير من الشعر ، وعلى الجلة فانشاد الشعر ونظمه ليس بحرام اذا لم يكن فيه كلام مستكره . قال صلى الله عليه وسلم (٢) « إنّ من الشعر لحكمة » ، نعم مقصود الشعر المدح والذم والتشبيب وقد يدخله الكذب ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) حسان بن ثابت الأنصارى بهجاء الكفار والتوسع فى المدح ، فانه وان كان كذبا فانه لايلتحق فى التحريم بالكذب كقول الشاعر :

ولولم يكن فى كفه غير روحه * لجاد بها فليتق الله سائله

فان هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء ، فان لم يكن صاحبه سخيا كان كاذبا ، وان كان سخيا فالمبالغة من صنعة الشعر فلايقصد منه أن يعتقد صورته ، وقد أنشدت أبيات بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم لوتتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه . قالت عائشة رضى الله عنها (٤) : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت جالسة أغزل فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا قالت فبهتّ فنظر إلىّ فقال مالك بهت فقلت يارسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورا ، ولورآك أبوكبير الهذلى لعلم انك أحقّ بشعره ، قال ومايقول ياعائشة أبوكبير الهذلى ؟ قلت يقول هذين البيتين :

ومبرّأ من كل غبر حيضة * وفساد مرضعة وداء مغيل

واذا نظرت إلى أسرة وجهه * برقت كبرق العارض المتهلل

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ماكان بيده وقام إلىّ وقبل مابين عينىّ وقال جزاك الله خيرا ياعائشة ماسررت منى كسرورى منك » . (٥) ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين أمر للعباس ابن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو فى شعر له وفى آخره :

وماكان بدر ولاحابس * يسودان مرداس فى مجمع

وماكنت دون امرئ منهما * ومن تضع اليوم لايرفع

---

(١) حديث : لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير من أن يمتلئ شعرا (مسلم) من حديث سعد ابن أبى وقاص واتفق عليه الشيخان من حديث أبى هريرة نحوه والبخارى من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبى سعيد .

(٢) حديث : إنّ من الشعر لحكمة ، تقدّم فى العلم وفى آداب السماع .

(٣) حديث : أمره حسانا أن يهجو المشركين متفق عليه من حديث البراء انه صلى الله عليه وسلم قال لحسان اهجهم وجبريل معك .

(٤) حديث عائشة : كان رسول الله ﷺ يخصف نعله وكنت أغزل قالت فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا الحديث ، وفيه انشاد عائشة لشعر أبى كبير الهذلى :

ومبرأ من كل غبر حيضة * وفساد مرضعة وداء مغيل

فاذا نظرت إلى أسرة وجهه * برقت كبرق العارض المتهلل

إلى آخر الحديث ، رواه البيهقى فى دلائل النبوّة .

(٥) حديث : لما قسم الغنائم أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص وفى آخره شعره :

وما كان بدر ولا حابس * يسودان مرداس فى مجمع

وماكنت دون امرئ منهما * ومن تضع اليوم لايرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه ، فذهب به أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه حتى اختار مائة من الابل ، ثم رجع وهو من أرضى الناس ، فقال له صلى الله عليه وسلم : أتقول فىّ الشعر فجعل يعتذر إليه و يقول بأبى أنت وأمى يارسول الله ، إنى لأجد للشعر دبيبا على لسانى كدبيب النمل ، ثم يقرصنى كما يقرص النمل ، فلاأجد بدّا من قول الشعر ، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال : لاتدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين . والى هنا تمّ الكلام على الآفة التاسعة ، والحمد لله رب العالمين .

الآفة العاشرة : المزاح

وأصله مذموم منهى عنه إلا قدرا يسيرا يستثنى منه . قال صلى الله عليه وسلم [1] : « لاتمار أخاك ولا تمازحه » فان قلت المماراة فيها إيذاء لأن فيها تكذيبا للأخ والصديق ، أو تجهيلا له ، وأما المزاح فطايبة وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينه عنه ، فاعلم أن المنهى عنه الافراط فيه أو المداومة عليه ، أما المداومة فلأنه اشتغال باللعب ، والهزل فيه واللعب مباح ، ولكن المواظبة عليه مذمومة ، وأما الافراط فيه فانه يورث كثرة الضحك ، وكثرة الضحك تميت القلب ، وتورث الضغينة فى بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار ، فما يخلو عن هذه الامور فلايذم كما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال [2] : « إنى لأمزح ولاأقول إلاحقا » إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولايقول إلاحقا ، وأما غيره اذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان ، وقد قال رسول الله ﷺ [3] : « إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها فى النار أبعد من الثريا » . وقال عمر رضى الله عنه : « من كثر ضحكه قلت هيبته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شىء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قلّ حياؤه ، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه ، ومن قلّ ورعه مات قلبه » ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة . قال ﷺ [4] « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » ، وقال رجل لأخيه : ياأخى هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال نعم قال فهل أتاك أنك خارج منها ؟ قال لا ، قال ففيم الضحك ، قيل فما رئى ضاحكا حتى مات . وقال يوسف ابن أسباط : أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك . وقيل أقام عطاء السلمى أربعين سنة لم يضحك ، ونظر وهيب ابن الورد إلى قوم يضحكون فى عيد فطر ، فقال : إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين ، وان كان لم يغفر لهم فهذا فعل الخائفين ، وكان عبد الله بن أبى يعلى يقول : أتضحك ولعلّ أكفانك قد خرجت

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه الحديث (مسلم) من حديث رافع بن خديج : أعطى رسول الله ﷺ أباسفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وعيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس كل انسان منهم مائة من الابل ، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك ، فقال عباس بن مرداس :

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينة والأقرع
وما كان بدر ولا حابس * يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرئ منهما * ومن تضع اليوم لايرفع

قال فأتمّ له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة ، وزاد فى رواية : وأعطى علقمة بن علاثة مائة ، وأما زيادة : اقطعوا عنى لسانه فليست فى شىء من الكتب المشهورة .

(١) حديث : لاتمار أخاك ولاتمازحه ، الترمذى وقد تقدم .

(٢) حديث : إنى لأمزح ولاأقول إلاحقا ، تقدم .

(٣) حديث : إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا ، تقدم

(٤) حديث : لوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، متفق عليه من حديث أنس وعائشة .

من

من عند القصار ، وقال ابن عباس : من أذنب ذنبا وهو يضحك دخل النار وهو يبكى ، وقال محمد بن واسع : اذا رأيت فى الجنة رجلا يبكى ألست تعجب من بكائه ! قيل بلى ، قال فالذى يضحك فى الدنيا ولايدرى إلى ماذا يصير هو أعجب منه ، فهذه آفة الضحك ، والمذموم منه أن يستغرق ضحكا ، والمحمود منه التبسم الذى ينكشف فيه السن ولايسمع له صوت ، وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) . قال القاسم مولى معاوية (٢) : أقبل أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب فسلم فجعل كلما دنا من النبى صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك مرارا ، ثم وقصه فقتله ، فقيل يارسول الله ان الاعرابى قد صرعه قلوصه وقد هلك فقال نعم وأفواهكم ملأى من دمه . وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار فقد قال عمر رضى الله عنه : من مزح استخف به . وقال محمد ابن المنكدر : قالت لى أمى يابنى لاتمازح الصبيان فتهون عندهم . وقال سعيد بن العاص لابنه : يابنى لاتمازح الشريف فيحقد عليك ، ولا الدنىء فيجترئ عليك . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : « اتقوا الله وإياكم والمزاح فانه يورث الضغينة ، ويجر إلى القبيح ، تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به ، فان ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال » . وقال عمر رضى الله عنه : « أتدرون لم سمى المزاح مزاحا ؟ قالوا لا ، قال لأنه أزاح صاحبه عن الحق » ، وقيل : لكل شىء بذور وبذور العداوة المزاح ، ويقال : المزاح مسلبة للنهى ، مقطعة للأصدقاء . فان قلت قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه ؟ فأقول ان قدرت على ماقدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح ولاتقول إلا حقا ، ولاتؤذى قلبا ولاتفرط فيه ، وتقتصر عليه أحيانا على الندور فلاحرج عليك فيه ، ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الانسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم والى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن (٣) لعائشة فى النظر إلى رقص الزنوج فى يوم عيد وهو خطأ إذ من الصغائر مايصير كبيرة بالاصرار ، ومن المباحات مايصير صغيرة بالاصرار فلاينبغى أن يغفل عن هذا ، نعم روى أبو هريرة (٤) أنهم قالوا يارسول الله انك تداعبنا ، فقال انى وان داعبتكم لا أقول إلا حقا . وقال عطاء (٥) ان رجلا سأل ابن عباس : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال نعم ، قال فما كان مزاحه ؟ قال كان مزاحه انه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوبا واسعا فقال لها البسيه واحمدى وجرى منه ذيلا كذيل العروس . وقال أنس : ان النبى صلى الله عليه وسلم (٦) كان من أفكه الناس مع نسائه . وروى (٧) انه كان كثير التبسم

---

(١) حديث : كان ضحكه التبسم ، تقدم .

(٢) حديث القاسم مولى معاوية : أقبل أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب فسلم فجعل كلما دنا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به وجعل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله فقيل يارسول الله ان الاعرابى قد صرعه قلوصه فهلك قال نعم وأفواهكم ملأى من دمه ، ابن المبارك فى الزهد والرقائق وهو مرسل .

(٣) حديث اذنه لعائشة فى النظر إلى رقص الزنوج فى يوم عيد تقدم .

(٤) حديث أبى هريرة : قالوا انك تداعبنا ، قال انى وان داعبتكم فلا أقول إلا حقا ، الترمذى وحسنه

(٥) حديث عطاء ان رجلا سأل ابن عباس : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال ابن عباس نعم ، الحديث فذكر منه قوله لامرأة من نسائه : البسيه واحمدى وجرى منه ذيلا كذيل العروس لم أقف عليه .

(٦) حديث أنس : كان من أفكه الناس ، تقدم . (٧) حديث انه كان كثير التبسم ، تقدم .

وعن الحسن (١) قال : أتت عجوز إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم لايدخل الجنة عجوز فبكت ، فقال انك لست بعجوز يومئذ ، قال الله تعالى : إنا أنشأناهنّ إنشاء فجعلناهنّ أبكارا . وقال زيد بن أسلم (٢) ان امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت ان زوجي يدعوك ، قال ومن هو ؟ أهو الذى بعينه بياض ؟ قالت والله مابعينه بياض ، فقال بلى إن بعينه بياضا ، فقالت لا والله ، فقال صلى الله عليه وسلم : مامن أحد إلاو بعينه بياض ، وأرادبه البياض المحيط بالحدقة ، وجاءت امرأة أخرى فقالت (٣) يارسول الله احملنى على بعير ، فقال بل نحملك على ابن البعير ، فقالت ما أصنع به ؟ انه لايحملنى ، فقال صلى الله عليه وسلم : مامن بعير إلا وهوابن بعير فكان يمزح به . وقال أنس : كان لأبى طلحة ابن يقال له أبوعمير (٤) وكان رسول الله ﷺ يأتيهم ويقول : ياأبا عمير مافعل النغير، لنغيركان يلعب به وهوفرخ العصفور . وقالت عائشة رضى الله عنها (٥) خرجت مع رسول الله ﷺ فى غزوة بدر فقال تعالى حتى أسابقك فشددت درعى على بطنى ثم خططنا خطا فقمنا عليه واستبقنا فسبقنى وقال هذه مكان ذى المجاز ، وذلك أنه جاء يوما ونحن بذى المجاز وأنا جارية قد بعثنى أبى بشيء فقال أعطينيه فأبيت وسعيت وسعى فى أثرى فلم يدركنى ، وقالت أيضا (٦) سابقنى رسول الله ﷺ فسبقته فلما حملت اللحم سابقنى فسبقنى وقال هذه بتلك ، وقالت أيضا رضى الله عنها (٧) كان عندى رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجئت به فقلت لسودة كلى فقالت لاأحبه فقلت والله لتأكلنّ أولألطخنّ به وجهك فقالت ماأنا بذائقته فأخذت بيدى من الصحفة شيئا منه فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بينى وبينها فخفض لها رسول الله ﷺ ركبتيه لتستقيدمنى فتناولت من الصحفة شيئا فمسحت به وجهى وجعل رسول الله ﷺ يضحك . وروى أن الضحاك بن سفيان الكلابى (٨) كان رجلا دميا قبيحا فلما بايعه النبى ﷺ قال ان عندى امرأتين أحسن

---

(١) حديث الحسن : لايدخل الجنة عجوز : الترمذى فى الشمائل هكذا مرسلا وأسنده ابن الجوزى فى الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) حديث زيد بن أسلم فى قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت : انّ زوجي يدعوك أهو الذى بعينه بياض ، الحديث الزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة والمزاح ، ورواه ابن أبى الدنيا من حديث عبدة ابن سهم الفهرى مع اختلاف .

(٣) حديث : قوله لامرأة استحملته نحملك على ابن البعير ، الحديث أبوداود والترمذى وصححه من حديث أنس بلفظ : أنا حاملك على ولد الناقة .

(٤) حديث أنس : أباعمير مافعل النغير، متفق عليه وتقدم فى أخلاق النبوّة .

(٥) حديث عائشة فى مسابقته صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر فسبقها وقال هذه مكان ذى المجاز ، لم أجد له أصلا ، ولم تكن عائشة معه فى غزوة بدر .

(٦) حديث عائشة : سابقنى فسبقته ، النسائى وابن ماجه ، وقد تقدم فى النكاح .

(٧) حديث عائشة فى لطخ وجه سودة بحريرة ولطخ سودة وجه عائشة فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك الزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة وأبو يعلى باسناد جيد .

(٨) حديث ان الضحاك بن سفيان الكلابى قال عندى امرأتان أحسن من هذه الحميراء أفلاأنزل لك عن إحداهما فتتزوّجها وعائشة جالسة قبل أن يضرب الحجاب فقالت أهى أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك النبى صلى الله عليه وسلم لأنه كان دميا ، الزبير بن بكار فى الفكاهة من رواية عبد الله بن حسن مرسلا أومعضلا ، والدارقطنى نحو هذه القصة مع عيينة بن حصن الفزارى بعد نزول الحجاب من حديث أبى هريرة .

من هذه الحيراء ، وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوّجها وعائشة جالسة تسمع فقالت أهي أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها إياه لأنه كان دميا . وروى علقمة عن أبي سلمة (١) انه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن بن علىّ عليهما السلام فيرى الصبي لسانه فيهش له ، فقال له عيينة بن بدر الفزارى والله ليكونن لى الابن قد تزوج وبقل وجهه وماقبلته قط ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنّ من لايرحم لايرحم . فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان ، وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل ، وقال صلى الله عليه وسلم (٢) مرّة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمرا : أتأكل التمر وأنت رمد ؟ فقال إنما آكل بالشق الآخر يارسول الله ، فتبسم صلى الله عليه وسلم ، قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه . وروى (٣) أنّ خوات بن جبير الأنصارى كان جالسا إلى نسوة من بنى كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ياأباعبد الله مالك مع النسوة ؟ فقال يفتلن ضفيرا لجمل لى شرود ، قال فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ثم عاد فقال ياأبا عبد الله أماترك ذلك الجمل الشراد بعد ، قال فسكت واستحييت ، وكنت بعد ذلك أتفرّر منه كلما رأيته حياء منه حتى قدمت المدينة ، و بعد ماقدمت المدينة قال فرآنى فى المسجد يوما أصلى فجلس إلىّ فطوّلت فقال لاتطوّل فانى أنتظرك ، فلما سلمت قال ياأبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد ، قال فسكت واستحييت ، فقام وكنت بعد ذلك أتفرّر منه حتى لحقنى يوما وهو على حمار ، وقد جعل رجليه فى شقّ واحد ، فقال أبا عبد الله أماترك ذلك الجمل الشراد بعد ، فقلت والذى بعثك بالحق ماشرد منذ أسلمت ، فقال الله أكبر الله أكبر ، اللهم اهدِ أبا عبدالله ، قال فحسن اسلامه وهداه الله . وكان نعيمان الأنصارى (٤) رجلا مزاحا ، فكان يشرب الخمر فى المدينة فيؤتى به إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فيضربه

---

(١) حديث أبى سلمة عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم كان يدلع لسانه للحسن بن على فيرى الصبي لسانه فيهشّ إليه ، فقال عيينة بن بدر الفزارى والله ليكونن لى الابن رجلا قد خرج وجهه وماقبلته قط ، فقال انّ من لايرحم لايرحم ، أبو يعلى من هذا الوجه دون مافى آخره من قول عيينة بن بدر وهو عيينة بن حصن بن بدر ونسب إلى جدّه ، وحكى الخطيب فى المبهمات قولين فى قائل ذلك : أحدهما أنه عيينة بن حصن ، والثانى انه الأقرع بن حابس ، وعند مسلم من رواية الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن الأقرع بن حابس أبصر النبىّ صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال إنّ لى عشرة من الولد ماقبلت واحدا منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لايرحم لايرحم .

(٢) حديث : قال لصهيب و به رمد أتأكل التمر وأنت رمد ؟ فقال إنما آكل على الشق الآخر ، فتبسم النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات .

(٣) حديث : ان خوات بن جبير كان جالسا إلى نسوة من بنى كعب بطريق مكة فطلع عليه النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال ياأباعبد الله مالك مع النسوة ؟ فقال يفتلن ضفيرا لجمل لى شرود ، الحديث الطبرانى فى الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات ، وأدخل بعضهم بين زيد و بين خوات ربيعة بن عمرو .

(٤) حديث : كان نعيمان رجلا مزاحا ، وكان يشرب فيؤتى به إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فيضربه ، الحديث ، وفيه أنه كان يشترى الشىء ويهديه إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ثم يجىء بصاحبه فيقول أعطه ثمن متاعه ، الحديث الزبير بن بكار فى الفكاهة ، ومن طريقه ابن عبد البر من رواية محمد ابن عمرو بن حزم مرسلا وقد تقدم أوّله .

بنعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم ، فلما كثر ذلك منه قال له رجل من الصحابة لعنك الله فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم لاتفعل فانه يحب الله ورسوله ، وكان لايدخل المدينة رسل ولاطرفة إلا اشترى منها ثم أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم فيقول يارسول الله هذا قد اشتريته لك ، وأهديته لك ، فاذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله أعطه ثمن متاعه فيقول له صلى الله عليه وسلم أولم تهده لنا ؟ فيقول يارسول الله انه لم يكن عندى ثمنه وأحببت أن تأكل منه فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بثمنه ، فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لاعلى الدوام ، والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المميت للقلب . والى هنا تمّ الكلام على الآفة العاشرة والحمد لله رب العالمين .

ونكتفى بذكر هذه الآفات العشرة عن باقيها فى هذا المقام لطولها ، ونذكر باقيها ان شاء الله تعالى فى ﴿ سورة ق ﴾ عند آية : « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » واذن فليكن هذا نهاية القسم الثانى من المقام الأول فى آية : « ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهنّ ولاتلمزوا أنفسكم » الآيات إلى قوله « إنّ الله توّاب رحيم » .

المقام الثانى من المقالة الثانية

فى غوائل الأعمال القلبية

أى المشار لها بقوله تعالى : « إنّ بعض الظنّ إثم » والتى يشير لها قوله تعالى فى ﴿ سورة ق ﴾ بآية « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » وآية « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

والأعمال القلبية وهذه الغوائل قد شرحها الامام الغزالى فى الاحياء ، وقد اقتصرنا هنا على نموذج لها أجلناه فى كتابنا الذى ألفناه لطلبة دارالعلوم وهو « جوهرالتقوى » فهاك ما جاء فى ذلك الكتاب فى صفحة ١١٣ ومابعدها وهذا نصه :

الفضيلة والرذيلة والسعادة

إذا زرعنا شجرا وتعبنا فى إنمائه فغايتنا ثمره ، هكذا إذا نصبنا فى تحصيل الفضائل فالغاية السعادة . السعادة نيل المراد الشريف ، وراحة النفس ، والاستلذاذ بالفضائل ، ولاسعادة لفؤاد مضطرب ونفس فاجرة ، فما من رذيلة إلا ولها فى النفس سيء الأثر ، فالجهل أشدّ الآلام ، والبلادة شقاء الجهال ، والنسيان والسهو بلية الانسان ، والعجب والكبر يوردان القلب موارد العطب ، ويصرعانه فى المنقلب ، بالحظوظ الخسيسة والشهوات الباطلة ، والتعرّض لمقت الماقتين ، واستهزاء المستهزئين ، والحسد يودى بصاحبه ويقطع فؤاده ويقلبه فى نار السعير ، ويعرضه لخطر كبير ، والشره يعذب صاحبه ويوقعه كل يوم فى نائبة ، ومن ظنّ المال غاية مااشتهاه والسلطان والعزّ قصارى مناه ، عذب بها العذاب الأكبر . « ولاتعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم » بما يصيب محبوبهم من الآفات ، ومايعرض له من النكبات ، وهم عادموا الصبر ، قليلوا الأجر ، كثيرو الهلع ، عظيموا الجزع ، فأنى يكون المرء من السعداء ، وقد كتب نفسه بيديه فى ديوان الأشقياء ، فالسعيد من اتبع الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم بالعفة ومايتبعها ، والشجاعة والحكمة وأقسامها ، أولئك هم السعداء فى الدارين ، عند ربهم يرزقون فرحين اذا اعتادوا ومرنوا على ذلك حتى صار مستلذا معشوقا ، فيأنس بالمعارف العالية ، والطبيعيات وأقسامها ، والرياضيات وأفلاكها ، والالهيات وجلالها ، ويلم ما تصله القوّة البشرية من المعارف الحكمية ، ويأنس بالعدل فى

عمله ، والصدق فى منطقه ، والمروءة فى أصحابه ، وقد أرضى أشرف العقلاء ، ورضى بما ساقه القضاء ، ولا يطمعن فى رضاء سائر العالمين ، فان ذلك ليس فى حيز الامكان ، وغاية الأمر وقصاراه التعالى عن الرعونات الدنيوية والرضاء ثم الطمأنينة : « يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

من هذا تعلم قول بعض علماء الغرب لبعض شباننا : « لايضلك المال ، اذا امتلأ قلبك بالفضيلة فاملأ القلب حكمة وفضيلة والجيب فضة وذهبا ، فالمعدم محدود الفضائل ، والمثرى واسع المعروف » .

وأما أقول : ألم تسمع أقوال النبىّ سليمان عليه السلام: « وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين » . انتهى

القدوة الحسنة

مامن نبىّ أوعالم أوعامل إلا كان قدوة على حسب درجته ، فاصبر واجتهد حتى تكون كالشمس وضحاها والنجم الزاهر فى ظلمات الدياجر ، لتكن شمسا يضىء سناها للناظرين ، وسيرتك هدى ، وعلمك نبراسا للسارين .

أيها الطالب : إن حركاتك وسكناتك وغدواتك وروحاتك أساس يبنى عليها ومقدّمات لنتائج ، فاحذر الحذركله أن تكون قدوة سيئة للبنين ، وكن خيرالقدى لخيرالمقتدين ، حتى يصدق علينا قول السموءل :

اذا مات منا سيد قام سيد * قئول لما قال الكرام فعول

لايرين الناس منك إلا كمالا ، ولايطلعون منك إلا على ماجل وحلا ، ولاتقعن عين منك على قبيح ، وأصلح السريرة ، وأحسن العلانية ، وذرالمباهاة والملاحاة ، والمشاقة والمراء ، وأظهر البشر ، وقل للناس حسنا ، وآت ذا القربى حقه ، واعف واصفح ، إنّ الله يحبّ المحسنين .

علاج الرذائل

إن السبيل الأقوم ، والمنهج الأوضح ، فى علاج الرذائل مقاومة كل واحدة بضدها ، والتعوّد على نقيضها ، ومحاربتها بعدوّها ، فالجهل بمزاولة التعليم ، والبخل بتكلف البذل ، ومداومة العطاء ، إلاأن للعادة لتأثيرا على النفوس الحيوانية فضلا عن الانسانية ، كم من حيوان اقتاده الانسان بالتعويد فسخره للركوب وامتطاه للحروب ، وذلله للحلب وساقه للحرث ، وصيره يسقى الزرع ، وقد كان قبل ذلك لا ذلول يثير الأرض ولايسقى الحرث ، أفليس الانسان أرقى من الحيوان وقد علم البيان ؟ فكم من جبان ركب هول البحر وهو مضطرب الحركات ، هائج الأمواج ، فألف الصعاب وصارشجاعا ، وكم من بخيل تعوّد البذل فأعطى المال وأكرم النزيل ، حتى صارطبعا مستلذا ، وعادة مألوفة .

عجب للعادة وأىّ عجب ! تقلب المحبوب مكروها ، وتردّ المألوف مبغضا ، وتجعل السفيه حليما ، والحليم سفيها ، والجاهل عالما ، والكاذب صدوقا ، للعادة فى النفوس عجائب ألا ان للجوارح لأثرا فى النفوس ، وللنفوس أثرا فى الجوارح ، كالبحر يعطره السحاب والسحاب من البحر ، وغاية التهذيب أن تصير الفضائل لذائذ والرذائل آلاما . الا أن متكلف الفضائل مجاهد ، ومريد لايزال على الصراط مسافرا ، لم ينل بغيته ، ولم يحظ بنواله ، فانه فضل على القاعد الغافل ، والساهى النائم ، والفضل كل الفضل أن يصير المتكلف مرغوبا والمكروه من الطاعات محبوبا ، قال فى الحديث الشريف : « وجعلت قرّة عينى فى الصلاة » ، ألا وان قوام الأمر وعماده : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى » اه

الغضب

الغضب ثوران يغلى به الدم ، فيرتفع فى أعالى العروق ، فيحمر ظاهر البدن دفعا للأذى قبل وقوعه ، وانتقاما من المؤذى بعد حصوله ، اذا ظنّ القدرة على خصمه ، فان بدا له الضعف تبدّل الاحمرار اصفرارا ، وكرّ الدم راجعا لأعماق الجسم هاربا من إيذاء الخصم وان تردّد بين الاعتقادين ، وشك فى الأمرين ، تعاقب اللونان ، فأحمر ان قدر ، وأصفر للخور ، فالدم كالجيش المحارب ، يقدم اقدام القادر ، ويحجم إحجام الخائر : « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » .

وللغضب آثار ظاهرة كتغير اللون ، وشدّة الرعدة فى الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام ، واضطراب الحركات والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق ، وتحمر الأحداق ، وتنقلب المناخر ، وتستحيل الخلقة ، ولعمرك ان قبح الظاهر أثر لقبح الباطن ، وما الظاهر إلا مرآة تجلت فيها صورة النفس ، وثمرة ظهرت فى شجرة أصلها ثابت فى القلب ، وفرعها ممتدّ فى الجوارح ، وهل انطلاق اللسان بالشتم والفحش من الكلام مع تخبط النظم واضطراب اللفظ والاقدام على الضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن حتى اذا عجز عن التشفى رجع إلى نفسه فمزّق ثوبه ، ولطم خدّه ، وضرب بيده على الأرض ، وغدا كالواله السكران والمدهوش المتحير ، وربما سقط فأغشى عليه ، وقد يضرب الجماد ويخاطب الحيوان ، وربما رفسته دابة فرفسها ، أو انكسر القلم فشجه كما يعامل العقلاء .

هل هذا إلا من آثار اضطرام نيران القلب وصورة من قبحه ، وكم له من صور تبرزها الأيام ، وتجليها الحوادث مع المغضوب عليه كالحقد ، والحسد ، والشماتة بالمساآت ، والحزن بالسرور ، وافشاء السرّ ، وهتك الستر ، والاستهزاء ، فهذه ثمرات افراط الغضب .

وأما مايضاده فالحمية الضعيفة ، وثمرتها قلة الأنفة ، واحتمال الذلة ، وعدم الغيرة على الحرم ، والسكوت عند مشاهدة المنكرات من غيره ، وأن لايغضب على نفسه فيلومها عند مقارفة الذنوب ، ومباشرة العيوب ، فلايتوب ، فمن ابتلى بذلك فليرجعه ، فكلا الطرفين مذموم ، والوسط ممدوح ، هدانا الله الصراط المستقيم .

ضرب مثل لقلب الانسان بحال الأرض

ألا إنما مثل قلب الانسان كمثل سطح الأرض ، ان خبثت أنبتت القتاد والشوك والحسك ، وخبيث النبات يتغلب على طيبه ، ورديئه على جيده ، وماشل المهجر والحسد والشماتة والاحتقار والغيبة وهتك الستر وايذائه بالضرب وغيره ، الناجمة من الحقد ، النابتة فى أرض القلب الذى أفسده الغضب إلا مثل شوك السعدان ، وشجر الطرفاء ، ونبات الحنظل والعليق ، إذا نبتت فى أرض لم يتعهدها مصلحوها ، ولم يقم عليها أهلوها ، ألا وان القلب إما جنة ذات رياض وفاكهة وروح وريحان من علم نافع وحكمة صالحة ، واما نار تستعر ، وجحيم ترمى بشرر ، فيحترق الجثمان ، وتنحل الأبدان .

ألق ببصرك فى الفضاء ، وتأمل النبات وتعجب ، ألم ترَ إلى ذلك النبات الأبيض المسمى بالهالوك الذى ينبت مابين شجرات الفول فيمتص غذاءها ، ويبيد أثمارها وحبها ، تشابه هذا العالم ، وكانت الأرض مثل القلوب ، والفول مثل الفضائل ، والهالوك مثل سيئات الأخلاق ، كالحقد والحسد ، ونحن مازرعناه وانما هو النامى بنفسه ، المعتدى على نباتنا ، المميت لمادّتنا ، المبيد لأغذيتنا ، ألا وان ماضرّ الناس نام بنفسه وما نفعهم يعوزه القيام عليه .

فاذا ابتليت بمن آذاك فلاتجعل للحقد عليك سبيلا ، وأزل الرذيلة من قلبك كما تزيل الحشائش الضارّة للزرع بعزقها ، وافعل مافعله أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ، فانه لما حلف أن لاينفق على مسطح قريبه وقد

تكلم فى واقعة الإفك نزل قوله تعالى : « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » ، فوصله بعد القطيعة ، وأنعم عليه بعد الحرمان . انتهى

العجب وسببه وعلاجه

العجب استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم ، فأما من كان خائفا وجلا مشفقا من زوالها ، ومن فرح بها من حيث انها نعمة من الله فليس بمعجب ، أما سببه فالجهل ، وأساسه الوهم الذى عليه تبنى قصور الهوى ، ومحاريب الجهل ، وتماثيل الفخار . فأما علاجه فأن يعرف المرء أن ماتباهى به بين الأقران لايخلو من أحد أمرين : إما مايدخل تحت اختياره و يظهر بعمله و يحصل بسعيه كالعبادة والصدقة ، واصلاح الأمة ، وسياسة الجمهور ، وحشد الجنود ، ورفع البنود ، ونظام الموازين ، وتعليم الناشئين ، فهل جهل ذلك المسكين أنه مخلوق ضعيف ، مركب من عناصر مقهورة ، مؤلف من أمشاج فى ماء مهين ، وماذا عمل ؟ ان هو إلا آلة مسخرة ، وطينة محيرة ، وصورة مجندرة ، وصنعة مدبرة ، وآية مصغرة ، وعظة وتذكرة ، ففاجر من فجره ، أوشاكر من بره .

وأما مالاعمل له فيه فان كان جمالا أوقوة أونسبا أوميراثا من كل مالااختيار له فى حصوله ، ولاسبب أوصله إليه فان الأمر أهون ، والمعجب إذن أشدّ جهالة ، وأخسر صفقة ، وأقلّ فكرا ، وأبعد ضلالا ، وأسوأ حالا . ومن أجهل ممن يعجب بما لم يفعل ، وان المعجب مغترّ بنفسه ، آمن زوال نعمته حيث لاأمان ، قتل الانسان ما أجهله . واعلم أن أسباب ذلك ستة أمور وهى : الجمال ، القدرة ، العلم ، النسب ، الميراث ، الملك .

العلاج

التأمّل ، والتذكر ، والتدبر ، وادّكار أن الموت شامل ، والاعتبار بمن مضى من الأمم ، فأخلوا الديار فصارت قاعا صفصفا بعد العزّ والبأس ، ورسوخ الدولة ، وتمام الزينة .

الأحاديث ووازع الدين

قال صلى الله عليه وسلم : « لولم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو أكبر من ذلك ، العجب » وقيل لعائشة رضى الله عنها : متى يكون الرجل مسيئا ؟ قالت اذا ظنّ أنه محسن . وقال الله تعالى : « و يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : هوى مطاع ، وشح متبع ، واعجاب المرء بنفسه » .

الكبر

الكبر أن يرى الانسان نفسه فوق غيرها بعلم حصله ، أوعمل أتقنه ، أوأصل نسب له ، أوجمال أطغاه ، أومال ألهاه ، أوقوة أعزّته ، أوعشيرة نصرته . فهذه أسباب تدعو أوّلا للاعجاب بنفسه ، واستحسانه صفته والفرح بما يراه أهلا له من صفة الكمال والجمال ، وقد يكون لحقد ملأ فؤاده ، أولحسد أغضبه ، أولرياء اعتراه ، فهذه أربعة أسباب تدعوه للكبرياء ، أما العجب فقد تقدّم ذكره ، وسبق شرحه .

أما من حقد على من آذاه ، وأضمر له السوء ، واستبطن له الشرّ ، فانه يتكبر عليه و يزدريه ، وهكذا الحاسد على النعمة ، الفاقد للفضيلة ، والمرائى الذى يطلب الرفعة والسودد ، انه لا يقبل العلم أمام المجالس ، ولايقرّ بالفضيلة للمحسودين ، ولا يسمع النصيحة فى ملأ من العالمين .

العلاج

فليعالج المتكبر نفسه بالعلم والفهم ، وليتذكر أنه مكوّن ضعيف مربوب ، وليواظب على أعمال المتواضعين وليحذر التنزل والمذلة والابتذال ، فاذا تقدّم لاخوانه وقرنائه فسوى نعالهم وأكرم مثواهم ، وسارّهم وسرّهم وغدا إلى باب الدار معهم ، فهو المتواضع وان تنزل إلى أسفل الدرجات ، وعامل من تحت درجته معاملة اخوانه أو أخذ يتملق ، أو يتذلل ، فقد تنزل إلى الأسفل ، وأضحى من المتبذلين ، فليعالج المتبذل نفسه برفعها ، ولينف المتكبر أسباب كبريائه من الحسد القاتل ، والحقد المكين .

ذم الكبر وايضاحه

الكبر شجرة أصلها ثابت فى القلب ، وفرعها فى الجوارح ، وثمرتها فى الأعمال ، كأن يترفع عن مجالسة نظيره ، ويأنف من مخالطته ، ولايساويه فى مجالسه ، وإذا ناظره عنف ، وان كلمه أنف ، ويتقدّم عليه إن ماشاه ، ولايقبل منه نصيحته ان هداه ، وهذا الخلق غائلة العباد والزهاد ، وبلية الوعاظ والعلماء ، فضلا عن العامة الجهلاء ، وهو أعظم المحن ، وأكبر البلايا والاحن ، قال صلى الله عليه وسلم : « لايدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرّة من كبر » والانسان ظلوم جهول قد يسوقه الغرور للتكبر على الله فيقول « أنا ربكم الأعلى » وقد يرى نفسه أحقّ بالرسالة ، وأولى بالشفاعة ، فيقول : ولم أرسل المرسلون ؟ واصطفى النبيون ، ومنع من تلك النعمة فلايتبع نبيا ، ولايرى له رسولا ، وقد يرى الناس دونه خلالا ، والعامّة حيرا ، فيعظم خطبه ، ويفحش ذنبه .

الفرق بين العجب والكبر

المعجب يُرى مدلا بنفسه ، فرحا بسمته ، وان كان غيره أسمى فى نظره ، وأعظم فى معتقده ، والمتكبر أعظم جرما ، وأكبر إثما ، فهو يريد أن يرى غيره دونه ، وهو القاهر فوقهم ، وقد ذمّه الله تعالى فقال سبحانه « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لايؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » .
وقال : « والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين » . وقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم إنى أعوذ بك من نفخة الكبرياء » . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال انى آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين : أنهاكما عن الشرك والكبر ، وآمركما بلاإله إلا الله فان السموات والأرض ومن فيهنّ لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت لاإله إلاالله فى الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ، ولوأن السموات والأرض ومافيهن كانت حلقة فوضعت فيها لاإله إلاالله لقصمتها ، ثم آمركما بسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شيء » وقال صلى الله عليه وسلم : « لاينظرالله إلى رجل يجرّ إزاره بطرا » .
وروى عنه عليه السلام انه بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال يقول الله : ياابن آدم أنىتعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سوّيتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وجيب جمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة اهـ

ولنقتصر من كتابنا « جوهر التقوى » فى علم الأخلاق على هذا المقدار ، ونرجئ باقيها إلى تفسير ﴿ سورة ق ﴾ عند آية : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد »

إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وبهذا انتهى المقام الثانى الذى هو فى غوائل النفس من المقالة الثانية فى آية : « ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهنّ ولاتلمزوا أنفسكم ولاتنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون » .

المقالة الثالثة

فى قوله تعالى : « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »

فأذكر هنا كيف تعاملنا أوروبا الآن معاملة قاسية إيقاظا لنا حتى نرجع مجدنا بهيئة أشرف مما كان عليه آباؤنا العظام ، ولأكتف فى هذا المقال بما كتبه العلامة (لوثروب استودارد) العالم الاجتماعى الأميركى المترجم إلى العربية فى الجزء الأوّل من كتابه المسمى « حاضر العالم الاسلامى » إذ ذكر السلطان عبد الحميد وكيف نشر الدعوة بين المسلمين ليقوموا ضد أوروبا ، وكيف كانت ثورة تركية الفتاة وثورة ايران تزيدان استيقاظ العالم الاسلامى ، وكيف زادت الحرب البلقانية الطين بلة فازداد المسلمون استيقاظا ، وكيف اتحد الترك والعرب فى قتال الطليان فى طرابلس وهكذا اشتدّ غليان العالم الاسلامى ، وقد تقدّم هذا كله فى ﴿ سورة الفتح ﴾ من نحو صفحة ١٤٢ من الكتاب المذكور إلى حوالى صفحة ١٦٤ ولنقتصر من الكتاب على مالم يذكر هناك من بعد ذلك وهذا نصه : —

وإذ قد بلغنا فى الكلام على الجامعة الاسلامية من وجهتيها الدينية والسياسية إلى هذا الحد يجدر بنا أن نقول كلة فى الجامعة من حيث وجهتيها التجارية والصناعية ، وذلك مايعرف بالجامعة الاسلامية الاقتصادية .

إن السبب فى انتشار الجامعة الاسلامية الاقتصادية هو عوامل الاستنزاف ، واحتياز موارد الثروة فى الشرق ، فمن قبل خمسين سنة خلت كان العالم الاسلامى يتسكع فى أجياله الوسطى ، فكانت الشريعة الاسلامية ومافيها من تحريم الربا مرعية حق الرعاية بحيث لم تكن الحياة الاقتصادية بمعناها الحالى ميسورة ، وما كان هناك من بعض التجارة والصناعة انما كان غالبه فى أيدى النصارى واليهود من أهل البلاد ، زد على هذا أن التزاحم الغربى جاء فانتشر فزلزل الحياة الاقتصادية الشرقية زلزالا هائلا ، إذ أن فتح أوروبا للعالم الاسلامى الفتح السياسى كان يماشيه الفتح الاقتصادى جنبا إلى جنب ، وربما كان هذا الأخير أتمّ نظاما وأكمل عدّة فبات كل صقع شرقى فى طوف من البضاعات والحاج البخسة الأثمان المنقولة من أوروبا ، ووراء ذلك رءوس الأموال الغربية متدفقة لاتحصى ، تتسرّب فى البلاد وتنتشر بأخدع الصور وأملق الأساليب كالقروض والامتيازات التى من شأنها متى ماعقدت أن تكون تمهيدا لاستقرار السيطرة السياسية الغربية ، فنصر أوروبا الذى نالته فى فتحها هذا الفتح السياسى الاقتصادى التام كان باعثا للشرقيين على العداء والمقاومة ، فاستيقظ العالم الاسلامى غضبان ، فهاله ماراءه فى دياره من الأسباب والأدوات الغربيـة المأتى بها لاستنزافه واستنفاد خيراته الطبيعية ، فقدر حوله إزاء حول الغرب الجبار العاتى فأدرك شقة البعد ، فطفق للحال يجدّ فى سبيل التحرّر الاقتصادى جدّه فى سبيل التحرّر السياسى من ربق الذل والاستعباد ، ثم أنشأ حكماء المسلمين وأرباب الدراية فيهم والرأى السديد ، يلتمسون الأسباب الغربية الفضلى ، التى من شأنها أن ترقى بالعالم الاسلامى رقيا اقتصاديا جليلا ، فنسخت الأساليب والمناهج الغربية ونسج على منوالها ، وما كانت تحريمات الشريعة لتقف سدّا فى وجه النهضة ، ولاتحول دون مجراها ، فنتج عن ذلك تطوّر عظيم فى الحياة الاقتصادية أخذ ينمو ويزداد : ناهجا منهجا اقتصاديا غربيا ، ولكنه حتى اليوم مابرح يجتاز الدور الأوّل من أدواره ، وهو أظهر وأبين فى البلاد التى هى أشدّ صلة ومساسا بالسيطرة الغربية كالهند ومصر والجزائر ، أما متّجهه فواحد

فى كل قطر اسلامى ، وسنفصل الكلام على هذا فى فصل التطور الاقتصادى ، فما يجب اعتباره فى هذا المقام هو تدبر شأن هذا التطور من حيث صلته بالجامعة الاسلامية ومنزلته فيها ، وهذا الشأن هو عظيم جدًا ، لأن أوثق وحدة وأمتن صلة ظهرت فى المسلمين حتى اليوم إنما هى الوحدة الاقتصادية بلا مراء ، ولا يعزب عن البال أن الروابط الدينية ، والصلات الخلقية التهذيبية ، التى تجمع بين المسلم والمسلم ، ما انفكت تزيد فى توائق المسلمين وتآزرهم ، وتعاطفهم وتضامنهم ، كأنهم فى المعمور الاسلامى أمة واحدة بعضها يغار على بعض ، وجانب يساند آخر ، دع ماهو هناك من الأسباب الغربية للنقل والتواصل ، المسهلة على المسلمين القيام بالأسفار إلى كل جهة أرادوا ، فازداد بذلك تعارفهم ، واستمسكت أواصرهم ، فنشأ فيهم نشء جديد ، أبناؤه مقاديم ، بعداء الهمة ، أشداء العزم ، فيهم التجار وأرباب السفن البحرية والأعمال التجارية ، والصيارفة والسماسرة ، حتى وأرباب المصانع والمعامل ، ممن لم ير أمثالهم فى المسلمين من قبل بقرن أو نصف قرن خلا ، وأبناء هذا النشء الجديد على غاية من التفاهم والتواثق ، تربط بعضهم ببعض الروابط الاسلامية ، ويحملهم التزاحم الغربى المنتشر فى بلادهم على شدة التضامن ، فلهم فى الواقع من سعة المجال للعمل المنظم والاتحاد الوثيق ماليس مثله للساسة المسلمين ، إذ فى الأفق الاقتصادى يتلاقى الأحرار ودعاة الجامعة الاسلامية والغلاة وسائر الأحزاب الوطنية على أتم وئام ، فلا خلاف بينهم فى هذا الميدان يفضى بهم إلى الانقسام لعلة اتباع إحدى السياسات كسياسة الثورة أو الجهاد انقساما يحملهم على تهديد أوروبا المسلحة ، أو يؤدى بهم إلى المجازفة بالنفوس والدماء والأموال ، بل هم جميعا فى نطاق الجامعة الاقتصادية سواء ، متحدو الكلمة ، يجدّون فى سبيل الحياة الاقتصادية الاسلامية ، متوخين فى ذلك الطرق والأساليب التجارية التى لايجرأ الغرب أن يحول دونهم ودونها ولا يقف فى وجهها .

فما هى غاية الجامعة الاسلامية الاقتصادية ترى ؟ إنما هى ثروة المسلمين للمسلمين وثمرات التجارة والصناعة فى جميع المعمور الاسلامى هى لهم يتنعمون بها وليست لنصارى الغرب يستنزفونها ، وهى نفض اليد من رءوس المال الغربية والاستعاضة عنها برءوس مال اسلامية ، وفوق جميع هذا هى تحطيم نواجذ أوروبا ، تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية فى بلاد المسلمين ، وذلك بعدم تجديد الامتيازات فى الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجمارك ، العقود التى مادامت خارجة من أيدى العالم الاسلامى فهو يظل عالة على الغرب .

هذه هى أغراض الجامعة الاسلامية الاقتصادية وجميعها حديث المنشأ ، وسببه السيطرة الغربية الشديدة فى العالم الاسلامى ، السيطرة التى نتكلم عليها فى الفصل التالى من هذا الكتاب . والى هنا تم الكلام على المقالة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

المقالة الرابعة فى جوهرتين اثنتين

الجوهرة الاولى فيما كتبته لأمم الغرب فى مجلة المعرفة فى عددها الرابع الصادر فى أغسطس سنة ١٩٣١ وهذا نصه : —

صوت صارخ من الشرق إلى الغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

ملكنا فكان العفو منا سجية * فلما ملكتم سال بالدم أبطح

فهذا وذاكم فعلنا وفعالكم * وكل إناء بالذى فيه ينضح

الانسان نوع واحد من أب وأم فأصبح شعوبا وقبائل فتكاثروا أفذاذا وعشائر لتزداد السعادة ويتم الهناء فى الأمم والأفراد . انتشروا فى الأرض شرقا وغربا ، فكان شرقيون وغربيون ، الشرق أب والغرب ابنه ، والأب يعطف على ابنه بدافع المحبة والولاء ، إن الديانات كلها شرقية فقبها البوذية والكونفوشيوسية واليهودية والنصرانية والاسلام ، زحف إلى الشرق منكم اليونانيون والبطالسة والرومان من قبل و بعدميلاد المسيح واقتسموا السلطة هم والفرس فى الشرق الأدنى وهم غاصبون .

هنالك قال الأب لابنه : أيها الابن العزيز لئن رميتنى بحجر لأرمينك بالتمر، لاتخرجن من دارأبيك إلا بعد أن أهديك الصراط المستقيم ، وهل ذلك إلا قول المسيح عليه السلام : اعبدوا الله أيها الأبناء وافشوا فى الأرض السلام ، لاسلاح ، لاقتال ، لاجدال ، كونوا عباد الله اخوانا .

وهل سبب ذلك إلا انه رآكم تعبدون غير الله ، فاليونان والرومان كانوا يعبدون الكواكب والأصنام والفرنسيون تشبه عبادتهم عبادة أهل الهند الوثنيين ، والانجليز كانوا يسجدون للصخور والحجارة ولمنابع المياه ، فأما استوريا (النمسا) والبروسية والروسيا واسبانيا والبرتغال وهولاندا والدانمرك والسويد والنرويج وسويسره فدينهم القديم دين من ذكرناهم أولا حذو القذة بالقذة ، فلما رآكم على هذه الحال دعاكم إلى عبادة الله والى السلام ، فدخلتم فى الدين المسيحى أفواجا ، ففرنسا سنة ٤٩٦ م وايطاليا سنة ٥٠٠ م وانكلترا سنة ٥٩٦ م ويقرب من هؤلاء فى التاريخ النمساويون والأسبانيون والبرتغال إلى آخرمن ذكرنا ماعدا دولة الروسيا فانها لم تدخل إلا فى نحوالقرن العاشر الميلادى ، ولكن لما دخلتم المسيحية لم تعملوا بما عليه المسيح من السلام العام إذ بقيتم فى الشرق وازداد ظلم الرومان للشرقيين ، فماذا كان ؟ ظهر نبىّ عربىّ فى صحراء قاحلة وقال كما قال المسيح : « افشوا السلام ، وأديموا الصيام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا جنة ربكم بسلام » ودعاكم إلى الاسلام والسلام العام واستعمل السيف عند الحاجة بشروط خاصة لأن المسيح قبله لم يخضد من شوكتكم ولم تعملوا بنصيحته فى السلام فتتركوا الشرق للشرقيين الذين هم أساتذة لكم معلمون ، لم يمض على امتشاق الحسام الاسلامى عشرون سنة حتى عادت المياه إلى مجاريها وتركتم الشرق لأهله ، إذن الاسلام قد أتمّ ما ابتدأته المسيحية لسلام أهل الأرض ، فسلام المسيح عقائد ، وسلام الاسلام عقائد وأعمال .

هنالك أخذ النور يمتدّ فى الشرق ، والظلام يعمّ فى الغرب ، واستبدّ البابوية الرومانيون بكم ، وقتلوا وأحرقوا بالنار ألوفا ، وأذلوا ملوككم ، وأذاقوكم سوء العذاب ، قال المسيح لكم : « الطوبى للرحماء فانهم يرحمون ، الطوبى لصانعى السلام فانهم أحباب الله يدعون » فخالفتم قوله ، ففى سنة ٧٨٢ قبض شارلمان الكبير بايعاز الحبر الرومانى على أربعة آلاف ساكسونى ونيف فى مدينة واردن ، وضرب أعناقهم فى يوم واحد ، لأنهم أبوا قبول العماد ، وفى سنة ١٠٠٧ أحرق فى مدينة أورليا جلة (أراتيكيين) وهم أحياء ، وتبع ذلك كثير من القتل والاحراق فى سنة ١١٢٤ وسنة ١١٥٥ حتى عمّ الظلم والاهلاك والتدمير ، وأسس ديوان التفتيش فى سنة ١١٨٤ وصادق عليه البابا (انيوشنفسيوس الثالث) وثبته البابا غريغوريوس وقسلم ماردو مينيكوس ورهبانه ادارته ، وسوّدوا صفحات التاريخ باحراق وقتل الملايين .

هنالك ساقتكم العناية الإلهية إلى الشرق كما ساقتكم فى المرّة الأولى التى فيها اعتنقتم دين المسيح ، لأن فى الشرق نورا اسلاميا ، ومتى أشرق على ربوعكم قلّ ذلك الظلام ، ان الله هوالذى رحمكم بانبعاث نفوس رجال الدين إلى اغرائكم على أهل الشرق بحجة المدافعة عن الأماكن المقدّسة ، فأثرتم الحروب الصليبية ، ودام الصراع نحومئتى سنة ، فرجعتم تحملون فى صدوركم نورالعلم والاصلاح والحرّية والاخاء بسبب معاشرة أهل الاسلام ، فلم تملكوا الأماكن المقدّسة ولا بلاد الشرق ولكن ملكتم ناصية السيادة وانتزعتموها

من رجال الدين الذين أغروكم على محاربة الشرقيين فكانت الهزيمة لأولئك البابوات الذين هم فى الحقيقة الجانون على الدين ومتبعيه لا الشرقيون ، رجال الدين أرادوا الانتقام من الشرق بلا حجة وأراد الله انتقاص سلطتهم بالعدل « إن ربى على صراط مستقيم » .

فهل ظهر فيكم (لوثر) المصلح العظيم (وفولتير روسو) وأضرابهم إلا بعد اطلاعكم على كتب منقولة عن تعاليم الاسلام « وأمرهم شورى بينهم » .

ألم يقل (سديو الفرنسى) فى كتابه المسمى (تاريخ العرب) : « إن اللاتينيين استمدّوا العلوم الفلكية الأوّلية من العرب فان (جوبرت) الذى كان بابا روما الملقب بسلوستر الثانى أدخل من سنة ٩٧٠ إلى سنة ٩٨٠ ميلادية عند الافرنج العلوم الرياضية التى كسبها من عرب اسبانيا ، وادهيلارد الانكليزى ساح من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٢٠ ميلادية فى كل من اسبانيا ومصر وترجم مبادئ اقليدس من العربية بعد أن ترجمها العرب من اليونانية . وهكذا سارت أمم أوروبا مثل الاستاذ (رودلف) من أهالى بروجس البلجيقية إذ ترجم مسائل بطليموس فى الفلك ، وبتليون البولندى ترجم كتاب الخازن فى علم الضوء والنظر ، وهكذا كثير وكثير جدا .

هاأنتم الآن اليوم رجعتم مرة ثالثة إلى الشرق بلا حجة إلا اهتضام حقوقه واذلال الشرقيين ، ومامثلكم فى ذلك إلا كمثل النمل إذ تحارب جوشه أنواعا أخرى منه ، ويعيش الغالبون من ثمرات كدّ المغلوبين ، فينقرض الغالبون لكسلهم على مدى الزمان ، فأنتم فى ذلك كالنمل أوكدولة الرومان .

هانحن أولاء أخذنا نوازن بيننا أيام عظمة ملكنا وبينكم فى أيامنا هذه فألفينا عهودنا مع الضعفاء محفوظة فأماأنتم فلاعهد لكم مع الضعفاء ، فهاكم أيها الاخوة ماجاء فى كتاب أشهر مشاهير الاسلام تحت عنوان « جندى سابور وأمان عبد أمضاه جيش المسلمين » وهذا نصه : —

روى الطبرى أن أبا سبرة لما فرغ من السوس خرج فى جنده حتى نزل على جندى سابور وزر بن عبد الله بن كليب حاصرهم فأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال فلم يفجأهم يوما إلا وأبواب البلد تفتح ثم خرج الناس وخرج الأسواق وانبث أهلها فأرسل المسلمون من ذلك وأرسلوا فسألوهم : أن مالكم ؟ قالوا رميتم إلينا بالأمان فقبلناه ، وأقررنا لكم بالجزية على أن تمنعونا ، فقال المسلمون مافعلنا ، فقال أهل جندى سابور ونحن ماكذبنا ، فسأل المسلمون فيما بينهم ؟ فاذا عبد يدعى مكنفا كان أصله منها هو الذى كتب لهم فقالوا انما لانعرف حركم من عبدكم فقد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلنا ولم نبدّل فان شئتم فاغدروا ، فأمسكوا عنهم وكتبوا بذلك إلى عمر فكتب إليهم : إن الله عظم الوفاء فلاتكونون أوفياء حتى تفوا ما دمتم فى شك ، جيزوهم وفوا لهم ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم » اه

هذه أخلاق خلفائنا الأربعة مع المستضعفين ، فهل فعلتم ذلك معنا بعد الحرب العظمى ؟ وقد قلتم : ساعدونا ، ونحن ما أثرناها إلا لتحرير المستعبدين ، فهاكم ما قاله العلامة الطائر الصيت (لوثروب استودارد) الأمريكى فى كتابه « حاضر العالم الاسلامى » وهذا نصه : —

« مما لامشاحة فيه أن الحرب العظمى الكونية قد أفضت بالحالة إلى المأزق الحرج والساعة العصيبة ، إذ التفت الشرق فى سنة ١٩١٤ فرأى الأمم الاوروبية التى كانت مابرحت حافظة لشىء من الوحدة القائمة على اعتبارات عنصرية جبلية قد انبرت تتناحر فى سوق حرب لم يحو التاريخ بين دفتيه مثيلا لها قسوة وفظاعة ، وتتناحر مدفعة بعضها بعضا نحو المجزرة الهائلة والنيران الجهنمية ، ورأى وحدة الجيل الأبيض قد عصفت فيها ريح المطامع السياسية ، والنقائص الأدبية فزعزعتها وهدمتها تهديما ، فوقفت كل أمة من الأخرى وبينهما غور سحيق ، وهوّة بعيدة ، ولم يكن للأمم الشرقية من سبب للتأسى والصبر على بلاوى الجائحة

الكبرى سوى ذلك البيان الحرّ الذى نقش ساسة الحلفاء حروفه فى أعلام دولهم ورايات جيوشهم ، ولكن لما وضعت الحرب أوزارها ، ونال الحلفاء الظفر المبتغى أخذت الأسرار تنفضح ، فذاع للملأ كافة أنه فى الحين الذى كان فيه أقطاب الحلفاء وساستهم وقوّادهم يطيرون إلى أنحاء العالم قاطبة خطبهم الحرّة المعربة عن الغاية التى فى سبيلها آثرت دولهم الانغماس فى الحرب الزبون وهى تحرير الشعوب المستعبدة ، وإطلاق الأسر للأمم المستضعفة فى اختيار حكمها ، وتقرير مصيرها ، كان هؤلاء الأقطاب الساسة فى الوقت عينه يتفاوضون ويعقدون ويبرمون فيما بينهم سلسلة من المعاهدات السرّية لاقتسام الشرق الأدنى ، مدفوعين إلى ذلك بروح الجشع الكلبى ، تلك الروح الاستعمارية التى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الانسان ، ولما حان انعقاد مؤتمر الصلح الذى ولى الحرب أتى بطائفة تلك المعاهدات لا بتلك الخطب الحرّة التى أذاعها الأقطاب والساسة وجعلت أساسا بنيت عليه التسوية الشرقية ، ومؤدّاها (حبر على ورق) اخضاع الشرق الأدنى والأوسط اخضاعا تاما ، واقتيادهما بخزائم الاستعمار والسيطرة السياسية ما أفظعها » انتهى ماجاء فى الكتاب المذكور فى صفحة ٤٢ و٤٣

أليس هذا تاريخنا وتاريخكم وفينا بعهد عبد لنا ، ولم تفوا بعهود أقطاب سياستكم ، إذن عالم الانسان اليوم مجرم كذاب .

أيها الاخوة الغربيون : الدهر قلب « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ، الشرق هو الشرق ، وقديما هجمت عليكم أمم من قبل التاريخ المسيحى فأهلكوا الحرث والنسل ، ثم أعادوا الكرة منذ نحو سبع قرون ولاتزال أعقاب التتار فى بلاد النمسا إلى الآن ، وهاهم التتار المسلمون فى قلب الروسيا المسيحية ، أليس هؤلاء أمما شرقية سطت على أوروبا !

حذار حذار أيها الغربيون ، إن فلاسفتكم وأكابر علمائكم يعلمون أن عملكم عاقبته خسران لكم مبين ولكنكم لاتسمعون الناصحين ، لأنّ العامّة يسوقون نوّابكم إلى مزاولة الشهوات الزائلة ، وأعينهم فى غطاء والجهل يطمس على أبصارهم فلايدركون سرّ العواقب ، فهل ترضون أيها السوّاس أن تكونوا أسرى العامّة تابعين لأهوائهم ، ألاساء ماتفعلون .

شرّ الشرق أبدى ناجذيه لكم ، آن وقت الحساب ، استيقظ الشرق فهو كزرع دفن تحت الثلج ثم أرسلت الشمس أشعتها فذاب فأسرع الزرع فى نمائه ، احذروا غضبة الشرقيين ، اليابان والصين والهند والترك والفرس والعرب والأفغان ومع هؤلاء روسيا كلهم متحفزون أفلا تعقلون ؟ أفلا تنظرون ! .

فياليت شعرى من ذا الذى يصدّ ناموس النشوء والارتقاء عن مجراه ، ألكم قدرة على إيقاف الشمس عن مجراها ، أوالهواء عن ممراه ؟ اذا خطر لكم ذلك فأهون به خاطرا ، وماأضلّ هواه .

أفلا أسمعكم صوتا ثالثا : أفلا تسمعون اليوم أيها الاخوة صوت رجل شرقىّ وهو كاتب هذه السطور ، يقول لكم قولا بعد الدينين السابقين (المسيحية والاسلام) فلعلكم لما اتبعتم الأوّل بعد صدوره بخمس قرون وانتفعتم بتعاليم الثانى فى حرّيتكم أيام الحروب الصليبية بعد نزوله بقرون تضارعها فى العد تسمعون هذا عند صدوره بلا تأخير لأنكم اليوم علماء دارسون معلمون ، وليس كتابى دينا بل هو كتاب جعل سياسته على العلوم الطبيعية الكونية والحقائق العقلية . هاهو ذا كتاب «أين الانسان» نشرته منذ ٢٠ سنة قبل الحرب الكبرى بأربع سنين ، وبينت فيه قصور الانسان ، وقرّظه علماؤكم فى ايطاليا وفرنسا وألمانيا وقالوا هذا هو الصالح لرقىّ نوع الانسان ، إذ يجعل الأمم كلها أشبه بجسد واحد يستمتع الغربيون والشرقيون معا بالحرّية والمساواة والاخاء ، نحن أمم الشرق الأدنى عموما وسط بين أوروبا والشرق الأقصى فلنكن نحن بين الطرفين المتباعدين واسطة لسلام والمحبة والاخلاص ، نحن الآن نطلب السلام . وأنا بلسان ثلاث مئة وخمسين مليونا من المسلمين أطلب السلام فهل أنتم منتهون ؟ انتهى ماكتبته فى مجلة المعرفة وبهذا تم الكلام على الجوهرة الأولى

الجوهرة الثانية : وهى خاتمة المقالة الرابعة

في ذكر سرّ من أسرار آية : « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

وهى من عجائب القرآن ومعجزاته فى هذا الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله وصحبه أجمعين .

(أما بعد) فياأيها المسلمون : هل أتاكم نبأ معجزات القرآن الحكمية ، وعجائبها السياسية ، وحللها السندسية ، وحلاها الجوهرية ، وعقودها الدرّية ، وحكمها القدسية ، وأنوارها البهية ، وأسرارها الربانية ، وعلومها اللدنية ، وآياتها العبقرية ، وآثارها الجلية .

أحدثكم أيها الاخوان حديثا انه لوتعلمون عظيم ، أحدثكم عن سرّ القرآن ، ونورالعرفان ، و برهان الزمان ، وشرف الانسان ، وجمال الدين ، وفضل رب العالمين . بماذا أحدثكم ؟ أحدثكم عن نبأ السياسة الشرقية والغربية ، فى الآيات القرآنية ، سيقول قائل ماهذا التشويق ؟ ولمَ هذا التنميق ؟ قل وأوجز ، واقتصر واجز . فأقول :

لقد خطر لى خاطر منذ عشرين سنة ، إذ قرأت فى إحدى الجرائد أن انكلترا لما رأت أن ذكورها يقلون عن اناثها فى كل ألف نفس ١٥ أى تزيد النساء عن الذكور ١٥ فى كل ألف ، وانهم ينادون بالويل والثبور ، ويقولون : لمن نكل أمر هؤلاء النسوة ؟ وذلك فى ناديهم الأكبر المسمى (البرلمان) .

فلما سمعت ذلك عجبت كل العجب ! وفكرت فى أمر الانسان والحيوان ، فوجدت حقا أن النسبة محفوظة فى كل أمة من أمم الأرض ، وفى كل حيوان ، وفى كل قرية ، فهالنى الأمر جدا ، وأخذنى العجب كل مأخذ ، وقلت فى نفسى : ان عناية الخالق الحكيم قد لاحظت كل حامل من حوامل الانسان والحيوان ، وراعت النسبة بين الذكور والاناث ، ولوأن أهل مصر ، أوأهل سوريا مثلا ، لم يولد لهم اناث أوذكور مدة ثلاثين سنة مثلا لانقرضت الأمة انقراضا تاما ، إذ لايجد الذكورلهم اناثا يلدون لهم . ثم نظرت فوجدت القاعدة مطردة ، أى انى وجدت فى كل قرية و بلدة ومصر قد تساوى تقريبا ذكورها واناثها ، ولم يذر الله قرية ولا أمة من هذه المساواة ، لافرق بين المتوحشين والمتمدينين ، ثم نظرت فى الحيوان فوجدته كذلك فلم يمنع الاناث أوالذكورمن البقر فى بلدة حتى يحتاج الذكور أو الاناث من بلدة أن يذهبن إلى أخرى ، بل رأيت الله قد حفظ النسبة تامة غير منقوصة . ثم انى بعد ذلك اطلعت على هذا الاحصاء فأيد قولى وهو :

(١) إن القارّة التى يزيد عدد النساء فيها على الرجال على وجه العموم هى أوروبا فان نسبتهنّ إليهم كنسبة خمس إلى أربع .

(٢) وأن نسبة الرجال إلى النساء فى آسيا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٩٧٣ وفى افريقيا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٩٦٨ وفى استراليا كنسبة ١٠٠٠ الى ٨٢٢

هذا الاحصاء ربما كان تقريبيا ولكنه على كل حال أيد نظريتى . هنالك فكرت فى أمر آخر :

الصناعات والعلوم

فقلت : هاأناذا أنظرفأرى الأمم كلها فيها قادة وفلاسفة وحكماء ، وفيها صناع ، وفيها عمال ، يظهرلى أن العقول لما خلقت روعيت فيها النسبة ، لأننا نرى أهل أوروبا الذين انتشرالعلم بينهم أقلهم مفكرون للمجموع وأكثرهم لأعمال خاصة ، أوعلوم تناسبهم ، فهالنى الأمر أيضا ، وقلت : يظهرأن الحكمة العامّة كما راعت

النسبة بين الذكور والاناث بالمساواة راعت النسبة فى أعمال الحياة وعلومها على مقتضى الحاجة كالمعادن من ذهب وحديد وفضة ، ثم هذه صارت عقيدة عنـدى ، وقلت : إذن هذا الانسان ظالم جاهل لأنه لم يضع كل عقل فيما خلق له .

الأرض واستعدادها

ثم نظرت الى الأرض التى نحن عليها فوجدتها مختلفة الاستعداد ، ففى بلادنا نزرع القطن و بلاد الانجليز لاتصلح له ، وهم محتاجون لصنع قطننا ، وهكذا كل بلدة من بلاد العالم لها خاصية ، فتنوّعت خواص الأرض وخواص العقول ، فأيقنت أن الحكمة عامة ، وأن الانسانية طفلة ، وأنه سيأتى يوم يعرف الناس هذه النظرية و يسخروا كل عقـل فيما خلق له كما يستعملون كل أرض فيما خلقت له ، ومستحيل أن يسـعد الناس على الأرض إلا اذا فعلوا ذلك أى شغلوا كل العقول فى جميع الأرض ، فالأرض عروس ازّينت للناس وهى مخبوءة عنهم حتى يهيئوا لها جميع العقول فى الشرق والغرب ، ذلك هو مهرها الذى ينالون به ثمراتها ، ثبتت هذه العقيدة عندى .

نظرتى فى الأمم

ثم نظرت فى حال الأمم فوجدتهم فى الشرق والغرب جميعا يجهلون هذه الحقيقة ، ومن عرفها منهم لاكها بلسانه ، وقلبـه بالظلم والغش مشغول ، ونظرت فى سياسات الأمم شرقيها وغربيها فما نوع الانسان إلا أشبه بالذئاب والنمور والصقور ، كل لـكل راصد ، وله محارب .

تأليف « أين الانسان »

هنالك ألفت كتاب « أين الانسان » وذكرت فيه ان الله يعاقب الأمم على جهلها ولابدّ من حرب يجتمع فيه أهل الشرق وأهل الغرب ، واطلع عليه أهل أوروبا سنة ١٩١١ م وذلك قبل الحرب الكبرى بأربع سنين ، ولقد كان عجبى عظيما حينما اطلعت على تقريظ قرّظه العلامة الاستاذ (ساتلانه الطلياني) من فلاسفة ايطاليا وحكمائهم ، فقد لخصه فى مجلة بلغتهم التى نشرها فى أوروبا ، هكذا ورد ذكرهذا الكتاب فى تأليف العلامة (كرّاديفو) الفرنسى فى هـذه السنة (١٩٢٦ م) وسأذكرلك كلامهما قريبا هنا ، فالكتاب إذن ظهرمنذ ١٧ سنة وتأليف التفسيرلم يكن بطريق جدى إلا فى هذه السنين ، وقدأتممته منذ سنة ونصف وهاأناذا الآن أى فى أوائل سنة ١٩٢٧ م وقدّم للطبعة ، فانظر ماذا حصل :

توجهت منذ أيام إلى ناحية المرج (كما تقدّم فى سورة الانفال) وقابلنى عالم بعلم الزراعة ، وأرانى حشرة صغيرة تهلك الأشجار ، فماذا جرى ؟ فكرت فى أمر الحشرة ، وأن اناثها قد تلد بغـير ذكور ، وانها أشبه بالنار اذا شبت فى بيت أحرقت بقيـة البيوت ، فهى وجميع الأمراض العامـة والطاعون وأمثالها اتخذت الكرة الأرضية كأنها قرية واحدة تنتقل من شجرة إلى شجرة ، ومن حقل إلى حقل ، ومن أمة إلى أمة ، هنالك تفكرت فى قوله تعالى : « وأصلحوا ذات بينكم » فى سورة الأنفال ، فذلك هو الاتحاد بين المسلمين وفى قوله تعالى هنا : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

الذكورة والانوثة اتحدتا فى أدنى الحيوان ، وفى أدنى النبات ، ثم أخـذ الافتراق الشخصى يظهر فى الأصناف العالية فيهما ، فماذا جرى ؟ أخذ الصنفان يتعارفان بأنواع المعرفات من جمال وأخلاق وآداب ، فاجتمعا وتزوّجا وولدا ، هنالك رجعت إلى هـذه الآية وتفكرت فى كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ فوجدته كله

معنى هذه الآية ، لأنها ابتدأت بالذكورة والانوثة ، وهي هي التي عليها بنيت كتاب ﴿أين الانسان﴾ ، هنالك أخذني العجب كل مأخذ ، وعلمت أن كتاب ﴿أين الانسان﴾ الذي أعجب به أهل أوروبا وقالوا في فرنسا وفي ايطاليا : انه ينعش العقول والأرواح هوسرّ هذه الآية ، فأنا هناك ظننته من آيات أخرى مثل قوله تعالى « وكل شيء عنده بمقدار » الخ ولكن هذه الآية صرّحت بمبدأ الفكرة ونهايتها ، فبدؤها الذكور والاناث ونهايتها التعارف العام بعد اختلاف الشعوب والقبائل ، وقد قدّمت لك انى قست جميع العلوم والصنائع على الذكور والاناث ، إذن الآية تفسر بالكتاب جميعه ، وعلى هذا تكون هذه الآية خطابا للأمم كلها بدليل انه قال : « ياأيها الناس » ولم يقل أيها المؤمنون ، وانما قال ياأيها الناس لأن هذا الكلام مرجعه العقل كما بينته لك ، فاني لما ألفت الكتاب لم أؤلفه باعتبار انه دين بل هو مبنى على العقل ، فهذه الآية وان كانت مقدّسة فهي خطاب للعقل الانساني العام ، إذن على المسلمين أن تقوم فيهم طائفة مفكرة تبحث على نحو مابحثت في كتابي ﴿أين الانسان﴾ وذلك بعد أن يساووا الأمم في العلوم العصرية ، وهذه الطائفة يتممون ما ابتدأته في كتاب ﴿أين الانسان﴾ ويخاطبون الأمم بالعقل كما خاطبناهم ، وحينئذ نكون حقيقة : « خير أمة أخرجت للناس » فيكون في العالم الاسلامي جماعتان : جماعة تصلح ذات البين بين المسلمين ، وجماعة حكماء مفكرون للتعارف مع الأمم وتسمى « جماعة التعارف » تيمنا بالقرآن ، ويفهمون الأمم أن التعارف مبني على البحث العقلي الذي ابتدىء بالذكور والاناث ، هذا ماسنح لي في هذه الأيام سطرته ليكون تذكرة لمن بعدنا . وهاك ماوعدتك من ذكرما كتبه الاستاذ (سنتلانه) والبارون (كرّاديفو) وانما أكتب هذا لك هنا :

(١) ليكون أمامك ملخص الكتاب بقلم فيلسوف أوروبي حتى يقدم الشبان بعدنا على الحكمة والعلم والتعارف بالحكماء في أوروبا والصين كما أمر ربنا .

(٢) لتعلم أن أمم الأرض مستعدة للتفاهم والتعقل .

(٣) وأن القرآن حقيقة دين الفطرة .

(٤) واني مع انه ليس بيني و بين أحد من أهل أوروبا معرفة ولامخاطبة ، ولم تكن من المسلمين جماعة يشدّون أزري ، بل كان الفضلاء من أهل بلادي يعرضون عنه اعراضا ، بل أكتب وحيدا فريدا لا ناصر لي إلا الله عزّوجل الذي سبب الأسباب ، فطبعت الكتب وانتشرت بلاقوّة تنشرها إلا قوّة الايمان واليقين بالنصر .

أقول : اني مع هذا أرى حكماء أوروبا وكبراءها يقرّظون كتاب ﴿أين الانسان﴾ ويقرّظون هذا التفسير أيضا ، فمن هذا تعلم أن للامم الاسلامية مستقبلا باهرا ، فسيقرءون هذا التفسير وأمثاله ، ويقوم فيهم حكماء وعلماء ، ويبنون على ما أسسناه ، و يشيدون مابنيناه ، ويجدون الأمر عليهم سهلا لطيفا ، إن الله أيدني ونصرني نصرا مؤزرا ، وهذا النصر هوللأمم الاسلامية الذين سيقرءون هذا التفسير بعدي و يقرءون كتبي الأخرى ، فسيسيرون في طريق الرقيّ وهم مجدّون منصورون ، ولينبغنّ فيهم نابغون ، فلأبتدىء بتقريظ الاستاذ (سنتلانه) الذي ترجمه المرحوم مصطفى أفندي رياض من الطليانية إلى العربية وهاك نصه :

« قال الاستاذ سنتلانه : ليس من يجهل بمصر الشيخ طنطاوي جوهري المدرّس بمدرسة المعلمين الناصرية فهو ذلك الكاتب النحرير ، والمحرّر الشهير ، ذلك الانسان ذو العقل الكبير ، بل هو أحد رؤساء الحركة السياسية الاجتماعية التي انتشرت في كافة طبقات الشعب الاسلامي تحت اسم الجامعة الوطنية ، وتلك الحركة ترمي إلى الاستقلال السياسي والاصلاح الديني طبقا لمنهج مرسوم بعيد المدى مشوب بشيء من الابهام ، وذلك بقصد التوفيق بين العلم و بين ماجاء به القرآن الكريم ، و بقصد الرجوع إلى تلك التقاليد الجليلة التي

ازدانت بهاحضارة الاسلام فى غابر الأيام ، فقد أراد المؤلف أن ينشر هذه الأفكار و يبثها بين قومه تارة بالخطابة وأخرى بالكتابة ، فما دوّن فى هذا المعنى كتابان جديران بالذكر ، وهما ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ و ﴿ نهضة الأمة وحياتها ﴾ وآخر ماصدر من مؤلفات ذلك العلامة الكثير الآثار هو كتاب « أين الانسان » ذلك الكتاب الحديث الذى انتشر منذ عهد قريب ، وهو الذى أردنا التعريف عنه ، كتبه الشيخ أخيرا وقال فيه انه يقدّمه لمؤتمر الأجناس العام الذى عقد بلوندره فى يوليو وأغسطس سنة ١٩١١ م كهدية لحكماء الخافقين ، وعلماء المشرقين ، وفلاسفة المغربين ، وساسة العالم أجمع ، والحق يقال انه لعمل انسانى عظيم فى قالب احتجاج سياسى ، ولم يك كتابه موجها إلى المصريين فقط بل للعالم كله ، لأن للمسألة التى يريد حلها هى مسألة العالم بالاجماع . قال المؤلف : انه بينما كان فى ليلة من شهر مايو سنة ١٩١٠ ينظر الى السماء ليكتشف مذنب هيلى الذى أنذر علماء الفلك الناس بعودته فى هذا الزمن ، سنحت له سوانح للمقارنة بين نظام العالم الجميل ، ونظام الأمم الضئيل ، فرأى بونا شاسعا مؤلما ، فسأل نفسه : أمن المحتمل أن تكون هذه الأجرام السماوية محرومة من سكان مثلنا ؟ واذا كانت معمورة فكيف تكون حياة تلك الجماعات ؟ أهى أقل كالا منا ؟ وكيف تكون حال الانسانية بعد مرور خمسة وسبعين عاما عند مايعود المذنب لزيارتنا ، أهناك أمل أن يجد الناس أقلّ وحشية ، وأقلّ ظلما ، وأقلّ خشونة ، وأقلّ نفاقا ؟

و بينما كان فى ليلة ٢٩ مايو سنة ١٩١٠ م تتجاذبه الأفكار وقع فى نوم عميق إذ رأى نورا مشرقا وشابا جميل الطلعة كأنه روح طاهرة تطوف العالم آتية من مذنب هيلى لرؤية الأرض ، فقال له : أين الانسان ؟ فأجابه المؤلف بتأثر وانفعال : نحن أولاد بنو آدم نوع الانسان (وهنا دار بينه و بين الروح حديث دام عدّة أيام) قالت الروح : أتظنون أنكم تمثلون الانسانية الحقة ؟ و بأىّ طريقة يستحل الانسان هذا الاسم ؟ ألم تقل فى كتبك انه حتى الساعة لم ير إلا تقدم مادّى فى المدنية ولكن المدنية الحقة هى المؤسسة على الوجدان والصداقة والعدل والاحسان ، أفلم تك زهورها نادرة عندكم ؟ فأجاب المؤلف : ان كان للانسانية مساوىء فان لها أيضا فضائل وان كانت أنجبت أشرارا فلها أن تفتخر بمن أخرجتهم من عظماء الرجال كالأنبياء والقديسين والفلاسفة والحكماء الذين يشرفونها ، فأجابت الروح : أتظنّ أن ذلك يكفى ؟ أنت لاتدرى حقيقة الانسان ، إن المادّة قابلة لتطوّرات كثيرة مبتدئة من المعادن للانسان ، هكذا الروح الانسانية لها قدرة غير متناهية من كمالات يظهر أن الانسان يجهلها . لو عرف الانسان شرف طبيعته وتعهدها كما يجب لوصل إلى مستوى ما يأمل ، ولكنه ماذا عمل بفطرته وعقله ؟ فلم ير بين الناس سوى المشاكسة والمحاربة والظلم تحت ستار من النفاق والخيانة والغدر ، وهذه القوّات هى السائدة على جماعة المتمدينين ، ولإثبات ذلك نرجع إلى العلم ونسأل فلسفة (داروين) الذى رأى الأمم القوية تفتك بالضعيفة وتبيدها من الوجود ، فحكم بأن لافلاح إلا بالغلبة وقوّة السلاح ، وكذلك قيل : « إنّ الأمم التى تأكل اللحم تقهر النباتيين » ، فكذبتهم الأفعال وانتصرت اليابان فى حربها مع الروس ، هكذا بينما الحيوانات التى من فصيلة واحدة تعيش براحة بعضها مع بعض فان الشعوب التى هى أكثر حضارة على العكس من ذلك روابطها قائمة بالمظالم والوحشية الدائمة ، فأين الانسان ؟ ثم سألته الروح : لعلكم تفخرون بالسكك الحديدية ، والتلغراف الذى لاسلك له ، واتقان السلاح من كل نوع ، وهذه كلها لفائدة الأمم الغالبة فانها تنزع السلاح من الأمم المقهورة ، وتتخذها خدما وعبيدا ابتغاء مرضاة الشهوات المادية ولزيادة الزهو والمساوىء ، وعليه تكون نتيجة تقدم المدنية هو اعطاء الحق للأقوى فمتى يفهم الناس أنهم لم يعرفوا للآن من كتاب الطبيعة الأكبر إلا بعض حروفه ؟ ومتى يفهمون أن لافرق بين استعداد وكفاءة انسان وانسان وجنس وآخر ؟ واننا كلنا من نوع واحد ومن طبيعة انسانية واحدة ؟ ألم يك أوروبى اليوم المتمدين هو سلالة أولئك البرابرة التتريين الذين حربوا ملك الرومان ؟ من يقدر أن يجزم

بأن زنجي اليوم وهوذلك الفقير المتوحش لا يكون له مستقبل باهر ؟ واعلم أن القضية العتيقة القائلة بأن القوي يغلب الضعيف لاتنطبق على العصر الحاضر الذى يقضى بأن العقل فوق القوة ، هنا ينحصر المستقبل فمن واجب الانسانية المقدس أن تتحد حتى تحكم الطبيعة ، وتستخرج أسرارها ، وتؤهل العقول لعصرجديد فى التاريخ حتى لايصبح فيه أسياد وعبيد ، ولايقال قاهرون ومقهورون ، ولتكون الانسانية واحدة متحدة فى العلم والعمل والمنافع العامة ، فهلا كان من الأمم حولكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض بترك زراعتها ، وعن خراب العقول بتعمد اهمالها ، وفى كليهما ضررعظيم على المجموع الانسانى ؟ ذلك أولى من استعمالهم القوة لمناوأة الضعيف واستعباد من لايقوى على الدفاع . اعقلوا أيها الناس ! فأين الانسان ؟

عادت الروح للسؤال : ماذا تنفعه النباهة التى وهبها الله له فهوأشبه بطفل أعطاه أبوه سلاحا فضرب به نفسه لجهله استعماله ، وهنا عددت الروح كثيرا من أفراط ومساوىء الجمعية الانسانية كالزخرف والزينة والنفاق والكذب فى الحياة الاجتماعية ، وتكلمت على الخداع الذى ساد فى الشعوب السياسية ، أولئك الذين يعلنون بألسنتهم مايخالف ضمائرهم تبعا لمنافعهم الذاتية ، هنا انقطعت المحادثة حيث اختفت الروح ولم يرها المؤلف إلا بعد ثلاثة أشهر ، وتبع ذلك فصل فى الحكم أودع فيه المؤلف الأفكار التى أثرت فيه من منظر الطبيعة وصفاء السماء ، وجمال المنظر ، وتغريد الأطيار ، وهلم جرا ، كل ذلك قاده لفكر واحد ، وهو : أيوجد فى العالم جمال كثير ، ورونق بهى ، ونظام هكذا كامل ولايشعر به الانسان وفى نفسه فضائل طبيعية وبذور بديعة من المحبة ، يظهر أن الانسان لايعرف ذلك لأن شهواته وأمياله أسدلت نقابا على عقله ، فلذلك هو يجهل ذاته والعلم هوالذى ينمى فيه المحبة ويقربه لاخوانه ، فاذا كانت الطبيعة السفلى قادرة على ذلك الرونق وكان الانسان ميالا للخير ، أفلم يأن أن يأتى اليوم الذى يرى فيه نفسه حكيما مستنيرا بالعلم فيعرف ماله وما عليه ؟ فاليوم يستثنى بعض العلماء كالعلامة (كنت) الألمانى و(هربرت سبنسر) الانكليزى وأمثالهم ممن يستخدمون علومهم للتوفيق بين الشعوب ، وازالة البغضاء من بينهم ، وسيأتى يوم تظهر فيه الانسانية بمظهر يختلف عن سابقه ، وبينما كان المؤلف يفكر فى ذلك عادت الروح إليه فى ليلة من يوليوسنة ١٩١٠ وعرضت عليه سياحة سماوية فتقبل بالارتياح هذه السياحة فى العالم السماوى إذ رآها فرصة جديدة لوصف مراتب السموات ، ومن ثم يعرج على الفكرة الأساسية ويقول : كيف يبعد الانسان الذى يقدر أن يفهم هذا الترتيب العجيب عن النظامات الاجتماعية ؟ فأجابه مرشده : ذلك لأن الانسان لم يترك طباعه البهيمية ولا أفكاره الأولى ، ثم أدى بهما المطاف إلى كوكب غير زحل ، كوكب لايعرفه علماء الفلك ، فوجدا فيه أربعة آلاف أمة مختلفة ولكنها مجتمعة فى شكل حكومة واحدة باسم نادى الأمم العام وهوذلك الحكم الذى تصبو إليه نفوس الناس ، ولكن شتان بين اليقظة والمنام ، ذلك النادى هومجلس مؤلف من أعضاء فوضت الأمم المختلفة إليهم القيام بحكم هذه الجمهورية الشاسعة الأرجاء ، فشاهد من مزايا العدل وحسن النظام والصدق فى القول مالايحلم به أهل الأرض ، وقد سأله بعض أعضاء هذه الجمعية المباركة أن يصف لهم أحوال الانسان الاجتماعية ، فكانت إجابته سببا لحيرتهم ودهشتهم ، حتى انهم لم يصدقوا أن الأرض مسكونة بالانسان بل حكموا على أهلها بأنهم وحوش ضارية فى صورة الانسان ، وهنا انقطع الحلم ، وتبع ذلك فصل فى المذكرات لاحظ فيه المؤلف الشريعة السائدة فى العالم الطبيعى والكيماوى ، ونسبة المواد الثابتة التى تتكون منها الأجسام المختلفة ، والنسبة المعتدلة فى تعداد الاناث والذكور فى عالم النباتات والحيوان ، ثم فكرقائلا : أمن الجائز أن الخالق سبحانه وتعالى أعطى المادة شرائع محكمة ، وأن العالم المعنوى الذى هوأرقى منها يتركه لحكم المصادفة ، وكيف انفصمت عرى الانسانية ، وقطعت تلك الرابطة التى نشاهدها فى العوالم السفلى ، اذا كان عضو واحد من الأسرة الانسانية ضعيفا جاهلا وحشيا فالأعضاء الأخر تتأثر به ، لأن الانسانية متضامنة

متحدة ، فالشعوب القوية التى تذل الضعيف تربى فى نفوس أبنائها عادات البطش والظلم التى يكتسبها الغالبون فيتولد عنها نتائج سيئة لمستقبلهم الاجتماعى والسياسى ، وسيعاقب كل قريبا أو بعيدا على انتهاكه لحرمة القوانين الطبيعية ، كيف يسوغ لأمة أن تقول لأخرى لاتتعلمى ولاتفكرى ولا يكن منك جيوش ولاقواد ، نحن أعلم منك بما يلزم لحمايتك ومصالحك وانا عليك لساهرون .

مافائدة الكليات والمدارس مادام السوّاس يقولون مالايفعلون ، ويعلمون ذلك لشبانهم ، ويفتخرون بأن هذه سياسة ، فعلامَ الكليات اذا كان السوّاس يهدمون البناء ، أليس من العار أن العالم الذى حولنا من الأرض والسموات معظمه عالم صادق ونحن ظالمون جاهلون كاذبون ، فالجهل يفرّق الناس والعلم يزيدهم محبة ، وكلما قلّ العلم قلّ الحب ، ولذلك ترى الحكماء أشدّ حبا للناس ، والجهال والكذابون والسوّاس أقل حبا وأكثر طمعا وجمعا للمال ، فعلمنا ليس بالعلم الصحيح بل هو أبتر كما قال الغزالى : « البلاهة خير من الفطانة البتراء ، نتبجح بدعوى المعرفة مع اننا لم نردّد إلا ماقرأناه فى كرّاسة المعلم وقبلناه بغير تحقيق ، ثم ندّعى خدمة الانسانية والمدنية وفى الحقيقة نخدم أنفسنا ، ليس هناك أمم حكم عليها أن تعيش للأبد فى الانحطاط ، وكما أن فى عالم المعادن والنباتات تقلّ الأشياء الثمينة وتكثر التافهة هكذا تكون العقول البشرية فترى الأذكياء فى سائر الأمم يقلون ، وأما الذين يمكن استخدامهم فى الامور والأعمال العادية فهم دائما كثيرون » .

وعليه فلايمكن أن يقال لأى جنس أنت محكوم عليك أن تبقى فى مكانك بغير عروج ، فالحكم على أمة بالانحطاط جناية عليها وعلى المجموع الانسانى الذى يخسر بذلك عضوا عاملا فربمانشأ فيها من العقول والآراء مايتم بركاته الكون أجمع : فمثلها والحالة هذه كمثل من يستعمل الذهب والفضة لعمل عجلات السكك الحديدية وفى ليلة من شهر يوليو سنة ١٩١٠ أخذت المؤلف سنة الكرى فعاودته الروح واستصحبته معها للكوكب الجديد فرأى الناس يرغبون ولايرهبون ، وبالشوق والحب يعملون ، وسمع الموسيقى ونغمات الآلات تشنف الآذان مرحبة بأعمال الحياة ، اذا شيخ جليل القدر ، وهو العالم الاحصائى فى علم الأرض والمريخ قد بدأه بسؤال فقال : خبرنى ماذا فعلتم بالانسانية ؟ وبماذا ارتقيتم عن الحيوان ؟ فأجابه بالصناعات والعلوم ومعرفة استعمالها ، فقال الشيخ : أنت تشرح الحيوان ومايحتاجه الجسد ، ولكنى سألتك عن الانسانية : فأى حكومة أسستم ولأى نقطة وصلت الصداقة والطهارة والحياة الداخلية والمحبة الانسانية ؟ فطفق المؤلف يدافع عن الانسان بتلك الأساليب الخطابية المعروفة من حيث التضامن ، فذكره ذلك الشيخ بوحدة الطبيعة الانسانية (بصرف النظر عن الفارق السطحى فى اللون والعقيدة) وتكوين الحكومات وما أشبه ذلك . وقال : إنما تعاليمكم الناقصة المبتورة هى التى بتغاليها فى الفوارق أوجدت بين الأمم المظالم والبربرية التى لم تقررها الطبيعة ، وقد استنتج الفيلسوف اليونانى (أبيقور) والعالم الطبيعى الانجليزى (دروين) بأن الأضعف لابد أن يكون طعمة للأقوى وقاسا نظام الانسان على هذا الحيوان فرجعا بالانسان الى مرتبة دنيئة تأباها الفطرة ويدحضها العقل ، إلا أنكم يابنى آدم نوع واحد لا أنواع ، ولكم ناموس وقانون خاص لاتتعقلونه ، فأنتم كجسم واحد ونفس واحدة ، فلايصح أن يعتدى بعضكم على بعض لأن ذلك مضرّ بمصالح الانسانية العام ، ألاتعلمون أن الانسان كلما كثرت أفراده زادت ثمراته على نسبة الأعداد المضاعفة ، فكلما زاد العدد كثر المدد ، وبتكاثر الأمم تتكاثر الخيرات ، وعلى هذا القياس لايصح أن يقال ان الأمم القوية تكون أفيد للانسانية ، ولكن الأفيد لها ان كل أمة وكل قبيلة وكل فرد يعيش لما يصلح له ، ويتبع الطريق المرسوم له من الطبيعة تبعا للعدل والعلم والفضيلة ، أفما كان الأجار بدل الانقسام أن تجتمع الأمم فتشكل منها ناديا عاما يتعهد بتحسين الجنس البشرى ، انه ينقصنا كثير من العمل للحصول على ذلك ، فأىّ علاج يفيد

لاصلاح سوء النظام السائد ؟

سأل المؤلف ذلك الشيخ الجليل الاحصائى فى علم الأرض ، فأجابه معيدا إليه كلمات الاستاذ (كنت) فى علم تربية النفس : «العلاج اثنان علم وعدل ، فبهما يساس الملك ، وهما صنوان لايفترقان ، فنظام العالم يجب أن يؤسس على ماأوجدته الطبيعة والانسانية ، انظروا إلى نظام الكواكب الكبيرة والصغيرة ، فكل منها يدور فى فلك لايتعدّاه ، ولايطغى كبيرها على صغيرها ، وهى نظرية محسوسة دلت عليها العناية العالية والجاذبية التى هى أساس الطبيعة البشرية ، ولتكن كل أمة منكم كوكبا يجب الأعلى الأدنى ، فلايطغى بعضها على بعض ، ولتكن الأمة الكبرى لأخواتها الصغيرة كالشمس للسيارات حولها تلق عليها أشعة علمها ، لاتبغى منها جزاء ولاشكورا ، وليس هناك إلاطريق واحد للوصول إلى هذا الحل الانسانى الأخوى المحبوب ، ألا وهو العلم ، ولتكن فى جميع الممالك طرق متشابهة للتدريس لتعليم الأطفال منذ نعومة أظفارهم فضائل الحب العام ورزايا الحروب ، وبذلك تصل الى الحلّ المرغوب ، ثم بين المؤلف طريقة التعليم التى يلقنونها فى الكوكب القريب من نبتون بالفصل الثامن عشر وهى مبنية على مثال الحب فى نوعنا العالى الشريف الذى هو بمثابة الكهرباء لاتثور إلا بالفرك ، فالغناء والموسيقى والتأمّل فى جمال الطبيعة يبثّ فى الأطفال عادة اعتبار الانسانية كعائلة كبيرة وأن سائر الأصناف أعضاء لها متضامنون نافعون ، فيرى الانسان انه كائن مقدّس ينفع أخاه ويعتبر حياته لاتنتهى عند ذاتها ، بل كمدرسة تريه الأفراح والأتراح ، والمحرّمات والمشتهيات ، والانسان فيها يستعدّ لمستقبل زاهر . وبالفصل التاسع عشر فصل مجلس الحكماء وضرب كثيرا من الأمثال الحسية للامور العقلية ، وكلها ترمى إلى مبدأ الكتاب الأصلى ، وهو مشروح فى صفحة ١٩١ و١٩٨ و١٩٩ و٢٠٠ ، ولولا ضيق المجلة وعدم امكان التلخيص لكنا أتينا على ترجمته إلى اللغة الطليانية بالحرف الواحد وبالصفحة ٢٠٥ ترى مظاهرات روحانية للنفس ثم لوحة الحياة الانسانية بصفحة (٢٠٠-٢٠٤) مأخوذة من لوحة المريخ وهو المسمى (لغزقابس) وهو فى ذلك يرمى الى مذهبه السياسى فى النظام الذى أشار اليه ، ويصب جام غضبه على هام النفاق والوحشية والجماعات الجنسية المقول عنها متمدينة ، ويقول : ان الذهب والفضة لايجديان نفعا ، ولايغنيان شيئا ، بل هما للمبادلة فى المنافع وانهما لاقيمة لهما اذا لم يضف اليهما تمية النفس والفضيلة ، ومن ثم يذهب المؤلف إلى أن العوامل الخارجية بحسب الفلسفة العامّة تختلف ، فتارة تكون للخير ، وتارة للشر تبعا للظروف ، فالتى للخير لاتكذب ولاتعتدى ومركزها الحق ونفس الانسان ، وفيها تكون سعادة الأمم جميعا فتتعاون الأجناس بعضها مع بعض لفائدة المدنية العامّة ، وسيصلها نوع الانسان فى مستقبل الأزمان ، وبالفصل المتمم عشرين خلاصة الكتاب بالصفحة ٢٢٥ فى بيان استخراج السلام العام فى الأمم من النواميس الطبيعية ، والنظامات الفلكية ، والفطر الانسانية ، وقد سبقت الاشارة إليه ، ثم يلى ذلك فهرست ، وبالصفحة ٢٤٧ تحت عنوان «نغمة من موسيقى الكتاب» ضمنها الأسباب التى دعته لتحريره ثم أوضح ماكان يخالج نفسه من آيات كتاب الله العزيز ، وهى هذه : «وان من شىء إلاعندنا خزائنه وما ننزله إلابقدر معلوم» (جزء ٢٥ — ٢١) . «وكل شىء عنده بمقدار» (جزء ١٣ — ٩) . «لايكلف الله نفسا إلا وسعها» (جزء ٢ — ٢٣٣) . «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» (جزء ٢ — ٤٩) . وعليه فان هذه النسبة ، وهذه الشرائع ، وهذه العدالة كلها هى التى تحكم العالم الطبيعى بأجمعه كذرّات الاكسوجين والايدروجين الثابتة التى تكوّن الماء وتدخل فى تركيب سائر الموادّ فى العالم الطبيعى والكيماوى ، وبمقابلة العالم النباتى بالعالم الحيوانى معا ، وكذا بمقابلة العالم الحيوانى بالعالم الانسانى ترى الانسان يشاركهما فى الغذاء والتناسل ، ويشارك الحيوان فى الحركات الاختيارية والحواس والادراك والغرائز ولكن النبات والحيوان يولدان كاملين ، وكل منهما عنده من المبدأ جميع مايلزم لأداء وظيفته الخاصة ،

فالعنكبوت

فالعنكبوت تغزل الخيوط ، والنحلة تبنى خليتها بلاحاجة إلى مرشد ، أما الانسان فعلى العكس محتاج للعلم فيقول انه وان كانت العقول واحدة ، فالاستعداد الشخصى مختلف ، فوظيفة العلم يجب توجيهها لتنمية الأفعال الانسانية المختلفة ، ولكن التربية الحالية حائدة عن الصراط السوى ، وهؤلاء المتوحشون القاطنون حول بحيرة بناسا بالسودان تجدهم أقوى أجساما ، وأصح أبدانا ، من المتمدينين كما قال عنهم المستر (كارينتر) وترى قوة الأهالى بالسودان عظيمة جدا كما ان بعض عوائدهم طاهرة لاتشوبها شائبة .

واذا قرأنا تاريخ الرومان مثلا نجد مايدهش العقول ، فتراهم يفتخرون بغزو الأمم وتدويخ الممالك ، فالرذيلة فى التربية العلمية التى بثمرتها تغذى الأجسام تعطى العقول نماذج مشابهة لتلك التى عند الحيوانات المفترسة وهى التى تطفئ فى الانسان قابلية التقدم التى هى هبة الطبيعة ، و بينما ترى الناس يعطفون على بعضهم بالقول تراهم يجهرون بامتداح القواد القاتلين كنابليون ، و يشرفون الكذوب من رجال السياسة ، فتى ترى كل طائفة فرحة بما لديها ، قانعة بما وصلت إليه ، وأن الشعور بالمحبة شامل الجميع ، ولكن رغما من سائر الموانع ترى حركة فى عالمنا الحاضر تدفع الانسانية للأمام ، فالحق كامن فى النفوس يجب البحث عنه فى الآفاق لاظهاره للناس على سطح الكرة ، ومتى تجلت الانسانية بهذا المنظر الذى ينشده المؤلف ، فهنالك الوفاق والوئام ، الانسان آخر درجات ذلك السلم المتصل أولها بآخرها ، فمن معدن لاينمو إلى نبات ينمو ويتوالد ويتدرج بالترتيب إلى حيوان يترقى فيصل إلى أعلى درجاته من قرد وفيل وأمثالها فيصل الانسان إلى أعلاه وهو الذى يكتسب بالتدرج خصال الكائنات التى تماثله مضافا إليها خصاله وفيه بذور المحبة والرحمة كما قيل فى « اخوان الصفاء » : —

« منذ ستة أجيال قبل الميلاد ظهر (بوذا أوجوطامى) فأوصى بالشفقة والمحبة والرحمة والعطف على كافة الكائنات الحية ، ولما ظهر دين المسيح عليه السلام أوصى بالرحمة والشفقة وحب النوع الانسانى ، وكذلك الاسلام منع القتال فى الأشهر الحرم وحرم الصيد فى الحرم وقتل المحتمى به ، وأجمعوا أن يقولوا للناس : ارحموا ترحموا ، واعلموا أن للحيوان ادرا كا وشعورا ، وانه يتألم كما تتألمون ، و يشعر كما تشعرون ، فاياكم أن تؤذوه ، وهناك أنباء كثيرة مأثورة عن علماء الانسانية كالحكيم سولون وسقراط وأبيقور والبارون هولباخ دلامترى وهلفيتيوس ولكنهم لم يقووا على كبح جماح جهل واستبداد الانسان . وهاهى طريقة (داروين) خطت خطوة للوراء وهكسلى أوضح أن لافارق بين أدنى الانسان وأعلى الحيوان إلا كما بين الحيوانات العليا والدنيا ، بل المسافة فى آخرهما أوسع مما فى أولهما ، فظنوا أنهم وجدوا كنزا وأن الانسان الجاهل فى مستوى الحيوان ، وانه يجوز للأمم القوية اهتضام حقوق الأمم الضعيفة باعتبار انهم أدنى منهم مقاما وانهم ماخلقوا إلا ليكونوا لهم خادمين وعبيدا مسخرين ، وختم الكتاب بخطاب حماسى للعالم حتى يتخلص الناس من قيود الاستبداد والاستعباد ، و يتنسموا رائحة الحرية التى سنتها لهم الطبيعة البشرية .

هذا كتاب الشيخ طنطاوى الذى أردنا أن نوسع له فى مجلتنا ، وماهى بالعادة المتبعة لديها ، لأن ذلك الكتاب من الصحف العظيمة الدالة فى الوقت الحاضر على مبلغ أفكار وشعور الطبقة الراقية الاسلامية ، وليس لنا عليه ملاحظة إلا تجاهله بالذوق التاريخى وما يحدث عن العمل برأيه من اضطراب الأمم وارتباك الشعوب ، وما يصادفه القراء من صعوبة حل نظرياته ، ومن البديهى كما قال المؤلف انه لايمكن فى أقل من عشر سنوات (ان أمكن) وضع أساس اصلاح اجتماعى عظيم مثل هذا ، وذلك بواسطة جمع أعقل رجال العالم فيعملون بالكتب والرسائل لتعليم الأمم ماهو الحب العام ، و ينشرون تلك المبادئ السامية بالمدارس و يلاحظون تطبيقها ، ولكن مع ذلك ومع اعترافنا باخلاص المؤلف وعلو مقاصده فى هذا الكتاب مع فصاحته و بلاغته وتفوق معلوماته التى يندر وجودها فى الكتاب واتساع دائرة فكره لايسعنا إلا الدهش من عدم مراعاته ذوق

الأمم التي حوله ، وتسلسل تاريخها وهو ما طالما أشارت اليه جرائدنا في العصر الحاضر » انتهى ما قاله الاستاذ سانتلانه الطلياني عن كتابي « أين الانسان » والحمد لله رب العالمين .

***

وهذا ما قاله الاستاذ البارون « كرّاديفو » وكلامه في « أين الانسان » وفي التفسير ، وهذا كانت نشرته جريدة الاهرام في أواخر سنة ١٩٢٦ وقد ابتدأ بالتفسير وختم بكتاب أين الانسان ، فذكرناهما معا لتنشرح صدور أهل العلم في الاسلام ، وليعلموا أن ديننا روح العالم الانساني ، وليشجعهم على العلم والنشر ، وهاك ما قال : —

(١) « مصر الحديثة ، روح الديانة المصرى ، جامعة الأزهر ، الشيخ محمد عبده » .

(٢) « النهضة الاسلامية للشيخ طنطاوى جوهرى » .

(٣) « نشأة مصر الحديثة في عهد محمد على باشا » .

وانا سنبين الثلاث مظاهر الرئيسية لتطوّر مصر الحديث وهى : —

(١) الميل الشديد الذى أظهره محمد على باشا ورفاعة بك إلى التقدم والالتفات إلى معارف ومواهب أهل أوروبا .

(٢) العناية التى أظهرها رجلان من رجال الدين ، وهما الشيخ محمد عبده ، والشيخ طنطاوى جوهرى في تمثيل الدين الاسلامى وتأثيره في النفوس للنهوض بها إلى التطوّر الحديث .

(٣) الوطنية الحديثة الوهاجة التى مثلها خير تمثيل كل من مصطفى كامل وسعد زغلول .

وهذا ما كتبه المؤلف فيما بين صفحة ٢٧٥ وصفحة ٢٨٤ فى الجزء الخامس من كتاب أين الانسان بعد أن قرّظ الاستاذ تفسيره للقرآن الشريف أحسن تقريظ : وقد تقدّم ذلك التقريظ في أوّل المجلد السابع عشر من هذا التفسير فلا نعيده هنا ، وقال بعد ذلك مانصه : —

« وقد نشر الشيخ طنطاوى كتاب « أين الانسان » المطبوع سنة ١٩١١ الذى قرّظه الاستاذ سانتلانه الطليانى الكبير في المجلة الشرقية بروما لسنتها الرابعة ، وللاستاذ كتب أخرى مثل : « نظام العالم والأمم » و « نهضة الأمة وحياتها » ، وكتاب « أين الانسان » هذا وضعه المؤلف بهيئة رواية فلسفية سياسية ، فهو في هذا يشبه الفارابى من حيث أصل الفكرة ، وابن طفيل من حيث الاسلوب والمنهج ، جمع بين دقة الفكر وجمال الاسلوب وغيرهما .

« الاستاذ في هذا الاسلوب يذكّرنا بأساليب علمائنا وأدبائنا في أوروبا مثل توماس مورس وكامبانيلا ومعاصرنا هانو بنر .

« وصف الاستاذ الجمعية الانسانية وصفا لا يشرفها بالكمال ، بل أظهر نقائصها ، وأبان سوء أفعالها ، وأخذ يبدى نصائح ، و يبدى حججا ، لالتئام الأمم ، واتحاد الدول ، بل يطلب مافوق ذلك ، وهو الحب والاخلاص العام والمثل الأعلى في ذلك : ويتمنى (كما تمنى الفارابى) أن تكون الدول جميعها مؤسسة نظامها على الحب العام وتبادل المنافع : ولكن دولنا الآن في الأمم الأرضية وان كانت ارتقت ارتقاء ماديّا لم يؤسس بنيانها الاعلى تبادل الحرب ، وتخريب المدن ، وقعقعة السلاح ، فأما تلك الأفكار اللذيذة والمحبة العامة فهى مغلوب عليها ، إن الأساس الذى بنت عليه الدول الآن هو ماسطره (داروين) الانجليزى ، وقفى على آثاره (نيتشيه) الألمانى من إبادة الضعفاء وغلبة الأقوياء . إن للمؤلف خيالا ساميا غزير المعنى واسعا ، فانه بينما كان ينظر إلى السماء في ليلة من ليالى ربيع سنة ١٩١٠ م وهو يبحث في مذنب هالى الذى يرجع مرة بعد أخرى ، أخذ يقول : ياليت شعرى : اذا كانت هذه السماء الصافية بهجة النجوم منظمة فهل فيها سكان ؟ وهل

سكانها

سكانها مثلا فى الظلم والقتال ؟ أم هم فى هناء وعدل كما نرى فى نظم السموات ، وبينما هو مستغرق فى تأملاته إذ وافته روح مشرقة النور ، بهية الطلعة ، فى هيئة شاب جميل حسن الشكل ، فأخذت هذه الروح تناقشه ثم اقترحت عليه أن يجول معها جولة فى السموات العلا ، فلبى طلبها بشوق عظيم ، وهذه الفكرة الخيالية تذكرنا بأحلام : باستر سيدول سويدنبرج

إلى أن قال : « ومن عجب أن المؤلف طبع هذا الكتاب سنة ١٩١٠ وتنبأ فيه بطريق حكمى شعرى بما جرى بعد ذلك بأربع سنين وهو الحرب الكبرى . إن مقصود هذا الكتاب كله ومافيه من المحاورات التصويرية هو نشر التعليم العام ، والحب بين الشعوب والأمم بحيث يمتزج بغانيهم وأشعارهم وموسيقاهم حتى يكون ذلك إلهاما للأطفال فى أوّل حياتهم ، وأن يكونوا محبين لجميع الأمم ، كارهين للحرب ، ناظرين لجمال الطبيعة ، محترمين الجمعية الانسانية أىّ احترام .

هذا الكتاب بما فيه من جمال العلم والحكمة يبعث فى الشيوخ نشوة الشبان ، ويبعث فى النفوس الانسانية غراما وولوعا ، ويقلب الطبائع الانسانية بما فيه من السحر الحلال ، وهو يدعو الأمم كلها أن تكون أسرة واحدة ، تامّة النظام ، ويهيئ الأطفال فى الأمم كلها أن يكونوا على نسق الأمم التى زارها والنصيحة التى سمعها من أولئك العلماء .

فمثل هذا الكتاب المملوء حكمة وعلما ، الغزير المادّة ، السامى الفكرة ، الناتج من تفكير عميق ، وبحث يقلّ نظيره يدعو دعوة حارّة إلى سعادة الأمم أجمعين ، ويدعو أيضا بالحماسة الشديدة إلى التجديد العام ، وهو مفخرة لمصر والاسلام . وقد قدم هذا السفر الجليل إلى مؤتمر الأجناس المنعقد فى لندن فى شهرى يوليو وأغسطس سنة ١٩١١ م » انتهى كلامه .

بهجة المناظر الخيالية ، وآثارها العلمية

فى سرّ قوله تعالى : « إنّ الله عليم خبير »

فى ليلة الثلاثاء ٢٥ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية الموافق أوّل فبراير سنة ١٩٣٢ م بينما أنا بين اليقظة والنوم إذ خيل لى كأن فى الجوّ رجالا ولكنى لا أرى أشخاصهم ، وهم يتسامرون ، وهذا ماوعيت من حديثهم . قال أحدهم : حدّثنى رعاك الله ، لمَ يقول الله تعالى فى آية : « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عندالله أتقاكم إنّ الله عليم خبير » . عليم خبير ! مع أن العلم والخبر مترادفان ، فقال الآخر : إن كمال العلم الاحاطة بكل شىء ، ظاهره وباطنه ، دقيقه وجليله ، وأوّله وآخره ، وهذا على أتمّ الوضوح والكشف على أتم ما يمكن فيه . بحيث لا يتصوّر مشاهدة كشف أظهر منه ثم لا يكون مستفادا من المعلومات بل تكون المعلومات مستفادة منه ، فأما الخبير فهو الذى لاتعزب عنه الأخبار الباطنة ، ولايجرى فى الملك والملكوت شىء ، ولاتتحرّك ذرّة ، ولا تسكن ، ولاتضطرب نفس ، ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبر .

فلما سمعت ذلك ، قلت فى نفسى : هذا هو الترادف بعينه ، فأين الجواب ؟ وهنالك جاشت نفسى وهى لاتزال فى حال تشبه حال النوم ، وأخذت تسأل نفس السؤال وهو أنهما مترادفان ، فما كاد الخاطر يخطر لى بذلك حتى سمعته يقول له : إن معنى العليم هو معنى الخبير ، ولكن هناك فرق ، لأن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمى خبرة وسمى صاحبها خبيرا فهو أشبه بذكر الخاص بعد العام ، فهنالك زاد اضطراب نفسى وقلت فى نفسى : ياسبحان الله ، ولم ذكر هذا الخاص ؟ ألنكتة العلم لاالمنفعة للمسلمين ذكر هذا الاسم هنا ،

فياليت شعرى هذه الآية مذكورة فى أمر نظام الدولة الاسلامية ، ونظامها يقضى أن الناس جميعا متساوون فيبقى تعارفهم ، وأرقاهم هم الذين اتقوا ، وهم الذين يذكرون ربهم فلاينسونه ، ويطيعونه فلايعصونه ، وما كاد الخاطر يتم حتى سمعته يقول له : إنّ هذا سرّ قول علماء مصطلح الحديث ، انّ الجرح مقدّم على التعديل ، وهنالك استيقظت وأنا فى دهش من هذا المثال ! أوّلا هو يوافق ما أنا بصدده ، ولكن الفائدة لم تتم ، فرجعت إلى معنى «عليم خبير» فى كتاب شرح أسماء الله الحسنى للغزالى رحمه الله ، فوجدت هذه المعانى بنصها وفصها ، فلم يبق علىّ إلا أن أفهم ما المقصود من الجرح والتعديل ؟ وماتناجهما هنا فى نظام الدول والممالك ؟ وهنا توجهت لمبدع الكائنات ، وهو الذى علم تلك الأرواح العالية ، فأنا منه أقتبس المعرفة وهو معلم الأوّلين والآخرين ، ففتح علىّ وتذكرت ماذكره ابن خلدون فى المهدى المنتظر ، وتقدّم ذلك فى أوّل ﴿سورة الحج﴾ فقد ذكرت هناك أن ابن خلدون رحمه الله نقل جميع أحاديث المهدى ، وأن فى بعض رواتها طعنا ، وإذا كان فى الراوى تعديل وجرح فالجرح مقدّم ، وعلى ذلك تكون أحاديث المهدى فيها مافيها ، وبهذه الأحاديث قامت شيع فى الاسلام ودول ، ولكنها عفت آثارها ، ومن آثارهذه الأمم حسن بن الصباح الذى تقدم ذكره فى ﴿سورة الكهف﴾ عند آية : «وما كنت متخذ المضلين عضدا» وكيف أمر أتباعه بشرب الحشيش حتى سماهم المؤرّخون حشاشين ، وكيف ظهر لهم بهيئة مقدّس معصوم ؟ وكيف انقادوا له ، وكيف يكون الدرس الذى ألقاه على أتباعه فى القرن الخامس الهجرى هو نفسه الذى تلقفه محمد بن تومرت وهومعاصر للغزالى (الذى يقال انه لاقاه) بعده حذوالقذة بالقذة ، فالأوّل كان فى قلعة الموت بناحية أصبهان ، والثانى بالمغرب الأقصى ببلاد السوس ، وكل منهما ترفع وتعالى على أتباعه ، واعتقدوا فيه العصمة ، وكلاهما أمر فأطيع ، ومنعا الناس العلم ، واستند كل منهما إلى أحاديث المهدى .

محادثات في أمر المهدى ومامناسبته لاسم الخبير المذكور فى الآية ؟

وبيان أن سرّ القرآن بذكر هذه الأسماء قد ظهر الآن ، وأنّ المسلمين فى مستقبل الزمان سينتفعون بهذه المعانى الجميلة البديعة

حضر صديقى العالم الذى اعتاد مناقشتى فى هذا التفسير . فقال : هذا مقام غريب ، الآية جاءت لعدم التفاضل بين الناس إلا بالتقوى ، ولكن الحيرة إلى الآن لم يظهر المقصود منها ؟ ذكرت المهدى ابن تومرت وذكرت حسن بن الصباح ، ولكن لم تظهر المناسبة التامّة بين هذا التاريخ وبين الآية ؟ فقلت ياصاح : أذكرك بأن الأحاديث الكثيرة التى وردت فى المهدى جعلت أمره موكولا إلى السب ، وهؤلاء بتلك الأحاديث مع ماضموه إليها من الاغراء والتحذير قد رفعوا أنفسهم فوق الأمم ، فاستكان المسلمون أىّ استكانة ، وخضعوا ، وتركوا العلوم بأمرهم ، وحقروها ، ولاتزال آثار تلك الظلمات إلى الآن .

اللهم أنقذ المسلمين من ذلهم وإسارهم ، اللهم أنجز وعدك الذى وعدت أن نكون خيرأمة أخرجت للناس اللهمّ انك أنت الملهم المعلم ، فانقذ أمتنا من الجهالة العمياء . فقال : أىّ جهالة تريد ؟ فقلت : ألم تعلم مامرّ سابقا فى هذه السورة وماقبلها من أخبار العباسيين والأمويين ، وأن العباسيين قاموا باسم المهديين ، وأن الأرض تملأ عدلا ونورا بعد ماملئت ظلما وجورا ، هل برّوا بوعدهم الأمة ؟ ألم يقتل السفاح رجالات من الأمويين كانوا فى ضيافته ؟ ألم ينبشوا القبور ؟ وإذا كان العباسيون هم الذين جاء الحديث بأنهم يملئون الأرض عدلا ونورا ، مخلصين المسلمين من ظلم الأمويين الذين أهانوا آل البيت ، وظلموهم ، وظلموا المسلمين ، فكيف يقلدون الأمويين فى العسف والجور ويزيدون عليهم حتى ان محمد بن عبد الله الحسنى الذى كانت له البيعة الصحيحة كما تقدم تقريبا بكى على أيامهم . فأين العدل ، وأين النور ؟ وأين المهدوية التى جيء بها

للمسلمين ؟ أليس ذلك لاستكانة النفوس ، وتقـديم التعديل على الجرح . وجعـل النسب فى الذروة العليا ، وعدم الاكتراث بالتقوى ، ولا الفضائل الانسانية التى جاء بها نص الآية هنا ، وهى التى بفهمها تقام الدول وبجهلها تذل ، جهلت الأمم الاسلاميـة آيات القرآن الصريحة ، هاهوذا القرآن يقول على رءوس الأشهاد ، ان الفضل بالتقوى ، وهاهىذه قصة طالوت ﴿ فى البقرة ﴾ ضربت الذكر صفحا عن النسب ، وجعلت الملك تابعا للعلم والقوة ، إذن جعل المهدى تبعا للنسب من أكبر مصائب الاسلام ، لأن هذه العقيدة أخذت تتعالى بين الناس ، وأخذ الدجل والبهتان والكذب الصراح ينتشر بين المسلمين ، وأخذ أولئك الرؤساء يبثون الجهالة بين أمم الاسلام ، ويرجعون المرءوسين إليهم اتكالا عليهم واستعاذة بهم غالبا ، وقد تقدّم هذا واضحا فى آخر ﴿ سورة ابراهيم ﴾ عند ذكر أغا ممنون بالهنـد ، وفى ﴿ سورة الكهف ﴾ كما تقدم ، وفى ﴿ سورة الشعراء ﴾ عند آية السحر ، وفى ﴿ سورة سبأ ﴾ عند آية الرؤساء والمرءوسين ، وفى مواضع أخرى فلانعيده هنا ، وهذا كله إنما جاء من عدم البحث فى تاريخ المسلمين وأحوالهم حتى يستبينوا آثارالتقليد الذى هدّ مجد أمتنا الشامخ ، أما لست أنكر فضائل بعض المهـديين فى الاسلام ، ولست أنكر اننى تعلمت فى الأزهر الشريف الذى هو ثمرة من ثمرات المعزّ لدين الله الفاطمى ، ولست أنكر أن هؤلاء أفادوا المسلمين ، ولكن المنفعة إنما جاءت بسبب العقول الكبيرة المودعة فى هؤلاء كالملك الذى أقامه محمد بن تومرت وأحاطه بالأحوال المستعبدة للشعب ، فبقى الملك أمدا ثم ذهب وهكذا الفاطميون ، ولقد عاش المسلمون زمنا ليس بالقصـير قرونا وقرونا وهم يتفيئون ظلال الألفاظ ، فناموا عليها ، وعكفوا عكوفا أدّى للنوم العميق ، إنّ تعليم المسلمين ومنهم أهل الأزهر الذين أنا منهم قد بقيت خاضعة لظواهر الألفاظ ، وتركت جمال الطبيعة ، وجمال النجوم ، وجمال العقول ، وبهاء الحكمة ، فطمست النفوس ، وخسفت العقول ، وانكمشت الأمة فى تلك القرون حتى وقتنا هذا .

فلما سمع صاحبى ذلك . قال : لقد طال الكلام فليكن الهجوم على الموضوع ، لأنى أريد العلاقة بين ذكر العليم الخبير ، وبين ذكر تاريخ المهديين الذى ذكرته هنا ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ أريد ماهوالسرّ فى ذلك ، وماعلاقة هذه الأسماء الحسنى بهذا التاريخ ؟ وبنظام أمم الاسلام ، فأرجو أوّلا ذكر حديث واحد من الاحاديث وان كان قد تقدّم فى ﴿ سورة الحج ﴾ لندرس الجرح والتعديل فيه . ثانيا : اذكر نتيجة ذلك لبيان المقصود. فقلت : جاء فى الجامع الصـغير مانصه : « قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : اذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فاتبعوهم فانّ فيهم ولىّ الله المهدى » (حم ك عن ثوبان) . وقال الشارح : اسمه محمد بن عبدالله يأتى قبيل عيسى أومعه ، وقد ملئت الأرض ظلما وجورا فيملؤها قسطا وعدلا . وقال بعد ذلك : قال الشيخ حديث صحيح .

فقال : فاذكر لى أوّلا ماهـذه الرموز ؟ وماتلك الرموز التى تقدمت فى تخريج أحاديث الاحياء المتقدّمة فى هذه السورة فانى لا أعرفها ، وثانيا : اذا كان الحديث صحيحا فكيف تتجاوزه وتقول إن أحاديث المهدى ضعيفة ؟ فقلت : الجواب عن الأوّل ان الرموز تبلغ ٣٠ قال فأرجو بيانها . فقلت هاهىذه :

(خ) البخارى .
(م) مسلم .
(ق) لهما .
(د) لأبى داود .
(ت) الترمذى .
(ن) النسائى .
(ه) لابن ماجه .
(٤) لهؤلاء الأربعة .
(٣) لهم إلا ابن ماجه .
(حم) لأحمد فى مسنده .

(عم) لابنه عبدالله فى زوائده أى زوائد مسند أبيه	(عب) لعبد الرازق فى الجامع .
(ك) للحاكم .	(ع) لأبى يعلى فى مسنده .
(خد) للبخارى فى الأدب .	(قط) للدارقطنى .
(تخ) له فى التاريخ .	(فر) للديلمى فى مسند الفردوس .
(حب) لابن حبان فى صحيحه .	(حل) لأبى نعيم فى الحلية .
(طب) للطبرانى سليمان اللخمى فى الكبير .	(هب) للبيهقى فى شعب الايمان .
(طس) له فى الأوسط .	(هق) له فى السنن .
(طص) له فى الصغير .	(عد) لابن عدى فى الكامل .
(ص) لسعيد بن منصور .	(عق) للعقيلى فى الضعفاء .
(ش) لابن أبى شيبة .	(خط) للخطيب أحمد بن على .

الجواب عن الثانى : وهو قول شارح الجامع الصغير ان الحديث صحيح فأنا أذكرك بما تقدم ، وهو أن الجرح مقدم على التعديل ، أنسيتها ؟ قال نعم هو صحيح قلت ولكن غيره يقول ههنا جرح لبعض الرواة . قال : فأرجو ذكر نتيجة الموضوع بتمامه مختصرا . فقلت : بسم الله الرحمن الرحيم « وقل جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا » . إنّ الله علم قبل أن يخلق السموات والأرض أنّ المسلمين ستشتدّ غفلتهم وينامون نوما عميقا ، ويقلد الأبناء الآباء والتلاميذ الشيوخ ، بلا علم ولا هدى ، ولا كتاب منير ، فأنزل هذه الآية ، وجعل المدار فى الفضل على التقوى ، وعلم أن أمما وأمما سيجعلون أمم الاسلام تبع أناس بأحوال خاصة ، ولا يجعلون المدار على صلاحيتهم للحكم ، فقال إنما أنزلت هذه الآية ، لأنى أخبر بواطن طباعكم ، ومن بواطنها انها تريد الاثرة والرفعة ، واستعباد الناس باسم النسب لا بالتقوى ، فجعلت التقوى هى الأصل لا فى التفضل على الناس ، والحسيب النسيب قد يكون جاهلا أو فاسقا ، فيفضل الناس ويتخذهم خولا ، ولذلك فصل رسولى لكم ذلك بأن أمر بلالا أن يؤذن فى الكعبة بحضور أشراف قريش تطبيقا على معنى الآية ، فذكر خبير هنا اتضح فى أيامنا هذه ، لأن بواطن الأمم لم تكن معروفة قبل وجودها ، والله يعلمها قبل خلق العالم فأنزل هذه الآية ، وهذا من محاسن أسماء الله الحسنى ، والسرّ كل السر فى تلك الأسماء وهى أسماء الله وهذا هو حسنها حسنها هو جمال العلوم وجمال الوجود ، فجمال العلوم هنا ظهر فى الخبرة المأخوذة من معنى خبير ، لأن اختبارنا لتاريخ أمم الاسلام عرّفنا أن هذا المهدى الذى جاء به الحديث المتقدّم هو السفاح ، والسفاح قد تقدم تاريخه وكفى بلفظه دليلا .

فقال صديقى : ولكن ذلك سيكون يوم القيامة . فقلت : هذا الحديث ينطبق عليه فان الرايات السود التى جاءت من قبل خراسان هى التى كانت مع أبى مسلم الخراسانى ، وهو الذى قام بها من خراسان لنصرة بنى العباس ، وقد عرفت تاريخه فيما تقدم فى نفس السورة ، فهو تاريخ ملطخ بالدماء ، فقد قتل من المسلمين على ما مرّ بك ٦٠٠ ألف مسلم غدرا بأمر ابراهيم الامام ، وهو أخو السفاح ، إذن هذه المهدوية بنيت على سفك الدماء . فقال : وما المانع من أن يكون المهدى يخرج فى آخر الزمان ، وتقوم راياته السود من خراسان فقلت : إذن يكون معنى هذا اننا نعيش بلا عقول ، القرينة ظاهرة واضحة ، إن تلك الأحاديث جاءت لأجل هؤلاء ، ولماذا لا يأتى المهدى فى آخر الزمان إلا من نفس هذا المكان وتكون راياته سودا ؟ ثم ما هذا المهدى الذى يأتى بالسيف ؟ .

الله أكبر : إن العلوم كلها كفروع شجرة واحدة ، فدراسة الحديث من غير مراعاة العلوم الأخرى معناه

الجهل

الجهل والغفلة ، وعدم الفطنة والموت . فقال : وما تقول فى قول الشارح : انّ اسمه محمد بن عبد الله ، سلمنا أن الجرح هنا مقدم على التعديل ، وأن التاريخ أيد ذلك ولكن لم ذكر أن اسمه كذلك ؟ فقلت : بينما كان العباسيون تخفق راياتهم السود فى خراسان كما تقدّم آنفا ، وكان هذا الحديث ينشر بين المسلمين كانت تنشر أحاديث أخرى مثل حديث : « يخرج رجل من بيتى اسمه على اسمى واسم أبيه على اسم أبى يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما » .

وعبد الله هذا من ذرّية الحسن ، وابنه هو النفس الزكية المتقدّم فى تفسير هذه السورة ، وهو الذى قتله المنصور فيما بعد ، وقد كانت له البيعة الصحيحة ، وأفتى به أبو حنيفة ومالك ، فاضطهدهما المنصور .

هذا معنى كلام الشارح ، وحرام علىّ أن أعرف هذا ولا أبينه للمسلمين بعدنا ، لأن عزل التاريخ و بقية العلوم عن القرآن والحديث أضرّ أشدّ الضرر بأمتنا الاسلامية العزيزة علىّ ، وهى التى قال الله فيها : «كنتم خير أمّة أخرجت للناس» . فقال : لقد ظهر سرّ اسم الخبير فى هذه الآية ، وظهر اشراق نور اسم من أسماء الله فى علم سياسة الأمم الاسلامية ، فهل تسمح بقول تلقيه مختصرا فيما تؤمله لأمم الاسلام من أمثال هذا المقال ؟ فقلت : ان أرجى ما أرجوه لأمم الاسلام انهم بقراءة أمثال هذا التفسير سيكون فيهم محققون عظماء حكماء ، لايشق لهم غبار ، ذلك انه قد اتضح الآن أن دين الاسلام ليس هو ذلك الدين الذى يعيش على الألفاظ و يعلق عليها أهمية الحياة وحدها . كلا . إن هذا التفسير وما كتبته قبله قد كشف الستار عن هذه الناحية ، وقد فهم المسلمون فعلا وعملوا ، ودفنت الجهالة فى قبرها ، وولد فى الاسلام جيل جديد فعلا ، بل المسلمون كلهم تأثروا بالفكرة ، فلا رجعة للجهالة بعد اليوم ، وأما اليوم سعيد بأبناء بلاد الاسلام .

والآن أقول ﴿كلمتين اثنتين﴾ بشارة لشبان المسلمين : الكلمة الأولى ما كتبته فى ﴿سورة البقرة﴾ من نبأ لم أوضحه إذ ذاك ، ولكنى أوضحه الآن : وذلك أن ثلاثة من الشبان المصريين تلاميذى بالمدرسة الخديوية توجهوا إلى فرنسا ليتعلموا علم الحقوق ، هناك كفلهم وراقبهم الاستاذ (لمبير) . ذلك ان دانلوب (الذى كان أيام احتلال الانجليز مصر قابضا بيد من حديد على التعليم بها ، منع الشبان فى التعليم الثانوى من كل مايرقى أفكارهم) لم يسر من اعتراض (لمبير) الفرنسى المذكور على التعليم الثانوى لقصوره وتقصيره ، فليس يعدّ التلاميذ لدراسة الحقوق التى كان يرأسها الفرنسى المذكور بمصر دراسة صحيحة ، فلذلك رفته من الوظيفة ، فرجع إلى فرنسا ، وصار يستقبل تلاميذ المصريين و يعطف عليهم .

فلما رجع هؤلاء التلاميذ زارونى وأخبرنى واحد منهم قائلا : اننا نحن الثلاثة كنا نجمع الأزهار من الحديقة ، فدعانا الاستاذ (لمبير) وقال : لقد لاحظت فيكم أمرا لم أره فى اخوانكم المصريين ، ذلك انكم تحبون الزهر ، فما السبب ؟ قال : فأجبنا اننا كنا سنة ١٩٠٧ م نتعلم اللغة العربية والمعلم الشيخ طنطاوى جوهرى ، وكان فى دروس الانشاء يحببنا فى الطبيعة ، ويجعل نفوسنا فى شدة الشوق إليها . فقال : أفى مصر هذا ؟ فقالوا نعم . فقال : إذا وجد فى مصر رجل مثل هذا فلماذا جئتم فرنسا ؟ ليفتح كلية ، وليعلم هو وأمثاله فى نفس مصر فانها ترتقى سريعا .

فلما سمعت هذا من أحد الثلاثة لم يتصوّره عقلى ، فنظرت إلى الآخرين بدون أن أتكلم ، فكان جوابهما : ان الكلام كان بحضورنا : هذه هى كلمتى الأولى .

كلمتى الثانية

سترى أيها الأخ الذكىّ فى أوّل ﴿سورة الحديد﴾ عند معنى : « سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ، ماهو رأى (ستانلى هول) وهو أكبر علماء النفس فى أمريكا ورئيس إحدى جامعاتها

وملخص كتابه فى ذلك أن شروط النجاح ثمانية أشياء ، ومن هذه الثمانية حب الطبيعة ، وقال : يجب على الناس أن يكثروا من المشى فى الحقول لرؤية أحسن المناظر ، ثم قال : وخير الوطنية ما كانت نابتة من الحقول ومنها ترقية العواطف ، ومنها الصحة ، ومنها كشف مافينا من القوى الكامنة ، ففى كل منا قوّة كامنة ، وهذه لابدّ من استخراجها ، واظهار مافيها من العجائب ، ولاجرم أن قرّاء هذا التفسير وأمثاله سيحبون الطبيعة حبا جما ، وسيكون فيهم حكماء لا نظير لهم فى الأمم لأنهم فى حال حبهم الطبيعة يؤدّون درسا دينيا ، فههنا اتحد الدين والعقل ، وسيزول الدجل والتلبيس من أمم الاسلام بسرّ اسمه الخبير الذى ظهر فى هذا المقام وسينبغ فى الاسلام خبراء بالعلوم بإشراق هذا الاسم ، وتظهر محاسن الوجود المقتبسة من حسن أسماء الله ، واليها الاشارة بآية : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون * وممن خلقنا أمة يهدون بالحق و به يعدلون » وهذه الأمة هى الأمة الاسلامية كما تقدّم فى تفسيرها فما المناسبة بين ذكر الأسماء الحسنى و بين كون الأمة الاسلامية أمة تهدى بالحق و به تعدل ؟ لولا أن جمال أسماء الله الحسنى الذى أشرق اليوم فعلا على أمم الاسلام قد ابتدأ يكشف لهم الحقائق التى كانت مستورة ، وقد ظهرت لهم نفس العجائب الإلهية فى المخلوقات ، وصارت أهمّ مافى دين الاسلام ، وهذا هو الوعد الذى وعده الله ، فقال : « ليظهره على الدين كله » وقال : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » .

هذه هى الهداية المستقاة من أسماء الله الحسنى ، ومن محاسن المخلوقات المشرقات التى يراها الناس صباحا ومساء وكانوا عنها غافلين ، إن الله تجلى للناس اليوم بالعرفان ، وذلك كله سر قوله : « إن الله عليم خبير » والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الاربعاء ٢٦ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية : الساعة الثانية بعد الظهر .

بهجة هذا المقال

وحكم فيها وصحة وجمال

فى يوم ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٠ هـ بعد العصر حضر صاحبى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير فقال : لقد كنت أراك أمس وأنت تكتب هذه المقالة تتقد حماسة ، فاذا خطر لك بعد ذلك فحدّثنى به ؟ فقلت يا أخى كأنك تعلم الغيب ، انى بعد أن انتهيت من كتابة المقالة السابقة انتحيت جانبا وخلعت ملابسى ساترا العورة ، جالسا فى الشمس ، عملا بما كتبت ، واستجلابا للصحة ، إذ تقدّم فى أوّل ﴿ سورة يونس ﴾ عند آية : « هو الذى جعل الشمس ضياء » مقال لبعض الأطباء على الشمس من حيث إفادتها الصحة إذا وقعت أشعتها على نفس الجسم بشروط خاصة ، فها أنا ذا أمس عملت بما علمت كما فعلت مرارا ، ولم أكد لأجلس فيها وأضواء الشمس تحيط بجسمى حتى أخذت أفكر فى هذا الانسان المسكين المحبوس ، هذا الانسان الذى قتلته العادات ، اكتسى بالملابس ، ترفا وتنعما وتجملا ، فأصبحت الملابس حملا ثقيلا ، وذلا و بيلا ، وشرّا مستطيرا ، وأخذت أقول : يا ألله ، يارب السماء ، ياحكم ، ياعدل ، ياحليم ، أنا أستعيذ بك من الذل ، ومن الجهل ، ومن سوء المنقلب ، ياربّاه قرأنا أسماء الله الحسنى فظننا أن اللفظ هو المقصود ، فأخذ علماء منا يحسبونها بالجمل ، وأخذوا يتلونها لقضاء الحاجات ، وألف فيها البونى [شمس المعارف الكبرى] كأن هذه الأسماء نزلت من السماء لأجل السحر ، لا لأجل ارتقاء الأمم ﴿ و بعبارة ألطف ﴾ لأجل قضاء الحوائج ، وقرأنا القرآن فاكتفينا بالقشور ، ونبذنا الحقائق ، ونسينا انه يجعل الفضل للتقوى لا للنسب ، فوقعنا فى ذل وحيرة ، وجهل مشين ، حبس النوع الانسانى فى عاداته من حيث الملابس والأغذية ، وحبس المسلمون فى اعتقادات أذلتهم دهورا ودهورا .

تشابهت الأمم في أحوالها

هاهي ذه الانجليز فى الهند اليوم فى أثناء كتابة هذه المقالة تذيق الوطنيين العذاب لامتناعهم عن شراء الملابس ، لماذا ؟ لأن عمالهم يصنعونها و يبيعونها لهؤلاء ، جهل والله يارب هـذا الانسان المجهول ، صنع فريق من الانسان الملابس ، لماذا ؟ ليجعلها ترفا وتنعما لفريق آخر ، ليعيش من كدّ يده ، تيقظ هـذا الفريق اليوم ، فقال : أيها الأخ : أنا لا ألبس ، لأن هذه الملابس سجون ، وذل لاعزّ ، لأن العلم اليوم يحدّثنا أن هذه الملابس ليست ضرورية ، فقليلها يغنى ، بل تعريض الجسم للشمس يزيده قوّة ومتانة فنحن كنا جاهلين ، فيقول الفريق الأوّل : لابدّ أن تلبس ، وها أناذا أضربك بقنابلى ، وعسى أن أزيد هـذا المقام بيانا فى ﴿سورة الممتحنة﴾ عند قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة » وأن نبين تحريم شراء البضائع التى يصنعها من يؤذى المسلمين من الدول الحاضرة وأسأل الله التوفيق لذلك .

أفّ لهذه الانسانية العمياء ، ومثـل هذه الملابس ينطبق على عكوف المسلمين على الدراسة اللفظية ، فاكتفوا باللفظ ونسوا المعنى ، نسوا جمال النجوم ، جمال البحار ، جمال الشجر ، جمال الزهر والحقل والغابات .

فليقف المسلم فى الحقل ، وليقف فى الجبل ، وليقف فى ظلام الليل ينظر النجوم ، فليقف وليقف ، فهناك هناك تجلى ، ثم تجلى ، ثم تتجلى له معانى هـذا الوجود ، يقف أمام عجائب ربه فى هذه الدنيا حتى يستعدّ للقائه بعد الموت ، فهناك تبرز له معانى كتاب الله ، هناك تبرز له معانى أسماء الله الحسنى ، أى يعرف السرّ فى وصفها بأنها حسنى ، وكيف كانت حسنى ؟ وكيف يصفها الله بالحسنى ، لماذا ولماذا ؟ إذن يكون المسلم فى فهمه إذ ذاك بعقله مثـله كمثل جسمى وهو عار مقابل لأضواء الشمس مباشرة ، فتـكون صحته أتم ، وتقتل الحيوانات الذرّية المهلكة للانسان ، وتعتدل دورة الدم ، إن مثل المسلم فى تلك الأحوال السابقة من حيث العلم والمعرفة كمثل جسمى والشمس تشرق عليه .

سيتعلم المسلمون بعـدنا من نفس عجائب صنع ربهـم ، فيعطيهم من العلم مالا يحصر على حسب استعداد كل امرئ ، و بهذا وحده تزول تلك التمويهات القديمة ، والرؤساء الخادعون ، والدعاوى الطويلة العريضة ، وتـكون الدراسة موجهة للحقائق لا لمجرّد الألفاظ ، ويخرج النوع الانسانى من الغرام بأصنام مشخصة مزينة ومن الغرام بأشخاص خاوية نفوسهم إلا من الايهام والدجل ، ومن الاكتفاء بالـكتب المصنفة .

إن الناس يخضعون لما هو جميـل ، فأصنام قدماء المصريين ، وعجولهم المحنطة ، وملوكهـم ، كل هؤلاء مزينون خير زينة ، وعلى منوال هؤلاء فى التزيين والتضليل الأمم التى تفتك بغيرها فى زماننا الحاضر للفتح والاستعمار ، وقولهـم : جئنا لاسعادكم ، فهؤلاء أصنام خاوية كأصنام قـدماء المصريين ، وهكذا أكثر من ادّعوا المهدوية فى الاسلام ، وكثير من الشيوخ الدجالين ، وعلى شاكلتهم العادات المضروبة فى نوع الانسان كالتباهى بالملابس التى بها استعبدت بلادنا المصرية بتدخل الأجنبى .

كل ذلك سـيزول من بلاد الاسلام حينما يدرسون نفس الوجود ، و يفهمون الحسن الحقيقى فيـه ، ويدركون سرّ وصف أسماء الله بالحسنى ، فالحسن الذى يجب فهمه لاسعاد الانسانية حسن هذه الأرض ، وهذه السماء ، هـذا هو انكشاف الغطاء عن أعين المسلمين ، وقد آن أوانه ، وظلّ ابانه : من الآن ، من الآن ، من الآن ، فليبشر الأذلاء بالعزّ .

كل ذلك أيها الأخ حضر فى نفسى عند ما جلست فى الشمس ، لأنى لم أجد فرقا بين حبس نعمة ضوء

الشمس عن جسمى وبين حبس العلم عن العقل بالوقوف عند الألفاظ ، أو بأوامر رئيس يقول : « العلم حجاب » أو بالاكتفاء بالكتب المصنفة إلى آخر ماتقدم هنا .

هذه هى الخطرات التى خطرت لى أمس وجسمى يتلقى أشعة شمس الشتاء ، وأنا معتقد فى نفس الوقت أن هذه من نعمة العلم ، وانى أؤدّى واجبا ، لأن المؤلف اذا لم يعمل بما يكتبه لم يؤثر التأثير المطلوب ، فأنا والحمد لله فى مطعمى ومشربى أجدّ فى أن أعمل بأقوال الأطباء ، وهكذا وجدت فى لسانى ميلا إلى التكلم فيما لايعنى فأنا أجدّ بقية حياتى فى حفظه بقدر امكانى بعد ماسطرت الكلام على آفات اللسان قريبا ، وليس علىّ أن أنال كل مطلوبى مهما كبرت سنى ، ولكن نفس الاجتهاد نعمة كبرى ، وان لم ينل الانسان الغاية .

هذه حالى الآن أنشرها ذكرى لمن بعدنا . فقال : إن هذا حسن ونشره يفيد بعض الأذكياء . فقلت : أنا موقن بذلك ، وعسى أن يزيد هذا المقام كشفا فى أوّل ﴿ سورة الحديد ﴾ وفى آخر ﴿ سورة الحشر ﴾ والى هنا تمّ الكلام على ﴿ سورة الحجرات ﴾ والحمد لله رب العالمين .

(تمّ بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثانى والعشرون من كتاب « الجواهر » فى تفسير القرآن الكريم ، ويليه الجزء الثالث والعشرون ، وأوّله تفسير سورة : ق)



(الخطأ والصواب)

غلبنا التصحيح ففاتنا سقط وأشياء أخرى يدركها القارئ بلاتنبيه . وهذا جدول مما عثرنا عليه من ذلك وهاهوذا :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥	٨	اغترف	اعترف
٧	٤	الغربية	والغربية
١٦	٦	والزموا	الزموا
٢٠	٣	حزنه	حزبه
٢٠	٨	شفيع	شفيعا
٣٥	٢٧	المتروكين	متروكات
٣٦	١	تهان	تهاون
٣٦	٢٣	يتوضـــؤن	يتوضـــآن
		ويصلون	ويصليان
٣٨	١٩	أقاموا بها	قاموا بها
٤١	١٢	دائرة لعلم	دائرة العلم
٤٦	٤	الانساس	الانسان
٤٦	٢٥	لحرب	حرب
٤٧	٦	مانـكاد	ماتـكاد
٤٨	١٦	ضار	ضارا
٥٠	١٣	ذى	ذوى
٥٧	٢	لميفاوية	لجفاوية
٦٨	٣٢	التىأقسم	مما أقسم
٧٠	١٧	منه القرطم	من القرطم
٧٣	٩	ونفس هـذا	ونفس هـذه
		السائل	المسائل
٨٧	٢٢	المرسلين	المسلمين
١٣٧	٣٣	موجود	وجود
١٥١	٦	وقتلوا رحاهم	وقطعوا رحمهم
١٥٢	٥	أن يباعوا	أن ييايسوا
١٦٠	٢٤	الرابعة عشر	الرابعة عشرة
١٧٤	١	وانه	وانهم
١٧٧	٤	وفقنا	وقفنا
١٨١	٢٣	الآتى	الحالى
١٨٣	١٣	٤٩٢ ب م	١٤٩٢ ب م
١٨٣	٢٩	خامدة	خالدة
١٨٨	٥	وأكثرهم لم يعرفها	أوأكثرهم لم يعرفها
١٨٩	٢٨	والممالك	وللممالك فلا
١٨٩	٣١	ونسلنا	ونسبنا
١٩٠	٢٧	فلم يستنسخ	فلم يستفتح
١٩٣	٢٥	تعيش	نعيش
١٩٦	٤	السياح	السياح على قراءته
١٩٨	١٠	ومحدنا	وجدنا
٢١٦	٤	طليق	طلق
٢١٦	٢٢	التفاصيح	التفاصح
٢٢٠	١	على الكافر	على الكافرين
٢٢٤	١٩	رىء	رئى
٢٢٤	٢٢	فهذا	فما هذا
٢٣٦	٤	روسو	وروسو
٢٣٦	١٩	ورزر	وزر
٢٣٧	٥	ففد	فقد
٢٣٨	٩	اهم	انهم

(تمت)

فهـــرس

الجزء الثانى والعشرين

من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صفحة

صفحة

عبد الكريم ليس له حقّ فى ذلك ، فهذا موت لاحياة » . نقول : وهذا الموت بعده الحياة ويرتقى المسلمون . اللطائف العامة فى السورة وهى أربع لطائف .

٢٤ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » : كما أن الارض الطيبة هى التى يخرج نباتها سهلا بلانصب ولاتعب ، وثمرات زرعها تنفع كل ساكن فى الارض ، هكذا القلوب الشريفة كقلبه صلى الله عليه وسلم ، فهو يقبل العلم و يعلم النفوس الضعيفة الجاهلة ، وصفاء نفسه يجعله قابلا للكشف العلمى ، وهوالفتح على الحقيقة ، ويتفرّع على هذا الفتح العلمى كل فتح ظاهرى كفتح مكة وصلح الحديبية أوأى فتح اسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة ، وهذا الفتح يتقدّمه صفاء النفس لقبوله ، ويعقبه تمام النعمة ، وانتشار النبوّة فى الأرض ، وعلوّ هذا الدين على غيره ، فهذه أربعة أمور هى المذكورة فى الآية . آثارالفتح النبوى فى زماننا ، و بيان أن المسلمين ملؤا الأرض نورا ؟ ثم رجعوا فانزووا وذلوا ، ولكن جيلنا الحاضر سيرجع المجد على يديه ، ودليلنا ماقاله العالم الأمريكى صاحب كتاب « حاضرالعالم الاسلامى » الذى يقول : « إن أوروبا فى الخمسين سنة الثانية من القرن التاسع عشر قد أخذت تخنق المسلمين خنقا وتحتلّ ديارهم ، وهذا العمل أحدث ردّ فعل و بغضا شديدا ، وأخذ المسلمون يقرءون علوم أوروبا ، وحصل التفاعل الشديد ، وليس ارتقاء المسلمين الحديث مجرّد محاكاة للغرب . كلا . بل نفس الأمم الاسلامية لها من نفسها آراء وحكمة ، وبهذا وذاك حصل انقلاب فى آراء المسلمين بعيد المدى ، من ذلك آراء خيرالدين باشا الذى ألف كتابا لاصلاح تونس سنة ١٨٦٠ وانتشر ذلك الكتاب ثم مات المؤلف واحتلت فرنسا تونس . قال : وقد أثر كتابه تأثيرا حسنا حتى أصبح كتابا مقدّسا عند أهل تونس والجزائر ، وقد جعل محور الكلام فيه على أن العدل والحرّية هما أسّ تقدّم أوروبا . ثم قال صاحب « حاضرالعالم الاسلامى » مانصه : « إن سيطرة أوروبا على الشرق مبنية على أساس واهٍ ضعيف ، فليس الغربى محبوبا عند الشرق ، والاحترام راجع للخوف لا للمحبة ، ومما يدل على ضعف السيطرة الاوروبية فى الشرق حادثة الحرب الروسية اليابانية ، فاليابان لما غلبت الروس عرف الشرقيون ضعف أوروبا ، ففرح أهل الشرق جيعا وأيقنوا أن أوروبا خارجة كلها من الشرق ، وساعد على استيقاظ الشرقيين زيادة اعتداء أوروبا اعتداء وحشيا بربريا بجشع ونهم » . وقال أرمينوس : « اعتداء الغرب على الشرق جعل الأخير يزداد اتحادا » .

٣٠ ثم قال مؤلف « حاضرالعالم الاسلامى » : « إن الخلافة فى صدرالاسلام كانت منيعة الجوانب عظيمة القدر ، وبعد ذلك صارت استبدادية وأخذ المصلحون يحاربونها ليرجعوها إلى الشورى ، ثم ذهبت الحرية الدينية فى خبر كان ، ولكن سيرة الخلفاء الراشدين باقية فى الأذهان ، والعرب فى شبه جزيرتهم هم الذين حافظوا على حرّيتهم إلى الآن ، وأقوال أبى بكر وعمر فى الحرّية لاتزال تسمع فى كل آن ، إذن ليس الاسلام سبب تضعضع المسلمين . كلا . بل السبب كل السبب هو استبداد الأمراء وتأويل الآيات القرآنية بما يوافق أهواءهم ، فنبذوا الحرّية والشورى » .

٣١ « إن اليقظة الاسلامية اليوم تشمل الاصلاح الدينى والسياسى لتخلص المسلمين من أمرائهم الظلمة ، ولكن جاء تيارظلم أوروبا فرقف فى وجه هؤلاء المصلحين وساعد الظلمة من ملوك المسلمين على اذلالهم وهذا زاد بغض المسلمين لأوروبا ، إن بعض المصلحين كمحمد على باشا بمصر والسلطان العثمانى محمود الثانى فى تركيا أرادا ارتقاء بلادهم ، ولكنهم أبقوا السلطة فى أيديهم فأصلحوا الظواهر ولم يبنوا على

صفحة

الأساس ، فإن رجال الدولة ملزمون بالطاعة العمياء ، وهناك أحزاب قامت حوة أحسن من سابقيهم ، اقتبست آراء أوروبا بمطالعة المجلات ونحوها كالحركة الفكرية فى تركيا فى آخر القرن التاسع عشر ، فأثمرت ثمرا يانعا ، ولكن الاصلاح الظاهرى لأولئك الملوك المستبدّين لم يفعل شيئا » .

٣٣ مسامرة النجوم ، فى عجائب العلوم : بعد ما كتب المؤلف ماتقدم تبدّى له شخص خيالى أخذ يحدّثه ويقول له : أنت مثلت الآيات السابقة بشجرة لها أغصان ، فأصلها هوكشف العلوم ، وأغصانها ثلاثة : صفاء النفس المعبر عنه بالمغفرة والهداية والنصر ، فههنا قوّة جسمية يشيرلها النصر ، وقوّة أدبية تشير لها الهداية ، وكشف نفسى تشير له المغفرة . ثم قال الخيال : أنا جئت لك من الثريا ، لأنك دائما تنظر فى النجوم لأتمم لك مقصود الآية ، ولابدّ من تطبيقها على الأمم الحاضرة وعلى الأمم الاسلامية السابقة ، أما التطبيق الأوّل فهو أن ملخص تعاليم أوروبا يرجع إلى ما سيأتى ، إن التعليم له دعائم ثلاث : دعامة الأدب ، ودعامة الجسم ، ودعامة العقل . فاذا علمنا الصبى صناعة أوعلما ولم نعلمه طهارة الضمير فاننا نكون قد أعطيناه سلاحا به يضرّ مجتمعنا ، واذا برع فى العلوم وكان مهذبا ولكننا لم نقوّ جسمه فلانفع فيه ، فالقوّة البدنية يشارلها بالنصر فى الآية ، والقوّة العلمية يشارلها بانكشاف الحقائق وهى الفتح ، والقوّة الأدبية يشارلها بالهداية . أما التطبيق الثانى فهو ماذكره ابن خلدون عن أحوال الأمم السابقة ، ذلك أن الأمة اذا تقلص الدين منها ذهبت وراءه الشفقة والحنان فالعدل فزوال الملك ، فههنا أصل هو الدين وفروعه تبع له ، والسياسة نتيجة ذلك كله ، فزوال الدين مبدأ ، فالأخلاق فسياسة الدولة ، فالدين ومعه العلم هو القوّة العلمية ، والرحمة ومعها الأدب هى القوّة الأدبية فأما القوّة الجسمية فلها شأن آخر مذكور هناك فى ﴿ سورة النمل ﴾ مثل الحديث المفيد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان لايخاف علينا إلامن كثرة الغنائم والترف والمفيد أيضا تصريح النبوّة بأن المسلمين سيغرقون فى الترف وهو شرّ لهم ، وذلك هو ضعف الأبدان المنافى للنصر ، إذن المعانى المذكورة فى هذه الآية طبقت على الأمم الحاضرة تعلما وعلى الأمم السابقة اضمحلالا ، أليس هذا من معجزات القرآن !

٣٥ ﴿ تذكرة ﴾ إن حركات الصلاة ، وأعمال الحج ، وكذا الصوم كلها مقوّيات للأبدان ، وهذه إحدى الدعائم ، وبقى العلم والأدب وهما واضحان فى أقوال الصلاة ، ويلحق بما تقدّم فى تقوية الجسم السبق والرمى ، وهما متروكان فى الاسلام الآن .

مسامرتان فيهما ذكر فتاة ألمانية تزوّجت مصريا ، فلما رأت أباه وأمه يصليان دهشت وأسلمت ، لأنها عرفت قيمة هذه الحركات ، وسيدة أخرى رأت تاجرا فى المرج يتوضأ ويصلى ، وقد أخبرها بأن هذا يتكرّر خمس مرات فى اليوم . فقالت : إذن لا أحد منكم يمرض .

٣٦ نظرة المؤلف فى أمم الاسلام المستقبلة . يقول : إن أمم الاسلام المستقبلة ستكون صلاتهم غير صلاة المسلمين الحاليين ، لأنهم سيقرءون مثل هذا ويعرفون سرّ هذه الأعمال فتكون صلاتهم بعلم فيرون فى الصلاة صحة كما تقدم ، وهداية للأخلاق فى : « اهدنا الصراط » الخ وتحريضا على العلم فى نحو : « الحمد لله رب العالمين » .

وههنا مسامرة ثالثة لازدياد شرح أن الفتح هو الفتح العلمى ، وذلك أن السيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكره قدّم الفتح العلمى كما فى الآية على الفتح العملى . ذلك أن المسلمين كانوا حكام الهند ولما دخل الانجليز الهند انتشر العلم فيها وغض الطرف عنه المسلمون وحقروه فزال ملكهم فى القرن الثامن عشر ، وكلما ثاروا صودروا فى أنفسهم وأموالهم ، والهندوس هم الذين كانوا يتعلمون ، فرأى

السيد أحمد خان أن التعليم مطلوب ، فأسس المدرسة المذكورة وذلك سنة ١٨٥٦ م وجعل لغتها الانجليزية لأن الاوردية لا تصلح لذلك ، ورضى بالانتقاد الشديد على اختياره اللغة الانجليزية ، ولكن المعترضون فيما بعد سيعلمون أنه محق ، فالمدار على الغاية لا على المبدأ ، وجعل المدرسة أوّلا فى أكواخ والمال قليل ، وانتفع بمواهب علماء أوروبا مثل علماء جامعتى كمبردج وأكسفورد ، وكان معه ابنه السيد محمود حين زار تلك الجامعات ، وجعل المدار على الخلق والتربية الشخصية ، فلم يجد مفرّا من جعل التلاميذ يتعلمون تعليما داخليا ليتمّ تقويمهم ، وهكذا جعل فيها التمارين الرياضية ، إذن قامت الكلية بالتربية البدنية والخلقية والعلمية وهى الأركان الثلاثة المتقدمة فى الآيات جسمية وخلقية وعلمية يد تعمل ، وقلب يحب ، وعقل يفكر ، لولا كلية «عليكره» لم يكن للمسلمين صوت الآن ، لولاها لكانوا الآن خدما وعبيدا ، وقد قالت الصحف الفرنجية عن مؤسس الكلية : انه نبىّ التربية ، وتوفى سنة ١٨٩٨ وقد أنشأها لتنتشر الثقافة منها فى العالم الاسلامى كله . إن كلية (عليكره) تحتاج إلى ٦٠٠ ألف جنيه ، وقد وصلت الآن إلى ٢٠٠ ألف جنيه بتدبير السيد أحمد خان ابن السيد محمود ، ثم قال الخطيب : ليرحل المسلم المصرى فليتعلم فيها ، لأن تعليمها لا نظير له ، والأزهر لم يصل إليه الآن .

٤٢ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين الخ ان عصر الصحابة كانت السكينة فيه بأنوار النبوّة ، أما عصرنا فالعامة وصغار العلماء يطمئنون بما يرون من أن المسلمين مع ضعفهم وانتشارهم فى الأرض محفوظون ، فأما الحكماء فانهم يزيدهم سكينة فوق ذلك مايعرفون من عجائب الصنعة الإلهية . «مسامرة» جاء فيها أن علماء الدين فى زماننا كعلماء الطب ، فكما أن عالم الدين اكتفى بتعليم العامة الوضوء والصلاة وماشابهها من الامور العلمية ، ولم يذكرهم بجمال هذا العالم وعجائبه ، هكذا عالم الطب لايعنى إلا بالمداواة ، أما حفظ الصحة المقابل لمعرفة عجائب العالم فهو متروك عنده ، فهذه أمم تعيش كما يعيش النمل ، عمل ولا علم ، إن دين الاسلام علم وعمل ، فليدرس المسلم الدنيا فانه أوّلا يراها عابسة مملوءة من الشرور ، ولكن بعد التروّى يرى هذه الشرور مفاتيح النعيم ، ومستحيل أن يحقق هذا غير كبار المفكرين ، مثال ذلك ماستراه من الدماميل التى ماهى إلا قلاع تحتها الجرائيم القتالة للأعداء الداخلة فى الجسم من الذرّات المهلكة من الخارج ، فالدماميل أمراض ولكنها جعلت نعمة لتخليص الجسم من الأذى ، إن الأسد جندى لاحداث الحياة لشبله ولاحداث الهلاك لفريسته فهذا مثال واحد عرّفنا جنود الله المهلكة ، والجنود المعدّات لاحداث الحياة .

٤٤ كما أن جسم الانسان يهلك بالعفونات ولكن أمثال الدماميل والحمى تخلصه ، هكذا الأمة اذا فسدت يسلط الله عليها الأعداء ، فهؤلاء الأعداء كالدماميل ظاهرهم ضرّ وباطنهم نفع .

خطاب المؤلف لأمم الاسلام يقول : إن الله وعدنا أنه يرينا الآيات فى الأنفس والآفاق وقد أنجز وعده ، فى زماننا لأننا عرفنا مامعنى منتقم وجبار ، فاذا كان منتقما بأمثال الحمى والدماميل وحلول الأعداء الديار فهو انتقام ظاهرا رحمة باطنا . وهنا ذكر المؤلف أن طبيبا مصريا مشهورا يداوى الناس ولكنه هو ترك نفسه فلم يبال بصحتها ، فالمؤلف نصحه بأن يقلع عن ذلك ، فليحافظ على صحته ، فسمع النصيحة وانتفع ، وهذه الحادثة تنطبق على حال المسلمين ، فهم بالفقه مولعون وغفلوا عن ترقية العقول كما قد يغفل الطبيب عن صحة جسمه وهو مكب على مداواة الناس . هذا بيان أنواع الجنود ، هى حسية ومعنوية ، وكل منهما إما للاهلاك واما لاحداث الحياة .

صفحة

النجوم والشموس .

٧٤ ملخص ماتقدم فى ستة جل ، غاندى يصف رحلته فى المياه المصرية ، وهذا المقال مناسب لهذا المقال من حيث انه ذكر الشدّة واللين ، والحب والخوف ، وقال : إن اللين ينفع فى كل حال ، وأن من استعمل اللين لا يكون عمله شريفا إلا اذا كان قويا لايخاف ، والمحبة لاتجتمع مع الخوف ، المحبة لاتبالى عند ماتعطى : المحبة تكافح العالم ثم تفوز وتفوز ، إن المحبة فى الانسان أقوى من الكهرباء فى الطبيعة من يكشف المحبة العامّة أقوى ممن يكشف الكهرباء ، ولاجرم أن الشدة واللين والحب والخوف من جنود الله المعنوية فى هذا المقام ، وههنا مقال ضاف يشرح : —

(١) معنى أن الحياة مطردة الوجدان مع انها محوطة بعوامل الهدم والهلاك ، وذلك أن الهدم ماهو إلا اصلاح لما فسد وارجاعه بحال أنفع للوجود من الحال السابقة ، إذن هذا العالم محوط بالحب ، وما الهدم إلا عملية لبقاء ذلك المحبوب بعد هدمه .

(٢) ومامعنى أن الحب له السيادة فى العالم والعالم كله شقاء ، وأن ذلك الشقاء والقتل ماهو إلا تربية وترقية للأرواح فى الارض فما يظهر انه ضد الحب هو للحب .

(٣) ثم مامعنى أن ناموس المحبة يعطى سلاحا وطمأنينة ويفسر خفايا الطبيعة وهذا مفهوم مما سبق

٨٠ اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله الخ » وفيها أربع جواهر : الجوهرة الأولى فى آية : « ليظهره على الدين كله » وفيه مقال (لوثروب استودارد) الامريكى تكلم عن الرسالة المحمدية إذ قام بنشرها فى زماننا هذا السياح والتجار والحجاج وغيرهم كالطرق الدينية وأهمها جماعة السنوسية الذين يدخلون الوثنيين فى الديانة الاسلامية فى افريقية ، وقد قال أحد الانجليز : « إن الاسلام يفوز فوزا عظيما فى أواسط افريقيا ونوره ينسخ ظلام الوثنية ، والنصرانية أصبحت خرافة » . وقال مبشر بروتستنتى : « إن الاسلام يسير سيرا حثيثا لم يقف إلى اليوم ، النصارى يحلمون بفتح افريقيا فى نومهم والاسلام فتحها فى اليقظة ، عرب زنجبار من سنة ١٩٠٠ بشروا بالاسلام بلاد (نياسالانده) فأصبح بعد سنين معدودة فى كل قرية مسجد ومدرسة والانجليز لم يقدروا على صدّ هذه الدعوة ، وسيجتاز الاسلام زمبازى ويطبق جنوب افريقيا والقارّة كلها ، والاسلام ينسخ النصرانية كما ينسخ الوثنية ، فالذين تنصروا أيضا يسلمون ، بل النصرانية فى الحبشة ينسخها الاسلام فى هذا الزمان ، بل ظفر الاسلام فى الحبشة أعظم ظفر للاسلام ، والمسلمون المرتدّون قهرا فى الروسيا رجعوا إلى الاسلام .

٨٢ الكلام على آية أشدّاء على الكفار ، وأن هذه الشدة أحست بها أوروبا فى زماننا ، فقد جاء فى مقالة عنوانها « أوروبا وآسيا » أن انكلترا وان خرجت ظافرة من الحرب الكبرى كان هذا الظفر خيبة لها فقد ثار عليها الأفغان والهند ومصر ، ثم ان تركيا المضمحلة نهضت وطردت انكلترا وحلفاءها ، والصين تطلب البلاد المنسلخة منها ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ آسيا قائمة اليوم ضد أوروبا وقد أصبحت الروسيا معاونة لأهل آسيا بعد الحرب وقد كانت معادية لهم قبلها ، وأيضا يقول : ان انكلترا استفادت من بغض الروسيا لأهل آسيا ، فكانت الروسيا ترهب الصين والدولة العثمانية ، وانكلترا كانت تأخذ ثمرات ذلك ، فاحتلت ما أرادت احتلاله ، وإيطاليا أخذت طرابلس ، وفرنسا أخذت الجزائر وهكذا ، فلما أصبحت الروس بلشفية تنفس الشرق الصعداء وأصبح أمام انكلترا ومن معها وجها لوجه

٨٣ تحفز المسلمين لتلك الشدة المذكورة فى الآية ، وبيان الذى أوقد نار تلك الشدة وهو السيد جمال الدين

صفحة

١٢٨ فضل الله على الناس : يعتقد المؤلف أن عذاب الناس فى الأرض لم يقصد به التعذيب وهم محبوسون فيها و يعجب كيف يكون السجن بستانا وفيه أعمال لتهذيب المسجونين ، ولقد ألهم الله أهل اسبارطه أن يمرّنوا الاطفال على قبول التعذيب ، وألهم السودانيين الرضاء بالتعذيب أمام الغانيات .

١٢٩ الجوهرة الرابعة فى آية : كزرع أخرج شطأه الخ . يذكر المؤلف أن الله صدق وعده وأن هذا زمن ظهور المعجزات ويشكر ربه على ذلك ، لأنه ذكر فى أوائل هذا التفسير أن الفرنسيين انقضوا على سوريا ففتكوا بها ، وذكر فى آية : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا » الخ أن اليهود اتكلوا على شفاعة آبائهم فخاب ظنهم ، وأخرجوا من ديارهم ، وذلك جعل لرقينا نحن والله اعتبارلنا لاغير ، وأن هذا سرّ (أ ل م) الخ . يقول المؤلف هذا تقدم ، وهل كان يخطر لى أنى لا يتمّ طبعى للتفسير حتى أرى أن العراق قد صارت مستقلة ، وأن سوريا ستستقل حالا ، وأن ذلك سيكون فاتحة دور جديد فى الشرق الأدنى ، وأن أوروبا خاب ظنها .

١٣١ الفتح الاسلامى فى زماننا وآثار النبوّة المحمدية ، ثم زادت دهشة المؤلف من حضور شاب تركستانى من بلاد التركستان الصينية وقد أخبر الناس بمصر وفى الجرائد أن هذه الكتب كانت سبب فتح مدارس فى بلاد التركستان والصين وغيرها ، وأن هذه الأمم انقلب نظامها رأسا على عقب ، ومعنى هذا أن الاسلام انتشر انتشارا غريبا مدهشا ، وهذه كلها آثار : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » .

١٣٢ المؤلف يتخيل شبانا يأتون من التركستان والصين فى المراكب الهوائية يزورون أهل شمال افريقيا و يردّ هؤلاء الزيارة لهم ، و يعجب المؤلف أيضا من أن يكون هذا الزمان قد ظهر فيه مؤتمر اسلامى لم يكن له نظير ، وفيه ثمان لجان لحفظ كيان الأمم الاسلامية .

١٣٤ ﴿ سورة الحجرات ﴾ نص الآيات مشكلة .

١٣٥ القسم الأوّل من السورة تفسير البسملة ، وأن عادة الشعراء أن يبدءوا بالغزل ثم ينتقلوا للمدح ، ولكن براعة استهلال القرآن جاءت بذكر الرحمة والرحمة مشروحة فى ﴿ سورة الرحمن ﴾ والرحمة فى ﴿ سورة الفتح ﴾ أصولها انكشاف الحقائق ثم فتح البلدان ، والرحمة فى هذه السورة عملية وهى الفضائل التى تبلغ ١٢ كالأدب مع النبيّ صلى الله عليه وسلم والعمل الصالح واجتناب التجسس الخ وههنا مبحث واسع ، ملخصه أن مقتضى الرحمة أن لا يكون نقص فى الانسانية حتى يحتاج الانسان فى دفعه إلى الزواجر القرآنية ، وأجاب المؤلف على ذلك بأن هذا العالم كله ليس شيئا مذكورا ، وهل هو إلا حركات وتلك الحركات صارت أضواء ان كانت أقلّ وحجرا وحديدا وأرضا الخ ان كانت كثيرة ، إذن هذه الدنيا كلها وكواكبها كهرباء مضغوطة ، إذن هذا عالم أشبه بالعدم ، وما أشبه العدم فهو ناقص ، والله موجود ، وهو يريد أن يخلق روحا يكملها ، ووسيلة كمالها أن تتفاعل تفاعل الكهرباء السالبة والموجبة حتى يكون لها وجود مستقل ، أو شبه مستقل ، ومن تمام التفاعل العلم والحكمة والأنبياء والعلماء وهكذا .

١٣٨ جمال فى جمال : خيال المؤلف يرى أن العالم موسيقى ، و يبين ذلك بأن المادّة راجعة فعلا إلى أنوار كهربائية ، وهذه الأنوار فيها حركات وأنوار ، فالحركات موسيقى والأنوار جمال ، وضروب القسمين لاحدّ لأفرادها ، فلو تجلت لنا العوالم على هيئتها الأصلية لتمزّقت أرواحنا من جمال الصور المشتبكة الألوان وسماع الأغانى المدهشة ، فمن رحمة الله أن حجب هذا كله بالقتال والخصام ، وأنواع الذنوب ، وذميم الاخلاق لنشتغل بالخروج منها .

صفحة

صفحة

وبهذا يتجلى لنا هذا القرآن والا فكيف نرى أن ابن عمر لم يحفظ البقرة إلا فى ثمان سنين ومامعنى « ليدّبروا آياته » .

١٧١ آراء « جون راسكن » فى التعليم وأن المدار فيه على أن يكون مغريا للمتعلم أن يكون مكبا على العلم أما كثرة المعلومات فلاأهمية لها . ويقول غيره : « نحن لانتعاطى طعامنا كله أوّل النهار هكذا ليس التعليم خاصا بأوّل العمر ، الحياة كلها زمان للتعلم ، ولاسبيل لجعل الانسان عاشقا للعلم مدة الحياة إلا بتعليم المعلمين له ذلك » . إن حكماء الأمم الاسلامية بعدنا سيصلحون ما أفسده سوء التعليم لآبائنا ، وسيصرفون هذه الأمة عن هذه الذنوب والأخلاق الشائنة ، وسيقولون : إن ماوقع لآبائنا جعل نعمة لنا لنحترس مما وقعوا فيه ، واذا كانت الأمم المحيطة بالمسلمين قداتحدت أفلا يكون المسلمون أولى بهذا الاتحاد ، وعلامة هؤلاء المصلحين فى الاسلام أوّلا ان عددهم قليل كقلة عدد ملكات النحل ، ثانيا : هم يحبون خلاصة العلوم كلها فتتغذى نفوسهم بها كما تغذت ملكات النحل بعسل أبيض مخالف لغذاء رعايا هذه الملكة ، ثالثا : انهم مغرمون بجمال هذه الدنيا ، رابعا : ان الناس يميلون إلى تعاليمهم .

١٧٣ نور على نور فى أخلاق عصر النبوّة ، وفى الخلافة الاسلامية ، وفى فروع الدولة العباسية المنفصلة عنها وفى جميع الممالك الاسلامية من عصر النبوّة إلى الآن ، وفى هذا المقام مقالة المغيرة أمام رستم القائد الفارسى فى أثناء واقعة القادسية ، ومقالة عبادة بن الصامت للمقوقس صاحب مصر لما خوّفه بجموع الروم ، وأن المسلم ينال أحد أمرين : إما دخول الجنة بالقتل ، واما النصر فى الدنيا .

١٧٥ آراء خطيرة فى الخلافة : وهومقال للمؤلف ذكره فى « مجلة المعرفة » يقول فيه : « إن خلفاء المسلمين بعد العصر الأوّل لم يتبعوا الشورى ، والخلفاء الراشدون لم يجعلوها بالوراثة ، والمسلمون ليسوا سلعا يرثها الأبناء عن الآباء ، فيجب أن يجتمع الأمراء اليوم ، ويجعلوا واحدا منهم هوالخليفة ، وليكن جيشه أعظم ، وعلم أمته أوسع ، بشرط أن لا يكون لسلطة أجنبية عليه يد .

١٧٦ وهنا ذكر الولايات العشر المفرّعة عن الدولة العباسية لما أخذت فى الاضمحلال مثل البصرة وخوزستان وفارس والبحرين واليمامة وهكذا . ذكر استبداد الجند والخدم ، وكيف فعل جند المغاربة والأتراك بالمعتز سنة ٢٥٥ هجرية إذ أوقفوه فى الشمس وعذبوه ، ثم قتلوه قتلا شنيعا .

١٧٧ جدول الدول الاسلامية منذ ظهور الاسلام إلى الآن ، وهى نيف ومائة دولة ، وعدد رؤسائها ١٢٠٠ رئيس فيهم الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء والأتابكة والاخشيدية والخديوية والشرفاء والبابات والدايات ، ومنهم العرب والفرس والترك والشراكسة والأكراد والهنود والتتر والمغول والأفغان وغيرهم ومن عواصمهم المدينة والكوفة والشام و بغداد ومصر والقيروان وقرطبة والاستانة وصنعاء وعمان ودهلى وغيرها .

١٨٠ بهجة الجمال فى تاريخ الأمم الاسلامية وفى جواب اعتراض على المؤلف : يقول المعترض على المؤلف انك قد ظهرت فى هذا المقام بمظهر يجعل القارئ فى حيرة من دول متشاكسة ، وأحوال متعارضة ، مع ان آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » لاتتحمل ذلك ، وهذا خارج عما درج عليه المفسرون ؟ فأجاب المؤلف قائلا : أوّلا إن الانسانية بارزة من وسط الحيوانية الثائرة الشهوات ، وقد أرادت الاعتدال فى القوّة السبعية والبهيمية ، ثم ظهر فيها مصلحون أمثال (كونفوشيوس) المصلح الصينى فى القرون الأولى ، وقد ظهرت علومه مرتبة ترتيبا مدهشا منظما بحيث انه جعل تهذيب الفرد يتبعه نظام الأسرة يتبعها نظام الدولة فيكون العدل العام ، ونظام الفرد الذى هوالأساس مبنى على

صفحة

(تمت الفهرست)